دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 💅

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

المراهق 2





الاغهماك الأدبية الكاملة المجلداكامس عشر

دوستويفسكي: الاغمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا ترجمها عن الفرنسية: د.سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة الصهية العامة للناكيف والنشر دارالكاتب العكري للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دارابن رشد للطباعة والنشر بيروت لبنان شارع فردان بالله شبارو ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ ـ هاتف ٢٥٢٨٣،

الخطوط والعلاف: عسمًا دحسليم

طبعت بإشراف: نتوورك ايطاليا ١٩٨٥

• المسراهسق - ٢-- بورسوکان - الطف ل عنسرع - الفلاعب الاي - جوز بحاوز حرهامائة سنة - العسناب - مهربه المضمان - خطاب عن بوشكتن

جميع الحقوق محفوظة



الفصب الاسب دس ۱

و المالية

عازما أمرى وأنا أعدود الى البيت مسرعا : « واضح • يجب أن أذهب اليها • يجب أن أذهب اليها فوراً • ومن الجائز جدداً أن أجدها وحدها ، وحدها ، وحدها ، سيان : ففى

ولكننى لم أذهب • لن أنسى هذا أبداً ، وسأظل أتذكره بفخسر واعتزاز • لن يعلم بذلك أحسد ، سيظل مجهولا ، ولكن يكفى أن أعرف اننى فى تلك اللحظة استطعت أن أكون نبيلا نبلا لا تهاية له ! قلت لنفسى بعد تفكير : « هى ميحاولة اغدواء • لكننى سأغض النظر عنها • وقد أريد لى أن أرتاع ، ولكننى لم أصدق ، ولم أفقد ايمانى بطهارتها ! علام أذهب اليها ؟ وعم أسألها ؟ لماذا يكون عليها أن تثق بى كما أثق بها ، أن تؤمن بطهسارتى ، ألا تخشى عليها أن تثفى بعد شيئاً

من ذلك كله في نظرها • فلتجهل آنني أستحق ذلك ، وأنني لا انقاد للاغواءات ، وانني لا أصحف ألسنة السوء! لتجهل هي ذلك كله • ولكنني سأعلمه أنا ، فازداد احتراماً لنفسي • سأحترم عاطفتي • صحيح أنهاجعلتني أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا ، كانت تعلم أن تاتيانا هناك وأنها تتصنت (لايمكن الا أن تتصنت) ، وكانت تعلم أن تاتيانا تسخر مني • • • وكانت تعلم أن تاتيانا تسخر مني • • • • • • • فظيع ! شيء فظيع ! • • • ولكن لعلها كان يستحبل عليها أن تتجنب ذلك ! ماذا كان في وسعها أن تعمل اذا استحال عليها أن تتجنب ذلك ؟ كيف يمكنني أن أتهمها ؟ أفلم أكذب عليها أنا نفسي بصدد كرافت ؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنني استحال علي النا أتجنب ذلك ؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البرىء على غير ارادة مني •

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمر وأشمر بألم شديد: رباه! رباه! ما هذا الذي فعلته أنا؟ ألم أستدرجها على مسمع من تانيانا هذه نفسها؟ ألم أقصص كل شيء على فرسيلوف؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسي؟ ان هناك فرقا ضخماً • لقد كان الأمر أمر الوئيقة فحسب • والحق أنني لم أحدث فرسيلوف الا عن الوثيقة ، اذ لم يكن ثمة شيء آخر أحدثه عنه ، ولا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر أحدثه عنه • ألست أنا الذي بادرت الى ابلاغه ، وصحت أقول « انه لا يمسكن أن يكون ثمة شيء آخر ، ؟ هذا رجل يدرك الأمور • • هم ق • • ولكن ما هذا الكره الشديد لا يزال يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن! ما عسى تكون القصة التي جرت بينهما في الماضى ؟ لا شك أن حب النفسه هو سبب كل شيء • • « همذا رجل لا يقدر أن يحس الا عاطفة واحدة هي حب الذاته حباً لا حدود له ، لا يقدر أن يحس الا عاطفة واحدة هي حب الذاته حباً لا حدود له ،

نهم ، أفلت منى هذه الفكرة حتى اننى لم أنتبـــه اليها • تلكم هي

الخواطر الى تلاحقت فى ذهنى سريعة ، وكنت عندئذ صادقا مع نفسى: لم أكن أخادع ، ولم أكن أحاول أن أغش نفسى ، واذا كان نمة شى، لم أستطع أن أدركه فى تلك اللحظة ، فانما مسرد ذلك الى فقدان الفهم لا الى مخادعة النفس ،

وعدت الى البيت مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، وكنت مرح المزاج برغم الاضطراب القوى ، لا أدرى لماذا ! ولكنني كنت أخشى أن أحلل نفسي ، وكنت أبذل كل ما أملك من قوة في سبيل أن أسلو • فسرعان ما ذهبت الى المؤجرة • فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً • انها امرأة موظف مصابة بداء السل اصابة قوية ، وهي طبية القلب ، لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة • فأسرعت أصلح بينهما • ثم ذهبت الى المستأجــر الشـرس ، وهو موظف في بنك ، غليظ القلب ، فظ الطبع ، أناني ، مجدور الوجه ، اسمه تشرفياكوف ، كنت لا أحبه كثيراً ولكن العلاقات بيني وبينه كانت حسنة ، لأننى كنت أستعذب أن أستهزىء معمه ببطسرس هيبوليتوفتش . فسرعان ما أقنعتمه بألا يترك المنزل الى مسكن آخر ، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال • وأفلحت في تهدئة المؤجـرة تهدئة حاسـمة ، واستطعت عدا هذا أن أســوى لها مخدتها . فقالت في مكر : « ذلك ما لا يستطيع بطرس هيبوليتوفتش أن يفعله أبداً ، • ثم عكفت في المطبخ على الاهتمام بكماداتها ، فصنعت لها بيدي كمادتين رائعتين • فكان المسكين بطرس هيبوليتوفتش ينظر الي ً حاســداً ، ولكنني لم أســمح له حتى بلمس الكمادات! وقد كوفئت على صنيعي بامتنان عبَّر عن نفسه بدموع صادقة ٠ نم لم ألبث أن شـعرت بضجر من هذا كله على حين فجأة ـ لا أزال أتذكر هذا ـ وأدركت أتنى لم أعن بالمريضة بدافع الشمهامة والأريحية قط ، وانما عنيت بها هكذا ، لا أدري لأي سبب ، أو لسبب آخسىر لا علاقة له بالشسهامة ولا الأربحة!

وأخذت أننطر ما تفئى نافد الصبر : كنت قد قررت فى ذلك المساء أن أجرب حظى مرة أخيرة وعدا الحظ ، كنت أسعر بحاجة شديدة الى المقامرة والا لم يمكن فى وسعى أن أصبر و فلو استحال على أن أنسغل نسى بالقمار ، لكان من الجائز جدا ألا أستطيع مقاومة الرغبة فى الذهاب اليها و وكان على ماتفئى أن يصل بعد قليل و ولكن البساب فتح فجأة ، ودخلت على قرائرة لم أكن أتوقع أن تجىء الى موهى داريا أوسيموفنا و فقطبت حاجبي وبانت دهشتى و كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن ، لأنها جاءتنى برسالة من أمى فى أحد الأيام و وأجلستها ، ونظرت اليها مستفهما و فلم تقل شيئاً ، ولم تزد على أن أخذت تنظر الى محدقة وتبسم بخضوع ومذلة و فخطر ببالى فجأة أن ليزا هى التى محدقة وتبسم بخضوع ومذلة و فخطر ببالى فجأة أن ليزا هى التى

ـ أليست ليزا هي التي أرسلتك ؟

فقالت:

_ بل جثت هكذا ٠٠٠ من تلقاء نفسي ٠٠٠

فأنبأتها بأنني خارج بعد قليل ، فعادت تقول مرة أخرى انها جاءت و هكذا ، ، من تلقاء نفسها ، وانها منصرفة حالا ، فأحسست فحاة بنوع من الشفقة ، يجب أن أذكر هنا أن أمى ، وتاتبانا بافلوفنا خاصة ، هما اللتان ، من بيننا جميعاً ، عطفتا عليها ، ولكن جميع ذوينا قد نسوها تقريباً بعد أنوضعت عند ستوليافا ، ربما باستثناء ليزا التي كانت تزورها في أحيال كثيرة ، ويرجع ذلك ، فيما أظن ، الى داويا نفسها ، لأنها كانت تتصف بالميل الى الابتعاد والغياب ، رغم كل مذلتها وكل ابتساماتها المستجدية المستعطية ، أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تعجني كثيراً ، اذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير

وجهها اصطناعا زائفا ، حتى لقد خطر ببالى ذات يوم أنها لم تبك عزيزتها اوليا مده طويله ، ولكننى فى هــذه المرة شعرت بشفقة عليها ، لا ادرى لمــاذا !

وهاهی ذی تنحنی فجأة دون أن تفول كلمه ، وتحفض عینیها ، وترمی دراعیها الی أمام ، فتمسك بخاصرتی ، وتمسل بوجهها علی ركبتی ، نم تتناول یدی ، فأظن أنها ترید أن تقبلها ، ولكنها رفعتها الی عینیها ، فاذا بسیل من الدموع یسبل علیها ، وأخدت تنشیح نشیحاً قویاً یهز جسمها كله ، دون أن 'یسمع لبكائها صوت ، فانقبض صدری ألما ، رغم أننی أحسست ببدایة حنق ، ولكنها أخذت نقبلنی بثقة كاملة ، لا تخشی أن أغضب ، علی حین أنها كانت منذ قلیل تبتسم ابتسامات فیها كثیر من المذلة ، فرجوتها أن تهدی انفسها ، فأخذت تتكلم من الوجل وكثیر من المذلة ، فرجوتها أن تهدی انفسها ، فأخذت تتكلم فقالت :

سيدى الطيب ، لقد أصبحت لا أعسرف ماذا أصسنع بنفسى ، فما ان يهبط الفلام ، حتى ننفد طاقتى على الاحتمال ، اننى أفقد قدرتى على الصمود متى حل المساء ، فأرانى مدفوعة الى الخروج الى الشارع فى العتمة ، والحلم هو الذى يجذبنى خاصة ، لقد نبت فى رأسى حلم هو أننى متى خرجت فسألقاها فى النسارع ، فأسير ، وأظن أننى أراها ، أقصد أن الناس بسيرون ، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسى : أليست هذه هى ؟ نعم ، ها هى ذى ، انها ابنتى أوليا ، وأفكر ، وأفكر ، وأصبحت فى النهاية مجنونة من كثرة الجرى بين الجمهور ، وصرت أشعر من ذلك بغثيان ، اننى أصدم الناس كسكرى ويقذفنى بعضهم بشتائم ، لكننى بغثيان ، اننى أصدم الناس كسكرى ويقذفنى بعضهم بشتائم ، لكننى أحنفظ بهذا كله لنفسى ، ولا أذهب الى أحد ، ثم اننى لا أذهب الى مكان المجنفظ بهذا كله لنفسى ، ولا أذهب الى أحد ، ثم اننى لا أذهب الى مكان الأ أجد حالتى أسوأ مما كانت ، وقد مردت منذ قليسل أمام بيتك ،

فقلت لنفسى : « ماذا لو دخلت ؟ انه خير من الاخسرين ، ثم انه رأى الأمر بعينيه ، • سيدى الطيب ، اغفر لى ازعاجك ، أنا منصرفة حالاً ••

ونهضت بحركة مباغتة ، وهمت أن تسمارع الى الانصراف ، ووصل ماتفتى فى اللحظة ، فأركبتها الى جانبى فى العربة ، وأوصلتها الى منزل ستولبيافا ،

أصبحت في الآونة الأخيرة أتردد الى صبالة الروليت التي يملكها زرشتشبكوف • وكنت أذهب قبل ذلك الى ثلاثة بيوت ، في صحبة الأمير الذي كان ، يدخلني ، الى تلك الأماكن ، ففي أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصة ً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة • فكنت لا أحس هنــالك بارتيــاح ، اذ كنت أرى أن المر. يحتاج فيها الى مال كثير ، عدا أن ذلك الست كان يرثاده عــدد كبير من الوقحين ، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون الى أسر عالية ، وتمتلىء جيوبهــم بأمــوال طائلة • وذلك بعنه ما كان يحسه الأمير • كان الأمير يحب أن يقامر ، ولكنه كان يحب أيضًا أن يحتك بهؤلاء الطائشين • وقد لاحظت أنه اذا دخــل معي في بعض الأحــــان جنبا الى جنب ، ابتعد عني طوال السهرة ، ولم يقدمني الى أحد من « صحبه » • وكانت هيئتي هيئة انسان متوحش تماماً ، حتى لقد كان ذلك يلفت الى الانتماء أحماناً • وكان يتفق لى أن أتحدث على مائدة القمار الى هذا أو ذاك من اللاعبين ، ولكن وقع لى ذات مرة أن حاولت التكلم في ذلك البيت نفســـه مع سيد قصير تحدثت اليه بالأمس ، ضحكت معه جالســاً الى جانسـه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب) ، فاذا هو لا يتمسرفني ، واذا هو يزيــد على ذلك ســو٠ًا فبلقي على ً نظــرة دهشــة مصنوعة ، ثم يمضي مبتسماً ابتســامة ساخرة • لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت ، وأخسدُت أرتاد محـــلاً" للقمار لا أستطيع أن أسميه الا ماخوراً قذراً • انه صالة روليت حقيرة ،

صغيرة ، تديرها امراة « مومس • كانت لا تظهر في الصاله مع ذلك ايدا • الناس هنالك يتعاملون بدون كلفه ولا حسرج ، فكانهم اسرة واحدة ، رغم ان بينهسم ضسباطا وسجارا ، فكان هذا يجنذب كثيرا من الرواد ٠ ولكنني انقطعت عن ارتياد ذلك الكان في اعقاب قصة قذرة حدثت ذات يوم انساء اللعب ، واننهت بتضارب بين اثنين من المقامرين • وبعد ذلك انما أخذن اجيء الى صالة زرشتشيكوف التي قادني اليها الأمير أيضًا ٠ ان زرستشبیکوف ضابط من سلاح الفرسان محال علی التقاعد ، وان جو ســهراته جو محتمل جداً • وهو رجل عسكرى قليـــلاً في ســـلوكه ، حريص على التفيد بالأصول ، سريع وعملي • من ذلك مسلاً أنه كان لا يقبل في صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون في القصف واللهو • ثم ان اللعب نفســه لم يكن فيــه عنده مزاح • وكان المقامرون يتعاطون البكاراه والروليت • وكنت في ذلك المســـاء ، مســـاء ١٥ تشرين الناني (توفعيــر) ، قد جثت الى هــذا المكان فيلئــذ مرتين لا أكثر • وكان زرشنشیکوف یعرف وجهی فیما أظن ، ولکن لم یـکن قد قام بینی وبینه أى تعارف • وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن جاء الأمير في ذلك المساء نفسه مع داوزان عند منتصف الليل عائداً من لعب البكاراء مع أواثك الشبان الطائشين أبنــاء المجتمع الراقى الذين هجرتهـــم : هكذا كنت في ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء •

لو كان لى قارىء فقرأ كل ما سسبق أن رويت من أحداث حياتى لما كان على حتماً أن أشرح له أننى أمسرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع أيا كان هذا المجتمع • أنا أولاً لا أعرف كيف أمكث بين النساس • قاذا ذهبت الى مكان فيه ناس كثير ، بدا لى أن جميع الأنظار تنصب على قتلسعنى كاسع الكهرباء ، فأجد الهنى متوتر الأعصاب ، منهكا انهاكا جسمياً ، حتى في مكان كالمسرح ، ناهيك عن البيوت الخاصسة • وفي جميع صالات

الروليت هذه وفي جميع تلك المحافل اشمم بعجمز عن السيطرة على والتهذيب ، وتارة ٌ أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات • وأنظــر حــولى فأرى أي وغيد من الأوغاد الحقيرين أقدر مني على التصرف في المجتمع بسر عجيب وسهولة مدهشة ، فيزيدني هذا حنقاً ، فاذا أنا أفقد هدوثيي بل حتى في ذلك الحين ، كانت تلك السهرة كلها ، وكانت أرباح القمار نفسها (اذا وجب أن أقول كل شيء) قد أمست في النهاية تبدو لي باعثة على الاشمئزاز ، مثيرة للألم • نعم ، حتما : مثيرة للألم • صحيح أنني كنت أشعر بمتعة قصوى ، ولكن تلك المتعة كانت تجيء من خلال الألم . كان ذلك كله ء أقصنــد الناس والقمار وأنا خاصة ً معهم ، كان ذلك كله يبدو لى قذراً قذارة فظيمة • « ألا فلأربـــح مرة ً واحــدة ، نم أركل ذلك كله برجلي الى الأبد! ٠٠٠ كذلك كنت أقول لنفسى دائماً حين أستيقظ في الصبح بعد لعب الليــل • الربح مثــلاً : انني لم أكن أحب المال النَّة • لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبذولة وهي أنني كنت أقامــر من أجل القمار نفسه ، من أجل الاحساسات القوية ، من أجل لذة المجازفة ، من أجل متعة المصادفة ، وما الى ذلك ، وليس من أجل الربح ، لقد كنت في حاجة ملحة الى المال • ولاشك أن هذه الطريق لم تكن طريقي ، لاشك أن هذا لم يكن فكرتي ، ولكن ذلك لا يمنع أنني كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجــربة • هناك فكرة قوية كانت تحاصرني ، كنت أقول لنفسي : « لقد خلصت الى هذه النتيجة : وهي أنك تستطيع أن تصبح من أصــحاب الملايين بشـرط أن تملك ارادة قوية ! وقد برهنت على قوة ادادتك • فهلم منه برهن هنا أيضاً على أنك قوى الارادة : ان الروليت تقتضي من قوة الارادة أكثر مما تقتضيه فكرتك! • •

ذلك ما كنت اردده لنفسى • ولما كنت مقتنعا حتى هذه الساعه بأن المرء فى ألماب المصمادفة يستطيع بالهدوء الكامسل الذي يتبيح له أن يحتفظ بذقة تفكيره ، أن يتغلب على المصادفة العمياء ، وأن يربح حتماً ، فقد كان لابد لى في ذلك الأوان من أن يزداد حنقي ويشتد حين كنت أراني أفقد مدوئي واندفع اندفاع صبى صغير ٠ ﻫ أنا الذي استطعت أن أتحمل الجوع ، كيف أعجز عن تحمل نفسي في أمر تافه هذه التفاهة ؟ ، ذلك ما كان ينيظني ٠ أضف الى ذلك أن شعورى بأننى أملك في قرارة نفسي ، مهما أبد ْ للناس مضحكاً وحقيراً ، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن ينيروا حكمهم على ً في ذات يوم ، أقول ان هذا الشعور ــ الذي لازمني منذ سنى طغولتي الذليلة ــ كان في ذلك الحين هو النبع الوحيــد الذي يروى حياتي ، وكان ضيائي ، وكان تراثى وكان سلاحى وكان عزائى ، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن كنت طفسلاً • فهــل كان في وســعي ألا أغضب من نفسي حين أرى المخلوق التافه الذي كنت أصبير اليه أمام ماثدة القمار ؟ ذلك هو السبب في أنني أرى اليوم هذا رؤية واضـحة • وعدا هذا السبب الرئيسي ، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً : كانت الحسارة في القمار تخفض قدري في نظر الأمير ، وتنخفض قدری فی نظر فرسیلوف ، (وان یکن فرسیلوف لم یتنازل یوماً فيقول شــبئاً عن هذا) وتخفض قدرى في نظر الجميع ، حتى في نظر تاتيانا بافلوفنا ــ ذلك ما كان يتراءى لى على الأقل ، ذلك ما كنت أحسه . وهناك أخيرًا اعتراف يجب أن أدلى به : كنت قد فسدت • أصبح صعبًا على ً أن أتبخلي عن عشائي المؤلف من سبعة أطباق في المطعم ، وأن أتبخلي عن ماتفتی ، وعن المنجر الانجلیزی ، وعن رأی بائع العطور الذی أشتری منه عطوری ، أصبح صحباً على أن أتخلى عن هذا كله . ولقد وعيت هذا حينذاك ، لكنني أغمضت عيني * • والآن حين أدو "ن هذه الحقائق انما احمر منها خجلاً .

دخلت وحمداً ووجدتني في جمهــور غريب ، فجلست أول الأمـــر الى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صنعيرة • ولبئت على هذه الحال ساعنين لا أتحرك • ساعتين راكدتين ركوداً رهياً: فلا حظاً ولا سوء حظه وأفلتت مني فرص راتعــة ، فحــاولت ألا أغضب، وأن أنتصر بهدوتي وثقتي • وكان حاصــل الحســاب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم آخسر • قالثلاثمائة روبسل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبــلات او خمسية عشر روبلا • واحنقتني هذه النتيجة النافهة ، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حنقا ٠ انني أعلم أن المرء يلقى حـول مواثد الروليت هذه لصوصاً ، لصوصاً لم يجيئوا من الشمارع لسترقوا ، ولكنهم من بين المقامرين المعروفين • قأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق . وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف • وقد رأيته منذ مدة قصيرة مع فرسين . ولكن هذا لا ينفي انه سارق ، وأنه سرقني • على أن لهذه الحــادثة حديثًا سيجيء حينه فيما بعد • أما ذلك السماء فلم يكن الا مقدمة : لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً الى ركن من المائدة ، وكان الى يسارى مفزور صغیر ، أنیق الهندام ، أظن أنه یهودی ، هو عضو فی جماعة لا أدری ما هي ، كمــا أنه يكتب و'ينشر له ما يكتب • كنت قد ربيحت في آخــر لحظة عشرين روبلا على حين فجأة : فكانت أمامي ورقتان حمراوان ، فاذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب المه احدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن • فهممت أن أوقفه ، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون

أن يرفع صوته أن هدا ربحه هو ، فقد حظ وربح + حتى أنه لم يشأ ان يتابع الحديث معي ، بل أدار لى ظهره • ونناءت المصادفة التي نشبه العمد أن أكون عندئذ في أخد حالاتي النفسية حماقه ، اذ كنت قد تصورت فكره كبيرة • فلم أزد على أن بصقت ، ثم نهضت بسرعة وانصرفت ، دون ان أناقش ، مهدياً اليه ورقتي النقدية الحمراء • وكان من الصعب على كل حال أن أُستُّوى الأمــر مع وغد حقير منله ، فقد فعل فعلته وانقضى وقت ، واستمر اللعب • لكن سكوني كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائـج وبيلة : فان ثلاثة أو أربعــة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة ، ورأوا تراجعي السريع فلابد أنهم اعتقدوا انني غشاش • وكان الليل قد انتصف• مضيت الى الغرفة المجماورة ، ووضعت خطة جديدة ، ثم رجعت فيسدُّ لت أوراقي النقدية من البنك قطعاً ذهبية • فأصبح بين يدى ً أكثر من أربعين قطعـة جعلتهـا عشرة أتســــام وقررت أن أحط عشر مــرات متتالية على « الصفر › ، أى أربعة أنصــاف من الليرات الامبراطورية في كل مرة ، حطةً بعد أخرى ، قائلا لنفسى : « ان ربحت كان هذا حظى وان خسرت فهذا أفضل : فلن ألمب بعد اليوم أبداً ، • يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرةً واحدة ، حتى أصبح لا يحط أحد عليه .

كنت ألعب واقفاً بم صامناً به مقطاً حاجبي كازاً أسسناني و ومذا زرشتشيكوف يعلن في المرة الثالثة بصوت عال عن خروج « الصفر » بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة • 'فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية • بقيت لي سسبع حطات • واستمررت ، وكان كل شيء في أثناء ذلك يضطرب من حولي ويتراقص •

- تعال الى هذا ، تعال الى هذا ، فهذا هذا الحظ !

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة ، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدى رداء رسمياً ، وكان

يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر في كل مرة ، فيصبر صبراً لا يمكن وصفه • فصماح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألني بدهشة فيها تهديد :

_ أ اياى تنادى ؟

فقلت:

ـ نعم ، ایاك أنادی ، فهناك ستخسر كل شيء !

فقال:

ــ هذا ليس شأنك ، فدعني ولا تزعجني !

ولكننى كنت قد فقدت سيطرتى على نفسى • وكان يجلس أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن ، فلما رأى حطتى على الصفر ، دمدم يقول لجاره :

غريب : الصفر • لا ، لا ، لن أحط على الصفر أبداً •

فصحت أقول له وأنا أحط مرة ً أخرى :

ــ بل تجرأ يا كولونيل!

ب فانبری یقول لی بعنف :

۔ أرجوك ألا تزعجني أيضاً • لست في حاجــة الى نصائحك • انك تحدث صخباً كثيراً هنا •

- اننى أسدى نصيحة حسنة ، هل تريد أن تراهن على أن الصفر الذى سسيطلع فى هذه المرة أيضساً ؟ أتراهن على عشر قطع ذهسة ؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ذهبية • فقال لى بلهجة خشنة تاسية :

- ــ عشر قطع ذهبيـة ؟ أراهن أَ مستعد ! أراهن على ان الصغر لن يطلع هذه المرة !
 - ـ عشرة دنانير لويس يا كولونيل!
 - ـ ما عشرة دنانير لويس ؟
- ـ أى عشرة أنصاف ليرات ذهبيــ ، وهى تسمى فى اللغة النبيلة عشرة دناتير لويس •
- قل اذن عشرة أنصــاف ليرات امبراطورية ، ولا تمزح معى !

ولم أكن آمــل أن أربح الرهان طبعاً : فان حظ الصفر في الطلوع لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وتلاثين حظاً • ولكنني انما عرضت هذا الرهان أولاً من أجِل أن « أثير الدهشــة » وثانياً من أجِل أن اجتذب اليُّ ا مودة الآخرين • كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحسني وأنهم يجدون لذة في اشعاري بذلك • وأخذت الروليت تدور ، فما كان أشد ذهول الجميع حين طلع « الصفر » مرة أخرى ! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة • وذهبت نشوة الانتصار بصوابي ! و'نقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية • وسألنى زرشتشكوف ألا أريد أن أقيض جزءًا من الملغ أوراقًا نقدية ، فأجنه بغمغمة غير مفهومة ، لأنني أصحت عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح • كان رأسي يدور ، وكانت ساقاي تصطكان • وأحسست فحــأة بأنني سأتعرض الآن لخطر رهب • وكنت أرغب في أن أقوم بعمل آخــر ، أن أعرض رهانًا جديدًا ، أن أنقد أحداً آلاف الروبلات • لممت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدى دون وعي ، ولم أستطع أن أعدُّها • وفي تلك اللحظــة لاحظت الأمــير وداوزان ورائى فحسأة ، وكانا آنيين من لعب البكاراء بعد أن خسرا هنالك كل شيء كما علمت ذلك فسما بعد ٠

صحت أقول لدارزان:

- هيه دارزان! هنا حظك! حط على الصفر •
 فأجابني قائلا بخشونة:
 - ـ خسرت كل شيء فليس معي مال ٠

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئًا ، وبأنه لم يعرفنى • فصحت أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي :

ــ اليك المال ، فحذ ما شئت . كم تريد ؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمرارا شديدا :

ـ غريب أمرك • أنا لم أطلب منك شيئًا فيما أظن !

وقال لى زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي:

_ هناك من يناديك ٠

كان الكولونيل قد نادانى عدة مرات ، وكاد يشفع نداءاته بشتائم ، منذ خسر رهانى معه على عشرة أنصاف الليرات الامبراطورية ، وها هو ذا يقول لى وقد تخضب وجهه بعمرة شديدة من فرط الغضب :

- _ خذ! لست مضطراً أن أنتظرك! سوف تقول عنى اننى لم أدفع الرهان ١٠عدد ٠
- ۔ أُصِّدقك يا كولونيـــل ، أُصِّدقك ، أُصَّدقك بدون أن أعد . لكننى أرجوك ألا تصرخ غاضباً منى ، أرجوك ألا تزعل .

ولمت كدسة ذهبية بيدى • فصرخ الكولونيل يقول لى بعنف:

۔ أيها السيد العزيز ؟ أرجو أن تنجبه بحماستك هذه الى غيرى ؟ فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام ؟ وليس بيني وبينك سابق علاقة • وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت :

ــ انه لأمر غريب أن 'يسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطرار ! من هذا ؟ فتى صغير ؟

ولكننى لم أكن أصنى ، وطفقت أحط بغير روية ، ولكننى لا أحط على الصفر ، وجعلت حطاتى أعداداً من أوراق مالية .

قال الأمير ورائي :

_ هيًّا بنا تنصرف يا دارزان!

ففلت وأنا التفت السهما :

الى البيت ؟ انتظرانى فننصرف معاً • انتهيت •
 لقد ربيحت • فكان ربيحى ضخماً • فصرخت أفول :

_ كفى !

وبيدين مرتعشتين لمت الذهب وسكبته في جيوبي دون أن أعده ، وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعي أريد أن أدسها جميعاً في جيب جانبي من سترتبي ، فاذا بيد سمينة يزينها خاتم ، هي يد آفردوف الذي كان الى يميني وكان قد حط مبالغ ضخمة ، اذا بيده تطبق على ثلاث من أوراقي وتغطيها براحتها ، وقال يخاطبني بخشويه مقطماً كلماته مرققاً صوته :

ـ اسمح لي ، هذه ليست لك !

كانت هذه هى القدمة التى تحملت نتائجها الرهبية بعد بضعة أيام . انى لأقسم اليوم بشرفى أن تلك الأوراق الثلاث (وهى من فئة المائة روبل) كانت لى ، ولكن شاء سوء حظى أن ظلاً من شك قد ساورنى حنيئذ رغم اقتناعى الكامل ، وذلك شىء له خطورته عند من يحرص على أن يمكون

انسانا شريفا ، وأنا انسان شريف ، ولاسيما أنني كنت لا أعلم في ذلك الحين علم اليقين ان افردوف لعس ، بل كنت أجهل حتى اسمه ، فلم يكن في وسعى أن أصدق حقا أنني لست مخطئا وأن هذه الأوراق الثلاث ليست من الاوراف التي عدّت لى ، ولقد كنت طوال السهوة لا أعد كدسة اموالى ، بل اقتصر على لمها بيدى ، اما افردوف فكان ير تب ماله أمامه معدودا محسوبا بجانب مالى ، وكان افردوف عدا ذلك معروفا في هذا البيت ، وكانوا يعدونه هنالك رجلا واسع الثراء ، وكانوا يعلمونه باحترام : فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته على ، فاذا أنا أسلم مرة أخرى بغير اعتراض ، يا للغلطة الفظيعة ! وأنكى ما في الأمر كله أنني كنت في حماسة شديدة ، فلم أنزد على أن قلت مرتعش الشفتين من الاستاء :

۔ یؤسفنی أننی لا أتذكر تذكراً دقیقاً ، ولكن یخیل الی آن هذه الأوراق لی أنا ٠

فسرعان ما أثارت كلماتي هذه دمدمات تذمر · وقال آفردوف بلهيجة فيها استعلاء لا يطاق :

... لكى يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون « واثقاً » ، وأنت تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً •

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة :

من هذا الفتى ؟ كيف 'يسمح بمثل هذه الأمور ؟
 وارتفع صوت وبش يقول بجانبي :

ـــ ما هذه أول مرة • فمنذ قليل اراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة عشر روبلات من مال رخبرج •

فصحت أقول :

ـ طیب ، کفی ، کفی ! لست أعترض ، خــذ ما تشاء ! یا امیر ، و لکن أین الامیر و دارزان ؟ انصرفا ؟ یا ســادة ، ألم تروا من أی جه خرج الأمیر و دارزان ؟

ولممت أخيرا مالى كله • وبدون أن أثريث لأدس فى أحــد جيوبم عدداً من أنصــاف الليرات الامبراطورية كان بيدى ، اندفعت ألاحق الأمم و دارزان • ان القارىء يرى الآن رؤية واضــحة أننى لا أستر عيوبى وأننى أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالى فى تلك اللحظة ، وكيف كنن أحمق غاية الحماقة ، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك •

كان الأمير و دارزان قد بلغا أسفل السلم، ولم يوليا ندائي وصيحاتي أي اتتباه ، وقد وصلت اليهما، لكنني تلبثت لحظة أمام البواب السويسري فدسست في يده ثلاثة أنصاف من اللبرات الامبراطورية ، لا أدرى لماذا فنظر الى البواب متحبيراً ، حتى أنه لم يشكرني ، ولكنني لم أكثرت بذلك ؟ ولو كان ماتفئي هناك ، اذن لناولته قبضة من القطع الذهبية حتماً فانني كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً ، ولكن ما ان وضعت قدمي على درج الباب حتى تذكرت فجاة أنني صرفت ماتفئي ، وفي تلك اللحظا كانت عربة الأمير تتقدم نحو الباب ، فركها الأمير ، قصحت أقول وأنهسك وقاء العربة وأرفعه لأجلس بحانه :

ــ أنا آت ممك يا أمير!

ولکن دارزان مر ؓ أمامی فیجاًه ، فوثب برکب العربة ؟ وانتزع منی الحوذی الوقاء فغطی به ستّبدیه ، فصحت أقول خارجا عن طوری :

_ يا للشيطان!

لكأننى ما رفعت الوقاء الاليركب دارزان ، مثلما بفعل خادم ، وصاح الأمير يهب بالحوذى قاتلاً :

_ الى البيت!

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة :

_ قف !

ولكن الحصان جر ً العربة ، فتدحرجت على الأرض ، ثم لم ألبث أن تهضت ، ووثبت أركب أول عربة رأيتها ، وطرت الى منزل الأمير وأنا أستحث الحوذى فى كل لحظة ، فأنهك الحصان المسكين .

الحصان يجرى بطيئاً كأنما ليزيد حنقى ، والحوذى لا يبرح يضربه بسوطه لأننى وعدته بروبل مكافأة ، وقلبى يخفق خفقاناً شديداً ، أخذت أكلم الحوذى ، ولكن الكلمات لا تخسرج من فمى ، فكنت أثمتم تمتمة "بسمخافات لا أدرى ما هى ، تلك كانت حالى حين هرعت الى الأمير ، وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان الى بيته ، فهو الآن وحيد ، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة ، يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر فى القمار كثيراً ، وها هو ذا ينظسر الى فى حبرة وذهول ، ثم يقول مقطاً حاجمه :

_ أأنت أيضاً؟

فقلت وأنا أختنق :

جثت ألانهى صلتى بك • كيف تجرأت أن تعاملنى هذه العاملة ؟
 فرشقنى بنظرة مستفهمه • قلت :

_ اذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان ، فما كان عليك الا أن تقول لى انك ستصطحب دارزان ، ولكنك أجريت الحصان ، فاذا بى ٠٠٠

_ آ ٠٠٠ نعم ٠٠٠ أظن أنك وقعت أنت في الثلج ٠

قال ذلك وطنق يضحك • قلت :

_ هذه أمور يكون الرد عليها بدعوة الى مبارزة ، ولذلك سنصفى أولاً حساباتنا ٠٠٠

واستللت أموالى بيد مرتعشة ، فوضعت بعضها على الديوان ، وبعضها على المنضدة الرخامية ، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح ، وكنت أتناولها بقبضة يدى ملأى ، وألقيها حزماً وأكداساً ، حتى لقد تدحرجت فطع ذهبية كثيرة على السجادة ، قال :

ــ ها ••• نعم ••• أظن أنك ربحت كثيراً ؟ يدرك المرء ذلك من لهجة كلامك •

انه لم يكلمنى بمثل هذه الوقاحـة فى يوم من الأيام وكان وجهى شاحباً شحوباً شديداً •

_ یوجد هنا ۰۰۰ لا أدری کم یوجد ۰۰۰ یجب أن نعد ۰۰۰ اننی مدین لك بثلاثة آلاف ۰۰۰ أم ماذا ؟ أأکثر أم أقل ؟

- ـ أظن أننى لا أجبرك على أن تدفع لى شيئًا .
- ـ بل أنا الذي أريد ذلك ولابد أنك تموف لماذا خذ!

وطفقت أعد المال بيد مرتجفة ، ولكننى ما لبثت أن عدلت عن العد ، قائلاً له :

ـ لا يهمنى أن أعرف المجموع معسرفة دقيقة • أنا أعرف أن ههنا ألف روبل • فسآخذ هذه الألف لنفسى ، وخذ أنت الباقى كله ، خذ هذه الأكداس جميعها ، سداداً لدينك على أو لبعض دينك على : أظن أن الباقى يبلغ سحو ألفى روبل وقد يزيد •

قال الأمير مبتسماً:

ــ وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك ؟

ـــ أأنت فى حاجــة اليها ؟ اذن ••• أعطيك اياها ••• كنت أظن أنك قد لا تريد أن ••• ولكن خذها اذا وجب أن تأخذها •••

_ لاء لا أريد .

قال ذلك وأشاح عنى باحتقار ، وعاد يذرع النسرفة ذاهبا آيباً • ثم التفت الى ً فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدي والاستفزاز :

لكن ما الذى جعلك تفكر فى سداد ديوتك ؟
 فرأرت أقول أنا أيضاً :

ــ انما أرد البك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت!

ـ اذهب الى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة واشاراتك الأبدية!

وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره ، وأضاف يقول :

ـ اننی أرید منذ مدة طویلة أن أطردكما كلیكما أنت وصاحبـك فرسیلوف •

صرخت أقول :

ـ هل 'جننت ؟

وكان كمن 'جن ً فعلا م وتابع كلامه قائلاً :

لقد عذبتها العذيب وهيب بجملكما المتفخمة و دائم جمل ، جمل ، جمل النيم أديد مسد مدة جمل ، جمل النيم أديد مسد مدة طويلة أن أقطع صلتى بكما و يسرني ، يسرني أنه آن الأوان و كتب أظن أنني مرتبط ، وكنت أحمر خجلاً من أنني مضطر أن أستقبلكما و و كليكما الآن فأرى أنني غير مرتبط بشيء ، غير مرتبط بشيء ، ألا فاعلم ذلك ! لطالما حضني صاحبك فرسسيلوف على أن أهاجسم ألا فاعلم ذلك ! لطالما حضني صاحبك فرسسيلوف على أن أهاجسم آخماكوفا ، وأن ألطخ شرفها بالهار وو و لا تتكلما عن الشرق بعد اليوم

عندى أبداً! كلاكمـــا غير شريف ، كلاكمــا غير شريف! وأنت ، ألم تستح أن تأخذ مالي ؟

زاغ بصرى • وقلت متمتماً برفق:

_ أنا اقترضت منك كما يقترض رفيق من رفيقه • وأنت الذى عرضت على أن تقرضني فصدّدقت حسن نياتك •••

ــ ما أنا رفيقك 1 لقد أعطيتك مالاً ، ولكن لغير هذا الغرض • أنت تعلم لماذا أعطيتك •

ـ أعطيتني من حساب فرسيلوف • وذلك غباء طبعاً ، ولكن •••

ـ لم يكن فى امكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون اذنه ، ولا كان فى امكانى أن أعطيك ماله بندير اذنه ، • • فانا انما أعطيتك من مالى ، وكنت أنت تعرف ذلك • كنت تعرفه وكنت ترضاه • ولشدما قاسيت أنا فى بيتى من تمثيل هذه المسرحية الكريهة •

_ ما الذي كنت أعــرفه ؟ عن أية مسرحيـــة تتكلم ؟ ولماذا كنت تعطيني اذن ؟

_ لجمال عنىك يا ابن عمى ! •

قال هــذه الجملة الســـاخرة بالفرنســية • وطفق يضحك أمامى • فصرخت معولاً أقول :

۔ اذہب الی الشیطان ! خــذ کل شیء • الیك هذه الألف أیضــاً ! هاقد سددت دینی کله الآن *، وغداً •••*

ورميت له كدسة الأوراق المالية التي كنت قد احتفظت بها لنفسي ، فسقطت على صـــدبرته ، وتدحرجت الى الأرض ، فاذا هو يتقدم مني

ثلاث خطوات سريعة واسمعة ، ويقول لى بغته ً بلهجة وحشية وكلمات مقطَّعة :

۔ هل تجرؤ أن تدّعى أنك حين كنت تأخــذ منى المال طوال هــذا الشهر ، كنت تجهل أن أختك حيلي منى ؟

ـ ماذا ؟ كف ؟

كذلك هتفت أسأله • وارتبخت ساقاى فأصبحتا لا تستطيعان حملى فتهاويت على الديوان خائر القوى •

لقد ذکر لی هو نفســه فیما بعد أن وجهی اصــفر اصفراراً شدیداً یشبه أن یکون بیاضاً کبیاض مندیل ۰

اضطرب ذهنی و وأذكر أن كلاً منا قد حداً ق الی عینی صاحبه صامتاً و وألم بوجهه هو نوع من ذعر و ومال علی فجأة ، فأمسكنی من كتفی سسندنی و انی أنذكر ابتسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح و لقد قرأت فیها معانی الشك والدهشة و نعم ! لم یكن یتوقع لكلماته أن تحدث فی نفسی هذا الأثر ، لأنه كان موقناً بأننی علی علم بالأمر ، وبأننی كنت آنماً و

وأغمى على اخيرا ، غير أن الاغماء لم يدم الا دقيقة واحدة • فلما أفقت وقفت على قدمى وظهرت اليه وفهمت • لقد انكشفت الحقيقة فعجأة لفكرى الذى طال نومه! لو قد حكى لى الأمر من قبل وسئلت ما عسانى صانعا بالرجل ، اذن لأجبت حتماً بأننى سأمزقه نمزيقاً • ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً ، وقد حدث بغير ارادتى أبداً : فاننى لم ألبث أن دفنت وجهى بيدى فجهاة ، وأخهنت أذرف دموعاً حارة ممنى ذلك أن الطفل حدث • لقد انبعت الطفل الصغير في الرجل الشاب • معنى ذلك أن الطفل

الصغير كان لا يزال حياً في نفسى ، وتهالكت على الديوان وطفقت انشيج منتحباً : « ليزا ! ليزا المسكينة ! » •

وعندلذ صَّدقني الأمير تصديقاً تاماً • فهتف يقول بحزن عميق :

ــ آه! ما أكبر الذنب الذى ارتكبتــه فى حقك! ما أيشع الأشياء التى تصورتها عنك! سامحنى يا آركادى ماكاروفتش!

فانتفضت ، وأردت أن أقول له شيئًا ، وتسمرت أمامه ، ولكن دون أن أنطق بكلمة ، ثم لم ألبث أن و ّليت هارباً من الغرفة ومن البيت ٠

رجعت الى مسكنى سائراً على القدمين ، ولا أكاد أتذكر كيف وصلت ، ارتميت على سريرى ، مكباً بوجهى على الوسادة فى الظلام ، ورحت أفكر وأفكر ، ان الأفكار فى مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقة منسجمة أبداً ، ويكون الفكر والحيال كأنهما معلقان بخيط يترجع ويتراقص ، أذكر أننى أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه ، بل بأشياء لا يعلم الا الله ما الذى جعلها تخطر ببالى ! ولكن حزنى وشقائى ما يلبثان أن يدركانى مؤلمين موجمين ، فأعقف يدى كمداً ، وأصيح قائلاً : «ليزا ! ليزا ! ، ، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة ، لا أدرى كيف نمت نوماً عميقاً هادئاً ،

الفصل السابع

فى نحو السماعة النامنة من الصباح ، فسارعت أقفل بابى بالمفتساح فوراً ، وجلست أمام النافذة ، وعدت أحلم من جديد ، وبقيت على هذه الحال حتى السماعة العاشرة ، وقد قرعت الحادمة الباب

مرتين ، لكننى طردتها ، وبعد الساعة العاشرة أقرع الباب مرة أخرى ، فأوشكت أن أصرخ أيضاً ، لولا أن عرفت أنها ليزا ، وقد دخلت الحادمة معها : جاءتنى بقهوتى ، واستعدت لاشتعال المدفأة ، فكان يستحيل أن أطردها ، فكنت طوال الوقت الذى قضته فى وضع الحطب واشعال النال أذرع غرفتى الصغيرة بخطى واستسعة ، دون أن أشرع فى الحديث ، متحاشياً أن أنظر الى ليزا ، وكانت الحادمة تعمل ببطء شديد ، وتتعمد هذا البطء تعمداً ، كما تفعل جميع الحادمات فى مثل هذه الحالة ، حين يلاحظن أن أسيادهم متحرجون من الكلام بحضورهن ، وكانت ليزا جالسة على المائدة أمام النافذة تنابعنى بنظرها ، فقالت فحاة :

ــ توشك قهوتك أن تبرد •

فنظرت البها • لم أر في وجهها أثراً لاضطــراب ، فوجهها هادىء هدوءاً تاماً ، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيها •

قلت محدثاً نفسى وأنا أرفع كنفى : هذه هى النساء !

وانتهت الخادمة أخيراً من اشعال المدفأة ، وشرعت في تنظيف الغرفة

وترتيبها • ولكننى طردتها طردا صارماً ، وأففلت الباب بالمفتاح من جديد • سألتنى ليزا :

ـ قل لى ، من فضلك ، لماذا أغلقت الباب ثانية ؟

فتسمرت أمامها ، وهتفت أقول فجاة دون أن يكون قد خطر ببالى أن تكون هذه بداية كلامي :

ـ ليزا ، كيف أمكن أن تظنى أنك ستطلين تحدعينني ؟

لم أذرف فى هذه المرة دموعاً ، وانما اجتاحت قلبى عاطفة تشسيه أن تكون شراً ، حتى اننى لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسى • فاحمسرت ليؤا ولكنها لم تجب ، وانما ظلت تحدق الى عينى " •

- انتظرى يا ليزا ، انتظرى ! آه ٠٠٠ ما أغبانى ! ولكن هل كنت غيباً الى هذا الحد من الغباوة حقاً ؟ ان التلميحات كلها لم تنجمع حزمة واحدة الا بالأمس ، أما قبل ذلك فكيف كان يمكننى أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين الى ستوليافا أو الى ٥٠٠ داريا أويسيموفنا هذه ؟ لقد كنت أعد ك شمساً يا ليزا ، فكيف كان يمكن أن يخطر ببالى ٥٠٠ ؟ انك تتذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده ، وكيف مضينا تنزه في الشمس معاً ، وكيف سررنا أعظم السرور + هل كان الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين ؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم •

اذن كنت تخدعينني منذ ذلك الحين يا ليزا ! لا ، يا ليزا ، لم يكن ذلك منى غباء ، بل كان أنانية • ليس الغباء هو المسئول ، وانما أعمتنى الأنانية ، وأعمتنى ثقتى الكبيرة بقداستك • كنت لا أنظر الا فى نفسى • وعلام أنظر فيكم أنتم ؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً ، وكنت أعدكم أعلى

منى كثيراً ؛ وأمس ، فى البيت ، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيــل الغشاوة عن بصرى ، وكنت عــدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى ، فلم أستطع أن أدوك سُيئاً ، رغم جميع الاشارات والتلميحات .

وتذكرت فى تلك اللحظة كاترين نيقولايفنا فجأة • فأحسست مرة ً أخرى بألم يشبه أن يكون وخز ابرة فى القلب ، واحمر وجهى احمراراً شديداً • فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طبياً •

قالت ليزا بصوت رفيق لكنه جازم :

۔۔ ولکن عم ؓ تعنذر یا اُرکادی ؟ یبدو لی اُنك تحاول اُن تعتذر عن شیء ، اُن تبریء نفسك من شیء ، ولکن عم ؓ تعتذر ؟ مم تبریء نفسك ؟

ما الذي يجب على أن أفعله الآن ؛ لو لم يكن نمة الا هذا السؤال لكفي و فكيف تقولين مم تبرىء نفسك ؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف أتصرف ! لست أعلم ماذا يفعل الاخوة في مشل هذه الحالة و أعلم أن منهم من يجبر الجاني على الزواج مشهراً عليه المسدس و ولسوف أتصرف كما بحب أن يتصرف رجل شريف و لكنني أجهل كيف ينبغي أن يتصرف وجل شريف ! لماذا ؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء و انه أمير وهو يصنع حياته ويهيى مستقبله ، فلن يرضى حتى أن يصغى الينا نحن الشرفاء و وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً ، وانها يحن ولدا زنا بغير اسم ، نحن من أولاد الأقنان و هل يتزوج الأمراء بنات أقنان ؟ آه و مده باللمار!

فاحمرت لبزا من جديد ، وقالت :

ـ أظن أنك معذب ، ولكنك تتسرع كثيرًا وتؤذى نفسك ٠٠

ب أتسرع ؟ أفى رأيك اذن أننى لم أتأخر ؟ أأنت تقولين هذا الكلام يا ليزا؟ (أخيراً نشط خيالى) • ما أكثر ما تكدس على من عار مع ذلك ، وما اسد الاحتقار الذي لابد ان هذا الأمير قد حمله لي ! اه ••• الان أصبح كل شيء واضحاً • الان اصبحت اللوحه كلها مالله امامي : لقد تصور انني عرفت صلته بك منذ مدة طويلة ، ولكنني سكت عليها ، أو حتى شمخت بأنفى تباهياً « بالشرف ، العظيم ــ ذلك ما تصوره عنى • وتصور أننى كنت آخذ ماله في سبيل أختي ، تصنُّور أنني كنت آخــذ ماله ثمنــاً لعرض أختى • وذلك ما كان يشمئز منه • وانبي لأعـــذره ، أعـــذره كل العذر : فلسر غريبًا أن يضبق ذرعًا بمخلوق دنيء 'يضطر أن يلقاه مرة بعد مرة كل يوم لا لشيء الا أنه « أخوها » ، وأن يسمعه ــ فوق ذلك ــ متحدثًا عن الشرف ٠٠٠ ذلك خليق بأن يقسى قلب المرء ، أن يقسى حتى قلب رجل مثله ! وقد ارتضيت أنت هذا كله ، ولم تنبهيني ! لقد بلغ من شدة احتقاره لى أنه كان يحدث عني ستبيلكوف ، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس انه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلمنا أنا وفرسيلوف • وهذا اذن ما جعل ستسلكوف يقول : « ان آنا آندريىفنا أختك مثل الزابت ما كاروفنا سواء بسواء » ، حتى لقد صرخ يقول ورائى : « مالى أنا أفضــــل » • وكنت أنا استلقى في بيت الأمبر على دواوينه مسترخيا ، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيرًا ! وسمحت أنت بهذا كله ! ولا شك أن دارزان نفســـه على علم بالأمر الآن ، كما تدل على ذلك لهجته في مساء أمس ٠٠ جميع الناس عارفون بالأمر ، جميعهم عارفون به ، الا أنا ! •••

قاطعتنى ليزا تقول :

لا أحد يعرف • انه لم يتحدث الى أحد من أصدقائه ، انه لم يستطع أن يتحدث الى أحد منهم • أما ستيبلكوف هذا ، فأنا أعرف أنه يعذبه ، وأن سنيبلكوف قد استطاع أن يشتبه اشتباها فى أكثر تقدير ••• أما أنت فقد كلمته عنك مراراً ، وصداً ق ما قلته له تصديقاً كلملاً •••

لقد قلت له انك تجهل كل شيء ، ولكنني لا أدرى لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس •

- الحمد لله على أننى دفعت له دينه أمس ، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذى يجتم على قلبى ! ليزا ، هل ماما على علم بالأمر ؟ ولكن كيف لا تكون على علم به + انها بالأمس تارت على " ! آه يا ليزا ! ولكن هل يمكن أن تعتقدى بأنك على حق ؟ ألا تتهمين نفسك بشى • ؟ اننى لا أدرى كيف 'يحكم على هذه الأمور اليوم ، ولا أدرى ما هى آراؤك ، أقصد ما هى آراؤك في " ، في أمك ، في أخيك ، في أبيك ! هل فرسيلوف على علم ؟

ـــ لم تقل له ماما شيئًا • وهو لا يسأل عن شىء • لاشك أنه لا يريد أن يسأل •

ــ يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم • هذا هو الأمر • ذلك في طبيعته • طيب ، وفي وسعك أن تسخري من أخيك ، من أخيك الغبي ، اذا هو تكلم عن مسدسات ، ولـكن هلا فكرت في أمك ؟ ألم تحدثك نفسـك أبدا يا لبزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك ؟ لقد عذبتني هذه الفكرة طوال الليل • ان الفكرة الأولى عند ماما اليوم هي هذه : « لقد أثمت ابنتي لأتني أثمت أنا أيضاً • هل تلد الحية الا الحية ؟ ، •

ما ان سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها ، وهتفت تقول :

ــ آه ما أقسى هذا الذى تقوله وما أسوأه !

ثم نهضت وسارت مسرعة ً نحو الباب ، فقلت لها :

ب قفى قفى ا

وأمسكتها ، وأجلستها من جديد ، وجلست بقربها دون أن أسحب يدى • قالت :

۔ کنت آقدر ، وأنا آتیه الی هنا ، أن هذا كله سیحدث ، وأنك ستكون فی حاجة الی أن أتهم نفسی حتماً • فاغتبط ن هأنا ذی أتهم نفسی • اننی لم اصمت حتی الآن ولم أمتنع عن الكلام الا كبریاء ولكننی أشفق علیك وعلی ماما أكثر مما أشفق علی نفسی •••

ولم تكمل ليزا جملتها ، وانما انفجرت تبكى • فقلت لها :

ــ كفى يا ليزا! لا ، لست فى حاجة الى شىء • ما أنا لك بالقاضى يا ليزا • ولكن قولى لى : هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة ؟

فأجابت لنزا برقة وهي تخفض عينيها :

ــ أظن • ولكننى لم أذكر لهــا أنا متى وقــع • الأمــر ، الا منـــذ زمن قصير •

۔ فماذا كان منها ؟

ـ قالت : « احتفظی به » •

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة • فقلت لها :

ــ نعم يا ليزا ، « احتفظى به ، • لا تحــاولى أن تصنعى بنفســك شمئاً • حماك الله من مثل ذلك !

. قالت بشات :

ـ لن أفعل شيئًا •

ورفعت بصرها الى من جديد • ثم أضافت تقول :

ـ اطمئن • ليس الأمر هذا !

ــ لـزا ، عزيز تيي ! كل ما أراه هو أتني لا اعلم سُيئًا • لكنني علمت

الان أننى احبات • هناك شىء واحد لا افهمه يا ليزا : لقد اصبح كل شىء واضمحا لى يا ليزا ، ولكننى لن افهم فى يوم من الأيام ، فهما كاملاً ، لماذا افتنت به يا ليزا؟ كيف أمكن أن تحبى رجلاً مثله ؟ ذلك هو السؤال.

فأجابت ليزا وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة :

ــ ولا شك أن هذه الفكرة أيضـاً قد عذبتـك في الليـــل ، أليس كذلك ؟

- انتظرى يا ليزا ، هذا سوال سيخيف ، وأنت تستهزئين بى ، استهزئي بى ، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش : أنت و « هو » نقيضان القد درست طبعه : انه رجل قاتم المزاج ، كثير الشك ، قد يكون طبياً ، ولكنه ميال كثيراً الى رؤية الشر فى كل مكان ، (هنا على الأقل يشبهني تماماً) ، وهو يحترم النبل احتراماً شديداً ، أعترف بهذا أيضاً وأراه ، ولكنني أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المشل الأعلى ، وهو ميال الى الندم طول حياته بغير انقطاع ، وهو ينحى على تفسه باللائمة دائماً ، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهني على كل حال) ، في رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية ، وألف معنى من المعاني الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ا يسعى الى المآثر الكبرى ، من المعاني الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ا يسعى الى المآثر الكبرى ، كنه لا يزيد على أن أبراكم دناءات فوق دناءات ، معذرة يا ليزا ، انني أمى الى شعورك ، والحق أنني غبى : فحين أقول هذا الكلام أجسر عاطفتك ، وأعلم أنني أفعل ذلك ؟ انني أفهم هذا ، . .

قالت ليزا مبتسمة :

- الصورة التي رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة ، ولكنك مسرف في السخط عليه ، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة ، لقد ارتاب فيك منذ البداية ، ولم تستطع أن تراه كاملاً ، أما معى أنا فانه منذ أن كتا في لوجا ٠٠٠ انه لم ير أحداً غيرى منذ أن كنا في لوجا ٠٠٠ نعم انه

كثير الشك مهيئًا للمرض ، ولولاى لفقد عقله • ولسوف يفقده اذا هو تركنى أو سوف ينتحر •

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة :

ـ أظن أنه يدرك ذلك وأنه يعرفه •

وتابعت كلامها فقالت :

_ صحبح أنه ضعيف ، ولكن أمشال هؤلاء الضعفاء قادرون أحيساناً على أشياء قوية قوة هائلة • ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادى: لا حاجة الى شيء من هذا البتة ، وأنا أعرف ما سوف يحدث • لست أنا التي ألاحقه وأطارده ، بل هو الذي يحسري وراثي . ان ماما تبكي وتقول : « اذا تزوجته فسوف تشقين ، لأنه سكف عن حيك ، • أما أنا فلا أصَّدق هذا الكلام • قد أشقى ، ولكنه لن ينقطع عن حبى • ليس هذا هو السبب الذي حملني على تأخير موافقتي ، وانما هنــالك سبب آخر • لبثت شهرين لا أوافقه على الزواج • ولكنني أجبتــه اليوم قائلة : « نعم ، أتزوجك » • هل تعلم يا أركادي (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقي بذراعيها فجأة) انه ذهب أمس الى آنا آندريفنا ، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع أن ينزوجها ؟ نعم ، لقد أفصيح عن نفسه ، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن ! وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال ، وانما كان ذلك حلم الأمير نيقولاً ایفانوفتش ، وکان ذانك الحلادان ، ستسلکوف وشخص آخر ، یضغطان عليه ضغطاً شديداً • فكان أن كافأته اليوم بجوابي : « نعم ، أتزوجك ، • لا تجرحنك قصة الأمس يا عزيزي أركادي • انه يدعوك البه ، وهو النوم مريض ، وسيبقى طول النهار في البيت • حقــًا انه مريض يا أركادي • لا تظنن أن هذا تعلل • لقد أوفدني اليك خصبصـــاً ورجاني أن أقول لك انه « محتــاج ، اليك ، وان في نفســه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك ، وان هذه الأنساء لو قالها لك هنــا في مسكنك هذا لكانت في غير محلهــا ٠ هياً ، الى اللقاء ! آه يا أركادى ، اننى استحى أن أقول لك هذه الحقيقة ، وهى أننى فى طريقى البك كتت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك لى قد زال ، فكنت أرسم اشارة الصليب طوال الطريق ، ولكننى أحمد الله على أنك طيب جداً ، ولطيف جداً ! لن أنهى هذا فى حياتى ، أنا ذاهبة الى ماما ، حاول أن تحبه قليلاً ، هه ؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها :

۔ أعتقد يا ليزا أنك قوية الارادة • نعم ، أصدَّق أنك لست أنت التي تجـــرين وراءه ، بـبل هو الذي يجـــري وراءك • ولــكن ، رغم كل شيء •••

فقالت ليزا تكمل جملتي :

ـ ولكن رغم كل شيء ، لا لماذا افتتنت به ؟ هذا هو السؤال ، •

قالت هذه الجملة وهي تضحك ضمحكة ماكرة كما فعلت من قبل ، ونطقت بسارة « هذا هو السؤال ، مقلدة " لهجني تقليداً تاماً ، رافعة " ابهامها الى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا •

وتمانقنا > ولكن قلبي انقبض ثانية بعد انصرافها •

أريد أن أسجل هذا لنفسى: بعد انصراف ليزا تلاحقت في خاطرى أفكار غريبة كثيرة أورثتنى ارتياحاً كبيراً • فكنت أقول لنفسى مشلاً: « لماذا أقحم نفسى في هذه الشئون ؟ فيم يعنينى هذا الأمر ؟ ان هذه الأشياء تحدث لجميع الناس أو لجميعهم تقريباً • وقد حدثت لليزا • فماذا ؟ هل على ان أنقذ شرف الأسرة ؟ « لم على ان أمحو عار الأسرة ؟ « • اننى أسجل هذه الخطرات الحقيرة لأبين مدى ما كنت عليه في ذلك الأوان من ترجيع في فهم الخير والشر • والعاطفة وحدها هي التي أنقذتنى: كنت أعرف أن ليزا شقية ، وأن ماما شقية ؟ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما ، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً •

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث ، منذ هذا اليوم الى يوم كارئة مرضى ، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من النسدة أننى أدهش أنا نفسى _ حين أفكر فيها اليوم _ من أننى استطعت أن أصمد ، ومن أن القدر لم يسحقنى القد تعرض عقلى وتعرضت عاطفتى للمخاطر أنساء تلك الأحداث ، فلو قد نفدت طاقتى فى آخسر الأمسر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن أرتكبها) ، لكان من المكن جداً أن يبرئنى المحلفون ، ولكننى سأحاول أن أقص كل شى ، بترتيب محكم ، رغم أن فكرى أنساء تلك الأحداث لم يكن فيسه شى ، من ترتيب ، انى لأنبة الى هذا ، لقد هاجمتنى الأحداث لم يكن فيسه شى ، من ترتيب ، انى لأنبة الى هذا ، لقد هاجمتنى الأحداث كم كماصفة ، فدارت الأفكار فى رأسى كأوراق الأشجار اليابسة فى أعاصبر

اخُريف ، لقد كنت متشبعا حينذاك بافكار الاخرين ، فأين أجد فكرة البعة من نفسي فاتخذ قراراً حرآ! ولم يكن نمة من يرشدني .

قررت أن أذهب في المساء الى الأمير ، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة ، والى أن يحين المساء بقيت في البيت ، ولكنني حين حل الغسق تلقيت بالبريد رسالة جديدة من ستبلكوف ، مؤلفه من ثلاثة أسلط ، يطلب الى فيها بالحاح وبلهجة ، مقنعة ، الى أبعد حد أن أزوره غدا في الساعة الحادية عشرة من الصباح ، لأعمال ذات شأن هام ، وسترى بنفسك ما هي ، و فقررت ، بعد تفكير ، أن أتصرف وفقا للفلروف ، فالغد لا يزال بعيداً ،

كانت الساعة قد بلغت الثامنة • وكان يمكن أن أمضى الى الأمير منذ مدة طويله ، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسلوف : فان هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبر له عنها ، وكان قلبى يحترق احتسراقا • ولكن فرسيلوف لم يجيء فم وقد أصبحت لا أستطيع فى تلك اللحظة أن أظهر عند أمى وليزا ، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار • فخرجت سبراً على القدمين ، وفيما أنا فى الطريق خطر ببالى أن ألقى نظرة على حانة الأمس التى تقع نحت مستوى الأرض • فوجدت فرسبلوف هناك ، فى المكان الذى كان فيه البارحة •

قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة ، ويحدجنى بنظرة عجيبة : ـ كنت أعرف أنك ستأتمي .

كانت ابتسامته خالية من الطيبة ، لم أر مثلهــا في وجهه منــذ مدة طويلة •

جلست الى المائدة ، ورويت له من البداية الى النهاية جميع الوقائم التى تتصل بالأمير وليزا ، وقصصت عليه المشهد الذى وقع لى أمس مع الأمير بعد الروليت ، ولم أنس أن أذكر له أننى أصبت فى القمار ربحاً

كبيراً • فأصغى الى بانتباء شــديد ، وسألنى عن القرار الذى اتنخذه الأمير في تزوج ليزا • وقال :

د يا للطفلة المسكينة »! لعلها لن تجنى من هذا ربحاً • ولكن أغلب الظن أن الأمر لن يتم • • • رغم أن الشاب قادر على أن • • •

_ قل لى كما يقول صديق لصديقه : هل كنت تعلم ؟ هل كانت نفسك تحدثك بشيء ؟

ـ يا صديقي ٢ ماذا كان في وسمعي أن أعمل ؟ ذلك أمر من أمور العاطفة والوجدان ، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل ، أكرر لك ما سمبق أن قلته : لقد طالما تدخلت في شمئون غيرى في الماضي ، ثم أقلعت عن هذه الدعوى الحرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ ا هذا لا ينفي طبعاً انني لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً اذا ألم به شمقاء ، أن أساعده في حدود طاقتي ، بشرط أن أفهم شميئاً مما يحدث ، ولكن قل لى : ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة ؟

فقلت وقد اشتعلت نفسي غضباً :

ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت في أننى أعرف علاقة ليزا بالأمير ـ ولو أقل اشتباه ـ ورأيت في الوقت نفسه أننى أقبل أن آخذ من الأمير مالا م كيف أمكنك أن تتحدث معى ، وأن تجالسنى ، وأن تصافحنى ، أنا الذي لابد أنك كنت تعدني شيخصاً حقيراً ؟ أراهن على أنك كنت تشتبه حتماً في أننى أعرف كل شيء ، واننى كنت آخذ المال من الأمير ثمناً لأختى وأنا عالم بالأمر كل العلم 1

قال وهو يبتسم :

_ أقول لك مرة "أخرى ان هذا شأن من شئون الوجدان والضمير • ثم أضاف يقول وقد لاح في وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة :

_ ومن ادراك أننى كنت لا أخشى _ كما خشيت أنت ، في حالة أخرى _ أن أفقد مسلى الأعلى ، وأن اكتشف في ابنى النزق الشريف وغدا حقيرا ؟ لقد كنت أخشى هدا ، فكنت أؤجل لحظة المعرفة الاليمة ، لماذا لا تفترض في " ، بدلا " من الكسل والداءة ، شيئاً أقرب الى البراءة ، بل شيئاً من الغباء أيضاً ، والغباء أنبل على كل حال ، على أننى كثيراً ما أكون غبياً بغير نبل ، بأى حق يمكن أن أكون متشدداً في محاسبة ابنى ؟ هذا على أن اصلاحك بالاكراء لا قيمة له في نظرى ،

ــ وليزا؟ ألا تشفق عليها؟ ألا ترثى لحالها؟

ــ أشــفق عليهـــا كشيراً يا عزيزى • من قال لك اننى خــال من الاحساس ؟ • • • بالعكس ، اننى أحاول بنجميع الوســائل • • • وأنت ؟ كف تسير أمورك • أنت ، ؟

ـ دعنا من أمورى ، لم يبق لى « أنا » أمور ، اسمع ! لماذا تشك فى أنه سيتزوجها ؟ لقد ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأعرب لها عن عدوله اعراباً واضمحاً ٥٠٠ أقصد عن هذه الفكرة السخيفة ٥٠٠ التى قامت فى ذهن الأسير تيقولا ايفانوفتش ٥٠٠ فكرة أن يزوجهما ، لقد عدل عن هذه الفكرة عدولاً صريحاً ،

_ صحيح ؟ متى حدث هذا ؟ ممن علمته ؟

أَلقى على من الأسئلة مستطلعاً باهتمام • فحكيت له كل ما كنت أعرفه • فقال واجماً كمن يفكر بينه وبين نفسه :

هم ° • • • اذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة •
 هم ° • • • نعم • • • • جاثر جدا أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما • •
 رغم أن شيئًا لم ' يقل ولم يعمل هناك أبدا حتى ذلك البوم ، لا من هذا

الجانب ولا من ذاك ٠٠٠ أنا أعرف هذا • نعم ٠٠٠ حتماً ٠٠٠ تكفى كلمتان اثنتان للعرض • ولكن ٠٠٠

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة r وتابع كلامه فقال :

- ولكن اسمع ٠٠٠ سأذكر لك نبأ خارقاً لا شك أنه سيهمك : لو أن صاحبك الأمير طلب من آنا آندرييفنا أن يتزوجها (وذلك عرض كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه ، لما في ذهني من شبهات عن العلاقة التي بين الأمير وبين ليزا ، أقول لك هذا سرا بيني وبينك) لرفضت آنا آندريفنا طلبه فوراً • على كل حال أظن أنك تحب آنا آندريفنا كثيراً ، وتحترمها ، وتقدرها ، أليس كذلك ؟ هذا لطف كبير منك ، ولسوف ثبتهج لها اذن : فاعلم يا عزيزي أن آنا آندريفنا مقبلة على زواج ، وإذا صدق ما أعرفه عن طبعها ، فانها ستتزوج حتماً ، وسأبارك أنا زواجها طبعاً •

هتفت أقول مدهوشاً :

ــ ستتزوج ؟ من الذي ستتزوجه ؟

۔ أحزر • هيئًا ، لا أريد أن أعذبك • سنتزوج الأمير نيقولا ايفانوفتش ، شيخك العزيز •

حملقت • وتابع كلامه بقول بتراخ ووضوح :

ــ من الجائز جـداً أن تكون هذه الفكرة قد نبت في ذهنها منذ مدة طوياة : ولاشك أنها صقلتها صقلا فنيا على جميع وجوهها، وفي تقديري أن الأمر قد تم بعد زيارة « الأمير سرجويا » بساعة تماماً (هذا مثال على غزواته التي تنجي في غير الأوان) • لقد جاءت الى الأمير نيقولا ايفانوفتش بساطة وعرضت عليه أن يتزوجها •

ے کیف ؟ می عرضت علیہ أن ينزوجهـا ؟ تقصــد : عرض علیها أن ينزوجها ؟

_ هو ؟ دعك من هذا ! هى التى عرضت عليه ، هى ا وواقع الأمر الآن أنه ممتلى، حماسة ، ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله ، ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً ، من فرط الحماسة أيضاً . . . فى أغلب الظن ،

۔ اسمع ۰۰۰ انك تتكلم بسخرية شــديدة ٠ فلا أكاد أصــدقك ٠ كـف تحر ض علمه أن يتزوجها ؟ ماذا قالت له ؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جد مدهش على حين فجأة :

_ ثق يا صديقى اننى مسمج ابتهاجاً صادفاً • صحيح أنه شيخ ، ولكن جميع القوانين والعادات تنجيز له أن يتزوج • أما عنهـا هي ، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير ، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقي • ثم انها أهل لأن يكون لهــا رأيها وأن تتخذ ڤرارها الحاص بها • وأما عن التفاصيل ، وعن الكلمات التي استعملتها في مخاطتيه ، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئًا يا صديقي • ولكنها دبَّرت أمرها على كل حال ، كما لا نستطيع أن نفعل نحن ، لا أنا ولا أنت با صديقي • وخير ما في المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة ، فهو في نظر جميع الناس سليم كل السلامة ، هو « كما ينجب ، جداً • واضبع أنها أرادت أن تنشىء لنفسها مركزاً في المجتمع ، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز في المجتمع • تلك كلها أمور رائحية في المجتمع • ولابد أن العرض الذي تقدمت به قد صاغته بعبارات وائمة فاتنة • أن لها طبعاً قاسباً يا صديقي ؟ هي راهبة شديدة المراس كما ألقيها بذلك منذ مدة طويلة • لاحظ أنها ربيته تقريباً ، وأنهـا خبرت طبيت كثيرًا • وطالما أكدت لى أنهــا تنحمل له • كثيرًا من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة ! ، ، النح ، لذلك كنت شبه منهى-

لتلقى النبأ • هذا كله قد نقله الى اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابنى آندره آندريفتش ، أخوها ، الذى لا تعرفه ، والذى أراه مرة واحدة كل سته أشهر تماماً • وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم •

- اذن أذيع النبأ ؟ ما أشد دهشتى !
- ۔ لا ، لم 'یذع بعد ۰۰۰ ولن یذاع الا بعد مـــدة ۰ متی ؟ لا أدری ۰ علی كل حال ، أنا لا دخل لی أبداً ۰ ولكن كل ما قلته لك صحيح ۰
- _ ولكن ما عسى أن يكون موقف كاترين ايفانوفنا الآن ؟ لاشك أن هذا الأمر لن يسر بيورنج !

ـ ذلك ما أجهله • ولكن مم على ألا يسر ؟ صدقنى على كل حال ان آنا آندريفنا سوف تعرف كيف تحسن التصرف فى هذا المجال أيضاً • يا لآنا آندريفنا هذه! لقد سألتنى فى صباح أمس هل أحب السيدة آخماكوفا • هل تتذكر ؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً: ألا يمكنها أن تتزوج الأب اذا تزوجت أنا البنت ؟ هل تفهم الآن ؟

هتفت أقول :

ـــ آ ••• فعلاً • ولكن هل يخطر ببال آنا آندريفنا حقاً أنك يمكن أن تريد تزوج كاترين تبقولايفنا ؟

ـ طبعاً يا صديقى • على كل حال ، على كل حال ، آن الأوان لأن تذهب الى حيث كنت تريد أن تذهب • اننى أشعر بألم فى رأسى • سوف أطلب أن 'تعزف • لوسيا ، • أحب عظمة الضجر والسأم • أظن أننى قلت لك هذا قبل الآن • ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتضر! قد أنصرف من هنا مع ذلك • أحبك يا صديقى ، ولكن استودعك الله ! حين أحس بألم فى الرأس أو فى الأسنان فاننى أشتاق دائماً الى الوحدة •

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم • انتى أصدقه الآن • لقد كان يشعر بألم في رأسه ، في رأسه خاصة ً •••

فلت:

- ــ الى الغد .
- ــ ما تعنى بقولك الى الغد؟ وما الذي سيحدث غداً ؟
 - وابتسم ابتسامة شزراء •
 - ... أجيء اليك أو تجيء الى ً •
- ۔ لا لن أجىء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الى ً كان فى وجهــه سوء وشر ، ولكننى لم أنتبه الى هذا • ياله من حادث ا

كان الأمير مريضاً بالفعل: فهو ملازم بيته ، معصوب الرأس بخرفة مبللة ، وكان ينتظرنى نافد الصبر ، ولكن لم يكن وأسه وحده مريضاً ، بل كان شخصه كله يعانى من ألم نفسى ، تنبيه آخر: اننى فى هذه الآونة الأخيرة ، وحتى وقوع الكارئة ، لم ألق الا أناساً مهتاجين اهتياجاً شديداً ، فكان لابد أن تسرى عدواهم الى رغم ارادتى ،

يجب أن أعترف بأننى حين وصلت اليه كانت نفسى زاخرة بعواطف سيئة ، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أننى بكيت عنده أمس ، لقد بلغا من خداعى ، هو وليزا ، أننى كنت أقد ر أنهما يعدانى غيباً ولاشك ، الحلاصة أن قلبى كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه ، ولكن هذا كله كان سطحياً ، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر ، يجب أن أنصف الأمير فأقول : انه متى خفت حدة تأذيه أو زالت ، فتح نفسه لك صادقا ، فاذا آنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل ، من حنان وثقة ومحبة ، لقد قبلنى والدموع تترقرق في عينيه ، ثم سرعان ما شرع يتحدث في الأمر ، ، ، نهم ، لقد كان في حاجة الى حقاً ، وكان في أقواله وفي تتابع أفكاره اضطراب كبير ،

أعلن لى جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا ، وعلى أن يتزوجها فى أقرب وقت • وقال لى : « ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء ، فذلك أمر لم يهمنى لحظة واحدة • لقد تزوج جدى فتاة من الأقنان كانت مننية في مسرح خاص لملاك مجاور • صحيح ان اسرتي تعقد على امالاً من نوع خاص ، ولكنها سنذعن الان مضطرة ، وسيتم هذا بغير صراع • اديد أن اقطع صلتي بكل مجتمع هذا الزمان ! اديد شيئا اخر ، شيئا جديدا ! لا آدري لماذا آحبتني آختك ، ولكن لعل السب هو انني لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم • أحلف لك صادقاً كل الصدق أنني أعد لقائي لها في لوجا رحمة الهية • أعتقد أنها أحبتني بسبب • فداحة سقوطي ، • • • ولكن هل تفهم هذا يا أركادي ما كاروفتش ؟

فأجبته بصوت يعبر تعبيرا واضحاً عن الاقتناع :

_ كل["] الفهم •

كنت جالسماً على المقعد الذي يواجمه المائدة ، وكان هو يسير في الغرفة طولاً وعرضاً •

سيجب أن أروى لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفى شيئاً و لقد بدأ كل شيء بسر خاص عرفته وحدها به لأننى لم أبيع به الالها بم ولا يعرفه أحد حتى الآن و لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً به وأقمت عند سنولبيافا به لا أدرى الآن لماذا! لعلنى أردت أن أنشد أكمل عزلة ولقد تركت الجيش منذ قلبل و وكنت قد دخلت الجيش عند عودتى من الخارج بعد ذلك اللقاء في الخارج مع آندره بتروفتش و وكنت أملك في ذلك الحين ثروة بم وكنت أبدًد المال تبديداً به وأعيش حياة بذخ ولهو ولكن رفاقي كانوا لا يحبونني و ومع ذلك كنت أحاول ألا أسيء اليهم ولكن رفاقي كانوا لا يحبونني وهو في الواقع رجسل فارغ تافه بل يكاد عامل علم السمه ستيانوف به وهو في الواقع رجسل فارغ تافه بل يكاد يكون أبله و الحلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات و ولكنه كان رجلاً يكون أبله و الحلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات و ولكنه كان رجلاً يكون أبله و الحلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات و ولكنه كان رجلاً يكون أبله و الحلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات و ولكنه كان رجلاً يمكن أن يجحد أحد شرقه وقد تشبث هذا الرجل بي و فكنت

لا أُضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه • كان يأتي الى ، فمجلس في ركن من الاركان اياما كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة ، ولكن بوقار وكرامة ، فلا يزعجني أي ازعاج • وقد قصصت علمه في ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة : وهي أن ابنة الكولونيل تحمل لي عاطفة حب ، وأن الكولونيــل يعنُّول على ۖ فأستطيع أن أحِّركه كيف أشـــاء • ولا حاجة الى ذكر التفاصيل ، فانما المهم أنه قد نشــأت عن كلامي هذا شائعــات وأقاويل معقدة غاية التعقيد ، قذرة " الى أبعد حــدود القذارة . وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستبانوف ، وانما كان مصدرها خادمی الذی سمع کل شیء وحفظ کل شیء ، لأن الکلام کان حکایة سيئة تفسد مسمعة فتاة • فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت في الناس سَّمي ستيبانوف بل ذكر أنني الذي رويتها لستيبانوف • وكان يستحيل على ستيانوف أن ينكر أنه سمعها + فهذه مسألة شرف • ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثى الحكاية اختراعاً لزخرفتهما فقد اسـناء الضياط واضطر الكولونيل أن يجمعنا في ببته لتوضميح الأمسور ووضعها في نصابها • وهنساك ألقي هذا السؤال على سـتيبانوف بحضـور الجميع : أسمعت أم لم تسمع ؟ فقال ستيبانوف الحقيقة • فكيف كان تصرفي أنا الأمير الذي أنتسب الى ســـلالة أمراء عمرها ألف سنة ؟ لقد أنكرت ، وقلت أمام ســتيبانوف انه كذب ، أو بتعبير مهــذب : « لم يحسن فهــم ما قلت ، ، النع • هنــا أيضــاً لا داعى الى ذكر التفاصــيل • وانما المهم أن أشمير الى أن موقفي يمتــاز على موقف ستيبانوف بأنني كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيبانوف على المجيء الى بيتى ٢ أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن ثمـة تواطأ قد تم بين ســتيبانوف وبين خادمي لتحقيق بعض المنافع ، وذلك شيء يمكن أن 'يصَّدق ٠٠ وذلك ما كان ٠ فلم يز د ستيبانوف على أن نظر اليُّ وهُمِّز منكبيــه دون أن ينطق بكلمـــة واحـــدة + انني أنذكر

نظرته ولن انساها ما حييت • ولم يلبث سنيهانوف ان قدم اسنقالته فوراً • ولكنك لن تحرر أبدأ ما حدث • ان جميع الضباط ، من أولهم الى آخسرهم ، قد زاروه ونانسدوه ألا يرحسل • حتى اذا مضى اسبوعان كنت أنا الذي أترك الجيش : لم يطردني أحد ، ولم يدعني أحمد الى الرحيل ، وانما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتي . هكذا انتهت القضية . وقد بقيت في أول الأمر غير مكترث ، حتى لقد كنت غاضبًا منهم • وأقمت فى لوجا ، وتعرفت الى اليزابت ماكارونسا ، ولكننى أخــنت بعد انقضاء شمهر واحد ، أنظر الى مســدسى وأفكر في الموت • انني أرى الأمــور سسوداء دائماً يا آركادي ماكاروفتش . وأعــدت رسالة الى الكولونيل والى رفاقي في الجيش لأعترف بكذبي ولأردُّ الى ستبيانوف اعتباره • وحين انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسى هذا السؤال : • أأرسلها وأعيش أم أرسلها وأموت؟ * • وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء الى اجابة • لكن مصادفة من المصادفات ، مصادفة عمياء ، قرَّ بتني فجأة من النزابت ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بيني وبينها • كانت حتى ذلك الحين تختلف الى ستولبيافا ، فكنا نلتقي أحياناً ، ونتبادل النحية ، ولا نتخاطب الا في القليل النادر • قاذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شيء • وعندئذ انما مدت لي يدها .

ــ وكيف حلت المشكلة ؟

لم أبعث الرسالة • هى التى قردت ذلك • وستّوغت قرارها على هذا النحو: اذا بعثت الرسالة فلا شك أن عملى يكون نبيلا يغسل عادى ولكن هل أطبق أنا نفسى احتمال هذه الخطوة ؟ وكان رأيها أن أحسدا لا يستطبع احتمال مسسل هذه الخطوة ، لأن كل مستقبل يكون قد ضاع ، وكل انبعاث من أجسل حياة جديدة يصبح مستحيلاً • ثم ان ارسال الرسالة يكون له ما يوجيه لو أن ستيانوف قد أوذى وتألم ، ولكن

ستيبانوف قد ردَّ اليه الضباط اعتبساره ، وهو معهـم على أحسن حال . الحلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة . ولكنها صدتنى عن بعث الرسالة ، وانقدت لها انقياداً ناماً .

هتفت أقول:

ولقد اتخذت قراراً على غرار ما يفعل يسوعى ، ولكن على غرار
 ما تفعل امرأة أيضا • كانت تحبك منذ ذلك الحين •

ولابدلن حياتى، ولاكسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها • فانظر الى أى ولابدلن حياتى، ولاكسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها • فانظر الى أى شىء انتهى ذلك كله! ركضنا أنا وأنت الى بيوت القمار ، لعبنا الباكاراه ، أطاش الميراث صوابى ، لم أفطن الا الى اللذة ، لم أنتب الى ضمان مستقبلى وعملى ، وعاشرت الأوغاد من الناس ، وحفلت بمظاهر الأبهة والدفعت فى نرهات المجتمع الراقى • وعذبت ليزا • آه • • يا للمار!

قال ذلك وفرك جبينه بيده، وراح يذرع الغرفة، ثم أردف يقول:

ـ نحن كلانا مصابان بالداء الروسى المألوف يا آركادى ماكاروفتش:
فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل ، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل ،
ان الروسى متى خرج عن الطريق الذى رسمته له العادة أصبح لا يعرف ماذا يجب أن يعمل ، في الطريق المرسوم كل شيء واضح : دخل ، ماذا يجب أن يعمل ، في الطريق المرسوم كل شيء واضح : دخل ، ماذا يبقى منى عند أول انحراف عن الطريق المهدد ؟ ورقة تذروها الربح! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل! لقد حاولت في هذين الشهرين الربح! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل! لقد حاولت في هذين الشهرين أن أبقى في الطريق المرسوم ، وأردت أن أحب الطريق المرسوم ، وغصت أن أجب الطريق المرسوم ، وغصت التي سقطت فيها: لقد كنت أحبها حباً صادقاً ، وكان فكرى في الوقت نفسه ينصرف الى السدة أخماكوفا!

هتفت أقول مثالما :

۔ أهذا ممكن ؟ قل لى بالمناسبة يا امير : ماذا ذكرت لى أمس عن فرسيلوف ؟ هل قلت لى انه كان يحضلك على ادتكاب دناءة في حق كاترين ايفانوفنا ؟

ـ لعلني بالغت • ولعلني بسب ما أتصف به من سرعة السَّاذي فد أذنبت في حقه مثلما أذنبت في حقك • ولكن دعنا من هذا الآن • هل تتصور أنني طوال هذه المدة ، وربما منذ أيام لوجا ، لم أكن وفيـــــاً لأي مثل أعلى في الحياة ؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقني قط ، بل كان دائماً أمامي ، ولم يفقد شيئاً من جماله في نظري • كنت أتذكر العهد الذي قطعته على نفسي لاليزابت ماكاروفنــا وهو أن أبعث بعثــاً جديداً • وحين حدثني آندره بتروفتش بالأمس هنا عن النبل فانه لم يقل لى شيئًا جديدًا ، ثق بذلك • ان مشلى الأعلى ثابت راسخ : بضع عشرات من الهكتارات (بضع عشرات لا أكثر ، اذ لم يبـق من الميراث شي. تقريبـاً) ؛ وقطيعة تلمة ، تامة اطلاقاً ، مع المجتمع الراقى وعالم المناصب ؛ ومسكن ريفي ، وأسرتي ، وأنا ٥٠٠ أحرث الأرض أو أقوم بعمل من هذا الفييل • وليس هذا في سلالتنا شيئًا جديداً : ان عمى كان يدفع سكة المحراث ، وكذلك كان جدى • نحن أمراء منذ ألف سنة ، ونبلاء مثل آل روهان ، ولكنتا فقراء • واليك ما كنت سأقوله لأولادى : « تذكر طول عمرك يابني " أنك نبيل ، وأن الدم المقدس ، دم' الأمراء الروس ، يعجري في عروقك ، ولكن لا تحمر " خجلا" من أن أبال دفع سكة المحراث : فهو انما فعل ذلك كما يفعله أمير ، • ولن أترك لأولادي تروة عدا تلك الرقعة من الأرض ، ولكنني في مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عاليـاً ، ســوف أجعل ذلك واجبًا يقع على عاتقي ولا أتخلي عنه أبدًا • وستساعدني ليزا في ذلك • ليزا ، الأولاد ، العمل ! آه • • لكم حملنا بهذا كله ، أنا وهي ، في

هذا البيت نفسه ! وفى الوقت نفسه كان فكرى ينصرف الى آخماكوفا ، دون أن أحبها أبداً ، وكنت أفكر فى زواج ثرى راف ا ولم أقرر أن أذهب الى آنا آندريفنسا الا بعد ذلك النبأ الذى حمله ناشتشوكين بالأمس من بيورنج ذاك .

- ولكنك ذهبت اليها لتنسحب هذه خطوة شريفة فيما أدي •
 أتظن ذلك ؟
- ألقى هذا السؤال ، ووقف أمامى متسمراً ، ثم استأنف كلامه قائلاً :
- ـ بل انك لا تعرف طبيعتى بعد ، أو قل ٠٠٠ أو قل ان هاهنائسياً لا أعرفه أنا نفسى ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب ، اننى أحبك صادفاً يا آركادى ماكاروفتش ، وعدا هذا فقد أثمت فى حقك اثماً عميقاً خلال هذين الشهرين ، لذلك أريد أن تعرف كل شى ، ، من حيث أنك أخو ليزا : أنا انما ذهبت الى آنا آندريفنا لأخطيها ، لا لأنسحب ،
 - _ أهذا معقول ؟
 - _ لقد خدعت ليزا •
- اسمح لى : أخطبت آنا آندريفنا خطبة رسمية ورفضت ؟ نهم ؟ أهذا ما حدث ؟ ان التفاصيل تهمني كثيراً يا أمير •
- ـ لا ، لم أتقدم بخطبتها ، ولكن السبب هو أننى لم يتح لى ذلك ، وهى التى أفهمتنى ، لا بألفاظ الرفض طبعاً ، ولـكن بكلمـات واضحة شـــفافة مع ذلك ، أفهمتنى ، برقة ، أن هذه الفكرة أصبحت بعـد الآن مستحلة ،
- ـ فكأنك اذن لم تخطبها ، وبقيت كرامتك ســليمة ً لم يمسســها أذى .

لا كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير؟ وحكم ضسميرى ، وليزا التي خدعتها ٠٠٠ والني أردت اذن أن أحجرها؟ والمهد الذي قطعته على نفسي وعلى سلالة أسلافي جميعاً ، وهو أن 'أبعث بعثاً جديداً وأن أكفر عن دناءاتي الماضيات؟ أتوسل البلت : لا تحدثها في هذا الأمر ، فلمل هذا هو الثبيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تغفره لي ! انني من ذلك مريض منذ الأمس ، ويبخيل الى خاصة أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكي سيودع في السجن ! مسكينة ليزا ! لقد انتظر تك نافذ الصبر ، يا آركادي ما كاروفتش ، لأكشف لك ، بصفتك أخا ليزا ، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن ، انني معجرم من معجرمي الحق العام ، أشارك في صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركان السكك الحديدية ،

ـ ما هذا أيضاً ؟ ماذا تقول ؟ تودع في السجن ! ٠٠٠

قلت له ذلك منتفضـاً وتأملته مذعوراً • كان وجهه يعبر عن مرادة عديقة قائمة لا مخرج منها • قال :

۔ اجلس ا

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالتي • وشرع يتكلم :

- اعلم أولاً هذا : منذ أكثر من سنة ، في ذلك الصيف ، صيف امس وليديا وكاترين ايفانوفنا وباريس بعد ذلك ، يوم أردت أن أذهب الى باريس لقضاء شهرين ، وفي باريس بطبيعة الحمال ، كنت في عوز ، وحيشة الد انما جاءتي ستيبلكوف ، وكنت أعرفه على كل حمال ، فأعطاني مالاً ووعدني بعزيد ، ولكنه سألني أن أساعده : كان في حاجة الى أحد يكون قنانا رساما حفاراً طباعا وهلم جرا ، كيميائياً وتكنيكياً ، وذلك الأغراض معنة ، وقد جعلني أدرك تلك الأغراض مئذ المرة الأولى

ادركا واضــــحا ، لقد كان يصرف طبعى ، فلم يزد ذلك كله على ان أضحكنى وسلانى ، وكنت آعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد الدرس ، شخصاً هو الآن مهاجر روسى ، لا روسى الأصـل على كل حال ، يقيم فى مكان بمدينة هامبورج ، كان هذا الرجل قد شارك ابان اقامته بروسيا فى قصة تزييف أوراق ، وعلى هذا الرجل انما كان يعول ستيبلكوف ، ولكنه كان فى حاجة الى من يوسى به لديه ، فانجه الى يلتمس منى هذه التوصية ، فكتبت له سطرين بخط يدى ثم لم أفكر فى هـذا الموضـوع ، وقد رآنى بعد ذلك مرارا ، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل ، ولقد نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً ، وصرت اقترض منه هنا من حين الى حين ، على رهون أو بسـندات ، وكان يتلوى أمامى ذليلا كما يتلوى عبد ، وعلمت منه أمس فجأة ، لأول مرة ، اننى مجرم من مجرمي الحق العام ،

_ أمس؟ أية ساعة؟

_ ساعة كنا تتصارخ فى مكتبى قبيل وصول ناشتشوكين • لأول مرة ، وبألفاظ صريحة فى هذه المرة ، تنجراً أن يكلمنى عن آنا آندريفنا وقد رفعت يدى لأضربه ، لكنه نهض فجأة ليعلن أننى متضامن معه ، وأن على أن أتذكر أننى كنت شريكه فى الجرم ، وأننى وغد مثله • ذلك ما قاله لى ، ان لم يكن بنصه فيمناه •

_ ما هذه السخافات ؟ أهذا حلم ؟

ـ لا ، ليس حلماً • ولقد جانبى اليوم ، فزادنى ايضاحاً • ان هذه الأسهم المزيفة هى الآن فى التداول ، ويظهر أن عدداً منها قد صوود هنا وهناك • وأنا ليس لى فى الأمر أى دخل طبعاً • ولكن ستيبلكوف قال لى : « أما تكرمت فأعطيتنى كتاب التوصية هذا فى ذلك الحين ؟ » •

_ ولكن أكنت تعلم لماذا النمس منك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف ؟

أجاب الأمير وهو يخفض صونه ويخفض عينيه أيضاً :

.. كنت أعرف ، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف • لقد ضحكت وسلا أنى الأمر • ولم أفكر وقتلذ في شيء ، لا سيما وأننى لم أكن أنا في حاجة الى أسم مزيفة ، ولم أكن أنهيا أبدا لصنع أسهم مزيفة ، ولكن النلائة آلاف روبل التي أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً على ، وقبلت أنا ذلك • ثم ما أدراك ؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً ! لم يكن في الامكان ألا أعلم ، ما أنا بطفل • ولكن الأمر سلاً ني وأضحكني ، وساعدت مجرمين ••• ساعدتهم طمعاً في مال ! واذن فأنا أيضاً مزيف!

ــ لا ، لا ، انك تبالغ! صحيح أنك مذنب ، ولكنك تبالغ!

- الخطير في الأمر أن هنساك شاباً اسسمه جبيلسكي يعمل كاتباً في القضاء وتحوم حوله الشبهات ، قد شارك أيضاً في حكاية الأسهم المزيفة هذه ، ثم جاءني بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورج ، جاءني لترهات وسنفاسف طبعاً ، بـل انني لا أعرف لأى غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءني ، ولكنه يحتفظ برسالتين مني ، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو احداهما سطرين ، غير انهما تشهدان على " واليم أدركت هذا ، ويقول ستيبلكوف ان جيبلسكي هذا مزعج : فقد سرق لا أدرى ماذا ، سرق مالا من الخزينسة فيما أظن ، وهو ينتوى أن يسرق المزيد ثم يهاجر ؟ ومن أجل أن يهاجسر يجب أن يتزود للسغر بثمانيسة آلاف رويسل ، لا أقل من ذلك ، ان نصيبي من الميرات يكفي ستيبلكوف ، ولكن ستيبلكوف يقول ان علينا أن نرضي جيبلسكي يكفي ستيبلكوف ، ولكن ستيبلكوف يقول ان علينا أن نرضي جيبلسكي يكفي ستيبلكوف ، ولكن ستيبلكوف يقول ان علينا أن نرضي جيبلسكي يكفي ستيبلكوف ، ولكن ستيبلكوف يقول ان علينا أن نرضي جيبلسكي

ذلك عشرة ألاف روبل • هذه كلمتهم الأخيرة • فاذا نفَّذت هذا الشرط ردُّوا الى ً الرسالتين • وواضح أنهم متواطئون •

_ يا للسخافة ! انهم اذا وشوا بك كانوا يستُلمون أنفسهم ! فلا يمكن أن يشوا بك •

- أعرف هذا • ثم انهم لا يهد دون بأن يشوا بي • بل يقولون : و نحن لن نشى بك ، ولكن افتضح الأمر • • • • ذلك ما يقولونه • ذلك كل ما يقولونه • وأظن أنه كاف • ولكن ليس هذا هو الأمر : هبنى استرددت الرسائل • فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد متضامناً معهم ؟ آه • • كيف يمكنني أن أبقى الى الأبد رفيقهم ؟ أكذب على روسيا ، أكذب على الأطفال ، أكذب على ليزا ، أكذب على ضميرى • • • ؟

_ هل تعلم ليزا ؟

ــ لا 7 لا تعلم كل شيء • لو علمت ، وهي على ما هي عليه من حال ، لماتت من هول الصــدمة • انني أرتدى الآن بزة الجيش ، فكلمــا صادفت جندياً من الجيش ، شــعرت شعوراً كاوياً بأنني لا أستحق ارتداء هذه البزة •

هتفت أقول فجأة :

- اسمع! لا حاجة الى الاكثار من الكلام + ليس أمامك الا طريق واحدة للخلاص + اذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، وخذ منه عشرة آلاف روبل ه اسأله ان يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن شىء ، ثم استدع هذين الوغدين ، وصيّف حسابك معهما تصفية نهائة بافتداء رسائلك ٠٠ فينتهى كل شىء ، وتمضى تحرث الأرض! دع الأوهام وثق بالحياة!

قال مؤكداً:

لقد فكرت في هذا • فكرت في هذا اليوم ، واتخذت أخيراً قرارى • وكنت لا أنتظر الا أن تجيء أنت • سلوف أذهب اليه • هل تعلم اننى لم يسبق لى أن اقترضت في حياتي كلها قرنساً واحداً من الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟ انه طيب في معاملة أسرتنا ، حتى انه • • • أظهر اهتماماً بنا • • ولكننى • • شخصياً • • لم أطلب منه أي مال في يوم من الأيام • وهأنذا الآن أرتضي لنفسي أن أطلب منه • لاحظ أن فرعنا أقدم من فرع الأمير نيقولا ايفانوفتش : انهم هم الفرع الحديث ، الفرع الهجين ، الفرع المشكوك فيه تقريباً • • • ولقد تناصب أسلافنا العداء • وفي بداية عهد الاصلاح ، أيام بطرس الأكبر ، كان أبلو جدى ، واسمه بطرس أيضاً ، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطرف في غابات كوستروما • فهذا الجد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هي أيضاً ، وعندثذ انما تقدمنا آل سوكولسكي هؤلاء • • • ولكن عم كنت أتكلم ؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه •

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتي :

_ هدىء نفسك • كم قبل كل شىء • أما الأمير نيقولا ايفانوفتش فانه لن يرفض حتماً ، ولا سيما الآن ، فى غمرة فرحه • هل تعرف القصة ؟ لا ! غير معقول ! لقد بلغنى نبأ عجيب : أنه سيتزوج • هذا سر ، ولكن لا " يكتم عنك أنت طبعاً •

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتى أهم " بالانصراف ، لم بكن على علم بالأمر ، فجعل يسألنى عن تفاصيل ، ويسألنى خاصة " عن الزمان والمكان وحظ النبأ من امكان التحقق ، فلم أخف عنه طبعاً أن الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته آنا آندريفنا بالأمس فوراً ، لا أستطبع أن أصدور لكم الأثر الأليم الذي أحدثه هذا النبأ في تفسسه ، فقد تشوه وجهه وتخد د ، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب ، واصفر أخيراً ، ثم

خفض عينيه وغاص في تفكير حالم عميق ٠ لقد رايت رؤيه واضحه ان روض انا اندريفنا كان فد جرح كبرياء جرحا بالغا عميفا ٠ ولعله وهو فيما هو فيه من حالة مرضية قد غلا وأسرف الآن في تصور الدور المضحك الذليل الذي قام به امس امام تلك الفتاة الني كان بتوقع موافقتها بثقه تامة كما طهر ذلك واضحاً ٠ ولعله اخيرا قد تصور الدناءة التي ارنكبها في حق ليزا ٢ وهي دناءة لم تمد عليه بطائل ! انه لأمر طريف نمائق أن يرى المرء ما هي آواء أبناء المجتمع الراقي يعضهم في بعض ٢ وعلى أي أساس يحترم بعضهم بعضاً : لقد كان في امكان هذا الأمير مع ذلك أن يفترض أن آنا آندريفنا على علم بالصلة التي بينه وبين ليزا ٢ أختها مهما يكن من أمر ٢ وأنها ان كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً في يوم من الأيام ٠ ولكنه رغم ذلك كان لا ٥ يبخالجه شك في قراره ١ !

وحَّدق الى َّ فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال :

_ فكيف أمكنك أن تظن أتنى أرضى > « أنا ء أن أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش أسأله مالا بعد نبأ كهذا النبأ ؟ أذهب الى خطيب الخطيبة التى رفضتنى ؟ ان هذا يكون استجداء ، وذلا " ، وعبودية ! لا ، لا ، ضاع الآن كل نى ء • اذا كانت ممونة هذا النسخ هى آخر أمل ، فليهلك هذا الأمل أيضاً !

كنت في قرارة نفسي موافقاً على ما يقول • ولكن كان ينبغي على المرء مع ذلك أن ينظر الى الأمور نظرة أوسع : هل الأمير المحوز رجل حقاً ؟ هل هو خطيب حقاً ؟ وتحركت في رأسي أفكار كثيرة • وكنت قد قررت أن أزوره في الغد • فحاولت ، بانتظار ذلك ، أن أخفف وقع النبأ في نفس الأمير المسكين ، وأن أحضه على النوم قائلاً له : « سموف

تقضى ليلة مريحة ، فتكون أفكارك غدا أوضح ، لسوف ترى ذلك ! ، ، فصافحتى بحرارة ، ولكن دون أن يقبلنى ، وقطعت له على نفسى عهسداً لأجيئن البه مساء غد وقلت له : « سوف نتحدث ، سوف نتحدث ، مناك كلام كثير سسوف تقوله ، ، فحين سمع هذه الكلمات ألمت بشفتيه ابتسامة مشئومة ،

الفصل الشامن ١

طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب وسداد الديون • كنت كالجالس الى مائدة القمار احسب مبالغ الحط واحتمالات الربيع ، فقضيت ليلتى كلها فريسة كابوس ساحق • سأقول



الحقيقة: اننى طوال النهار السسابق ، رغم جميع تأثرانى الحارقة ، كنت أتذكر من حين الى حين ، الربح الذى جنيته بالقمار عند زرتشتشيكوف ، صحيح أننى كنت أطرد الفكرة ، ولكننى لم أسسنطع أن أدفع عن نفسى الشعور والعاطفة ، فكنت أرتعش كلما وافتنى ذكرى ، كان هذا الربح قد ملك على نفسى ، أترانى خلقت مقامراً ؟ لاشك على كل حال فى اننى أملك صغات المقامر ، فحتى فى هذا اليوم ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، أحب أحيانا أن أفكر فى القمار ! وربما اتفق لى أن أقضى ساعات كاملة أجرى فى الصمت حسابات قمار ، وأتخيلنى فى الحلم لاعباً ورابحاً ، نهم ، أجرى فى الصمت حسابات قمار ، وأتخيلنى فى الحلم لاعباً ورابحاً ، نهم ، أنبى أتصف ، بصفات ، كثيرة التنوع ، وليست نفسى هادئة مطمئنة ،

لقد كنت أنتوى الذهاب الى ستيبلكوف فى الساعة العاشرة سيراً على القدمين. فصرفت ماتفئى منذ جاء ، وفيما كنت أحسو فهوتى حاولت أن أنهم النظر فى الأمور ، فلاحظت أننى مسرور ، فلما انكفأت الى نفسى لحظة "أدركت أن سرورى انما يرجع خاصة الى « أننى سأكون هذا اليوم

فى منزل الامير نيفولا ايفانوفتش ، • ولكن ذلك اليوم من حباتى كان يوما مشؤماً ، ولم يكن فى الحسبان ، وقد ابتدأ بمفاجأة •

ففى الساعة العاشرة تماما ، رأيت بابى يفتح على مصراعيه ، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخيل على كنبوب الريح ، كان يمكن أن أتوقع كل شىء الا هذه الزيارة ، فوثبت مذعورا ، كان وجهها وحشيا ، وكانت حركاتها واشاراتها مشوشة ، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجينى لو سألتها ما الذى جاء بها الى هذا المجى المباغت ، ويجب أن أشرح سلفاً فأقول : انها قد تلقت منذ هنيهة نبأ خارقاً ساحقاً ، وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير الانفعال الأول ، وكان النبأ يمسنى أنا أيضاً ، على أنها لم تقض عندى الا تصف دقيقة ، أو دقيقة ان شئتم ، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة ، وقد بادرتنى فوراً بقولها وهى تتسمر قدامى مائلة الى أمام :

ـــ آ ••• هأنت ذا اذن ! هأنت ذا أيها الوغد ؟ ما هذا الذي فعلت ؟ ماذا ، ألا تدرى ؟ انه يشرب قهوته ! آه ! يا نرثار ! يا طاحونة حــكى ! يا ماضغ ورق ! •• يجب أن تجلد بالسوط ، أن تجلد ، أن تجلد . ••

ـ تاتبانا بافلوفنا ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ماما ؟

فقالت مهددة متوغدة وهي تو ّلي هاربة :

ـ ستعر**ف**!

وغابت • وانطلقت ألاحة با طبعاً ، ولكن فكرة طارئة أو ففتنى ، بل فل ان ما أوقفنى ليس فكرة ، وانمسا هو قلق غامض : لقد أحسست أن الشيء الأساسى فى صراخها انما هو قولها « يا ماضع ورق ، • وما كان لى أن أكتشف شمبناً بنفسى طبعاً ، ولكننى خرجت مسرعاً لأفسر ع من سنيلكوف بأقصى سرعة ، ثم أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قائلاً لنفسى بغريز ثى : « هنالك مفتاح الأمور كلها » •

فسرعان ما عرفت أن ستيبلكوف كان عالما بقصة آنا آندرييفنا كلها ، بل كان يعرف تعاصيلها • شيء غريب • لن أروى الآن حدينه ولن أصف اشاراته وحركاته ، وحسبى أن أذكر أننى رأيته يتدفق افتتاناً وحماسة « لما لهذه المأثرة من فيمة فنية ، • قال صائحاً :

_ يالها من امرأة شجاعة ! هذه امرأة شجاعة ! لا ، لا ، انها ليست مثلنا • نحن نبقى فى مكاننا ساكنين ، أما هى ففد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق • هذه • • • هذه تمشال قديم لمينيرفا ، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدى فساتين حديثة !

ورجوته أن ينتقل الى الموضيوع • فاذا الأمر كله ، كما أدركت ذلك من قبل ، هو ضرورة اقناع الأمير بأن يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة ، و والا فان العاقبة ستكون وخيمة عليه ، وخيمة جداً ، وليس الذنب ذنبى • صحيح أم لا ؟ ، •

كان يحدِّق الى عينى " ، ولكنه كان فى أغلب الظن لا يفترض أننى أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحسة ، ولم يكن فى امكانه أن يفترض ذلك : فأنا لم أدع " له طعا ، لا بالتصريح ولا بالتلميح ، أن يعرف اننى على علم بأمر « الأسهم ، ، ولم يطل الحديث بيننا : فقد أسرع يعدنى ، على الفور تقريباً ، بمبلغ من المال ، قائلا انه « مبلغ كبير ، مبلغ كبير ، وانما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة ، وان الأمر مستعجل ، مستعجل جداً ، وان كل عى، يتوقف على السرعة ، فالأمر مستعجل الى حد رهب ! » ،

لم أشأ أن أدخــل في مناقشات معه كما فعلت البارحة ، وهممت أن أنصرف ، قائلاً له عرضاً « انني ســأحاول ، • ولكنه أدهشني على حين فجأة ادهاشاً لا ســـبيل الى وصفه : كنت قد اتجهت الى الباب ، فاذا هو

يحضننى بنته في رقه وحنان ، ويأخذ يقول لى أشياء تستعصى على الفهم الى اقصى حد .

سوف أهمل التفاصيل ، فلا أذكر سلسلة كلامه كلها ، حتى لا أتعب القارى. • ولكن اليك فيحوى ما قاله : لقد عرض على " « أن أصله بالسيد درجاتشيف ، ما دمت أتردد على ذلك المنزل ، •

أصخت اليه بسمعى ، محاولاً بكل قواى ألا أفضع نفسى بأية اشارة ، وأجبته على الفور قائلاً اننى لا أعرف أحداً هناك ، واننى ان ذهبت الى ذلك المنزل مرة فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة ، قال :

ـــ ولكن ما دمت قد « قبلت ، مرة ، ففي وســعك أن تذهب مرة أخرى ، أليس هذا صحيحاً ؟

فسألته صراحة م ولكن ببرودة شديدة ، فيم يعنيه هذا ، وحتى هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السذاجة كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغياء ، بل يلاحظ أيضا أنهم و عمليون ، كما وصفه بذلك فاسين ، ولقد شرح لى بصراحة تامة أن شبهاته توحى اليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف ، شيئاً لابد أنه محرّم قطعا ، محرم أقسى التحريم فيكفى أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطبع أن يجنى من ذلك نفعاً ، قال لى ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم ،

لم أجبه بشىء يؤكد أننى سألبى رغبته ، ولكننى تظاهرت بالتفكير ، ووعدته بأن « أفكر فى الأمر ، ، ثم سارعت الى الانصراف ، ان الأمــور تتعقد ، وطرت الى فاسين ، فوجدته فى بيته ،

_ ها! ٥٠٠ أنت أيضاً!

انه منذ رآني استقبلني بهذه الجملة الملغزة • ولكنني لم أتلبث على

جملته ، بل انتقلت الى الموضوع رأساً ، وقصصت عليه القصة ، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوء البته ، وساءلني في جميع التفاصيل. وقال :

- ــ يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم !
- بل فهمت أحسن الفهم لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً •
 فأضاف نقول يصدف :
- ــ على كل حال ، أشكوك أجزل الشكر ، سم حقاً ، اذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو ، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لاغراء مبلغ من المال ،
- ۔ انہ عــدا ذلك يعرف حالى ، فلقد كنت أقامــر كثيراً ، وكانت سيرنى سيئة يا فاسين .
 - ۔ سمعت عن هذا ه

قلت :

ـــ وما يحيرنى أكثر من أى شىء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد الى ذلك المنزل +

فقال فاسين ببساطة كبيرة:

ــ هو يعلم علماً تاماً أتنى لاصلة لى بالأمر • وهؤلاء الشبان جميعاً انما هم ثرثارون لا أكثر • وانك لتتذكر هذا أكثر من أى انسان آخر على كل حال •

بدا لى انه يضمر نوعاً من سوء الظن بى ، أو نوعاً من الحذر منى . قال :

ـ اتنى أشكرك أجزل الشكر على كل حال ٠

وحاولت أن أسأله مزيداً من الاستلة فقلت :

۔ سمعت أن أمور السيد ستيبلكوف لا تجرى مجرى حسنا ، سمعت على الأقل كلاماً عن اسهم ٠٠٠

ـ أية أسهم تعنى ؟

لقد تعمدت أن أذكر الأسمهم ، ولكننى لم أفعل ذلك من أجل أن أكتشف له عن سر الأمير • كل ما أردته هو أن ألمح الى الأسهم لأتبين من النظر الى وجهه والى عينيه هل يعلم عن هذا الامر نبيًا • وقد وصلت الى هدفى : استطعت أن أدرك ، من حركة سريعة خفيفة فى وجهه ، أنه ربما كان على علم بشى • • ولم أجب عن سدؤاله : • أية أسمهم ؟ ، ، بل صمت • ومن الغريب أنه لم يلح •

سألنى باهتمام :

ــ كيف حال اليزايت ماكاروفنا ؟

ـ هي بخير ٠ ان أختى تكن لك الاحترام دائماً ٠٠٠

فسطعت عينــاه سروراً ورضا : كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه يحمل لأختى عاطفة ما ٠٠٠

وقال لي فيحأة :

ــ زارني في هذه الأيام الأخيرة ، الأمير سرجي بثروفتش •

فهتفت أسأله :

_ متى ؟

ــ منذ أربعة أيام •

... لا أمسر، ؟ ...

- لاء لا أسن •

وأُلقى على ً نظرة مستفهمة • واردف يقول :

ـ قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديشا فيه مزيد من التفصيل ، أما الآن فأعتقد أن من الضروري أن أنبِّهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفعها السر) الى أنني لاحظت أن حالته النفسية ٠٠٠ بــل حالته العقلية ٠٠ غير طبيعية ٠ وقد زارني شخص آخر أيضاً ٠٠

فال ذلك وهو يبتسم فحبأة ، ثم تابع كلامه :

دارنی شخص آخسر منذ هنیهة قصیرة ، قبل وصولك بلحظة ،
 وقد اضطررت أن استخلص أن حالة الزائر الآخس لیست طبیعیة تماماً
 می أیضاً •

_ عل جاءك الأمير منذ قليل ؟

ــ لا تا لا الأمــير ، لا أتكلم الآن عن الأمير • لقد زارنى ، منــذ برهة ، آندره بتروفتش فرسيلوف ، و • • ألا تعرف شيئاً ؟ ألم يحدث له شيء ؟

أسرعت أسأله:

ـ ربما حدث له شيء ، ولكن ماذا جرى هنا ، عندك ؟

ـ يجب على أن أكتم السر طبعاً ٠٠٠ ما أعجب هذا الحديث بيننا ! ان مداره كله على أسرار ٠٠٠

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى • ثم أردف:

على أن آندره بتروفتش لم يطلب منى كتمان السر • ثم انك ابنه ؟ ولعلمي بما تحمل له من عواطف ، يخيَّل الى ً انني أحسن صنعاً

اذا أنا نبهتك فى هذه المرة • تصبور أنه ألقى على مسذا السؤال: « اذا اتفق لى فى يوم قريب ، قريب جداً ، أن وجدتنى مضطراً الى مبارزة ، فهل تقبل أن تكون شاهدى ؟ ، • ولقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً بطبعة الحال •

وطرت الى الأمــير نيقولا ايفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القــوة أن مفتاح السـر هناك • وقد شكرنى فاسين مرة ً أخرى حين فارقته • كان الأمير العجوز جالسا أمام مدفأته ، مدترا ساقيه بغطاء ، وقد استقبلنى بنظرة فيها شىء من الاستفهام ، كأنه دهش من زيارتى ، مع أنه كان يرسل من يدعونى اليه كل يوم تقريباً ، على أنه قد حيبانى بلطف ، لكنه أجاب عن أسئلتى الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح فى وجهه ذهول رهيب ، وكان فى بعض اللحظات يبدو مفكراً ، ويحد ق الى بنظرة ثابتة ، كأنه كان قد نسى شيئاً يتعلق بى ثم اذا هو يتذكره الآن ، فقلت له بصراحة اننى أعرف كل شىء ، وانى سعيد بما حدث ، فسرعان ما بانت على شفتيه ابسامة فيها مودة وسرعان ما انتمش وزال تحفظه واختفى حذره ، حتى لكأنه نسيهما ، بل لا شك فى أنه نسيهما ، قال :

- صديقى العزيز ، كنت أعلم حق العلم أنك سستكون أول من يأتى ، حتى لفد سألت نفسى أمس : « من ذا الذى سيبتهج ؟ » ثم أجبت على هذا السؤال قائلا : « هو الذى سيبتهج » • نعم ، لا أحد غيرك ، حتما • ولكن لا ضير • ان ألسنة الناس ألسنة سوء • • • ولكن لا قيمة لهذا ! • • • « يا بنى العزيز » (بالفرنسية) ، ذلك كله سام كل السمو ، لذيذ كل اللذة • ولكنك ترفها معرفة جيدة ، أنت • ثم ان آنا آندريفنا ترى فيك أحسن رأى • هى ذات وجه قاس آسر أخاذ ، وجه صورة اتجليزية • انها أحلى الصور الاتجليزية قاطبة • لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور • • • ان هذه النية كانت فى نفسى دائماً ، وانها يدهشنى أننى لم أفكر فى هذا الأمر أبداً •

ــ ولكنك أحبيت آنا آندريفنا دائماً ، وقدرتها دائماً ، طوال المدة التي أذكرها •

_ يا صديقى ، انسا لا نريد أن نلحق ضررا بأحد ، ان الحياة مع أصدقاء وأقرباء وأسيخاص أحبة هى الجنة ، نحن جميعاً تعراء ، ، الحلاصه : هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ ، اسمع ، سوف نقضى الصيف أولا بمدينة سودن ، ثم بمدينة بادجاستاين! أين ذهبت ؟ كنت أنتظرك ، ما أكثر الأحداث التي مرت منذ ذلك الوقت ، ما أكثرها ، البس كذلك ؟ وانما المحزن أنني لست هادئا : فمتى خلوت الى نفسى شعرت بأنني قلق ، هذا هو السبب في أنني يجب ألا أبقى وحبدا ، ألبس كذلك ؟ هذا واضح وضوح النهار ، آه يا صديقى ، انها لم تقل الا كلمتين ، ولكن كان كلامها أروع قصيدة ، ولكن ، ، أنت أخوها تقريبا ، ألبس كذلك ؟ يا عزيزى ، لبس غريبا أنني أحببتك ذلك الحب كله! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك ، ولقد قبالت يدها ، ذلك الحب كله! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك ، ولقد قبالت يدها ،

واستل منديله من جبيه ، كأنه يهم أن يبكى من جديد ، كان متأثراً جداً ، بل أظن أنه كان في حالة من تلك الحالات « المحزنة ، التي أتبيح لى أن أراها في مدة معرفتي به ، انه في العادة ، بل في جميع الأوقات تقريباً ، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن ، وتمتم يقول :

- سوف أغفر لهم جميعاً يا صحيديقى • أحب أن أغفر لجميع الناس ، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد • الفن ، « الشعر في الحياة » ، مساعدة البؤساء ، وهي ، ذلك هو جمال التوراة • « ما أروعها من انسان ، ، هه ؟ « أناشيد سليمان • • لا • • ليس هو سليمان ، بل هو داود الذي أضجع فتاة جميلة في سريره طلباً للدف، في شيخوخته • أوه • • داود ، سليمان ، ، هذا كله يدور في رأسي دوران اعصار

حقاً . . ان تلك الحسنا، في شيخوخه داود ، لهي قصيدة ، ، أما بول دوكوك فليس له ذوق ولا احساس بالتوازن ، رغم أنه صاحب موهبة .. ان كاترين نيقولايمنا تبتسم . ولقد قلت لها اننا لن نضايقها . اننا بدأنا روايتنا ، فليسمح لنا بأن نتمها . ستمه حلماً ان شئت ، ولكن فليتركوا لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا .

- _ كيف تقول انه حلم يا أمير ؟
- _ كيف أقول انه حلم ؟ فليعدوه حلماً ، ولكن فلينركوا لنا أن نمون مع هذا الحلم •
 - ـ أم • أمير • لماذا الموت ؟ ان الحياة هي الواجبة الآن !
- _ وماذا كنت أقول ؟ لست أقول غير هذا ! حقاً اتنى لا أدرى لماذا الحيساة قصسيرة هذا القصر كله اغلب الظن أن الغماية من قصرها هي ألا تكون مملة ، ذلك أن الحياة هي أيضاً عمل فني من أعمال الخالق الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوسكين ان الايجاز أول شروط الفن ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن يعيشوا مدة أطول
 - _ قل لى يا أمير ، هل أذيع النبأ في الناس ؟
- ۔ لا ، لا یا عزیزی ، لم 'یذع تماماً ، انه محدود بحدود الأسرة ، بحدود الأسرة ، وحدها حتى الآن ، لم أبع بما فى نفسى بوحاً كاملاً الا لكاترين نيقولايفنا ، لأننى أعد نفسى آثماً فى حقها ، ذلك أن كاترين نيقولايفنا ملاك ، ملاك ،
 - ۔ تعم نم تعم ہ
- _ نعم ؟ أنت أيضــاً تقول نعم ؟ كنت أظنك عدواً لها آه •••

بالمناسب : لقد طلبت منى ألا أستقبلك بعد اليوم • تصـــور أننى نسيت ذلك منذ دخلت على ً •

التفضت وسألته:

ـ ما هذا الذي تقوله ؟ لماذا طلبت منك ذلك ؟ ومتى ؟

(لم یکذبنی احساسی • ان سَیْناً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زیارة تاتیانا بافلوفنا!) •

ـ أمس يا صديقى ، أمس ، لا أدرى كيف استطعت أن تدخل . ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنعك من الدخول ، كيف دخلت ؟

_ بېساطة ٠

_ هذا هو الأرجح • فلو أنك دخلت بالمكر والحياة لأوقفوك حتماً ، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل • البساطة يا عزيزى ، البساطة هى أمكر المكر •

ــ لست أفهم شيئًا • هل قررت اذن ، أنت أيضًا ، ألا تستقبلني بعد اليوم ؟

لا یا صدیقی ۰ لفد أجبت بأن هذا لیس شــأنی ۰۰۰ أقصد أننی وافقت موافقــة تامة ۰ ثق یابنی العزیز أننی أحبــك حبـــاً كثیراً ۰ ولكن كاترین نیقولایفنا طلبت ذلك بكثیر من الالحاح ۰ آه ۰۰۰ هی ذی !

فى تلك اللحظة ظهرت كاترين نيقولايفنا على العتبة • كانت مرتدية ثياب الحروج ، وقد جاءت الى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل • فلما رأتنى توققت واضطربت ، ثم اســــتدارت وخرجت • فصاح الأمبر مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال :

۔ كذلك مي ا

فهتفت أقول:

_ هو سوء تفاهم لا أكثر ٠ دفيقة واحدة يا أمير ٠٠٠ سوف ٠٠٠ سوف أرجع فوراً يا امير !

وركضت وراء كاترين نيقولايفنا •

ان كل ما حدث بعد ذلك قد حدت بسرعه بلغت من الشدة انني لم أستطع التفكير ، بل لم أســـتطع أن أهيء سلوكي أقل تهيئه • فلو انني استطعت أهيء سلوكي لتصرفت تُصرفاً آخر حتما • ولكنني كنت قد طاش صوابی کصبی صغیر • هرعت الی حجراتها ، غیر أن الحادم قال لی ان كاترين نيقولايفنا قد خرجت في هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها • فاندفعت أهبط السلُّم الكبير منكس الرأس • فرأيت كاترين نيقولايفنـــا تنزل على السلمَّم ، مرتدية " معطفها ، ورأيت ضابطـاً فارع القد حسن القامة بـزة عسكرية من غير معطف يسير الى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذي يتدلى على جنبه • وكان خادم يحمل له معطفه وراء. • هذا هو البارون • انه كولونيل في الخامسة والثلاثين من عمره ، نموذج الضابط الأنبق الجاف ، له وجه بيضوى كثيراً ، وله شاربان أحمران ، بل ان حاجبيه أحمران أيضاً • ليس وجهه جميــــلا ألبتة ، ولكن هذا الوجه يسِّر عن الجزم والتحدي • انني أصفه الآن على عجل ، كما رأيته في تلك اللحظة • لم أكن قد اقيته حتى ذلك الحين • وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف • فأبصر تني كاترين نبقولايفنا قبل صاحبها وهمست نمي أذنه بشيء ٠٠ فالتفت ، وسرعان ما أومأً للخـــادم والنواب السوسرى باشارة من رأســه • فتقدم الخادم منى خطوة المام الباب ، ولكننى دفعتــه بيدى ووثبت الى درج الباب فى اثرهمـا • أجلس بيورنح صاحبـــه فى العربة • وصحت أنا قائلاً بغباء (كما يفعل أبله ، كما يفعل أبله! آه! انني أتذكر كل شيء • كنت بغير قبعة):

_ كاترين ليفولايفنا ! كاترين ليقولايفنا !

فالنفت بيورنج مرة أخرى غاضيا ، وصاح يمول للحادم كلمه العربة في تلف الميزهما ، واحسست انني امسيكت من اليكوع ، وانطلعت العربة في تلف اللحظة ، فصرخت صرخة واندفعت اجرى وراء العربة كانت كاترين نيفولايفنا تنظر من نافذة العربة برايت انا ذلك بوكانت تبدو قلقة قلقا شديدا ، ولكنني بحركتي السريمة حين انطلقت أعدو وراء العربة قد صدمت بيورنج صدمة فوية دون أن أفكر في هذا البتة ، وأظن أنني دست على رجله أيضيا ، فصرخ صرخة صبغيرة ، وصر بأسنانه ، وأمسك كتفي بيد قوية ودفعني دفعة بلغت من شدة الغضب والحنق أنني تتهقرت ثلاث خطوات ، وفي تلك اللحظة 'ميد اليه معطفه ، فارتداه ، وركب عربته الزلاجة ، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير وركب عربته الزلاجة ، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير أحد الحدم معطفي ، ومثد الى خادم ثان قبعتي ؟ لست أتذكر الآن ماذا أحد الحدم معطفي ، ومثد الى خادم ثان قبعتي ؟ لست أتذكر الآن ماذا ولكنني تركتهم في مكانهم فيجأة ، ووليت هاوباً ،

خللت أركض دون أن أمينز شسيئاً ، وأصدم المارة أتناء ركضى يمنه ويسرة ، حتى وصلت أخيراً الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، ولم يخطس ببلى فى الطريق حتى أن أستقل عربة ، لقد دفعنى بورنسج بحضورها « هى »! صحيح أننى دست على قدمه فدفعنى عنه بغريزته كما يفعل شخص ديس على قدمه فانتزع نفن من أصبعه (يجوز فعلا " أن أكون قد سحقت له نفن فى رجله !) ، ولكنها رأت ، رأت الحدم يقبضون على " ، هذا كله حدث بحضورها ، أمامها !

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع فى أول الأمر أن أنطق بكلمة . كانت فكى السفلى ترتمش من الحمى ، لقد اجتاحتنى حمى فملاً ، وكتت عدا ذلك أبكى ٠٠٠ فالى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة!

_ هه ! طردوك اذن ؟ أحسنو صنعاً ! أحسنوا صنعاً !

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا • وتهاويت على الديوان دون أن أقول شيئاً ، ونظرت اليها •

قلت وهي تبحيِّدق الي ":

ــ ولكن ماذا أصابه ؟ خذ ، خذ هذه الكأس ، ابلع قليــلاً من ماء ، اشرب ! وقل لى ما الحماقة الجديدة التي ارتكبتها .

تمتمت قائلاً انني 'طردت ، وان بيورتج دَفَعْنَي في الشارع •

ے هل تمکنك حالتك الآن من أن تفهم شيئًا ؟ اقرأ اذن ، ولينشرح فؤادك ٠

قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وتناولت من على المائدة ورفة ومدتها الى وتستمرت أمامى • فسرعان ما تعرفت خط فرسيلوف • لم يكن ثمة الا أسطر قليلة : انها رسالة الى كانرين نيقولايفنا • ارتعشت • ولكن القدرة على الفهم لم تلبث أن وافتنى أقوى ما تمكون • واليكم نص تلك الرسالة الفظيمة ، العاضحة ، المستحيلة ، الاجرامية ، اليكم نصها كلمة كلمة :

الى السيدة كاترين نبقو لايفنا

د رغم علمي بها انت عليه من فساد الخلق سواء اكان هذا الفساد طبيعة فيك أم كان فنا تحدقينه ، فلقد كنت المسحور انك تستطعين ان لسيطرى على اهوائك ، وانك في اقل تقدير لن تلحقي الذي باطفال ولكنك لم تحرى حتى عن هلا ، انني ابلغك أن الولينة الذي تعرفين لم تحرق على لهب شمعة حتما ، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام ، فلن تجنى نفعا مما تفعلين . فلا تفسلني اخلاق شاب في غير طائل ، كفي الذك عنه ، فانه لا يزال قاصرا ؛ بل انه ليكاد ان يكون طفلا لما يبلغ بعد كمال نموه المقل والجسمى ، فيم يقيدك ؟ انتي اهتم بأمره ، والذك جالفت فكتبت اليك هسله الكلمات ، رغم انني لا أدجو لها أي تجاح ، ويشرفني أن ابلغك انني ابعث بنسخة من هذه الرسالة الل البادوث بيورنج ، ،

اصفر وجهى أتناء القراءة ، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاى استباء وسخطاً ، وصحت أقول غاضياً :

- ـ اياى يقصد ؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول !
 - ـ ذلك لأنك بحت له به!
 - وانتزعت تاتيانا الرسالة من يدى •
- ــ ولكن ••• ليس هذا ما كنت أقوله له! آم ••• رباه! ما عسى

يكون ظنها بى الآن ؟ ولكن هل هو مجنون ؟ انه مجنون • لقد رأيت. أمس • متى بعث الرسالة ؟

_ أمس نهاراً • وقد وصلت في المساء ، فأعطتنيها اليوم بنفسها •

ــ ولكننى رأيته أمس • انه مجنون ! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف هذا • هذا عمل رجل مجنون ! من ذا الذى يكتب كلامًا كهذا الكلام الى المرأة ؟

_ يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم النيرة ويجعلهم الغضب صماً عمياً ويتحول الدم في عروقهم الى زاج ، انك لم تكن تعرفه بعد! ولكنه سيدفع الثمن غالياً ، لسوف يسحق سحقاً ، انه يضع نفسه بنفسه تحت الساطور ، ألا ان من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة الى خط نيقولا ، فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار فعلماً مناسباً ، مادام يستثقل حمله! وما الذى حملك على التحدث اليه ؟ ما كانت حاجتك الى مذاكرته ؟ أردت أن تزهو بنفسك ؟

... يا له من كره! ما أشــد هــذا البغض! كذلك هتفت وأنا ألطم رأسي بـدى • وتابعت أتساءل:

_ ولماذا ؟ لماذا ؟ يسى. هذه الاساءة الى امرأة ؟ ماذا صنعت ؟ أى ذنب جنت ؟ ما العلاقات التى كانت بىنهما حتى يكتب لها رسائل كهذه ؟

_ كره! بغض!

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنــا وهى تقلد لهمجتى وحركاتى بسمخرية حانقة ٠

وازدحم الدم في وجهى من جديد : بدا لى فجـــاًة اننى أفهم شـــيئاً جديداً كل الجدة • نظرت الى تاتيانا بافلوفنـــا نظرة مستفهمة ، أودعتها كل ما أملك من قوة • فزعقت تاتيانا بافلوفنا وهي تدير لي ظهرها وتهدُّ دني بندها ، قائلة :

_ اذهب من هنا ! كفانى ما لقبت منكم جميعاً ! حسبى ! في وسعكم أن تغييوا كلكم ٥٠٠ الوحيدة التي ما أزال أشفق عليها هي أمك ٠

ركضت الى فرسيلوف طبعاً • ولكن ما أقبحــه من عذر ! ما أقبحه من عذر !

لم يكن فرسلوف وحداً • يحب أن أذكر سلفاً انه بعد أن أرسل تلك الرسالة الى كاترين نبقولايفنــا أمس ، وأرسل نسخة منها (لا يعلم الا الله لماذا!) الى البارون بيورنج ، كان ينتظـر أُننساء النهار « عواقب » الْحُطُوةُ الَّتِي قَامَ بِهِمَا ، فَلَمُدَلَّكُ اتَّخَــَدْ بِعَضِ التَّدَابِيرِ : فَنَقَلَ مَامَا ولبزا مَنْذ الصباح الى فوق ، الى « التبابوت ، (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت في الصباح عند عودتها فرقدت في سريرها) ، كما عني بنظافة الغرف وترتسها عناية كبيرة ، ولاسيما « الصالون » • وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلا ، حتى جاء الى الدار بارون اسمه « ر • • ، ، وهو عسكرى برتبة كولونيل ، في نحبو الأربعين من عمره ، ألماني الأصل ، طويل القامة ، جاف الهيئة ، قوى الجسم جـداً فيما يبدو ، أحمر البشرة هو أيضًا ، مثل بيورنج ، لكنه أصلع قليلاً • انه واحد من اللِّدُونَاتُ ﴿ رَ ٠٠٠ ﴾ الكثير عددهم في الجيش الروسي ، وهم جميعاً أناس شــديدو التأذي في كل ما يمس الشرف ، ليس لهم ثراء ، وانمــا هم يسشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً • لم أشهد بداية الحديث الذي جــرى بينهما • كانا كلاهما في أوج النشــــاط والاندفاع • وكيف لا يكونان كذلك ؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة ، وكان اليارون جالساً في مقعد الى جانب • وكان فرسيلوف شاحب اللون ، ولكنه يتكلم برصانة ، ويزن أقواله ، وكان البسارون يرفع صسوته ، ويهم أن يحرك يديه باشارات عنيفة ، ولكنه يكيح جماحه . وكانت نظرته قاسية

فيها تعال بل فيها احتقار ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشــــة • فحين رأنى قطب حاجبيه ، ولكن فرسيلوف كاد يغتبط لرؤيتى • وقال يحيينى :

ـ يومك سعيد يا عزيزى ٠

وأضاف يخاطب البارون :

ــ يا بارون ، هذا هو الشاب الذي عنيته في رسالتي • صدَّدق أنه لن يضايقنا وجوده ، حتى لقد يفيدنا •

رمقنی البارون بنظرة شزراء فیها احتقار • وأردف فرسسیلوف قاللا لی :

۔ یا عزیزی ، یسمدنی أنك جئت · تلبَّث فی رکن ، أرجوك ، الی أن ننتهی ·

ثم قال للبارون :

ـ اطمئن ما بارون ، سيبقى في ركن ٠٠٠

لم یهمنی ذلك • كنت قد عزمت أمری • وكان كل شیء عدا هذا يدهشنی ويذهلنی • وجلست فی ركن لا أنطق بكلمة ، ولبثت هنــالك لا تطرف لی عین ، ولا أتحرك ، الی آخر الحدیث •

قال فرسيلوف مقطعاً جميع الكلمات تقطيعاً قوياً :

- أكرر لك مسرة أخسرى يا بارون اننى أعُد كاترين نيقولايفنسا آخماكوفاء التى كتبت اليها تلك الرسالة الدنيئة الحسيسة ، أنبل المخلوقات طرآء بل أعُدها ذروة الفضائل الكاملة !

فزأر البارون يقول :

ـــ ان هـــذا الدحض لأقوالك ، كما قلت لك من قبــل ، أشـــبه بتأكيد ٍ لها ، فتعابيرك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً . ـ ان الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالى بالمعنى الذي يدل عليه نصها حرفاً • اننى أصاب أحياناً بنوبات تستبد بى وتسيطر على محتى اننى مضطر الى معالجة نفسى ومداواة مرضى ، وقد اتفق لى فى أثناء نوبة من تلك النوبات أن •••

مده الایضاحات والاعذار لا یمکن قبولها • آکرر لك مرة أخرى أبك لا تزال تصر على ضلالك اصراراً عنیداً ولعلك تتعمد أن تعدد نفسك • لقد نبهتك منذ البدایة الى أن المسألة المتعلقة بتلك السیدة ، أعنی رسالتك الى الجنرالة آخماكوفا ، یبجب اقصارها من الحدیث الذی نحن بصدده ، ولكنك لا تزال تعود الى تلك المسسألة • لقد رجانی البارون بیورنیج وكلفتی أن أوضح ما یتعلق به هو وحده ، أعنی ما اجترحت من وقاحة اذ بعثت الیه تلك و النسخة ، من الرسالة ، ثم الحاشیة التی أضفتها قائلاً انك و على اسسسان ، وبأیة قائلاً انك و على اسسستعداد لتحمل المسئولیة أمام أی انسسان ، وبأیة طریقة » •

ــ ولكن يبــدو لى أن هذه النقطة الأخيرة جلبة لاتحتــاج الى مزيد من الايضاح ٠

- أفهم ، أعلم ، انك تنهسرب حتى من الاعتسدار ، وتظل تؤكد أنك ه مستعد لتحمل المسئولية أمام أى انسسان وبأية طريقة ، ، ولكن سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس نمين ، لذلك أجد أن من حقى ، بسبب ما أراه من اصرارك على توجيه الايضاح هذه الوجهة ، أن أفصح لك عن رأيى بغير تحرج : لقد وصلت من تفكيرى في الأمر الى النتيجة التالية : ان البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون له معك قضية ، ، ، فكأنكما ندان ،

ـ أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنج • وانى لأعترف لك بأنك لا تدهشني البتة : فلقد كنت أتوقع هذا الأمر •

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أننى لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يستفز الحداث انفجاد ، فكان يستفز ويتحدى ويناكد هذا السارون الذى من طبعه الاهتياج ، ولعله كان يمنحن صبره امتحاناً قاسياً ، فكان البارون كالجالس على النسوك نفاد صبر .

_ كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهـــة في الفكاهــة ، ولكن هذا ليس هو الذكاء .

_ هذه ملاحظة عميقة الى أبعد حدود العمق يا كولونيل •

صرخ البارون يقول:

_ است في حاجبة إلى مدحك ، ولا جئت هنا لاتكلم في الهواء سدى ، اسمعنى من فضلك : ان البارون بيورنج ، حين تلقى رسالتك ، احتار حيرة سديده ، اذ كانت نفوح منها رائحة مستشفى مجانين ، ولقد كان في الامكان طبعاً أن تلتمس الوسائل ، لتهدئتك فوراً ، ولكن أسبابا خاصه حملتهم على مراعاتك ، وقد سألوا عنك ، فاتضع أنك كنت ننمى الى المجتمع الرافى ، وأنك في الماضى قد عملت في « الحرس ، ، غير أنك 'أقصيت من ذلك المجتمع ، واتضع أن سمعتك الآن مشبوهة بل غير أنك 'أقصيت من ذلك المجتمع ، واتضع أن سمعتك الآن مشبوهة بل وهأنت ذا تستبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن ، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات ، م كفى ! ان مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورطا في همذا الأمر ، والخلاصة أبها السيد اننى مكلف بأن أعلن الك أنك اذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع ، فسوف تشمس لتهدئتك وسائلها على الفور ، وهي وسائل أؤكد لك أنها مضمونة المنمس لتهدئتك وسائلها على الفور ، وهي وسائل أؤكد لك أنها مضمونة المنمس يعداً وسريعة جداً ، انسا لانعيش في الغابات ، بل في دولة لها شرطة !

ــ هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزى الطيب البارون « ر ٠٠٠ ، ؟

كذلك صرخ البارون ثم نهض فعجأة وقال :

ــ انك تغريني بأن أبرَهن لك حــالاً على انني لست « عزيزك المارون الطيب ، ٠

نهض فرسيلوف هو أيضاً وفال :

۔ أُنبِهُكَ مرة أخرى الى أن زوجتى وابنتى ليستا بعيدتين ، لذلك أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً ، لأن صرخاتك تصل البهما .

ــ امرأتك • • هاه ! لئن بقيت أتحدث اليك هذه المدة كلها ، فمن أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة • • •

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضبًا حانقا ، ولم يخفض صوته أى خفض • ثم صرخ يقول ساخطاً :

_ كفى ! انك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب ، بل آنت كذلك رجل مهووس ، مهووس حقاً ، رجل مختل العقل ؟ وهذا بعينه ما وصفوك به ! انك لا تستحق التسامح ، وانى لأعلن لك أن تدابير معنية سوف 'تتخذ فى هذا اليوم نفسه ، وانك ستستدعى الى مكان "ترد" فيه الى الصواب ٠٠٠ وستخرج من المدينة !

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة • ولم يشيعه فرسيلوف ، بل ظل واقفاً ينظر الى أن فى ذهول كأنه لا يلاحظنى • وابتسم فجأة ، وهنز شعره ، وتناول قبعته ، وانتجمه نحو الباب هو أيضاً • فأمسكت يده • فتوقف أمامي وقال :

ــ ها ٥٠ حقاً ٥٠ أنت هنا! هل ٥٠ أصغيت؟

ـ كيف أبحت لنفسك أن تتصرف هـذا النصرف ؟ كيف أمكنك أن تشوه وأن تلطخ بالعار ٥٠٠ وأن تغدر هذا الغدر كله ؟

حَدَّق الى أَ بنظرة ثابتة ، ولكن ابتسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء ، حتى صارت الى ضحك حقاً •

صحت أقول خارجاً عن طورى :

_ لكننى أنا الذى لطبّخت بالعار • • أمامها ! أمامها ! 'هز ُثّت على مرأى منها • لقد دفعنى دفعاً مهيناً •

قال:

مل هذا ممكن ؟ آه يابنى المسكين ، لكم أشفق عليك ! هزموك ؟
 أتضحك ، أتضحك منى ؟ أترى هذا داعياً الى الضحك ؟

استل يده من يدى مسرعاً ، وتناول قبعته ، وخرج من البيت ضاحكاً ، ضاحكاً الآن ضحكاً حقاً !

أألحق به ؟ علام ؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة ! وأبصرت ماما فجأة • كانت قد نزلت ، وهي تلقى على ً الآن نظرة وجلة •

_ هل خرج ؟

فَبَّلْتُهَا فَي صمت ، وقبلتني بقوة ، بقوة ، ملتصقة بي التصاقًا .

.. ماما العزيزة ، كيف يمكنك أن تبقى هندا ؟ لنرحل فورا ، سوف أژويك ، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشخال الشاقة ، من أجلك ومن أجل ليزا ، لنتركهم جميعهم ، جميعهم ، ولنرحل ، سنكون وحدنا ، ماما ، هل تتذكر بن يوم جثت تزورينني عند توشار ورفضت أن أتعرفك ؟

_ أتذكر يا بنى • طوال حباتى كنت آئمة ً فى حقك • ولدتك ثم لم أعرفك •

- ــ هو الآثم يا ماما هو سبب كل شيء لم يحبينا في يوم من الأيام
 - ـ بلى أحبنا •
 - ـ لنرحل يا ماما .
 - ـ كيف أتركه ؟ هل هو سعيد ؟
 - ۔ أين ليزا ؟
- ۔ فی السریر ما ان عادت حتی مرضت أنا خاتفة ما بالهم حانقین علیه هذا الحنق كله ؟ ماذا یریدون به ؟ لماذا كان هذا الضابط یهدده ؟
- لن يقع له سوء يا ماما لن يقع له سوء أبداً لن يقع له سوء أبداً • ولا يمكن أن يقع له سوء • هكذا خلق ! ولكن ها هى ذى تاتيانا بافلوفنا • اسأليها ان كنت لا تصدقيننى •

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا • وتابعت أقول :

ــ الى اللقاء يا ماما ، سأعود حالاً ، وسأطلب منك هــذا الطلب مرة أخرى ٠٠٠

وولیت هارباً • کنت لا أطیق أن أری أحسداً ، ناهیــك عن نانیانا بافلوفنــا • کان أمر ماما یعذبنی عذاباً شدیداً • کنت أرید أن أخلو الی نفسی ، وحیداً ، وحیداً • ولكن ما ان وصلت الى الشارع التالى حتى أحسب أننى عاجز عن السير و وكنت أصطدم اصطداماً غيباً بأولئك الناس ، الفرياء ، غير المكتر نين و الى أين أذهب ؟ مَن هو في حاجة الى أي وما الذي احتاجه أنا الآن ؟ وسرت سيرا آلباً حتى وصلت الى بيت الأمير سرجى بتروفتش دون أن يخطر على بالى البتة و لم يكن الأمير بالبيت و فقلت لبطرس (خادمة) اننى سأنظر في مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً) و انها غرفة واسعة ، عالية السقف جداً ، ملأى بأثاث كثير و مضيت الى أعتم ركن ، وجلست على ديوان ، ووضعت كوعى على المائدة ، وأسندت رأسى الى بدى ويوان ، ووضعت كوعى على المائدة ، وأسندت رأسى الى بدى ويلن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال ، فلقد كنت عاجزاً عن الاجابة عنه كل العجز و

ولكننى كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل • سبق أن ذكرت من قبل أننى فى نهاية تلك المرحلة كانت « الأحداث قد سحقتنى » • والآن ، فيما أنا جالس ، كان شى • كالسديم يدور فى رأسى اعصاراً • • نعم ، اننى لم أر من هذا الرجل شيئاً ، ولم أفهم عنه نيئاً » • تلك هى الفكرة التي كانت تبرق فى خاطرى فى بعض اللحظات • « لقد ضحك منى فى وجهى منذ قليل ؛ ولكن لا ، انه لم يضحك منى أنا ، بل كان لا يزال يضحك من بيورسج ، لا منى أنا • أمس الأول ، أثناء العشاء ، كان يعرف كل شى • وكان قائم النفس • لقد استولى على اعترافى الغبى فى

المطعم ، فشنوه كل شيء ، على حطام الحقيقة ، ما حاجته الى الحقيقة ؟ انه لا يصدّق نصف كلمة مما كتبه اليها ، كانت حاجته كلها هي أن يجسرت ، أن يجسرت لغير سبب ، بل دون ان يعرف لماذا ، متشبنا بأية حجة ، وقد قدمت انا اليه تلك الحجة ، مده فعلة كلب مسعور ! ... هل ينوى الآن أن يقتل بيورنج ؛ لماذا ؟ لأى سبب ؟ ان قلبه يعرف السبب ! أما أنا فاتنى أجهل ما في قلبه ، و منه ، ماذلت أجهل هذا حتى الآن ، هل يحبها هذا الحب المشبوب كله ؟ لا أدرى ، وهل يدرى هو نفسه ؟ لماذا قلت لأمى « انه لا يمكن أن يقع له سوء ، ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟ لماذا قلت لأمى « انه لا يمكن أن يقع له سوء ، ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟ أثراني فقدته أم لم أفقده ؟ • • • • • •

ما لقد رأت كيف 'دفعت ٥٠ وضحكت أيضاً ٥٠ أم أنها لم
 تضحك ؟ لو كنت أنا في مكانها لضحكت ! الجاسوس هو من 'ضرب ؟ الجاسوس ! ٠٠٠ ٠٠٠

د وما الذي عنــاه (واتتنى هذه الفكرة فجأة) ، ما الذي عناه حين دس في رسالته الدنيئــة تلك أن الوثيقة لم 'تحــرق ، وأنها لا تزال موجودة ؟ ٠٠٠ ، ٠

« لن يقتل بيورنج ، هو الآن في المطعم قطعاً ، يصغى الى أغنية لوسيا ! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضى يقتل بيورنج ، لقد دفعنى بيورنج ، بل ضربنى تقريباً ، هل ضربنى ؟ ان بيورنج يأبى حتى أن ينسازل فرسيلوف : فهل ينازلنى أنا ؟ ، ، ، قد يكون على أن أقتله في الغد برصاصة مسدس ، وأن أتربص به في الشارع ، ، ، نشأت هذه الفكرة في ذهني من تلقاء نفسها تماماً ، ولم أتلبث عليها البتة ،

وفى بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيفتح فتدخل كاترين نيقولايفنا : تدخل فتمد لى يدها وننفجر ضاحكين كلانا ٠٠ آه ٠٠ عزيزى، الطالب! ان هذه الفكرة بل فل هذه الرغبة انما عرضت لى حين ساد الطلام الغرفة تماماً • ولكن هل وقفت أمامها مدة طويلة أود عها بينا هى تمد الى يدها وتضيحك ؟ كيف يمكن هذا : في برهة وجيزة من الزمن ، على مثل هذه المسافة الرهبية ! ألا فلأذهب اليها بساطة فأناقشها حالا " ، بساطة ، بساطة ! رباه ! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ ، جديد كل الجدة ، كل الجدة ، و العالم القديم • الجدة ، كل الجدة ، ليزا ، الأمير ، لا يزال هذا هو العالم القديم • أنا الآن عند الأمير • وماما ، كيف أمكنها أن تعيش معه اذا صدق الأمر ؟ أنا كان في امكاني ، أنا في امكاني ، ولكن هي ؟ ما الذي سيحدث أنا كان في امكاني ، أنا في امكاني ، والكن هي ؟ ما الذي سيحدث والوروف ، والجميع ، تتلاحق كاعصار دون أن تشرك أثراً في ذهني والمريض • وأصبحت الصور تزداد ابهاماً وتستعصى على الادراك مزيداً من الاستعصاء • فأسعدني أن أفهم واحدة "منها وأن أمسك بها •

قلت لنفسى فجأة : « ان لى « فكرتى » ، ولكن هل هـذا صـحسح حقاً ؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب ؟ ان فكرتى هى العتمة والعزلة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعتمة الماضى تلك ؟ آه ! يارب! ولكن السبب هو أننى لم أحرق « الوثيقة » ! لقد نسيت أن أحرقها أسس الأول • سأرجع الى بيتى فأحرقها على لهب الشمعة ، نعـم ، على لهب الشمعة ، ولكننى لا أدرى هل حسن ما أفكر فيه الآن • • » •

ساد الظلام منذ مدة طویلة وجاء بطرس بالسموع وقف أمامی وسألنی هل أكلت ؟ فلم أزد علی أن أشرت له بیدی و ومع ذلك جاءنی بعد سساعة بشسای ، فشربت كأساً كبیرة بشراهة و ثم سألته كم الساعة ؟ كانت السساعة قد بلغت الثامنة والنصف و لم يدهشنی حتی أن أكون قد قضیت هنا خمس ساعات و قال بطوس :

ـ جئت ثلاث مرات ، ولكننى أعتقد أنك كنت نائماً .

لم أتذكر أنه دخسل على ولكننى لا أدرى لماذا روعنى فجأة أن أكون قد و نعت ، فاذا أنا أنهض وآخذ أمشى فى الفرفة طولا وعرضا حتى لا أنام وأخيراً أحسست بصداع فى رأسى و حتى اذا كانت الساعة العاشرة تماماً دخل الأمير ، فأدهشنى أننى انتظرته و كتت قد نمسيته كل النسيان ، كل النسيان ،

قال لي :

ــ أنت هنا ، وأنا ذهبت أبعث عنك في بيتك !

كانت هيئته مكفهرة قاسية خالية من أيسر ابتسام • وكانت عيناه تعبران عن فكرة ثابتة ثاوية في قرارة ذهنه •

تابع يقول :

- كافحت طول النهاد واستعملت جميع الوسائل ، ولسكن كل ئى، أخفق فأصبح وضعى الآن رهيباً ، (ملاحظة : لم يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش) ، رأيت جيبلسكى ، انه انسان فظيع ، اسمع : لابد أولا من الحصول على المال ، ثم نرى ما يكون من الأمر ، واذا لم نظفر بالمال ، فمند ثذ ، لكننى قررت ألا أفكر اليوم في هذا ، اليوم يجب أن نحصل على المال ، وفي غد نرى ان المبلغ الذى ربحته أنت أمس الأول لا يزال كاملا ، هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات ، فاذا طرحنا دينك يبقى على أن أرد اليك ثلاثماتة ، فخذها وأضف فاذا طرحنا دينك يبقى على أن أرد اليك ثلاثماتة ، فخذها وأضف اليها سبعمائة لتصبح ألفاً ، وآخذ أنا الألفين ، ثم نعضى معا الى تسرشتشيكوف ، فنجلس على طرفين متقابلين و محاول أن نربع عشرة آلاف ، فحدة هو المخرج الوحيد الذي بقى لى ،

وألقى على " نظرة ياتسة •

- هتفت أقول فحأة كأنني بعثت بعثًا جديدًا :
- ـ سم نعم! هيا بنا! لم أكن أنتظر الا أن تنجىء •

لاحظوا أن الروليت لم تخطير ببسالى لحظة واحيدة طيوال تلك الساعات كلها .

وقال الأمير يسأل على حين فجأة :

ـ والدناءة ؛ وحقارة الفعل ؛

فهتفت أقول:

- ماذا ؟ ذهابنا الى الروليت ؟ ولكن هذا هو المخرج ، ان المال هو كل شيء ، نحن القديسان أنا وأنت ، على حين أن بيورنج باع نمسه ، وأن آنا آندريفنا باعت نفسها ، وأن فرسيلوف ، هل تعرف أن فرسيلوف مختل ؟ مختل ؛ مختل ! • •
- _ ألست مريضاً يا آركادي ماكاروفتش ؟ ان عينيك غريبسان ٠
- _ هل تقول هذا لتذهب الى الروليت دون أن تصطحبنى ؟ لن أتركك بعد الآن ليس عبثاً أننى حلمت بالقمار طول الليل هيأ بنا الى الروليت ! هـــاً بنا !
 - كذلك صحت كأنني اكتشفت حل اللغز فجأة ٠
 - ـ طیب ، هیّا بنا ، رغم أن بك حمى ، وهناك ٠٠٠
- لم يكمل الأمير جملته كان فى وجهه شىء أليم مرعب وخرجنا .
 - قال لى فجأة وهو يقف على العتبة :
 - ـ هل تملم أنه لايزال هناك مخرج آخر نمير القمار؟
 - _ ما هو ؟

- _ مخرج جدير بامراء ٠
 - _ ما هو ؟ ما هو ؟

ستعرفه في المستقبل • ولكن أعلم أننى الآن لا أستحقه ، لقد فات الأوان • هلم م وتذكر أقوالى هذه • لنجرب المخرج الجدير بعامة الناس • هل يمكن أن أجهل أننى أتصرف تصرف خادم ، بوعى واضع وارادة كاملة ؟

طريت الى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تتحممت هناك ، وكأن الرولين هي الحسل الوحيد • ومع ذلك لم نكن الروليت قد خطرت بيالي قبل وصــول الأمير ، كما سبق أن ذكرت ، على أننى لم أذهب مقامراً لنفسى ، وانعا ذهبت مقامراً بمال الأمير ومن أجل الأمير ، انني لا أستطيع أن أفهــم ماذا كان يجذبني ، ولكنني كنت منجذباً انجذاباً لاسسبيل الى مغالبته • لا ، لا ، ان هؤلاء الناس ، وهذه الوجوه ، وأولئك القوامين على مائدة الروليت ، وتلك الصرخات التي يطلقهـا المقــامرون ، وتلك الصالة الحقيرة كلها ، صالة تسرشتشيكوف ، ذلك كله لم يبد لى في يوم من الأيام على هذا القدر كله من الشساعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لى فى هذه المرة! اننى أتذكر بوضوح ما بعدء وضوح شعور الحداد والحزن الذى كان يعض قلبى أثنساء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار • ولكن لماذا لم أبارحهـا ؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يذعن لقــدر أو كمن يقدم نفسه فرباناً أو كمن يقوم بسخرة ؟ يمكنني أن أفول نسيئاً على كل حال : هو أننى لا أستطيع أن أقطع حقاً بأننى كنت أملك عقلي كاملاً حينـــذاك • ومع هذا لم أقامر في حياتي بتعقل كما قامرت في ذلك المساء • كنت صامناً متركز التفكير شــديد الانتباء بارعاً في الحساب الى حد رهيب ، وكنت صيوراً وبخيــلاً ، وكنت في الوقت نفسه حازماً في اللحظات الحاسمة • جلست من جديد أمام الصفر ، أي مرة ً أخسري بين تسرشتشیکوف و آفردوف الذی یجلس دائماً علی یمین تسرشتشیکوف ۰

لقد كنت أشمئز من هـ المكان ، ولكننى أردت أن احط على الصفر حتما ، وكانت جميع الأماكن الأخرى حول الصفر محتلة ، قامرنا قرابة ساعة ، وأخبراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه الى الطرف الذي كنا فيه ، ويقف أمامى في الجهة الأخرى من المائدة : كان قد خسر كل ما معه ، فهو ينظر الى لعبى صامتاً ، ربما دون أن ينهم منه شميئاً بىل دون أن يفهم منه شميئاً بسل دون أن يفسكر في اللعب ، وكنت قد أخذت أربح ، وكان تسرشتشيكوف قد نقدني مبلغاً ، فاذا أنا أرى آفردوف يتناول ورقة من أوراقي بمائة روبل ، فيضمها الى الكدسة التي كانت أمامه ، فعمل هذا وأماكت يده ، حدث لى عندئذ شيء لم أتوقعه أنا نفسى : ان جميع الأهوال والاهانات التي قاسيت منها في النهار قد تجمعت فجاة في هذه اللحظة والاهانات التي قاسيت منها في النهار قد تجمعت فجاة في هذه اللحظة الوحيدة ، في سرقة هذه الورقة ، لكأن كل ما تراكم وانضغط في نفسي كان لا ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر ، فهأنذا أصرخ خارجاً عن طوري ناظراً فيما حولي :

ـ هذا لص • لقد سرق منى ورقة بمائة روبل •

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولفط • ان حادثة كهذه هى فى هذا المكان شىء جديد كل الجدة • ان الناس فى صالة تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً ، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة • ولكننى كنت قد فقدت صوابى • وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسطالضجة والصياح قائلاً على حين فجأة :

ــ اختفت فعــلاً ، ليس فى ذلك شــك • كانت هنــا • أربعــــائة روبل!

هذه قضیة أخرى : ان كدســـة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من « البنك ، تحت أنف تسرشتشيكوف • وأخذ تسرشتشيكوف يبـّين المكان الذي كانت فيه الكدسة فائلاً: «كانت هنا منذ لحظة » ، وكان هذا المكان قريبًا منى كل القرب ، بل كان يلاصقنى ، كان يلاصق الموضع الذي فيه مالى ، كان أقرب الى منه الى آفردوف كثيراً .

وهتفت أقول مشيراً الى آفردوف :

ـــ اللص هنا ! هو الذي سرق أيضاً ! نبِّشوه !

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول :

_ مرجع هذا كله الى أنه 'يسمح لأى شخص بالدخول الى هنا . أناس لم يوس بهم أحد . من أتى به ؟ من هو هذا ؟

ـ رجل يقال له دولجوروكي ٠

ـ الأمير دولجوروكي •

وصرخ أحدهم يقول:

ـ الأمير سوكولسكي هو الذي أتى به •

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابى :

ـــ اسمع يا أمير : يظنون أننى أنا الســـارق مع أننى 'سرقت فى هذه اللحظة نفسها ! فقل لهم ، قل لهم من أنا !

عندند حدث شيء هو أفظع من كل ما سبق حــدونه في ذلك اليوم كله ٠٠٠ بل في حياتي كلها : أنكرني الأمير ٠ رأيته يرفع منكبيه ، ويجيب عن الأسئلة التي كانت تنهمر عليه قائلا بصوت واضح قاطع :

ـ أنا لست مسئولاً عن أحد • أرجوكم أن تدعوني وشأني •

وفى أتناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشــد طالباً بصوت عال أن ينبشوه ، وأخذ يقلب جيوبه ، ولكن الأصوات ارتفعت تنجيب عن مطالبته صالحة : « لا ، لا ، السيارق تحن تصرفه ، • وكان قد تودى خادمان ، فاذا هما يمسكان ذراعي ً من خلف •

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلص يدى ":

ـ لن أسمح لأحد بأن ينبشني ، لن أسمع لأحد بذلك .

ولكنتى جررت جرآ الى غرفة مجاورة ، وهناك نبشت ثيابى كلهما دون أن تغفل منها ثنية واحدة ، فكنت أصرخ وأتخبط محتجا ، قال أحدهم :

_ لابد أنه رمى ما سرقه الى الأرض •

فأجاب أخر:

- ـ ولكن أين نبحث عنها الآن في الأرض ؟
- ـ تحت المائدة لأشك أنه رماها تبحت المائدة
 - ــ لم يبق لها أثر حتماً ٥٠

واقتادونی ، لكننی استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على العتبة وأن أصرخ فی حنق مجنون :

ــ الروليت تحظـرها الشرطة • سـأشى بـكم جميعاً في هــذا اليوم نفسه •

ــ أنزلونى على الســـلم ، وألبسونى معطفى و ٠٠٠ فتحوا لى باب الشارع ٠

الفصل الت اسع ا

انتهى النار بكارئة • وبقى الليل • فاليكم ما أتذكر. عن تلك الليلة :

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليــلاً حين وجدت نفسى في الشـــارع • كانت

الليلة صافية هادئة باردة • وكنت أسير سيراً يشب أن يكون ركضاً • متعجلاً تعجلاً محموماً ، لكنني لا أتجبه الى البيت • • علام الرجبوع الى البيت ؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن؟ ان المرء في البيت يحيا فاذا ذهبت الآن الى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا : فهـل هذا الآن ممكن ؟ لقد انتهت الحاة ، فيستحيل على أبعد اليوم أن أحيا ، • هكذا ظللت أهيـم على وجهى في الشوارع ، لا أدى أين أمضى ، بــل انى لأجهل هل كنت أريد أن أمضي الى مكان • وكنت أحس بحــر شــديد ، حتى لأحل أزرار معطفي في بعض اللحظات ، ويتراءي لي أنه « ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية ، • شيء غريب : كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي ، حتى الهواء الذي أتنسمه ، انما ينتمي الى سيارة . أَخْرَى غير الأرض ، وكأننى وجدت نفسى فجأة على سطح القمر • كل شيء: المدينة ، المارَّد ، الرصيف الذي أركض علمه ، ذلك كله لم يمق لي أنا فكنت أقول لنفسي: وهذا مبدان القصور؟ وهذه بحرة اسحاق، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن ، لا علاقة لي بهما الآن ! ، • أصبح كل شيء غريباً عني ، كفُّ كل شيء عن أن بكون لي • • ان لي ماما و لبزا 1

ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لى الآن ؟ انتهى كل شيء ، انتهى كل شيء دفعة واحدة ، الا شيئاً واحداً : أننى سارق الى الأبد ، .

• كيف أبرهن على أننى لست سارقاً ؟ هل يمكن الآن هذا ؟ أأسافر الى أمريكا ؟ ولكن ما الذى أستطيع بذلك أن أبرهن عليه ؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصد ق أننى سرفت ! • الفكرة ، ؟ أية • فكرة ، ؟ ما • الفكرة ، الآن ؟ بعد خمسين سنة ، بعد مائة سنة ، حين سأمر ، سيوجد دائماً من يشير الى " باصبعه قائلا" : هذا سارق ، دشتن • فكرته ، بسرقة مال في الروليت • • ، ، •

هل نبعرت بحقد ؟ لا أدرى • لعلني شعرت بحقد • غير أن هناك صفة غريبة أتصف بها ، ربما منذ نعومة أظفاري : اذا تالني أحد باساءة ، اذا بلغت هذه الاسماءة حدها الأقصى ، اذا أهانني أحسد اهانة شديدة ، فانني أشــعر دائماً برغـــة نهمة في تحمل الاهانة دون رد ، بل في أن أستىق رغبات المسيء، فكأنني أقول له : و خذ ، الك تذلني ، فهأنذا أذل نفسى مزيداً من الاذلال • فانظر الى ّ واعجب بى ! • • كان توشار يضربنى وكان يريد أن أيظهر أنني خادم ، انني لست ابن عضو من أعضاء محلس الشيوخ • فسرعان ما كثت أقوم بدور الخادم ، فلا أقتصر على أن أناوله أيسر غبار عالق بهــا ، دون أن يـكون قد طلب منى ذلك أو أمرنى به ، وكنت في بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم ، لأزيل عن ردائه آخر ذرة من غبار ، الى أن يوقفني من تلقاء نفسه قائلاً : « کفی کفی یا آرکادی ، هذا کاف ! ، • وکنت اذا عاد بعد خــروج ، فنزع ممطفه ، آخسذ أنظف العطف بالفرشساة ، وأطويه بعنساية تامة ، وأغطيه بغطاء من حرير ذي مربعات • كنت أعرف أن رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني ، كنت أعرف هذا حق المعرفة ، ولكن ذلك بسنه هو ما كان يرضيني ، فكأنني أقول لهم : « أردتم لى أن أكون خادماً ، فانظروا كيف أنني خادم ، ما دمت خادماً فلأكن خادماً تماماً! » • وقد احتفظت بهدا الكره السلبي وهذا الحقد الحفي سنين طويلة • وعند تسرشتشيكوف ، حين الكره السلبي وهذا الحقد الحفي سنين طويلة • وعند تسرشتشيكوف ، حين مرخت قائلاً لجميع من في الصالة وقد ثارت ثائرتي وخرجت عن طوري : « سوف أنني بكم جميعاً ، فالروليت تحظرها الشرطة ، ، فيميناً ان عاطفة من هذا النوع هي التي كانت تحركني : لقد أذلوني ونبشوني ووصفوني على رءوس الأشهاد بأنني لص ، أي قتلوني فتسلاً ، فكأنني رددت على ذلك قائلاً : « طيب • • اعلموا جميعاً أنكم عرفتموني على حقيقتي ، اعلموا أنني لست لصاً فحسب ، بل انني أيضاً واش! » • حين أثذكر اليوم ما حدث ، فانني أفستره هذا التفسير وألحصه هذا التلخيص • ولكن الأمر عبنداك لم يكن أمر تحليل ، فأطلقت صرختي تلك بغير نية ، وقبل ذلك بثانية واحدة كنت أجهل أنني سأطلقها • لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسي •

لانبك أن هذياني كان قد بدأ حين أخذت أركض ، ولكنني أتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح أنني كنت أتصرف داعباً • كل ما هنالك وهذا ما أستطيع أن أقطع به وائقاً _ أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستئتاجات كان موصدا دوني : فحتى في ذلك الوقت كنت أشعر بيني وبين نفسي أن ثمه أفكاراً بمكن أن توافيني ، وأن ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عنى اطلاقاً » • وكذلك كانت بعض قراراتي ، فهي وان اتخذت بوعي واضع وشعور كامل ، كان يمكن أن تعظو حينذاك من أي منطق داخلي • بل أكثر من ذلك الني أتذكر تذكراً واضسحاً أن قراراً من قراراتي كان يمكنني في بعض المحظات أن أشعر بسخافته واستحالته ثم أشرع مع ذلك يمكنني في بعض المحظات أن أشعر بسخافته واستحالته ثم أشرع مع ذلك في تنفيذه على الفور واعباً كل الوعي • نعم ، لقد كانت الجريمة

تتربص بى فى تلك الليلة ، ولئن لم أرتكب جريسة فان الفضل فى ذلك يرجم الى الصدفة وحدها .

وَفَجِيأَةً وَافْتَنَى الْكُلُّمَةُ الَّتِي قَالَتُهَا تَاتَيَانًا بَافْلُوفُنِـا عَنْ فُرسَــيلُوفُ : « ليذهب الى خط نيقولا فيضع رأسه على السكة الحديدية ، فينفصل رأسه عن جسمه على نحو مناسب » • وسيطرت هذه الفكرة لحظة على جميع مشاعرى ، ولكنني لم ألبث أن طردتها من ذهني على الفور متألمًا ، اذ قلت لنمسي : « أضع رأسي على السكة الحديدية وأمنوت ؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً : هو السارق اذن ، شعر بالحزى والعار فانتحر • لا ، لن أفعل هذا أبداً ! ، . وأذكر أن شرارة كرء رهيب قد شبت في قلبي في تلك اللحظة • قلت : • ماذا ؟ يستحيل على معد الموم أن أبرىء نفسي ، يستحيل على أن أبدأ حياة جديدة • فيجب اذن أن أخضع ، يجب أن أجمل نفسي خادماً ، يجب أن أكون كلباً ، أن أكون ذبابة ، أن أكون وانسياً ، أَنْ أَكُونَ الآنَ وَاشْسِيّاً بِالْفَعَلَ ، وَفَي أَنْسَاءَ ذَلَكَ أُسْسَتَعَدَ بَهِدُوءَ وَرَفَقَ ، حتى اذا أن الأوان في ذات يــوم دمــرت كل شيء ، أبــدت كل شيء ، أُفنيت العالم كله ، المجرمين فيه والأبرياء • وسيعلم الناس جميعاً حينذاك ، على حين فحأة ، أن الذي فسل ذلك انما هو الرجل الذي اتهموه بأنه لصر ، وبعدائد الما التحر ، •

لا أذكر الآن كيف أفضى بى السير الى زقاق صبغير قريب من شارع و الفرسان الحرس ، و ان هذا الزقاق تحفه فى الجانبين ، على طول مائة متر تقريباً ، جدران عالية هى حواجز تحجب ورادها أفنية منازل وأبصرت خلف أحد هذه الجدران ، على اليسساد ، كومة كبيرة من حطب ، كومة عالية جداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين و فوقفت فجأة وأخذت أفكر و كان فى جيبى أعواد كبريت من شمع ، محفوظة في علبة من فضة و أكرر مرة أخرى أتنى كنت عندئذ أعى وعباً واضحاً

ما أفكر فيه وما أريد أن أعمله ، ومازلت أذكر هذا الى النوم ، ولكن لو سألتني لماذا أرذت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البته • كل ما أتذكره هو أن هــذه الرغبــة قد اســتيدت بي وملكت على " مشاعري فحأة • قلت لنفسي : « إن تسلق الجدار ممكن جداً » • لقد كان هناك ، على بعد خطوتين ، باب كبير لاشك أنه مغلق منذ أشهر طويلة • وتابعت تفكيري قائلاً لنفسي : « اذا وضعت قدمي على حرف أسفله ، كان في امكاني أن أتشبث بأعلاء ، فأتسلق الجدار ، ولن يرى أحد شيئًا • لا أحد ســيرى شئًا ! صمت كامل ! وهنــــاك في أعلى الجدار ، سأستقر مرتاحاً ، فأشمل النار في الحطب • هذا سهل ، حتى بدون أن أنزل الى الفناء ، لأن الحطب يكاد يلامس الجداد • وبسبب البرد ستسرى النار في الحطب سريعة • ليس على الا أن أسحب بيدى حطبة سندر • • بل لماذا الحطية ؟ أستطيم رأســـاً ، وأنا جالس على الجداد ، أن أنتزع بيدى قليلاً" من القش ، فأشعله بلهب الكبريت ، أشعله ثم أدســه في وسط الحطب ، فشب الحريق • وأثب أنا الى أسفل الجدار وأنصرف • ولا داعي حتى الى الركض ، لأن الحريق لن يلاحظه أحد الا بعد مدة ٠٠٠ . أدرت هذا كله في رأسي ، ثم عزمت أمسري تماماً على حين فجأة • وشعرت بلذة قصوى ، بلذة قصوى وتسلقت • كنت أجد التسلق اجادة عظمة : انني منذ كنت في اللسمه كنت متفوقاً في الرياضة المدنية تفوقاً كبيراً • ولكنني كنت أتنعل حذاءين من كاوتشوك ، فكان ذلك عقبة • ومع ذلك استطعت أن أمسك باحدى يدى ً حافة لا يكاد 'يرى بروزها ، وأن أصعد ﴿ وهممت أن أقذف يدى الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار ، قاذا بقدمي تنزلق فأسقط منقلبًا • أُظن أن رقبتي اصطدمت بالأرض • ولاشك أنني بقيت مغشيًا على " مدة دقيقة أو دقيقتين • فلما أفقت من غيبوبتي ، عقدت أزرار معطفي بنير شعور ، لأننى أحسست ببرد لا يحتمل ، وجررت نفسي جراً الى حيث الباب الكبير ، فلطوت هناك وأنا لا أعى ما أفعل وعياً واضحاً ، وتجمعت على نفسى فى تنجويف بين الباب ونتوء الجدار ، كانت الأفكار فى ذهنى مضطربة ، وأغلب الظن أتنى سرعان ما غفوت ، اننى أذكر الآن ، كما لو كنت فى حلم ، أن صوت نواقيس ، عميقاً تقيلاً ، قد ترجيّع فى أذنى فجأة ، وأننى أصغيت الى ذلك الصوت متلذذاً ،

5

كان الناقوس يرن مسرة كل ً ثانتين ، بل كل ثلاث ثوان ، ولكن صوته لس صوت ناقوس الخطـر ، بل هو صـوت ممتع بهيج عريض ، ولم ألبث أن منزته فجــأة : انه ناقوس كنيسة القديس نيقولا ، الكنيسة الحمراء التي تقع في مواجهــة منزل توشــاد ! ـــ مي كنيســة موســكوبية قديمية ، ذكراها في خسيالي واضحة ، شسيدن في عهبد ألكسي مخائلوفتش ، بمسنناتها وقبابهــا الكثيرة وأعمدتهــا • وقد انتهى أسبوع الفصيح منذ برهة قصييرة ، وعلى أشبيجار السندر النحيلة في حديقة آل تونيار ، أخذت تهتز الأوراق الحضر الحديدة منذ الآن • والشمس المتألقةعند الأصبل تسكب أشعتها المائلةفي صفنا بالمدرسة، وأناءفي غرفتي الصغيرة التي تقع على اليسمار ، والتي أقصماني اليها توشمار بعيداً عن د أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشبيوخ » ، عندى زائرة • نعم » أنا الولد الذي لا 'يعرف له منيت ، عندي زائرة ، أتتني أول مرة منذ أن أودعت فى مدرسة توشار • ولقد تعرفتها منذ دخلت : انها أمى • تعرفتها رغم اننى منذ العهد الذي كانت تقودني فيه الى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس ، وهي الكنيسة التي كانت الحمامة تجتاز قبتها ، لم أرها مرة ً واحدة • نيحن الآن جالسان مماً • وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً • ولقد عرفت فـما بعد ، عرفت بعد سنين كثيرة ، أنها في ذلك آلحين ، وقد بقت وحيدة اذ تركها فرسیلوف وسافر الی الخارج فحسأة ، جاحت الی موسکو دون أن یکون لأحد سلطان عليها ، مستعينة على ذلك بما تملك من مال زهيد ، كاتمة امر سفرها تقریباً عن اولئك الذین عهد بها الیهم ، وذلك کله من أجل أن ترانی لا أكثر ، شیء غریب آیضاً : انها حین دخلت قد تحدثت الی توشار ، أما أنا فلم تقل لی انها أمی ، هی الآن هنا علی مقربة منی ، وانی لأذكر أننی قد أدهشنی أن أراها لا تتكلم الا قلیلا جداً ، وهاهی ذی تفض صر ت كانت تحملها : ان فی الصرة ست بر تقالات ، وبضمة أقراص من الحلوی ، ورغیفین من خبر أبیض ، وقد سانی الحبز ، فأجبت أمی متجهم الهیئة بأننا تعلم هنا أحسن الطعام ، وأننا تعلی كل فاجبت أمی متجهم الهیئة بأننا تعلم كل محمد السای رغیفا كاملا ، فقالت نی أمی :

ــ لا بأس يا عزيزى ، لقد قلت لنفسى بسذاجة : « لعلهم فى هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة ، • لا تؤاخذنى يا حبيبى •

قلت :

ــ وســوف 'يجرح شــعور آنطونين فاسيليفنا (زوجــة توشار) ، وسوف يسخر رفاقي مني ٠٠٠

- ــ ألا تريده اذن ؟ قد تأكله مع ذلك !
 - ــ اتركيه ، اذا شئت .

ولم أمسس الهدایا • فالبرتقالات وأفراص الحلوی بقیت علی المائدة أمامی ، وبقیت أنا جالساً خافضاً عینی ، ولکن علی وقار • من یدری ؟ لملنی کنت أتمنی ألا أخفی عنها أن زیارتها تخیجلنی أمام رفاقی ، وأن أظهر لها ذلك قلیلاً لتفهم ، كأن أقول لها : • انك تخیجلینی ولا تدركین ذلك من تلقاء نفسك ، • نعم ، أقول لها ذلك أنا الذی فی تلك اللحظة ذلك من تلقاء نفسك ، • نعم ، أقول لها ذلك أنا الذی فی تلك اللحظة ذاتها كنت أجری وراء توشار حاملا الفرشاة لأنفض عن ثبابه أقل غباد ! وكنت أتصور كذلك مدی السخریات التی سیصبها علی الصبیة الآخرون متی انصرفت ، وقد یصبها علی توشار نفسه ، فلم یهتز قلبی بأیة عاطفة طبة نحو أمی • كنت أنظر شزراً الی قستانها القائم العتیق ، والی یدیها طبة نحو أمی • كنت أنظر شزراً الی قستانها القائم العتیق ، والی یدیها

الغليظتين اللتين تشبهان يدى سفاله ، والى حذاءيها التقيلين ، والى وجهها الذى تحولاً شديداً ، ان جبينها قد تخد د منذ الآن بغضون صغيرة ، مع أن أنطونين فاسميلفنا قالت لى بعد ذلك في المسماء ، بعد انصرافها : « لابد أن أمك كانت في الماضي جميلة جداً » ،

وفيما كتا على هذه الحال اذا بآجاتى تدخل علينا بصينية فوقها فنجان فهوة و الوقت بعد الظهر و وآل توشار ، في هذه الساعة ، يحتسون القهوة دائماً عندهم في الصالون و ولكن ماما شكرت ولم تتناول الفنجان و وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً ، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً في القلب و وآل توشار ، في قرارة أنفسهم ، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتي هو منتهى التسسامح والكرم منهم ، وأن فنجان القهوة الذي أرسلوه اليها هو ذروة الانسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة أرسلوه اليها هو ذروة الانسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأكارهم الأوروبية ، ولكن أمى رفضت القهوة بمصادقة تشبه أن تكون عمداً ،

و نودیت الی عند توشار • فطلب منی أن آخذ جمیع دفاتری وجمیع کتبی و أن أظهر علیها أمی « لتری مدی ما أجنیه من فائدة فی مدرسته ، • وانبرت آنطونین فاسیلیفنا عندئذ فقالت لی بلهجة ساخرة و هی تزم شفتیها :

ـ أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك •

وجمعت دفاترى لأحملها الى أمى التى كانت تنتظر • ومررت أمام
• أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ • الذين احتشدوا فى الصف
وأخذوا يرقبوننا كلينا • وسرَّنى أن أنفذ أمر نوشار تنفيذا دقيقاً محكماً •
فكنت أفتح دفاترى فتحاً منظماً > وآخذ أشرح لأمى قائلا : • هذه دروس
قواعد اللغة الفرنسية • وهنا نصوص الاملاء • وهذا تصريف الفعلين
الساعدين > فعل عمل عمل علاه وفعل • فعنا الجغرافيا ، وصف المدن

الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم ، النخ ، ، ظللت نصف ساعة أو أكثر أشرح لأمى ذلك كله بعسوت رقيق مطرد خافضاً عيني كما يفعل ولد أحسن تأديبه ، وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب نسيئاً ، وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وهذا هو السبب في أن الدور الذي قمت به أعجبني ، ومع ذلك لم أفلح في أن أتسبها ، فكانت تصنى الذي قمت به أعجبني ، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع ، حتى اعترائي أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمراد من تلقاء نفسي ، وكانت تظرتها حزينة ، وكان في وجهها شيء بعث على الشفقة ،

ونهضت ْ أَخيرًا لتنصرف • فاذا بنوشار يدخل بنفسه بغتة َ ، ويسألها بوقار مصطنع غبي هل هي راضية عن النجاح الذي حققه ابنها • فأخذت أمى تتمنم معِّبرة "عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة • نم دخلت آنطونين فاسليفنا • فرجتهما أمي ألا يتركا البتيم ، « لأنه الآن في حسكم البتيم ، فاستمرا في احسانكما اليه وتعمكما عليه ٠٠٠٠ وحيتهما مفرورقة العينين بالدموع ، حيث كلا منهما على حــدة ، بانيحناء شديد ، كما يفعل العامة من أبناء « الشعب » حين يجيئون الى سادة كبار يلتمسون منهم شيئًا • وكان توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله ، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك لينًا واضحاً ، ولاشك أنهما سرعان ما غيرًت رأيهما فيما يتعلق بفنحان القهوة • وازداد توشار اصطناعاً للوقار ، وأجاب ناثلاً بلهجـــة انسسانية « انه لا يفر ُّق بين الأولاد ، وانهم هنا جميعاً أولاده ، وانه هنـــا أبوهم كافة ، واننى أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكونتات وأبناء أعضاء مجلس الشيوخ ، وان هــذا شيء يجب أن يقدر حقٌّ قدره ، ، النح ، النح . فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار . وتفاقم اضطرابها ، فالتفثت الى" والدموع تلتمع في عينيها وقالت : « استودعك الله يا بني » •

وقبَّلتني بل قل انني سمحت لهـا أن تقبُّـلني • وكان واضــــــحاً

أنها ودَّت لو تقبَّلنى مزيدا من النقبيل ، وأن تعانقنى وأن تحضننى وأن تشدنى اليها ، ولكنها أمسكت عن ذلك اما لأنهما استحت من الحضور ، واما لأنها أدركت أننى أشعر بعنجل ، فهاهى ذى تعيى توشار وامرأته تبحية أخيرة ، وتسرع متجهة الى باب الحروج ، وبقيت أنا مسمراً فى مكانى ،

قالت آنطونين فاسيلفينا :

« هلاً تبعت أمك ! ان هذا الولد لا قلب له ! » •

ورفع توشار منكبيه ، كأنه يقول لهـا : « ليس عبثاً أننى أعامله كما يعامل خادم ، •

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا ، فنزلت وراء أمى ، وخرجنا الى درج الباب ، وكنت أعلم أن الآخــرين ينظرون الينــا الآن من النافذة ، والتفتت أمى الى الكنيسة ، فرسمت اشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع » وكانت شفتاها تختلجان ، ورن جرس جهير في أعلى برج الناقوس رنات قوية منظمة ، فالنفت أمى الى ، ثم لم تطق صبراً فاذا هي تضع يديها على رأسى وتجهش باكية بكاء غزيراً ،

ـ كفي ياماما ، هذا يخجلني ٠٠٠ انهــم يرونــا من النافذة ٠٠٠

فارتدت أمى الى وراء ، وأسرعت ثريد الانصراف وقالت :

ـــ طیب ! •• الرب •• الرب معك ! •• ملائكة السماء تحرسك *،* ومريم العذراء والقديس تيقولا •••

وظلت تردد بسرعة ، وهى لا نزال ترسم اشسارة الصليب ، وتحاول أن تضع على مزيداً من الصلبان بمزيد من السرعة :

۔ الرب ۰۰ الرب ۰۰ حبیبی ۰۰ عزیزی میں دولکن انتظر قلملاً ۰۰۰

وأسرعت تدس يدها فى جيبها فتستل منها منديلاً • • منديلاً أزرف ذا مربعات قد عقد فى طرفه عقداً قوياً • • وأخذت تحاول حلَّ العقدة • • ولكنها لم تفلح ، فقالت :

_ طيب ٠٠ لا بأس ٠٠ خــذ المنديل أيضـــــــــــــــــــــــــ ١٠ انه نظيف كل النظافة ٠٠ قد تستعمله ٠ ان في العقدة أربعة نقود كبيرة فيما أظن ء فعسى أن تنتفع بها في شيء ٠ لا تحقد على يا بني ، ليس معى أكثر من ذلك ٠٠ لا تزعل منى يا حبيبى ٠

أخذت المنديل + وقد أردت أن أنسِّهها الى « أن مسيو توشار وآنطونين فاســيليفنا يعاملاننــا أحسن معاملة ، وأننــا لا يعوزنا شيء ، ، ولكننى أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل •

ورسمت على السارة الصليب مرة أخرى ، وتمتمت أيضاً بدعاء لا أدرى ما هو ، ثم اذا هى تحيينى بالتحناءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجاة ، ثماماً كما حيّت توشار وامرأته فوق ، لن أسى هذه التحية ما حييت ! لقد ارتعشت من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، لا أدرى أنا نفسى لماذا ! ماذا قصدت من هذه التحية ؟ أكانت « تمترف بتخطيئتها أمامى » كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد ؟ لا أدرى ، ولكننى شعرت حينذاك بمزيد من الخجل والخزى ، « لأنهم كانوا هناك في أعلى ينظرون ، وقد يضربنى لامبير بعد قليل ، ،

وانصرفت أخيرًا •

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد النهمها أبناء الكونتات وأعضاء محلس الشيوخ حتى قبل أن أعود ، وسرعان ما انتزع منى لامبير النقود

الأربعة الكبيرة • فاشتروا بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوء من عند باثم الحلوى ، ولم يذيقوني شيئًا مما اشتروا •

انقصت ستة أشهر • نحن الان في سهر تشرين الاول (أكتوبر) • رياح وأمطار • نسبت أمي نسياناً تاماً • والكره ، الكره الأسود العميق لكل شيء ، قد نفذ الى قلبي واستولى عليه استيلاء كاملاً • ومازلت أنفض الغار عن ثباب توشد بالفرشاة ، لكنني أكرهه الآن بسكل ما أملك من قوى ، ومازال كرهمي يزداد شدة وتأججاً • وذات يوم ، في ساعة الغسق الحزينة ، بينما كنت أنش علمتي ، إذا أنا أبصر المنديل الأزرق في الركن الذي دسسته فيه منذ أعطتنيه أمي • فأخرجت وأخذت أتأمله باهتمام • ان طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة ، بل لا يزال يحتفظ بأثمر قطعة تقسديه مستديرة • ولكنني لم ألبث أن أعدت المنديل الى مكانه وأغلقت العلبة • كان ذلك في عشمية عبد ، وقد أخمذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس اللبسل • وكان التلاميذ قد ذهبسوا الى أسرهم بعد الغداء ، ولكن لامبير قد بقى في هــذه المرة ، لأن أهله لم يرسلوا أحــداً يصطحبه . انه لا يزال يضربني كما كان يفعل من قبل ، ولكنه أصبح يبوح لي بأشياء كثيرة ، وأصبح في حاجة الى ما بننا طوال السهرة نتكلم عن مسدسات لوباج التي لم يسبق لأحــد منــا أن رآما ، وعن السيوف الشركسية ، وانتقل لامبير أخيراً الى حديثه المفضَّل ، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصفى اليه رغم ما أشعر به من دهشة بيني وبين نفسي • ولكنني في هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لايطاق ، فقلت للامبير انني أشعر بصداع في رأسي ، ومضينا الى النوم ، فغمسوت رأسي بالغطباء ، واستثللت المندبل الأزرق من تحت المخدة : كنت قد عدت الى اخراجه من العلمة قبل ساعة ، فما ان ر'تُتَّب سريرانا حتى وضعنه تحت المخدة • شددت المنديل الى وحهى وأخسنت أقبِّله • وهمست أقول وقد استولت على ۖ ذكرى أمي وانقبض صدری کأنه مضغوط بین فکی ملزمة: « ماما ، ماما » ، و ترایی لی و جهها و آنا مغمض عینی ت ترایی لی بشفتیه المختلجتین حین کانت ترسم علی نفسها اشارة الصلیب آمام الکنیسسة ، ثم ترسم اشارة الصلیب علی آنا ، فأقول لها: « اننی أسعر بخجل ، انهم یرونسا ، ، و تابعت هتافی المه : « ماما ، ماما الحبیبة ، لقد جثت الی مرة علی الأقل ، ، أین أنت الآن یازاثرتی البعیدة ؟ هل تذکرین الآن ابنك الصغیر المسکین الذی جثت تزورینه ؟ ، و تعالی الی قمی الحلم علی الأقل ، لأقول لك اننی أحبك حباً عظیماً ، واننی أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزی ، واننی أحبك فی ذلك الوقت أیضاً ، وان قلبی كان یتألم حین كنت أحبك فی ذلك الوقت أیضاً ، وان قلبی كان یتألم حین كنت أحبك حینداك ! ماما الحبیبة ، أین أنت الآن ؟ هل تسمعینی ؟ ماما ، هل تتذكرین الحمامة ، فی الكنیسة ؟ ، و ، ه ، ه ،

دمدم لامبير من قرارة سريره يقول:

_ شيطان يأخــذه ! ماذا دهاه ؟ انتظر قليــلاً ! انه يمنع النــاس من النوم ٠٠٠

وها هو ذا یشب عن سریره أخیراً ، فیرکض الی سریری ، وینزع عنی الفطاء ، ولکننی أتشبث بالفطاء تشبئاً قویاً وأظل مطوقاً رقبتی به ٠ ـ تبکی ؟ ماذا دهاك حتی أخذت تثن یا أبله ؟ خذ هذه لك !

قال ذلك وأخذ يكيل لى الكلمات على ظهرى وعلى أضلاعى ، ويؤلمنى مزيداً من الايلام عند كل ضربة ٠٠ وفجأة فتحت عينى ٣٠٠٠

النهار قد طلع تماماً ؟ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار ٠٠٠ وأنا جالس متجمع على نضى نصف ميت ، متخدر فى معطفى ، وهذا رجل يقف أمامى يحاول أن يوقظنى من نومى بشتائم مقذعة ، ويركلنى

على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى • فأنهض وأنظر : هو رجل يرتدى معطفاً ثميناً من جلد الدب ، ويدنر رأسه بقبعة من الفراء ، له عينمان سوداون ، وأسنان بيض مسددة الى أ • انه أبيض اللون ، محمر الحدين ، يشبه وجهه أن يكون قناعاً • • • لقد مال على احتى كاد وجهه يلامس وجهى ، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد :

ــ لقد تجمدت من البرد يا سكير ، يا أبله ! لسوف تفطس هنا من التجلد كما يفطس كلب ! قم ! قم !

صرخت أقول :

- ـ لامبير .
- من أنت ؟
- ۔ دولجوروکی ۰
- ۔ أي دولجوروكي ؟
- دولجوروكى فحسب! ٥٠ ذلك الذى غرزت فى فخذه شوكة ٥٠
 فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة ، ابتسامة من يتذكر :
 - ... آ ٥٠ آ ٥٠ هذا أنت اذن ؟ أنت ؟
 - (أتراه تسيني ؟) •

وأنهضنى ، وأوقفنى على قدمى ً ، فكنت أترنج وأجد فى الوقوف والحركة مشقة ، فقادنى وهو يسندنى بيده ، كان ينظر فى عينى ً كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم ، وكان ينصت الى كلامى بكل ما أوتى من قوة ؟ وكنت أنا أتمتم بكل ما أوثيت من قوة أيضياً ، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع ، وأشعر بسرور لأننى أتكلم ولأنه لامبير ، ألأنه بدا لى « خلاصاً »

مما أنا فيه ، أم ترانى ارتميت عليه ارتمائى على انسسان من عالم آخر ؟ لا أدرى ، لم أكن فى ذلك الوقت أفكر ، لقد ارتميت عليه بغير تفكير ، ماذا قلت ؟ لا أتذكر البتة ، ولا شك أن ما قلته كان مفككاً ، بل لا شك أن نطقى لم يكن واضحاً ، ولكنه كان يصفى الى اصفاء شديداً ، واستوقف أول عربة مرت بنا ، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت فى دفء غرفته ،

ان كل انسان ، أياً كان ، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية يعدّ ما أو يميل الى أن يعدّ ما غير مألوفة ، خارقة ، كأنها تنتمى الى عالم الحبال ، كأنها معجزة من المعجزات ؛ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاء وقع له ، أو نبوءة تنبأ بها ، أو احساساً سابقاً بأمر سيقع ، أو شيئاً من هذا القبيل ، وانى محمول حتى الآن الى اعتبار لقائى هذا بصاحبى لامبير مشتملاً على شى، من ذلك ، م على الأقل اذا نحن نظرنا الى ظروف هذا اللقاء والى ما كان له من نتائج ضخمة ، ولقد حدث هذا كله حدوثاً بسيطاً غاية البساطة ، من أحد الجوانب على الأقل : لقد كان لامبير عائداً من احدى مهماته الليلية (سسنرى ماذا كانت تلك المهمة) ، وكان نصف سكران ، قلما توقف لحظة أمام بأب من الأبواب ، أبصرنى ، ولم يكن شد انقضى على وجوده ببطرسبرج الا بضعة أيام ،

الغرفة التي 'نقلت اليها غرفة صغيرة ، أثاثها بسيط جداً ، مزودة بما تزود به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية ، أما لامبير نفسه فكان يرتدى ثياباً فاخرة باذخة ، وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا الا من نصف ما فيهما ، وكان ركن من الفرقة محجوباً بحساجز يحفى وراءه السربر ،

صاح لامبير منادياً:

_ آلفونسين !

فأجاب من وراء الحاجز صدون نسوى مرتعش يقول بلغة فرنسسية باريسة اللهجة :

_ تعم !

وسمعت من ورام الحاجز حفيف قدمين عاريتين ، وما هي الالحظة حتى ظهرت « مدموازيل آلفونسين » بقميص النوم • انسانة عجيبة ؟ طويلة القسامة نحيلة كعود يابس ، فتية ، سسمراء ، طويلة الوجه ، عيناها تنطنطان ، وخداها خاسفان • مخلوقة بالية بلى رهيباً •

_ أسرعى ! (أنا الآن أترجم لأنه كلسَّمها بالفرنسية) • لابد أن عندهم سماوراً يعيرونه • اسرعى • هاتى ماءً ساخناً ونبيذاً أحمر وسكراً ، وقدحاً ، وأسرعى ، فانه متجلد من البرد • هو صديقى وقد قضى الليل في الثلج •

فهتفت تقول بالفرنسية وهي تلوي يديها بحركة مسرحية :

_ مسكين !

_ هلمي ، هست ٠٠٠

كذلك صرخ لامبير كأنه يكلم كلباً ، ولوَّح لها بأصبعه مهدِّداً ٠ فسرعان ما كفَّت عن حركاتها ، وركضت تنفذ ما أمرها به ٠

وأخذ لامبير يفحصني ويمسنى ويجس نبضى ويلمس صدغي * • ثم جمجـم يقول : « غــريب أنك لم تتجمد تجمــداً تاماً • • • ولكنك كنت مدفوناً في معطفك مع رأسك ، فكان لك معطفك كجحر • • • •

ووصل كأس الماء المغلى ، فابتلعته بشراهة ، فسرعان ما أنعشنى ، وعدت أتمتم ، كنت مضطجماً فى الركن على الديوان نصف اضطجاع ، وكنت أتكلم نشوان بالكلام ، ولكننى لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول ،

بل ان هناك صفحات من ثرثرتى فد امتحت الان من ذاكرتى امحاء تاما . هل فهم من كلامى شيئا؟ لا أدرى. ولكنثى أدركت فيما بعد انهلابد أن يكون قد فهم على الاقل أن لقاء هذا بى امر لا ينبغى له أن يهمله ، وأن الابقاء على علاقته بى يمكن أن يجلب منه منافع . وسأشرح فيما بعد ما لعله أجراه من حساب .

لم أنتمش انتماساً قوياً فحسب ، بسل أظن أننى كنت في بعض اللحظات مرحاً ، اننى أتذكر الشمس التى أضاءت الغرفة فجأة حين أزيحت السستائر ، وأنذكر المدفأة التى طقطقت نيرانها حين أشعلت ، أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدرى ، وأنذكر الكلب الصغير الأسود الذى كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده الى قلبها بغنج ودلال ، لقد سلانى هذا الكلب وأضحكنى كثيراً ، حتى اننى انقطعت عن الكلام ومددت اليه يدى مرتبن ، ولسكن لامير أوماً ايمساءة فاذا بالفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحاجز ،

و كان لامبير شديد الصمت ، و كان جالساً أمامى ينصت الى كلامى الصاناً قوياً وقد مال على فلا يبتعد عنى ، وكان يبتسم فى بعض الأحيان ابتسامة طويلة بطيئة ، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينيه كمن يبذل جهداً « الرئيقة ، لم أفلح فى أن أعبر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة مشقة ، « الوثيقة ، لم أفلح فى أن أعبر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة مشقة ، فكنت أرى فى وجهى أنه لا يستطيع أن يفهم عنى ، حتى لقد جازف مرة أنالقى سؤالاً ، وكان هذا نبيئاً خطراً ، لأننى كنت أغير موضوع الحديث متى ألقى على شؤال ، وأسى ما كنت يصدد الكلام عنه ، كم قضينا من الوقت على هذه الحال مسترسلين فى الحديث ؟ لا أدرى ، وهاهو ذا ينهض فجأة وينادى آلفونسين فقول لها :

ـ انه في حاجة الى هدوء . وقد نحتماج الى استدعاء طبيب . افعلى

كل ما يطلب ، أعنى ٠٠٠ د تفهمين يا بنيتى ؟ هـل معـــك مال ؟ لا ؟ خذى اذن !

قال دلك وأخسرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات ، ثم همس يقول لآلفونسين وهو يلوّح لها باصبعه مهدّداً ويقطب حاجبيه بقسوة :

_ « هل تفهمين ؟ هل تفهمين ؟ ، •

ورأیت أنها كانت تر تعد أمامه ارتعاداً شدیداً • وأردف یقول : ــ سأرجم •

ثم اتنجه الى فقال لى مبتسماً:

ــ أما أنت فعلمك أن تنام • هذا خير ما تفعله •

وتناول قبعته • فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية :

_ « ولكنك لم تنم البتة يا موريس ! » •

فأجابها بقوله :

_ ه اسكتى ! سأنام فيما بعد ، •

وخرج ٠

همست تقول لي بنبرة التأثر وهي تريني ظهرها :

_ أنقذت!

وسرعان ما أخذت تخطب قائلة وقد انتصبت في وسط النسرفة (بالفرنسية) :

- سیدی ، سیدی ، ما من رجل کهذا الرجل کان قاسیاً هذه العسوة کلها ، وکان بسمارکاً الی هذا الحد ، فنظر الی المرأة نظرته الی

فاذوره ، ما امرأة في عصرنا هذا ؟ « اقتلها ! ، هذه هي الكلمة الأخيرة التي قالتها اكاديمتنا الفرنسية !

حملقت عینی ٔ • اننی أری النسسخص سخصسین • اننی اری الفونسینتین اثنتین • ولاحظت فجأة أنها تبکی • فارتشت وأدركت أنها كانت تكلمنی منذ مدة طویلة وأننی كنت اذن نائماً طوال ذلك الوفت ، أو كت منشياً علی ً •

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية) :

- ۰۰۰ « وا أسفاه يا سيدى ، فيم كان يمكن أن يفيدني أن اكتشفه مى وفت مبكر ٠٠٠ أفلم يـكن من الخير لى أن أظل كاتمة عارى طوال حياتمي ؛ قد لا يشرُّف فتاة ً أن تشرح ما يدور مي نفسها بمثل هذه الحربة . أمامك يا سيدى ، ولكنني أعترف لك بأنني اذا 'سمع لي أن أريد نسيئًا ، فسوف يسكون هذا الشيء هو أن أغمد في فلمه خنجري ، ولكن على أن أشسيح عنسه بصرى ، مخسافة أن أرى نظسرته فترتعش ذراعي وتتجمد عزيمتي ! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسي يا سندي ، وتتف لحبته الحمراء من أجل أن يبعها لفنان عند « جسر المارشالات ، بقرب متجبر مسو آندریو _ أزیاء راقیة ، بضائع باریسسة ، ملابس داخلیة ، قمصسان أنيفة ، تعرف يا ســـيدى ، أليس كذلك ؟ آه يا ســيدى ، حين تضــم العسداقة ، على ماثدة واحدة ، زوجة وأولاداً وأخوات وأصدقاء ، ويشتمل في القلب فرح قوى ٠٠٠ هل هناك يا سندى سعادة أفضل من هذه السعادة التي بنعم بها جميع الناس ؟ ولكنه يغسحك يا سسيدي ، هذا الشيطان الكريه العجب الذي لا يتصوره العقل • يمناً يا سبدي ، لولا وساطة مسمو آندريو ، لما ٠٠ آه ٠٠ مستحمل ، لما كنت ٠٠ ولكن ماذا با سيدي ، ماذا بك ؟ ماذا بك يا سيدي ؟

كذلك هتفت تسمألني ، ثم اندفعت الى م لعلني كنت أوتعد ، بل

لعلني قد اغمي على • لا استطيع ان اصف الشعور الشماق الأليم الذي احدثته في نفسي هذه المخلوقة نصف المجنونة • ولعلهما تخيلت ان عليها آن تسليني وتسرى عني. المهم أنها لم تتركني لحظة واحدة. ولعلهاكانت تمثل في الماضي • لقد كانت تنشــد الامهــا انشاداً ، وتدور على نفسها ، وتتكلم بدون انقطاع ، على حين كنت قد صمت منه مدة طويلة . كل ما استطعت أن أفهمه من أقوالهـا هو أنهـا كانت لهـا • علاقات وثيقــة بمنجــر مسيو آندريو ــ أزياء راقية ، بضائع باريسية ، النح ، ، وأنها لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو » ، ولكن « هذا الشيطان الحانق الذي لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو اندريو الى الأبد ، ، وتلك هي مأساتها ٠٠ انها تشمهق وتنتحب ، ولـكن بدا لي أنهــا لا تفعل ذلك كله الا تقيداً بالشكل • وشعرت في بعض اللحظات أنها توشك أن تتهاوي متهشمة كهيكل من عظم • وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط ، فالألف الممدودة تخرج من حلقها كأنها نغاء شاة • وحين أفقت من غيبوبتي رأيتها تستدير في وسلط الغرفة على رجل واحدة ، ولكن دون أن ترقص ، لأن استدارتها هذه كانت تمشيلاً يتصل بقضيتها • واندفعت فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن ، كان بالفرقة ، ففتحته وأخذت تنقر على أصابعه وتغني ٠٠٠ أظن أنني غبت عن وعبي عشر دقائق أو أكثر ، وأنني نمت ، ولكن الكلب الصغير نبح ففتحت عينيٌّ ، وعاد اليُّ شعوري كاملاً فأضاءني بنوره كله لحظةً ، فانتفضت مذعوراً ، وأنا أقول لنفسي : « لامبير ، انني عند لامبير ، ، وتناولت قبعتي وارتميت على معطفي •

قالت لى آلفونسين اليقظة :

۔ « الی أین تذهب یا سبدی ؟ » •

فأجبتها:

... أريد أن أنصرف ، اريد أن أذهب ، لا تمنعيني !

فقالت ألفونسين مؤيدة بقوة وهي تندفع لتفتح لى باب الدهليز : ــ نعم يا سيدى !

نم هتفت نقول بصوت عال حتى 'يسمع كلامها فى الدهليز كله : ـــ « ولكن المكان ليس جيدًا يا سيد ، فلا داعى الى ارتداء الفروة • انه قريب يا سيدى ! » •

فلما خرجت من الغرفة ، انعطفت من الغونسين تقول بسكل ما تملك من قوة وهى تتشبث بمعطفى بأصابعها الطويلة المعروقة وتدلنى باليد الأخرى على مكان فى يسلمار الممر لم أكن فى حاجمة الى الذهاب اليه البتة :

ـ « من هنا یا سیدی ، المکان من هنا ! » •

ولكننى أقلت منها وركضت الى باب الحروج نحو السسلم • فأخذت الفونسين تصرخ قائلة بصوت مكسسًر وهي تركض وراثي :

ــ « انه ینصرف ا انه ینصرف ! ولکنه سیقتلنی یا ســـیدی ، سیقتلنی ا » .

ولكننى صرت على السلم ، واستطعت أن أفتح الباب فى أسفل رغم أنهما كانت تلاحقنى على الدرجات ، ووثبت الى الشارع ، وسارعت أرتمى فى أول عربة ، ذاكراً للحوذى عنوان أمى ٠٠٠

ولكن شعورى ما ان أضاء لحفة حتى انطفا • فلا أكاد أذكر الآن كيف 'تقلت الى بيت أمى ، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعى على الفور تقريباً • وفى الفد ، كما قيل لى هذا فيما بعد (واننى لأتذكر ذلك أنا نفسى على كل حال) أضاء عقلى مرة أخرى لحظة • فرأيتنى فى غرفة فرسيلوف على ديوانه ، ورأيت حولى وجوه فرسيلوف و ماما و ليزا • وانى لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمنى فرسسيلوف عن مسرشتشيكوف والأمير ، وكيف أدانى رسالة وحاول أن يهدئنى • وقد رووا لى فيما بعد أننى كنت لا أنفك ألقى أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لامير ، ولا أنفك أسمع نباح كلب صغير • ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم ، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثانى كانت الحمى قد اجتاحتنى اجتياحاً ناماً • ولكننى أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أننى لم أستطع أن أعبها على الفور •

فى ذلك المساء الذى 'طردت فيه من عند تسرشتشيكوف ، وحين مداً فى الصالة كل شىء ، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب ، أعلن فجأة بصوت مدو ، أن خطأ مؤسفا قد وقع : فالمال المفقود ، أى الأربعمائة روبل ، قد عنر عليه فى تومة أخرى من المال ، وأجريت حسابات البنك فاتضح أنها كاملة لم ينقص منها شىء ، فاذا بالأمير ، وكان قد بقى فى الصالة ، اذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتى على رءوس الأشهاد ، وأن يعبر لى عدا ذلك عن اعتذاره كتابة ، وراى

تسرشتشیکوف أن هذا الطلب مشروع ، وتعهد امام الجمیع بان یبعث الی فی الند رساله ایضاح واعتذار ، وقد زُوده الأمیر بعنوان فرسیلوف منذ الند فعلاً ، وتلقی فرسیلوف من تسرشتشیکوف رسالة موجهة الی تومها مبلغ یزید علی ألف والانمائة روبل ، هو مال لی نسیته علی مائدة الرولیت ، کذلك انتهت قضیة تسرشتشیکوف ، وقد أسهم هذا النبا المفرح فی ابلالی من المرض حین عاد الی شعوری ،

أما الأمير فانه حين رجع من صحالة القمار قد كتب في تلك الليلة رسالتين الحداهما الى والثانية الى الكتيبة التي كان ينتمى اليها والتي وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية سيتبانوف و يقع بعث الرسالتين كتب تقريرا الى رؤسائه ، وجاء الى الكولونيل في الصباح حاملاً تقريره بنفسه ، فأعلن للكولونيل أنه مجرم من مجرمي الحق العام ، وشريك في جناية تزييف أسهم ، فهو لذلك يسلم نفسه للمدالة ، ويطالب بأن يحكم عليه القضاء ، ، وفي الوقت نفسه سلم التقرير الذي يعرض فيه كل شيء كتابة ، فأودع السجن و

واليكم نص الرسالة التى كتبها لى فى تلك الليلة كلمة "كلمة : عزيزى الغالى آركادى ماكاروفتش !

« اننى ، وقد جَّربت المخرج « العامى » ، قد فقدت الحق فى أن أواسى نفسى أية مواسساة بأننى استطعت أخيراً أن أعزم أمرى على القيام بعمل شنجاع وعادل • اننى مجرم فى حق الوطن وفى حق السلالة التى أنعدر منها وأنتمى اليها، لذلك أعاقب نفسى بنفسى، أنا آخرافراد هذه السلالة • لست أفهم كيف أمكننى أن أتشبث بغريزة البقاء الدنيقة ، وأن

أفكر لحظة في أن أفدى نفسى بمال أدفعه لشركائي في الجريسة و فلو فعلت ذلك لبقيت في نظر نفسى مجرماً رغم كل شيء ولو رد الى ا أولئك الناس رسائلي لظللت قلقاً طوال حياتي ، فلا راحة ! ماذا يبقى لى لو فعلت ذلك ؟ أعيش معهم ، وأرافقهم طوال عمرى : ذلك هو المصير الذي كان ينتظرني ! فعا كان لى أن أرضى بهذا ، وأخيراً وجدت في نفسى من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتبيح لى أن أفعل ما أفعله الآن ،

« لقد كتبت الى كتيبتى السابقة ورفاقى القدامى مبرئاً ستيبانوف ، وليس فى هذا أى مأثرة تكفر عن ذنبى ، ولايمكن أن يكون فيه أى مأثرة تكفر عن ذنبى : وانما هى وصية رجل سيموت غداً ، هكذا يجب أن يفهم عملى » ،

« اغفر لى أننى أشحت عنك فى صدالة القمار • ذلك أننى لم أكن فى ذلك الوقت واثقاً بك • الآن وأنا رجل ميت ، أستطيع أن أدلى بهذه الاعترافات ••• من العالم الآخر ، •

ه مسكينة ليزا ا انها لم تعرف شيئًا عن هذا القرار • فقل لها ألا تلعننى ، بل أن تفكر • اننى لا أستطيع أن أبرىء نفسى ، ولا أجد كلمات أشرح لها بها أى شى • واعلم أيضًا ، يا آركادى ماكاروفتش ، أننى فى صباح أمس ، حين جاءت تزورنى آخر مرة ، كشفت لها عن خداعى ، فاعترفت بأننى ذهبت الى آنا آندويفنا خاطبًا • لم أستطع أن أبقى هذا السر عملا تقيلاً على ضميرى قبل قرارى الأخير الذى كنت قد اتخذته ، فلم يسعنى الا أن اكشف لها عنه حين رأيت حبها • وقد

غفرت لی ، غفرت لی کل شیء ، لکننی لم أصل قها ، لیس هذا منها غفراناً ، قلو کنت فی مکانها لما غفرت ،

د تذکرنی ه

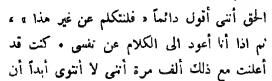
صديقك الأمير الأخير التميس سوكولسبكى

وقد بقیت فی سریری بلا شعور تسعة أیام تماماً •

الفصب لالأول

)

فلنتكلم عن غير هذا تماماً •





أحكى عن نفسي ، وكنت فد عزمت أمرى على ذلك جازماً حين بدأت تدوين هذه الأمــور : انني أدرك حق الادراك أن ما يحــدث لي لا يهــم القارىء في شيء • فأنا أصف غيري وأريد أن أصف غيري ، فاذا كان شخصى يعود فيندس تحت قلمي دائماً ، فليس ذلك الا خطأ يؤسف علمه ، ويستحيل الأفلات منه رغم كل ما أملك من ارادة ورغبة • ومما يحز في نفسي خاصــة " أنني حين أروى أحداث حياتي بمثل هذه الحرارة المتأججة كلها أوهم القارىء بذلك أنني لا أزال الآن كما كنت في ذلك الوقت • ولكن القارىء يتذكر على كل حال أننى هتفت أقول غير مرة : « أه ••• ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضي وأن يبدأ كل شيء بداية جــديدة! ، فما كان لى أن أهتف ذلك الهتاف لولا أنني قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً ، ولولا أتني أصبحت شخصاً آخسر يختلف عن الشخص الأول كل الاختــلاف • ذلك واضع وضوحاً نوياً • ولكن ليت القارىء يستطيع أن يتصور مدى ما أشعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه الاعتذارات وهذه المقدمات التي أضطر أن أدسُّها كلُّ لحظة في وسط هذه الصفحات التي أدونها • ولانتقل من بعد الى الوقائع •

أفقت من غيبوبشي بعد تسعة أيام ، أفقت وقد 'بعثت بعثاً جديداً ، ولكننى لم أصلح • وكان انبعاثي حيوانيــا على كل حال ، اذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع ، ولعل الأمر لو تمَّ الآن لجرى مجرى آخر • وكانت فكرتبي أو عاطفتي لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصب على ضرورة أن ﴿ أَتَرَكُهُم ﴾ كلهم تركَّا تامًّا ، تركًّا حاسمًا مطلقًا ، لا كما حدث من قيسل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أعلح في تنفيذه أبدًا • يمينا لم أكن أريد أن أنتقم من أحد ، رغم أننى كنت اشتكي منهم جميعاً ﴿ وَكُنْتُ أُهْبِيءَ نَفْسَى للرحيل دونَ اشْمَثْرَازَ ، ودونَ لعن ، وانما أنا أريد أن تكون لي قوتي الشخصسية ، قوتي الحقيقية في هذه المرة ، قوتي السنقلة « عنهم » جميعاً وعن العالم بأسره ! انني لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كاحسماس عارم لا يغالب سيطر على في ذلك الوقت • وكتت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم في كلام ما بقيت راقداً في السرير • كنت أحس وأنا مريض خبائر القوى راقبد في غبرفة فرسبيلوف مهجبور « منهم ، جميعاً ، كنت أحس مدى ما هويت اليه من عجز ، فيؤلمني ذلك ايلامًا شديدًا : كنت قشة ملقاة على سرير ، لا انسانًا ! ولم يكن المرض . وحده سبب ذلك ، فما أشد ما أورثنيه هذا من عذاب ! هكذا أخذ يصعد من أعماق كيساني احتجماج قوى ، فكنت أخنق في قرارة نفسي نوعاً من وقاحة مغالبة وتبحد شديد • لا أذكر أن عهداً من عهود حياتي قد حفل بمشاعر الاستعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتي ، أعنى الفترة التي كانت فيها القشة ملقاة على السرير •

ولكننى كنت بانتظار تحقيق حلمى ألتزم العسمت ، حتى لقد قررت ألا أفكر فى شىء اكنت أسسِر وجوههــم محــاولاً أن أحزر فيها كل ماكنت فى حاجة اليه • وكان واضــحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن

يسائلوني ، ولا ان يظهروا بمظهـر المستطلعين ، وانما هم يكلمونني في أمور ليست بذات بال • فكان هذا يرضيني ويحزنني في آن واحد • ولن أحلل هذا التناقض • وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما ، رغم أنها تنجيء الى ً كل يوم ، وربمــا جاءت في اليوم مرتين . وقد اســـتخرجت مــن شزرات من أحاديثهــم ومن هيئتهم كلهــا أن لليزا هموماً ومتاعب كثيرة ٢ وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جدا بسبب مشاغلها ، فكان مجرد تفكيرى في أن لها « مشاغل » خاصـة بها يجرح شعوري ويؤذي نفسي • ولكن هذه الاحساسات كانت احسساسات مرضية على كل حسال ، احسساسات فزيولوجيــة صرفًا ، فلا داعى الى وصــفها . وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تجيء اليُّ كل يوم تقريبًا ؟ ولئن لم تكن تعاملني برقة ولطف ، فانهما لم تكن تشتمني كما كانت تفعل من قبل ، وهذا أمر أغاظني كثيراً ، حتى لقد عَّبرت لها عن غيظي بسذاجة فقلت لها : • أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملة مضجرة اذا لم تنطقي بشـــتائم! ، فاذا هي تحييني بلهجة قاطعة : د لن أجيء البك اذن ! » • وانصرفت • فسرٌّني أنا أني طردت واحسدة على الأقل •

ولكننى كنت أعد بن أمى خاصة • كانت أمى هى التى تحنقنى أكثر من غيرها • كانت قد استبدت بى شهوة الطعام استبداداً قوياً ، فكنت أندسر تذمراً شديداً من أن وجبتى تتأخر دائماً (وهذا ما لم يبحدث فى يوم من الأيام) • وكانت أمى تتفنن فى تخيل ما يرضينى • وقد جاءتنى مسرة بالحساء ، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتها ، فكنت أتذمر وأنا ألتهمه • وفجأة خجلت من تذمرى وقلت لنفسى : « ربما كانت هى الوحيدة التى أحبها ، ومع ذلك فهى التى أسومها سوء العذاب ، • ولكن فظاظتى لم تهدأ ، ثم اذا بهذه الفظاظة تتحول الى بكاء فجأة • فظنت المسكينة اننى أبكى حنساناً ورقة ، فمالت على وطفقت تقبلنى • فصسبرت ، وتركت

للزوبعة أن تنقضى ، ولكننى فى تلك اللحظة قد كرهت أمن فى الواقع . والحق أننى قد أحبها ، فليس والحق أننى قد أحبها ، فليس صحيحاً أننى كرهتها ، وانما حدث عندئذ ما يحدث دائماً : ان الذى نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره .

والشمخص الذي كنت أبغضسه حقاً في تلك الأيام الأولى انما هو الطبيب • كان هذا الطبيب شابا متعجرف الهيئة ، شرس اللهجة ، بل قليل التهذيب • ان أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب ، ولا يكون الأمس القريب قد شهد شيئًا ذا بال • ولكن هذا شأن « التافهين ، و « العاميين ، • وقد صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجـرت أخيراً على حين بنتــة ، فأعلنت له أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل ، وانني سأشفى بدون أن يكلف نفســــه عنــــاء مداواتي ، وأنه رغم ما ينظــاهر به من أنه واقعى، محشىو العقل بالأوهام، وانه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف أحداً من مرض في يوم من الأيام ، وأنه في أغلب الظن جاهل جهــلاً فاحشاً ، « كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً » • وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته) ، ولكنه ظل يمودني • وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني ، اذا لم ينقطع الطبيب عن زيارتبي ، فلأقولن ً له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة أضماف • فأجابني ان قول كلام أغلظ ضعفين اتنين أمر مستحيل ، قما بالك بكلام أَعْلَظُ عَشْرَةً أَضْعَافُ ! فَسَرَّتَنَى مَلَاحَظُةً فَرَسَيْلُوفَ هَذْهُ •

يا له من انسسان على كل حال ! أقصد فرسيلوف • لقد كان وحده سبب كل شيء • ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه • وليست معاملته وحدها هي التي فتنتي ، وانها كان كل منا يحس أن عليه ايضاحات يجب أن يقدمها لصاحبه ، فالأقضل لهذا السبب ألا يوضع أحد لأحد

شيئًا قط ، انه لشيء ممتع في ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً! سبق أن قلت ، في الجزء الثاني من روايتي ، مستبقاً الأمور ، ان فرسيلوف كلمني بايجاز شديد عن رسالة بعثها الى الأمير المعتقل ، وعن تسرشتشيكوف واعتذاره لى ، النح ، واذ أنني كنت قد أزمعت الصمت ، فقد ألقيت عليه ، بأشد ايجاز ممكن ، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة ، فأجاب عنها اجابات واضحة دقيقة ، ولكن دون أن تشتمل اجاباته على كلمان زائدة ، وهذا أعلى قيمة كلمان زائدة ، وهذا أعلى قيمة أيضاً ، ان العواطف الزائدة هي ما كنت أخشاه في ذلك الحين ،

ولست أقول شسيئًا عن لامبير ، ولكن لاشك أن القارىء قد حزر أنني كنت أفكر فيم كثيراً • لقد تكلمت عن لامبير أثناء الهذيان مراراً • ولكن حين أفقت من غيبوبتي ، وألقيت بضع نظرات حولي ، فانني سرعان ما اعتقدت أن حـكاية لامبير لا تزال سراً ، وأن أحداً لا يعرف عنها شــئاً ، حتى فرمسلوف • فاغتبطت لهذا وانقضي خوفي • ولــكن ما كان أشد دهشتي حين علمت فيما بعد أنني كنت مخطئًا في اعتقادي : لقد جاء لامبير أثناء مرضى ، غير أن فرسيلوف لم يحدثني عن محيثه بشيء ، فاستنتجت من ذلك أنني الآن في نظر لامبير قد انتقلت الى العالم الآخر ٠ ومع ذلك كنت أفكر فيمه في كثير من الأحيان ، أفكر فيه بغير اشمئزاز منه ، بل أفكر فيه يمودة له ، كأنني أحس فيه شيئًا جديدًا يليي ما أخذ ينشأ في نفسي من مشاعر جديدة وخطط جديدة • الحلاصــة أنني قررت أَنْ أَفْكُر فَى لامبير قبل أَنْ أَفْكُر فَى أَى شيء آخـر متى عقدت العزم على الشروع في التفكير • شيء غريب : لقد نسبت نسيانًا تامًا أين يسكن ، وفي أى شــارع جــرى كلُّ الذي جــرى • كنت أتذكر كل شيء: الغرفة ، آلفونسين ، الكلب الصغير ، الدهليز؟ حتى لقد كان يمكنني أن أرسم هذا كله لو شئت • ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها ؟ في أي شارع ؟

فى أية عمسارة ؟ لا أدرى ! نسيت نسسياناً تاماً • والأغرب من هذا اننى لم أدرك ذلك الا فى اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعورى الى ً ، أى بعد انقضاء مدة طويلة على شعورى بالقلق من لامبير •

تكلم هى اذن احساساتى الأولى بعد انبعائى، لم آذكر منها الاأكثرها سطحية "، ولعلنى لم أستطع أن أذكر منها الشىء الأساسى • والحق أن الشىء الأساسى لعله تحدد وتبلور فى قلبى فى ذلك الأوان نفسه ؟ اننى لم أقض وقتى كله فى الغضب والحنق من تأخسر وصول حسائى • آه • • اننى لأتذكر كم كنت حزينا ، وكم كان يستبد بى السأم أحيانا ، ولاسيما حين أبقى وحيداً خلال مدة طويلة • كانوا قد لاحظوا ، هم ، أننى أضيق ذرعاً بهم وبشفقتهم ، فكانوا يتركوننى وحيداً فترات ما تنفك تزداد : افراط فى الذوق !

5

في اليوم الرابع من صحوى الكامل ، كنت راقداً على سريرى في نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يكن معى أحد ، كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات ، وأن شعاعاً ماثلاً أحمر سيسقط على زاوية جدارى ، فيضيئها بيقعة متوهجة ، كنت أعلم هذا من الأيام السابقة ، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً ، فكان يقيني من ذلك يسخطنى الى حد الحنق الشهديد ، ولذلك رأيتني أنقلب الى الجهة الأخرى بحركة متشنجة ، فاذا أنا فجأة ، في الصبت العميق ، أسمع هذه الكلمات سماعاً واضحاً : « يا ربنا يسوع المسيح ، يا الهنا ، الرحمنا ، نطقت هذه الكلمات بما يشسبه الهمس ، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة ، ثم عاد كل شي، الى الصحت ، فأنهضت رأسي بسرعه ،

وكنت فبسل ذلك ، أمس ، بل أمس الأول ، قد لاحظت أن في غرفنا الثلاث ، تحت ، شيئًا خاصاً ، فلابد أن الغرفة الصغيرة التي كانت تقيم فيها ماما وليزا ، على الجهة الأخسرى من الصالة الكبيرة ، تضم الأن شخصاً آخر ، وكنت قد سمعت بعض الأصسوات عدة مرات ، في النهاد وفي الليل ، ولكن خلال لحظات قصار دائماً ، فسرعان ما كان الصمت يخيم من جديد ساعات عدة ، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتبهت اليه ، وخطر ببالى أمس أن فرسيلوف هو الذي أحدث تلك الأصوات ، لا سيما وأنه جاء الى عد لحظة ، ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن

فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضى الى غرفة أخرى يبيت فيها • أما ماما وليزا فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلتاهما (من أجل هدوئى وراحتى فيما اعتقدت) الى الطابق الأعلى ، الى « تابوتى ، القديم ، حتى لقد تساءلت بينى وبين نفسى ذات يوم : « كيف أمكنهما أن تقيما فيه كلتاهما ؟ • ثم مأنذا أتبين فجاة أن غرفتهما التى كانتا تقيمان بها انما يسكنها اليوم شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف • وهأنذا ، بخفة لم أكن أظنها في نفسى (اذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أننى لا أملك أية قوة) ، أخرج ساقى من السرير ، وأدسهما في بابوجين ، وألقى على كتفى ثوباً للمنزل رمادى اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة منى (ضحى به فرسيلوف) ، وأسير عبر الصالون متجها الى الغرقة التى كانت تسكنها أمى من قبل • ان ما رأيت هناك قد شدهنى وأذهلنى • لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت ، فوقفت في العتبة كالمتسمر •

ان فی الغرفة شیخاً أشیب الشعر تماماً ، له لحیة بیضاء بیاضاً هائلا " کان واضحاً أنه مقیم هنا منذ مدة طویلة ، ولم یکن الشیخ جالساً علی السریر ، وانما هو جالس علی کرسی ماما ، مستند الی السریر بظهره فحصب ؟ وکان عدا ذلک منتصب الجذع فی جلسته ، فکانه لیس فی حاجة الی أی استناد رغم ما به من مرض بین الایخفی ، وکان یر تدی فوق قمیصه سترة مبطنة بفراء خروف ، وینعلی رکبتیه بشسال الأمی ، وینتمل بابوجین ، الابد أنه طویل القامة ، وهو عریض المنکین ، تدل هیئته علی شکیمة قویة ، رغم مرضه ورغم شیء من الشحوب والنحول ؟ وهو بیضوی الوجه ، شعره غزیر ولکنه لیس طویلا جداً ؟ ویبدو أنه تجاوز السبعین من عمره ، وعلی مقربة منه ، فوق مائدة صغیرة فی متناول یده ، ترقد من عمره ، وعلی مقربة منه ، فوق مائدة صغیرة فی متناول یده ، ترقد من هو ، وغم أنهی لم یخطر بسالی لحظة واحدة ان ألقاه ، ولکننی

لم آستطع أن أفهم كيف أمكن أن يقضى هذا الوقت كله بنجوارى مستخفياً هذا الاستخفاء الذي بلخ من الشدة أنني لم يدر في خلدي وجوده •

لم يتحرك حين رآنى ، وانما نظر الى ملياً بصمت ، ونظرت اليه أنا كذلك ، مع فارق واحد هو أننى أظهرت دهشة شديدة ، أما هو فلم يظهر أبة دهشة ، حتى انه بعد أن تفرس في خلال خمس نوان أو عشر، ابتسم قبحاة ، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك ، ضحكة سرعان ما انقضست ، ولكن بقى أثرها المضىء الفرح في وجهه ، ولا سيما في عنيه ، الزرقاوين جداً ، المشعتين ، الواسعتين ، اللتين يعلوها حاجبان منتفخات متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غضون صغيرة لانهاية منتفخات متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غضون صغيرة لانهاية لعددها ، ان ضحكته خاصة هي التي أثرت في نفسي ،

ا تمنى أرى أن الانسسان حين يضحك يسكون منظره منفراً فى أكثر الأحيات و فالضحك يبرز فى العادة لدى الناس نوعاً من العامية والندنى وان كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثير الذى يحدثه فى تفوس الآخر بين و انه يعجل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم و فمن الناتمميين من تبقى وجوههم ذكية ومنهم من تصبح أثناء النوم غيية الناتمميين من تبقى وجوههم ذكية ومنهم من تصبح أثناء النوم غيية فمضيحكة رغم أنهم أذكياء و لا أدرى سبب هذه الظاهرة و كل ما أريد أن أقوله هو أن الضاحك ، كالنائم ، لايعرف عن وجهه شيئاً فى أكثر أقوله هو أن الضاحك ، كالنائم ، لايعرف عن وجهه شيئاً فى أكثر أن الأحياب ن وانما الضحك البنة و والحق أن الأحياب المراب المراب وانما الضحك موهبة أن الأحياب المراب المراب وانما الضحك موهبة الشاهرة على اجادة يوتاها المرء فطرة و أن يحسن ذاته ، وأن يحسن ذاته ، وأن يتحسر على غرائزه السيئة ، فاذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه و ومن الناس من يفضحهم ضحكهم ، فعتى رأيتهم ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه الخاس من يفضحهم ضحكة ذكية حقاً ثم هى تنفرك مع ذلك أحياناً و ان

الضحك يفتضي الصراحة قبل كل شيء: فابن الصراحة في البشر؟ والضحك يقتضى نفساً طبية كريمة ، والناس في أكثر الأحيــان انما يصــدرون في ضحكهم عن خبث وشر • والضحك الصريح الذي لا شر كيه فرح : فأين الفرح في زماننــا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون ؟ (هذه الملاحظة عن الفرح في زماننا انما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها) • فرح الانسان هو السمة التي تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته ، الى جاتب رجليه ويديه • هنــاك طبــاع لا تستطيع أن تنفذ اليها ، فاذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة ، رأيت طبعه مبسـوطاً أمام بصرك فوراً • لا أحــد الا أولئك الذين ينعمون برقى رفيع سعيد ، يمكن أن يفرح فرحــــاً معبرا ســـارياً ، فرحاً طبياً لا سبيل الى مقاومة فتنته • ولست أقصد هنا رقمي الذكاء والعقل بل رقى الطبع والحلق ، أعنى رقى الانسان كله جملة " • لذلك اذا أردت أن تدرس امرأً وأن تعرف نفسه فلا ثنتبه الى طريقته في الصمت ، أو في الكلام ، أو في الكاء ، أو حتى في تأثره بأنهل الماني والأفكار ؟ وانما انظر الله حين يضحك • فاذا أحسن الضبحك فهو المرق طلب • وعلمك أن تلاحظ الفروق الطفيفة : يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غبياً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريثاً وساذجاً • فمتى لأحظت في ضحكه أية علامة من علامات النساء فاعلم أنه انسان محدود العقل ، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة • واذا لم يكن ضحكه غبياً ، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجيأة ، فاعلم أن هذا الانسيان لا يحترم نفسيه احتراماً حقيقياً ، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً • واذا كان هذا الضحك معبرا وساويًا ولـكن بدا لك عاميـاً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية ، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو انما كان مقصودًا أو مصطنعاً أو مستعاداً على غيرَ شعور منه ، وأن الرجل سيرتد حتماً الى طبيعته السيئة ، فيهتم بما يعود عليه « بارباح » ، وينبذ أراء السمجه الكريمة نهذاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويعد ما من أخطاء الشسباب وحماساته .

اذا كنت أسهب هذا الاسهاب الطويل في الكلام عن الضحك مضحياً بمواصلة سرد قصتي فلست أفسال ذلك استطراداً بغير نية • انني أعد هذه الآراء نشيجة من أثمن النتائج التي استخلصتها طوال حياتي • وانني أوصى بها الفتيات المخطوبات اللواتي يوشسكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن مازلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولماً يعزمن أمرهن بعد • ألا لا تسخروا من مراهق يتصدى لاعطاء دورس في أمور الزواج التي لا يفهم منها شيئاً • انني أعرف شيئاً واحدا لا أكثر : هو أن الضحك أضمن مقياس أتعرف به النفس • انظروا الى الأطفال : ان بعضهم يحسنون الضحك احساناً تاماً > وهذا هو السبب في أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتتهم • ان الطفل البكاء كريه الى نفسي ، أما الطفل الذي يضحك ويبتهج فانه شعاع من الجنة > واطلالة على المستقبل الذي سيصبح فيه الانسان آخر الأمر طاهر طهات طفل ، ساذجاً سذاجاً سذاجة طفل ، ساذجاً سذاجة طفل ،

ولقد كان في الغسحكة العارضة التي ضحكها ذلك الشيخ شيء من طفولة لا حدود لفتنتها • فسرعان ما دنوت منه • قال لى بلطف وهو يشمير الى مكان بقربه ، ويرمقنى بتلك النظرة الشعة نفسها :

ــ اجلس ، اجلس لحظة ً ، فلا تزال ساقاك ضعيفتين •

فجلست الى جانبه وقلت له:

ـ اننى أعرفك • أنت ماكار ايفانوفتش •

ــ نعم يا عزيزى • حسن أنك تقف الآن على قدميك • انك شاب • هذا حسن لك • للشميخ القبر ، وللشاب الحياة •

ـ هل أنت مريض ؟

- نعم یا صدیقی ، السافان خاصة ٔ • حملتنی سافای المسكینتان حتی وصلت الی هنا ، ولکن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست • بدأ هذا یوم الخمیس الماضی ، حین وقف الترمومتر (ملاحظة : یقصد حین تجلد من البرد) • کنت قبال ذلك أدهنهما بمرهم • الدکتور لشتن ادموند کارلوفتش هو الذی وصف لی ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث ساین ، وکان ذلك المرهم ینفعنی کثیراً • ومنذ أمس ، سری الوجع الی الظهر ، حتی لكأن الكلاب تنهش ظهری نهشاً • • • وصرت لا أنام اللیل • •

قاطعته سائلاً:

ـ وكيف لا 'يسمع لك صوت هنا البتة ؟

فنظـــر الى ً وبدا مفكراً ، ثم أضــاف يقول كأنما وافتـــه ذكرى ماغتة :

ـ حذار أن توقظ أمك • لقد ظلت تضطرب حـولى طول الليـل ، ولكن بدون أن 'بسمع لهـا أى صوت ، كما لا يسمع صوت لفراشة • وهى الآن ترتاح •

وتنهد قائلاً :

ـ شىء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً • لا أدرى بمن تتشبث روحى ، ولكنها لا تزال صامدة ، وهى سعيدة بأن تبقى فى هذا العالم ، بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من ذلك • ولكن لعل مثل هذه الفكرة اثم •

ـــ لماذا تكون اتماً ؟

.. هذه الفكرة حلم ، وعلى الشيخ أن يمضى الى نهايته ، نعم ان استقبال الموت بتذمر أو استياء اثم كبير ، على كل حال ، اذا كان حب الحياة ناشئاً عن فرح روحى ، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ ، يصعب على الانسان أن يعزف الفرق بين ما هو اثم وما ليس باثم ، هذا سر يفوق العقل الانساني ، وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى ، وأن يموت مغموراً بضياء روحه ، سحيداً بما قضى من أيام ، متطلعاً الى ساعته الأخيرة ، فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل ، بعد أن حقق سراه ،

ــ أراك تتكلم دائمــــــاً عن السر • فمـــا الذى تعنيــــــه بقولك : « حقق سره ، ؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقى نظرة على البساب • كنت سميداً بأنسا وحيدان ، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء • وكانت الشمس تسطع قوية على النافذة قبل أفولها • وكان الشيخ يتكلم بشىء من التفخيم وبدون دقة كأنه كان فرحاً بوجودى حقاً • ولكننى لاحظت أنه يعانى من حمى لا شك فيها ، بل يعانى من حمى فوية • وكنت مريضاً أنا أيضاً ، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه • قال :

ـ ما هو السر؟ كل شىء سريا صديقى • سرالله موجود فى كل مكان • كل شجرة • كل عشبة تشتمل على سر • أن يغرد طير صغير > وأن تسطع النجوم متلألثة فى الليل ، فذلك كله سر ، ذلك كله سر واحد • ولكن ما ينتظر نفس الانسان فى العالم الآخر هو سر الأسرار ، هو أكبر الأسرار • هكذا يا صديقى !

لا أدرى ماذا تعنى ٥٠ وثق اننى لا أقول هذا الكلام مناكدة اللك، وثق أننى أؤمن بالله ٠ ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة ، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً مد هذا مؤكد حتماً وربما اكتشفه في وقت قريب ٠ عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة ، وعالم الغزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يغرد الطائر ، أما النجوم فقد أحصى عددها ، بل حسبت كل حركة من حركاتها حتى ليمكن التنبوء بغلهور أى مذب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة ٠ وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً ٠ خذ مجهراً المجهر عدسة مكبرة تضخم الأشياء مليون مرة وانظر في قطرة ماء ٠ ولسوف ترى في قطرة الماء عالما كاملا يعج بالمخلوقات الحية ، وكان ذلك سرا فاكتشفناه ٠

_ سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يابني • لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش • كل شيء وهب للانسان بارادة الله • ليس عشاً أن أعطى الله الانسان نسمة الحاة : « عش واعرف » •

ـ هذه معان تملوكها جميع الألسن • ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم ، ما أنت كهنوتي ؟ أعنى • • • لا أدرى هل تفهم • • •

- لا يا بنى ، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً ، واذا كنت لا أعرف من العلم شسيئاً فاننى لا أناصبه العداء ، مالم يوهب لنا قد وهب لآخرين ، ولعل فى هذا خيراً : كل امرى، ميسر لما خلق له ، ذلك أن العلم يا بنى ليس دائماً ميزة ، فمن الناس من ينقاد للرغبة فى ادهاش العالم ، فلو كنت عالماً فقد أرغب فى ذلك أكثر من سائر البشر ، أما وأننى جاهل فكيف يمكننى أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب ملى، ذكاء، وذلك قدرك ، فعليك بالدراسة ، حاول أن تعرف كل شى، ، فاذا لقيت رجلاً تعديقاً أو رجلاً تافها كان فى وسمك أن ترد عليه ، ولا يغرناك بأقوال باطلة تمكر عقلك الغض ، أما تلك العدسة التى جئت على ذكرها فقد وأيتها منذ مدة ليست بالعلويلة كثيراً ،

قال ذلك واسترد أنفاسه وتنهد • ولا شك أن مجيئى اليه قد سرّه سروراً عظيماً • كانت تعتمل فى نفسه حاجة قوية الى البوح ، حاجة تكاد تكون مرضية • زد على ذلك أننى لا أظننى مخطئاً اذا قلت انه كان فى يعض اللحظات ينظر الى خطرات تزخر بعاطفة قوية : كان يضع يده على يدى بحنان ، ويلاعب كتفى • • • ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى لحظات أخرى يبدو كمن نسينى نسياناً تاماً ، فكأنه وحيد فى الفرقة ، فاذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه •

تابع يقول :

- ان فی دیر جنادیها - بوستین ، یا صدیقی ، رجلاً عظیم الذکاه ، نبیل الأصل ، واسع الثراه ، برتبة لیوتنان کولونیل ، لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ کان یعیش فی المجتمع ، وهو الآن فی الدیر منذ قرابة عشر سنین ، انفصل عن الناس حباً بالسکون والوحدة وأراح حواسه من أباطیل الحیاة الاجتماعیة ، انه یلتزم جمیع قواعد الحیاة الرهبانیة ، ولکنه لا یرید أن یرتدی مسوح الرهبان ، وما آکثر ما عنده

من كتب يا صعديقي ! انني لم او هعذا القعدو من الكتب في أي مكان إلا عنده ! ثمنها يبلغ نمانية ألاف روبل • هو قال لى ذلك • اسمه بطرس فالريانتش • وقد عَـُلمني أشياء كثيرة في فترات مختلفة ، فطالما كتت أجب أن أصغير الله • قلت له ذات مرة : « كلف يا سسدى وأنت رجل عظيم الفكر يعش منذ عشر سنين في طاعة النظام وهجر الارادة والتنازل عن الرغمة ، كنف لا تتمنى أن ترتدي المسوح فتزداد كمالاً ؟ ، فقال لى : « كنف يا شمخ تجرؤ أن تزعم لى فكراً عظيماً ؟ لعـل فكرى هو الذي أسرني واستعبدني بدلاً من أن أرويِّضه وأسيطر عليه • وما هذا الذي تقوله عن طاعتي ؟ لعلني منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال ! وتتكلم أيضًا عن هجرى ارادتي وتنازلي عن رغبتي ؟ فاعلم اذن أنني مستعد لأن أدع على الفور مالى ، وأن أردَّ رتبى ، وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتي ٥٠ ولكن غلبوني ٥٠ هأنذا منهذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه ! فأيَّ راهب يمكن أن أكون ، وأين هجــر الارادة الذي تمدحه فيُّ ؟ ، 'دهشت عندئذ من هذا التواضع • وقد مررت بذلك الدير في الصنف الماضي يوم القديس بطرس _ أراد الله لي ذلك _ فماذا رأيت في الحجرة ؟ رأيت ذلك الشيء الذي حدثتني عنه : مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الحارج وتحمل في سبيل ذلك نفقات ضخمة • قال لي : « انتظر قليلاً ۽ سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره في حياتك حتى الآن ٠ هل ترى هذه القطرة من الماء ؟ انها صافية رائقية كدمصة • فانظر اذن الى ما في داخلها • لتجدن أن علماء الميكانيكا سيكشفون قريباً عن جميع أسرار الرب • • فلا يدعون منها واحداً ٣ • هذا ما قاله وقد حفظته • وكنت أنا قد نظــرت في المجهــر قـــل ذلك بخمســة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندرا فلادميروفتش مالجاسوف ء خال آندره بتروفتش ء الذي آلت أملاكه بعد وقائه الى آندره بتروفتش • لقد كان ســـداً خطير الشأن ، وكان جنرالاً

كبيرًا ، وكان يملك رهطاً كبيرًا من كلاب الصبيد ، وقد عملت عنسده صيادا بالكلاب مدة طويلة • وكان قد احضر هو أيضًا هذا المكروسكوب ، فكان يدعو جميع النساس بعضاً وراء بعض ، رجالاً ونساءً ، للنظر فيـــه ، عارضـــاً تحت عدســــته قملة ً وبقــة ورأس دبــوس وشعرة وقطرة ماء • ما أكثر ما تسلينا وضحكنا ! كنا نخاف أن نقترب من المكروسكوب ، ولكننا كنا تحاف مولانا أيضاً اذا نحن لم نقترب ، لأنه كان شــديد الغضب • وكان بعضــنا لا يعرف أن ينظر ، فهم يغمضــون أعنهم فلا يرون شيئًا • وكان آخرون يصرخون جزعًا وهلمًا • حتى ان العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً : « اصنع بي ما نشت فلن أنظر!» ، فانطلق الضحك من كل صوت! كنت اذن قد رأت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة ، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، كنت قد رأيت هذه المعجـزة ، ولكنني لم أقــل هــذا لبطـرس فالريانوفتش ، اذ كان يسره سروراً عظيماً أن يريها • حتى لقد تظاهرت بأتنى أدهش وأرتاع • فتركني لحظة كم سألني : « فما قولك يا شيخ ؟ » • قلت وأنا انتصب : « الرب قال : كن يا ضياء فكان الضياء • ، • فأجابني فيجاَّةً : « لمل الطلمات هي الني كانت ! » قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يبتسم • وشعرت في تلك اللحظة باستغراب ، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئًا ٠

قلت له:

- الأمر بسيط جـداً ، ان صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم فى الدير ليأكل كوتيا ويركع ويستجد ، لكنه لا يؤمن بالله ، وأنت انما وقعت عليه وهو فى لحظة من لحظات صراحته تلك ، هذا كل شىء ، ثم انه شخص عجيب جداً : فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات ،

فلماذا جن من المرة الحادية عشرة ؟ هذه حساسية عصبية ••• أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير •

قال الشيخ باقتناع:

- انه رجل طاهر القلب رفيع الفكر ، وليس زنديقاً ، ان له عقلاً والسيماً لا ولكن قلبه قلق ، وما أكثر أمساله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السيادة العلماء ، ثم استمع ما ستأقوله لك : ان الرجل يعاقب نفسته ، فلاحظ هؤلاء الناس ، ولا تعذبهم ، واذكرهم في صلواتك قبل النوم ، لأنهم انعا يبحثون عن الله ، هل تصلى قبل أن تنام ؟

ـ لا • أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل فيه • ولكن ينجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبنى: فهو على الأقل ليس خرقة بل رجلا ، وهو يشبه بعض الشبه رجلا آخر قريباً منا نعرفه كلانا •

لم ينتبه الشيخ الا الى الجزء الأول من جملتى • وأردف يقول :

- خطأ منك يا صديقى ألا تصلى + الصلاة شىء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصحو فى الصباح وحين يستيقظ المرء فى الليل • أنا أقول لك هذا • فى صيف من الأصياف ، فى شهر تموز (يوليه) ، كنا نحت الحطى نحو دير • العذراء ، احتفالا بعيد • فكلما اقتربنا من المكان ازداد عدنا ، فاذا نحن نصبح مائتى شخص تقريباً ، مسرعين الى تقبيل الرفات المقدس للشهيدين آبيكى و جريجوار • كنا قد قضينا الليل فى حقل من الحقول ، وفتحت عينى فى الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة • رفعت رأسى يابنى ، وشملت لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة • رفعت رأسى يابنى ، وشملت ما لأفق بنظرة وتنهدت : كان كل شىء جميلا جمالا لا يوصف ! كل شىء هدى ، الهواء نسيم ، العشب ينبت ـ انبت يا عشب الرب • • • والطائر

الصغير يغرد ــ غرّد يا طائر الرب • • • والطفل الصغير يزقرق على ذراعى أمه ــ ليحرسك الله أيها الرجل الصغير ، اكبر وكن سعيداً ! لعلنى أدركت الجمال يومنذ أول مرة فى حياتى ! وعدت أرقد ، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه ! العالم جميل يا صديقى ! اذا تحسنت صحتى فسوف أستأنف طوافى متى طلع الربيع • اذا كان هناك أسرار ، فمرحاً بالأسرار • صحيح أن الأسرار ترهب القلب وتثير فيه العجب ، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً : « كل شىء متجمع فيك أيها الرب ، أنا نفسى موجود فيك ، فخذنى اليك ! » •

وأضاف يقول برقة وحنان :

_ لا تتململ يا فتى ! لأن يوجد سر فذلك أجمل •

ـ و لأن يكون سر فذلك أجمل ٥٠٠ و ســوف أتذكر هــذه الكلمــات و الأسرار ترهب القلب ، كمـا عبرت عن ذلك تعبيراً غير صحيح ، ولكننى أفهم ٥٠٠ ان ما يدهشنى هو أنك تعرف وتدرك أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنـه و ولـكن كأنك تتكلم وأنت فى حــالة هذيان ٥٠٠

أفلتت منى هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين روجهه الشاحب • ولكن أظن أنه لم يسمعنى •

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذى انقطع :

- هل تعرف یا بنی الصغیر أن لذکری الانسسان علی هذه الأرض حداً ؟ ان هذا الحد لا یتجاوز مائة سنة • قد تبقی ذکری المرء عند أولاده أو أحفاده الذین رأوا وجهه • واذا بقیت ذکراه مدة أطول ، فانما تکون بعد ذلك ذكری شفهیة ، ذكری عقلیة ، لأن جمیع الذین رأوا وجهه الحی سوف یمضون وسوف یخفی المشب قبره فی المقبرة ، وتنكسر الشاهدة ، وینساه جمیع الناس حتی أعقابه ، وأخیراً ینسون اسمه أیضاً ، لأن الذین

تبقى اسسماؤهم فى ذاكرة البشر قلة قليلة جداً • لا بأس! فلينسى أعزائى • ولكننى سأظل أنا أحبهم من قرارة قبرى • أيها الأولاد الصغاد ، اننى أسمع أصوات وقع أقداكم على قبود آبائكم فى يوم عيد الأموات ، وسوف أصلى من أجلكم ، وسوف أنزل اليكم فى أحلامكم • • • • ان الحب يبقى بعد الموت! • • •

كنت فى حمى مثله • وبدلا من أن أنصرف أو أن أحضه على أن يهدأ ويسكن ، أو أن أرقده فوق سريره ، لأنه كان يبدؤ فى حالة هذيان كامل ، أمسكت يده فجأة ، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده ، قلت له بهمس متأثر ودموع فى القلب :

- اننى سسعيد برؤيتك • لعانى كنت أنتظرك منسذ مدة طويلة • لا أحب أحسداً : ليس فى أحسد منهسم جمال • • لن أتبعهم ، ولا أعرف الى أين أذهب ، فسأمضى معك • • •

ولكن شاء حسن الحظ ان تدخل أمى فى تلك اللحظة • فلولا ذلك لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر • دخلت دخول شخص استيقظ الآن وأوجس خطراً • وكانت تحمل بيدها قارورة وملعقة حساء • فلما رأتنا صاحت تقول :

- آ • • • نوقعت هذا ! لقد نسبت أن أجرتُعك جرعة الكينا فهأنت ذا قد اعترتك حمى شمسديدة ! نمت مدة طويلة يا ماكار ايفانوفتش ، يا عزيزى !

نهضت وخرجت • وأعطته أمى جرعته وأرقدته على السرير • واندسست أنا أيضك في سريرى ، ولكننى كنت مضطرباً أشك الاضطراب • لقد رجعت الى غرفنى وأنا أشعر بدهشة كبيرة ، وأخذت أنظر من أفكر في هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة • لا أدرى ماذا كنت أنتظر من

هذا التفكير • وأغلب الظن انني كنت أفكر في الأمــور تفكيراً مشوشـــا لا تسلسل فيه ، وأن ما كان يتلاحق في ذهني لم يكن أفكاراً بل شزرات أفكار • كنت في اضطجاعي متجهاً برأسي الى الجدار ، فاذا أنا أرى البقعة المضئة المتوهجة التي أسقطنها الشمس الغاربة على الزاوية ، والتي كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعنــاً • انني أتذكر أن نفسي كلهــا قد اشتعلت حماسة في تلك اللحظة ، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ الى قلبي • انني أتذكر تلك اللحظة العذبة ، ولا أريد أن أنساها • لم تكن الا لحظة أمل جديد ، وقوة جديدة ٠٠٠ كنت قد بدأت فترة النقاهة طبعاً ، فعن الجائز اذن أن تلك النوبات لم تكن الا نتيجة لا مفرٌّ منها لحالة أعصابي ، ولكنني ما زلت الى اليوم أومن بذلك الأمل المضيء الذي ملأ نفسي • ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه • صحيح أنني كنت أعلم حق العلم أتني لن أصحب ماكار ايفانوفتش لأجوب الأرض مثله ، وأننى كنت أجهـــل أنا نفسى ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذي استولى على نفسي ، ولكنني كنت قد تطقت بتلك الجملة ، ولو في الهذيان : « ليس فيهم جمال ! ، قلت أحدث نفسي مفتناً : « انتهى الأمر ، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال ، وهم ليس فيهم جمال ، فسأتركهم ، • وسمعت حفيفاً ورائى ، فالتفت • أنها ماما ، تميل على " وتنظر في عيني " مستطلعة " على خجــل • فأمســكت يدها فجأة ، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسى ماذا كنت سأقول :

ـ لماذا لم تقولوا لى شيئًا عن ضيفنا العزيز ؟

فاذا بقلقها كله يختفى بغتــة ً ، واذا الفرح يضىء وجهها ، ولكنها لم تجبئى الا بهذه الكلمات :

ـ لا تنس أيضاً ليزا ، ليزا . انك قد نسيت ليزا .

قالت ذلك بسرعــة وقد احمـــر وجههــا ، وهمتَّت بالانصراف مستعجلة ، لأنهــا كانت هي أيضــا تكره أن تبسط عواطفها ، انها من هذه الناحية تشبهني ، أعنى أنها مغلقة على نفسها عقة ، هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تشرع في حديث معى عن هذا الموضوع : ماكار ايفانوفتش ، كان ما استطعنا أن نتبادله من نظرات كافياً ، ولكنني ، أنا الذي أكره أن أعرض عواطفي ، قد احتجزتها عنوة باحدى يدي ، وأخذت أنظر في عينيها برقة ، وأضحك برفق ولطف، وألامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الخاسفتين ، فمالت على ، ووضعت جينها على جبيني ، ثم قالت لى فجاة وهي تنتصب مشرقة المحيا :

_ أبل من مرضيك فأكون لك شياكرة ، انه مريض ، مريض جداً .. ان حيساته بين يدى الرب .. آه ! ما هيذا الذي قلته ؟ مستحل ! ...

وانصرفت • لقد ظلت طبول حياتها خائفة مرتمدة زاخرة النفسى بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعى ، الجواب ماكار ايغانوفتشى ، الذى غفر لها الى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم •

الفصب لالثاني ،

الأجام ا

ما نسبت ليزا • أخطاًت ماما الظن • لقد رأت هذه الأم الحساسة أن هساك نوعاً من الفتور بين الأخ وأخته ، ولكن هذا لم يكن وهناً طرأ على ما يربطهما من عاطفة ، وانما كان ضرباً مسن

الغيرة • وهأنذا أشرح ما في نفسي ببضع كلمات •

ان المسكينة ليزا قد انتابها مند اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء المتغطرس ، والتكبر الشديد الذي لا يكاد يحتمل ، ولكن كل من في البيت قد أدرك الحقيقة ، فعرف أنها تعانى عذاباً قوياً ، ولئن حزنت أنا في أول الأمر وقطبت حاجبي ، فانما كان مرد ذلك الى ما أتصف به من سرعة التأذي وفرط الحساسية ، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي ، أو هذا ما أقد را الآن ، ولكنني لم أنقطع عن حب ليزا أبداً ، بالعكس : اشتد في نفسي ما كنت أحمله لها من حب ، كل ما هنالك أنني لم أشأ أن أقوم بالخطوة الأولى ، رغم أنني أدركت أنها هي أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى في حال من الأحوال ، مهما كلفها الأمر ،

ان ليزا ، منذ 'عرفت قصة الأمير فور اعتقاله ، سارعت تتخذ منا ومن جميع الناس موقف انسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثى أحد لحاله أو أن يشفق عليه أو أن يسرى عنه بمحاولة نبرثة الأمير ، بالعكس : أصبحت ، مع حرصها على ألا تفصيح عما بنفسها وألا تحصادل أحداً قط ،

تصطنع هيئة من يمجد سلوك خطبيها المسكين ويعده بطولة ما بعدها بطولة • لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة ، أكرر هذا) : « لا أحــد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً • لا أحــد منكم يمكن ان يسلم نفسمه مدفوعا الى ذلك بدواعي الشرف والواجب • ذلك أنكم لا أحد منكم يملك وجــدانا يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة • أما عن أعماله فأى انسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات؟ الآخـرون يكتمون ويخفون أما هو فقـــد آثر أن يهاك على أن يفقــد قيمته في نظر نفسه ٠ ، ٠ ذلك ما كانت تسرُّ عنه كل حركة من حركات ليزا تعبيرًا واضحًا • وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف نفسه • ولا أدرى هل هذه المعاني هي التي كانت راستخة في قرارة قلبها ، في أعماق نفسها : وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها ، في النصف المضيء ، كانت تدرك حتماً كل تفاهة « بطلها ، • فمن ذا الذي يرفض اليوم أن يعترف أن هـذا الانسـان الذي يمـكن أن يعـد من جهــة أولى تعبيســا شــقياً ، وأن يعد من جهــة أخــرى شهماً كريه النفس في نوعه ، قد كان في الوقت نفسه امرأ تافهــاً كل التفاهة ؟ ان شــدة تأذيهما نفسمها ، وان تأهبهما الدائم للنهجم علينما ، وان ما كانت تحسب من اشتیاه مستمر فی أنسا قد نری فیسه رأیاً آخسر ، ان ذلك كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر • ومع ذلك أسلاع فأضيف أنها في نظرى كانت على حق ، أو على بعض الحق في أقل تقدير • انها 'تعمذر أكثر منا جميعاً اذا هي ترددت في استخلاص نتيجة حاسمة ورأى قاطع • أنا ننسى أعترف من كل قلبي ، بعــد أن مضى وانقضى ذلك كله ، اننى لا أدرى على وجــه اليقين كيف أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدِّر تقديراً حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا جميعاً أمام لغز لا نعرف كيف نبحله .

على أن المنزل قد استحال بسببها الى جحيم صغير . ان ليزا التي أحبت حباً قويًا كان لابد أن تتألم كثيرًا • وكانت بحكم طبعها تفضُّل أن تتألم صامت . • ان طبعها یشب طبعی ، أعنی ان یجنح بها الی النحکم والتسلط والتكبر • • وقد اعتقدت دائسًا ولا ازال أعتقد الى اليوم انها قد أحبت الامير مدفوعة ً الى ذلك بالرغبـة في التسلط والتحـكم ، لان الأمير كان بغير ارادة ، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً • ذلك كله انما يتم مي القلب من تلقاء نفسه بدون أي حساب سابق • ولكن هذا الحب الذي يحمله قوى لضعيف يكون في بعض الأحيـان أعنف كتيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم بين اثنين متكافئين ، ذلك لأن القوى يتحمل تبعــة صــديقة الضعيف رغم ارادته . أو هذا ما اعتقده أنا على الأقل . ولقد أحاطهـــا أهل الدار منذ البـداية بأكبر المراعاة وأشــد المداراة ، ولا سيما ماما . ولكنها لم ترق ، ولم تستجب لهذه العاطفة ، وتأبت على كل مســـاعدة ، ولئن ظلت تكلم ماماً في أول الأمر ، فانها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً بعد يوم ، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة . وكانت تستشمر في أول الأمر فرسسيلوف ، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشماراً لها ومساعدًا ، وهذا أمر أدهشني حين عرفته فيما بعد • كانت تذهب كلَّ يوم الى فاسسين ، وتركض الى المحاكم ، وتقابل رؤســـاء الأمير ، وتراجع المحامين ووكيل النيابة • وفي النهاية صار ينقضي النهار كله دون أن يراها أحد في البيت تقريبًا • وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعًا ، في قسم النبلاء من السنجن الذي أودع فيه ، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة على ليزا كما علمت ذلك من بعد • صحيح أنه ليس نمــة شــخص ثالث يمكن أن يعرف شئون حبيبين معرفة تامة • ولكننى أعلم مع ذلك أن الأمير كان يعجرح شمورها جرحاً عميقاً في بعض الأحيسان • كيف ؟ بغيرة لا تنقطع • أمر عجيب ! ان لنا الى هذه النقطة عودة • غير اننى أحب أن أضيف هذه الفكرة: انه لمن الصعب ان يقطع المرء في همذا السسؤال: أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد؟ لعل ليزا التي كانت بينا تعتز ببطلها، لعلها كانت تعامله معاملة أخرى ، كما يجوز لى أن افترض ذلك على أساس بعض الوقائع التي سنجيء على ذكرها فيما بعد أيضاً .

فنيما يتعلق بعواطفى وعلاقاتى بأختى ليزا ، لم يكن كل ما 'يرى ويلاحظ الا كذبا مقصوداً عنيداً من الطرفين كليهما ، والحق أنسا لم نتحاب يوماً كما تتحابينا فى تلك الفترة ، يجب أن أضيف شيئاً آخر هو أن ليزا منذ أن جاء الينا ماكار ايفانوفتش قد عاملته ، بعد الاسستغراب والفضول اللذين أحستهما فى اللحظة الأولى ، عاملته بنوع من الاحتقار مل الاستعلاء ، وتعمدت أن تنظاهر بأنها لا توليه أى انتباه ،

عاهدت نفسی اذن علی التزام الصمت ، کما أوضحت ذلك فی الفصل السابق ، وقد رت نظریا ، أی فی أحسلامی ، أننی سأفی بالعهد طبعاً ، نعم ، اننی لأوثر ، مع فرسیلوف مثلا ، أن أتحدث فی علم الحیوان ، أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان علی أن أتكلم ، عنها ، أو عن ذلك السطر من رسالته ، الذی یبلغها فیه أن « الوثیقة ، لم تحرق بل هی موجودة ، وأنها یسكن أن تظهر الی النور _ ذلك السطر الذی أخذت أفكر فیه بینی وبین نفسی فوراً منه صحوت من غیبوبتی وعاد الی رشدی بعد الحمی ، ولكن وا أسفاه القد أدركت منه الحموات العملية الأولی بل قبلها تقریباً ، أدركت كم یصحب علی المرم بل كم یستحیل علیه أن یتقید بهده القرارات التی تصورها خیاله ، ان ظرفاً لم یسكن فی الحسبان قد هزاً نی هزاً قوباً رهبها غداه لقائی بماكار ایفانوفتش ،

كان الظرف الذي هزامي هزا قوياً هو زيارة داريا أونيسيموفسا ، أم الفتاة اوليا التي انتجرت نسنقا ، كنت قد عرفت من أمي انها جاءت مرتين أثناء مرضى ، وأنها كانت تهتم كثيرا بأنباء صحتى ، أمن أجلى حقا انها جاءت تلك و المرأة الرائعة ، كما كانت تصفها أمي بذلك دائمساً ، أم هي جاءت لزيارة أمي فحسب ، جرياً على عادتها ؟ انني لم أسأل عن هذا ، لقد كانت أمي تقص على أحداث المنزل دائماً ، وكانت تقص على هذه الأحداث في العادة حين تجيء لتطعمني حسائي (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامي بنفسي) ، وذلك تسلية كي وتسرية عني ، وكنت أحرص في كل مرة على أن أظهر أنني لا أحفل بما ترويه لي ، لذلك لم أسألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيموفنا ،

الساعة هي الحادية عشرة • وقد دخلت على داريا أونسيموفنا حين كنت أهم أن أنهض لأنتقل الى مقمد بقرب المائدة • فلما دخلت تعمدت أن أبقى في السرير • كانت أمي منهمكة بالعمل فوق ، فلم تنزل لتراها ، فأمكننا أن نبقى وحيدين • جلست قبالتي ، على كرسي بقرب الجدار ، تبسم ولا تنطق بكلمة • وتوقعت أن يطول الصمت • وكان مجيئها يحدث في نفسي ضيقاً وحنقاً واهتياجاً في جميع الأوقات على كل حال • فلم أتجه اليها ولو بحركة من رأسي محيياً ، وظللت أحدق الى عينيها بنظرة ثابتة • ولكنها حد قت الى هم أيضاً •

وسألتها فجأة وقد نفذ صبرى :

ــ لا شك أنك تضجرين الآن وحيدة " بعد غياب الأمير ؟

فأجابت تقول :

ــ لا ، اننى لا أقيم هنــالك الآن ، فأنا يفضل آنا آندريفنا ، أعنى الآن بالطفل .

۔ أي طفل ؟

ـ طفل آندره بتروفتش •

قالت ذلك هامسة" ، بلهجة البوح ، وهي تنظر الى الباب •

ـ ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا ٠٠٠

ـ بل تاتيانا بافلوفنـا وآنا آندريفنــا كلتــاهما ، وكذلك اليزابث ماكاروفنا ، وأمك ١٠٠٠ انهن جميعاً يشاركن ، وقد انعقدت الآن أواصر صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا ،

هذا نياً!

وكانت المرأة تنتمش وتنشط أثناء كلامها • ونظرت اليها نظرة كره • وقلت لها :

_ أرى أنك الآن أنشيط مما كنت عليه ابان زيارتك الأخسيرة لى في بيتى .

_ آ ٠٠٠ نص ا

_ وأظن أنك سمنت ؟

فألقت على ً نظرة غريبة • ثم قالت :

۔ اننی أحبها كثيراً ، كثيراً •

۔ من هي ؟

- _ آنا آندريفنا طبعاً أحبها كثيراً انسانة نبيلة ، عاقلة •••
 - ۔ نعم ، وكيف حالها الآن ؟
 - _ هادئة جداً ، هادئة جداً .
 - ـ كانت دائماً هادئة
 - _ صحيح دائماً •

ونفد صبرى فهتفت أقول لها فجأة :

اذا كنت قد جئت الى ً لتروى لى أقاويسل وتنقلى الى ً نمائهم ،
 فاعلمى أننى الآن لا أتدخسل فى شىء، واننى عزمت على أترك كل شىء
 وأن أترك جميع الناس ٠٠٠ لقد استوت عندى الأمور كلها : اننى راحل !

قلت ذلك وصمت اذ الله الله و رشدى و الله لا أريد أن أهبط الله حيث أشرح لها أهدافي الجديدة وقد أصغت الله بدون الدهاش وبدون اضطراب ولكن خيم صمت جديد و الم اذا هي تنهض فجأة و فتتجه الحو الباب و وتلقى نظرة على الغرفة المجاورة و حتى اذا اطمأنت الى أن الغرفة خالية ليس فيها أحدد وأننا وحيدان و رجعت بهدوء شديد وعادت تجلس في مكانها نفسه وعادت تحلس في مكانها نفسه و

قلت وأنا انفجر ضاحكًا :

_ شيء لطيف!

سألتنى فجـأة وهى تميل على ً قليــلا ً وتنخفض صوتها كأن هذا هو السؤال الأساسى الذي من أجله جاءت :

- ــ مسكنك عند ذلك الموظف ، أتنوى أن تحتفظ به أم لا ؟
 - _ مسكنى ؟ لا أعرف قد أتركه ••• ما يدرينى ؟

- ـ ذلك أن السـكان ينتظرونك الموظف ينتظــرك بفارغ صبر ، وكذلك زوجته ••• ولقد أكد لهما آندره بتروفتش أنك عائد حتماً •
 - ــ ولكن فيم يهمك هذا الأمر ؟
- ــ آنا آندریفنا أیضــاً ترید أن تعرف لقد سرَّها کثیراً أن تعلم أنك باق •
 - _ من أين جاءتها هذه الثقة بانني سأبقى في ذلك المسكن ؟

وهممت أن أسألها : « وما شأنهـا هى فى هــذا الأمــر؟ » ولكننى امتنعت عن القاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء ٠

- ـ أكده لها مسيو لاميير
 - ۔ من ؟
- ــ مسيو لامبير هو أيضاً أكدً لآندره بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك باق ، وطمأن كذلك آنا آندريفنا •

اضطربت اضطراباً شدیداً • ما هذه القصة أیضاً ؟ اذن أصبح لامبیر یعرف فرسیلوف • اذن وصل لامبیر الی فرسیلوف! لامبیر وآنا آندریفنا! وانتابتنی حمی • لکننی صمت • وأغرق نفسی سبل رهبب من صلف ، صلف أو شیء آخر • المهم أننی کنت کمن یقول لنفسه: « اذا طلبت کلمة ایضاح واحدة ، کنت أقحم نفسی فی هذا العالم من جدید ، فلا أترکه بعد ذلك أبداً » • واشتعل فی قلبی کره شدید • وقررت جازماً أن أصمت ، ولبئت فی سریری ساکناً لا أتحرك • ولبئت هی أیضاً صامتة خلال دقیقة کاملة •

سألتها فجأة بغير تمهيد :

ـ كيف حال الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟

أُلقيت هذا السؤال بلهجه قوية لأغير موضوع الحديث ، فاذا أنا آلقى السؤال الأساسى اعتباطاً كمن فقد عقله ، فأرجع كالمجنون الى ذلك العالم الذى كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه .

قالت:

هو فى تساركويه سيلو • انه مريض قليلاً • المدينة ملأى الآن
 بهذه الحميات تصميحه الجميع أن يعتزل فى تساركويه سيلو بمنزله هناك نشدانا للهواء النقى •

لم أجب • وأردفت هي تقول :

ـ تنزوره آنا آندريفنا والجنرالة كلُّ ثلاثة أيام • تذهبان البه مماً •

آنا آندریفنا والجنرالة (أى « هى ») صدیقتـــان ! تذهبـــان الیه معاً !

لم أقل شيئًا ٠

ـ ذلك أنهما أصبحنا صديقتين جداً • وآنا آندريفنا تمدح كاترين نيقولايفنا كثيراً •••

بقت صامتاً •

ــ عادت كاترين نيقولايفنا الى ولعها بالمجتمع ، فهى تنتقل من حفلة الى حفلة ، تتلألأ ٠٠٠ بل يقال ان كثيراً من رجال البلاط بهيمون بحبها ، أما السيد بيورنسج فقد انقطع الحبل بينه وبينها ، فلن يتسم الزواج ٠ ذلك ما يؤكده جميع الناس ٠٠٠ منذ تلك المرة ٠٠٠

أرادت أن تقول : منذ وصول رسالة فرسيلوف • وقد ارتعدت ، لكنني لم أقل كلمة واحدة •

ـ ما أشد اشفاق آنا آندريفنا على الأمير سرجى بتروفتش ! وكذلك

كاترين نيقولايفنا! انهما تتحدثان عنه دائما ، ونقولان الله القضاء سيبرئه وسيحكم على الآخر ، ستيبلكوف ٠٠

نظرت اليها نظرة تفيض كرهاً • ونهضت فجأة ومالت على تقول لى بهمس :

ـ أوصتنى آنا آندريفنا بأن أستفسر عن صحتك ، وأمرتنى أن أرجوك أن تنجب اليها متى خرجت ، فأرجو أن تبل من المرض ، استودعك الله ،

وخرجت • فجلست على سريرى • وأخل عرق بارد يتصبب في جبيني • غير أن ما تسعرت به لم يكن قلقا • ان هــذا النبأ الكريه الذي لم أستطع أن أفهمه ، هذا النبأ عن لامبير ومكاثده ، لم يروُّعني كما كانت تروعني أثناء مرضى وفي الأيام الأولى من نقاهتي ، ذكرى لقائمي به في تلك الليلة • حتى انني في تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم الذي أعقب انصراف داريا أونيسيموفنا ، لم يتلبث فكرى على لامبير ٠٠٠ وانما استنولى على ذهني ما أنبأتني به داريا عن القطيعة التي وقعت بين كاترين نيقولايفنا وبين بيورنج ، وعن سعادة كاترين في المجتمع ، وعن الحُفلات التي تتنقل بينها ، وعن النجاح الذي تلقاء ، وعن تألقها • لقد قالت داريا أوتسموفنا « انها تتلألأ » • وشـعرت فحـأة بأنني عاجز عن انتزاع نفسى من هذا الاعصار ، رغم اننى استطعت أن أتجلد وأصمت ، وألا ألقى على داريا أسئلة " بعد الأشباء المذهلة التي روتها لي • واجتاحني ظمأً شديد الى تلك الحياة ، • حياتهم ، ، و ••• واجتاحني كذلك ظمأ آخــر لذبذ عذب ، لا أدرى ما هو ، ظمأ أحسسته كالسعادة وأحسسته كالعذاب • وطفقت أفكاري تدور في رأسي كزوبعــة • • وتركت لها أن تدور هــذا الدوران! كتت أقول لنفسى : « علام التفكير ؟ ، • ثم جعلت أَفْكُر تَفْكِيرًا مَتَقَطَّماً لا تَسلسل فيه ، فأقول لنفسى : « إن أمي نفسها قد

أخفت عنى مجىء لامير • ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت • اننى أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لامير بحال من الأحوال! • • ثم عدت أقول: • فرسيلوف! فرسيلوف ولامير! أوه! ما أكثر ما حدثت من أمور جديدة عندهم! ما أمكر فرسيلوف هذا! لقد أخاف ذلك الألماني بيورنج بتلك الرسالة • لقد أذاع في حقه النمائم • • • النميمة لابد أن يبقى منها شي وائما • • خاف الرجل من الفضيحة • آه • • آه • • درس حسن لها! • لامير! ولسكن ألا يكون لامير قد وصل اليها هي أيضاً • لابد أنه وصل اليها حتماً! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد صلة به ؟ • •

وهنا كففت فيجأة عن ادارة هذه الأفكار المضطربة المسوشة في ذهني، وهويت برأسي على الوسادة من شدة الكرب واليأس • ثم صحت أقول بعزم مباغت : « ولكن لا ! » • ووثبت عن سريري ودسست قدمي في البابوجين ، وألقيت على ثوب المنزل ، ومضيت `فد'ما الى ماكار ايفانوفتش كأن الشفاء من هذه الأفكار التي تحاصرني انما يجب أن ألتمسه عنده ، كأن لديه النجاة والخلاص ، كأن عنده المرساة التي أسستطيع أن أتشبت بها فلا أغرق •

وأغلب الظن أننى أحسست بهذه الفكرة احساساً قوياً ، والا فهل كنت أنهض هذا النهوض الذى لا سبيل الى مغالبته ، وهل كنت أسرع الى ماكار ايفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من ثلك الحالة النفسية المضطربة ؟ ٣

لكننى وجدت عند ماكار ايفانوفتش زواراً لم أكن اتوقعهم : ماما والدكتور • ولأننى كنت أتصور حين مضيت الى الشيخ أننى سألقاه وحيداً كما حدث أمس ، فقد وقفت فى العتبة متحديراً تحيراً غيماً • ثم ما ان قطبت حاجبى حتى وصل أيضاً فرسيلوف ، ووصلت وراء ليزا • التأم الشمل كله اذن عند مأكار ايفانوفتش « فى وقت غير مناسب » !

قلت وأنا اتحه الى ماكار ايفانوفتش رأساً:

_ جثت أسأل عن صحتك ٠

ــ شــكراً يا ابنى ، كنت أعلم أنك ســتأتى ! هذه الليلة أيضـــاً فكرت فيك .

وكان ينظر في عبنى برقة وحنان ، فرأيت أنه ربما كان يحبنى أكثر من الآخرين جميعاً و ولكننى لاحظت فوراً برغم ارادتى أنه اذا كان وجهه فرحاً فان مرضه قد تفاقم في الليل كثيراً و وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصاً دقيقاً جداً و وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذي تشاجرت معه يداوى ماكار ايفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام ، وهو يشخص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسسميها بلغتهم الطبية و وقد انعقدت بين ماكار ايفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصداقة كما أدركت

ذلك منذ أول نظرة ، فلم يعجبنى هــذا كثيراً في تلك اللحظة · ثم اننى كنت آتئذ معتكر المزاج جداً ·

سأل فرسيلوف قائلاً :

ــ فماذا يا الكسندر سيمونوفتش ؟ كيف صبحة مريضنا العزيز اليوم ؟

لولا أننى كنت مضطرباً لجعلت أول همى أن أدرس ، باهتمسام شهديد وشغف كبير ، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ ، وقد خطر ذلك ببالى منذ الأمس ، والشىء الذى خطف بصرى الآن خاصة هو ما كان يعبر عنه وجهه فى الظاهر من لطف وبشاشة ، أظن أننى سبق أن أشرت الى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جمالاً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض البساطة ،

أجاب الطبيب يقول :

- ـ نحن لانفتأ نتشاجر •
- ـ تتشاجر مع ماكار ايفانوفتش ؟ لا أصــد ًق شــيثاً من هــذا : لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه .
 - ــ لكنه لا يريد أن يطيعني : انه لا ينام الليل •••
- _ دعك من هذا الكلام يا ألكسندر سيمو نوفتش ، كفي تقريعا !

كذلك قال ماكار ايفانوفتش ضاحكاً • وتابسع كلامه سسائلاً آندره بتروفتش :

- ـ هيه آندره بتروفش العزيز ؟ ما صنعت بأنستنا ؟
 - نم أضاف وهو يشير الى أمى :
 - ـ لقد ظلت مضطربة " قلقة طول الصباح •

فهتفت أمى تقول بفلق شديد فعلاً:

نعم یا آندره بنروفتش ، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا
 المسكینة ! ماذا قرروا فی حقها ؟

فقال:

- حكموا علمها ٠

ـ أوه ا

هدئی روعك ، لن تنفی الی سیبریا : حكموا علیها بدفع غرامة
 مقدارها خمسة عشر روبلاً ، مهزلة !

قال ذلك وجلس • فجلس الطبيب أيضاً • كانوا يتكلمون عن تاتيانا بافلوفنا • ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد • كنت على يسار ماكار ايفانوفنش • وجلست ليزا أمامي على اليمين • كان واضحاً أنها تماني آلماً خاصاً جاءت تفضى به الى أمي • كان وجهها يتم عن اضطراب واستياء • وقد تبادلنا نظرة في تلك اللحظة ، فقلت لنفسى فجأة : « كلانا تلطخ شرفه ، وعلى أنا أن أقوم بالحطوة الأولى تحوها ، • لقد رق قلبى لها فحاة • وفي تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروى ما جرى في الصباح •

لقد مثلت تاتيانا بافلوفت في هذا العسباح أمام قاضي الصلح مسع طباختها وكانت القضية مضحكة جداً وسبق أن ذكرت أن الفنلندية المتعبة كانت اذا غضبت تازم العسمت في بعض الأحيان أسابع متصلة فما تنجيب بكلمة واحدة على أسئلة مولاتها وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا ضعيفة تنجاهها بم فهي تحتمل منها كل شيء به ولا يمكن أن تطردها من خدمتها بتحال من الأحوال و ان جميع هذه النزوات النفسية التي تلاحظ في العوائس أمور تستحق الاحتقاد في نظري ولا تستحق أي اهتمام واذا كنت قد قررت أن أروى هذه القصة هنا به فاتما يدفعني الى ذلك

ان هذه الطباخة سيكون لها في روايتي دور مشئوم لا يمكن اغفاله و وأعود الى حكايتها فأقول ان تانيانا بافلوفنا فد نفد صبرها أخيراً وضافت فرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التي لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ عدة أيام ، فاذا هي تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً و وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل نسيئاً ألبتة بل لم يصدر عنها أي صوت ، ولكنها اتصلت في ذلك اليوم نفسه بمستأجر كان يقيم في مكان يطل على مسلم الخدم نفسه ، تحت ، وهو الملازم البحرى المتقاعد أوستروف الذي كان يعمل وسيطاً في جميع أنواع القضايا ، وكان يرفع الى المحاكم قضايا من هذا النوع ، طلباً للرزق في الكفاح من أجل البقاء و وكانت النتيجة أن 'طلبت تاتيانا الى المثول أمام قاضي الصلح ، واستدعى فرسيلوف شاهداً ه

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب أن أمى نفسها أخذت تضحك ، وقد قلد شخصيات تاتيانا بافلوفنا والملازم البحرى والطباخة ، فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضى أنها تطالب بتمويض ملى وكيف عقبت على ذلك قائلة : « والا فلمن أهيىء العساء اذا هى سجنت ؟ ، ، وروى كيف أن تاتيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضى بكثير من التكبر حتى انها أبت أن تبرز فعلتها وانتهت الى القول : « ضربتها ولسوف أضربها أيضاً ، ، فكان أن محكم عليها بغرامة قدرها اللائة روبلات لعدم توقيرها القاضى ، وأخذ يصف الملازم البحرى ، وهو شاب متخلع المشى تحيل الجسم ، فذكر كيف اندفع يلقى خطاباً طويلاً في مدح صاحبته الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً في مدح صاحبته الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً في مدح صاحبته الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً بأفلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها مارى ، التي أساءت البها وأهاتها ، فما كان من تاتيانا بافلوفنا الا أن استلت محفظة نقودها فوراً

بدون انتظار ، وعد ت المبلغ ، فاذا بالملازم البحرى ينبجس حالاً ويمد يده ، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت ان تضربها ضربا ، والنفت نحو مارى تريد ان تنقدها المبلغ ، فقالت نها مارى : لا تكترتي يا سيدتى ، وأضيفى المبلغ الى حسابى ، أما هذا السيد فساقوم أناً بدفع أجره له ، ، فقالت تاتيانا بافلوفنا : « أرأيت يا مارى ما أغبى الرجل الذى اتخذته مدافعاً عنك ؟ ، • قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهي تومى والى الملازم البحرى ، فرحة أعظم الفرح بأن مارى قد فتحت فمها أخيراً • فأجابت مارى وهي تنظر نظرة ماكرة : « هو غبى فعملاً يا سيدتى • أظن أنك كلمك حين كنما في البيت اذ كنت استعجل المجيء الى هنما ، • أجابتها كلامك حين كنما في البيت اذ كنت استعجل المجيء الى هنما ، • فأجابتها تحرفها كما فعلت أمس ! » فقالت مارى : « سمأكون شديدة الانتباء تحرفها كما فعلت أمس ! » فقالت مارى : « سمأكون شديدة الانتباء يا سيدتى ، ولا سيما اليوم • هاتى يدك » • وقبلت مارى يد مولاتها دليلاً على المصالحة • فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك •

ـ يالها من امرأة غريبة الأطوار !

كذلك قالت ماما وهى تهز رأسها ، راضية مع ذلك بالنبأ ، مغتبطة أيضاً بما قصمه آندره بتروفتش • ولكنها كانت تختلس النظر الى ليزا قلقة •

قال ماكار ايفانوفتش وهو يضحك :

ـ مكذا كانت الآنسة منذ طفولتها •

فقال الدكتور :

- ـ هذا من أثر الصفراء والفراغ •
- ـ ایای تعنون ؟ عنی تجیئون علی ذکر الصفراء والفراغ ؟

ان تاتيانا بافلوفنا هي التي دهمت الغرفة ، وكان واضحاً أنها راضية عن نفسها جداً • وأردفت تقول مخاطبة الطبيب :

.. يا أمكسندر سيمنوفت ، خير لك آلا تقول هـنده السحفات ، لقد عرفتني حين لم تكن قد بلغت العاشرة من عــرك ، فلا بد أنك نعلم هل آنا في بطالة وفراغ حقاً ، أما عن الصفراء فانك تداويني منذ سنة كاملة ولا تفلح في شفائي ، كان عليك أن تخجل من هذا ! هيّا هيّا ، لقد سحرتم مني سحرا كافياً ، شكرا يا آندره بتروفتش لأنك رضيت أن تجيء الى المحكمة شاهداً ، أما أنت أيها العزيز ماكار ، فمن أجلك انما جئت ، لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت الى م ولكنها لم تلبث أن ربت على كنفي بعودة ، انني لم أرها مشرقة المزاج الى هذا الحد في يوم من الأيام) ،

وختمت كلامها تقول وهي تلتفت فجأة الى الطبيب وتقطب حاجبيها مهمومة :

- ۔ فماذا یا دکتور ؟
- ــ لا يريد أن يبقى راقداً ، وهو بالجلوس يرهق نفسه ٠

فجمج ماكار ايفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل:

ـ ولكنها لحظة نقضيها مع الاصدقاء ٠٠

فانبرت تائيانا بافلوفنا تقول :

نحب نحن نحب هـذا ، نحب أن نثر ثر مع النـاس ؟ نحب أن
 يتحلق حولنا جمهور • اننى أعرف صاحبنا ماكار •

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً الى الطبيب :

ــ وما أشد اصراره • انتظر قليلاً ، دعنى أتكلم : لسوف أرقد على

السرير ، ولكن المتل عندنا يقول : « من يرقد فقد لا ينهض » • ذلك بعينه هو ما يتربص بي يا صديقي -

موه! هي الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش في عقولنا « اذا رقدت فقد لا أنهض ، ، ذلك ما تخشاه عامة الشعب في أكثر الأحيان ، فيؤثر الرجل أن يقضى فترة مرضه واقفاً على أن يذهب الى المستشفى ، أما أنت يا ماكار ايفانوقتش قان ما يستولى على نفسك الآن هو الضجس ، هو التتحسر على الحرية ، هو الشوق الى السفر والتجول والتجواب ، مرضك كله هو أنك فقدت عادة المكث في مكان ، نهم ، ان التشرد ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا ، لاحظت هذا مراراً ، ان شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حياً للتشرد .

قالت تاتبانا بافلوفنا :

_ فی رأیك اذن أن ماكار متشرد ؟

ـ لا ، ليس متشرداً بهـذا المعنى ، لقد اسـتعملت الكلمة بمعناها العام ، ان ماكار متشرد عن تدين وتقى ، ولكنه متشرد على كل حال ، صحبح أنه متشرد بمعنى حسن ، بمعنى نبيل ، ولكنه متشرد ، من وجهة النظر الطبية ، ، ،

التفت فجأة نحو الدكتور ، وقلت :

- أؤكد لك أتنا أنا وأنت وسائر الحضور هنا ، أولى بأن 'نمد" منشردين من هذا الشيخ الذي يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له في حياته مبدأ ثابتا ، أما حياتنا تحن جميعاً فنتشرد على غير هدى في كل اتجاه ٠٠ ولكنك في الواقع لا تستطيع أن تفهم !

لا شك أننى تكلمت بخشسونة ، ولـكن من أجـل هـذا انما جثت

والحق أننى لا أدرى لماذا بفيت ، ولكننى كنت خارجاً عن طورى حتى لكأننى جننت .

فنظرت الى ً تاتيانا وقد بدا في هيئتها الاشتباء ، وقالت تسألني :

_ ماذا أصابك ؟

ثم قالت تسأل ماكار ايفانوفتش مشيرة بيدها الي ً:

۔ کف تجدہ ؟

فأجاب ماكار ايفانوفتش:

_ باركه الله • ان له فكراً متقداً •

ولكن الحضور ما أن سمعوه يصفنى بأن لى فكرا لا متقداً ، حتى طفقوا يضحكون ، فكظمت غيظى ، وكان الدكتور أشدهم ضحكاً ، من المؤسف أننى كنت أجهل فى ذلك الحين ما كانوا قد تواطئوا عليه ، ان فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا ، قبل ثلاثة أيام ، على أن يصرفوا أمى عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار ايفانوفتش الذى كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاء على المداواة مما كنت أظن حينذاك ، ذلك هو السبب فى أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا يحساولون أن يضحكوا ، غير أن الطبيب كان أحمق ، وكان بطبيعته لا يعرف كيف يمزح ، هذا هو السبب فى كل ما أعقب ذلك ، فلو كنت على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر ، وكانت ليزا لا تعلم أيضاً ،

ظللت أصغى بجزء من سمعى ، فكانوا يتكلمون ويضحكون ؟ أما أنا فكان رأسى مشغولاً بشىء آخر : داريا أونيسيموفنا وما ذكرته لى من أنباء ؟ وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور في رأسى • انها تترامى لها هناك، جالسة "نظر الى" ، ثم قائمة بحذر لتلقى نظرة على الغرفة الأخرى • وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة • كانت تاتيانا بافلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحد قائلة له : « هدا معروف ، ما أنسم جميعاً يا أطباء النحس الا ملاحدة ، •

فهتف الدكتور يقول متظاهراً تظاهراً غيباً بأنه أهين ، مطالباً بأن ينصف :

- ... ماكار ايفانوفتش ! هل أنا ملحد ؟ نهم أم لا ؟
 - ... أنت ملحد ؟ لا ء لست ملحداً!

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وأضاف يقول هازاً رأسه بوقار :

ـ لا ، الحمد لله • أنت انسان مرح •

فسأله الدكتور بسخرية :

ـ واذا كان الانسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً ؟

قال فرسلوف بدون أن يضحك :

_ هذا رأى !

فهتفت أقول على غير ارادة منى وقد فتنت بهذه الفكرة :

ـ رأى قوى !

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً •

فبدأ ماكار ايفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً:

مؤلاء المنقفون ، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئًا عن الأساتذة من قبل) كنت في البداية أخشاهم كثيرًا : كنت الله الما أنهيهم ، لأنني لا أخاف أحدًا كما أخاف الملاحدة ، كنت أقول

لنفسى : « اننى لا أملك الا نفساً واحدة ، فاذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً » ، ولكننى استرددت شسجاعتى بعد ذلك ففلت لنفسى : هياً » ما هم آلهة على كل حال ، هم بشر مثلنا ، لهم ما لنا من أهواء ! » ثم استبد بى حب الاطلاع قوياً شديداً ، فقلت لنفسى : « أريد أن أعرف أخيراً ما الالحاد • » • ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقى •

صمت ماكار ايفانوفتش لحظة ، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام ، مسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها ، ان هناك سذجا يركنون الى جميع الساس والى كل انسان دون أن تخطر السخريه لهم بسال ، وهؤلاء يكونون "سكنجا ، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تخفى ، ولكن يسدو لى أن ماكار ايفانوفتش كان يتصف بشىء آخر غير السذاجة وأن براءة الساطة لم تكن هى الشيء الوحيد الذي يدفعه الى الكلام ، انه يملك شيئاً من صفات الدعاة ، ولقد سر "ني أن ألاحظ فيه استهزاء "لا يخلوا حتى من بعض الكر ، تناول به الدكتور ، وربعا فرسيلوف أيضاً ، وكان واضحاً أن هذا الحديث تتمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع ، ولكن شاء سوء الحظ أن تغلت تلك جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع ، ولكن شاء سوء الحظ أن تغلت تلك ألكلمة المشومة التي كهربتني بالأمس ، فأهاجتني اليوم همجماناً مازلت آسف له ،

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال :

- « الملحد ـ الانسان ، ، ربما كنت أخشاه الى الآن • ولكن هذا الملحد ـ الانسان ، يا ألكسندر سيمنوفنش ، لم يتفق لى أن لقينه مسرة واحدة في يوم من الأيام ، وانما أنا لقيت « الملحد ـ المشوش ، • نعسم هكذا يجب ان يسسمى • أناس من كل نوع ، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم • بينهم كبار وصغار ، وبينهم حمقى وعلماء ،

وبينهم حتى افراد من عامة الشعب ﴿ وهم حِميعًا مُسُوشُونَ ﴿ انْهُمْ يَفْضُونَ حياتهم كلها في القراءة والاستدلال والتفكير ، وقد امتلأت نفوسهم افتتانا بالكتب ، ولكنهم يظلون دائماً في الشك ، ولا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على شيء • منهم من تبعثروا تبعنراً تلماً فأصبحوا لا يلاحظمون أنفسهم ، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام • ومنهم خفاف يحسسون ولا يكترثون ولا يهمهم الا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات • ومنهم لا يقطفون من الكتب الا الزهرة ، ولكنهم يقطفون الزهرة التي يريدون ، تم يظلمون مشوشين لا يستقرون على حال ٠ اسمع ما سأقوله لك : إن في هذا كله ضحراً كثيراً • الانسمان البسيط يعيش في عوز ، فهو في حاجـة الى خبز ، ولا يملك ما يقدمه للصغار ، وينام على قش خشن ، ولكن قلبه فرح خفيف دائماً • قد يرتكب خطايا ويقول كلامًا غليظًا ، ولكن قلبه يبقى مرحــاً خفيفاً • أما الانسان الذي له شأن خطیر فهو یتماڈ شراباً وطعاماً ، وینام علی أكداس ذهبه ، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر • ان بين هؤلاء من طافوا بحميع العلوم ، ولكن الضجر بقي في قلوبهم • أعتقد أن الانسان كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجرًا • انظر في هذه النقطة : لقد وجد التعليم منذ وجد العالم • فهل جاء التعليم بما ينجل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح ؟ بل اننى لأقول لك : انهم ليس فيهم جمال ، ولا يريدون الجمال • هم جميعاً أموات ، ولكن كلاً منهم يتباهي بموته ، ولا يخطس باله أن يتجه الى الحقيقة « الوحيدة » • أن يعش المرء بغير اله فذلك عذاب • وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، حتى دون أن يفطئوا الى ما يفعلون • أين العقل والحكمة في هذا ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود . بغير سمجود لا يمكن أن يحتمل الانسان نفسه . ما من أحد قادر على هذا . فاذا جحد الله سنجد لمعبود من خشب أو من ذهب ، أو ســجد لمعبود صــنعه له الحبـــال • انهم جميعاً وثنيون لا ملحدون • هكذا يجب أن تسميهم • ولكن كيف لا يكون

هناك ملحدون! ان بعض الناس ملحدون حقاً ، وهؤلاء ابعث على الخوف والرهبة من الآخرين ، لأن اسم الله مائل في أفواههم دائماً ، سمعت عن هؤلاء مراراً ، ولكنني لم ألق أحداً منهم يوماً ، هم موجودون يا صديقي ، وأظن أنهم لابد أن يوجدوا ،

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً :

- ـ موجودون یا ماکار ایفانوفتش و « لابد أن یوجدوا » ا
 - ـ موجودون حتماً و « لابد أن يوجدوا » 1

أفلتت منى هذه الجملة بغير ارادتى حارة ملتهبة لا أدرى لماذا و لكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتنى عكما أن فكرة فتنتنى فى قوله : « لابد أن يوجدوا ، • ماكنت أتوقع هذا الحديث أبداً • وحدث فى تلك اللحظة شىء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً •

كان النهار مضمُّناً جداً • وقد جرت العادة في غرفة ماكار إيفانوفتش أن تسدل الستارة طول النهار بأمر من الطبيب • غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن سستارة بل حجاباً ، فلم يكن أعلى النافذة مغطى • ذلك أن الشيخ تضمايق حين كان لا يرى الشمس أبدا بسبب السمارة القديمة . وقد يقينا معه الى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً • واذ كان منهمكاً في الحديث فانه لم ينتبه الى ذلك في أول الأمــر ، ولكنه أشــاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر في الكلام ، لأن الشعاع الساطم كان يضايقه ويهيج عينيه المريضتين • وكانت أمى واففة " أمامه ، فنظرت الى النافذة عدة مرات في قلق • وكان ينىغي أن تغطى النــافذة تماماً ، ولكن أمى ، من حرصها على ألا تقطع جمل الحديث ، بدا لهما أن تزحزح المقعد الذي كان يجلس عليه ماكار الفانوفتش، أن تزحزحه نحو السمن بدفعه خمسة عشر سنتميترا أو عشرين في أكثر تقدير • وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح ، اذ أبي المقعد أن يتزحزح • وأحس ماكار ايفانوفتش بجهودها ، ولكن على غير شمور البِّنة ، وذلك من شمدة التجرافه في ألحديث ، وحاول أن ينهض عدة مرات ، ولـكن ساقيــه لم تسعفاه • وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد • فاذا بهذا كله يثير حنق لبزا في نهانة الأمر ٠ انني أتذكر بعض نظراتها الملتهبة الساخطة • ولكنني في اللحظة الأولى لم أســـتطع أن أعزو هذه النظرات الى سب ، هذا عدا أنني كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه ٠

وفجأة دُّوى هذا النداء العنيف الذي يشسبه الصراخ ، متنجهاً الى ماكار ايفانوفتش :

_ ولكن هلاً نهضت قلبلاً ! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد ؟

فنظر الشيخ الى ليزا بسرعة ، وفهم على الفور ، وحاول فى الحال أن يطيعها ، ولكنه لم يفلح ، فانه ما ان ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات حتى تهاوى عليه ثانية ، فقال يجيب ليزا بصوت شاك وهو ينظر اليها بمذلة :

- _ لا أقدر يا ابنتي !
- ے تقدر أن تندفق فی كلام يملأ كناباً بكامله ، أما أن تنحرك فليلاً فلا تقدر ، هه ؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا:

ــ ليزا ا

وعاد ماكار ايفانوفتش يبذل جهـداً خارقاً من أجـــل أن ينهض • فصاحت ليزا تقول له من جديد :

ـ تناول عكازتك فاستمن بها • مي ذي على الأرض!

فقال الشيخ ، وهو يسرع الى تناول عكازته :

_ حقاً ٠

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض :

ـ بل تنهضه وكفي !

وتحرك الطبيب ، واندفعت تانيانا بافلوفن ، ولكنهما لم يصلا الى ماكار اينانوفتش الا وقد توكأ على عصاه ، ونهض فجأة ، ووقف على ساقيه

اظراً حوله ، فرحاً بانتصاره ، ضاحكاً في مرحه ، قائلاً بما يشبه الظفر :

ـ استطعت مع ذلك • شـكراً يا ابنتى ، لقد رددتنى الى الصواب وكنت أظن أن ساقى اصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشىء !

ولكنه لم يلبث واقفساً مدة طويلة • قانه ماكاد ينهى جملته حنى النزلقت العكازة التى كان يستند اليها بكل وزنه ، انزلقت على السجادة فحاة ، قاذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله • كان النظر رهيباً • الني أتذكر ذلك • صاح الجميع بصوت واحمد : « أوه ! » ، وأسرعوا يرفعونه عن الأرض • ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أى كسر • صحيح أن ركبتيه قد صدمتا الأرض صدماً قوياً فأحدث سقوطه ضجة شديدة ، ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند اليها • وأنهضوه وأرقدوه على السرير • كان وجهه شاحباً ، لا من الحوف ، بل من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض الأخرى) واضطرب أمى أشد الاضطراب هلماً • واذا بماكار ايفانوفتش الذى لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوباً ، ولم يكد يثوب الى نفسه ، اذا هو يلتفت الى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون عثوناً ذاخراً بالعاطفة :

ــ لا يا ابنتي • أصبحت ساقاى لا تحملاني ، كما ترين •

لا أستطيع أن أصف الشعور الذى أحسسته ، ان أقوال الشسيخ المسكين لم يكن فى نبرتها أى شكوى أو ملامة ، بالعكس : كان واضحا أنه منذ البداية لم ير فى كلمات ليزا أى سوء ، وأنه عد صراخها شيئا واجباً ، أى تقريماً يستحقه خطؤه ، وقد أثر هذا فى ليزا تأثير رهيباً أيضاً ، لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع ، ووقفت فى مكانها

كالميتة ، متألمة طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث · لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الحجل والندم ·

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة :

ـ كنى ! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث • فليرجع كل واحد الى حيث كان • ولكن ما العمل اذا كان الطبيب نفسه هو الذى يبدأ الثرثة ؟

فقال ألكسندر سيمنوفتش وهو يسمى حول المريض منهمكاً :

ــ حقاً يا تاتيانا بافلوفنا • معذرة • انه في حاجة الى راحه •

ولكن تاتيانا بافلوفنــا كانت قد انقطعت عن الاصغاء: انها منذ نصف دقيقة تنعم النظر الى ليزا صامتة • ثم قالت فجأة :

۔ تعـالی یا لیزا وقبّلبنی ، قبّلی العجـوز الحمقاء ، اذا أردت طعاً 1

وقبَّلتها ، لا أدرى لماذا ، وكان هذا ما يبجب فعله حقاً ، حتى اننى أوشكت أنا نفسى أن اندفع الى تاتيانا بافلوفنـا فأقبِّلها • كان يبجب فعلاً ألا تسحق ليزا باللوم ، وانما يبجب أن تستقبل العاطفـة الطببة الجديدة التى ستنشأ في نفسها بالمرح والنهنئات •

ولكننى لم أسلك هذا السلوك فى الواقع + لقد نهضت فجأة ، وقلت وأنا أقطع كلماتى بغية أن تكون بارزة واضحة :

ماكار ايفانوفتش ، انك قد استعملت مرة آخرى هذه الكلمة : « الجمال ، ، وكانت هذه الكلمة تعذبنى بالأمس ، وتعذبنى طوال هذه الأيام الأخيرة ، بل انها عذبتنى فى جميع أيام حياتى ، ولكننى لم أكن أعرف فى الماض ماذا كان عذابى ، فأنا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد أعدها معجزة ، ٠٠٠ اننى أعلن هذا بحضورك ، ولكنهم أوقفونى عن الكلام • أكرر أننى كنت أجهـل ما تواطئسوا عليه بصدد ماما وماكار ايغانوفتش • وقياسا على ما عرفوا من أفعالى الماضية ، حكموا بأننى لا أتورع عن أية فضيحة •

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضبا شديدا ، وزارت تقول :

_ أسكتوه ا

وأخذت ماما ترتجف • وذعر ماكار ايفانوفتش هو أيضــاً حين رآهم جميعاً مذعورين • وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة :

ـ اسکت یا آرکادی ۰

ولكننى لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى :

ـ يشدهنى ويقززنى يا سادتى أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل (أشرت بيدى الى ماكار) • ليس هنا الا قديسة واحدة هى ماما ، ولكنها هى أيضاً •••

قال الدكتور ملحاً:

ــ انك تروَّعها !

فتسمت أقول:

ـ أعلم أتنى عدو الجميع ٠٠

أو قلت كلاماً من هــذا المذاق • ثم التفت الى فرســيلوف ألقى عليه تظرة تحد واستفزاز • فصرخ فرسيلوف قائلاً :

- آدكادى ٠٠٠ سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع ٠ فسيطر على نفسك الآن ٠ أرجوك !

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التي ظهرت على فرسيلوف وهو

ينطق بهذه الجملة • لقد عبر وجهه عندئذ عن حزن خارق ، صادق ، كامل • ومما يدعو الى الدهشة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة انسان نادم : فالآن أنا القاضى وهو الجانى • فكان من شأن ذلك كله أن أخرجنى عن طورى • فهتفت أجيبه قائلاً :

_ نعم ، حدث هذا يوم كنت قد دفت فرسميلوف ، يوم كنت قد انتزعته من قلبي ٠٠٠ ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك و بعث الموتى ٠٠٠ أما الآن فقد انتهى كل شيء ، ولسوف ترون جميعاً ، جميعاً ، ما أنا قادر عليه انكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله ،

قلت ذلك ، واندفعت الى غرفتى • فهرع فرسيلوف ورائى •

انتكست بعد ابسلال : اتنابتنى حمى شديدة ، وفى المساء كنت أهذى ، ولكن لم يكن كل شىء هذياناً ، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة ، حفظت واحداً منها الى آخر حياتى ، أو قل حفظت شذرات واحد منها أرويه الآن بدون نفسير ، لقد كان فى ذلك الحلم تنبؤ ، فلا أستطيع أن أغفله ،

رأيتني في غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبي فجأة بنية عظيمة بيلة .
أبين ؟ لا أدرى ، ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا ، وأقول سلفا : انني أتذكر تلك النوفة تذكراً وضحاً كل الوضوح ، ورغم انني كنت وحيداً ، فقد كنت أحس _ منألماً قلقاً _ انني لست وحيداً وأنني 'أنتظر ، وأن شيئاً 'يتوقع مني ، ففي مكان وراء الباب أشـــخاص ينتظرون ما سأفمله ، احســـاس لا يطاق : * آه ، البيني كنت وحبـداً ، وها دهي ، ذي تدخيل فجأة ، انها تنظر الى خجلة ، خائفة خوفاً شديداً ، والتصقت بي ، فأشفقت عليها ، ولكنني أخذت أشعر باشمئزاز ، وفجأة والتصقت بي ، فأشفقت عليها ، ولكنني أخذت أشعر باشمئزاز ، وفجأة غطت وجهي بيديها ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف : غطت وجهي بيديها ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف ، كل الاهانات الذي شيئاً ، خذي ، لا أطالبك بشيء ! بالاحتقار انتقم لنفسي من كل الاهانات الذي تحملت » ،

وخرجت من الغرفة شاعرا بكبرياء قويه واعتزاز شــديد • ولكن الامبير يوقفني على العتبة في الظــلام ، ويهمس قائــلاً لي وهو يمســك ذراعى بقوة : و أحمق ، أبله ! سوف تنشىء فى فاسيلى اوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعنى لتستطيع أن تنجنى وزقها اذا علم أبوها بأمر الوئيقة فحرمها من الميراث وطردها من بيته ، اننى اسجل تعابير لامبير بنصها كما سمعتها فى الحلم) .

ـ آرکادی ماکاروفتش بسمی وراء « الجمال ، •

ذلك صوت آنا آندريفنا النحيل سمعته قريباً منى على السلم • ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سيخرية لاتطاق • وأعود الى الغرفة مع لامبير • فاذا « هى » > حين تراه ، تأخية تضحك مستهزئة • ان الشعور الأول الذي أحسسته كان ارتباعاً رهيباً ، ارتباعاً بلغ من الهول آننى توقفت ورفضت أن أتقدم • ونظرت البها فلم تصدق عيناى ما رأيت • لكأن قنياعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة : لا تزال قسمات وجهها كما هى ، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها • وصاح لامبير يقول لها : « الفدية يا سيدتى ، الفدية ! ، ، فاذا ضحكهما كليهما يستد • وكف قلبى عن الحفقان • « هل أيعقل أن تكون هذه المرأة الوقحة هى المرأة نفسها التي كان يكفيني أن تنظر الى حتى يشتعل قلبى فضيلة ؟ » •

ويهتف لامبير قائلا :

_ هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبنــــاء المجتمع الراقى فى سبيل المال !

ولكن الوقيحة لم تضطرب و هي انما تضحك لأنني مروَّع ٠ آه ! انها مستعدة للفدية ، و ٠٠ و ٠٠ ماذا يحدث في نفسي ! أصبحت لا أشعر بشفقة ، بل باشمئزاز ٠ وأرتعش كما لم أرتعش في حياتي من قبل ٠٠٠ واستولت على عاطفة أخسري لا سبيل الى وصفها ، عاطفة لم أعرفها في يوم من الأيام ، عاطفة قوية قوة الكون ٠ أصبحت لا أقوى على

الانصراف • لن أنصرف بحال من الأحوال • آه • • لشدما يسعدنى أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الحلاعة ! وهانذا امسك يديها • ان ملامسة يديها تهز نفسى هزا اليما • وهأنذا أقسرب شفتى من شفتيها الوقحتين ، القرمزيتين ، اللتين ترتجفان ضحكاً وتناديانى •

بعداً لهذه الذكرى المخزيه! سيحقاً لهذا الحلم اللمين! أحلف لكم أننى قبل هذا الحلم الدنى الم يراود خيلى أى شيء يشبه هذه الفكرة المخجلة! لا ي لم يراود خيلى شيء من ذلك حتى فى أحلام من هذا النوع بغير ارادة (وان كنت قد احتفظت و بالوثيقة ، مخيطة "فى جيبى ، وكنت أتحسسها من حين الى حين مبتسماً ابتسامة غريبة) و فمن أين جاءنى هذا فحاة ؟ جاءنى من أن لى نفس عنكبوت! أعنى أن هذا كله كان قائماً فى نفسى منذ مدة طويلة على حال بذرة ، وكان ناوياً فى قلبى الفاسق ، فكنت و أشتهى » ولكن قلبى كان الحجل لا يزال يصده ، وكان فكرى لا يحسر ، بعد من أن يتصور نبيئاً من هذا القبيل تصوراً واعاً و أما فى الحلم فان النفس قد عرضت كل واكان قائماً فى قلبى ، فجاءت هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة ، وكانت نبوءة و هل « هذا » ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين و ليت فى الصسماح من عند ماكار ايفانوفتش ؟ ولكن كفى! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين! ماكار ايفانوفتش ؟ ولكن كفى! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين!

الفصل الثالث

)



ثلاثة أيام نهضت في الصباح فشعرت فحاة ، حين وقفت على قدمي ، أنني لن ألزم السرير بعد اليوم ، لقد أحسست في كيساني كله باقتراب الشفاء ، لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن

تسليم + لقد تنالت أيام لم يحدث فيها شيء ذو بال ، ولكنها بقيت في ذاكرتي بتمامها شيئا هادئا فرحاً: هذا أمر نادر في ذكرياتي + لا أريد الآن أن أصف حالتي النفسية + فلو عرف القارىء ماذا كانت لما صداق + فالأفضل أن يبرز هذا من الوفائع فيما بعد + ولكنني بانتظار ذلك أفول : ليذكر القارىء ما هي نفس عنكبوت لدى لينذكر القارىء ما هي «نفس عنكبوت لدى السان يريد أن يتركهم ، «هم ، والعالم كله سعياً وراء « الجمال ، اصحبح أن ظمئي الى الجمال كان في ذروته ، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ الى الجمال مع أنواع أخرى من الظما يالها من أنواع ! ذلك ما يبقى لغزا أعجز عن حله + ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشني أن يستطيع عن حله + ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشني أن يستطيع وأدناً شيء في آن واحد ، صادقاً مع ذلك صدقاً كاملاً + هل مرد هذا الى « رحابة الفكر ، التي 'تعزى الى الروسي أم مرده الى حطة لا أكثر ؟

ولكن دعونا من هذا • المهمأنه كان ثمة هدنة • لقد أدركت أن على أن أسترد عافيتي بأي ثمن ، وبأقصى سرعة ممكنة ، لأبدأ العمل في أفرب وقت ، سخد الله قررت أن أعيش ملنوما قواعد الصحة ، وأن أطيع الطبيب (كيف كان) ، وأن أرجى و نيات الفتال والعدوان بكل حكمة (وهذه نموه رحابه الفكر) الى أن أخسرج ، اى الى ان اشفى و كيف امكن أن تتجمع مشاعر المسالم ومباهج الهدنه تلك كلها مع خفقات قلبى العارمة الجامحه الاليمة ألما لذيذاً ، ومع توجس الهراران العاصفة الهوجاء التى أزمع أن أتخذها ؟ لا أدرى و ولكننى أعزو ذلك الى و رحابة الفكر » وأصبحت لا أشسعر بالقلق الذي كنت أحسم من قبل و لقد أرجات أصبحت لا أشعر بالقلق الذي كنت أحسم من قبل وقته المعنين ، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من نصور المستقبل كما كنت أرتجف من نصور المستقبل كما كنت أرتجف من نصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضاً ، وانما أنا الآن أمام المستقبل رجل غنى وائق بما يملك من موارد وقوى و وكانت مشاعر الفطرسة والتحدي تجاه المصير ما تنفك تزداد ، ولعل ذلك يرجع قليلاً الى شيفائي الذي أصبح الآن واقعاً ملموساً ، والى انني استرددت طاقاتي الحيوية و ومازلت الى الآن أنذكر ، بكثير من الاتيارح والسرور ، تلك الأيام التي كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل ،

وكانوا قد غفروا لى كل شيء ، غفروا لى اندفاعتى المنيفة وأقوالى القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف! هذا ما أحبه في الناس ، هذا ما أسميه ذكاء القلب ، أو قل اننى افتتنت بهذا الوقف على الفور ، بعض الافتتان طبعاً ، فمع فرسيلوف مشلا ظللت أتحدث كما يتحدث صديقان قديمان ، ولكن الى حد لا نتجاوزه : فمتى أسرفنا في اظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث) ، أمسكنا عن الكلام كلانا فورآ ، وشعرنا بشيء من الحجل ، ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الحجل من المغلوب ، لا لشيء الا لأنه غلبه ، ولقد كنت أنا الغالب طبعاً ، فكنت أحمر من ذلك خجلا ،

وفي ذلك الصباح ، أعنى يوم ً نهضت عن سريرى بعد الانتكاس ،

جاء فرسیلوف الی معند انها علمت منه أول مرة ما کانوا قد تواطئوا علیه فی شان ماما و ماکار ایفانوفتش و قد أضاف فرسیلوف أن الشیخ تحسنت صحته ولکن الطبیب لا یضمن شفاه و فوعدته من کل فلبی بأن أکون فی المستقبل أکثر حدراً و ترویا و وحین کان فرسیلوف یروی لی هذا کله به لاحظت فجاة م أول مرة به کان هو نفسه قلقها علی الشیخ به وأن قلقه ینوق کثیراً ما کان یمکن أن أتوقعه من رجل مثله به ولاحظت أنه یعده رجلا عزیزاً به عزیزاً علیه هو به بغض النظر عن أمی و قد تساقی هذا الأسر به بل عزیزاً علیه هو به بغض النظر عن أمی و قد تساقی هذا الأسر به بل أدهشنی تقریباً و فأنا أعترف باننی لولا فرسسیلوف لفاتتنی أشیاء کثیرة ما کنت لاقدرها حق قدرها عند ذلك الشیخ الذی خلف فی قلبی ذکری من أقوی الذکریات وأبقاها وأکثرها أصالة و

وكان يبدو على فرسبلوف أنه قلق من علاقاتي بماكار ايفانوفتش ، أو قل انه كان لا يركن الى ذكائي ولا الى كياستى ، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أنني أيضاً قادر في بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع المسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف ، أى انني أسنطيع عند اللزوم أن أكون انسانا مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة ، وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسي فيما أظن) بأنني وجدت في هذا الانسان الآني من صفوف الشعب شيئاً جديداً على كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار ، شيئاً أجهله ، شيئاً هو أوضح كثيراً وأدعى الى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبي في فهم الأشياء من قبل ، ولكن كان يستحيل على مع ذلك ألا أغضب في بعض الأحيان حين كنت أراء يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها ايماناً هادئاً ويطمئن اليها اطمئناناً نابئاً لا يتزعزع ، على أن ذلك انما يرجع طبعاً الى نقص ثقافته ، أما نفسه فقد كانت في الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت نقص ثقافته ، أما نفسه فقد كانت في الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت

ان ما كان يعجذبني الله قسل كل شيء آخر ، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً ، حتى ليحس المرء أن له قلبًا بلا خطيئة تقريبًا • كان قلبه عامرًا « بالفرح ، ، وعامرًا اذن « بالجمال » • وكان يحب كلمة « الفرح » هذه حبًّا كثيرًا ، وكان يستعملها في كلامه كثيرًا • صحيح أنه كان ينتسابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضی ، نوع من حنان مرضی لعله يرجع الى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة • ولكن ذلك كان لا يمنع الجمـــال الروحي من أن يتألق فيه • وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة: فإلى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزنني)٬ كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصة ٌ في المناوشات الجدلية • كان يحب الجدال ، ولكنه يحبه بين الفينة والفينة ، ويحبــه على طريقتــه الحاصة • إن المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً ، وسمع كثيراً • ولكنني أعود فأقول انه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر ، ويحب اذن كل ما يؤدى الى الحنان ، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان • وكان يحب كثيراً أن يقص • لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن أسفاره ، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامي النساك • وهذه أمور لیست معروفة عندی أو مألوفة لی ، ولکننی أظن أنه کان یمزج بهذه الأساطير أشسياء مختلفة كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله شسعبنا بالرواية • كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً • ولكن الى جانب هذه التحريفات الواضيحة او التلفيقات البينة كان يشيع في قصصه الزاخرة بالعاطفة الشعبيه والمثيرة للجنان دائما ، شيء مضيء قوى راسخ ، لقد حفظت من قصصه ، مثلاً ، تلك الحكاية الطويلة التي تسمى ، حياة ماريا المصرية ، ، لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئا عن حياة ماريا المصرية هذه ، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً ، ولكنني أستطيع أن أقول بصراحة : انه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون أن تترقرق الدموع في عينيه ، لا بتأثير ما تثيره في النفس من حنان ، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة : ان المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء غريبة : ان المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء ما أريد أن أتكلم عنه ، ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على ما أريد أن أتكلم عنه ، ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على حال ،

ومما أعجبنى فى ماكار ايفانوفتش ، عدا الحنسان ، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة فى مسسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس فى عصرنا هذا ، ففى ذات يوم ، مشلا ، روى لى قصة حديثة عن جندى انتهت خدمته ، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً ، فقال ان هذا الجندى حين عاد الى بلده ، ووجد نفسه بين فلاحين ، لم يعجبوه ولا أعجبهم ، فأخذ الرجل المسكين بنقد صوابه شيئاً بعد شىء ، وأخفا يشرب ويسرف فى الشراب ، وقام ذات يسوم بعمل سلب ونهب ، ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة ، ولكنه اعتقل أتساء ذلك وحوكم ، وقد أخذ المحامى يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة ، فأذا بالرجل الذي كان يصغى الى دفاع المحامى ينهض فحاً فيقاطع المحامى قائلاً : « لا ، انتظر قليسلاً ، ، ثم طفق يروى الوقائع من أولها الى قائلاً : « لا ، انتظر قليسلاً ، ، ثم طفق يروى الوقائع من أولها الى آخرها ، ويعترف بذنبه باكيا تادماً ، فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة ، ثم عادوا يخرجون ليعلنوا بأن « المتهم برىء » ، فنعالت صيبحات

الفرح من كل صوب • ولكن الجندى بقى جامداً في مكانه كأنه استحال عموداً ، لأنه لم يفهم شيئاً ، لا ولا فهسم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه • وانصرف الجندي أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له • واستبد به الضجر ، وغرف في التفكير والتأمل ، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً • وبعد خمسة أيام شنق نفسه • قال ماكار ايفانوفتش خاتماً حديثه : « فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على ضمير المرء خطيئة » • صحيح أن القصة لا قيمة لها ، وأن أعمدة جميع الصحف في أيامنــا هذه تمتليء بحكايات من هذا النوع ، ولكن الشيء الذي أعجبني انما هو اللهجة • ومما أعجبني أكثر من اللهجة أيضاً ما كان يستعمله ماكار ايفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جــديدة حقــاً • من ذلك أنه حمين روى لي كيف لم يعجب الجندي الفسلاحين عند عودته الي القرية قال : ه معسروف ما الجندى : الجندى فلاح فسلم ، ؟ وحمين تكلم بعد ذلك عن المحامي الذي كاد يربح الدعوى قال أيضاً : « معروف ما المحسامي : المحامي ضمير للتأجير ، • لقد وقم ماكار ايفانوفتش على هذين التعبيرين عرضاً بدون أي عناء ، وبدون أن ينته هو نفسه اليهما • ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين ، وهو تصور أن كان لا يمثل رأى الشعب كله فانه يمثل رأى ماكار أيفانوفتش تمثيلاً واثماً • ان هذه الأحكام الجاهزة التي يصدرها الشعب في موضوع من الموضوعات تكون في بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً •

سألته في هذه المناسبة :

ــ ماكلر ايفانوفتش ، ما رأيك في خطيثة الانتحار ؟

فأجابني وهو يتنهد :

ــ الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الانسان • ولكن الرب هو الحاكم الوحيد ، لأنه وحده يعرف كل شيء ، مقاييس وحدوداً • وواجبنا نحن

هو أن ندعو الله لأمثال هؤلاء الخطاة الكبار • فاذا سمعت عن خطيئة كهذه الحطيئة ، فادع لمرتكبها دعاء حنوناً قبل أن تنام ، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه أن شفاعتك تكون أجدى أيضاً • _ هل ينفعه الدعاء وقد حكم علمه ؟

ما يدريك؟ ان ناساً كثيرين لا يؤمنون ، فيضلون من لا يعلمون ، فلا تستمع لهؤلاء ، فانهسم لا يعرفون الى أين هم ماضون ، ان صلاة مادرة عن انسان حى من أجل انسان ميت تعمل الى الرب فعملا ، ولكن ما عسى يصمير اليه من ليس له أحد يصلى من أجله؟ لذلك يجب عليك ، حين تصلى قبل النوم ، أن تضيف هذا الدعاء : « ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلى من أجلهم ، • ان هذا الدعاء أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلى من أجلهم ، • ان هذا الدعاء نافع جداً ، مبهج جداً • بل صل كذلك من أجل الحطاة الذين لا يزالون أحياء • قل « رب أنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل ، • هذا أيضاً صلاة حسنة •

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات ، لأنني أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً ، وقد سطع الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسي هذا المهد ، ولكن يجب على أن أسارع فأضيف أن ماكار ايفانوفتش كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر الى من على ، كناسك يخاطب مرهقا غراً ، بالعكس : كان يحب في كثير من الأحيان أن يصغي الى ، وأن ينصت الى كلامي بدون كلال في مواضيع شتى ، وكان يرى أنه اذا كان يتفوق على بالسن فانني أتفوق عليه كثيراً بالثقافة ، من ذلك مثلاً أنه كان يحب في أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك ، وكان يضع « عزلة الصحراء ، في منزلة أعلى كثيراً من منزلة « جوب الآفاق ، ، فكنت أوجه اليه اعتراضات شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم ، شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم ، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للانسانية من خير ، لا لشيء الا خلاص

أنفسهم • فلم يفهمني في أول الأمسر ، بل لعله لم يفهمني في لحظة من اللحظات ، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً : « ان المرء يشفق على نفسه في أول الأمر طبعاً (أي حين يستقر في الصحراء) ، ثم ينتبط يومًا بعد يوم ، ولا يزال يزداد اغتباطه الى أن يرى الرب آخر الأمر ، • فأخذت أصوِّر له تصــويراً كاملاً ما يقوم به السالم والطبيب وصــديق الانسانية عامة من عمل مفيد ، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة ، لأنه أخـــذ هو نفســه يتكلم عن هذا بحرارة ، وكان يؤيدني في بعض اللحظــات قائلاً : • تعم يا بني تعم ، باركك الله ، انك على حق ! ، • ولكنه ، حــين فرغت من كلامي ، لم يوافقني مــع ذلك موافقــة تامة ، وقال متنهداً تنهداً عميقاً : • هــذا كله حسن ، ولـكن هل هم كـُـــيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين ؟ اذا لم يكن المال الهاً فهو نصف اله • انه اغراء كبير • ثم هنــاك المرأة أيضاً • ثم مناك الشك ، ثم هنساك الحسيد . قاذا بالمرء ينسى القضية الأساسية ، ويمضى يهتم بالأمور الصغيرة • ولا كذلك في عزلة الصحراء • ففي عزلة الصحراء يقوى المرء نفســـه للقيــــام بجميع المبرات والأعمال المقلسة • نمم يا صديقي • أما في العالم فماذا يحدث ؟ ، ثم هنف يقول بعاطفة خارقة : الرمل الأصفر فوق الحصي فسسوف يتحقق حلمك في العالم • • • هــذا ما يقولونه عندنا • أما عند المسيح فيقال : • امض وزَّع ثروتك ، واجعل نفسك خادماً للجميع ، ، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة • ذلك أن الســعادة لا يصنعها الطعام وحـــده ، ولا الثيــاب الثمينة ، ولا الزهو والحسد ، وانما يصنعها حب لا نهاية له • ان ما ستكسب حينذاك ليس ثروة ضمئيلة ، ولا مائة ألف ، ولا مليوناً ، وانسا أنت ستكسب الكون بأسره ! تحن الآن تنجمع المال بدون شبع ، وتتلفه بنجنون • أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء ، لأن الجميع لى أنا ، لأن الجميع أقربائي، كسبتهم جميعاً ، اشترتيهم الى آخرهم • ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم ، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات • أما حين ذاك فان أيامك وساعاتك ستتضاعف ألف مرة ، لأنك لن تريد أن تضيع دقيقة صديرة واحدة ، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك • وعند ثد سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها ، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجها لوجه • وسوف تتألق الأرض عند ثد أكثر مما تتألق الشمس ، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه ، ولا يبقى الا جنة واحدة لا تقدر بثمن • • • • •

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يحبها فرسـيلوف فيما أظن حباً عظيماً • ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة •

قاطعت ماكار ايفانوفتش فجسأة لأقول وقد فارت حماسستى أنا أيضاً (اننى أتذكر ثلك السهرة) :

ــ ماكار ايفانوفتش ! ان ما تنادى به وتدعو اليه هو الشيوعية ، هو شيوعية حقيقية !

واذ كان لا يعرف أى شىء عن المذهب الشيوعى ، حتى انه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة ، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعى ، اعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض ، وأننى حتى الآن لست حجة فى هذا الموضوع ، غير أن القليل الذى كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شىء ، ماذال يسرنى أن أتذكر التأثر الخارق الذى أحدثته فى الشيخ ، بل أستطيع أن أقول ان ما أحدثته فيه لم يسكن تأثراً بل كاد يكون هزة ، وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية ، فكان لا ينفك يسألنى : «أين ؟ كيف من فعل هذا ؟ من قال هذا ؟ . .

وكنت قد لاحظت على كل حال ان هذه خاصة من خصائص الشعب : ان الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً ، لم يكتف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً • ولقد أربكتني التفاصيل وتهت في شيعابها ، وإذ كان فرسیلوف یستمع الی حدیثی ، فقد خجلت منه قلیلاً ، ولکننی الرددت من ذلك حماســة واندفاعاً • وأصبح ماكار ايفانوفتش في النهاية ، وقد ذاب حناناً ، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله : « نعم نسم » ، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهــم عنى ولا يتابع سلسلة حديثى • وقد ضابقني هذا ، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأة ٌ ، ونهض معلنــاً أنه آن أوان النوم • وكانت الأسرة كلهـا مجتمعة ، وقد طالت السهــرة • وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دفائق يلقى لخلرة على غرفتى أسرعت أسأله عن نظرته الى ماكار ايفانوفتش ، وعن رأيه فيــه عامة" . فضحك ضحكه فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية ، فانه لم يتكلم عن هذا الأمر) • أعود فأقول : ان فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار ايفانوفتش ، وكثيراً ما فاجأت على وجهــه ابتســامة فتانة حين كان ينصت الى الشبيخ • ولكن هذه الابتسسامة كانت لا تمنع النقد • بادر فرسيلوف يقول :

_ قبل كل شيء به ليس ماكار ايفانوفتش فلاحاً به وانما هو قن خادم كان أبوه قنا خادماً و فهؤلاء الأقنان الحدم كانوا يشادكون أسيادهم جوانب كثيرة من حيانهم الخاصة الفكرية والروحية به في العهد الماضي و لاحظ أن ماكار ايفانوفتش لايزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والارستقراطية و انك لا تعلم بعد مدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة و هل تعلم أنه شديد الاهتسام بالسياسة ؟ هذا وجل لا يكفيه أن تحكى له كلاماً عاماً ، وانما يجب عليك أن تذكر له كل شيء : من الذي قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً و و أنها عاماً و أنها على أن تنكر له كل شيء : من الذي قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً و و أنها على المناه على المناه و المناه على المناه و المن

ما أعظم البهجة التي هيأتهــا له في الماضي بأحاديث من هـــذا النوع! وهو يحترم العلم كثيرًا ؟ ومن بين جميع العلوم يفضيُّل علم الفلك • عــدا هـذا يجب أن تذكر أن له في الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها • ان له اقتناعات ثابتة وواضــحة ٠٠٠ ومخلصة ! ورغم جهله فانه قادر على أن يدهشك فنجــأة "بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها • هو يمدح لك عزلة الصمحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف في الصحراء بحال من الأحوال ، لا ولن يدخل الدير ، فانما هو خاصة" « متشرد ، ، كما ســماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمنوفتش الذى يجب أن أذكر لك في هذه المناسبة أنك تعخطيء اذا أنت آخذته وحقدت عليه • ماذا أيضًا ؟ هو كذلك فنان قليلاً ، له كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه • منطقه ليس سليماً كل السلامة • انه تارة " يسبح في عالم مجرد ، وتارة ينوص في عاطفية شديدة ، ولكن عاطفيته عاطفية شعبية صافية ، أو قل انها نوبات من ذلك الحنان الذي يتصف به شعبنا ويدخله في شعوره الديني ولن أتكلم عن نقساء قلبه وطيب نفســـه : فليس الحديث عن هــذا من شأتنا تحن ٠٠٠

كى أنتهى من رسم صدورة ماكار ايفانوفتش ، سأنقل الآن قصة من قصصه ، مستمدة من حياته الحاصة ، ان لقصص ماكار ايفانوفتش طابعا غريبا ، بل قل انها لا يجمعها طابع مشترك ، يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو التجاها عاما ، اللهم الا كونها مثيرة للحنان جميعاً ، غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة ، حتى ان بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سيخريات من بعض الرهبان الفاسدين ، وهذه قصص كلنت روايتها تسىء الى فكرته ، وقد نبهته أنا الى هذا ، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول ، وكان يصعب على المره أحياناً أن يحزر ما الذي كان يدفعه الى رواية هذه القصص ، حتى لقد استغربت منه هذا الاكتسار من الكلام ، فعزوته الى شيخوخته والى حالته المرضية ،

هسس فرسيلوف يقول لي يوماً :

_ ليس الآن كما كان في الماضى • ان وفاته قريبـــة ، انهـــا أقرب كثيرًا مما نظن • فيجب أن نكون متأهبين •

نسبت أن أقول ان « سسهرات ، مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنسده ؟ فعدا ماما التي كانت لا تترك ماكار ايفانوفتش ، كان يأتي فرسيلوف الى غرفته كل مساء ، وكنت آتي أنا أيضاً ، ولم يكن ثمة مكان آخر أذهب اليه على كل حال ؟ وفي الأيام الأخسيرة أصبحت تأتي ليزا في العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتغلل صامتة طول الوقت

تقريباً ؟ وكانت تاتى تاتيانا بافلوفنا ، وكان يجى الطبيب أيضاً ولكن مجيئه نادر ، ولا أدرى كيف رأيتنى أصبيح قريباً من الطبيب ، صحيح أننى لم أقترب منه كثيراً ، ولكننى على كل حال أصبحت لا أنور عليه كما كنت من قبل ، ان ما أعجبنى فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً ، ونوع من التعلق بأسرتنا ، فقررت أن أغفر له غروره الطبى ، وعلمته عدا ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره ، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك أمر لم أفلح فى أن أحمله عليه ، وقد أفهمته أننى لا أطلب منه هذا حرصاً على الأناقة ، وتعلقاً « بالفنون الجميلة » ، وانما أنا أطلبه منه لأن النظافة جزء من وظائف الطبيب نفسها مبرهناً له على ذلك بالحجة الدامغة ، وكانت لوكيريا تأتى من مطبخنا فى أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتة الى لوكيريا تأتى من مطبخنا فى أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتة الى ما يرويه ماكار ايفانوفتش ، وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس منا ، فأعجبنى منه هذا ، ولكنها انقطعت منذ ذلك اليوم عن المجى ، ان لها طبعها !

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكار ايفانوفتش وقع عليها اختيارى عرضاً لسبب واحد هو أتنى أحفظها أكثر مما أحفظ القصص الأخرى • هى قصة تاجر أظن أن مدنسا الكبيرة والصغيرة تجرى فيها آلاف من القصص تشبهها ، فيكفى أن تحسن النظسس حتى نسراها • وللقارى، أن يقفز فوق هذه القصة اذا شاء ، لا سيما وأننى أروبها ، بأسلوب صاحبها •

حدث هذا عندنا ، بمدينة آفيميافو . ســأحكى لكم الآن هــذه المعجزة • كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف ، مكسبم ايفانوفتش • لم يكن في المقاطعة أحد أغني منه • كان قد بني مصنع نسيج يشـّخل مثات من العمال • وهذا كبَّر رأس الرجل • ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامر. • وكانت السلطات لا تضع له العصى في العجلات • وكان الأرشمندويت يشكر له همنه وحماسته ، اذ كان يقدم للدير هبات كثيرة ، وكان في بعض الأحيان ، اذا بدا له أن يفعل ذلك ، يتكلم كثيراً عن الروح ، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة . وكان أرمل ، ولم یکن له أولاد . عن زوجته كانت تجرى شائمات تفول انه أساء معاملتها كثيرًا في الســنة الأولى من زواجهما ، مستعملاً فبضتي يديه في أكثر الأحيان • أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال • وكان يحب الشراب أيضًا • فاذا شرب رآء النــاس يركض في أرجاء المدينــة ثملاً ، خالماً ثنابه ، صارخاً ، والمدينة صفيرة ، فحميع الناس يعرف بعضهم بعضاً ٠ حتى اذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً ، كل وأى يراه فهو الصواب، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصمدره + مع الناس كان يصفى حساباته كما يشاء هواه • هاهو ذا يمسـك عدادته ويضـم نظارتيه ــ : « أنت يا فوما ، كم لك على ؟ ، فيجيبــ فوما : « لم أقبض شيئًا منذ عيد الميلاد يا مكسيم ايفانوفتش • لى عليك تسعة و ثلاثون روبلاً •• فيقول : « لا ، هذا كثير ! هذا كثير عليك ! أنت لا تساوى تسعة وللاثين

روبلاً • هذا لا يناسبك أبداً ! يعجب أن تخصـم عشرة روبلات • خذ • هذه تسـعة وعشرون ! • • قلا يقول فوما شيئاً • لا أحد يمكن أن يتفوه بكلمة • صمت عام •

- أنا أعرف كم يجب أن يدفع له • هذا هو النصرف الواجب مع هؤلاء الناس • الناس هنا فاسدون لولاى أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل • لماتوا كلهم بدون استثناء • أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص : عيونهم أكبر من بطونهم • وليس لهم قلوب تنحرك • زد على ذلك أنهم سكيرون : متى دفعت لهم راتبهم حملوه الى الحانة ثم لم يخرجوا منها الا عرياً لا يستر جسمهم شيء ، عرياً كدودة • ثم انهم أوغاد : اجلس على صخرة أمام الحانة واسمع أنينهم وشكواهم : « لماذا ولدتنى يا أمى العزيزة ، أنا السكير المسكين ؟ لماذا ولدت هذا السكير ؟ كان الأفضل أن تخنقيه منذ ولد ! ، • أهذا انسان ؟ بل هو حيوان لا انسان • يجب أن نربيه أولاً ، وبعد ذلك نعطيه مالاً • أنا أعرف متى يجب أن يعطى أحدهم مالاً •

هكذا كان يتكلم مكسيم ايفانوفتش عن أهل آفيميافو • لم يكن ذلك حسناً منه • ولكنه ليس وحده مخطئاً • كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون قوة الارادة •

وكان يوجد في تلك المدينة نفسها تاجر آخر ولكن هذا التاجر الآخر مات وكان شاباً وطائشاً وأفلس وفقد كل رأس ماله وكان في السنة الأخيرة يتخبط كسمكة على الرمل ولكن ساعته كانت قد حانت وكانت علاقاته بمكسيم ايفانوفتش شهجاراً مستمراً وكان مديناً له بمبالغ كبيرة وحتى وهو على فراش الموت ومان كان يلفظ أنفلسه الأخيرة وكان يلمن مكسيم ايفانوفتش ومات الرجل تاركاً زوجه شابة وأطفالا خمسة وأما أرملة ؟ سنونو بلا مأوى و هذه محنة فاسية ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم وكان كل ما بقى

لهم بيتا صغيرًا من خشب انتزعه مكسيم ايفانوفتش سداداً لديونه • واليكم ما فُعلته الأرملة : صَّفت أطفالها الحُمسة أمام باب الكنيسة : ان أكبرهم صبى عمره ثمانی سنین ؟ والأطفال الآخــرون كلهــم بنات صغیرات • كبراهن عمرها أربع سنين ، صغراهن لاتزال ترضع . فلما انتهى القداس ، خرج مكسيم ايفانوفتش من الكنيسة ، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس) ، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً ، وانحنت الأم الى الأرض وهي تحمل الطفل الخامس على ذراعيهـــا ، انحنت محيية مكسيم ايفانوفتش قائلة له على مسمع من جميع الناس : د يا سيدى الطیب مکسیم ایفانوفتش ، ارحم أطفالاً بتامی ، ولا تنتزع منهم آخر لقمة ، لا تطردهم من عش أبيهــم! » • جميع الذين رأوا المشــهد ذرفوا دموعاً • أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس • قدَّرت أن مكسيم ايفانوفتش لابد أن يخجل أمام الناس ، فيغفر ويرد البيت الى اليتامي • ولكن حدث غير هذا • وقف مكسميم ايفانوفتش وقال : أيتها الأرملة الشمابة ، أنت تريدين زوجاً ، وليس من أجل الأطفال تبكين • زوجك لمننى وهو على فراش الموت! ومضى مكسيم ايفانوفتش ولم يردُّ البيت • قال : « كيف تنطلى على " ألاعبيهم ؟ اذا أنت أكرمت اللئيم تمسرد ! لا يفيد هذا كله في شيء ، ولا يؤدي الا الى فوضي ! » • وكان يتناقل الناس في المدينة أن مكسيم ايفانوفتش ، قـــل عشر سنين ، قد عرض على هذه الأرملة التي كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال ، مبلغاً ضحماً من المال ، ناسياً أن هذه الخطيئة كخطيئة تدمير كنيسة من كتنائس الرب • ولسكنه لم يظفر منهما بشيء • وكان قد ارتك أعمالاً قذرة من هذا النوع في المدينــة بل في المقاطعة كلها • ولكنه في هذه المرة جاوز الحدود •

أخذت المرأة تعول مع صفارها • وطرد مكسيم ايفانوفتش الأيتام من البيت ، لا حبــاً بالشر فحسب ، بل لأن المرء في بعض الأحيــان يعجهل

هو نفسته سبب عنساده واصراره على فكرته • وقد هب معض الناس الى مساعدة الأرملة في السِداية ، ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً . ولكن ما عسى يجنى المرء من العمل عندنا في غير المصنع ؟ تفسسل أرضاً هنا ، وتعزن حديقة هناك ، وتوقد حماماً هنالك ، وعلى ذراعيها طفل يبكى وفي الشارع أربعة صغار يركضون عراةً الا من قميص ؟ حين أركعتهم أمام الكنيســة كانوا لا يزالون ينثملون أجذيتهــم الصــغيرة ، ويرتدون معاطفهم الصغيرة ، كأولاد التجار ، أما الآن فانهم يركضون حفاة ، تعلمون أن النياب تبلى بسرعة أجسسام الأطفال • وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون الى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع • هم في ذلك الفصل لا يحسون بالبؤس ، بل ينطلقون سمداء ، يزقزقون كالعصافير ، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة • كانت الأوملة تقول : « سنأتي الشتاء فما عساني صانعة بكم ؟ ، ليت الرب يأخـــذكم اليه ! ، ولكنها لم تضطر الى الانتظار حتى حلول الشـــتاء • انتشر في مقاطعتنا ســـعال أطفال ، السعال الديكي ؟ فكان يسرى من طفل الى طفل • فماتت البئت الرضيع أولاً ، ومرض الآخرون فماتت البنسات الأربع في ذلك الحريف نفســه • ولكن واحدة منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها في الشارع ٠ فماذا الذي تظن أنه حدث ؟ دفنت الأم بناتها باكبة معولة • كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت نم فلما أخسذهن الرب اليه ؟ طفقت تنتحب وتتشنج • مكذا قلوب الأمهات!

لم يبق لها الا ابنها البكر • فكانت ترتمش خوفاً عليه ، حتى لتكاد تختنق اختناقاً • وكان الولد نحيسلاً رقيقاً ، وكان له وجه لطيف كأنه بنت • مضت بالولد الى المصنع ، فعهدت به الى عرابه الذى كان مديراً • وذهبت هى تعمل خادمة فى ببت أحد الموظفين • وفى يوم من الأيام كان الولد يركض فى الحوش ، فاذا بمكسيم ايفانوقتش يصل راكباً عربته ،

وكان مخموراً كأنما بمصادفة • وكان الولد فد هبط السلم ، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته ، ووضع كلتا يديه على بطنه . فأمسك مكسيم شعر الولد ، وصباح يسأل : « لمن هذا الولد؟ هاتوا السمياط ! اجلدوه فوراً ، أماسي • ، كاد الولد أن يموت خوفًا ، وأخسلوا يجلدونه ، فكان يصرخ . قال مكسسيم : « تصرخ أيضسا ؟ اجلدو. الى أن يكف عن الصراخ! ، • جلدوه مزيدًا من الجلد ، الى أن أشرف على الموت فعلاً • فتوقفوا عن جلده ، وارتاعوا : أصبح الطفل لا يتنفس ، وظل راقداً مغشياً عليه • لقد قبل فيما بعد انه لم يجلد كثيراً ، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً . وارتاع مكسيم ايفانوفتش نفسه . وسأل : « لمن هذا الولد ؟ » · فقالوا له من هو • فقال : ﴿ هَكُذَا أَذَنَ لَا أَحْمَلُوهُ أَلَّى أَمَّهُ • مَاذًا جَاءً بِهُ الَّيّ المصنع يسرح فيه ويمرح ؟ ، • وبعد يومين سأل : « ما أخبار الولد ؟ » • وكانت الأخبار سيئة : كان الولد مريضاً ، راقداً في ركن عند أمه ، لأن أمه تركت عملها في هذه المناسبة • كان الولد مصاباً باحتقان في الرثة • قال مكســيم : وعجيب ! لماذا ؟ انه لم 'يضرب كثيراً • وانما 'خو َّف تحويفــاً فحسب ، لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته ، فلم يحدث شيء ٠ ، • وكان يتوقع أن تشسكو المرأة أمرها الى القضماء • فكان يتكبر ويتعالى • ولكن أنتَّى للمرأة أن تشتكى ! لم تجرؤ • عندتذ أرسل اليها خمسة عشر روبلاً ، وأوفد لها طبيباً • فعل هذا لا لأنه كان خاتفاً ، بل فعله هكذا ، بعد تفكير . ثم أصابته نوبة اقبال على الحمر ، قلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع •

وانقضى النستاء • حتى اذا كان الفصح ، سسأل فى يوم العبد مرة أخرى : « ما أخبار الولد؟ ، • لقد صمت طول النستاء لايسأل أبدآ • فيل له : « الولد شفى ، وهو عند أمه ، والأم تعمل خادمة فى النهار ، • ذهب مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة ، ولكنه لم يدخل البيت ، بل استدعاها

الى المدخل ، وبقى فى عربته ، قال لها : « اسمعى ايتها الارملة المحترمة ، اننى أريد لابنــك الحير ، أريد أن أكون المحسن اليه ، وأن أغدق عليه نعمى بغير حدود : آخــنه الى منزلى منذ اليوم ، فاذا أعجبنى قليــلا تركت له مبلغاً كبيراً ، واذا أعجبنى اعجـاباً تاماً جعلته وريشى بعد موتى وتركت له كل ثروتى كأنه ابنى ، ولكننى أفعل هذا بشرط واحد : أن لا تجبئى الى بيتى أبداً ، الا فى الأعيــاد الكبيرة ، قال هذا واتصرف ، وبقيت الأم كالمجنونة ، سمع الناس كلام مكسيم ، فقالوا للأم : « حين كبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ ، ، فظلت يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ ، ، فظلت الأم تبكى ابنها طول الليل ، حتى اذا طلع الصبح اصطحبته الى مكسيم ، فكان الولد أقرب الى الموت منه الى الحياة ،

ألبِسه مكسميم ايفانوفتش كما يلبس سيد صمعنير ، وأسمتأجر له معلماً ، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة ، أصبح لا يحوُّل عنه بصره ، ويجلسه الى جانبه دائماً • فمنى تثاءب الطفل انبرى يقول له : « خَذَ كَتَابًا وادرس ! أريد أن أجعلك رجلاً » • ولكن الولد كان ضعيفًا هزيلاً منذ المرة الأولى ، منذ 'جلد بالسياط . وكان يسمعل . فكان مكسيم ايفانوفتش يقول مدهوشاً : « اذن فالحياة عندى لا تروقه • كان عند أمه يركض حافي القدمين ، ولا يأكل الا كسرات خبز ، ثم ها هو ذا الآن أنسـد هزالاً مما كان ، • فقال له الملم : • الأطفال يحتاجـون الى الركض ، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله في الدرس ، فلابد لهم من الحركة ٠٠٠ ، • شرح له ذلك كله مدعوما بالحجيج • فقال مكسيم ايفانوفتش : « ما تقوله حق » • المعلم هو بطرس ستيبانوفتش حفظه الله • رجل طيب يشبه أن يكون « مجذوبا ، • كان يحب الشراب ، بل كان يسرف قليلاً في الشراب ، لذلك طرد من جميع الوظائف التي عين لها ، فكان يعيش على الصدقات تقريبًا • ولكنه كان دماغًا كبيرًا ، كان قويًا في العلوم • حتى لقد كان يقول بينه وبين نصمه : « هذا ليس مكاني ، فانما يجب أن أكون استاذاً بالجامعة • أما هنا فأنا في الوحل « حتى صارت ثيابي تتقزز مني ، • وهذا مكسيم ايفانوفتش ينادى الطفل صارخاً فيقول له: « هياً اركض ، ، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس أمامه • حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته • فأخل يرتجف • فازدادت دهشة مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل ، وألبسته ناعم الثياب ، مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل ، وألبسته ناعم الثياب ، ونعلته بأحسن الجلد ، وجعلت له قميصاً مطرزاً ، وعاملته كما يعامل ابن جرال ، ثم هو لايزال غير متعلق بي ! ما باله ينظر الي كما ينظر صدور أي منه عن مكسيم ايفانوفتش • ولكن الناس عادوا يدهشون : انه مرتبط بالولد أشد الارتباط ، لا يستطيع أن يفارقه ، ولا يعرف ماذا يتخيل من بالولد أشد الارتباط ، لا يستطيع أن يفارقه ، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله • وكان يقول : « اني أفضال أن أأسنق على أن أعجل عن تغير طبعه • لقد لمنني أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس • انه صورة أبيه ! » •

لم يجلده مرة واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى) وكان الطفل مروَّعاً بدون جلد ، فما الحاجة الى جلده ؟

حيثة حدث الحادث ، فغى ذات يوم ، بعد أن خبرج مكسيم من الغرفة ، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسى ، اذ كانت كرته قد وقمت على خزانة ملابس ، فأداد أن يلتقطها ، ولكن كمه اشتبكت بمصباح من الخزف كان على الحزانة ، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة ، دورً م صوت سقوط المصباح في المنزل كله ، وكان المصباح تحفة ثمينة من خزف ساكس ، سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من المغرفة الثالثة ، فأخذ يزأر ، ذعر الولد ذعراً شديداً ، وأسرع يولى هارياً الى الشرفة ، ثم اجتمال الحديقة ، وخرج من الباب الحلفي حتى هارياً الى الشرفة ، ثم اجتمال الحديقة ، وخرج من الباب الحلفي حتى

صار على رصيف النهر • كان هناك شارع تزينه شجيرات مزهرة + مكان رائع الجمال • وهرع الولد الى الماء ، ورأه النــاس ، حتى اذا صار على حافة النهر ، في الموضع الذي ترسو فيه معدية ، باعد ذراعيــه ، تم لمله خاف من الماء فيقي جامداً في مكانه • المكان عريض ، والنهر سريع ، والقوارب تممر ؟ وفي الجهة الأخسرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قياب من ذهب يسطم • وفي تلك اللحظة كانت الكولونيله فرتسنيج تهبط نحو النهر مع ابنتها • كان بمدينتنا كتيبة مدفعية • وابنــة الكولونيلة صبية في الثامنة من عمرها هي أيضماً ، ترتدي فستاناً أبيض • نظمرت الى الولد وضحكت • وكانت تحمل بدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ • قالت لأمها : « انظرى الى الصبي كيف يتطلع الى قنفذى يا ماما ، • فقالت الأم : « لا بل هو خائف من شيء ما • لماذا تبدو خائفاً هذا الحوف الشديد أيها الصبي اللطيف؟ ما أحسن ثبيابه! من أنت يا ابني؟ ، (هــذا ما ر'وي فيما بعد) • ولم يسكن هو قد رأى تنفذاً من قبسل • فاقترب ونظسر • نسى ما كان فيه . هكذا الأولاد! قال يسأل: « ما هذا الذي معك؟ » . أجابت الآنسة : « قنفذ • اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده في الغابة ، • قال الصسي : « وما القنفذ؟ ، • وضحك • وأراد أن يلمسه باصبعه ، فانتفش القنفذ ، وضحكت البنت ، وقالت : « سمنأخذه الى البت فنوُّ نسه ، • قال الصبي ، اعطيني قنفذك! ، طلب منها ذلك هكذا ، بلطف • ولكن ما ان أنهى جملته حتى كان مكسيم ايفانوفتش يصرخ من أعلى : « آ . . . هذا أنت ! أوقفوه ! » (كان مكسيم قد بلغ من شمدة الغضب أنه خــرج من البيت بدون قبعــة) • تذكر الطفل كل شيء ، وصرخ ، وثقدم نحو الماء ضامًا يديه الصغيرتين الى صدره ، ونظر الى السماء (رأوه ينظر الى السماء) ، وألقى نفسه في النهــر • فتعالى الصراخ في كل صوب ، واندفع ناس من المعدية يلقون أنفسهم في النهر عسى أن ينتشبلوه ، ولكن الماء كان قد جرفه ، فالنهــر سريع ، حتى اذا أخــرجو. كان قد فارق الحياة • لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره • لم يحتج الى وقت طويل سحنى يموت • ما يسسمع الناس فى بلادنا فبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً • خطيئة كبرى ! ما عساها تقول للرب فى السماء ، هذه النفس الصغيرة ؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم ايفانوفتش يفكر في المسألة • وتبدلت حاله ، حتى صار المرء ينكره ولا يعسرفه • حزن حزناً كبيراً • وأخـــذ يشرب • أُخذ يشرب كثيراً • ثم انقطع عن الشراب : لم ينفعه شيء • وانقطع أيضــاً عن الذهاب الى المصنع • وأصــبتح لا يصغى الى أحد • اذا كلموه لم يجب ، أو حرك يده مشيراً الى أنهم يضجرونه • وانقضى شهران ، ثم صار یکلم نفسه . صار یسیر وهو یکلم نفسه . وشبت النیران . في قرية فاسكوفا ، بقرب المدينة ، فالتهمت تسمة بيوت ، ذهب مكسيم الى الحريق ليرى • أحـــدق به المصابون وأخذوا ينتحبون : فوعد بأن يمد اليهم يد المعونة ، وأصدر أمر. بذلك ، حتى اذا رجع الى بيته استدعى وكيله وألغى كل ما وعد به ، قائلاً له : ﴿ لَا تَعْطُهُمْ شَسِينًا ، ،ولم يذكر السبب • قال يحدث نفسه : • ان الرب خلقني شيطاناً ، وجعلني بلية ً لسمائر البشر ، فليكن ذلك ! وقد طاوت سمعتى في النماس سريمة كالربيح » • وجامه الأرشمندريت بنفســـه في يوم من الأيام : انه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة • قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية : د ما هذا السلوك الذي تسلكه ، ، فأجابه مكسيم : « هكذا ! ، وفتح له كتاباً واشار له الى فقرة من الكتاب :

« من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخبر له أن يعلَّق فى عنقه حجر الرحى و'يفرق فى لجة البحر ، (انجيل متى ، الاصلحاح الثامن عشر ، ٦) .

قال الأرشمندريت:

... نعم ، هذا لم 'یذکر فی هذه المناسسیة ، رغم أن تمسة علاقة . ما أشقی الانسان الذی یتجاوز الحدود! انه یضیع نفسه . وأنت قد أسرفت فی الارتفاع .

تصلب مكسيم ايفانوفتش ، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس • قال له الأرشمندريت :

الرياح ، و و و الناس الله و الله الله الله الله و السائس المحملة الرياح ، و و الكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيع ، الذي والكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيع ، الذي تخدمه الملائكة ، ثم انك لم تشأ موت ذلك الطفل ، كل ذنبك أنك كنت منهوراً قليل التبصر والتروى ، غير أن هناك ما يملأ نفسى دهشة : لقد سسبق أن ارتكبت سسيئات كثيرة أخرى ؛ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين مستجدين ، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم ، ما أكثر الذين دفعتهم المستجدين ، ما أكثر الذين قعتهم ! وأولئك البنات الصغيرات ، وأخواته ، ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً ؟ فلماذا ينفرد هو بادخال الاضطراب الى نفسك ؟ أتراك نسبت جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها والندم عليها ؟ ما بالك ترتاع هذا الارتباع الشديد كله لموت هذا الطفل الذي لم تكن أنت مسئولاً عن موته كل المسئولية ؟

تمتم مكسيم ايفانوفتش يقول:

ــ لأننى أراه فى المنام •

_ ثم ماذا ؟

ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء ، وظل صامتًا • فدهش الأرشمندريت وانصرف : لا فائدة ! عندئذ أرسل مكسيم ايفانوفتش من يستدعى له المعلم ، يطرس سيتبانوفتش • انهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث •

قال له:

- _ مل تنذكر ؟
 - ـ أتذكر •
- ــ سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم ، وأنك تنسخ الآن صورة للمطران • هل تقدر أن ترسم لى لوحة " بالألوان ؟
- ـ نعم ، أقدر انني أملك جميع المواهب ، وأقدر على كل شيء •
- ارسم لى اذن لوحة ، أكبر لوحة ممكنة ، لوحة تحتل الجدار كله ، ضع فيها النهر ، والمنحدر ، وجميع الناس الذين رأوا المسهد ، ضمع الكولونيلة وابننها والقنفذ ، وارسم الشاطىء الآخر كله بحيث يراه الناظر كما هو : الكنيسة والميدان والدكاكين والمكان الذي ترابط فيه العربات ، ارسم كل شيء كما هو في الواقع ، وارسم الولد أمام المدية ، على ضمفة النهر ، في ذلك المكان نفسمه ، واجعل يديه مضمومتين الى صدره ، وأمامه ، على الشاطىء الآخر ، 'شق" السماء ، وصو"ر جميع الملائكة في النور السماوي وهم يطيرون الى لقائه ، هل تقدر أن ترسم هذا ؟
 - _ أقدر أن أفعل كل شيء ٠
- اسمع ، أستطيع أن استقدم أكبر رسام من موسكو وحتى من لندن ، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك ، غير أنك ، أنت ، تنذكر وجهه ، فاذا جاحت صورة وجهه لا تشبهه ، أو لا تشبهه شبها كافياً أعطيتك خمسين روبلاً ، أما اذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك ماثتى روبل ،

تذكر عينيــه الصيغرتين الزرقاوين ٥٠٠ ولتــكن اللوحــة أكبر لوحــة ممكنة ٠

وأبرما اتفاقهما • وأخــذ بطرس ســـتيبانوفتش يعمل ، ولكنه جاء الى التاجر يقول له في ذات يوم :

- ــ لا سبيل الى رسم ما ذكرت
 - ـ لاذا ؟
- َ لَأَنَ هَذَهُ الخَطِيئَةُ ، خطيئَةُ الانتحار ، هي أكبر الخَطايا جميعاً ، فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة ؟
 - ـ لكنه طفل . ليس مسئولاً .
- ۔ لا ، لم یکن طفلاً صغیراً کان قد بلغ سن الرشد کان عمر ثمانی سنین حین حدث الحادث • فو مسئول قلیلاً رغم کل شیء •

ازداد مكسيم ايفانوفتش ارتباعاً • قال :

.. وجدت حــلاً : لاتشق الســماء ولا ترمـــم ملائكة ، حســبك أن تسقط عليه من السماء شعاعاً • هذا شيء على كل حال •

فعل الرسماء ما تخيله مكسيم ايفانوفتش و أسقط على الطفل شماعاً من السماء وقد رأيت اللوحة بنفسى ، فيما بعد ، مع الشعاع والنهر الأزرق ، رأيتها تغطى الجدار كله و كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه الصغيرتين الى صدره ، وكان فيها الآسة الصغيرة والقنفذ ، كان فيها كل شيء و ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يسمح لأحد برقية اللوحة : أغلق عليها مكتبه بالمفتاح و هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة ، مكتبه بالمفتاح و تكلم الناس في الأمر كثيراً و وتغيرت حال بطرس سيبانوفتش حتى لكأنه شخص آخر و أصبح يقول لنفسه : وأنا الآن أقدر على كل شيء و مكاني الذي استحقه هو البلاط في بطرسبرج و ، وان بطرس ستيبانوفتش من أحب الناس الى القلب و ولكنه كان يحب أن

يعظم نفسه كثيراً • وسرعان ما وافته منيته : فانه بعد أن قبض الماثتي روبل و هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهياً ، فقتل ذات ليلة تملا ً • قتله يورجوارى كان يشرب معمه ، وأخمذ ماله • واكتشف هذا كله في الصياح •

اما تتمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك : في ذات يوم جاء مكسيم الى الأرملة راكياً عربت و كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً في آخر المدينة و وقد دخل هذه المرة الى فناء البيت و وتسمسر أمام المرأة ثم حياً ها منحنياً حتى الأرض و وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك الأحداث كلها ، فهي لاتكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً وقال لها : « تعالى أيتها العزيزة ، أيتها الأرملة المحترمة ، تعالى تزوجيني رغم أنني شيطان رجيم ، رديني الى القدرة على الحياة و نظسرت اليه المرأة لا حية ولا مينة وقال لها : « أريد أن يسكون لنا صبي صغير آخر ، فاذا أولد لنا صبي آخس ، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا ، أنا وأنت وهو الذي أمرني بذلك و ، و لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه هو الذي أمرني بذلك و ، و مع ذلك لم تطق صبراً فقالت له :

ـ هذه سخافات وحقارة • بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صغارى • لا أستطيع حتى أن أراك أمامى ، ناهيك عن أن أحـكم على نفسى بمشـل هذا العذاب الى الأبد ؟

المصرف مكسيم ايفانوفتش ، ولكنه لم يهدأ ، 'ذهلت المدينة كلها من هذه المعجزة ، أرسل مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة نساء" يتشفعن له عندها ، واستدعى من بلده عمتين له ، قد تكونان عمتيه وقد لا تكون عمتيه ، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال ، أى امرأتان لهما وزن وقيمة ، أخذت النساء تنصحها ، وتمدحها ، ولا تخرج من عندها ، وأرسل أيضاً أشحاصاً من المدينة : أرسل تجاراً ، وامرأة

الأرشمندريت ، وزوجات موظفين ، المدينسة كلهما راحت تتقرب منهما وتتزلف اليها ، ولكنهما احتقرتهم جميعاً ، كانت تقول : « لو كان هذا يبمث يناماى أحياء فقد أقبل ، أما وأنهم لن يبشوا فعلام أفعل ؟ اذا رضيت لأثمت فى حق أولادى الينامى ! » ،

وقد استطاع مكسيم ايفانوفش ان يحمل الارسمندريت نفسه على الشفاعة لديها ، فقال لها الأرشمندريت : « سوف تخلقين منه انسانا جديداً » • فارتاعت • وكان الناس يدهشون من سلوكها : « كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة ؟ » • واليكم الطريقة التي استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة : قال لها : « لقد قتل نفسه رغم كل شي • ولم يكن طفلاً صسغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان في سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف • فهو اذن مسئول عن خطيئة الانتحار بعض الشي • • فاذا تزوجتني تذرت لأبنين كنيسة جديدة لترتاح تفسه راحة أبدية • » • أذعنت المرأة لهذه الحجة ، وارتضت أن تتزوج مكسيم ايفانوفتش ، وتم الزواج •

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج • لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول في وثام كامل صادق ، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً ، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين • وحملت المرأة في ذلك الشناء نفسه ، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب • وذهبا الى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات • وقام مكسيم ايفانوفتش ببناء الهيكل الذي وعد ببنائه ، وأنشأ في المدينة مستشفى وملجأ • ووهب جزءاً من تروته لأوامل ويتامى • وتذكر جميع أولئك الذين أساء اليهم ، وحاول أن يرد اليهم ما اغتصبه منهم • ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال ، حتى ان امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصداه عن ذلك : « كفي ! ما فعلته كاف » • وانصاع مكسيم ايفانوفتش • لكنه قال : « لقد غششت فوما مرة " » •

ورد الى فوما حقه • وذرف فوما دموع التأثر ، وقال : « لاداعى الى هذا ••• أخذنا منك كنيراً ، فنحن شا درون لك فضلك الى الابد ، • وتشيع جميع النهس بهذه الروح • حقاً ان الانسسان يتأثر بالقدوة الصالحة • ان الناس فى بلدنا طيبو القلب •

وتولت الزوجة ادارة المصنع ، بلغت من حسن ادارتها أن الناس يزالون يتذكرون ذلك ، ولم ينقطع هو عن الشراب ، لكنها كانت تراقبه ، وحاولت أن نشفيه ، وأصبحت أحاديثه رصيبة حتى لقد تغير صسوته ، وصسار رحيما رءوفا حتى بالحيوانات : في ذات يوم رأى من نافذته رجلا يضرب حصانه بالسوط ، فأرسل من يشترى الحصان بضعفي ثمنه ، ووهبت له القدرة على البكاء : قفيما هو يتكلم مع أحد الناس ، تغرق عيناه بالدموع فجأة ، ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فرزقهما غلاماً ، فاذا بمكسيم ايفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذي أصابه ، ووزع صدقات كثيرة ، ورد ديوناً كثيرة ، ودعا المدينة كلها الى حفلة التعميد ، ولكن وجهه كان في الغد مكفهراً ،

ورأته زوجته مهموماً ، فجاءته بالوليد وقالت له : « ان ابنى غفر لنا ، فدموعنا وصلواتنا أثرت فى قلبه ، • يبجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السئة • وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه • نظر مكسيم ايفانوفتش اليها مظلم الوجه كالليل ، وقال لها : « اسمعى • انه لم يجثنى طول هذه السئة • ولكننى رأيته فى الحلم الليلة» وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما انتابها من شعور حبنذاك فقالت : « عندما سمعت هذه الكلمات الغربية ، نفذ الرعب فى قلبى ، •

لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم في الحلم • وما ان نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الولد في تلك اللحظة نفسسها • ودام مرضسه ماتية أيام > فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع ، واستدعوا له الأطباء •

حنى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب • وقال الطبيب غاضياً : د اننى أكبر طبيب ، وموسكو كلها تنظرنى • ووصف للمريض قطرات دواء وأسرع عائداً الى موسكو ، بعد أن قبض تمانمائة روبل • ومات الطفل فى المساء •

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ترك مكسيم ايفانوفتش نروته كلهــا لزوجتــه العزيزة ، ستَّلمها جميع أمــواله وأوراقه ، متنــازلاً لها عن ذلك كله وفقأ للأصول المرعية والأنظمة الشرعية ء ثم وقف أمامها وانحنى يحييها حتى الأرض ، وقال لها : « يا زوجتى ، يا أغلى ما في الحيـــاة عندى ، دعني أمضى لانقاذ روحي ما دمت أملك الآن سبيلاً الى ذلك • فاذا قضيت هذا الوقت دون أن أظفر بطائل ، فلن أعــود ، لقد كنت قاسي القلب ، ولقد سمت الآخرين سوء العذاب • ولكننى أظن أن الآلام التي سأتحملها في المستقيل ، وحيساة التجواب التي سأعيشها ، قد تشفع لي عنسد الرب فيهب لي رحمتــه ، ذلك أن ترك هذا كله ليس صلبيًا صـــــغيرًا ولا ألمَّا صغيرًا • ، • حاولت زوجته أن تثنى عزمه بالدموع • قالت له : د ليس لى قلبي في هذه السنة للمحبة والحنان ، • وظلت المدينة كلها تنصحه خلال شهر كامل • تضرعوا اليه ، قرروا أن يحتجزوه بالقوة • ولكنه لم يصغ الى أحد • وتسلل فعجأة في ذات ليلة ومضى ثم لم يعد • يقال انه لا يزال الى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العــذاب ، ويزور امرأته الغالية مــرة" كل شهر ه

الفصب ل*السدا*بع ١

أصل الى الكارثة النهائية التى تختنم هذه المذكرات. ولكننى قبل أن أواصل الكنابة أرانى مضطراً الى أن استبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه فى حينه وانما أنا عرفته وأدركته بعد ذلك بمدة



طويلة ، أى بعد أن انتهى كل شىء ، واذا لم أفسل ذلك فلن يكون حديثى واضحاً ، بل سيكون ألغازاً لا 'تفهم ، ومن أجل هذا التوضيح التمهيدى سوف أضحى فى سبيل الوضوح والايجاز بكل ما يسمى الارة فنية أو تشويقاً فنياً ، فكأن الذى يكتب ليس أنا ، وكأن قلبى لا يشارك فيه أية مشاركة ، سيكون ما أقوله غير شخصى ، فهو أشبه ، بمقالة صغيرة ، فى جريدة ،

كان في وسمع رقيق طفولتي ، لامبير ، أن ينتمي انتماء تاما الى عصابة من تلك المصابات الرهبية التي تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون على القيام بما يطلق عليه إليوم اسم « الابتزاز » وما يقع الآن تحت طائلة المقوبة في بعض مواد القانون المدني • والعصابة التي شارك لامبير في أعمالها بعض المشاركة انما تكونت بموسكو ، وارتكبت عدداً كبيراً من المكائد (واكتشف شيء من أمرها في النهاية) • وقد علمت فيما بعد أن أعضاءها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسمع أعضاءها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسع الحبرة جداً ، ليس بالغبي ، وليس بالشاب اليافع ، وانما هو رجل متقدم في السن • وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعة واحدة في بعض

الاحيان أو ينفذونها زمراً زمراً في أحيان أخرى • وعدا الجرائم القذرة الكثيرة التي ارتكبوها (والتي تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد ، ماكرة أشـــد المكر • وقد عرفت بعض هــذه الأعمال فيما بعد • لكنني لا أحب أن أدخــل في التفاصيل • فحسبي أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم في العمل : انهم يحاولون أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً في بعض الأحيان ، وتكون لهم في المجتمع منزلة عالية • فاذا عرفوا هـــذه الأسرار ذهبوا الى أولئك الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهي وثاثق ليست في حوزتهـــم أحيانًا ﴾ ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم • ان حناك أسوراً لا توجب العقاب ، وليس فيهـا شيء من اجرام ، ولكن أشرف الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها • وكان أفراد العصابة يستغلون الأسرار العائلية في أكثر الأحيان • فمن أجل أن أبيِّين للقارى مدى الحذق والمكر فيما كانسوا يقومسون به من أعمسال ، مسأروى مكيدة من مكائدهم ، دون أن أدخـل في التفاصـيل • لقد حدث في أسرة كريمة من الأسر شيء يؤسف له حقاً ، بل شيء يمكن ان يوصف بأنه جريمة ، وهو أن زوجــة رجــل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غنى شاب • وقد ترامي هذا السر الى علم أفراد العصابة ، فاليكم ما فعلوه : ذهبوا الى الشماب وهددوه بأنهم سيبلغون الزوج • لم يسكن لديهم أى برهان • ولكن كل حذقهم في اللجوء الى استعمال هــذا الأسلوب وكل براعتهم في الحساب انما يقومان على أن الزوج ، اذا بلغه الأمر ، ولو لم يكن هناك براهين ، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعــة ، وسيتخذ الاجراءات التي يتخذها من توفرت له الأدلة الدامنـــة • فهم قد بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة • وكان بين أفراد العصابة شاب من المجتمع الراقى استطاع أن يحصل سلفًا على معلومات مفيدة • فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال ، دون أن يتعرضوا

من ذلك لأى خطر ، لأن الضابط الذى وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهتم الا بكتمان الأمر •

ان لامبير ، رغم مشاركته في أعمال تلك العصابة المسكوبيه ، لم يكن ينتمى اليها انتماء تاماً ، لكنه وقد استطاب هذه الصنعة ، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً ، يجب أن أبادر فأقول انه لم يكن قادراً على السير في هذا الطريق كل القدرة ، صحيح أنه لم يكن غبياً ، وصحيح أنه كان حيسوباً ، ولكنه كان شديد الاندفاع ، وكان عدا ذلك مسرفاً في البساطة أو قل في السناجة : فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع ، أظن مشلا أنه كان لا يدرك الدور الذي يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو ، فكان يتخيل أن ادارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً ، وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جبناء مثله ، فاذا لاحظ مثلاً أن فلائاً من الناس خاف في ظرف خاص ، تخيئل مثله ، فاذا لاحظ مثلاً أن فلائاً من الناس خاف في ظرف خاص ، تخيئل أنه سيخاف في كل ظرف لأنه جبان ، كان هذا عنده بديهية من البديهيات ،

أحسب اننى لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله • وهـذه الأمـور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد • ولكننى أعتقد أن لامبير كان سىء الخلق ^ع فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة ، بل لا يخطر له وجودها على بال •

وقد جاء الى بطرسبرج لأنه كان يتحلم منذ مدة طويلة بأن مجال العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو ، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج ، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضمر له أسوأ النيات ، فلما وسل الى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى ، ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة ، ثم اتسعت دائرة معارفه ، ولكنه لم يصل الى ثمرة ، وقد قال لى فيما بعد:

« الناس هنا خرق بالية وصبية صسغار لا أكتر » و هاهو ذا في ذات صباح » عند طلوع النهار » يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار » ثم يكتشف مما قلته اثناء هذياني انه وقع على « قضية هامة جداً » يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة » أو هذا ما قد ره .

لقد استخرج هذه القضسية كلهما مما رويته له حين كنت أتدفأ في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً • فمن كل ما أفلت من لسماني ذلك اليوم كان يتضح أن الاهانة الكبرى انما وقعت على من بيورنج ، ومنها « هي ، : والا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جــرى لى عند تسرشتشكوف • ولكنني لم أهذر الا في الأمر الأول r وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامبير نفسه • ثم انني كنت متحمســاً ، وكنت في ذلك الصـــاح الرهيب أعد لامبير وآلفونسسين منقذين ومحرِّرين • وحين تساءلت بعد ذلك ، أثناء نقاهتي ، وأنا لا أزال في السرير : ما عسى عرف لامبير من أحاديثي ابان الهذيان ۽ والي أي مدي أفضيت اليه بأسراري ، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة ! صحيح أنني كنت أقدُّ ر ــ وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخسدت بخناقي ــ أنني قد أكثرت من الكلام حتماً ، ولكن أعود فأقول انني لم يدو في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله ! وقد أمَّلت أبضًا _ وكنت أعوَّل على هذا _ أن أكون قد عجـنزت في ذلك الوقت ، بسبب ضعفي روهني ، عن النطق بكلام واضع • وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً • ولكن تبُّين في الواقع أنني قلت كلامًا أوضح كثيرًا مما كنت أقدُّر وأؤمل • ولكن المهم أن مذا كله لم يتكشف لى الا بعد مدة طويلة ، وذلك كان سبب بلاثمي •

استطاع لامبير أتناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماني وحماساتي وما الى ذلك ، استطاع أن يعرف أولاً : جميع الأسماء تقريباً ، وحتى بعض العناوين ، معرفة دقيقة ، واستطاع ثانياً أن يكتّون لنفسه فكرة قريبة من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز ، بيورنج ، هي ، آنا آندريفنا ، وحتى فرسيلوف) ، واستطاع أن يعرف ثالثاً أننى 'أهنت وأننى هد دت بالانتقام ، واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن فى حوزتى وثيقة سرية مخبأة هى وسالة يكفى أن 'يطلع عليها أمير عجوز نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بعخط بنته التى تصفه فى هذه الرسالة بأنه مجنون وتستشير فيها أناسا من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً عليه ، فاما أن يجن نهائياً واما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث أو يتزوج آنسة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له بنزوجها ، الحلاصة أن لامبير عرف أشياء كثيرة ، ولا شك أن هناك أن هناك أشياء كثيرة ، ولا شك أن هناك أن يعرف كثيرة بقيت غامضة فى ذهنه ، ولكنه قد أمسك بالخيط ووضع قدمه فى الطريق ، وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين انستطاع أن يعرف عنوانى فورآ (بأبسط وسسيلة : مكتب العناوين) ، نم أسرع يجمع عنوانى فورآ (بأبسط وسسيلة : مكتب العناوين) ، نم أسرع يجمع المعلومات اللازمة ، فعرف أن جميع الأشحناص الذين سميتهم موجودون فعلا ، فبادر عند كذا الى القيام بأول مسعى ،

كان الشيء الأسماسي هو أن هنساك وثيقة ، وأن الوثيقة في حوزتي أنا ولم يخامر لامبير أي شك في أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة وهنما أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجيء ذكره الى أن يحين وقته ولكنني أشير الى أن هذا الظرف قد عزز اقتناع لامبير بأن الوثيقة موجودة فعلا وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالا ان الظرف كان حاسما ، ولم يسكن في امكاني أن أتخيله في ذلك الوقت ، حتى ولا الى آخسر القصة ، أي الى اللحظة التي انهار فيها كل شيء دفعة واحدة واتضح من تلقاء نفسه) وحتى اذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مفي يزور آنا آندريفنا قبل كل شيء و

لايزال هنالك لغز بحبِّيرني : كيف استطاع هذا الرجل ، لامبير ،أن

يتسلل فيصل الى انسانة صعبة الماخذ رفيعة مثل انا اندريفنا ؟ صحيح أنه حصل على معلومات ، ولكن ما قيمة هذا لا وصحيح انه الان حسن الهندام وأنه كان ينكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرنسى ، ولكن كيف لم تدرك آنا آندريفنا على الفور أنه وبش ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوبش نفسه هو الذى كانت محتاجة اليه فى ذلك الوقت ؟ هل هذا ممكن ؟

لم أشأ في يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذي تم بينهما و ولكنني تصورت المسهد بعد ذلك سراراً كثيرة و أغلب الغلن أن لامبير منذ البداية ، قد مثل بأقواله وحركاته ، دور صديق الطفولة انقلق على رفيق عزيز و وأغلب الغلن أنه أشار في الوقت نفسه اشارة واضحة الى الوثيقة ، التي في حوزتي ، وأنه أقهسم آنا آندريفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره ، هو لامبير ، وأنني أعوال على هذه الوثيقة للانتقام من الجنرالة آخماكوفا ، الى آخسر ما هنالك و واستطاع خاصة أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمة عظيمة ، شرحاً فيمه كل ما يجب من دقة ، وكانت آنا آندريفنا في ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها قيمه الا أن تنصت اليه بانتباء شديد و والا أن تعلق بالفغ – انقياداً لدافع « الصراعمن أجل البقاء » و شديد و والا أن تعلق بالفغ – انقياداً لدافع « الصراعمن أجل البقاء » و

كانوا ، فى ذلك الأوان نفسه ، قد انتزعوا منها خطيبها ، ونقلوه الى تساركويا تحت الوصاية ، ووضعوها هى نفسها تحت الوصاية ، ثم اذا بحظ موات يعرض لها : فالأمر الآن ليس أسر نمائم يهمس بها همساً ، ولا أمر شكاوى ترافقها دموع ، ولا أمر أقاويل ووشايات ، انما الأمر الآن أمر وسالة ، رسالة مكتوبة بالحط ، أى برهان قاطع على سوء ما تضمره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة ، وما يضمره جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مشل هذه النيات ، هو برهان قاطع على أنه بنبغى

للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب ، وأن يجىء اليها هى انا آندريفنا ، وأن يتزوجها فى غضسون أربع وعشرين ساعة ، والا أودعوه مستشفى للمجانين .

ومن الجائز أيضما ألا يمكون لامبير قد عمم الى المكر مع هذه الآنسة دقيقة واحدة ، وانما قال لها فجأة منذ أول كلمة : « يا آنسة ، اما أن تبقى عانســـاً ، واما أن تصبحى أميرة ومليونيرة : هنــــاك وثيقة ، سأستلمها من ذلك الشماب ، وأسلُّمها اليك ٠٠ فهماتي ثلاثين ألفاً ، ٠ بل انبي لأظن أن هذا هو ما حــدث • نمم ، لقد كان لامبير يتصور جميم الناس أوغاداً مثله • أكرر مرة ً أخسرى أن لامبير يتصف بما يتصف به الوغد من سذاجة ، وبراءة • ومن الجائز جداً كذلك ، أن آنا آندريفنا لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة ، وعرفت كنف تسطر على نفسها سيطرة تامة ، وكيف تصغى الى الرجــل المبتر الذي يتكلم بلغته اصغاء كاملاً ، وذلك بفضــل « رحابة الفكر » • ولعلها احمـــرت في أول الأمر قلملاً ، ولكنه تجلدت وأنصت الى النهاية • ما أوضح الصورة التي أتجيلها لهذه المرأة الصعبة المأخذ ، ذات الكبرياء ، الرصينة حقاً ، التي تملك فكراً واسـماً ، وهي تمد يدها الى يد رجــل مثل لامبير ! نعم ٠٠٠ فكراً واسماً! فكراً روسياً بعيد الأفق ، شغوفاً « بالرحابة ، ، هو الى ذلك فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف •

سألخص الآن : لقد كان لامبير ، في يوم خسروجي بعد المرض ، يقف الموقفين التاليين (الآن انما أعسرف هذا معسرفة اليقين) : فهو أولا يريد أن يطلب من آنا آندريفشا تلاثين ألف روبسل على الأقل ، ثمنا للوثيقة ، وهو يريد ثانياً أن يسسساعدها في تخويف الأمير ، واختطافه ، وتزوجه فوراً ، أو في شيء من هذا القبيل ، حتى لقد تم وضع خطة مقردة ، ولكن تنفيذ الحطة ينتظرني أنا ، أي ينتظر الوثيقة ،

ولكن لامبير كان فى ذهنسه مشروع آخــر أيضاً ؟ هو أن يحنون آنا آندريفنا ، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوفا ، اذا كان ذلك يعود عليه بربح أكبر ، وفى هذه الحالة يكون التعويل على بيورنيج ، ولكن لامبير لم يكن قد لقى الجنرالة بعد ، وانما هو يتتبع خطاها ، وهنا أيضاً يجب انتظارى أنا ،

آه ٥٠٠ ما كان أسد حاجت الى " ، لا الى " أنا ، بل الى الوثيقة ! وكان لامبير يتصور أن يتبع معى احدى خطتين أيضاً ، فأما الحطة الأولى فهى ، اذا لم يمكن سلوك سبيل آخس ، أن نتعاون معا ، فنتقاسم الربيح بعد أن يكون قد استولى على " جسماً وروحاً ، وأما الحطة الثانية ـ وهى نغريه اغراء " أشد ـ فقوامها أن يغر و بى كما يغرر بصبى صغير ، فيسرق منى الوثيقة ، أو ينتزعها منى عنوة "وقسراً ، وكان يحب هذه الحطة الثانية ويداعبها في أحلامه ، أكرر مرة " أخرى أن ثمة ظرفاً معينا كان يجعله لا يشك في نجاح هذه الحطة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت يجعله لا يشك في نجاح هذه الحطة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت أنى سأشرح هذا الظرف فيما بعد ، ومهما يكن من أمر ، فقد كان لامبير ينتظرنى نافد الصبر ، فكل شيء متوقف على " : المساعى التي يحب أن يختارها ،

ويجب أن أنصفه فأقول: انه رغم نفاد صبره قد سيطر على نفسه الى اللحظة الأخيرة • فلم يجى • الى أثناء مرضى أبداً ، ولكنه مر " بالبيت مرة " وكلم فرسيلوف • لم يرهقنى ، ولم يخفنى ، حتى لقد ظل " الى ساعة خروجى يظهر عدم المبالاة • وكان على يقين من أننى لن أكلم عن الوثيقة أحداً ، ولن أسلمها الى أحد ، ولن أتلفها بحال من الأحوال • لقد استطاع أن يستخلص من أقوالى نفسها في بيته أننى أحتفظ بالوثيقة سراً مكتوماً ، بل أخاف أن يفتضع أمرها • وكان لا يشك في أتنى متى شفيت فسيكون هو أول من أسعى الى أحد

قبله • وقد عادتنى داريا أونيسيموفنا تنفيذاً لأوامره ، فكان يعلم أننى خانف وأننى احترق شموفاً الى معرفة ما حدث ، وأننى لن أصمد • • • وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير ، واستطاع أن يطلع حتى على اليوم الذى سأخرج فيه ، بحيث لا يمكننى أن أفلت منه ولو أردت •

ولكن اذا كان لامبير ينتظرني ء فلقد كانت آنا آندريف تنتظرني أكثر منه أيضــاً • ويجب أن أقول بصراحـــة ان لامير كان على حق في تأهبه لحياتتها والغدر يها ، وكان الذنب في ذلك ذنبها هي ، فرغم تفاهمهما المحقق (وأنا أجهل صمورة ذلك التفاهم ، لكنني أعـرف أنه حدث) ظلت آنا آندريفنا الى آخــر دقيقة لا تلتزم في تعاملها معه جانب الصراحة التامة ، ولم تكشف عمَّا تضمره كشفاً كاملاً • وانما هي تكتفي بالأشارة والتلميح • لقد لمُّحت له بسكل أنواع الموافقية ، ولمحت له بكل أنواع الوعود ، ولكن كلامهـا كان تلميحاً فحسب • لعلهـا أصفت الى جميع تفاصيل خطته ، ولكنها لم توافق عليها الا بالصمت • ان هناك أسباباً قوية تدفعني الى الاعتقاد بهذا • وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت « تنتظر ني ، • لابد أنها كانت تفضُّل أن تتعامل معي على أن تتعامل مع وغد مثل لامبير ؟ وهذا أمر بديهي ومفهوم • ولكن المصيبة هي أن لامبير أدرك ذلك أخيرًا • فلو أخــذت آنا آندريفــا الوثيقة مني بالاتفاق ممي رأســــاً ، لألحق ذلك به خســــارة كبيرة • وكان هو مقتنماً بضــخامة « الصفقة ، • ولو كان غيره في مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك • ولكن لامبير شاب ، وجرىء ، وظامىء الى الربح السريع ، ولا يعرف البشر كثيراً ، ويتصور قلة الشرف في جبيع الناس • فليس في وسع انسان مثله أن يشك ، لا سيما وأنه قد حصل من آنا أندريقنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه •

ثمة أمر آخر له شأن كبير : هل كان فرسيلوف ، في ذلك اليوم ،

يعرف شيئًا ما ؟ هل كان يشسارك لامبير فى بعض الخطط ولو من بعــد ؟ كلا ، ثم كلا ! انه فى « ذلك الوقت » لم يــكن يشارك بعد • لعل كلمةً طائشة قد أفلتت منه • ولكن كفى كفى ! حسبى استباقًا للأحداث !

ثم ماذا عنى أنا ؟ هل كنت أعرف شميثاً يوم خروجي ؟ لقد ذكرت حين بدأت بكتــــابة هذه الزاوية من حديثي أنني كنت يـــوم خــروجي لا أعرف شسيئًا ، وأننى عرفت كل شيء فيما بعد . هذا صحيح . ولكن هل صحيح كل الصحة ؟ الحق أننى كنت أعرف شيئًا ما ، بل كنت أعرف أشــياء كثيرة • ولكن كيف ؟ فليتذكر القارىء « حلمي » الذي رأيته • من نفسي في هذه الصــورة ، فان هذا يدل على أني كنت لا أزال أجهل أموراً كثيرة ، ولكنه يدل على أنني كنت « أتوجس ، هذه الأمور ، كما يستدل على ذلك مما شرحت هنا من أشياء لم أعرفها في الواقع الا بعد أن كان قد « انتهى كل شيء » • صحيح أنني كنت لا أعلم شيئًا علم اليقين " ولكن قلبي كان يخفق بتوجسـات تتنبأ بما ســبحدث ، وكانت الأرواح الشريرة قد غزت أحلامي واستولت عليها • ذلكم هو الرجل الذي هرعت اليه وأنا أعرف من هو ، وأوجس جميع التفاصيل • لماذا هرعت اليه ؟ تخلِوا أنني ، الآن ، في هـذه اللحظـة ، وأنا أكتب هذه الأسـطر ، يبـدو لى أننى منــذ ذلك الحين ، كنت أعرف ، بأدق التفاصــيل ، لماذا سعبت اليه مسرعاً ، رغم اننى فى واقسع الأمسر لم أكن أعرف شسيئاً كما سبق أن ذكرت ذلك • قد يفهـم القارىء عنى هذا الكلام • ولننتقل الى الوقائع ، ولنذكرها بعضها وراء بعض •

بدأ كل شيء هكذا : قبسل خسروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربة "أشد الاضطراب • كانت منزعجة "انزعاجاً شديداً • لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق •

سبق أن أشرت الى صلاتها بفاسين • لقد ذهبت اليه لا لتسِّين لنا أنها في غير حاجة الينا فحسب ، بل لأنها كانت تقدره فعلاً • كانا قد تعارفا بمدينــة لوجاً • وقد لاح لى دائمــا أن فاسين ليس غير مكترث بها وكان طبعاً ، وهي فيما هي فيه من شميقاء ، أن ترغب في طلب النصيح من انسان يملك عقلاً راجحاً ، ويتمتع بالهدوء ، ويتسم بسمو النفس ، وهذا كله كانت تفترضمه في فاسين • ثم ان النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يحبهن • حتى لقد يرين في المفارقات الغريسة آراء سديدة ، منى جاءت تملك المفارقة مطابقة لرغاتهين • ولقد كانت لبزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأسر ، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى • واذ كانت من جهــة أخــرى تحس بما يحمله لها من عواطف ، فقد كان يستحيل عليهما ألا تحترم فيمه تقديره لمنافسمه والأمير ، حين باحت له هي نفسها بأنهــا تستشــير فاسين أحيــاناً ، أحس بقلق شدید ، وشعر بغیرة قویة علیها • فجـــرح هذا شــعور لیزا . وأصبحت تواصل زيارة فاسين منعمدة ً منذ ذلك الحين • فسكت الأمير ، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه • وقد اعترفت لي لنزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يسجيها • لقد كان

هادئا ، وهذا الهسدو، المستمر المطرد الذي أعجبها كيراً في البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك ، صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً ، وأنه أسدى اليها فعلا بعدد من النصائح التي يوهم ظاهرها بأنها نصائح رائمة ، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبدين بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها ، وكان في بعض الأحيان ينظر الى الأمور نظرة مسرفة في التمالى ، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء ، وقد عزت هي ذلك الى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه ، وفي ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقائي ويحدثني حديث الند للند وغم تفوقه على في الفكر (وهي بذلك قد أبلغته كلماتي نفسها) ، فما كان منه الا أن أجابها بقوله :

_ ليس الأمر ما تظنين ، بل هو أبسط من ذلك كثيراً • فأنا لا أرى أى فرق بينه وبين سائر الناس • ولا أعده أغبى من الأذكياء ولا أسوأ من الأخيار • لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة ، لأنهم في نظرى متمائلون لا يختلف بعضهم عن بعض •

- _ كيف؟ لا ترى بين الناس فروقاً؟
- بلى ان الناس يختلف أحدهم عن الآخسر في هذه النقطة أو تلك ، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها في نظرى لأنها لا تتعلق بي ولا شأن لى بها هم عندى متسساوون جميعاً والأمور كلها تستوى عندى وذلك هو السبب في أننى أعامل الناس كافة معاملة حسنة
 - ۔۔ ولا تضجر من هذا ؟
 - ـ لا ، أنا راض عن نفسي دائماً
 - ــ وليس لك رغبات ؟
- ـ بلي ، ولكن رغبـاتي ليست كثيرة ، لست في حاجـــة الى شيء ،

أو لا أكاد أكون في حاجمة الى شيء ، لست في حاجمة حتى الى روبل واحد زيادة على ما معى • يستوى عندى أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا • الملابس الذهبية لا تضيف الى فاسمين شيئا • والطعام الفاخر لا يغرينى • وهل المناصب والأمجاد تساوى قيمتى ؟

لقد حلفت لى ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً • والحق أتنا قبــل أن تقطع برأى ، يجب أن تعرف الظــروف التى قيلت فيهــا هذه الكلمات •

ان تسامع فاسين تجاه الأمير (وهو تسامع افتنعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع الى ما يحمله لها من عاطفة ، وانما يرجع الى قلة الاكتراث التى يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال الى نوع من سخرية فيها احتقار ، وقد أحنق هذا ليزا ، ولكن فاسين أمعن فيه ، وكان يعبر عن آرائه دائماً برقة ولطف ، بل كان يتهم ويدين بغير اظهار شىء من الاستياء أو الامتعاض ، وانما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تاقه لا قيمة له ، وفي هذا المنطق انما كانت تثوى السخرية ، وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير « يجافي المقل ، ، وأنها تمكره نفسها عليه اكراهاً وتقسرها عليه قسراً ، وختم كلامه قائلاً : « لقد ضلت في عواطفك ، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالاصلام حتماً ، » ،

حدث هذا في ذلك اليوم ، وقد استاءت ليزا، وتهضت لتنصرف ، فما الذي فعله واستنتجه هذا الانسان العاقل ؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل ، وحثى بعاطفة! فما كان من ليزا الا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبى أحمق! قالت له ذلك وجهاً لوجه ، وخرجت ،

أن يعرض على امرأة أن تخون انسانًا شقيًا لأن هذا الاتسان الشقى

« لا يستحقها » ، وأن يعرض هذا على امرأة حيلى من هذا الاسسان الشقى ، ذلكم هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين ! اننى أسمى هذا انحباساً فى النظريات وجهلاً مطلقا بالحياة مرد الى زهو وغرور ، وقد أدركت ليزا ، من جهة أخسرى ، ادراكاً واضححاً كل الوضوح ، أن اعتزاز فاسين باقدامه على هذا العرض انما يرجع الى معرفته بأنها حامل ، وسرعان ما ذهبت الى الأمير وقد فاض دمعها استياء واستنكاراً ، فاذا بالأمير بنفوق على فاسين سخافة ، كان ينبغى له ، بعد الذي قصته عليه من أمر فاسين ، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها ، ولكن نقيض هذا هو ما حدث ، فقد طاش صحوابه عند لذ تماماً ، وكذلك شأن جميع الغيورين على كل عملا القد شاجرها شجاراً عنيفاً ، وصد عرأسها تصديما رهيباً ، وأتخن شمورها بالجراح وأهانها حتى أوشكت أن تقطع كل عملاقة لها به على الغور ،

ومع ذلك رجعت الى البيت كاظمة عيظها مسيطرة على نفسها ، ولكنها لم تستطع الا أن تبوح لأمها بما حدث • فذاب الجليد ، وعادت المرأتان الى سابق عهدهما ، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل ، وبكت كل منهما في ذراعي الأخرى على عادتهما ، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وان ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس • وفي المساء بقيت جالسة عند ماكار ايفانوفتش دون أن تغادر الغرفة • وأصغت كثيراً الى ما كان يقوله ماكار ايفانوفتش • انها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل ، وان ظلت قليلة الكلام •

ولكن ماكار ايفانوفتش قد غير الحديث في هسذه المرة تغييراً غريباً لم يكن في الحسبان • يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا في الصباح عن صحته ، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق • ويجب أن أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذي سسيكون موعده بعد خمسسة أيام تماماً ، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال • ففي هذه المناسسية اندفع ماكار ايفانوفتش يستعيد ذكرياته فجسأة ، وتذكر طفولة ماما ، أيام د كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد ، • قال : « كنت لا أتركها أبداً • وكنت أعلمها المشى : أضعها في ركن على بعد ثلاث خطوات منى ، ثم أناديها ، فتجناز الغـرفة مترنحـة بلا خوف ، ضاحكة ، وتركض الى ً ، وترتمي بين ذراعی ، وتقبل عنقی • ثم کنت أقص علیك حكایات یا صوفیا آندریفنا ، اذ كنت تحشقين الحكايات عشقاً • كانت تبقى على ركبتي ساعتين ، تصغى الى • وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون : • انظروا ما أشد تعلقها بماكار ، أو كنت أمضى بك الى الغــابة يا صوفيــــا آندريفنــــا ، فأعشر على شميرة عليق ، فأجلسك هناك ، ثم أصنع لك صفارة من خشب . حتى اذا ارتوينــا من النزهة ، عدمًا الى البيت والطفل ناثم على ذراعى • وفي ذات يوم ، خافت من الذئب ، قارتمت على مرتجفة مرتعـــدة ، ولم يكن ثمة ذات •

- _ قالت ماما:
- ـ هذا أتذكره !
- ـ تنذكرينه ؟ لا يمكن ٥٠٠٠
- ـ بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً •
- وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً :
- ــ كلما أوغلت فى تذكر الماضى وأيتــك ووأيت ما كتت تحمله لى من حب وحنان •

انتظر ماكار ايفانوفتش لحظة " ثم قال :

۔ وداعاً یا اُولادی ^{نم} اُنا راحل ۰ الآن حان حینی ۰ لقد وجدت فی سیخوختی عزاء عن جمیع آلامی ۰ شکراً یا آصدقائی ۰

هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر :

ـ دعك من هذا الكلام يا ماكار ايفاتوفتش ، يا عزيزى . لقد قال لى الطبيب منذ قليل ان صحتك تحسنت تحسناً كبيراً .

وكانت أمى تصغى الى الحديث مرتاعة •

قال ماكار ايفانوفتش مبتسماً :

_ وما 'يدرى صاحبك الكسندر سيمينتش ؟ صحيح انه لطيف ، ولكن هذا كل شيء و أم تراكم تظنون يا أصدقائي أنني خائف أن أموت ؟ في هذا الصباح ، بعد أن تلوت صلاتي ، راود قلبي احساس بأنني لن أخرج من هنا حيا و أحد قال لي هذا و هيا ! تباوك اسم الرب ! ولكنني أتعنى لو أظهل أراكم جميعاً وكان أيوب المعذب يتعزى عن آلامه برؤية أحفاده الجدد ، ولكن هل كان يسي أولاده السابقين ، وهل كان يستطيع أن يساهم و كلا و ذلك مستحيل ! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما مضت السنون ، ثم يستحيل الى زفرة سعيدة و هكذا تجرى الأمور في هذا العالم : كل نفس 'تمتحن وتتعزى و

وأردف ماكار ايفانوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة جميلة لن أنساها ما حييت :

۔ قررت یا اُولادی اُن اُقول لکم کلمۃ ، کلمۃ لا اُکثر ۰۰۰ ثم التفت نحوی فجأۃ وقال :

ـ أنت يا عزيزى ، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة ، ومت في سبيلها اذا دعا الداعي .

ثم أضاف يقول ضاحكاً :

- ولكن انتظر • لا تخف ! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن • انك اليوم لا تفكر في هذا الأمر ، وقد تفكر فيه في المستقبل • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : اذا أردت أن تفعل خيراً ، فافعله في سبيل الله ، ولا تفعله انقياداً لنزوة • كن رابط الجأش صلب العود ، ولا تدع لنفسك أن تسترسل في أنواع من الجبن • ولكن تمهل في عملك ، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً • ذلك هو كل ما انت في حاجة اليه • شيء آخر : تعود أن تعلو صلاتك كل يوم حتماً • أقول لك هذا عرضا ولعلك تتذكره في يوم من الأيام •

ثم التفت الى فرسيلوف فقال له :

لك أيضاً يا آندره بنروفتش ، يا عزيزى ، أريد أن أقول بضع كلمسات ، ان الرب سيهدى قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حمال ، لقد كفننا عن الكلام فى ذلك الأمر منذ مدة طويلة ، منذ أن نفذ ذلك السهم فى قلبى ، أما وأننى الآن راحمل فأحب أن أذكرك ، بالوعمد الذى قطعته لى على نفسك حنذاك ،

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه ، وأردف يقول : فهتف فرسلوف متأثراً وهو ينهض :

- ــ ماكار ايفانوفتش ! .
- طیب طیب ، لا تضطرب یا عزیزی ، ما هذه الا ذکری ...
 ان أكبرنا انما أمام الله فی هذه القضیة هو أنا ، كان ینبغی ألا أسمح
 بما حدث رغم أنك كنت مسولای ، فلا تضطربی أنت أیضاً یا صوفیا نم

لا تدعى لنفسك أن تسرف فى الاضطراب ، لأن الاثم اثمى أنا ، ولأننى أعتقد أنك كنت فى ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين •

هنا ابتسم ماكار ايفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم • نم تابع كلامه فقال :

- كان يمكننى يا زوجتى أن ألفنك درســـا فى ذلك الحين ولو باستعمال العصا ، بل كان يجب على أن أفعل ، ولكننى أشفقت عليك حين ادنميت أمامى باكية ، واعترفت لى بكل شىء وأنت تقبلين قدمى " . ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذة ، ولكننى أريد أن أذكر آندر، بتروفتش ، و وانك يا عزيزى لتذكر عهد الشرف الذى قطعته على نفسك ، ان الزواج يستر كل شىء ، أقول لك هذا أمام أولادى ، . .

كان ماكار ايفانوفتش منفعلاً الى أقصى حدود الانفعال ، وكان ينظر الى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد ، أكرر أن هذا كله لم يكن فى الحسبان ، فبقيت جالساً على كرسيى بلا حراك ، وكان فرسيلوف لا يقل عنه انفعالاً بل يزيد عليه : وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبلها ، وها هى ذى ماما تتقدم من ماكار ايفانوفتش ، صامتـة كذلك ، فتحييه بانحناءة شديدة ،

الجلاصة أن المشهد كان يبعث في النفس أشد التأثر • ولم يكن بالغرفة في هذه المرة غريب ، ولا تاتيانا بافلوفنا • وكانت ليزا منتصبة الجذع فوق كرسيها تصنى صامتة • فهاهى ذى تنهض فجاة ، وتقول لماكار ايفانوفتش بلهجة ثابتة قوية : باركنى أنا أيضاً يا ماكار ايفانوفتش ، لأتحمل المحنة الكبيرة التى تنتظرنى • غداً يتقرر مصيرى كله • فادع اليوم لى •

قالت ليزا ذلك وخرجت • اننى أعرف أن ماكار ايفانوقتش كان على

علم بآمر ليزا ، فقد أطلعته ماما عليه ، ولكننى فى ذلك المسب ، رايت فرسيلوف وماما أول مرة مساً ، أما فبل ذلك فلم أكن أرى الى جانب الا عبدة ، ثمة أشياء كنيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذى كنت قد أدنته ، لذلك رجعت الى غرفتى مضطرباً ، يجب أن أذكر أننى فى تلك اللحظة نفسها قد تكانفت شكوكى فيه مزيداً من التكانف ، انه لم يبد لى فى يوم من الأيام أقرب الى السر واللغز مما يبدو لى الآن ، ولكن هذا هو كل القصية التى أكتبها : ولسوف يأتى كل شى، فى حينه ،

قلت محدثاً نفسى وأنا أرقد على سريرى : « لقد قطع لماكار ايفانوفنش على نفسمه عهد الشرف ليتزوجن أمى متى ترمنَّلت • ولكنه لم يقل لى شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمنى عن ماكار ايفانوفتش ، •

فى الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار ، فلما عادت كان الوقت مناخراً ، فمضت الى غرفة ماكار ايفانوفتش رأساً ، وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما ، ولكننى لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت ، كانت ليزا جالسة بجانب الشيخ تبكى على كتفه ، وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه ،

وقد شرح لی فرسیلوف (فی غرفتی بعد ذلك) أن الأمیر یلیج علی أن يتزوج ليزا متی أمكن ذلك ، حتی قبل صدور قرار المحكمة ؟ وأن ليزا مترددة لمّا تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق فی التردد تقريباً وكان ماكار ايفانوفتش و يأمرها ، أيضاً بأن تتزوجه و هذا كله كان يتبغی أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا علی الزواج من تلقاء نفسها أخيراً ، بلا تردد ولا أوامر ، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذي تحبه قد أهانها المانة شديدة ، وآن حبها يذلها حتی فی تظر نفسها ، فكان يصعب عليها

أن تعزم أمرها • ولكن هنــاك شـــيثاً غير الاهانة ، قد تدخل في الموضوع وما كان ليخطر لي بيال •

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة :

ـ هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس ؟

فهتفت :

- _ ماذا ؟ درجاتشیف ؟
- ــ نعم وفاسين أيضاً •

'ذهلت ، ولا سيما من سماع اسم فاسين •

ـ هل له دخل فى شىء؟ ما عساهم يصنعون بهم! وباه! ويحدث هذا فى الوقت الذى تشتكى فيه ليزا من فاسين! ما عسى يحدث لهم فى رأيك؟ يميناً ان لستيبلكوف يداً فى الأمر!

قال فرسیلوف وهو یرشقنی بنظـرة خاصـة ، کما ینظر الی امری، لا یغهم شیئاً ولا یحزر شیئاً :

دعنا من هذا الآن ! ما أدرانا بما وقع ، وما يدرينا بما سنيصنع بهم ؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله : لقد علمت أنك تريد أن تخرج غدا ، فهل تذهب الى الأمير سرجى بتروفتش ؟

سأذهب اليه قطماً ، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسى وتؤلمنى ،
 أعترف بذلك • هل تريد أن أنقل اليه شيئاً على لسانك ؟

ــ لا ، لا شيء • سأراه بنفسي • انني أرثمي لحال ليزا • أية تصيحة يستطيع ماكار ايفانوفتش أن يسديها اليها • انه هو نفسه لا يدرك شيئًا لا من أمور الناس ولا من أمور الحياة ! شيء آخــر يا عزيزي (كان منذ مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتي بقوله : « يا عزيزي ») • ان في القضية

أيدى عدد من الشبان ٠٠٠ أحدهم رفيقك القديم لامبير • يخيل ً الى ً انهم جميعاً أوغاد رهيبون ٠٠ أردت تنبيهك فحسب ٠٠ هذا شـأنك وحدك • أنا أعلم أننى ليس من حفى أن ٠٠٠

فرأيتنى أمسك يده فجأة دون أن أفكر ، مدفوعاً الى هذا بما يشبه الحماسة والالهام ، كما يحدث لى كثيرا (وقد حدث هذا كله فى ظلام كامل) ، ورأيتنى أقول له :

- آندره بتروفتش ، لقد صمت أنا حتى الآن ، وأنت تعرف لماذا صمت ، صمت لأتحاشى أن أندخل فى أسرارك التى قررت ألا أطلع عليها فى يوم من الأيام ، اننى جبان ، اننى أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار من قلبى انتزاعاً تاماً ، وذلك ما لا أريده ، أفلا ينبغى لك والحالة هذه أن تماملنى بمثل ما أعاملك به ، فتتركنى وشانى أمضى حيث أريد ! أليس هذا صحيحاً ؟

فقال لی و هو پترکنی :

ـ انك على حق • ولكن أرجوك : لا تزد على هذا كلمة واحدة !

وهكذا تكاشفنا عرضاً • كانت مكاشفة ضئيلة جداً ، ولكنها كافية لمضاعفة اضطرابى ازاء الحطوة الجديدة التى سأقوم بها غداً • لذلك قضيت الليل متارقاً • ولكننى تحففت من بعض ما كان يجثم على صدرى • حين خرجت في الغد من البيت ، كانت الساعة هي العاشرة ، لكنني بذلت كل جهودي من أجل أن أنصرف خفية بدون وداع وبدون كلمه واحدة ، تسللت تسللا ، لماذا ؟ لا أدرى ، ولكن لو اتفق أن رأتني أمي عند خروجي فحاولت أن تكلمني ، لكان يمكن أن أغلظ لها القول ، فلما صرت في الشارع وتنسمت الهواء الطرى ، رأيتني أهتز من احساس قوى جدا ، يكاد يكون حيوانيا ، وأستطيع أن أصفه بانه احساس «وحش ضار ، م لماذا أذهب والى أين أذهب ؟ كان احساسي شيئاً لا يمكن تحديده ، ولكنه ضار شديد الضراوة ، كنت خاتفاً منه وفرحاً به في آن واحد ،

ـ أأتدنس اليوم أم لا أتدنس ؟

کذلک تســـادلت بینی وبین نفسی ، علی علمی بأن الخطوة التی سأخطوها هذا النهار سستکون ، متی تمت ، حاسمة فی حیــاتی کلها ، ولکن لماذا الکلام بألفاز ؟

مضيت الى سجن الأمير رأساً • كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتبانا بافلوفنا الى مدير السجن ، فاستقبلنى استقبالا حسناً جداً • لا أدرى أهو رجل طيب أم لا ، ولكننى أظن أن هذا السؤال نافل لا داعى اليه • المهم أن المدير أذن لى بلقاء الأمير ، بل تلطف فأخلى لنا غرفنه ليتم فيها اللقاء • كانت النسرفة كجميع النرف ، غسرفة عادية

لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة • أظن أن من نافل القول أيضاً أن أصف الغرفة • وهكذا خلوت الى الأمير •

طلع الأمير بلباس لا هو عسكرى ولا هو مدنى ، بل هو بين بين ، لكن قسيصه نظيف ، ورباط عنقه أنيق ، وقد غسل وجهه ومشط شعره ، ولكنه نحل نحولاً دهيباً ، واصفر اصفراراً شديداً ، وقد لاحظت هذا الاصفراد حتى فى عنيه ، الحلاصة أنه بلغ من التغير أننى وقفت مشدوها مذهولاً ، وهتفت أقول :

_ لشدما تغيرت!

فقال مزدهياً بعض الشيء :

ـ لا قيمة لهذا! اجلس يا عزيزي!

واشار لى الى كرسى ، وجلس قبالتي . وأردف يقول :

ـ لنناقش النقطـة الأساســية : هأنت ذا ترى يا عزيزي ألكسى ماكاروفتش ٠٠٠

فقاطعته مصححاً:

ـ آركادى !

م مه مه اذا ۱۴ مه نعمه م طیب طیب م لا قیمة لهذا م آ مه مه

أدرك خطأه في تلك اللحظة ، فأضاف يقول :

ــ معذوة يا عزيزى • ولننتقل الى النقطة الأساسية •••

كان يتعجل الوصول الى غاينه تعجلاً شــديداً • لكأن فكرة أساسية كانت تتلبسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، قهو يريد أن يعبر عنها وأن يعرضها • وكان يتكلم بغزارة ، وبسرعة ، وكان يبذل فى الكلام جهداً ويعانى منه عذاباً ، ويستعين عليه بالاشمارات والحركات . ولكننى لم أفهم منه فى أول الأمر أى شىء اطلاقاً .

وختم يقول :

۔ الخلاصة ٠٠٠ (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات في أقل تقدير) ١٠٠ الخلاصة : لئن ازعجتك يا آركادي ماكاروفتش فالحجت على ليزا بالأمس الحاحاً شديداً أن تأتى بك ، فلأن الأمر مستعجل ٠ ولكن لما كان القرار الذي يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً ، فان علينا ٠٠٠

قاطعته قائلاً:

_ اسمع لى يا أمير • تقول انك طلبت أمس أن أجىء اليك ؟ ان ليزا لم تبلغني شيئًا •

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فعجأة ، ويدهش دهشة شديدة ، حتى ليكاد يرتاع ارتباعاً :

_ كيف ؟

ــ لم تبلغنى شـــيئاً البتة • لقد عادت الى البيت بالأمس مضطـربة اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم نقل لى كلمة واحدة •

انتفض الأمير .

ـ مل تقول الحقيقة يا آركادي ماكاروفتش ؟ اذن •••

ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من ٥٠٠٠ ما لى أراك منالة مذا القلق كله ، لابد أنها نسيت أن تبلغنى ، أو أن شيئاً ما قد ٥٠٠٠

جلس الأمير ، ولكنه ظل كالأبله ، لكأن هذا النبأ ، وهو أن لبزا لم تبلغنى رغبت ، قد سمحقه سمحقاً ، ثم سرعان ما عاد يتكلم محركاً ذراعيه ، ولكن كلامه بقى مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه ،

وقال فحأة :

ــ انتظر ! ٠٠٠

ثم سكت رافعاً اصبعه فى الهواء • ثم استأنف كلامه مجمعهاً ، فقال وهو يبتسم ابتسامة رجل مهروس :

ــ هذه ٥٠ هذه ٥٠ اذا لم يخطئ ظنى ٥٠ هذه مكاثد! ٥٠ معنى ذلك أن ٥٠

قاطعته قائلا :

ـــ ليس لهذا كله أية قيمة ! ولست أفهــم لماذا تقلق هذا القلق كله لأمر تافه • آه يا أمير ، منذ تلك الليلة ، هل تتذكر كيف •••

فصرخ يقول متضايقاً من مقاطعته :

ـ أية لبلة ؟ ماذا ؟

معند تسرششيكوف ، حيث التقينا آخر مرة ، قبل رسالتك ٠٠٠ لقد كنت في تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً ، ولكن شتان بين اضطرابك في تلك الليلة واضطرابك الآن ، اننى الآن أراك فأرتسه خوفاً ٠٠٠ أم تراك لا تتذكر ٠٠٠

فأجاب بصوت رجــل من أبناء المجتمع الرافى وكأنه تذكر كل شيء فحأة :

ــ آ ٠٠ نعم ٠٠ نعــم ٠٠ ذلك المساء ٠٠ لقد ســمعت أن ٠٠ كيف صحتك الآن ، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آركادى ماكاروفتش؟ ٠٠٠ ولكن فلنرجع الى النقطة الأساسية ٠ ذلك أننى ألاحق ثلاثة أهداف ٠ ان أمامى ثلاثة أغراض ، فأريد ٠٠٠

وعاد يتكلم عن « نقطته الأساسية ، ، فأدوكت أخيراً أنني أمام رجل

يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فورا، أو يجب اسعافه بالقصد حالا • كان حديثه المشوش يدور في أغلب الظن على الدعوى وما قد تنتهى اليه ، وعلى قيام الكتية بزيارته بنفسه ومحاولته تنى عزمه عن خطوة يريد ان يخطوها ولكنه لم يصغ اليه ، وعلى رسالة بعث بها الى جهة ما ، وعلى وكيل نيابة ، وعلى انه مينفى حتما الى مكان بشسمال روسيا مجرداً من حقوقه ، وعلى أن من المكن أن يستوطن طشقند مسترداً رئبته ، وعلى الدروس التى سيلقنها لابنه (ابنه الذى ستلاه له ليزا) ، وما سيسلمه اياه هناك « في الفلاة ، في أرخار نجل ، وفي خولوجورى » • لئن أردت أن أعسرف رأيك يا آركادى ايفانوفتش ، في كل الثقة أننى أقدر عاطفتك قدراً كبيراً • • • ليتك تعلم يا آركادى ايفانوفتش ، ايفانوفتش ، يا عزيزى ، يا أخى العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندى ، ايفانوفتش ، يا عزيزى ، يا أخى العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندى ، ماذا كانت ليزا لى هنا طول هذا الوقت ! » كذلك صاح فجأة وهو يمسك رأسه بيديه •

ـ سرجى بتروفتش ، هل 'يعقل أن تريد لها الموت باصطحابها الى خولموجورى !

أفلتت هذه الجملة من لسانی برغم ارادتی • لقد ترامی لی ارتباط مصیر لیزا بهذا المهووس مدی الحیاة واضحاً کل الویضوح أول مرة ، فحزعت • فنظر الی ، ونهض مرة أخرى ، ومشی خطوة ، وأدار ظهره ، ثم عاد یجلس وهو لا یزال ممسكاً رأسه ببدیه •

قال فيجأة :

ـ اننى أحلم دائماً بعناكب ٠

ــ أنت فى اضطراب رهبِب يا أمير • أنصحك بأن ترقد فى سريرك وأن تستدعى الطبيب فوراً • ۔ لا ، استحملے کی ، فیصا بعد ، وانما استدعیثك خاصیة لأشرح لك ، مسألة الزواج ، ان الزواج ، كما تعلم ، سیتم هنا ، سبق أن قلت هذا ، لقد 'أعطیتالاذن بالزواج ، حتی اننی 'أشتجع علیه ، أما لیزا ، ، ،

صحت أقول :

الأقل ! المير ، يا عزيزى : لا تعذبهما بغيرتك ، الآن على الأقل !

فهتف قائلاً وهو يصموَّب الى عينين محملقتين ، ويبتسم ابتسامة متشنجة فيها استفهام أبله :

۔ کیف ؟

كان واضحاً أن كلمة « الغيرة » قد فجأته فجأ شديداً .

معذرة يا أمير ، قلت هـذا الكلام برغم ارادتى • اسمع : لقد تعرفت فى الآونة الأخسيرة الى شسيخ عجوز ••• هو أبى الشرعى ••• لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءاً وسكينة • ان ليزا أيضا تقدره قدراً كبيراً •

ــ آ • • نعم • • ليزا • • آ • • نعـم · · هو أبوك ؟ نعـم · · معذرة يا عزيزى • هناك شيء • • أتذكر الآن • • حدثتنى ليزا عن هذا • شيخ طيب • • أنا متأكد ، أنا أيضـاً عرفت شــيخاً طيباً • ولكن دعنا من هذا الآن • ان الأمر الأساسى هو أن نوضع جوهر المسألة ، يجب • • •

قست لأنصرف • كان يؤلمني منظره • فلما رأتي أهم أن أنصرف ، قال بقسوة ووقاد :

_ لست أفهم ا

فقلت:

- ـ يؤلمني أن أراك على هذه الحال •
- ۔ كلمة أخرى يا آركادى ماكاروفتش ، كلمة أخرى . وأمسك كتفى تبحركة مختلفة كل الاختلاف ، وقد تبدلت هيئته كل التبدل ، وأجلسنى على المقعد ، وأردف يقول وهو يميل على :
 - ـ مل جاءك نبأ أولئك الناس؟ أقصد ٠٠٠
 - ـ نعم ، درجاتشیف .

ولم أستطع أن أسبطر على نفسى فأضفت أقول صائحاً :

- ـ لابد أن سنيبلكوف مو الواشي !
- ــ نعم ، ستيبلكوف ٠٠٠ ألا تعلم ؟

وتوقف عن الكلام ، وحد ق الى مسرة أخسرى بعينين محملقتين وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله ، وما تنفك تزداد عرضا ، وأخذ وجهه يشحب شيئا فشيئا ، فاذا برعدة تسرى في جسمى على حين فجأة ، اذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنسأني أمس باعتقال فاسين ، ومتفت أقول مذعوراً :

- _ هل 'يعقل هذا ؟
- ۔ اسمع یا آرکادی ماکاروفتش ، أنا انما استدعیتك لأشرح لك ٠٠ وأضاف هامساً بصوت خافت :
 - _ أردت أن ٠٠٠
 - فصيحت أقاطعه قائلا":
 - أنت الواشى بفاسين ا
- لا ، وانما كان هناك مخطوطة ؟ وقد سلم فاسين المخطوطة الى

ليزا قبل اليوم الأخير ••• لتحفظها • وتركتهما لى ليزا هنما لأتصفحها ، وبعد ذلك حدث أن تخاصما في اليوم التالي •••

- _ فأرسلت أنت المخطوطة الى السلطات؟ •••
- ـ آركادي ماكاروفتش! آركادي ماكاروفنش!

صحت أقول واثباً من مكانى مقطماً كلماتى :

ــ هكذا اذن ، بدون أى دافع آخــر ، وبدون أى هدف آخــر عدا الغيرة ، لأن فاسين المسكين غريمك ، سئلمت الى السلطان المخطوطة التى "عهد بها الى ليزا! الى من سئلمتها؟ الى من ؟ الى وكيل النيابة؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجبب عن أسئلتى • وبمساذا كان يمكنه أن يجبب ؟ لقد تسمر أمامى كتمثال وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسمامة المرضية ، ويحملق تلك الحملقة الجامدة • وانه لكذلك اذا بالباب ينفتع فتدخمل ليزا • فلما وأتنا معا كادت تسقط مغشياً عليها • وصرخت تقول وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يدى ":

... أنت هنا ؟ اذن ٠٠٠ د علمت ، ؟

لقد قرأت في وجهي أنني « علمت ، • وقبلتها بسرعة ، قبل أن تستطيع الاعتسراض ، قبلتها بقوة ، بقوة • لقد أدركت في تلك اللحظة ، أول مرة ، ادراكا كاملا ، مدى الحزن القاتم الذي لا مخرج منه ولا حدود له ، مدى العذاب الرهيب الذي سيجثم الى الأبد على حياة هذه الانسانة ••• الباحثة عن الآلام !

قالت وهي تنتزع نفسها مني فيجأة :

۔ ولکن هل يجوز للمرء أن يكلمه الآن ؟ هـل يجوز للمرء أن يبقى معـه ؟ لماذا جثت الى هنـا ؟ انظر اليه ، انظر اليه ، هل يمـكن أن يدان ؟

كان وجهها يفيض ألما وشفقة لا حدود لهما عحين أشارت لى بيدها الى الرجل المسكين وهى تهتف ذلك الهتاف • كان جالسا على المقعد دافنا وجهه فى يديه • انها على حق : لقد كان يعانى من حمى حارة ، فهو غير مستول عن أعماله منذ ثلاثة أيام • وقد أودع المستشفى فى ذلك الصباح نفسه ، ولم يحل المساء حتى تكشفت اصابته فى الدماغ •

تركت الأمير مع ليزا في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ومضيت من هناك الى مسكنى القديم ، نسيت أن أذكر أن الجوكان رطباً ، معتماً ، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب ، وأن ربيحاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيسل ، استقبلنى المؤجر فرحاً ، وأخذ يسعى ويتحرك حولى كثيراً ، وهذا شيء أكرهه وأمقته في مثل هذه الأحوال ، ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة ، واتجهت الى غرفتى رأساً ، ولكنه تبعنى : كان لا يجرؤ أن يسألنى عن شيء ، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع في عينيه ، وكانت هيئته هيئة انسسان من حقه أن يستطلع ، كان ينبغى لى أن ألاطفه ، في سيل مصلحتى ، ولكننى رغم حاجنى القصوى الى معرفة شيء ما (وكنت أعلم أننى لو لاطفته لعرفت شيئاً ما) ، كرهت أن استرسل في سؤال وجواب ، واكتفيت بأن سألته عن صحة زوجته ، ثم ذهبا اليها ، فاستقبلتنى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة فاستقبلتنى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة فاستقبلتنى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة فاستقبلتنى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة فاستقبلتنى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الموراً تثير أكبر الدهشة ،

كان لامبير قد جاء طبعاً ، ثم جاء مرتين أخريين ، و وطاف بجميع النرف ، قائلاً انه قد يستأجر غرفة ، وجاءت داريا أونيسيموفنا عدة مرات ، فكان أهل البيت يتساءلون : « لماذا تنجىء ؟ ، ، وقد أضاف المؤجر قوله : « كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً ، ، غير أننى لم أسراً ، فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان ! وكنت على وجمه العموم لا ألقى على

الرجل سؤالاً ، وانما كان يتكلم وحده ، وكنت أتظاهر بأننى أنبش فى حقيبتى (التى لم يكن قد بقى منها شىء تقريباً) ، ولكن الشىء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يسعد الى السر والتعمية ، وأنه حين لاحظ امتناعى عن سواله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً ، حتى لكاد كلامه أن يصبح ألغازاً ،

أضاف يقول وهو يلقى على تظرة غريبة :

ـ جاءت آنسة أيضاً •

ــ أية آنسة ؟

... آنا آندریفنا ۰ جامت مرتین ۰ وتعرفت بزوجتی ۰ انسانة لطیفة ، بشوشة ۰ ان معرفة آنسة مثلها شیء ثمین یا آرکادی ماکاروفتش ۰۰

قال هذه الكلمة وهو يتقدم منى خطوة : كان يرغب رغبة قوية فى أن 'يفهمنى شيئاً !

قلت مدهوشاً:

ـ مرتين ؟ غير معقول ٠٠٠

ــ وكانت في المرة الثانية مع أخيها •

قلت في نفسي : « انه لامبير » •

.. لا ، ليس هو لامبير ، بل هو أخوها . • شاب اسمه فرسيلوف . أظن أنه يعمل في البلاط .

لقد حزر الرجل ما تصورته ، كأن عينيه قد نفذتا الى قرارة نفسى •

اضطربت اضطراباً شـــديداً • وكان ينظر الى وهو يبتســم ابتسامة تودد كريه • ثم أضاف :

- آ • • نعم • • وجاءت آنسة أخرى تسأل عنك ، الآنسة الفرنسية ،

مدموازیل آلفونسیین دو فردان • آه • • ما أحسن غناه ها! ما أجسل انسادها الشعر! ولقد ذهبت خفیة الى تسارسكویا لترى الأمیر نیقولا ایفانوفتش ، فتبیعه كلباً صنیراً نادراً ، حالك السواد ، لا یزید حجمه على حجم قبضة الكف • • •

رجوته أن يتركنى وحيداً بحجة أننى أعانى من صداع • فأطاعنى فوراً ، قبل أن ينهى جملته ، وبدون غضب ، بل بابتهاج ، محركا يده باشارة غريبة كأنها تقول : • أفهم ، أفهم ! ، • وخرج على رءوس الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة ، متيحاً لنفسه هذه المسرة • ان على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً ا

بقيت وحدى أفكر ، ساعة و نصف ساعة ، بل قل اننى لم أفكر ، وانما أخذت أحلم ، كنت مضطرباً ، ولكننى لم أكن مدهوشاً ، حتى لقد كنت أتوقع المزيد ، وأتنظر عجائب أكبر ، قلت أحدث نفسى : « لابد أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن ! » ، كنت مقتنعاً كل الاقتنساع ، منذ مدة ، منذ كنت في البيت ، أن آلتهم قد تحسركت وأنها تعمل بسرعة ، وقلت لنفسى أيضاً ، وأنا أشعر بنوع من الرضى العصبى اللذيذ : «لا ينقصهم الآن الا أنا ، انهسم ينتظرونني على أحر من الجمر ، انهسم يريدون أن يدبروا أمراً في مسكني ، هذا واضح وضوح النهاد ، أيكون الأمر الذي يدبرونه هو زواج الأمير المجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمح يدبرونه هو زواج الأمير المجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمح مزدهاً .

« اذا دخلت فى هذا الأمر ، فسرعان ما مسيجرفنى الاعصار كما يجرف قشة ، أأتا حر فى هذه اللحظة أم لم أبق حراً ؟ ألا أزال أستطبع حين أعود الى ماما فى هذا المساء أن أقول لنفسى كما أقول فى كل يوم :
 « أنا ما أنا » ؟ » .

ذلكم هو جوهر أسئلتى أو قولوا جوهر خفقات قلبى أثناء تلك المدة التى دامن سباعة ونصف ساعة ، والتى قضيتها فى دكن على السرير ، واضعاً كوعى على ركبتى ، جاعلا رأسى فى يدى ؟ ولقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست الا ترهات ، فانما كانت « هى ، التى تجذبنى وتجرنى ، « هى ، ، « هى ، وحدها ! أخيراً أقول هذا واضحاً قاطعاً ، وأسجله على الورق بأحرف بلرزة ؟ اننى حتى فى هذا اليوم ، وأنا أكنب بعد انقضاء سنة ، لا أذال أجهال الاسم الذى يجب أن أسمى به العاطفة التى كانت تختلج فى نقسى آنذاك !

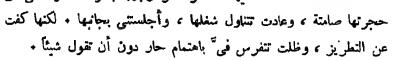
صحیح أننی كنت أشعر بشفقة علی لیزا ، وكنت أعانی ألماً صادقاً! وكان يمكن لهذا الآلم وحده أن يطامن أو أن يمحو من نفسی ، ولو الی حین قصیر ، ما كان يجيش فيها من شعور وحشی ضار (هأنا أستعمل هذا النعبیر مرة أخری) • ولكن كان يجرفنی استطلاع رهيب وخوف غامض ، وكانت تهجرفنی عاطفة أخری لا أعرف ما هی ، ولكننی كنت منذ ذلك الحین أعرف أنها لیست عاطفة طیبة ، بل هی عاطفة فاسدة • لعلنی كنت أصبو الی أن أترامی عند قدمیها ، ولعلنی كنت أرید كذلك أن أغرقها فی جمیع أنواع العداب وأن أبرهن لها علی شیء ما د بسرعة ، • فلم يكن لأی ألم أو أی عطف علی ليزا أن يوقف اندفاعی • ها ، هل أستطبع أن أنهض فأعود الی البیت • • • وأجلس الی ماكاد هیا ، هما ويشانوفتش ؟

« ولكن هل يستحيل على حقاً أن أذهب اليهم ، فأعرف منهم كل ما 'يدبر ت ، ثم أتركهم فجاة الى الأبد ، فأكون قد مررت بالعجائب والشباطين سليماً لم يمسسنى سوء؟ ، •

فى الساعة الثالثة ، اذ ثبت الى نفسى ورأيت أننى كدت أتأخر ، خرجت مسرعاً ، فركبت عربة وطرت الى آنا آندريفنا .

الفضيل المخامس ۱

ان أبلغوا آنا آندريفنا وصولى حتى تركت شغلها وأسرعت تستقبلنى فى الغرفة الأولى ، وتلك حفاوة لم ألق مثلها من قبل ، وقد مدت الى يديها كلشهما ، واحمر وجهها بسرعة ، وقادتنى الى



قلت فجاً قد تضايفت قليلاً من هذا الاهتمام المنصنع رغم أنه طاب لى كثيراً:

_ أرسلت الى داريا أونيسيموفنا ؟ ٠٠٠

فسرعان ما شرعت في الكلام دون أن تحبيب عن سؤالي ، فقالت :

ــ لقد قصوا على ما وقع لك ، فعــرفت كل شى. • يالهــا من ليلة رهية ! ••• ما أشد العذاب الذي لابد أنك عانيته ! هل صحيح ، هل صحيح أنهم وجدوك في غيبوبة ، وكنت توشك أن تتجمد ؟

فجمجمت أقول وقد احمر وجهى :

ـ هل ٥٠٠ لامير ٥٠٠ ؟

حكى لى كل شىء فى ذلك الوقت • ولكننى كنت أتنظــرك •
 لقد جاءنى مرتاعاً • عندك • • • فى البيت الذى كنت راقداً فيه على سرير

المرض ، رفضوا أن يراك ، وقد استقبلوه استقبالاً سخيفاً ، ، ، لا أدرى في الواقع كيف وقع لك ما وقع ، ولكنه حدثنى كثيراً عن تملك المليلة ، وقال لى الله حين فتحت عينيك قد ذكرت اسسمى ، فأثر هسذا في قلبى تأثيراً قوياً ، لقد ترقرقت الدموع في عيني من نسدة التأثر يا آركادى ماكاروفتش ، واني لا أدرى حقاً ماذا فعلت حتى استحق منك هذه العاطفة كلها ، ولاسيما في حالة كالحالة التي كنت فيها ، قل لى : هل مسبو لامبير رفيق طفولتك ؟

_ ولكننى كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهبية دون أن يروى هو لى شيئًا ! لقد كنت أحس دائمًا ، دائمًا ، أنهم سيوصلونك الى هذا ! قل لى : هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك ؟

انها تتكلم كلام من يمتقد أننى لم 'يمشر على" عند الجدار الا بسبب بيورنج وبسببها « هي » • وقد قلت لنفسى : « الواقع أنها على حق » • ولكننى انفجرت أقول مع ذلك :

۔ لو رفع علی ً یدہ آما ترکته بغیر عقماب ، ولما وجدتنی الآن أمامك قبل أن أثأر لنفسی •

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظنى ، وأن تثير حنقى على شخص ما (أعرف من هو) ، ومع ذلك رأيتنى أنقاد لاستثارتها ، فقلت :

ـ تقولین انك كنت قد أدركت أننی بسببها سأصل الی ماوصلت الیه و فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بینی وبین كاترین نیقولایفنا لیس الا سوء تفاهم ، وان یكن صحیحاً أنها سرعان ما تغیرت عواطفها نحوی فی أعقاب سوء التفاهم ...

تماماً • سرعان ما تغیرت عواطفها !
 کذلك قالت آنا آندریفنا متعاطفة • ثم تابعت :

ــ آه • • • لينك تعرف المكيدة التي 'تدبّر الآن ! لاشك أن حالتك لا تساعدك في هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعى كل الادراك • • • قالت ذلك وقد احمر وجهها وغضتّت طرفها • واستطردت تقول :

ــ انني في ذلك الصباح نفسه الذي التقينا فيه آخر مرة ، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدرها رجــل له ذكاؤك السليم وقلبك المحب الغض الذى لم ينسد • ثق يا صديقي انني أحسن تقدير عاطفتك ، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشمكر والامتنان الى الأبد • لاشك أن الناس في المجتمع الراقي سيرمونني بحجر ، بل لقد رموني بالحجر فسلاً . ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهيبة ، فمن ذا الذي يستطيع ، من ذا الذي يجرؤ منهم أن يدينني ؟ لقد هجـرنبي أبي منـــذ طفولتي • اننا ، آل فرسيلوف ، الأسرة المريقة النبيلة ، أناس مغامرون ، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم واحساناً • أفليس طبيعيّا اذن أن أتنجه الى ذلك الذي كان لى منذ طفولتي بمنزلة الأب ، وأغرقني بحسناته سنين طويلة ؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف ، والله وحدً يحق له أن يحكم على الخطوة التي خطوتها • الني لا أقبل حكم البشر على هذه الحطوة • وعدا ذلك ، حين تحساك أدناً وأحقر مكيدة ، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحية المؤامرة تدبرها له ابنته ، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا ؟ لا ، انبي لأوثر أن أضـــيع سمعتبي على ألا أنقذه • انبي مستعدة أن أكون له خادمًا وحارسًا وممرضة ، ولكنني لن أدع لحساب دني. وضيع كريه أن ينتصم ! کانت تنکلم بحسرارة شدیدة ، ود یکون نصفها مفتعلا ، ولکنها حرارة صادفة رغم کل شیء ، فلیس یخفی آن اهتمامها بهذه القضیة اهتمام شدید ، ولقد احسست بأنها کانت تکنب (تکنب کذباً صادفا ، فالمرء یمکن شدید ، ولقد احسست بأنها کانت تکنب (تکنب کذباً صادفا) ، وأحسست بأن کل ما فیها زیف وزور ، ولکن ما أغرب ما یحدث للمرء مع النساء : ان هذه النبرة الراقیة ، وهذه الأنفة الشحماء ، وهذه العفة الفخور ، ان هذا کله کان یذهانی عن تفسی ویحیر نی فی أمسری ، فاذا أنا أوافقها علی جمیع النقاطه ، ما بقیت معها ، لا شك أن الرجل تستعید المرأة روحه ، ولا سسیما اذا کان رجلا شهما فلت أحدث نفسی وأنا أنظر الیها مرتبکاً متحیراً : « هی و لامیر ! رباه ! » ، فلت أحدث نفسی وأنا أنظر الیها مرتبکاً متحیراً : « هی و لامیر ! رباه ! » ، فل أننی سأقول کل شیء : اننی لا أزال حتی هذا الیوم عاجزاً عن أن علی أن یری عواطفها ، ثم ان الانسان أقطع فیها برأی ، ان الله وحده قادر علی أن یری عواطفها ، ثم ان الانسان جهاز یبلغ من التعقید أن المرء لا یستطیع أن یفهم من أمره شیئاً ، ولاسیما اذا کان هذا الانسان امرأة ،

سألتها بلهجة جازمة:

ـ فماذا تنتظرين مني يا آنا آندريفنا ؟

ــ ما تعنی بهذا السؤال یا آرکادی ماکاروفتش ؟

قلت مرتبكاً :

ـ بسدو لى ٠٠ مما سمعته ٠٠ ومن اعتبارات أخرى أيضاً ، أنك انما أرسلت تستدعينني لأنك تنتظرين منى شيئاً ٠ فما الذى تنتظرينـ منى على وجه التحديد ؟

ولكنها لم تنجب عن سؤالى ، وانما سارعت تستأنف كلامها ، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة : _ ولكننى لا أستطيع ، اننى أشد اباءً وكبرياءً من أن أدخل فى ايضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامبير ، فأنت من كنت أنتظر ، لا مسيو لامبير ، ان وضعى حرج رهيب ، يا آركادى ماكاروفنش! فأنا مضطرة الى الحيلة والمكر ، لأننى محاطة بمؤامرات تحوكها لى هذه المرأة ، وهذا لايطاق ، اننى أندنى الى مستوى المكيدة ، فكنت انتظسرك كما ينتظر منقذ مخلص ، ما ينبغى أن 'أتهسم لأننى أنظسر فيما حولى بشراهة عسى أن اكتشف صديقاً واحداً على الأقل ، وهذا هو السبب فى أننى لم أستطع الا أن أقرح حين وقعت على هذا العسديق ؛ ان الذى أمكنه ، حتى فى تلك الليلة ، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد ، أن يتذكر نى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً ، ذلك ما قلته يتذكر نى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً ، ذلك ما قلته يتذكر نى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً ، ذلك ما قلته يتذكر نى وهذا هو السبب فى أننى كنت أعوال عليك ،

كانت تنظر في عيني تافدة الصبر شوقاً الى سماع جوابى • ومرة أخرى أعوزتنى النسجاعة اللازمة لأبدد أوهامها ولاذكر لها بصراحة أن لامبير خدعها وأننى لم أزعم له أبدا أن صداقتى لها تبلغ هذا المبلغ كله من القوة ، واننى لم أردد اسمها وحدها • فكان صمتى بمثابة تأكيد لكذب لامبير • وأنا أعلم أنها كانت هى نفسها تدرك حق الادراك أن لامبير قد بالغ وغالى ، بل لعله كذب عليها أيضاً ، لا لشيء الا أن يجد عذراً كريما لمجئه اليها وعقد صلة بينه وبينها • ولئن كانت تنظير في عيني تظرة الموقن بصدق أقوالى وقوة صداقتى ، فانما مرد ذلك طبعاً الى أنها كانت تعلم أننى لن أجرة على التكذيب ، بحمكم ذوقى وأدبى ، وبحكم سنى أيضا • على أننى أتسامل : هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح ، فلا أجد لهذا السؤال جواباً • ولعلنى آمرة فاسد فساداً رهباً •

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت انني لا أجيب : ــ ان أخى سيدافع عنى •

تمتمت أقول مضطرباً:

_ قیل لی انك جئت تزوریننی معه ۰

- ذلك أن هذا المسكين ، الأمير نيقولا ايعانوفتس لم يكد يبقى له ملجا يعصمه من هذه المؤامسرة أو قل يحميه من ابنته الا مسكنك ، اعنى الا مسكن صديق ، ألا يحق له فعلا أن يعد لا صديقا ، أنت على الأقل ؟ فان كنت تستطيع أن تصنع له شيئا فاصنعه ، اصنعه اذا استطعت ، اذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة ، واذا كنت ، قادرا على أن تصنع شيئا بالفعل ، ، اتنى لا أسألك هذا من أجلى ، لا ، لا أسألك هذا من أجلى ، لا ، لا أسألك هذا من أجلى ، من أجلى ، من أجلى ، من أجلى أنا لا أتنظر شيئا ، لا أتنظر شيئا حتى منك ، بعد أن رأيت أن أبى نفسه قد دبر لل مكيدة دنيئة !

فلت:

ـ يخيُّل الى أن آندره بتروفتش ٠٠٠

فقاطعتنى قائلة وهي تبتسم مرة :

- ان آندره بتروفتش قد أجاب عن سؤالى الصريح بأن حلف لى بشرفه أنه لم يضمر لكاترين نيقولايفنا شيئًا في يوم من الأيام ، ولا طمع في شيء منها أبداً ، فصد تنه أنا كل التصديق فيخطوت خطوتي ، ثم انضيح أنه لم يحافظ على هدوته الا الى الوقت الذي جاء فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنج ،

متفت أقول :

ــ ليس هذا هو الأمــر • أنا أيضاً ظننت في لحظة من اللحظات أنه بحب تلك المرأة • ولــكن ليس هــذا هو الأمر ••• وحتى لو صدق أن هذا هو الأمسر ، فان في امكانه الآن أن يبقى هادئًا وألا يحسرك سساكنًا بعد أن انستحب ذلك السبد .

- أي سيد؟
 - ۔ بيورنج ،

فقالت و هي تضحك ضحكة ساخرة :

من قال لك انه انسحب ؟ لعل هذا السيد لم يكن في يوم من
 الأيام قوياً كقوته الآن ٠

وبدا لى الآن أنها كانت تحدجني أنا أيضًا بنظرة ساخرة ٠

تمتمت أقول وقد اضطربت اضطراباً لم أقدر أن أخفيه ولا شك أنها لاحظته :

- داریا آونیسیموفتا قالت لی هذا ٠
- داریا أوینسیموفت انسانة طیبة ، ولست أملك طبعاً أن أمنعها
 عن حبى ، ولكنها لا تستطیع أن تعرف ما لایتعلق بها .

انقبض صدری • وكما كانت تنوی أن تلهب اسستيائی فقد التهب استيائی فقد التهب استيائی فعلا ، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة • الأخرى ، بل انصب على أنا آندريفنا نفسها ، فنهضت وقلت :

ان من واجبى ، كرجل شريف ، أن أنبهك يا آنا آندريفنا الى
 أن الآمال التى تعقدينها على قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها ٠٠

فحدقت الى بنظرة ثابتة وقالت :

ــ اننى أنتظر أن تحمينى ٠٠ أن تحمى انسانة هجرها الجميع ٠٠ أن تحمى أختك يا آكارى ماكاروفتش !

وكادت أن نجهش باكنة •

فتمتمت أقول وأنا أشعر بألم شديد :

ـ الأفضــــل ألا نقول على هــذا ، لأن « من الجــائز » أن لا يحدث شيء •

ـ ماذا ينجب أن أفهم من أقوالك هذه ؟

أُلقت هذا السؤال بكثير من التروى والحذر • فاذا أنا أصرخ قائلاً بما يشبه الغضب :

ـ افهمى من أقوالى أننى ســأبتعد عنـكم جميعـاً ، وكفى ! أما « الوثيقة ، ٠٠٠ فسوف أمزقها • استودعك الله !

حيتها وخرجت صامتاً لا أجروً حتى أن أنظر اليها ، ولكن ما ان بلغت أسفل السلم حتى أدركتى داريا أونيسيموفنا وهى تحمل ورقة من ورق الرسائل مطوية تصفين ، من أين جاءت داريا أونيسبموفنا ؟ أين كانت مختبة فيما كنت أكلم آنا آندريفنا ؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه ، وقد أعطتنى الورقة دون أن تقول كلمة واحدة ، وعادت أدراجها مسرعة ، وفضضت الورقة ، فاذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبير مكتوباً بأحرف جلية دقيقة ، فكان واضحاً أن كل شيء قد تم اعداده وفحضيره منذ بضعة أيام ، تذكرت فجأة أننى ، يوم جاءت الى داريا أونيسيموفنا ، قد أفلت منى أننى لا أعرف أين يقيم لامبير ، ولكننى انما قلت هذا الكلام بمعنى أننى لا أعرف ولا أريد أن أعرف ، وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من « مكتب العناوين ، ، بدت لى هذه المبادرة من آنا آندريفنا بليغة الدلالة بل شديدة السخرية : قانها ، وغم رفضى

التعاون معها ، ترسلنى الى لامبير رأساً ، فكأنها 'تفهمنى أنها لا تصدقنى أى تصديق ، كاملة ، أى تصديق ، كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة ، الوثيقة ، كاملة ، ومن عسى يعلمها بها غير لامبير الذى ترسلنى اليه ليتم التفاهم بينى وبينه ؟ فلت لنفسى مستاء : « انهم جميعاً يعدوننى صبياً صغيراً لا ارادة له ولا حزم عنده ، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون ا ، ،

مع ذلك ذهبت الى لامبير ، وهل كان يمكننى أن أرضى حب الاطلاع الذى تملكنى الا عنده ؟ ان لامبير يسكن بعيداً جداً ، فى شارع كوسوى بيريؤلوك ، بقرب « حديقة الصيف ، ، فى ذلك البيت المفروش نفسه ، ولكنى حين ولبيت هارباً من عنده لم أنتبه الى طول المسافة ، حتى اذا زود دتنى ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام ، دهشت ولم أكد أصدق أنه يسكن هناك ، وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش ، فى الطابق الثالث ، بشابين اعتقدت انهما قرعا الجرس قبلى فهما ينتظران أن ينتج لهما الباب ، وكانا كلاهما يتفرسان فى أثناء صعودى ، وقد أدارا للبساب ظهرهما ، قلت لنفسى حين وصلت اليهما : « هذا بيت مفروش ، فلابد أنهما آتيسان الى مستأجرين آخرين غير لامبير ، ، كان يمكن أن يزعم عدا أن ألقى أحداً عنده ، ومددت يدى الى الجرس لأقرعه ، محاولا ألا أنظر الهما ، فاذا باحدهما بصح قائلاً لى :

ـ انتظر!

وقال الآخر بصوت رنان رقيق ، ممطوط قليلاً :

ــ انتقلر من فضلك • ســنقرع الجرس معــاً متى انتهينا ، اذا تكرمت •

فأمسكت عن قرع الجرس • انهما شابان في ريعان الشباب ، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين ، قد وقفا أمام الباب منهمكين فى عمل عريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً ، ان الذى صلح يقول:

« انتظر » مديد القامة جدا ، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمترا فى أقل تقدير ، وهو شديد النحول ، لكنه بالرز العضلات ، الى رأس صغير جدا بالقياس الى طول القامة ، هذا عدا وجه مجدور قليلا ، مكفهر اكفهرارا مضحكا ، لكنه ينم عن ذكاء ، بل يسكاد يكون محببا ، ان عينيه تحدقان تحديقا ، بصلابة لا محل لها بل لا داعى اليها ، وهو سى الهندام ، يرتدى معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن ، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط ، معطفاً قصيراً مسرفاً فى القصر بالنسبة الى طول قامته له فلاشك أنه مستمار له وهو ينتمل حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين ، ويضع على رأسه قبعة عالية مشقرة ، بالية رهيبة البلى ، هو على وجه الاجمال وسخ ، يداه اللتان مشقرة ، بالية رهيبة البلى ، هو على وجه الاجمال وسخ ، يداه اللتان لا يسترهما قفازان قذرتان ، وأظهافره الطويلة مسود قان ، ولا كذلك رفيقه ، فانه أنيق الى أبعد حسدود الأناقة : معطف خفيف من فراء ابن عرس ، قبعة حلوة ، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة ، ابه فى مثل طولى ، على محياً فتان ووجه فتى غض ،

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافتته ، وهي شريط مهترى على الاهتراء ، متسخ بالدهن ، كاد يستحيل الى خيوط ؟ على حين اسل رفيقه من جيبه كرافتة أخرى سوداء ، جديدة كل الجدة ، اشتريت من المتجر منذ هنيهة ، وراح يعقدها له على رقبته ، فكان الأولى يمد رقبته الطويلة طائماً معتبراً بوجهه عن أكبر الجد ، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن

قال الشاب الأنيق ·

ــ لا ، مستحيــل ، القميص وســخ جداً ، وسيظهر بالتضاد أشد اتساخاً ، ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة ؟ لا أستطيع ٠٠٠

ثم التفت الى" وقال يسألنى :

- _ ألا تستطيع أنت ؟
 - _ ماذا ؟
- ــ أن تعقد له كرافتته منتفخة كبحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ ، والا فقدت كل قيمتها وتأثيرها لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق فيليب ، ودفعت ثمنها روبلا ً •

تمتم الطويل يقول:

ـ عل هو روبلك أنت ؟

ــ نعم • ولم يبق معى كوبك واحــد • هيــه ؟ ألا تستطيع ؟ يسجب أن نسأل آلفونمسين •

وسألنى الطويل بغتة " في غلظة :

ـ عل أنت آت الى لامير ؟

فأجبته بمثل لهجته وأنا أحدق الى عيبيه :

_ نعم ، الى لامبير .

فعاد يسأل بثلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه :

ـ دولجورفكى ؟

فقلت أجيبه بفظاظة كفظاظته :

ــ لا ، لست كورفكين .

لقد سمعت خطأ •

فقال کمن یصرخ صراخاً ویتقدم نحوی خطوة کمن یهددنی :

ـ دولجوروفکي ؟ ٠

فانفجر رفقه ضاحكا ، وقال شارحاً :

ـ انه يقول دولجوروفكى ولا يقول كوروفكين • انت تعلــــم ان الفرنسيين فى « جريدة الجدال » يشوهون الأسماء الروسية دائماً • فقال الطويل مصححاً مقرعاً :

_ بل جريدة « الاستقلال ، •

ـ ۰۰۰ غیر مهم ۰ جریدة « الاستقلال ، أیضاً ۰ فاسم دولجوروکی مشالاً یکتبونه دولجوروفکی ۰ قرأت هذا بنفسی ۰ واسـم فـ ۰۰۰ ــوف یکتبونه دائماً کونت فالونیف ۰

صاح الطويل:

ــ دوبويني ا

۔ نعم ، هناك أيضاً اسم دوبوينى ، قرأته بنفسى ، وضحكنا جميعاً : هى امرأة يقال لها مدام دوبوينى ، روسية فى الخارج ، • •

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى الطويل :

_ ولكن علام ذكرهم جميعاً ؟

وعاد يكلمني فقال :

ــ معذرة • هل أنت السيد دولجوروكى ؟

ـ نعم ، دولجوروكي • ولكن من أين عرفت اسمى ؟

هنا همس الطويل في أذن رفيقه اللطيف ببعض الكلام ، فقطب هذا حاجبيه وحسرك يده باشسارة نفى • ولكن الطويل التفت الى فجأة وقال يسألنى بالفرنسية :

۔ « سیدی الأمیر ، ہلا ؓ أعطیتنا روبلا ؑ فضة ، لا روبلین ، بل روبلا ؓ واحدا ً ! ، •

فصرخ القصير يقول مؤنياً:

ـ يا للحيوان !

وعاد الطويل بكلمنى فقــال وهو ينطق الكلمــات الفرنســــية نطقاً رديئًا أخرق :

۔ د سترد الگ ، ٠

وانفحر القصير يضحك ، وقال :

ــ هذ افتى رقيع ! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنســــية ؟ انه ليتكلم كما يتكلم باريسى ، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقى الذين تتملكهم رغبة جنونية فى التخاطب بلغة لا يجيدونها ٠٠٠

فانبرى الطويل يقول مخصصاً:

ـ د في حافلات القطار ، ٠

ــ طيب • في حافلات القطار أيضاً • انك لمضجر حقاً • ما الداعي الى مزيد من الشرح • أية لذة تجد في تمثيل دور الغبي ؟

فى أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته الى الطويل • فقال وهو يضع الروبل فى جيبه (بالفرنسية) :

ـ • سنرد اليك ، •

ثم التفت فجأة الى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجد ، وأخذ يدقه بطرف حذائه الضحم ، ولكن بدون أى اهتياج أو حنق ، فقال له القصير قلقاً :

.. سوف تتشاجر مرة أخرى مع لامبير • الأفضل أن تقرع الجرس • وقرعت أنا الجرس ، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة دق الباب بقدمه •

وفجأة دوًى صوت لامبير وراء الباب قائلاً :

ـ هوه ! يا للتّعين !

وفتح لاميير البـاب بسرعة ، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية) :

_ • قل لى ، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك ؟ • •

فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامبير الذي احمر غضباً :

د یا صدیقی ، هذا دولجوروکی! أما الثانی فهو صدیقی! » •
 فما ان رآنی لامبیر حتی تغیر تغیرا کاملا و هتف یقول:

_ هذا أنت يا آركادى ! أخيراً ! كيف صحتك ؟ هل شفيت ؟
وتناول يدى ً كلتيهما ، وشـد ً عليهما شداً قوياً ، الخلاصـة أنه
بلغ من صــدق الحماسـة للقائى أننى سرعان ما رق ً قلبى له ، وافتتنت
به ، قلت :

ــ هذه أول زيارة أقوم بها!

فصرخ لامبير منادياً :

ــ د آلفونسين ۽ ا

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز ، فقال لها لامبير :

ـ د هو ڏا ! ٠٠

فصاحت آلفونسين مصفقة " بيديها :

ــ دانه هو ۽ !

ثم عادت تبساعد يديها واندفعت الى التقبَّلني ، ولكن لامبير حماني منها ، اذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلبًا صغيرًا :

ـ هيه ! هيه ! على مهلك ا

ثم التفت الى " فقال :

_ اسمع يا آركادى ، لقد اتفقنا ، عدداً من الأشخاص ، على أن تتمشى اليوم فى مطعم "التتر ، • فلن اتركك • ستصحبنا • سنتعشى معاً • وسأصرف هذين حالاً ، ثم نأخذ تتحدث • ادخل • سنخرج على الفور • دفقة واحدة لا أكثر • • •

دخلت ، وتسمرت في وسلط الغرفة ، أنظر الى ما حولى وأستعيد ذكرياتي ، كان لامبير قد أخذ يرتدى ثيبابه وراء الحاجز ، وقد دخسل الشباب الطويل ورفيقه وراءنا ، رغم ما قاله لامبير ، فكنسا نحن الثلاثة وقوفاً ،

خار الطويل يقول لألفونسين :

ـ « مدموازيل آلفونسين ! بوسېني ! » •

وقال الصغير وهو يتقدم ويريها الكرافتة الجديدة :

ــ • مدموازيل آلفونسين ! ، •

ولكنها هجمت عليهما كليهما حانقة مسعورة وقالت :

- « آه ۰۰۰ یا للســافل! لاتقترب منی ، لا توسـخنی ! »
 قالت هذا للشاب القصیر ، فهو الذی کانت حاقدة علیه .

ثم اتجهت الى الطويل فقالت له:

ــ « وأنت أيهــا الأبله الطويل ! لسوف أطردكمــا كليكما ركلاً بقدميَّ ••• هل تعرف هذا ؟ ، •

ورغم أنها أشاحت عن القصيد بازدراء واحتقار ، كأنها تخشى حقاً أن يوسيخها (وهذا مالم أفهمه ، لأنه كان نظيفاً كل النظافة ، وقد ظهر حسن هندامه واضيحاً حين خلع معطفه) ، رغم ذلك رجاها القصير ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافته ، وأن تعيره قبل ذلك ياقة نظيفة

من ياقات لامپير • فأوشكت آلفونسيين أن تضربهما استياء من هذا الطلب ، ولكن لامبير الذى سمع الكلام ، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وان تعطيهما ما يريدان ، و « الا فلن يدعانا هادءين ، ، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشاب الطويل بدون أى اشمئزاز • ومد الطويل لها رقبه وهى تعقد له كرافته ، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلم أمام الباب •

قال يسألها بفتة :

... د مدموازيل آلفونسين ، هل بعت البولوئيا الذي كان عندك ، ه ... د ما البولونيا هذا ؟ » .

فانبرى القصير يشرح لها أن « البولونيا » كلب صغير •

_ و هه ! ما هذه الرطانة ؟ ،

ـ « اننى أتكلم كمـا تتكلم سـيدة روســية فى مدينة من مدن المياه المعدنية » •

بذلك أجابهـ « الطويل الأبله » وهو لا يــزال ماداً رقبتـــه • فقالت له :

_ « ما سيدة روسية في مدينة من مدن المياه المعدنية ؟ ، •

ثم أضافت تخاطب القصير وهي تلتفت اليه فجأة :

ــ « و ••• أين ساعتك الجميلة التي أعطاك اياها لامبير ؟ . •

فصاح لامبير يقول من وراء الحاجز ساخطاً :

ـ ماذا ؟ يغير ساعة مرة أخرى ؟

فدمدم و الأبله الطويل ، قائلاً :

_ أكلنا بثمنها !

وأضاف القصير يجيب لامبير مبرراً عمله بدون حرارة :

.. بعتها بشمانية روبلات • هي من فضة مذهبة ، وليست ذهباً كما زعمت • أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلا ً •

فتابع لامبير كلامه بمزيد من السخط قائلاً :

م يجب أن يوضع حد لهذا • يا صديقى ، اذا كنت أشترى لك ثياباً وأعطيك أشياء ثمينة ، فاننى لا أفعل ذلك من أجل أن تبيمها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله ••• ما قصمة هذه الكرافشة التي الشريتها له أيضاً ؟

ــ هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر • ولم أدفع ثمنها من مالك أنت • لم يكن عنده كرافتة ، ولا يزال يحتاج الى قبعة •

قال لامبير وقد استعر غضبه استعاراً رهيباً في هذه المرة :

.. كفى حماقات! لقد أعطيته ما يكفى لشراء قبعة أيضاً • ولكنه سرعان ما ينفق المال فى أكل محمار وشرب شعبانيا • ان رائحته عفنة • انه قذر • لا يستطيع المرء أن يصطحب الى أى مكان • كيف أصطحب الى العشاء ؟

جمجم « الطويل الأبله ، يجيب فائلا " :

ـ فى عربة ! « ان معنا روبلاً فضية اقترضيناه من صيديقنا الجديد » •

فصرخ لامبير يقول:

ب لاتعطهما شيئاً يا آركادى ، لاتعطهما شيئاً البتة !

قال القصير فحاَّة وقد احمر احمراراً شديدا فنضاعف جماله :

ـ اسمح لى يا لامبير • اننى أطالبك بعشرة روبلات فوراً • ولا تقل سخافات كهذه التى فلتها الآن لدولجوروكى ! اطالبك بعشرة روبلات ، لأرد الروبل الى دولجوروكى حالاً ، ثم أشترى بالباقى قبعة لآندرييف ، وسترى •

خرج لامبير من وراء الحاجز ، وقال :

ــ الیك ثلاث ورقات صفر ، ثلاثة روبلات ، ولن أعطى شــیئاً آخــر فبـــل یوم الشـــلانا. القادم ، ولا أحب أن أراكما قبــل ذلك الموعد ، والا ، • •

انتزع « الطويل الأبله » من يديه الورقات الثلاث • فمدَّ روبلاً الى دولجوروكي قائلاً له :

۔ « دولجوروکی ، الیک روبہلا ، سردہ شہاکریں أجهزل الشكر ، .

ثم صاح يقول لرفيقه :

_ هلم ً بنا يا بييرو !

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوِّح بهما في الهواء ، وأنشد يقول بأعلى صوته وهو ينظر الى لامبير وجهاً لوجه :

ـ « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

فزأر لامبير ينهره بغضب رهيب :

_ اسكت ! اسكت !

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل ، فكنت أنظر الى المشهد مدهوشاً • ولكن الطويل لم يحدث له غضب لامبير أى خوف • بالعكس : أخذ يزأر منشداً بصوت أعلى : • أوهيه لامبير ! ، الخ • وخرج الشابان وصارا في السلم ، وركض لامبير يلاحقهما ، ولكنه لم يلث أن عاد أدراجه ، وقال :

ـ لسوف أطردهما ! سوف أطردهما قريباً ! انهما يكلفاني نققات أكبر مما يعودان على به من أرباح • هلم ً بنا يا آركادى ! لقد تأخرت • ينتظرني هنالك شخص • • • شخص مفيد !

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكز أسنانه :

ــ أوباش ! أوباش !

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فحأة • فال:

۔ یسعدنی أنك جئت أخیراً • یا آلفونسسین ! لا یعخطرن بہاللت أن تخرجی ! هلم ً بنا یا آركادی !

أمام الباب ، كانت تنتظره عربة فخمة ، ركبنا العربة ، ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح في تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة ، وقد أدهشني أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد النمديد ، وأدهشني أن رأيتهما يماملان لامبير بغير احترام ، حتى لقد كاد لامبير أن يرتمد أمامهما ارتماداً ، لقد كان يبخيل الى دائماً ، بالاستناد الى شعور قديم من مشاعر الطفولة ، أن لامبير شخص لابد أن يبخشاه جميع الناس ، حتى لقد كنت أنا نفسى ، رغم كل ما أتصف به من استقلال ، أشعر ببخوف منه في تلك اللحظة قطعاً .

استمر لامبير يعبر "عن غضبه ، فقال :

 هنا بنفسك و وقد أذعنت فأعطيته و آو وو انهام أوغاد و كن تلميذا ضابطاً و فطردوه من المدرسة و تستطيع أن تتصور و وهو منقف و نشأ في أسرة كريمه و صدقني و وله أفكار و كان في وسعه أن ووو ! ذلك أنه قوى قوة هرقل و انه يقدم بعض الحدمات الصغيرة و ولكن بغير همة وحماسة و وقد وأيت بعينك : انه لا يغسل يديه و ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات وسيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية و وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما بلقى من عذاب الضمير و فذهب البها و وجلس عندها و وطفق يصفر! أما الآخر و الفتى و فهو ابن جنرال و أسرته تخجل أن يكون ابنها ولكنني سأطردهما و أنقذته و فانظر كيف يكافئني! ليس ههنا رجل! ولكنني سأطردهما و أشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب و

ــ انهما يعرفان اسمى • فهل أنت الذي حدثتهما عني ؟

- ارتكبت هذه الحماقة ، في أثناه العساء ، سيطر على نفسك ، أرجوك ، ابق في مكانك ، سيجيء الى العساء وغد آخر رهب ، ذاك وبش فظيع ، ماكر مكراً فظيماً ، ليس ههنا الا سفلة على كل حال ، مامن رجل واحد شريف ! ولكن سنتخلص منهم ، ، ثم ، ماذا تتحب من طعام فاخر ؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال ، جميع وجبات العشاء طبة ، أنا الذي سأدفع ، لا تهنم ! من حسن الحظ أنك ترتدى تياباً حسنة ، أستطيع أن أعطيك مالاً ، ليس عليك الا أن تجيء وتطلب ، تصور أنني أتخمتهما شراباً وطعاماً ، في كل يوم فطائر ، وتلك الساعة تصور أنني أتخمتهما شراباً وطعاماً ، في كل يوم فطائر ، وتلك الساعة التي باعها هي الساعة الثانية ، ذلك القصيد تريشاتوف ـ وأيت كيف تشمئز آلفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها ـ ما ان يجد نفسه في مطعم ، ومن حوله ضماط ، حتى يأخف يصرخ : « أريد حجلاً » ، فأطلب له حجلاً ! لكنني سأنتقم ،

ــ هل تذكر يا لامبير ٠٠٠ يوم ذهبتــا معك الى المطعم بموســكو ، فطعنتنى هنــاك بشــوكة فى فخذى ! كان معك خمسـمائة روبل فى ذلك الــوم !

ـ نصم ، أذكر ، طبعاً أذكر ، اننى أحبك ، صدقنى ، لا أحد يحبك ، لكننى أنا أحبك ، أنا وحدى ، تذكر هذا ، ان الرجل الذى سيجىء الى العشاء ، الرجل المجدور ، هو أمكر الأوغاد قاطبة ، حذار منه، اذا كلمك فاصمت، وإذا أخذ يسألك فأجيه يسخافات، لاتقل شيئا.

ان اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقى على أسئلة أثناء الطريق، وقد جرح شمورى أن أراه واثقاً بى هذه الثقة كلها ، والا يخطر بباله أن يشك في أى شك ، انه يتصور ، استناداً الى طواعيتى القديمة له ، حين كنا في مدرسة توشار ، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرنى فأصدع بأمسره ، وقلت لنفسى وضن ندخل المطعم : « هو فوق ذلك كله جاهل جهلاً فظيعاً ، فلا أثر فيه لثقافة ، ،

هذا المطعم ، فى شارع مورسكايا ، كنت قد ترددت اليه فى أيام سقوطى المخزى ، و فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الحدم الذين حيونى وعرفوا فى واحداً من رواد المطعم ؛ وأحسست بالنسربة فى جو رفاق لامبير ، وفى جو هؤلاء الصحب الذين رأيتنى بينهم على حين فجأة وكأننى واحد منهم ؛ وخالجنى توجس غلمض بأننى مقبل على أمور قذرة وأننى سأنتهى فى أغلب الظن الى ارتكاب عمل سىء ، شعرت بطعنة تنفذ فى قلبى دفعة واحدة ، حتى هممت فى لحظة من اللحظات أن أنصرف ، ولكن تلك اللحظة مرت ، وبقيت ،

ان « المجدور ، الذي يخشاه لامبير تلك الحشية كلما كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا ، هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهماك غبى في العمل ، والذين أكرههم كرها شديداً منذ أن كنت طفلاً ، هو في نحو الخامسة والأربعين من العمر ، متوسط القامة ، أشيب الشعر قليلاً ، أمرد الوجه الى حد الفحش ، مع عارضين شاتبين مقصوصين حلقا ، كأنهما نقانق على خدين في وجه مسطح كريه ، وهو طبعا مضجر، شديد الرصانة ، صحوت ، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر ، وقد نفرس في ً بانتباه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، وشاءت خراقة لامبير وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرق أحدنا بالآخر ، فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدني واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامبير ، وقد وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، قلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، قلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة

واحدة طول مدة العشاء ، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة ونيقة . لم يكلم الا لاميير ، بل لم يكلمه الا بما يشبه أن يكون همساً . وكان لاميير يكاد ينفرد بالكلام على كل حال ، أما المجدور فكان يكتفي باجابات مقتضة وكلمات غاضبة مستفزة . كان هو متغطرساً متعجرفاً ، وكان لاذعاً وساخراً ، ولا كذلك لامير ، فقد كان يبدو نسديد الاهتياج ، وكان كأنه يستحثه على أصر من الأمور لاشك أنه الاشتراك في مشروع من المشروعات ، وقد مددت يدى الى قارورة النبيذ مرة ، فاذا بالمجدور يتناول زجاجة من خمر الحريز ، فيمدها الى ملى يكن قد خاطبني قبل ذلك أبداً ، وها هو ذا يقول لى الآن :

ـ جر ّب هذا !

وحزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عنى كل شيء السمى وتاريخى ، وربما الحطط التى يعو للامبير فى تنفيذها على • فلما تصورت أنه يعدنى مستخدماً عند لامبير ، استعر حنقى مرة أخرى ؛ ومنذ أن كلمنى هذا الرجل المجدور ، قرأت فى وجه لامبير قلقاً شديداً فيه كثير من الحماقة ، ولاحظ المجدور نفسه ذلك ، فانفجر يضحك ، قلت لنفسى : « لا شك أن لامبير مستعبد لهم جميعاً » ، وكرهتمه عندئذ بكل قلبى ، هكذا انقسمنا قسمين ، رغم أتنا نجلس الى مائدة واحدة : قسما هو المجدور ولامبير جلسا بقرب النافذة متقابلين ، وقسماً هو أنا والطويل الوسسخ آندريف بعانبى وتريشاتوف أمامى ، وكان لامبير يستعجل التهاء العشاء فهو ماينفك يستحث الخادم : حتى اذا جى ، بالشمبانيا، قطع حديثه مع المجدور ، ومد كأسه نحوى قائلا ":

ـ نحب صحتك • فلندق الأقداح!

فعَّقب تريشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد تحوى قدحه من فوق المائدة:

· _ اسمع لى أنا أيضاً أن أدق قدحى بقدحك .

وكان تريشاتوف ، الى حين وصول الشمبانيا ، واجماً صامتاً . أما « الأبله ، فكان لا يقول شيئاً البتة ، وانما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً .

أجبت تريشاتوف بقولى :

ـ يسرني هذا ا

ودققنا القدحين وشربنا • فقال « الأبله » فجأة ً وهو يلتفت الى ً :

ــ أما أنا فلن أشرب نخب صـــحتك ، لا لأننى أتمنى لك الموت ، بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم .

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة · وتابع يقول : ــ أنت تكفيك ثلاثة أقداح !

ثم أدرف وهو يضع قبضة يده على المائدة :

۔ أرى أنك تنظر الى قبضة يدى الوسخة • اننى لا أغسلها ، بل أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة ، أؤجرها للامبير ، لكسر رءوس الآخرين فى القضايا التى تفتح شهيته •

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت و كان في القاعة أربع موائد أخرى قد جلس اليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين و انه مطعم من المطاعم الرائجة و فاذا بجميع المحادثات تنقطع ، واذا بجميع الأنظار تنجه الى الركن الذي تحن فيه و وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على الركن الذي تحن فيه و وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على كل حال و اصطبغ وجه الامير بحمرة شديدة و وقال بهمس حائق يخاطب آندريبف:

ـــ آ • • • ها هو ذا يستأنف أظن يا نيفولا سيمنوفتش أننى رجوتك أن تسيطر على نفسك •

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطبئة وقال:

ـ لا أريد لصـديقى الجديد « دولجوروفكى » أن يسرف اليوم فى شرب الخمر •

ازداد احمرار لامبير • وكان المجدور يصيخ بسمعه صامتاً ، ولكن كان واضحاً أنه راض مغتبط • لقد أعجبته ثورة آندرييف • أنا وحدى لم أدرك لماذا كان يجب على اللا أشرب •

قال لامبير وهو يكز أسنانه :

ــ انه لا يفعل هذا الا ليأخذ مالاً • سأعطيك سبعة روبلات • هل تسمع ؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء • ولكن دعنا نفرغ • لا تحزنا•

فزأر « الأبله » منتصراً :

· · · Ī · · · Ī -

وابتهيج المجدور قطعاً ، فهاهو ذا يضحك •

وقال تريشاتوف لصديقه بقلق ، بل بما يشبه الألم ، راغبـاً في صدّه طعاً :

ـ اسمع ، انك تسرف !

فصمت آندریف ، ولکن صحمته لم یطل ، فان ما فعله لم یشف غلیله ، کان یتعشی علی مائدة نانیة تبعد عنا خمس خطوات سیدان منهمکان فی حدیث حار ، انهما سحیدان متقدمان فی السن ، یبدو علیهما آنهما حساسان سریعا التأذی ، آحدهما طویل سمین جدا ، والثانی سمین أیضاً لکته قصیر ، کان الرجلان یتکلمان باللغة البولندیة عن الأحداث الأخیرة

التى وقعت بباريس • وكان • الابله » ينظر اليهما منذ مدة طويلة باستطلاع وفضول ، ويصيخ بسمعه الى حديتهما • وأغلب العلن ان البولندى القصير قد بدا له رجلاً سخيفاً مضحكاً ، فسرعان ما أبغضه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأنتخاص الصفراويين المصابين بمرض فى الكبد ، الذين يحدث لهم هذا بغتة بدون أى سبب • واتفق أن نطق البولندى القصير فجأة باسم النائب مادييه دومونجو ، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير من البولنديين ، أى انه شد د المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم ، فحاء نطق الاسم هكذا : مآديه دو موونجو • ولم يكن • الأبله ، فى حاجة الى أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى البولنديين ، ثم ينتصب بوقار ، ويقول بصوت عال واضع وكأنه يلقى سؤلا تا

ــ مآديه دو موولنجو ؟

فالنفت البولنديان حانقين + وسأله البولندى الطويل السمين مهدداً : ــ ماذا تريد ؟

وكان « الأبله » ينتظر هذه اللحظة • فكر َّر سؤاله بصوت عال جداً لسمعه كل من بالصالة :

ـ مآديه دو موونجو ؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الايضاح ، تماماً كما فعل معى من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لى وهو يتقدم منى : « دولجوروفكى ؟ » فانتفض البولنديان • ونهض لامبير وهم أن يهجم على آندرييف ، لكنه سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات •

فأخذ البولندى القصير يقول باحتقار وقد احمر احمراراً شديداً حتى صار لون وجهه كلون جزرة: ــ هؤلاء مهرجون ، يا سيد ، هؤلاء مهر ّجون ، قريباً سيستحيل على المرء أن ينجىء الى هنا .

واضطربت الصالة كلها ، وسِنُمعت من كل مكان دمدمات تذمر ، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات .

تمتم لامبیر یقول وقد طاش صــوابه ، محاولاً ان یدفع آندرییف الی خارج الصالة :

ــ اخرج ، أرجوك ٠٠٠

فوافق آندربیف علی الخروج بعد أن ألقی علی لامبیر نظسرة فاحصة فأدرك أنه سیعطیه مالاً • لا شبك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منسه مالاً بهذا الأسلوب • وأراد تریشساتوف أن یرکض وراءهما ، ولکنه نظر الی و توقف • ثم قال و هو یخفی عینیه باصابعه اللطیفة الناعمة :

ـ آه ٠٠ شيء كريه '!

فقال المجدور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة :

ــ كريه فعلاً !

ورجع لامبير في أنساء ذلك مصفر الوجه ، وهمس في أذن المجدور ببعض الكلام محركاً يديه باشارات عنيفة ! وكان المجدور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً ، وقد أصغى الى لامبير باحتقار ، وكان واضحاً أنه يود الانصراف ، ولم تكن القضية كلها مع ذلك الاعبا صببانياً ، وحمل تريشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبي ، وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً ،

ــ اننى أحبه كثيراً ، آندرييف هذا • لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسته • لقد بدَّد مهر أخته في الشراب والطعام ، بل بدَّد في الطعام

والشراب كل ما يملكه أهله في أنناء خدمته العسكرية • وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً • اذا كان لا يغتسل فانما مرد ذلك الى الكمد واليأس • تراوده أفكار جنونية : يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجــلاً شريفاً ، فلا فرق بين الأمرين • يحب على المرء ألا يفعل شــيئاً ، لا خيراً ولا شراً • في وســع المرء أن يفعل الحير وأن يفعل الشر ، فكلاهما سواء • ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه ، وانما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر . ولكن صــد َّق أن هذا الكلام كله انما يقوله بغير جد • بل اني لأعتقد أن ما فعله اليوم انما فعله لينتهي من لامبير ويقطع صلته به قطعاً تاما • بالأمس كان يحدثني في هذا ٠ هل تصدِّق أنه في اللَّــل ، أو حين يخلو الى نفسه مده طویلة ، یأخذ یبکی . وهو اذا بکی فانما یبکی کما لا یبکی انسان آخر غيره • انه يعول عويلاً رهبيــاً ، وهذا أبعث على الشفقة • تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة ، ثم هو يبكى معولاً ! بائس ، أليس كذلك ؟ أريد أن أنقذه ، ولكنني أنا نفسي شخص حقير ، فتى ضائع ، لعلك لا تصدق ! هل تسمح لى بالدخول يادولجوروكى اذا أنا حثت أزورك أحماناً ؟

_ طبعاً! أنا أحبك كثيراً .

ــ لماذا تحبنى ؟ شــكراً على كل حال ! اســـمع • فلنشرب كأساً أخرى • ماذا أقول ؟ لا > لا تشرب ! لقد صدقك القول : يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة •

قال ذلك وهو يلقى على نظرة معبرة • وأردف يقول :

_ أما أنا فسأشرب مع ذلك • أصسبح الشراب لا يحدث لى شيئًا ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسى عن شىء • انصحنى اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء فى المطاعم ، تنجدنى فى الغد مستعدًا لكل شىء فى سبيل أن

أتعشى فى المطاعم • أؤكد لك أننا نود ، مخلصين ، أن نصبح شرفاء ، ولكننا نرجىء ذلك دائماً الى الغد • وما ينفك الغد يتراجع ،

وتمضى السنون تليها السنون ويغنى ربيع القمر

ولكنى أخاف عليه هو ، سوف يشنق نفسه ، سوف بمضى يشنق نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً ، هذه طبيعته ، ما أكثر الذين يشنقون اتفسهم فى هذه الأيام! من يدرى ؟ لعل أمثالنا كثير ، أنا مثلاً لا أستطيع أبدا أن أحيا بدون أن يكون معى فضل من المال ، أنا أحوج الى المال الزائد منى الى المال اللازم ، اسمع ، هل تحب الموسيقي انا أحبها حبا جنونها ، سأعزف لك شيئاً حين أجى اليك ، اننى أجيد العزف على البيانو اجسادة كبيرة ، درست العزف زمنها طويلاً ، دواسة جادة ، لو أتبح لى أن أؤلف أوبرا لاخترت موضهوع « فاوست » ، اننى أحب هذا الموضهوع كثيراً ، فترانى دائماً أبنى بخيالى مشهداً فى كاندرائية : أتصهور كاندرائية قوطية ، وأنصور جوقات المغنين والأناشهيد ، وتدخيل جرتشن ، الجوقات من القرون الوسهى ، حتى يشمر المرء بنجو القرن الجامس عشر ، جرتشن حزينة مكتئبة ، فى يشمر المرء بنجو القرن الجامس عشر ، جرتشن حزينة مكتئبة ، فى الداية 'تسمع تلاوة منغمة ، بصوت جهير ، لكنه صوت رهيب ، منه يدوى صوت راجوقات بغناء فاتم ، قاس ، غير مكترث :

هدأ يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغنى الشيطان، انه لا يرى، ولكن يسمع صوته ، الى جانب الأناشيد ، ينطبق عليها تقريباً ، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف ، ذلك ما يجب النوصل اليه ، وغناء الشيطان طويل ، لا يتعب ، وهو تينور ، تينور حتماً ، يكون في البداية رفيقاً ، رقيقاً : هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريئة ، أيام كنت لا تزالين طفلة ، كيف كنت تجيئين مع أمك الى هذه الكاندرائية وتتمتمين بصلوات

الفرئينها في صحب عبيق ؟ ، • ولكن الغناء يفوى ثم يقوى ، وما ينفك يزداد حرارة واندفاعا • أصبحت النغمات اعلى : يحس فيها السمامع دموعا ، یحس فیها ضحرا ، ضحراً لا ینتهی ، لا مخرج منه ، ثم ياتي الياس : « لا غفـران يا جرتشن ، لا غفران لك هنا ! ، • وتريد جرتشن أن تصلِّلي وتدعو ، ولكن من صدرها لا تخرج الا صرخات ــ اتعرف هذا النوع من الصرخات ؟ الصرخات الني تنطلق تشنجات من صدر أترع دموعاً • ويظل الشميطان يغني • انه لا يصمت ، ويظل ينفذ في النفس الى أعماف أبعد ، ثم اذا هو ، على حين فجأة ، ينقطع مرة واحدة بهذه الصرخة : « انتهى كل شيء ، انصبت عليك اللعنة ! ، • وتتهاوى جرتشن على الأرض راكعة ء ضامة ً يديهـا أمامهـا • وتنطلق عندئذ صلاتها ، صلاة قصيرة جداً ، هي قراءة منغَّمة ، ولكنها ساذجــة ، لا 'يصطنع فيها فن ، هي تلاوة تترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية ٠ أربعة أبيـات ، أربعـة أبيات فقط _ عند ستراديلا نغمات كهذه! _ ثم الاغماء ، بعد آخــر نغمــة ! ويحدث هرج ومــرج . و'ترقع جرتشن ، وتنقل • فاذا بالجوقة 'يرعد غناؤها فحأة • لكأنها صاعقة تنزل • غناء فيه الهام، غناء ظافر، ساحق، شيء من نوع نشيدنا، نشيد الملائكة الصغار. يهتز كل شيء حتى آساسه ، ويفضي كل شيء الى تسبيحة « المجد لله ! » •. لكأنه صراخ الكون كله ، بينما هي 'تحمل و 'تنقل + 'تنقل جرتشن ، وتسدل الستارة • حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما • ولكنني أصبحت لا أصلح لشيء • فانما أنا أكتفي بأن أحلم • أحلم بهــذا طول الوقت • أحلم • حياتى كلها ليست الآن الا حلماً • وفي الليل أحلم أيضاً • آه! دولجوروكى ، هل قرأت كتاب ديكنز « ميخزن العاديات ، ؟ •

[۔] نعم قرأته ، فماذا ؟

ــ لاشك أنك تتذكر ٠٠٠ انتظر ٠ سأفرغ كأساً أخرى • لاشك

أنك تتذكر ذلك الجزء من أواخسر القصمة ٠٠٠ الذي تراهما فيه ، ذلك الشمخ المجنون وتلك البنية الصغيرة ، حفيدته ، التي عمرها ثلان عشرة سنة ، نواهما ، بعد هروبهما العجيب وتجوالهما الطويل ، يجدان ملجأ ياويان البه بمكان في أقاصي الجلترا ، قرب كالدرائية قوطسة فديمة ، وترى النت الصغيرة تحصل هناك على وظبفة دلسل ويرى الزائرين الكاتدرائية ، ففي ذات يوم تغرب الشمس ، فاذا بالطفلة ، والواقفة في هذا. الكاتدرائية ، وقد غمرتها أواخسر أشبعة النهار ، اذا بها تنظر الى الشيمس الغاربة وقد امتلأت نفسها ، نفس الطفلة ، نفسها المدهوشية ، امتلأت تأملاً" هادئاً وتفكراً عملهاً ، كأنما هي تقف أمام لغز من الألفاز ؟ لأن الشيئين كليهما ، الشمس التي هي فكر الله ، والكاتدرائية التي هي فكر الشر ، انسا هما لغزان حقاً ؟ ٥٠٠ ألس هذا صححاً ؟ أه ٠٠٠ انني لا أجد التعبير • ولسكن الرب يحب هذه الحواطسر الأولى التي تملأ نفوس الأطفال • وهناك ، على مقربة منها ، فوق الدرجات ، كان ذلك الشيخ المحنون ، جدُّها ، يتأملها بنظرة جامدة . صحيح أن هذا كله لیس فیه شیء خارق ، هذا المسمهد الذی رسمه دیکنز ، ولکن المر-لا يمكن أن ينساه أبداً • وقد بقي في أوروبا كلهــا • لماذا ؟ لأن هذا هو الجمال • لأن في هــذا براءة • آه • • • أنا لا أدرى ما الذي يشتمل علمه هذا ، ولكنني أحس فسه جمالًا • كنت في المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات • ان لي أختاً في الريف ، تكبرنمي بسنة واحدة ••• الآن بيع كمل شيء هناك ، ولم يبق لنا أملاك ! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم ، نقرأ هذه الرواية ، تحت أشــجار الزيزفون في دارنا ، وكانت الشمس تغرب أيضماً ، فاذا نحن ننقطع عن القمراءة ، ويقول كل منا الآخر : نحن أيضاً سنكون خير ًين ، سنكون جميلين ٠٠٠ كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة • ان لكل اسان ذكرياته يا دولجوروكي ••• وفجأة مال برأسه الجميل على كنفى ، وطفق يذرف دموعاً غزيرة ، فأشفقت عليه ، أشفقت عليه كثيراً ، صحيح أنه كان قد شرب كثيراً ، ولكنه كان يكلمني بصدق كبير ، وأخوة خالصة ، وعاطفة طاهرة ،

وفي تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة ، وسمعنا قرعات قوية على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج ، وكانت كبيرة ، وكانت في الطابق الأرضى ، فيستطيع المرء أن يبلغها من الشارع) ، انه آندرييف الذي 'طرد ،

ـ « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

داهمتنا هذه الصرخة من الشسارع • فهتف الفتى وهو يثب عن مكانه مندفعاً:

- لايزال اذن هنا! انه اذن لم ينصرف!

وصاح لامبير يقول للمخادم :

ـ الحساب!

وكانت يداه ترتجفان غضباً وهو يدفع الحسساب • ولـكن المجدور لم يسمح له بأن يدفع عنه •

- ــ لماذا ؟ أنا الذي دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة .
 - ـ لا ، اسمع لي .

وأخسرج المجدور محفظة نقوده ، ودفع حصيته بعيد أن حسب ما عليه • قال له لامير :

- ـ انك تهينني يا سيمون سيدوروفتش !
 - ـ هذا ما أريده ٠

بذلك أجاب سيمون سسيدوروفتش • وتناول قعته ، وخرج من

الصالة وحده دون أن يودع أحداً • فقدف لامير باقى الحساب للخادم وأسرع يركض وراء المجدور ، حتى لقد نسينى من شدة اضطرابه • وجرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج • كان آندرييف مسمرا أمام اللب ، كنصب ، ينتظر تريشانوف •

قال له لامبير الذي أصبح لا يستطبع كظم غيظه :

_ سافل!

فاذا بآندرييف يزأر صالحاً:

_ هيه!

ثم اذا هو يقلب له فبعته بقفا يده ، فنسقط القبعة على الرصيف • ويسرع لامبير الى التقاطها بمذلة •

_ « خمسه وعشرون روبلاً ، •

كذلك قال آندرييف لتريشاتوف وهو يربه الورقة النقدية التي استطاع أن ينتزعها من لامبير • فصرخ تريشاتوف قائلاً له :

_ كفى ! لماذا الجرسة دائماً ؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين روبلاً ؟ انه لا يدين لك الا بسبعة روبلات •

لانه وعدنا بأن تنسى وحدنا مع نساء ، فاذا هو يعشينا مع هذا المجدور بدلاً من النساء ، هذا عدا أننى لم أفرغ من طعامى عوقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوى ثمانية عشر دوبلاً ، فيكون المجموع خمسة وعشرين .

زأر لامير يقول:

- شبطان یأخذکما ! اننی أطردکما کلیکما ولسوف أریکما ••• فصرخ آندریف قائلاً : ۔ لامبیر ، أنا الذی اطردك ، وانا الذی سنوف أریك ! ٠٠٠ د الوداع یا أمیری ، ! لاتزد علی ما شربت ، هلم ً یا بیبرو ! الی الأمام ، سر ! د أوهیه لامبیر ! أین لامبیر ؟ هل رأیت لامبیر ؟ ، .

كذلك ردَّد مرة أخيرة وهو يبتعد بخطى عملاق ! •

تمتم تريشــــاروف يقول لى بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه :

- اذن سأجيء اليك ، هل تسميح ؟

وبقیت و حـــدی مع لامبیر • قال و هو لایکاد یستطیع أن یسترد أنفاسه ، و كأنه فقد صوابه :

_ ھــًا بنا!

فأسرعت أصيح قائلا له بلهيجة متحدية مستفزة :

- الى أين ؟ لا ، لن أصحبك الى أى مكان !

فسألنى قلقاً وقد ناب الى نفسه فجأة :

ـ كيف هذا ؟ انني لم أكن أنتظر الا أن نبقي وحدنا .

_ الى أين ؟

يجب أن أعترف بأن رأسى كان يدور قليــــلاً بعد أن شربت ثلاث أقداح من الشمبانيا ، وكأسين من خمرة الخريز .

_ الى هنا ، الى هنا ، هل ترى ؟

_ ولكن فى هذا المحل محاراً طاؤجاً كما ترى • مكتوب ذلك • فالراثحة اذن كريهة •

... هذا ما يحب لنا بعد العشاء • انه محل ميليوتين • المحار لن نأكله • ولكننى سأقدم لك شميانيا •

ـ مستحيل • أنت تريد أن 'تسكرني •

- _ مما اللدان قالا لك هذا · ضحكا عليك · أتصيدق هذير الوغدين ؟
- لا ، لیس تریشاروف رغداً ۰ ثم آننی أعرف بنفسی کیف آکون
 حذراً ۰
 - _ فلك اذن ارادة قوية ؟
- ـ نعـم ، لى ارادة قوية ، أقوى من ارادتك على الأقــل ، فأنت يستعبدك أول قادم ! لقد جللتنا العـار ، مضبت تعتذر لذينك البولنديين ذليلاً كخادم ، لابد أنك كثيراً ما ضربت في المطاعم ،
- صاح يقول باحتقار وقد نفد صره تفادأ معناه : ﴿ وَأَنْتُ أَيْضًا ؟ ٢
 - ــ ولكن بيننا كلام يا غبى ! أتراك خائفاً ؟ أأنت صديقى أم لا ؟
- ... لست صديقك ، ما أنت الا وش دنى. على كل حــال ، منّا بنــا ! أريد أن أبرهن لك على أننى لست خائفاً منك هوه ! ما أبشع هذه الرائحة ! رائحة جين عفن ! ما أشدها قذارة !

الفصل *الس*ادس ا

أن أذكر مسرة أخسرى بأن رأسى كان يدور قليسلا و والا لكنت تصرفت وتكلمت على غسير هذا النحو •

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محسار

فعلاً • وقد جلسنا الى مائدة عليها غطاء وسنح • وأمر لامبير بشامبانيا • فاذا أمامى قدح مملوءة بخمسرة باردة لونهــا كلون الذهب ، تنظر الى ً وتغرينى بنفسها • لكننى كنت مستاءً مهموماً •

_ هل تعلم يا لامبير ما الذي يسوءني منــك خاصة ؟ أنك تتصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرني فأطبع ، كما كان الحال في مدرسة توشار ، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا !

_ غبى ! ميًّا ! لندق الأقداح !

۔ لا ترید حتی أن تجبر نفسے ک علی شیء • لیتک تحساول علی الأقل أن تخفی عنی أنك ترید أن تسكرنی !

ـــ انك تقول سخافات ، وانك لسكران . يىجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحـــًا . هيًّا تناول قدحك . ما بالك لا تتناول قدحك ؟

ـ أتناول قدحى ؟ أنا منصرف • ذلك كل ما ستحصل عليه منى !

وهممت أن أنصرف فعلاً • ولكن هاهو ذا يغضب غضبًا شديدًا :

ان تریشاتوف هو الذی آثارك علی : رأیتكما ، كنتما تنهاسان .

ما أنت الا غبى • ان ألفونسين تشمئز منه اذا هو أقترب منها ••• انه مقزز • سأحكى لك عنه فتعرف ما قيمته !

ـ سبق أن حكيت لى • ليس فى فمك الا اسم الفونسين! انك لمحدود العقل حقاً!

ـ محدود ؟

لم يفهم عنى • وأردف يقول :

ــ هاهما الآن مع المجدور • ذلك هو السبب في أنني طردتهما • ان هذا المجدور رجــل دني. • سوف يفسدهما • أما أنا فكنت أطالبهما بأن يلنزما الشرف والنبل في سلوكهما دائماً •

جلست ، وتشاولت القدح بغیر شــعور ، وجرعت جـــرعة ٠ قلت له :

ــ أنا بثقافتي أعلى منك كثيراً!

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأننى عدت أجلس • وسرعان ما ملأ لى القدح مرة أخرى • تابعت كلامى لأغيظه (ولا شك أننى كنت عندئذ أبعث منه على الاشتمزاز) ، فقلت :

ــ ولكنك خائف منهما ، أليس كذلك ؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك ، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً .

۔ ہم ، ولکنه سینال عقابه • انهما یتمردان ، ولکننی سأعرف کیف أقتص •••

۔ والمجدور یعذبک • أظن أنك لم يبق لك أحد غيرى • فجميع آمالك معقودة على ً أنا الآن ، هه ؟ ـ نعم یا عزیزی آرکادی • هذا صحیح جداً : لم یبق لی صدیق غیرك • صدقت !

قال ذلك وربت على كتفي •

ما العمل برجسل يبلغ همذا المبلغ من الغيماء! انه بعقله المحدود يحسب السخرية مديحاً •

تابع كلامه وهو ينظر الى ً برقة وعاطفة :

ـ فی وسعك أن تجنبنی كنیراً من المنفصات ، وأن تعظمنی من ورطة اذا كنت رفیقاً مخلصاً یا آركادی !

_ كيف ذلك ؟

.. أنت تعرف • ما لم أساعدك فستظل غيباً طول حياتك ، لكننى أستطيع أن أهيى ثلاثين ألف روبل نقتسمها نصفين ، تصما لك وصفاً لى • انظر ماذا أنت الآن : انك لا تملك شيئاً ، لا اسما ولا أسرة • فاذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غنيساً في طرفة عين • وبثروة كهذه الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً • • •

ذهلت من هذا الأسلوب • كنت أتصسور أنه سيعمد الى المكر والحيلة ، ثم هاهو ذا يمضى الى المهدف رأساً فيكلمنى بلا لف ولا دوران كما يكلم صبى صغير • قررت أن أصغى اليه ، من باب رحابة الفكر • • وبتأثير الفضول الشديد أيضاً !

قلت له بلهجة ثابتة صارمة :

- اسمع يا لامبير ، قد لاتفهم ما سأقوله لك ، لكنني سأقوله : اتنى أقبل أن أصغى الى كلامك لأتني رحب الفكر •

وچرعت جرعــة أخــرى ، فسرعان ما عاد لاميير يــكمل مــل. الكأس • وقال :

ــ اسمع يا آركادى: لو أن رجــلاً مثل بيورنج قد أباح لنفسه أن يشتمنى وأن يضربنى بحضـور سـيدة أعبدها ، لما عرفت ماذا كان يمـكن أن أفعـــل! أما أنت فقـد تحملت ، ولذلك أحتقرك: ما أنت الا خرقة بالة!

فهتفت أقول وقد اصطبغ وجهى بحمرة شديدة :

- تجرؤ أن تقول ان بيورنج ضربنى ؟ أنا الذى ضربته ، وليس هو الذى ضربنى !

- ـ بل هو الذي ضربك ولست أنت الذي ضربته!
 - ـ كذاب! حتى اننى دست على قدمه!
- ــ لكنه دفعك عنــه بيــده وأمــر الخدم أن يقتــادوك ٠٠٠ وكانت هي في العربة تنظر اليك وتضحك عليك ! هي تعلم أنك.ليس لك أب ، وأنك تبلع كل اهانة !
- يخيل الى يا لامبير أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة واتنى لأشعر عنك بخزى وعار أنت تقول هذا كله لتستثيرنى ، وتقوله بغلظة شديدة وفظاظة صريحة • أثراك تحسبنى صبياً في السادسة عشرة من عمرى ؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتمش غضــــباً وأشرب كأسى جرعات بغير شــــعور :

- _ انك تفاهمت مع آنا آندريفنا!
- ــ آنا آندریفنــا وغدة ماکرة ، ستضحك علینــا أنا وأنت والعالم بأسره ! وأنا انما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى •

- _ من الأخرى ؟
- ــ السيدة آخماكوفا اننى أعــرف كل شيء أنت نفسك قلت لى انها تخشى الرسالة التي في حوزتك •••
 - _ أية رسالة ؟ ٥٠٠ أنت كذاب !

وتمتمت أقول مضطرباً أشد الاضطراب:

- _ هل رأيتها ؟
- ــ رأيتها جميلة ، جميلة جداً ، ان لك ذوقاً رفيعاً !
- _ أعرف أنك رأيتها ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها ولا أريد أن تتكلم عنها •
- _ انك مازلت فتى غراً ، وهى تضحك عليك وتسيخر منك لا أكثر ، عرفنا فاضلة من هذا النوع بموسكو ، ما كان أشد شموخها بأنفها ! ولكن ما ان 'هدّدت بفضح كل شىء حتى أخذت ترتجف ، وسرعان ما أصبحت طيعة ! فنلنا منها كل ما أردنا : المال وغير المال ، هل تفهم ؟ لقد عادت الآن الى المجتمع ، وأصبح الوصول اليها مستحيلاً ، وصارت تحلق عالياً ، ما أفخم العربة التى تركبها ! ليتك مستحيلاً ، وصادت تحلق عالياً ، ما أفخم العربة التى تركبها ! ليتك الماضور الذى تم فيه هذا كله ! انك لم تعش بعد ، ليتك تعرف المواخير التى لا يخشين فيها أن ، ، ،

تمتمت أقول بغير ارادة :

- ـ خطر ببالي هذا!
- انهن فاسقات حتى نخاع العظام! انك لا تعرف كيف لا يتورعن عن شىء! لقد عاشت آلفونسين فى بيت من تلك البيوت ، فما كان أشد اشمئزازها!

فقلت أؤيده مرة أخرى :

ـ فكرت في هذا !

ـ أتضرب ثم تأخذك شفقةً ؟ •••

فأدركت قصده على الفور ، قصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً :

ـ لامبر ، أنت وغد ، أنت وبش لثيم ! لقد رأيت هذا كله في المبنام ، حلمت بك جالساً بجانب آنا آندريفنا ، ، ، آه ، ، ، انك سافل دني ؛ أكنت تحسبني حقيراً الى هـذا الحد ؟ لقد رأيت هذا في المنام لأنني كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثني هذا الحديث ، ثم ان الأمور لبست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثني عنها بمثل هذه الصراحة ، وبمثل هذه البساطة !

ــ أرأيت ؟ ما مو ذا يغضب ! هيء هيء هيء ٥٠٠

أخذ لامبير يضحك منتصراً • وتابع كلامه فقال:

- اسمع یا عزیزی آکاردی و عرفت الآن ما أنا فی حاجة الیه و له انه انها انها کنت انتظرك و استمع الی ما أقول: أنت تحیها و وترید أن تنتقم من بیورنج و هذا ما کنت أرید أن أعرفه و ولقد کنت أقد ره أثناء هذا الانتظار و اذا کان الأمر کذلك و قد تغیرت المسألة و (بالفرنسیة) و فی هذا خیر و ذلك أنها تحبك هی أیضاً و فتزوجها بلا ابطاء و هذا خیر ما تفعل و ثم انك لا تستطیع أن تغیل غیر هذا و لقد اخترت أفضل حل و ثم اعلم یا آرکادی أن لك صدیقاً و أنا الصدیق الذی تستطیع أن تفعل به ما تشاء و ان هذا الصدیق سیساعدك وسیزوجك و سأجد کل شیء و سامضی أبحث تحت الأرض عن کل ما تحتاجه و یا عزیزی آرکادی و وفی مقابل ذلك تعطی رفیقك القدیم ثلاثین ألف روبل أجراً علی ما بذل من جهد و ه شاساعدك و لا تقلق و أنا فی مشل

هذه الأسور أعرف جميع المداخل والمخارج •• ستنال المهر كله ، فاذا انت غنى ، واذا باب المستقبل اللامع ينفتح امامك .

کان راسی یدور و ولیکن هذا لا ینفی اتنی کنت أنظر الی لامپیر مدهوشیا و لفد کان جاداً فیما یقول ، او قبل اننی کنت اری رؤیة واضیحة آنه کان یصدتی هو نفسه آن فی امکانه آن یزوجنی ، بل انه یتبنی هذه الفکرة بحماسة و وکنت أدرك کذلك طبعاً آنه یستدرجنی الی فنح کأننی طفل صغیر (لاشك آننی قد أدرکت هذا منذ ذلك الحین) و ولکن فکرة هذا الزواج بها کانت بلغت من قوة النفاذ الی کیسانی کله النی رغم اندهاشی من آن یستطیع لامیبر تصدیق هذا الخیال ، قد اددفعت آنا نفسی الی تصدیقه تصدیقاً لا سیبل الی مقاومته ، دون آن أفقد ، خلال لحظة واحدة ، شعوری بأن هذا أمر لا یمکن تخقیقه طبعاً و لا أدری کیف أمکن آن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة فی نفسی معاً و

تمتمت أسأله :

- ـ ولكن هل هذا ممكن ؟
- ــ لم لا ؟ تربيها الوثيقة فتخاف فتنزوجك حتى لا تضيِّع الميراث ٠

قررت ألا أصد ً لامبير عن المضى فى هذه الحقارات ، لأنه كان يعرضها أمامى بسذاجة كبيرة ، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حنقى فجأة ، ومع ذلك دمدمت أقول له اننى لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها :

- _ مستحیل ، لن أتزوج عنسوة ً کیف بدور فی خلدك أن أکون من الحسة بحیث لا أتورع عن هذا ؟
- _ هوه ! ولكنها ستجيء اليك من تلقاء نفسها لا أنت بل هي ستخاف فتتزوجك !

- ئم استدرك يقول:
- ــ ثم انها ستتزوجك لأنها تحبك .
- ـ كذاب أنت تسخر مني كيف عرفت أنها تحبني ؟
- ـ أعرف هذا طبعاً آنا آندریفنا تفترضه أیضاً اننی جاد فیما أقول اننی أقول الحقیقة : آنا آندریفنا تنصور هذا سأحكی لك شیئاً آخس حین تنجیء الی ت فتری أنها تحبك لقد ذهبت آلفونسین الی تسارسكویا وحصلت هی أیضاً علی معلومات •
 - ـ ماذا استطاعت أن تعلم هناك ؟
- ما لنذهب الى البيت : ستحكى لك هى نفسها ، فيكون ذلك أمتع لك وأحلى ، ثم هل أنت أقل من غيرك ؟ انك جميل ، ومتعلم ، ٠٠٠
 - دمدمت أقول :
 - _ تحم ، متعلم ٠٠٠

كنت أتنفس بمشقة ، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد يتحطم ، ولم تكن الحمرة هي السبب الوحيد طبعاً ٠٠٠

- ــ أنت جميل وأنيق
 - ــ نعم أنيق •
 - ـ وطيب ٠٠٠
 - ۔ تعم طیب ۵۰۰
- ۔ فکیف لا ترضاك افن زوجاً ؟ ان بیورنج لن یتزوجها بدون أن یکون لها مال ، وأنت تستطیع أن تحرمها من مالها ، فتخاف فتتزوجك ، واذا تزوجتها فقد انتقمت من ببورنج فی الوقت نفسه ، لقد قلت لی فی تلك اللیلة ، حین كنت منجمداً من البرد ، انها تحبك ،

- _ أنا قلت لك هذا ؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً!
 - ـ بلى بلى . قلت هذا الكلام بعينه .
- _ قلته أثناء الهذيان ولايد انني حدثتك اذن عن الوثيقة ؟
- ـ تعم ، ذكرت أن تلك الرسالة هى فى حوزتك ، فتساءلت أنا : اذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر ؟ كيف يضيّع وقنه ؟

تىنىت أقول:

ـ أضغاث أحـــلام • لست من الحمـــاقة بحيث أصـــد أن هذا الزواج يمكن أن يتم • هنـــاك أولاً فرق السن • وهنـــاك ثانيـــاً أننى ليس لى اسم •

بقت على مقعدى كالمصموق ، ما كان لى أن أنقاد لمثل هذا الحديث

الأحمق مع اى انسان اخر • ولكن للمأ لذيذا لا ادرى ما كنهه كان يدفعى الى اطالة الحديث • تم ان لامبير كان اشد غباء واشد حطة من أن يخجل المر، أمامه • فلت فجأة :

- اسمع يا لامبير • فل ما نشت • ولكن كلامك زاخر بالسخافات • ولئن كنت أكلمك فلأننا رفيقان ، فلبس لأحدنا أن يخجل من الآخر • وما كان لى أن أنزل الى هذا المسنوى لو كنت أكلم شخصاً آخر • ثم ما الذى يجعلك تجزم بأنها تحبنى ؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن المال • ولكنك يا لامبير لا تعرف المجتمع الراقى : ان كل شيء فى تلك البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة ، ويخضع لاعتبارات التمييز بين الطبقات • وهى الآن تجهل طاقاتى ، ولا تعرف المدى الذى يمكن أن أبلغه فى هذه الحياة ، فلا يمكن الا أن تشعر بالعار اذا هى تزوجتنى • لكننى لا أكتمك يا لامبير أن هناك تقطة تبعث على الأمل هى أنها قد تتزوجنى على سبيل الشكر والامتنان ، لأننى سأخلصها عندئذ من كره يضمره لها رجل تخاف منه •

ـ أباك تعنى ؟ هل هي تحبه اذن كثيراً ؟

ألقى لامبير هذا السؤال وقد هيَّزه فضول شديد • هنفت أقول :

- لا ، لا ، حقاً انك لفظيع وغبى فى آن واحد ، يا لامبير ! هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها ؟ الابن وأبوه ! سيكون هذا مخزياً رغم كل شىء ! ان أبى يحب ماما ، لقد رأيت يقبلها ، ما كان أغبانى حين كنت أتصور فى الماضى أنه يحب كاترين نيقولايفنا ! صحيح أنه كان يحبها ، ولكنه أصبح يكرهها منذ مدة طويلة ، انه يريد الانتقام ، وهى خائفة ، ذلك أنه رهيب اذا هو أخذ بنتقم يا لامبير ! يكاد يصبح عندئد مجنوناً ، اذا غضب منها فانه يفقد صوابه فلا يتورع عن شىء ! هذا كره من نوع الكره الذى كان ينشب بين الأسر القديمة

ويقوم على اسساس من مبددى، • الناس فى عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادى، • فى عصرنا هذا لا مبادى، بل حالات خاصه • اه • • • لامبير! انك لاتفهم شيئاً • أنت غبى كقدميك • أنا أكلمك الآن عن المبادى، ، وأنت لا تفهم من أمر المبادى، شيئاً • أنت جاهل جهلاً رهيباً • هل تتذكر كيف كنت تضربنى ؟ ولكننى الآن أقوى منك • هل تعلم هذا ؟

س عزیزی آرکادی ، لنذهب الی بیتی ! سنقضی السهرة معاً ، وسنشرب زجاجة أخری ، وستغنی لنا آلفونسین عازفة کلی القیثار .

ـ لا ، لن اذهب • اســمع يا لامبير • أنا لى « فكرتى ، • فاذا لم ينجع المشروع ولم أتزوج ، فسـوف أرتد الى فكرتى • أما أنت فليس لك فكرة •

ـ طيب طيب • ستحدثني عن هذا • هيًّا بنا !

ـ لن أذهب الى بيتك !

ونهضت ، وأنا لا أزال أقول :

_ لا أريد أن أذهب ، ولن أذهب ، سأجيء اليك ، ولكن ما أنت الا وغد ، سأعطيك ثلاثين ألفاً ، ليكن ، لكنني أطهر منك وأببل منك ، أما هي ، فانني أمنعك حتى من أن تفكر فيها : انها فوقنا جميعاً ، ما خططك الا قدارات استغربها حتى منك أنت ، أريد أن أتزوج ، هذه قضية أخرى ، ولكنني لست في حاجة الى ثروة ، أنا أحتقر الثروة ، لن أقبيل ولو قدمت لى ثروتها راكعة ، ٠٠٠ أن أتزوج ؟ هذه مسألة أخرى ، ثم ، ٠٠٠ هل تعلم ؟ صدقت حين قلت ان على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن ، حسن أن يحب الرجل ، أن يحب حباً قوياً مشبوباً ، بكل ما يقدر عليه الرجل وتعجز عنه المرأة ،ن عظمة حستبداً ، ذلك أن المرأة ، النفس ، ولكن يجب أن يكون الرجل طاغية مستبداً ، ذلك أن المرأة ،

یا لامبیر ، تحب الاستبداد ، آنت یا لامبیر تعرف النساء ، ولکنك فی کل ما عدا ذلك غبی غبساء ینیر الدهشة ، ثم هل تعلم یا لامبیر ؟ ما آنت بالمقرز الی الحد الذی یتصوره المرء حین براك ، آنت بسیط ، أحیسك یا لامبیر ، آه یا لامبیر ، لماذا آنت وبش ؟ الحیاة معك یمكن أن تكون ملأی بالفرح والمرح ! هل تعلم یا لامبیر ؟ أنا أری أن تریشاتوف لطیف ودیع ،

هذه الجمل الأخيرة المفكة التي لا يربطها رابط انما تستها بعد أن صرنا في الشسارع ، انني أتذكر أيسر التفاصيل : يبجب أن يرى القارى، كيف أمكنني عندئذ أن أمقط في مشل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شب في نفسي من حماسية ، وكل ما حلفته من أيمان ، وكل ما قطعته من عهدود لأرجع الى الخير وأبحث عن الجمال ، قسما ما كنت لأعترف بهذه المخازي على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، لولا اقتناعي الكامل النام بأن الحياة قد أحالتني انسانا آخر تعلم الحياة العملية وتعودها ،

كنا قد خرجنا من الدكان ، وكان لامبير يسندنى محيطاً بذراعه قامتى ، ورفعت اليه بصرى فجأة ، قرأيت فى نظرته الثابنة المتفحصة اليقظة المختلسة ذلك التمبير نفسه الذى رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح ، فقادنى محيطا بذراعه قامتى ، على هذه العسورة تماماً ، الى أن أوصلنى الى عربة ركبتها ، وكان يصنى بأذنيه وعينيه جميعاً الى تعتماتى المفككة التى لا يربطها رابط ، ان الأشمعاص الذين أتملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكراً تاماً ، توافيهم على حين فجأة المخلان صحو كامل ،

قلت له بصلابة وأنا ألقى عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عنى : - لن أصحبك الى بيتك بحال من الأحوال ! .. طب طب . سآمر آلفونسين بأن تهيى النا شايا .

كان مقتماً أعمق الاقتـاع بأننى لن أفلت منــه • وكان يحيطنى بذراعه ويسندني مغتبطاً أعظم الاغتباط ، لأنه أطبق على فريسته • لقد كان محتاجاً الى في ذلك المساء ذاته ، وأنا على هذه الحال نفسها • وسترون سبب ذلك فيما بعد •

كررت أقول :

ـ لن أذهب معك! يا حوذي!

وكانت زلاجة تمسر في تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها • فزأر لامبير خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدني من معطفي :

... الى أين تذهب ؟ ما هذا الذي تفعل ؟

فصحت أقول له :

ــ ولا تحاول أن تتبعني ، لا تجر ورائبي !

وضرب الحوذى حصانه بسوطه ، فسارت العربة ، وأفلت معطفى من يدى لامبير • فصرخ لامبير وراثى يقول بصوت خبيث :

ــ سيان! لسوف تجيء!

ـ أجيء اذا أردت •

كذلك أجته من العربة وأنا التفت المه •

لم يلاحقنى ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن أنه لم يقع على عربة فوراً ، فاستطعت أن أفلت منه ، ولكن ما ان وصلت الى ، سوق العلف ، حتى نزلت من العربة وصرفتها ، كان بى شوق جنونى الى المشى ، لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد ، وانما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة ، وبقدرة خارقة على القيام بأى عمل ، وبأفكار لذيذة لا نهاية لها تزدحم فى رأسى ،

وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته ، وكان كل شيء في نظرى فاتناً وسهلاً ، فلما وصلت الى أول مخفر بسوق العلف شبت في نفسى رغبة قوية في أن أمضى الى الحنير فأعانقه وأقبله ، وكان الجليد يذوب ، وكان الميدان مظلماً ، وكانت تفوح فيه روائع كريهة ؛ غير أن كل شيء كان يعجبنى ، حتى هذا الميدان ،

قلت لنفسى: « سأسير الآن فى شارع أوبوخوف ، ثم التفت يسرة فأمشى فى شارع سيمينوفسكى ، فأكون قد درت دورة ، هذا لذيذ ، وكانت أزرار معطفى محلولة : لا أحسد يشد معطفى ، أين هم اللمسوص اذن ؟ يقال ان فى « ميدان العلف » لصوصاً ، فما بالهم لا يتقدمون منى ! قد أعطيهم معطفى ، ما حاجتى اليه ؟ المعلف تملك ، و « كل تملك سرقة » ، ولكن كفى بلاهة ! ما أجمل كل شى الما أحلى أن يذوب الجليد ، علام الجليد ؟ ما ينبغى أن يكون جليد ، ما أحسن

ان يقول المرء سنخافات . عجيب ، ماذا قلت للامبير عن المبادى، ؟ قلت النه لا مبادىء بل حالات خاصة ، كذبت ، كذبت أكبر الكذب ، كذبت متعمدا ، لادهشه واذهله ، هذا عيب ، هذا خزى ، ولكن لا ضير ، سأصلح الامر ، لا تشعر بعار يا آركادى ماكاروفتش ، لا تعذب نفسك ! انك تعجبنى يا آركادى ماكاروفتش ، بل انك تعجبنى كثيراً يا صديقى الشساب ، خسارة أن تكون وغداً صغيراً ،، و ،، و ، و ، آه ،

وقفت فجأة وانتشى قلبى من جديد •

« رياه ! ماذا قال ؟ قال انهما تحبني ! يا للسمافل ! لقد كذب • قال ذلك لأصبحبه فأقضى الليلة عنده • ولكن قد أكون مخطئاً • قال ان آنا آندريفنا تعتقد بهذا هي أيضاً ٠٠٠ هيء هيء ! لعل داريا أونيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئًا : انها تحشر أنفها في كل مكان • ثم لماذا لم أصحبه الى بيته ؟ لو صحبته لكان يمكن أن يحكى لى كل شيء ٠ هم ١٠٠ ان له خطته • أوجست هذا وتنبأت بجميع تفاصيله • حلم • انك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامبير . ولكنك تكذب . لن تجرى الأمور هذا المجرى • ولكن قد تجسري هذا المجرى ! قد تجسري ! هل هو يعجز عن تزویجی ؟ انه فادر علی هذا قدرة تامة ٠ هو ساذج وهو یصد ِّق ٠ هو غبى وجرىء ، كجميع رجـال الأعمال • اجتماع الغباء والجسارة قوة كبيرة • اعترف يا آركادي ايفانوفتش ، اعترف أنك خفت من لامبير! وما حاجتــه الى رجال شرفاء ؟ انه قال هذا الكلام جاداً : ما من رجل شريف هنا ! ولكن ماذا أنت ؟ هوه ! ما هذا الذي أقوله ؟ ألبس الأوغاد في حاجة الى شرفاء ؟ ان الحاجة الى الشرفاء هي في الأعمال السافلة أشد منها في أي منجال آخر ٠ هأهأهأ ! كنت لا تعسرف هذا بعد يا آركادي ماكاروفتش ، من شدة براءتك ! يا رب ! ماذا لو زوجني حقاً ! وتوفَّفت مــرة ً أخــرى • يجب ان أعترف هنــــا بأمر سخيف (مادام هذا الامر يرجع عهده الى زمان بعيد ﴾ ، يحجب ان اعترف بانني كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج • بل قل اتنى كنت لا أويد هذا ، وما كان لهذا أن يحــدث (وهو لن يحــدث أبداً ، أقســــم على ذلك شرفی) ، لکننی کنت قد حلمت بالزواج مسراراً کثیرۃ ، خلال مدۃ طويلة ، قلت لنفسي عــداً لانهــاية له من المرات: ما أحلى أن أتزوج ! وكان يحدث لى هذا كل مساء حين أستلقى في فراشي لأنام • بدأ ذلك عندى وأنا في السادسة عشرة من العمر • كان لى في المدرسة النانويه رفبق اسمه لافروفسكي . هو فتي لطيف جداً ، وهاديء ، وجميل . ولكن هذه مزاياه كلها لا ميزة له غيرها • كنت لا أكاد أكلمه أبداً • نم اذا نحن نجـد نفسينا في ذات يوم وحيدين ، قد جلس كل منــا بحانب الآخـــر • كان غارقًا في التفكير • وها هو ذا يقول لي فحـــأة : « أه يا دولجوروكي ! ما رأيك ؟ ليتنا نتزوج ! ومتى نتزوج اذا لم نتزوج الآن؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج. ومعذلك يستحيل الزواج!». ة الله ما قاله صـــادقاً مخلصـــاً · فشعرت بانني أوافقــــه على رأيه بكل نسى ، لأننى كنت أحلم هذا الحلم من قبــل • والتقينا بعـــد ذلك عــد: مرات متتالية ، فكنا تكلم في هذا الأمر دائماً ، متخفين منكتمين ، وبعد ذلك انفصلنا ، لا أدرى لماذا ، وانقطعنـــا عن التخاطب • في ذلك الحين اذن انما أُخَــذت أُحلم بالزواج • ولــكن علام أَذكر كل شيء ؟ انني ما تحدثت عن تلك الفترة الا لأبين كيف أن الأمـــور يرجع عهدها في بعض الأحيان الى زمان بعيد •••

قلت لنفسى وأنا استمر فى المشى : « ليس هناك الا اعتراض هام واحد : ان فرقاً طفيفاً فى السن لن يكون عقبة ؟ ولكن شمى اوستقر اطية ، وأنا دولجوروكى فحسب! هذا سىء جداً! هم من من ستطيع فرسيلوف

اذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبناني ٠٠٠ مكافأة الأب على خدمات ٠ كــان للأب على خدمات ٠ كــان وسيط صلح ٠ آه ٠٠٠ ما هذه الدناءة التي أنحط اليها ! ٢ ٠

هتفت هذا الهتاف ، ووقفت مرة ً ثالثة على حين فجأة ، لكنني في هذه المرة كتن كمن سحق في مكانه سحقًا • أحسست بمذلة ألمة من هذه الفكرة التي أمكن أن تخطس بسالي وهي أن أغير اسسمي بالشني فأخون كل طفولني • وبدَّد هذا كلَّ ما كنت أحسه من بهجة ، وطاد فرحي دخاناً • قلت محدثاً نفسي وأنا أحمر احمراراً فظيعاً : « لن ¢ لن أَفْضَى بَهِذَا الَّى أَحَدَ ٢ وَلَتُنَ انْحَطَّطَتَ الَّى هَذَهُ الدُّنَاءَةُ كُلُّهَا ٢ فَذَلْكَ ٥٠٠ فذلك لأننى عاشق وغبي + لا ، اذا صــدق لامبير في أمر ، فقد صدق حين قال ان المرء في هذا الزمان لا يحتماج الى هذه السمخافات ، وان الشيء الأساسي في عصرنا انما هو الشخص ثم ماله • بــل الشخص ثم قوته لا ماله • انني أسنطيع بهذه الثروة أن أنطلق في تحقيق « فكرتي »، فما هي الا عشر سنين حني يترجع ذكر اسمي في روسيا كلها ، وأنتقم من الجميع • ولا حاجة بي معها الى هذا الاحتفال كله ! هنا صدق لامير أيضاً : لسوف تخاف فتتزوجني • الأمر بسيط • سوف توافق ببساطة تامة ، على أتفه نحو • وتذكرت أقوال لامبير : • انك لا تعرف في أي ماخور تم منذا ، ، فقلت أحدث نفسي مؤيداً كلام لامبير : « صحيح ٠ وأصدق رأياً من فرسسيلوف ، ومن سنائر هؤلاء المثاليين ! انه رجــل واقعى • ســوف ترى أن لى ارادة صلبة • رسوف تقول : ان له ارادة صــــلبة ٠ ، لامبير وغــد ٠ وهو لا يفكر الا في أن يحصــــل منى على ثلاثين ألفاً • ولكنه صديقي الوحيــد ، رغم كل شيء • ما من صداقة أُخْرِي ممكنة • ان الذين تخيلوا هذا أناس عمليون • وأنا لا أذلها مي •

هل أنا اذلها؟ ابدا • النساء جميعا سواء • هل في الدنيا كلها امراة غير دنيئة ؟ لهذا هن في حاجة الى الرجل • لقد خلقن عبيداً • المرأة رذيله وفضيحة ، والرجل نبل وكرم • وستبقى الحال على هذا المنوال الى اخر الدهر • اننى أفكر في استغلال الوثيقة : أي ضير في هذا ؟ هذا لا ينفى النبل ولا الكرم • ليس في هذه الحياة شيللر كامل لا تشوبه شائبة • النبل ولا الكرم • ليس في هذه الحياة شيللر كامل لا تشوبه شائبة • تلك صورة لفقها الحيال • لا قيمة للوسيلة الدنيئة اذا كانت الغاية نبيلة • ثم 'يغسل كل شيء فلا يبقى أثر من وساخة • هذه رحابة الفكر ، هذه هي الحقيقة العملية • كذلك يجب أن تسسمى الأموو اليوم ! ، •

أعود فأستغفر القارئ عن ذكر كل هذا الهذيان الذي دار في رأس سكران ، استغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شيئاً ، ان ما ذكرته هو زبدة الأفكار التي تلاحقت في رأسي آنسذاك ، لكنني أظن مع ذلك أنني استعملت هذه العبارات نفسها ، وكان لابد لي أن أنقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسي ، والا لم يبق ما أحكم عليه ، هل في الحياة ماهو أخطسر من هذا ؟ وليست الحمر بمبرر ، فقديماً قال المشسل اللاتيني : «الحمر تكشف » ،

وفيما كنت مسترسلاً في هذه الأحلام غارقاً في هذه الأخيلة ، الاحظات أنني قد وصلت الى البيت ، أعنى بيت أمى • حتى أننى لم ألاحظ كيف دخلت • ولكن ما ان وضعت قدمي في حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث • ففي الغرف 'يسمع كلام و'يطلق صراخ ، وأمى تبكى • وكادت لوكيريا أن تقلبني وهي تمسر كالاعصار من غرفة ماكار ايفانوفتش الى المطبخ • فخلعت معطفي ، ودخلت غسرفة ماكار ايفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها •

كان في الغرفة فرسيلوف وأمى • وكانت أمي متهالكة على ذراعي

فرسيلوف ، وكان فرسيلوف يشدها الى صدره شدا قوياً ، وكان ماكار ايفانوفتش جالسا على المقعد كعادته ، لكنه يبدو منهارا لا قوة له ، فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط ، وكان واضحاً أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط ، فلما تقدمت تحوه بخطوة سريعة ، ارتعدت وأدركت كل شيء : كان الشيخ ميتاً ،

لقد مات منذ قليل ، ربما قبل وصولى بدقيقة واحدة ، كان قبل عشر دقائق لا يحص بأى تغير فى حالته ، ولم يكن عنده الاليزا ، كانت جالسة " بجانب تحدثه عن حزنها وتفضى اليه بأشبجانها ، وكان هو يلاعب رأسها كما فعل بالأمس ، ثم اذا هو يرتجف على حين فجأة (هذا ما روته ليزا) ، وقد أراد أن ينهض ، وأراد أن يصرخ ، لكنه لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسرصامتا ، قال فرسيلوف : «هو القلب ! ، وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من فى البت يهبون واقفين ، وهرع الجميع ، حدث هذا كله ربما قبل وصولى بدقيقة واحدة !

صرخ فرسيلوف يقول لى :

ــ آركادى ! اركض فوراً الى تاتيانا بافلوفنــا ! هى الآن فى بيتها حتماً • فقل لها أن تأتى فوراً • اركب عربة • أسرع ، أرجوك •

كانت عيناه تسطعان ، أنذكر هذا تذكراً واضحاً ، لم ألاحظ في وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً ، ان أمى وليزا ولوكيريا هن اللواتي كن يبكين ، بل اني لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ بصرى في وجهه انما هو اهتياج شديد ، نوع من حماسة ، وركضت متجها الى ببت ناتيانا بافلوفنا ،

ليس الطريق طويلاً • تعلمون هذا مما سلف • لم أدكب عربة ، وانما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف • كنت مضطرب الفكر ، حتى

لأكاد أكون متحمساً أنا أيضاً • لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع • فلما وصلت الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، كان سكرى قد تبدد تماما ، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة •

فتحت الفنلندية الباب وقالت : « السيدة خرجت ! » ، وهمتَّت أن تغلق ثانية ً •

فقلت وأنا أقتحم الباب الى حجرة المدخل اقتحاماً :

_ خرجت ؟ كيف ؟ مستحيل • مات ماكار ايفانوفتش !

فاذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوِّي من خلال باب صالونها المغلق :

_ ما ٠٠٠ ذا ؟

مات ! ماكار ايفانوفتش ما مات ! يرجوك آندره بتروفتش أن تجئى حالاً •

_ كذاب!

وصر ً المزلاج ، ولـكن الباب لم يفتح فتحاً وانما شق ً بمقدار اصبع :

- _ « ماذا حدث ؟ قل ! » •
- ــ لا أدرى وصلت الى البيت فوجدت ماكار ايفانوفتش ميتــاً آندره بتروفتش يقول : « هو القلب ! » •
- ــ حالاً ، حالاً! اركض · قل انى آتيــة فوراً · هيا اذهب · ما بالك لاتذهب! ماذا ؟ ما بقاؤك واقفاً هنا ؟

لقد رأيت رؤية واضبحة من خلال الباب المشقوق ، ان أحداً خرج من وراء الستارة التي تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا ، وتسمس في قرارة الفرفة ، وراء تاتيانا بافلوفنا ، فوجدتني أضع يدى على المزلاج آلياً ، غريزياً ، بحيث لا يمكن اغلاق الباب ثانية .

ــ آركادي ايفانوفتش ! هل صحيح أنه مات ؟

انه صوت أعرفه ، صوت رقيق عذب متسق ، يرن رنين المعدن ، هز ً أعماق نفسي منذ سمعته + وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر •

قالت تاتيانا فافلوفنا وهي تترك الباب فجأة :

- اذا كان الأمر كذلك ، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان • أنت التي أردت هذا !

وولتّت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً ، وتهرع الى السلم • وبقينا وحيدين • نضوت عنى معطفى ، وتقدمت خطوة ، وأغلقت الباب •

كانت وافغة أمامى كما حدث فى لقائنــا السابق ، مشرقة المحيا ، واضــــحة النظرة . وكما فى المرة الماضية مدت الى كلتا يديها . وكأن منجلاً قطع ساقى ، فاذا أنا أهوى على قدميها .

أخذت أبكى ، لا أدرى لماذا ، لقد نسيت الآن كيف أجلستنى بعجابها ، ولكننى ــ وهذه ذكرى ثمينة ــ وأيتنا جالسين جنباً الى جنب ، قد أمسك كل منها يد الآخر ، واندفعنا في حديث سريع ، سالتنى عن النسيخ وعن موته ، فحكيت لها ما أعرف ، فلو رآنى أحد أثناء ذلك لظننى أبكى على ماكار ايفانوفتش ، ولكان ذلك ذروة السخافة ، وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض في بلاهة كهذه البلاهة العميانية ، وثبت الى نفسى أخيراً على حين فجأة ، وشعرت بخزى وعار ، أفترض الآن اننى انما بكيت حينذاك من فرط الحماسة ، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً ، فأنا من هذه الناحية مطمئن ،

وبدا لى فنجأة أن من المستغرب جداً أن تسألنى بمثل هذا الالحاح عن ماكار ايفانوفتش • فسألتها مدهوشاً :

_ هل تعرفينه ؟

فأجابت :

ــ منذ مدة طويلة • اننى لم أره يوماً • ولكنه لعب فى حياتى دوراً • سمعت عنه أشــياء كثيرة فى الماضى من الرجــل الذى أخشـــاه • تعرف من أعنى •

ـ أعرف الآن أن « ذلك الرجــل » كان أقرب الى نفســك كثيراً مما أظهرت •

قلت لها ذلك وأنا لا أدرى ما الذى أردت أن أعبر ً عنه ، ولكننى قلته مؤاخذاً مقطب الجيين .

تابعت مساءلتي فقالت دون أن تصغي الى كلامي :

- تقول انك رأيته يقبل ماما منذ قليل ؟ قبلها ؟ رأيته بعينيك ؟ فأسرعت أجب مؤكدا ، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً :

ــ نعم رأيت • وصدِّقى أن ذلك كله كان صــادقاً كل الصدق كريماً كل الكرم •

قالت وهي تزسم اشارة الصليب:

- الحمد لله • الآن تحلل من أغلاله • كان هـذا الشيخ يكبـل حيـاة آندره بتروفتش بالأصـسفاد • ولسوف ينبعث الشعور بالواجب والشعور بالكرامة في نفسه من جديد ، كما حدث هذا مرة من قبل • ذلك أنه رجل كريم قبل كل شيء • وسوف يهدي، قلب ماما التي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذه الحيـاة ، وسيهدا هو نفسه أخيراً • الحمد لله • آن الأوان •

۔ هل هو عزيز عليك ؟

۔ نعسم ، عزیز ج۔۔دآ ، ولسکن لیس بالمعنی الذی بریدہ ہو وتقصدہ آنت ۰

سألتها فجأة:

ولكن الآن ، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه ؟

ــ هذه أسئلة صعبة • لنتركها !

لنتركها ، سم ، ولكننى كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً ، ولعله هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل ، مهما يكن من أمر ، آنت على حق ، لقد تبدل الآن كل شيء ، واذا كان أحد قد 'بعث بعثاً جديداً فهو أنا ، لقد انحططت بتصوراتي وأفكاري انحطاطاً شديداً تجاعك يا كاترين نيقولايفنا ؟ ولعلني ، منذ ساعة لا أكثر ، قد ارتكبت عملاً دنيئاً في حقك ، ولكن اعلمي أنني الآن ، وأنا جالس بجنبك ، لا أحس بشيء من عذاب الضمير ، ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك أن كل شيء قد تبدل ؟ والرجل الذي كان منذ ساعة يضمر لك شراً أن كل ثيء ولا أريد أن أعرفه ،

ابتسمت وقالت :

_ أَفَقْ • لكأنك نهذي قليلاً •

تابعت كلامي قائلاً :

ـ وهل يستطيع المرء أن يسحكم على نفسه حين يكون معك ؟ سواء أكان حقيراً أم كان شريفاً فانك تظلين كالشمس لا يسكن الوصــول اليك و ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة ، منذ ساعة لا أكثر و يا للحلم الذي كان بصدد التحقق !

قالت وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة :

_ أظن أننى أعرف كل شىء • لقد أردت منذ قليل أن تنتقم منى ، وحلفت لتضيّعنتّى • ولا شـك مع ذلك فى أنك لو سمعت أحداً يتجرأ فيقول كلمة سوء فى حقى أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى •

صحیح أنها ابتسمت وكانت تمزح • ولكن مرد ً ذلك الى طیبة قلبها ، فقد عرفت فیما بعد أنها فی تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة بهم شخصی ضحم وبعاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث معى ولا تنجيب عن أسئلنى الجوفاء المحنقة الاكما يجيب المرء فى بعض الأحيان عن أسئلة سنخيفة يصر طفل صفير على القائها اصراراً عنيداً ، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح • وقد أدركت ذلك فجاة ، فشعرت بخجل وخزى ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أتوقف •

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتمي على نفسي :

ــ لا ، لم أقتــل الشخص الذي قال في حقك سوءاً ، بل أيتَّدته وشجعته !

ــ أرجوك ، ناشدتك الله ، لا تقصص على شيئا ، لا فائدة في هذا ، لا يجب هذا .

ومد ت يدها لوقنى عن الكلام ، حتى لقد ظهر فى وجهها ألم ، ولكننى كتت قد وثبت ووقفت أمامها لأروى لها كل شىء ، ولو قد فملت لما حدث ما حدث بعد ذلك ، لأننى كنت سأنتهى حتماً الى الاعتراف لها بكل شىء ، والى تسليمها الوثيقة ، ولكنها انفجرت تضحك على حين فحأة قائلة :

- لا داعى الى الكلام • ما أنا فى حاجة الى شىء • دعك من التفاصيل ! جرائمك كلها ، أنا أعرفها • أراهن أنك أردت أن تتزوجنى، أو أردت شيئًا من هذا القبيل ، وأنك قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك ، هو رفيق من رفاقك القدامى فى المدرسة • • • أظن أننى حزرت !

بهذا هتفت وهي تحدُّق اليُّ ٠

فقلت لها منمتماً كما يتمتم أبله ، وقد اعتراني شده وذهول :

ـ كيف ٠٠٠ كيف أمكنك أن تحزري ؟

ـ أين الصعوبة في هذا ؟ ولكن كفي كفي ! انى أغفر لك ، ولكن كف عن الكلام في هذا الأمر •

حتى لقد حراكت يدها باشارة تنم عن شدة التململ • وأردفت تقول:

_ أنا أيضاً أحب أن أحلم • ليتك تعلم الأساليب التي ألجأ اليها في أحلامي ، حين لا يصدني شيء! كفي! انك لا تزيد على أن تبث الاضطراب في نفسي • يسرني جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت • كنت أريد كثيراً أن أراك ، فلو بقيت لا استطعنا أن نتكلم كما نتكلم الآن • أطن أنني مذنبة في حقك ، مسئولة عما وقع لك حينداك • أليس كذلك ؟

ـ أنت؟ مذنبة ؟ ولكننى أنا الذى أسلمتك « اليه » • ترى ما عساك قلت عنى ؟ لقد ظللت أفكر فى هـذا الأمر طول الوقت ، فى جميع هذه الأيام ، كلَّ لحظة ، أفكر فيه وأحس به •

لم أكذب عليها • قالت :

_ أخطأت اذ عذ "بت نفسك هذا التعذيب و لقد أدركت أنا على الفور كيف حدث كل شيء و لقد كشفت كه ، بكل بساطة ، وأنت في غمسرة الفسرج ، أنك تحبني و وووو أنني ، وأنني كنت أدع لك أن تتكلم وأصغى اليك و ذلك أنك لم تتجباوز من عمسرك العشرين و أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره ، وتبحث فيه عن صديق ، عن مثل أعلى ، وقد أدركت أنا هذا حق الادراك و ولكن بعد فوات الأوان و صحيح أنني أخطأت أنا أيضاً ، لا شك في هذا ، لكنني كنت معتكرة المزاج مكفهرة النفس ، فأمرت بألا "تقبسل في البيت بعد ذلك و وعدالد الما وقع ذلك المشهد أمام الباب ، ثم كانت تلك الليلة و

اعلم اننى طول هذا الوقت كنت أحلم ، مثلك ، بأن أراك خفية ، لكننى كنت لكننى كنت لا أعرف السبيل الى تحقيق هذه الأمنية ، وما الذى كنت أخشاه أكثر من أى شىء آخر فيما تظن ؟ لقد كنت أخشى أن تصد ق نمائمه عنى وأقاويله فى حقى ،

هتفت أقول:

_ أبداً!

.. اننى أقد ّر لقاءاتنا الماضية • وما أحبه فيك هو الفتى المراهق ، وربما هذا الصدق أيضاً • • ذلك أن لى طبعاً يتصف بالجد • أعلم اننى بين نساء عصرى أكثرهن صرامة وجداً • هأ هأ هأ ! لسوف يتاح لنا أن تتحادث كثيراً ، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البسال • اننى الآن منفعلة انفعالا شديداً • • بل اننى فى حالة هستريا • ولكن ، أخيراً ، سوف يتركنى وشأنى أعيش فى سلام !

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغير ارادة • وقد فهمتها أنا فوراً ولم أشأ أن أتلبث عليها • لكننى كنت أرتجف ارتجافاً شديداً •

ثم عادت تهتف من جدید كأنها تحدث نفسها :

ــ هو يعلم أننى غفرت له ا

فلم أتمالك نفسي فهتفت أسألها:

ــ كيف أمكنك أن تغفرى له تلك الرسالة • وكيف يستطيع أن يعرف هو أنك غفرت له ؟

فتابعت كلامها تجيبنى ، ولكن كأنهـــا لاتخاطبنى وانما هي تحدث نســـها :

ـ انه يعرف ! لقد استرد صــوابه الآن • كيف لا يدرك انهي

غفرت له وهو يعرف نفسى كلهـا على ظهر القلب ؟ انه ليعلم حق العلم أننى من نوعه تقريباً •

_ أنت ؟

ـ نعم ، وهو يعرف ذلك ، أنا لست مشبوبة العاطفة يل هادئة ، لكننى أنا أيضاً أحب أن يسكون جميع النساس أخياراً طيبين ، ٠٠٠ ليس عنا أنه افتتن بى حياً!

ـ فلماذا قال اذن انك تتصفين بجميع العيوب والنقائص ؟

به قال هذا كلاماً لا أكثر • أما رأيه الذي يكتمه سراً في قرارة نمسه فيختلف عن هدا الكلام كل الاختـلاف • ولكن أليس صحيحاً أن رسالته كانت مضحكة ؟

_ مضحكة ؟

كتت أصغى اليها بكل ما أملك من قوة الانتباء • وأظن أنها كانت تعانى نوبة هستريا حقـاً ، و ••• أنهـا ربمـا كانت لا تتكلم من أجلى أنا أبداً • ولكننى لم أستطع أن أمسك عن مساءلتها • قالت :

_ مضحكة قطعاً • ولشدما كان يمكن أن أضحك لولا • • • لولا أننى كنت خانفة خوفاً شديداً • لست مع ذلك جبانة • لا يذهبن بك الظن الى أننى جبانة • لكن رسالته قد حرمتنى من النوم تلك الليلة • لكأنها كتبت بدم ، بدم رجل مريض • ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعد رسالة كتلك الرسالة ؟ اتنى أحب الحياة ، وأخاف على حيساتى كثيراً • في هذه النقطة أنا جبانة حقاً •

وهتفت فجأة تقول :

_ اذهب اليه • هو الآن وحيد • أغلب الظن أنه لم يبق هناك • لابد أنه مضى الى مكان آخر • فأدركه بأقصى سرعة ، يجب أن تدركه ، اركض البه ، وأظهر له انك ابنه المحب ، وبرحن له على أنك فتى طيب لطيف ، يا عزيزى الطالب ، وعلى أننى ٥٠ لا ١٠ اتنى أسأل الله أن يهب لك السعادة + أنا لا أحب أحدا ، ذلك أفضل ، ولكننى أتمنى السعادة للجميع ، للجميع ، وأتسناها له قبل أى انسان آخر • ألا فليعرف هذا ٥٠٠ فيعرف حالاً • سيسر أم كثيراً أن يعرف ٥٠٠

ونهضت ، واختفت فجأة وراء السنارة • كانت دموع تلتمع فى وجهها حيسة ال (دموع هسترية بعد الضحك) • بقيت وحيداً ، مضطرباً • كنت لا أعرف حقاً الى أى شىء يجب أن أعزو مشل هذا الانفعال الشديد الذى ما كان لى أن أفترضه فيها • وانقبض صدرى •

انتظرت خمس دقائــق ، ثم عشراً ، وأدهشنى الصمت العميق فجأة ، فقررت أن أنظر من الباب وأن أنادى ، فلما ناديت ظهرت لى ماريا فأعلنت لى بلهجة هادئة ، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة ، وغادرت البيت خارجة من سلم الحدم ،

الفصل السابع

)



یکن ینقصنی الا هذا • تناولت معطفی ، ولبسته بسرعة ، وهرعت أخرج وأنا أتسامل : • انها تسرید أن أذهب الیه ، فأیسن یمسکننی أن أجده ؟ » •

غير أن هنساك ، عدا هذا كله ، سسوالاً كان يحيّرني : « لماذا تتصور أن الزمان قد تبدل الآن ، وأنه سيدعها وشأنها تعيش في سلام ؟ لأنه سيتزوج ماما قطعاً • ولكن ما علاقتها هي بهذا ؟ أيبهجها أن يتزوج ماما أم يشقيها ؟ أليس هذا هو ما يجعلها في حالة هستريا ؟ مأ أعجزني عن حل هذه المشكلة ! » •

اننی استجل هذا الخاطر الثانی الذی لمع فی ذهنی سریماً كالبرق ، أسجله للتذكرة ، ان له شأنا كبيراً ، كان ذلك المساء حاسماً ، ان المرء مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر : فاننی ما ان قطمت مائة خطوة متجها الی بیت ماما ، حتی اصطدمت بالرجل الذی كنت أبیحث عنه ، وضع یده علی كثفی ووقف ، وهتفت یقول فرحاً مدهوشاً فی آن واحد :

_ أنت ؟

وأضاف مسرعًا في الكلام :

- تصور آننی ذهبت الی بینك ساعیاً الیك ، وسالت عنك : أنت وحدك من أحتساج الیه الآن فی الكون كله ! لا أدری بماذا أجابنی صاحبك الموظف ، مؤجر بیتك ، لقد طفق یقول أشیاء كثیرة المهم أنك لم تكن هناك ، فانصرفت من عنده ، ناسیاً حتی أن أطلب منه ابلاغك أن تجیء الی فوراً ، وفیما أنا أمثی راجعاً ، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا یتزعزع بأن القدر لا یمكن الا أن یضعك فی طریقی فی هذا الوقت الذی أحتاج فیه الیك هذا الاحتیاج الشدید كله ، فكنت أول شخص ألقاه ، هلم بنا الی بیتی ، انك لم تزرنی حتی الآن فی یوم من الأیام ، ، ، ،

الحلاصة أن كلاً منا كان يسمى الى الآخر ويبحث عنه ، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة • وحثتنا الخطى • في الطريق لم يوجِّه الى ً الا بضع جمل قصيرة : انه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا ، النح النح • وكان يقودني ممسكاً ذراعي • لم يكن بيته بعيداً ، فسرعان ما وصلنــا • لم أزره قبــل اليوم فعلاً • هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قل استأجرته تاتيانا بافلوفنــا) لســكني « الطفل الرضيع ، لا أكنر • وقد كانت تاتيانا بافلوفنـــا هي التي تشرف على البيت مع خــادم للطفل (هي الآن داريا أونيسيموفنا) • ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هي الغرفة الأولى التي تقع على يمينك حين تدخل • انها غرفة واسعة حسنة الأثاث ، هي نوع من حجرة للقراءة والعمل • فعلى المائدة وفي الخزانة وفوق الرفوف ، يرى المرء كنَّماً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً) ، وأوراقاً فيها كتابة ، وحزم رمسائل ، الخلاصـة أن هذا كله يشير الى أن المكان ركن مسكون منسذ مدة طويلة ، وكنت أعرف أن فرمسيلوف كان ينتقل الى هذا البيت من وقت الى آخــر (ولو نادراً) ، فيمكث فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع في بعض الأحيان •

ان أول شيء لفت انتباهي صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب

ضمن اطار رائع من خسب محفور • واضح أن الصورة قد أخذت لها فى المخارج ، وانها بحكم كبرها النادر شىء ثمين • لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الان ، ولا سمعت عنها • غير أن ما خطف بصرى خاصه هو سبهها الكبير بماما • انه شبه روحى ان صح النعبير : لكانها صورة رسمتها يد فنان صناع ، ولم يلتقطها جهاز آلى • فما ان دخلت حتى رأيتنى أقف أمام الصورة جامداً رغم ارادتى •

قال فرسیلوف :

_ أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كان يريد أن يقول: « أليست تشبهها حقياً ؟ ، • فالتفت اليه ، ففجأني تعبير وجهه • كان شاحب اللون قليلاً ، غير أن نظرته المسدودة الحارة كانت تسطع سيعادة وقوة: لم أعهد في وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن •

فلت متحمساً على حين فجأة :

ـ ما كنت أعرف أنك أحببت ماما هذا الحب كله !

فابتسم ابتسامة سعيدة ، فيها مع ذلك ألم ، أو قل فيها عاطفة انسانيه أعلى ٥٠٠ لا أعرف كيف أعبر ! ولكن يبدو لى أن الانسسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة ، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة ، وهاهو ذا ، بدون أن يجينى ، يرفع الصسورة بكلتا يديه ، فيقربها منه ، ويقبّلها ، ثم يعود فيعلقها بالحائط ، قال :

لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على نسبه وسبب ذلك واضح : فالأصل ، أعنى كل واحد منا ، يندر أن يشبه نفسه و هنماك لحظات نادرة يعبِّر فيها الوجه عن السمة الأساسية في الانسان وعن فكره الذي يميزه و ان الفنمان يدرس الوجمه ، فيدرك

ذلك الفكر الأساسي ، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزا في الوجه اثناء الرسم • اما الفوتوغرافيا فانها تفاجىء الشيخص كما هو في اللحظة التي تلتقط له فيها الصورة • ومن الجائز جـداً أن يفاجأ نابولمون في لحظه من اللحظات غياً ، وأن يفاجأ بسمارك في لحظة من اللحظات رقيقا حنوناً • ولكن هناء في هذه الصورة ، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صونا في لحظتها الأساسية ، فظهرت على حقيقتها ، امرأة ً ذات خفر ، تفيض حبــاً رقيقاً ، ويشع منها عفاف فيه وجــل • ما أعظم السعادة التي ملأت جوانحها حين اقتنعت بأنني أرغب كثيرا في الحصول على صورتها هذه! ان هذه الصمورة لا يرجع عهدها الى زمن بعيد • ولكن صمونيا كانت في تلك الأيام أفتى وأجمل ! ومع ذلك كان خداها منذ ذلك الحين خاسفين ، وكانت لها هذه الغضون في الجيين ، وكان في نظرتها هذا الحياء الوجل ، وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبوز مزيداً من البروز شيئاً بعد شيء • هل تصدق یا صغیری ؟ انبی لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر ! ومع ذلك كانت ، هي أيضاً ، شابة وفاتنة ! ان النساء الروسات تدب البهن الدمامة بسرعة ، وينقضي جمالهن ، ولاشك في أن هذا لا يرجع الى خصائص في طبيعة الجنس الروسي فحسب ، وانما يرجع أيضاً الى أن النساء الروسيات يعرفن كيف يندفعن في الحب بـــلا تحفظ • اذا أحيت المرأة الروسنة ، فانها تهب كل شيء دفعة ً واحدة : تهب اللحظة والمصير ، الحاضر والمستقبل: انهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير ، انهن لا يدُّخرن. فسرعان ما ينتقل جمالهن الى من يحبين • هاتان الحدان الحاسفتان هما أيضاً جِمال ضحت لي به من أجل متعة قصيرة · أنت يسم له أنني أحست أمك ، ولعلك كنت لا نصدَّق أن أكون قد أحستها ، أليس كذلك ؟ بلي يا صديقي بلي ! أحببتها كثيرًا • لكنني لم أجلب لهـا في يوم من الأيام الا السوء • هناك صورة أخرى ، خذ ، انظر في هذه أيضاً .

تناول الصورة من على المكتب ومدّها الى وهي صورة فوتوغرافية أيضاً ، أصغر من صورة ماما كثيراً ، قد وضعت في اطار بيضوى من خشب نحيل : وجه فتاة هزيلة مصدورة ، لكنها جميلة ، ان الفتاة تفكر ، ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً ، قسمات متسقة ، طلعة تصنّفت وراقت بتعاقب الأجيال ، ولكنها تشعرك بأن فيها مرضاً : فكأن هذه الانسانة قد فاجأتها فكرة ثابتة ، فنالتها بعذاب شديد لأنها قوق طاقة قواها ،

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الحجل :

ـ هذه ۰۰۰ هذه هى الفتاة التي أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت بالسل ، أليس كذلك ؟ بنت زوجها « هي » •

- نعم ، أردت أن أنزوجها ، ماتت بالسل ، بنت زوجها ، كنت أعلم أنك تعلم ، تلك نمائم ، على كل حال ، ما كان يمكنك أن تعرف هنا شيئاً ، بغض النظر عن النمائم ، دع هذه الصورة في مكانها يا صديقي ، هي مجنونة شقية لا أكثر ،

_ محنونة تماماً ؟

_ أو معتوهة • لكننى أظن أنها مجنونة أيضاً • لقد ولدت ولداً من الأمير سرجى بتروفتش (عن جنون > لا عن حب > وهذا عمل من أدنا وأحقر أعمال الأمير سرجى بتروفتش) : والطفل هنا الآن > في هذه الغرفة • اننى منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل • والأمير سرجى بتروفتش لم يجرؤ أن يجيء الى هنا ليرى ولده • هذا اتفاق أبرمناه معا في الخارج • ضممت الطفل الى " باذن من أمك • وباذن من أمك > أردت أيضاً أن أتزوج تلك • • البائسة • •

قلت بيحرارة :

کیف یمکن اذن^۳ کهذا ؟

يمكن • ما كان لأمك أن تغار ! ليست تلك المختلة بامرأة !
 هنفت أقول :

- فى نظر الآخرين ليست امرأة • ولكنها فى نظر أمى امرأة • لن أصدق أبدا أن أمى لم تغر !

صدقت و لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء ، أى بعد أن أذنت أمك و ولكن دعنا من هذا و ان الأمر لم يتم ، لأن ليديا ماتت و ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية و على كل حيال ، أنا لا أدع لأمك أن تأتى الى الطفل ، حتى في هذا الحين و ذلك حيادت عارض مفى و يا عزيزى ، اننى أتنظرك هنا منذ مدة طويلة و اننى أحلم بلقاء بينا هنا منذ زمن طويل و هل تقدّر طول هذا الزمن ؟ سنتان و

قال ذلك وهو يلقى على ً نظـرة يتجـلى فيها الصدق ، وتعبر عن اندفاع من القلب حار • فتناولت يده ، وهتفت أسأله :

ـــ لماذا تأخرت ؟ لماذا لم تنــادنی ؟ لو علمت ما حــدث ، فأشرت لی بأصبعك أن أجيء اليك ، لما وقع الذي وقع ٠٠٠

فى تلك اللحظة جىء بالسماور ، ثم اذا بداريا أونيسيموفنا تدخل حاملة الطفل ، وكان الطفل نائماً .

قال فرسيلوف :

- انظر اليه ، اننى أحبه ، ولقد أمرت باحضاره لتراه أنت ، والآن أرجميه يا داريا أونيسيموفنا ، أجلس الى جانب السماور ، سأتخبّل أننا عشنا دائماً هكذا ، أنا وأنت ، وأننا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع ، دون أن ننفصل في يوم من الأيام ، دعني أنظر اليك : اجلس هكذا لأرى وجهك ، كم أحب ، هذا الوجه ، وجهك ! لطالما تصورته وتخبلته! لطالما انتظرتك وأنا بموسكو! تسألني لماذا لم أرسل من يجيئني بك منذ مدة طويلة ؟ انتظر ، لعلك ستفهم الآن ،

_ أيكون موت ذلت الشيخ هو الذي حل عقدة لسانك ؟ غريب ٠٠٠ نطقت بتلك الجملة ، ولكن ذلك لا ينفى أتنى كنت أنظر اليه بحب و وتحدثنا كما يتحدث صديقان ، بأكمل وأسمى معانى هذه الكلمة ، لقد جاء بى الى هنا ليشرح لى ، ليحكى لى ، ليبرر نفسه ٠٠٠ ولكن كل شىء قد اتضح و تبرر قبل كل كلام ، مهما أسمع منه الآن ، فإن الهدف قد تم بلوغه ، وكنا كلانا نعرف ذلك ، وكان كل منا ينظر الى الآخر بسعادة ، أجابنى يقول :

- لا ، ليس موت الشيخ هو الذي حمل عقدة لسماني ، ليس هذا الموت وحده هو الذي حل عقدة لساني ، هناك شيء آخر كان له تأثيره في هذا الاتجاه نفسمه ، بورك في هذه اللحظة ، وفي حياتما ، منذ الآن ، والى الأبد، لنتحدث ياعزيزى ، انني أبنعد دائما عن الموضوع، وأشرد الى غيره ، أهم أن أتكلم في شيء ، فاذا أنا أتوه في تفاصل شيء آخر ، ذلك يحدث دائماً حين يكون القلب طافحاً ، ولكن فلنتحدث ، أن الأوان ، واني لموله حباً بك منذ مدة طويلة يا صغيرى ،

ارتد فرسيلوف الى ظهر مقعده ، وجعل يتأملني مرة أخرى من الرأس الى القدمين •

قلت وأنا غارق في افتتاني :

ـ ما أغرب أن أسمع هذا ، ما أغرب أن أسمعه ! •••

ولكن هأنذا أرى الغضن المألوف الذي يعبّر عن الأسي والسخرية معاً ، هأنذا أرى هذا الغضن الذي أعسرفه حق معرفته ، يظهر في وجهه من جديد ، انني أتذكر هذا تذكراً واضحاً ، ولكن فرسيلوف تجدد ، وبجهد ، بدأ يتكلم ،

اسمع یا أركادی ، ما عسی كنت أقول لك لو نادیتك قبل الآن ؟
 كان ذلك جوابه كله •

_ هل تريد أن تقول انك اليوم زوج أمى وانك أبى ••• وانك ما كنت تستطيع أن تقول لى نسيئاً عن وضعى الاجتماعى ؟ هل هذا ما تسه ؟

- لا هذا وحده • هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر الى السكوت عنها • هناك أسياء مضحكة ، بل مذلة ، لأنها تشبه أن تكون مكائلا مشعبذين ، وألساب مهر تجين • كيف كان يمكن أن يفهم أحدنا عن الآخر ، اذا كنت أنا نفسى لم أفهم نفسى الا اليوم ، في الساعة الحامسة بعد الظهر ، أى قبل موت ماكار ايفانوفتش بساعتين تماماً ؟ أراك تنظر الى بارتباك واضح وحيرة أليمة • لانقلق ا سأشرح لك الأمر • غير أن ما قلته صحيح كل الصحة • حياة كاملة تنقضى في ترحال وشك ، ثم اذا بالل يأتى فجاة ، في يوم معين ، في الساعة الخامسة بعد الظهر • شيء مذل ، ألس كذلك ؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة ، لكان يمكن أن أشعر منه بعهانة حقاً •

كنت أصغى بحيرة ألبِمة فعلاً • وكنت أرى الغضن القديم في وجه

فرسيلوف ، بارزاً بروزاً قوياً ، الغضن الذي كنت أتمنى ألا أراه فيسمه ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام • وفجأة رأيتني أهتف قائلاً :

ــ هل وصلك د منها ، شىء ، هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة ؟ فنظر الى محدقاً ، وكان واضحاً أنه فوجىء بهتافى بل لعله فوجى، أيضاً بقولى « منها » ، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامة " يمازجها تفكر :

ــ ســتعلم كل شيء • ولن أخفى عنك شــيثاً مما يجب أن تعلمه ، فمن أجل هذا انما جئت بك الى هنا • ولكن فلنؤجل هذا الى وقت آخر • انني يا صديقي أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرتهم منذ طفولتهم ، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة في آبائهم وفي بيئتهم • وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد نمتليء قلوبهــم قلقـــاً منـــذ يــكونون في المدرسة ، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبــل الأوان • وبعد ذلك عددت نفسي واحــداً منهــم • ولــكن ••• معذرة یا عزیزی ، اننی آشرد شرودا غریباً • کنت أرید أن أقول اننی خفت عليك دائماً هنا ، طوال هذا الوقت تقريباً • كنت أراك دائماً كواحد من أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتصمون بالعزلة • أَمَّا أَيضًا ، مثلك ، لم أحبَّ رفاقي في يوم من الأيام • ما أكبـر شــقاء هؤلاء الصغار الذين 'يتركون لقواهم وحدها ، و'يتركون لأحلامهم ، وقد أُوتُوا ظمأ مشبوبًا الى الجمال ، ظمأ سابقًا لأوانه ، يكاد يكون مشبعًا بروح الانتقام ، نعم ، بروح ، الانتقام ، • ولسكن كفي يا عزيزي ، لقد شردت مرةً أخـرى • انني حتى قبـل أن يبـدأ حيى لك ، كنت أتخيلك أنت وأحلامك ، أحلام المعتزل المتوحش • ولكن كفي • لقد مسيت حقاً عمَّ كنت أريد أن أتكلم ٥٠٠ على كل حال ، هــذا كله أيضــًا كان يَجِب أن يقال + ماذا كان يمكنني أن أقول لك من قيل ؟ الآن أرى نظرتك ترمقني ، فأعرف أن « ابني ، هو الذي ينظر اليُّ • وما كان لي بالأمس ، بالأمس فقط ، أن أصدِّق أننى سلَّجد نفسى في يوم من الأيام متحدثاً مع ابنى كما أفعل اليوم •

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شــديداً بالفعل ، ولكنه كان يبــدو في الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً •

قلت مسلماً له نفسي كلها :

۔ الآن لم أعد فى حاجة الى أن أحلم ؛ الآن بكفينى أن تكون لى • لسوف أتبعك ا

- تتبعنى أنا ؟ ولكن ترحالى فد انتهى ، انتهى فى هذا اليوم نفسه : لقد وصلت متأخراً يا عزيزى ، اليوم ينتهى الفصل الأخير ، وتسدل الستارة ، طال هذا الفصل الأخير كثيراً ، لقد بدأ منذ زمن بعيد ، بدأ حين فررت الى الحارج آخر مرة ، تركت يومئذ كل شى ، واعلم أننى تركت يومئذ كل شى ، واعلم أننى تركت يومئذ أمك ، وأعلنت لها أننى تاركها ، يجب أن تعلم هذا ، قلت لها اننى راحل الى الأبد ، وانها لن ترانى بعدئذ قط ، وأسوأ من ذلك أننى نسبت حتى أن أترك لها شبئاً من مال ، وأنت أيضا لم تخطر ببلى لحظة واحدة ، رحلت منتوباً أن أبقى فى أوروبا يا عزيزى ، وألا أعود الى البيت أبداً ، هاجرت ،

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي :

دهبت الى هرتسن ؟ ذهبت لتكون داعية فى الحارج ؟ لابد أنك ساهمت طيلة حياتك فى مؤامرة من المؤامرات !

۔ لا یاصدیقی ، لم أشارك فی أیة مؤامرة ، أری عینیك تلتمعان ، أحب صبحاتك یا عزیزی ، لا ، لقد سافرت سأماً لا أكثر ، سافرت فی أعقاب ضجر تملكنی فحاًة ، هو ضجر سید روسی ، لا أجد فی تعریف هذا الضجر تعیراً أنسب ، ضجر سید روسی لا أكثر ،

جمحمت أقول لاهناً:

ــ القنانة ٠٠٠ تحرير الأقنان ؟

ــ لا ، لا يا صــديقي ! أتظن أنني آسف على نظام القنانة ؟ أتظن أنني لم أحتمل تحرير الاقتان؟ لا ، لا يا صديقي • نم اننا نحن الذين حررناهم • لقد هاجرت بدون أي حقد • كنت قبـل قليل وسيط صلح ، وقد بذلت جميع جهودي • اندفعت أعمل باخلاص وتفان ِ • ولثن كوفئت على لبراليتي مكافأة سيئة ، فان هذا نفسه لم يكن سبب رحيلي • لا أحد منا كوفيء حينذاك ، أقصد لا أحد من أمثالي . كانت العزة هي التي تدفعني الى الرحيل ، لا الندامة • هاجرت بــلا غضب ، بلا حقد ، بلا حسرة • صدِّق أنني لا أعتقد بأنه آن لي أن أختم حياتي حذاءً • • أنا سيد قبل كل شيء ، وسوف أموت سيداً • لكن هذا لا ينفى أننى كنت حزيناً • لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعي • ألف وجل لا أكثر • ولكن هذا العدد يكفي حتى لا تموت الفكرة • نحن حملة الفكرة يا عزيزي • يا صديقي ، انني أكلمك وفي نفسي أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس • لقد جثت بك الى هنا لا انقياداً لنزوة في قلبي ••• انني منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك ٥٠ نعم لك ٥٠ لك أنت! ٥٠ على كل حال ، على كل حال ٠٠٠

هتفت أقول :

ــ بل تكلم ، تكلم ، اننى أقرأ فى وجهــك الصــــدق ، ، ماذا عن أوروبا ؟ هل بعثتك أوروبا بعثاً جديداً ! ، ، ، وماذا كان ذلك الضجر ، « ضجر السيد ، ؟ سامحنى ، ، ، اتنى لناً أفهم بعد ،

ــ تسألنى هل بعثتنى أوروبا بعثـاً جديداً ؟ فاعلم اننى انما سافرت لأدفنها !

قلت مدموشاً:

_ لتدفنها ؟

فابتسم + وقال :

۔ آركادى ، صديقى ، الآن نفسى رقتَّت وفكرى اضطرب ، لن أسى أبداً لحظائى الأولى بأوروبا ، كنت قد عشت فى أوروبا من قبل ، ولكن ذلك كان فى عهد خاص ، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن ، ولا بمثل ذلك الحب ، سأصف لك واحداً من مشاعرى الأولى حينذاك ، هو حلم رأيته ، حلم حقيقى ،

« حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيا • كنت قد غادرت درسدن ، ثم تعباوزت المحطة التي كان ينبغي أن أغير فيها القطار ، تجاوزتها سهوا وغفلة فسرت في غير الاتجاء الذي كنت أريد أن أسير فيه • فما ان وصلت الى أول محطة تالية ، حتى نزلت • كان الجو صحوا • هي مدينة ألمانية صغيرة • دلوني على فندق • كان يجب على أن أنتظر : ان القطار التالى يمر في الساعة الحادية عشرة من المساء • ولقد سروت بهذه المغامرة سرورا كبيراً ، فلا شيء كان يستعجلني • الفندق صغير ردى • ، لكنه غارق في الحضرة وشرائط الأزهار ، على عادة القوم هناك • أعطيت غرفة صغيرة • ولما كنت قد قضيت المليلة كلها في القطار ، فسرعان ما نمت بعد الغداء ، في نحو الساعة الرابعة من الأصيل •

• فحلمت حلماً غير مألوف البتة ، ما رأيت مثله من قبل أبداً • ان في متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران 'جعل عنوانها في الكاتالوج

آسيس و جالاتي ، • أما أنا فقد سميت هذه اللوحــة دائمـاً * العصر الذهبي ، • لا أدرى لماذا ! لقد سـبق أن رأيت هذه اللوحـة • وقبـل

ثلاثة أيام لاحظتها مرة أخرى عابراً •

« فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم • لكنني لم ارها صورة" ، بل رأيتها وافعاً • انني لا أتذكر على وجه الدقة ما الذي رأيته في الحلم هذه الرؤية • ولكنني رأيت ، كما في اللوحــة ، ركناً من الأرخبيل اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة : أمواجاً زرقاء هادئة ، جزراً وصــخوراً ، شـــاطئاً مزهراً ؟ وفي بعد ، منظـراً كأنه السحر ، شــمساً غاربة تفتن النظر • يستحيل على المرء أن يصف هذا بألفاظ • انها الانسانية الأوربية تتذكر مهدها: ملأت هذه الفكرة شــعاب نفسى بحب كحب الابن أبـويه ٠ هذا هو الفسردوس الأرضى للانسانية : الآلهة تهبط من السماء لتؤاخى البشر ١٠ اه ٠٠ ما كان أجملهم ، أولئك البشر ! كانوا يفيقون وينامون سعداء أبرياء • المروج والحراج الصغيرة تمتلىء بأغانيهم وصيحاتهم الجذلي • فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً • الشمس تغمرهم بدفتها وضمياتها ، معجبــة " بهؤلاء الأطفال الراثمين ٥٠ انه حلم أخاذ ، طالما فتنت روعتــه الانسانية عن نفسها وأزاغت بصرها! ان العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذي حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض ، ولكنه على استحالته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلهــا ، وقواهم كلهــا ، وفي سبيله مات أنبياء و'قتل أنبياء ، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش ، ولا تريد حتى أن تموت! هذا الاحساس كله ، قد عشته في ذلك الحلم • والصخور والبحر ، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب ، ذلك كله بدا لى أنني لا أزال أراه حين أققت من نومي وفتحت عينيَّ المغرورقتين بالدموع • كنت سعيدًا • أتذكر هذا • ان احساساً بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل ، قد اختلج في قلبي حتى كاد أن يكون ألماً • كان ذلك حباً للانسانية كلها • « وكان المساء قد حل • ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على

« وكان المساء قد حل • ومن خلال خضرة الازهار الموضوعة على النافذة ، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتى الصغيرة فتغمرنى بضيائها • ثم ماذا يا صديقى ؟ ان تلك الشمس الغاربة فى أول أيام الانسانية الغربية ، التى كتت أراها فى الحلم قد استحالت فى نظرى فجأة

منذ أن استيقظت شمسا غاربة في اخسر ايام الاسسانية الاوروبية! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينتُذ أصوات نواقيس جنازة • لست أعنى الحرب وحريق التويلري فحسب • لقد كنت أعلم ، بدون الحرب وبدون حريق التويلري ، أن كل شيء سينقضي ، عاجــلاً أو آجلاً ، وأن كل وجــه العالم الأوروبي القديم سيندرس • ولكنني ، أنا الأوروبي الروسي ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا • نعم ، كانوا قد حرقوا التويلري ! لا ، مهلاً ، أنا أعرف أن هذا كان د منطقيًا ، • وأنا أدرك تمامًا ما كان للفكرة التي راجت آنتُذ من قوة لا تقاوم • ولكنني ، كممثل للفكر الروسي الرفيع، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا ، لأن الفكر الروسي الرفيع يصالح بين جميّع الأفكار المتعارضة مصالحة عامة شاملة • ومن ذا الذي كان يمكنه حينذاك ، في العالم بأسره ، أن يفهم هذا الفكر ؟ لقد كنت أطوف وحبداً • لست أتكلم عن نفسي ، بل عن الفكر الروسي • هنــاك ، كان الاقتتال والمنطق العنيد • هنــاك ، كان الفرنسي ليس الا فرنســــياً ، وكان الألماني ليس الا أَلمَانِهَا ، وذلك بعنف لم يشهد تاريخهـم كله عنقاً أقوى منه ؟ أي ان الفرنسي ما أساء الى فرنسا يوماً كما أساء اليها في هذه الفترة ، ولا الألماني أساء الى ألمانيا يوماً كما أساء اليها في هذه الفترة! لم يكن في أوروبا كلها عندئذ أوروبى واحد! أنا وحدى بين جميع مشعلى الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه ان اقدامهم على احراق التويلري خطأ ؟ وأنا وحدى بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أستطيع أن أقول لهم ان احسراق النويلري ان كان خطأ فهو منطقي • وذلك ، يا عزيزي ، لأنني ، كروسي ، كنت عندئذ ، في أوروبا ، « الأوروبي الوحيد ، • لست أتكلم عن نفسي ، بل عن الفكر الروسي كله • كنت أضرب في الأرض يا صـــديقي ، كنت أُصْرِب في الأرض ، ولا أعرف أننى لم يبق لى الا أن أسكت وأن أُصْرِب في الأرض ٥٠٠ ولكنني كنت حزينًا رغم كل شيء ٠ ذلك لأنني ، يا ابني ، لا أملك الا أن أحترم نبالتي • تضحك ، أليس كذلك ؟

قلت بصوت متأثر :

ـ لا ، لا أضحك ، لا أضحك البتة ، انك برؤياك « العصر الذهبى ، قد بثنت الاضطراب فى قلبى ؛ ثق كل الثقة أننى بدأت أفهمك ، غير أن ما يسعدنى أكثر من أى شىء آخـر هو أنك تحترم نفسك هذا الاحترام كله ، أسارع فأصارحك بذلك ، ما كتت لأتوقع منك هذا أبداً !

ـ سبق أن قلت لك اننى أحب صيحات تعجبك يا عزيزى !
قال ذلك وابتسم لملاحظتى الساذجة مرة ً أخرى ، ثم نهض عن
مقمده ؟ وبدون أن يمى ما يفعل ، أخذ يذرع الفرفة جيئة ً وذهاباً • فنهضت
أنا أيضاً • وتابع هو كلامه بلغته العجيبة الغريبة ، الزاخرة بالفكر
مع ذلك •

- سم يابنى ، أعود فأكرر لك أسى لا أملك الا أن أحترم بالتى ٠ لقد شأ عندا ، خلال القرون ، سوذج حضارى أعلى لم يساهد فى أى مكان آخر فى الكون ، هو نموذج التألم للبشر كافة ٠ هذا نموذج روسى ٠ ولكن لما كان هذا النموذج اسما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع الشعب الروسى ، فاننى أحمل شرف الانتماء اليه ٠ انه يحتوى مستقبل روسيا ٠ ان عددنا لا يربو على ألف رجل ، قد نكون أكثر من ذلك قليلا وقد نكون أقل من ذلك قليلا ولكن روسيا كلها انما عاشت حتى الآن لتنجبنا ٠ رب قائل يقول ان هذا العدد ضيل جدا ، وانها لفضيحة أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحى بملايين كثيرة من أبنائها في سييل أن تنجب هذه الصفوة ، أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلا ٠

كنت أصغى الى كلامه بجهد شاق ، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكوّن خلال حياة بأسرها ، ان كلامه هذا عن « الألف رجل ، يكشف النقاب عن نفسنه كلها ، وقدرت أن انطلاقه هذا في مكاشفتي انما مردّه الى صدمة خارجية ، وأنه يقول لى هذا الكلام الحار كله حباً بي ، ولكن السبب الذي من أجله أخذ يتكلم فجأة ، والذي من أجله كان يريد أن يتحدث الى " ، الى " أنا خاصة " ، ظل مجهولا" عندى ،

وتابع كلامه يقول:

ماجرت غير آسف على سىء مما خلفت ورائى • كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما املك من قوى • وحين سافرت ظللت أخدمها ، لكننى وسعت فكرنى • هل كان يجب على أن ابقى روسيا ضيفا ، مثلما كان كل فرنسى ورنسيا ، وكل ألمانى ألمانيا ؟ فى اوروبا لن يفهموا هذا الكلام • ان أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسى والانجليزى والالمانى • أما انسانها فى المستقبل فانها لا تزال تجهل عنه كل شىء تقريباً • وأظن آما انسانها فى المستقبل فانها لا تزال تجهل عنه كل شىء تقريباً • وأظن آنها لا تريد ان تعرف عنه شيئاً حتى الآن • وذلك أمر يمكن فهمه : انهم ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار • أنا وحمدى فى أوروبا ، مع ضجرى الروسى ، كنت حراً • .

لاحظ یا صدیقی هذا الشیء الغریب: ان کل فرسی بستطیع آن بخدم الانسانیة مع بلده فرنسا ، ولکن بشرط آن یبقی فرنسیا خاصة ، ویصدق هذا علی الانجلیزی وعلی الألمانی ، والروسی وحده ، حتی فی عصرنا هدا ، آی قبل آن تتحقق له صبورته النهائیة ، قد وهب له آن یکون روسیا آکثر لأنه أو تی القدرة علی أن یسکون أوروبیا آکثر ، هذا هو الفارق القومی الأساسی الذی یمیزنا عن سائر الناس ، فنحن من هذه الناحة لا یشبهنا أحد ، آنا فی فرنسا فرنسی ، ومع الألمانی آلمانی ، هذه الناحة لا یشبهنا أحد ، آنا فی فرنسا فرنسی ، ومع الألمانی آلمانی ، الأقسی ، أنا بهذا نفسه روسی دائما الی الحد الأقسی ، أنا بهذا نفسه روسی حقا ، أقدم لروسیا آکبر قدر من الحدمات ، ولکن لأنسی أجستد فکرها الأساسی ، أنا رائد هذا الفکر ، لقد هاجرت ، ولکن هل ترکت روسیا ؟ لا ، لم أثر کها ، ظللت أخدمها ، وهبنی لم أعمل شیئا فی أوروبا ، هبنی لم أذهب الیها الا لأتجول وأترحل وأضرب فی الأرض (ولقد کنت أعرف أننی لا أرحل الیها الا لهذا الغرض) فحسبی هذا لأذهب الیها مع فکری وضمیری ، لقد نقلت الی أوروبا سامی

الروسي • لا ، ليس الدم الذي كان يســـــيل حنثذ هو الذي رو ّعني ، حتى ولا احراف التويلرى ، بل ما كان لابد ان يتبع ذلك • بآن محكوماً عليهم أن يظلوا يقتتلون زمناً طويلاً أيضاً ، لأنهم لا يزالون ألمانا وفرنسيين أكتر مما يجب ، ولانهــم لم ينتهوا من عملهم في نمثيل هذا الدور ٠ كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار • ان أوروبا عزيزة على الروسي كروسبا سواء بسواء ، كل حجر في أوروبا حبيب الى قلب الروسي غال ِ فيه • كانت أوروبا للروسي وطناً كروسيا ، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا • يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحيها ، ولكنني لم ألم نفسي في يوم من الأيام على أنني وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ ، أحبَّ الى َّ من روسيا . آه ... ان قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية ، لتلك الرواثم التي تنتمي الى العالم القديم ، تلك البقايا من المعجزات المقدسة • بل ان هذا كله أعز ً على نفوســـنا منه على نفوسهم ! ان لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى ، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة ! ••• هناك لا يكافيح المحافظ الا في سبيل البقاء • ومشعل الحرائق لا يعمل الا ليطالب بحقه في قطعة خبر • روسيا وحدها لا تحيا من أجــل نفسها ، بل من أجل الفكر • اعترف° يا صــديقي بهذه الحقيقة الواضحة : أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيــا من أجــل نفسها بل من أجل أوروبا فقط! أما هم ، فقد 'نذروا لآلام رهيبة قبل أن يصلوا الى ملكوت الرب •

كنت أصغى اليه مضطرباً أشد الاضطراب • أعترف بذلك • حتى لهجة كلامه كانت تر وعنى ، رغم أننى لم أملك الا أن أفاجاً بأفكاره • وكان يخيفنى اخافة وهبية أن يكون فيما يقول كاذباً • فرأيتنى ألقى عليه هذا السؤال فحاة بلهجة قاسية :

ــ قلت « ملكوت الرب » • وقد علمت أنك عملت هـــالك داعيـــة ً ومبشراً ، وأنك كنت تثقل جسمك بأصفاد • هل هذا صححح ؟

فابتسم وقال :

- دعك من أصفادى • تلك مسألة أخرى • فى ذلك العهد لم أكن أبسر بشىء بعد • ولكننى كنت أتوق الى الههم • هذا صحيح • كانوا قد نادوا بالألحاد • نادى به نفر منهم ، نادت به طليعة منهم ، ولكن ذلك كان الحطوة الأولى نحو و التنفيذ ، ، وهذا هو الأمر الحطير • كنت أنا أنتمى الى المنطق دائماً • وحيث يمكون المنطق يكون الضجر • كنت أنا أنتمى الى حضارة أخرى ، فكان قلبى يرفض هذا • كان ذلك العقوق فى انفصالهم عن فكرة ، وكانت تلك الأصوات التى تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك عن فكرة ، وكانت تلك الأصوات التى تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك كانت أساليب الاسكافيين هذه ترعبنى • صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال ، حتى حين يصبو المر و الى المثل الأعلى صبوة لألاءة • ولقد رائحة النعال ، حتى حين يصبو المر و الى المثل الأعلى صبوة لألاءة • ولقد كان على أن أعرف ذلك • لكننى كنت طرازاً آخر من البشر : كنت حراً فى اختيارى ، ولم يكونوا هم أحراراً • فكنت أبكى ، أبكى عليهم ، أبكى على من غير حراً فى اختيارى ، ولم يكونوا هم أحراراً • فكنت أبكى ، أبكى عليهم ، أبكى على من غير حراً فى الفكرة القديمة • ولعلنى بدموع صادقة انما كنت أبكى ، من غير كلام مز وق •

سألته غير مصدق:

ــ هل كنت تؤمن بالله هذا الايمان القوى حقاً ؟

_ يا صديقى ، هذا سؤال لعله نافل ، هب أنى لم أكن أومن هذا الايمان القوى ، ذلك لا ينفى أننى كنت لا أملك الا أن أتحسر على فكرة وأن أحن اليها ، كنت فى بعض اللحظات لا أفلح فى أن أتصور كيف يستطيع الانسان أن يحيسا بدون اله ، ولا أن أتصسور هل يصبح هذا

ممكنا في يوم من الايام • كان قلبي يجيب دائما بأن هذا مستحيل • قد يحدث هذا في عهد من المهود الى حين • وانبي لأسلك في أن يأتي هذا المهد • ولكنني كنت أتخيل عندئذ لوحة أخسري مختلفة كل الاختلاف •••

ـ ما هي ؟

لقد سبق أن صرّح لى طبعاً بأنه كان سعيداً • وواضح أن أقواله كانت تشتمل على حماسة كثيرة • ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ ، ونظرت اليه بهذا المنظار • وانمى لما أحمله لهذا الرجل من احترام ، لن أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك • غير أن خطوطاً معينة من اللوحة الغريبة التي حملته على أن يرسمها لى ينبغى أن تذكر هنا • ولقد كانت مسئالة • الأصفاد ، خاصة همى التي تشغل بالى وتعذبنى ، فكنت أديد أن تتضم لى ، فلذلك ألححت • ان أفكاراً تبلغ غاية الغرابة والعجب مما قاله في ذلك اليوم قد بقيت منقوشة في قلبي الى الأبد •

بدأ يتكلم وهو يبتسم ابتسامة "يمازجها تفكير ، فقال :

- اليك اللوحة التى أتخيلها يا عزيزى • أتخيل أن القتال انتهى ، وأن الصراع هدأ • فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير ، عم الهدوء ، وبقى البشر و وحيدين ، كسا كانوا يريدون : هجرتهم الفكرة الكبيرة التى كانت تعيش معهم ، وغاب ينبوع الطاقة الذى كان الى ذلك الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة ، كتلك الشمس الرائمة الآسرة التى نراها في لوحة كلود لوران • ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الانسانية • فاذا بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً ، ويحسون فجأة أنهم همجورون هجر اليتامى • يا صغيرى العزيز ، اننى لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغيباء • قلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون

ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفــة والمحبــة • وأمســك بعضهم بأيدى بعض ، لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر ٠ ان فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت ، فلابد أن يعتاضوا عنها بغيرها • فاذا بذلك الفيض من الحب الذي كانوا يحمــلونه لمن هو الحُلود ، يتحول الآن الى الطبيعة ، الى العالم ، الى البشر ، الى كل عشبة • ســوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة ، وسوف يحبونها حباً لا سبيل الى مقاومت ، على قدر شعورهم شيئًا فشيئًا بأن حياتهم عرض زائل ، وبأن زمنها محدود ، وسوف يكون حبهم حبًّا خاصًّا ليس هو الحب الذي كانوا يحسونه من قبل • سوف يلاحظون في الحيـــاة ويكتشـــفون فيهـا ظاهرات وأسرارا لم تخطـر لهم الى ذلك الحـين على بال ، لأنهــم سينظرون اليها بعين جديدة ، سينظرون اليها نظرة الحبيب الى حبيبتــه • سوف يستيقظون فيسارع بعضهم الى بعض يتعانقون ، ويتحابون ، لعلمهم بأن أيامهم زائلة ، وأن ذلك هو كل ما بقى لهم • ســيعمل بعضــهم في سبيل بعض ، وسيعطى كل منهم شيء لكل الناس ، فيكون بذلك سعيداً . سيملم كل طفل وسيحس أن كل انسان على هذه الأرض هو له أب وأم٠ سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر الى غروب الشمس : « ليكن الغد آخر أيامي • سأموت • ولكن لا أضير : لأنهم سيبقون هم جميعاً ، وبعدهم سيبقى أولادهم » • وهذه الفكرة ، فكرة أنهم سيبقون وسيظلون متحابين متماطفين يخاف بعضهم على بعض ، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت ٠ لشد ما سيسارعون الى التحاب ، من أجل أن يخنقوا الحزن الكبير الذى في قلوبهم • سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم ، ولكنهم سيكونون خجلين وجلين أمام الآخرين • سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر ۰ سیحن بعضهم علی بعض ۰ ولن یشمروا بما یشسعرون به اليوم من خجل وخزى • سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال • وحين يلتقون

سيتبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء ، وسسيكون فى نظراتهم حب وأسى •

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف :

_ یا عزیزی ، لیس هذا کله الا خیالا ، بل هو خیال لا یمکن أن یتحقق فی الواقع ، لکننی کنیراً ما تخیلت هذه الصور ، لاننی لم أستطع فی یوم من الأیام أن أحیا بدونها ، ولا أن أمتنع عن التفكیر فیها ، ولست أتکلم عن ایمانی ، فایمانی لیس کبیراً ، أنا رجل یؤمن بوجود الله ، ولسنة ، کسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه ، ولكن فلاسفة ، کسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه ، ولكن برؤیا ، المسیح علی بحر البلطیق ، ، کما نری ذلك عند الشاعر هاینی ، برؤیا ، المسیح علی بحر البلطیق ، ، کما نری ذلك عند الشاعر هاینی ، النی لم أستطع الا أن أراه أخیرا بین البشر الذین أصبحوا یتامی ، یجی، الیهم ، ویمد لهم ذراعیه ، ویقول : « کیف نسیتمونی ؟ ، ، فاذا بنوع من حجاب یسقط عن جمیع الأبصار ، واذا بنشسید حمساسی هو نشسید الانبعاث الجدید الأخیر ، یأخذ یترجع مدویا ،

و دعنا من هذا يا صديقى ؟ أما عن و أصفادى ، ، فتلك مسخافة و لا يشغلن أمرها بالك و هناك شيء آخر : أنت تعرف أن لساني خجول ومقتضب و فلئن استرسلت اليوم في الكلام ، فذلك و و بسبب عواطف مختلفة ، و بسبب أننى معك و لغيرك لن أقول شيئًا أبداً و أضيف هذا لأطمئنك و

كنت متأثراً منفعلاً • ان الكذب الذى كنت أخشاه لا وجود اه • ولقد أسعدنى خاصة ً أن أرى رؤية واضحة ً بعد الآن أنه كان يصانى من ضجر حقاً ، وأنه كان يتألم ويتعذب ، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك:

وهـذا ما أثر فى نفسى أكثر من أى شىء آخــر • وقد أعلنت له ذلك بحماسة • ثم أضفت أسأله فجأة :

_ ولكن يبدو لى أنك ، رغم كل ضحوك ، كنت سعيداً أقصى السعادة في ذلك الأوان ، أليس هذا صحيحاً ؟

فقسال:

- انك اليوم مصيب في ملاحظاتك • نصم • كنت سعيداً • وهل كان يمكن أن أكون نسقياً وأنا في مشل ذلك الضجر ؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترجل الروسي الأوروبي الذي ينتمي الى أولئك الألف من الأفراد • أقول لك هذا بدون أن أضحك ، وفي كلامي كثير من الجد • نعم ، ما كنت لأبيع ضجري بأية سعادة • يا عزيزي • ومن السعادة أنني أحببت حينئذ أمك أول حب في حياتي • نعم ، فيما كنت أضرب في الأرض وأعاني الضجر ، أحببتها فجأة كما لم أحب من قبل ، وسرعان ما أرسلت أستدعيها •

قال :

ـ آ ٠٠٠ اقصص على هذا ٠٠٠ كلمني عن ماما ٠

ثم أضاف يقول وهو يبتسم فرحاً:

_ وقد خشیت أن تعفینی من هذا الحدیث مستعیضاً عنه بالکلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما ٠٠٠

ـ ما جئت بك الى هنا الا لأحدثك عن هذا •

الفص الالشامن

•

فى الحديث كل المساء وسطراً من الليل ، فلن أروى كل ما قيل ، بل اكتفى بما أوضح لى فى النهاية نقطة من حياته كانت عندى لغزاً .



وأبدأ بما يلي : ليس يخامرني أي سُك في أنه أحب ماما ، فاذا هجرها وانفصل عنها حين سافر الى الحارج ، فلأنه كان مرهقاً بالضجر ، أو لسبب آخر من هسذا القبيل ، وذلك أمر يحدث لجميع الناس في هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله • ثم انه في الحارج ، بعد انقضاء زمن غير قصير ، قد عاوده حب ماما فحأة ً ، من بعبد ، بالفكر ، فأرســـل يستدعمها • رب فائل يقول : « هذه نزوة » • ولكنني أقول غير ذلك ، ففي رأيي أن ما فعله كان فيه أكبر الجد رغم ما تتصف به طبيعته من تناقضات أسلم بوجودها • ولكنني أحلف أن ضجره الأوروبي أمــر لاشك فسه ، وأنه يساوي بل يفوق كثيراً أي شكل من أشكال النشاط العملي في هذا الزمان ، كانشساء سكك حديدية مثلاً • وأنا أرى في حمه للانسانية عاطفة صادقة كل الصدق ، عمقة كل العمق ، بريثة من كل كذب أو تزييف • وأرى في حبه لماما أمراً لا يمكن الجدال فيه اطلاقًا ، وان كان جائزاً أنه يشتمل على شيء من غــرابة • انه في الخارج ، بينما هو في « ضجر وسمادة ، ، وبينما هو في عزلة كعزلة النسبَّاك (أَضيف هذه الواقعة الخاصة التي أمدتني بها تانيانا بافلوفنا فيما بعد) ، تذكر ماما على حين فجأة ، وتذكر خديها الخاسفتين خاصة ، فأسرع يستدعيها فوراً .

فال لى (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلت غيرها) :

ـ يا صديقى ، لقد أحسست فعبأة أن خدمة الفكرة لا تعفينى أبداً ، كانسان أخلاقى وعاقل ، من أن أسمعد فى أثناء حياتى انساناً واحداً على الأقل ، اسعاداً عملياً •

فسألته متحيراً :

ـ أتكون فكرة مستمدة من الكتب *، كهذه الفكرة ، هى التي ج*ملتك تعزم أمرك ؟

لبست هذه فكرة مستمدة من الكتب ، وقد تكون كذلك فعلا ، كنت أحبها حباً صادقاً ، حباً لا شأن له بالكتب البتة ، ولولا أننى كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها ، بل عمدت الى اسعاد أول ألمانى أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائى الى تلك الفكرة ، أما عن ضرورة اسعاد انسان واحد على الأقل أتناء الحياة اسعاداً عملياً ، أى اسعاداً فعلياً ، فهذه فكرة أصبها قاعدة يؤمر بالتزامها كل انسان مثقف ، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يغرس شجرة واحدة على الأقل أتناء حياته ، لأن الأسجار يقل عددها في روسيا الآن ، بل ان شجرة واحدة لا تكفى ، فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يغرس شجرة في كل سنة ، ان الانسان المتفوق المثقف الذي يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحيانا ، فيصبح سخيفاً مضحكا ، ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح غياً ، في الحساة العملية طبعاً ، بسل يصبح آخسر الأمر غياً حتى في

نظرياته • وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية ، واسعاد انسان واقعى واحد على الأقل اسعاداً واقساً ، أن يشفى وأن يجدد نضارة الشمخص الذي يحسن هذا الاحسان • قد يكون هذا الرأي سخيفاً من حست هو نظرية ، لكنه متى 'طبِّق وأصبح عادة مستحكمة ، لا يكون رأيًا غسًا الى الحد الذي قد يتوهمه المرء ٠٠ لقد جربت هــذا بنفسي : فاتني منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأى ـ على سبيل التسلية في أول الأمر ، طبعا ــ بدأت أدرك مدى الحب الذي يحمله قلبي لأمك •• ولم أكن قد أدركت أيداً ، حتى ذلك الحين ، أنني كنت أحبها • حين كنت أعش معها ، كنت أتمتع بها في ابان جمالها ، ثم تستبد بي النزوات • ولم أدرك أنني أحبها الا في ألمانيا . بدأ ذلك بخديها الحاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبداً أن اتصورها الا واراهما ، حتى لأنسعر بألم يهصر قلبي ، ألم حقنقي ، ألم جسمى • هناك يا عزيزى ذكريات أليمة تحدث وجعاً واقعياً • ان جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات ، ولكنهم ينسونها، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمات الوجه أحماناً ، فاذا هو ينشد اليها ولا يسنطيع منها فكاكاً • أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتي معرصونيا • وأصبحت هذه التفاصيل توافيني أخيراً من تلقاء نفسها ، وتحاصرني جمهرة غفيرة • وكادت هذه الذكريات أن تقتلني عذابًا بينما كنت أتنظر وصولها • غير أن الشيء الذي كان يعذبني خاصة انما هو ذكرى مذلتها الأبدية لى ، واعتقادها بأنها أدنى منى كثيرًا في كل أمر من الأمور ، وأننى أفوقها كثيرًا حتى في الجسم! تصور! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمسرة قانسة حين كنت أنظسر أحمانا الي يديها وأصابعها التي لم يكن فيها شيء من ارستقراطية • بل انها لم تكن تخجل

من أصابعها وحدها بل من جسمها كله ، رغم أنني أحببت جماله • كانت تشعر معي بحيـاء دائم يبلغ حــد التوحش • وأسوأ ما في الأمر أن هذا الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع . الخلاصة أنها كانت تعدُّ نفسها بالقياس اليُّ شيئًا لا وجود له ، أو شيئًا يكاد يكون غير لاثق ٠ وكنت في البداية أظن أنها لا تزال ترى في سيدها ، وأنها كانت تهابني وتخشاني . ولكن الأمر لم يكن كذلك + وانى لأحلف لك مع ذلك أنهــا كانت أقدر من أى انسان على معرفة عيوبي ونقائصي ، وأننى ما رأيت في حياتي امرأةً ً لها مشل قلمها رهافة ونفاذ ادراك ، لشدما كانت تشمر بالشدةاء حين كنت اضطرها في البداية ، أيام كانت لاتزال جميلة جسالا فاتنا ، أن تتزين • كان ذلك منها يشنمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التأذي : كانت تدوك أنهما لن تصبح بالتزين سميدة ، وأنهمما لن تكون بلباس أجنبي الا مضحكة ٠ وهي لا تريد أن يـكون لباسها مضحكاً ، وتدرك أن لكل امرأة ثياباً تناسبها ، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مثات الألوف من النسباء اللواتبي يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفي ! كانت تخاف من نظرة ســاخرة قد ألقيها عليها • وما أشد الألم الذي كنت آشعر به حين أتذكر عبنيها المدهوشستين اللتين كثيراً ما فاجأتهما محدقتين الى أأتناء حياتنــا المشتركة : لقد كنت أحس أنهــا تدرك مصيرها ادراكا كاملاً ، وتعرف المستقبل الذي ينتظـرها ، حتى لقد كان ذلك يحزنني ، وان لم أكلمها في هذا الأمسر ، وانما ظللت أترفع عن الخوض في حديث عنه • ولكن هل تعلم ؟ انهــا لم تكن في جميع الأحيــان خائفة متوحشـــة كما هي الآن • وهي حتى هذا البوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأة " وأن تنزين كما تفعل امرأة في العشرين من عمرها • لكنها في ذلك الوقت ،

ابان صحباها ، كانت تعشق الثرائرة والضحك أحيحاناً ، في بثنها طبعاً ، مع الخادمات مثلا . ولشدما كانت ترتجف اذا أنا باغتها ضاحكة على حين فجأة ، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص الى ّ ببصرها خائفة ! في ذات يوم لا يسبق رحيلي الى الخارج بمدة طويلة ، بل هو تقريبــاً عشـــية انفصالي عنها ، دخلت الى غرفتها فوجدتهـا وحـدة بلا شغل ، قد وضعت كوعيها على المائدة واسترسلت في تأمل عميق • لم يسبق لها أن بقيت من قبل عاطلة عن العمل في أي يوم من الأيام تقريبًا • وكنت في ذلك الأوان قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة • فاستطعت أن أقترب منها برفق ماشياً على رءوس الأصابع ، فاسسكتها فجأة وقبَّمتها • انتفضت : لن أنسى في حياتي ما ارتسم على وجهها عندثذ من آيات الافتتان والسعادة • ولكن ذلك لم يلبث أن حـل محله احمـراد سريع ، وقدحت عيناها شرراً • هل تعلم ماذا قرأت في ذلك الشرر ؟ « انك تعطيني صدقة ! » وانفجرت تبكى كمن أصابتها نوبة هستريا ، زاعمة "أننى روَّعتها • ووقفت أنا واجمأ أَفَكُر • إنَّ هَذُهُ الذَّكُرِياتُ شَاقَةً عَلَى النَّفُسِ يَا صَدَيْقَى • هَذَا مَا نَجِدُهُ لَدَى كبار الغنانين : ان قصائدهم تصور في بمض الأحيان مشاهد . أليمة ، تظل تقيض صيدرك طول حياتك كلما تذكرتها ، من ذلك مناجاة « عطيل ، الأخيرة ، ومشهد ، أوجين ، على قدمي تاتيـانا ، ولقاء الســـجين الهـــارب والطفلة الصغيرة.في « بؤساء » فكتور هوجو • ان هذه المشاهد تطمن قلبك مرةً ، ثم يبقى الجرح نازفاً الى الأبعد . آه ٠٠٠ ما كان أشد نفاد صبرى وأنا انتظر وصول صونبا ، ولم كنت أود أن أقبِّلها في أفرب وقت ؟ لقد أَخَذَتَ أَضَعَ برَ المَجَّا كَامَلاً لَحِياةً جَدَيْدَةً • أَخَذَتَ أَفْكُرَ فَي الوسائل التي سأعمد اليها لأزيل من نفسها ، شيئاً بعد شيء ، بعجهد متصل منظم ، خوفها الدائم مني ، ولأفهمها قستها الكبيرة ، ولأجعلهــا تدرك أنها تفوقني كثيرًا • آ. • • • لقد كنت أعلم ، حتى منــذ ذلك الحين ، أنني أحب أمك متى

انفصلت عنها ، فاذا اجتمعنا من جدید ، فتر حبی وبرد • ولکن شیئاً آخر حدث حینذاله •

کنت مدهوشــــاً • وهذا سؤال يبرق في ذهني : ماذا عنها • هي ، ؟ وسألته في حذر •

ـ وكيف تم اللقاء ؟

.. في ذلك الوقت ؟ لم يتم لقاء • وصلت الى مدينة كونجسبرج بمد عناء شديد ، وبقيت بها ، وكنت أنا على نهر الراين • لم أذهب اليها ، بل أرسلت آمرها بأن تبقى حيث هي • التقينا بعد ذلك بمدة طويلة ••• مدة طويلة جداً ••• حين ذهبت استأذنها في أن أنزوج •

لن أذكر هنما الا الأشياء الأسماسية ، أى ما استطعت أن أحفظه ، زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسمل ولا ترابط ، وتضاعف تفكك أقواله وتشوشها واضطرابهما عشر مرات منمذ بلغ من حديثه هذا الموضع .

لقد لقى كاترين تيقولايفنا مصادفة محينما كان ينتظر ماما ، بل حينما كان ينتظر ماما ، بل حينما كان نفاد صبره أتساء هذا الانتظار قد بلغ قمته ، كانوا يومئذ جميعاً على نهر الراين ، يقضون موسم المياه المعدنية ، وكان زوج كاترين ايفانوفنا يحتضر تقريباً ، أو قل على الأقل ان الأطباء كانوا بالسين منه فهو بحكم المحتضر ،

خطفت كاترين ايفانوفنا بصر أبى منذ أول لقاء ، حتى لكأنها رمته بسيحر ، كان ذلك قدراً محتوماً ، لاحظوا أننى ، وأنا أسيجل وأتذكر الآن هذا كله ، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل فى حديثه كلمة « الحب ، مرة واحدة ، ولا قال انه « شغف ، ، وانما استعمل كلمة « القدر » ، فحفظت هذه الكلمة ،

ولقد كان الأمر قدراً بالفعل • انه « لم يرد ، ذلك ، لم يرد أن يحب • لا أدرى هل أقدر أن أعبر عن هذا تسيراً واضحاً • المهم أنه كان مستاء من أن مذا الأمر قد أمكن أن يقع له • ان كل

ما كان يملكه من حرية فد زال دفعه واحدة حين كان ذلك اللقاء ، ووجد الرجل نفسه مشدودا حتى الأبد الى امرأة ليس بنه وبينها شيء مشترك • انه لم يرغب في ان يستعبده الهوى هــذا الاستعباد • يجب ان اقول اليوم يصراحة : ان كاترين نيقولايفنا نموذج نادر في نساء المجتمع الراقي ، نموذج لعل المرء لا يقع عليه في تلك البيئات • هي نموذج امرأة بسيطة صريحة الى أقصى حدود البساطة والصراحة • ولقد سمعت ، بل علمت من مصدر مونوق به ، أن هذا بعينسه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل الى مقاومتها حين تظهــر في المجتمع (وكانت في كتير من الأحيــان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً ﴾ • وكان فرسيلوف ، أثناء ذلك اللقاء الأول ، لا يظن أن لها هذه المزايا ، حتى لقد ظن نقيض ذلك ، أى اعتقد انها امرأة متصنعة منافقة • وسأستبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هي فيه • لقد قالت ان رجلاً مثاليباً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم ، لأن المثالى حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سائر الناس على افتراض جميع أنواع الميوب ، • لا أدرى هل يصدق هذا الرأى على المثاليين عامة " ، ولكنني أعرف أنه يصدف عليه • وأحب أن أضيف هنا رأيي أنا ، وهو رأى تكوَّن انسانياً شــاملاً ان صــع التعبير ، لا ذلك الحب العادى الذي يشتعل في نفس المرء حين يبحب نساءً ، وانه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادى ، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضه ، بسبب عدم التعود في أغلب الظن • على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ • وأنا لم أعبر ً له عنها على كل حال • ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً • لا سبما وأنه كان في حالة توجب على المرء أن يداريه • لقد كان مضطربًا اضـطرابًا رهبيــًا • حتى انه في بعض المواضع من حديث كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحبساناً ، ويبقى صامتساً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة ٠٠٠

ولم تلبث كاترين نيقولايفنــا ان نفذت الى سره ، ولعلها تغنجت له ان الأنتي لا تتنازل عن القسام بدورها ، حتى اطهر النساء • هذه عندهم غريزة لا يستطعن مقاومتهسا • ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة ، بل أظ أنه أراد أن يقتلها • لقد اخافها ، ولعله كان يمكن أن يقتلها • م لكن ذلا كله استحال فجأة الى كره » · ثم جاءت مرحلة أخسرى عجيبة · لة تملكته فكرة غريبة على حين فجأة : ان يعذَّب نفسه بالنساع رياضة نفسم قامسية هي « تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان • فباتباع هذ الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل الى التغلب على ارادتك ، باد بأتفه الأشياء وأيسرها ، منتهياً بتحقيق انتصــار كامل على ارادتك ، فتصب حراً ، • وأضاف أن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيد النفس ليست لعبًا ، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة • على أ. أهم ما في الأمر هو أن فكرة « ترويض » النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عر رغبة في التحرر من كاترين نيقولايفنا ، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحد كاترين نيقولايفنا وانما هو يكرهها . وقد بلغ من قوة الاعتقاد بهذا الكر أنه 'زيِّن له فجأة أن يحب ابنة زوجها ، التي أغواها الأمير وتركها ، وأر يتزوجها ، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد ، واجتذب اليـــ حبٌّ تلك البلهاء المسكينة التي هيأ لها هذا الحب في الأشهر الأخير من حياتهـا سـعادة كاملة • لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لاتزال تنتظر بمدينة كونجسبرج، بدلا من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندى بلا جواب ! ••• لقد نسى ماما نسسياناً مباغتــاً تاماً ، حتى لقد انقطع عز ارسال شيء من المال اليها لتعيش ، فاضطرت أن تستنجد بتاتيانا بافلوفنا التي أغاثتها وكفلت لهــا الحلاص • ولكنه ذهب الى ماما فعجأة ليطلب منها • اذ بتزوج تلك الفتاة ، ، متعللاً بأن « خطيبةً كهذه ليست امرأة ، • قد تكور هذه الصورة كلهــا صورة رجل « ستمه من الكتب ، كما وصفته بذلك كاترين يقولايفنا فيما بعدى ولكن لماذا يكون هؤلاء « الرجال المستمدور

من الكتب ، (اذا صبح أنهم كذلك) قادرين على ان يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء ، وأن يصلوا الى مآسى كهذه المآسى ؟ على أننى في ذلك المساء فد فكرت في الأمر تفكيرا يختلف عن هذا قليلاً ، وبرقت في ذهنى فكرة أخرى :

_ ان ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتاك عذاباً ومعارك ظللت تعفوضها طول حياتك ، أما هي فقد تلقت الكمال مجاناً • وهذا ليس من المساواة في شيء • ذلك ما يثير الحنق في المرأة •

قلت له هذا لا لأرضيه ، وانما قلته بعورارة وحتى باستياء ، فقال مدهوشاً من كلماني :

ـــ الكمال؟ كمالها؟ ألا انها محرومة من أى كمــال! انها امرأة عادية جداً • امرأة لاقيمة لهــا بتاتاً • • • ولكنها مضطرة أن تحصــل كل أنواع الكمال •

تلت:

ـ لماذا مضطرة ؟

فصاح غاضياً:

ــ الأمر المحزن أنك معذَّب حتى الآن •

۔ حتی الآن ؟ معذَّب ؟

وأضاءت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة ، ورفع

أصبعه كمن قرر أمراً • حتى اذا 'ناب الى نفسه تماماً تناول من على الماتر رسالة مفضوضة ورماها أمامي قائلاً :

ـ خــذ! اقرأ! يجب أن تعــرف كل شيء على الاطلاق ٠٠٠ لم نزكتنى انبش هــذه الحماقات كلها طول هذه المدة ؟ ان هذا لا يزيد ع أن يحنق قلبى! ٠٠٠

لن استطيع أن أعبر عما اعتراني من دهسه ! لقد وصلته ها الرساله منها وهي ، وفي هذا اليوم نفسه ، الساعة الخامسة من المساء قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً ولم تكن الرسالة طويلة لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أنني كنت ، وأنا أقرؤها ، أتمثل كاتين أمامي وأسمع صوتها متكلمة و ان كاترين نيقولايفنا تعبر له في هالرسالة تعبيراً مخلصاً كل الاخلاص (أي تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه ثم تتوسل اليه أن و يدعها وشأنها تعيش في سلام ، وتبلغه في خالرسالة أنها ستنزوج بيورنج فعللاً ولم تكن قد كتبت اليه قباليوم أبداً و

واليكم ما فهمته من أقواله :

ماكاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس في نفسه فج بأمر لم يكن يتوقعه قط: لقد شعر ، لأول مرة خلال هاتين السنت المشتومتين ، بأنه لا يحمل لها أي كره ، ولا تهنز لها نفسه أي اهنزاز هو الذي و فقد صوابه ، منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنج ، حتى ان قال لي بعاطفة عميقة : « بالعكس : باركتها من كل قلبي ، ، سمعت م هذه الكلمات معجباً ، هكذا زايله كل ما كان يضطرم في قلبه من هو ومن عذاب ، زايله دفعة واحدة ، من تلقاء نفسه ، كأنه كان حلماً ، كأن مسا ثم مضى ! وقد دهش هو من نفسسه ، فأسرع يذهب الى أمي فدخل عليها لحظة أصبحت « حرة ، ، أي لحظة مات الشيخ الذي أوص

بالأمس أن يتزوجها • ولقد هزته هاتان المصادفتان هزآ قوياً • وبعد قليل ، خرج يبحث عنى • لن انسى ايدا انتى سرعان ما خطرت بياله •

لا ولن اسى نهاية تلك السهرة ، ان هذا الرجل قد تهدل مرة أخرى تبدلا كبيراً مباغتاً ، بقينا معاً الى ساعة متأخرة من الليل ، ساتحدث فيما بعد عن الاثر الذى أحدثه فينا « النبأ » ، سأتحدث عنه فى حينه ، أما الآن فسوف أقتصر على بضع كلمات أختم بها كلامى عنه هو ، اننى لأدرك ، حين أفكر الآن ، أن ما فتننى فيه حينه ذاك هو ذلك النوع من الانقياد لى ، ذلك الاخلاص العسادق فى مخاطبة فتى مثلى! لقد هتف يقول : « كان ذلك ضلالاً ، ولكن بورك ذلك الضلال! فلولاه لكان يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداء كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ، يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداء كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ، الى شهيدتى ، أمك ، ، هذه الكلمات الحارة التى أفلتت منه بقوة لاتقاوم ، انما أسهيدتى ، أمك ، ، هذه الكلمات الحارة التى أفلت منه بقوة لاتقاوم ، انما أسهيدا هنا من أجل تتمة القصة ، ولكنه كان قد غزا قلبى وأسر نفسى ،

أذكر أننا صرنا في النهاية الى مرح جنوني • أمر بشمبانيا ، فشربنا « نخب ، ماما ، و « نخب ، المستقبل • وكان يزخر حياة ، ويفيض تأهبا وتهيؤاً للحساة ! ولكن مرحنا الجنوني لم يكن سببه الحمر : فلم يشرب كل منا الا كأسين اثنين • لا أدرى لماذا أصبحنا في النهاية نضحك عاجزين عن كبح ضحكنا • أخذنا نتكلم في أمور لا قيمة لها • روى نكات • ورويت نكات • وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة ، خالية من آية سخرية ، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً • وكان لا يريد أن يخلي سسيلي فهو ما ينفك يقول : « ابق ، ابق » ؟ وبقيت • حتى اذا خرجت صحبني •

سألته فجيأة بدون سيابق تفكير ، وأنا أصافحيه مرة أخيرة عند منعطف :

_ قل لي : هل أجبتها ؟

ـــ لا، لم أجبها بعد. ولكن لاقيمة لهذا . تعال غدا، تعال فيوقت أبكر . آ . . . شيء آخر : اترك لامبير نهائياً ، ومزَّق « الوثيقة ، بأقصى سرعة . استودعك الله .

فال ذلك ومضى فجاة • فبقيت مسمسرا في مكاني وقد بلغت من الاضطراب انني لم أجرؤ أن أناديه • هز تني كلمة « الوثيقة ، خاصة : من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامبير ؟ وعدت الى البيت قلقاً أشد القلق • وبرق في ذهني سؤال : كيف يمكن أن يزايله في مثل لمح البصر « مس دام سنتين » ، ثم اذا هو يختفي كحلم ، يتبدد كدخان ، ينيب كرؤيا ؟

الفصل الت اسع

فى الغداة أنضر مسة وأحسن حالا • حتى لقد رأيتنى آخذ على نفسى ، بغير غضب، شيئا من الخفة ونوعاً من التعالى ظهرا على أمس حين كنت أصغى الى بعض الفقرات من « اعترافه » •



لقد كان اعترافه مفككاً في بعض الأحيان ، وكان عدد من أقواله غامضاً مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه ، ولكن هل كان قد أعد خطاب خطيب حين دعاني الى بيشه ؟ حسبي أنه شرفني باللجوء الى كما يلجأ صديق الى صديقه الوحيد في مثل اللحظة التي كان فيها ، لن أنسى له هذا ما حييت ، بل لقد كان اعترافه م مؤثراً في القلب ، ، أقول هذا ولو سخر من هذا التبير ساخرون ، ولئن اشتمل هذا الاعتراف على عناصر مستهترة ، أو حتى مضحكة قليلا ، فلقد كنت أرحب صدراً وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعية _ دون أن ألطخ المثالية على كل حال ، أخيراً فهمت هذا الرجل ؛ ولقد ساءني وأحزنني قليلا أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة : هذا الانسان ، كنت في قرارة قلبي أنزله أعلى منزلة ، وأضعه فوق السحب ، فكان لابد لى حتماً أن ألفع مصيره برداء من السر ، وكنت أتمني طبعاً ألا ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، في لقائه ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة ، ثم لقد كان هنساك ، وخلال هاتين السنتين من العذاب ، أشساء أخرى كثيرة معقدة :

« لم يرد ذلك القدر · كان في حاجـة الى الحرية لا الى عبودية القدر · عبوديه القدر همذه هي التي اضطرته ان يجسرح شعور ماما التي كانت تنتطره في لونجسبرج ٠٠٠ ، وعدا ذلك ، كان هذا الانسان في نظري داعية ومبشراً على كل حال : كان يحمل في قلبه العصر الذهبي ، ويعرف مستقبل الالحاد • ثم اذا بلقائه معها قد حطم كل شيء ، وشَّوه كل شيء • أنا لم أخنها طبعاً ، ولكننى مع ذلك قد انحزت اليه • كنت أقول لنفسى : ما كان ااما مشــلاً" أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجتــه • وكنت أحس أن لقامه مع « الأخرى ، أمر مختلف كل الاختلاف • صحيح أن ماما ما كانت لتجيئه بالهدوء والسكينة • ولكن هذا أفضــل • ان أمثال هؤلاء الرجال ما ينبغي أن ' يحكم عليهم بالمقايس التي 'يحكم بها على غيرهم • ان لهم شأنًا خاصًا • ان حياتهــم ستنقضى دائمـــًا على هذا النحو • وليس في ذلك شذوذ • بالعكس : فانما الشذوذ أن يجدوا الهدوء ، أو أن يصبحوا كسائر الناس المتومسطين • ان افتخاره بالنبالة وقوله « سأموت سسداً » لم يقلقاني • لقد أدركت ما السيد الذي كان يعنيــه : انه الســـيد الذي يهب كل شيء ، ويبشر بمواطن الكون ، ويشسيع الفكرة الروسية الداعية الى « لقاء الأفكار لڤاءً شــاملاً » • لعل هذا كله كان سخافات وحماقات ، أعنى و لقاء الأفكار لقاء شاملاً ، (مع أنه لا غنى عنه طبعاً) ، ولكن ألم يكن حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب ؟ ولكن أنا ••• رباه ٠٠٠ هي أنا التحنيت لعجل الذهب حين تصمورت فكرتي ؟ هل المال هو ما كنت في حاجــة اليه ؟ يمينًا لم أكن في حاجــة الا الى الفكرة ! يمينًا لو ملكت المال لما نعجَّدت كرســــاً واحـــداً ولا ديواناً واحــداً بالقطيفة ، ولما أكلت غير صحن الحساء الذي أكله اليوم مع مائة مليون !

لبست ثیابی ، وشعرت بقوة تدفعنی الیه ولا أستطیع مغالبتها . یجب أن أضیف هنـــا أننی فیما یتعلق باشارته الی الوثیقة أمس ، قد وجدتنی اهدأ بالا • قلت لنفسى أتنى قد أبحث هذا الموضوع معه • واى ضير فى أن يكون لامير قد تسلل البه وحدثه عن شىء ؟ وكانت فرحتى الكبرى هى احساسى الغريب بأنه أصبح لا « يحبها » • كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً مطلقا • وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبى • حتى اننى أتذكر افتراضاً مر بخاطرى : ان ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ عجيب رهيب حين جاء نبا بيورنج ، وما لجا البه عندئذ من ارسال رسالته تلك التى احتوت على سب وشتم ، أقول ان ذلك العنف كله ربما كان ايذاناً بتغير جذرى في عواطف وعودة سريعة الى الحس السليم والعقل الراجع • قلت لنفسى : ان هذا لابد أن يكون شبيهاً بالنوبة التى تحدث في مرض ثم يقعبها نقيضها ! فما ذلك الا مرحلة طبية ! وقد أسعدتنى هذه الفكرة •

وهتفت أقول: « الآن فلتتصرف فى مصدها كما تشاء ، ولتتزوج بيورنج ما حلا لها ذلك ، فانسا المهم أنه هو ، أبى ، صديقى ، قد زال حبه لها ، ، ، على أن عواطفى أنا قد كان فيها سر ، ولست أريد فى مذكراتى هنا أن ألح عليه أو اكشف عنه ،

ولكن كفى ! الآن سأروى جميع الأهوال التى تعاقبت ، بدون أى مداراة فى هذه المرة • فى الساعة العاشرة ، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب اليه طبعاً) جاءت داريا أونيسيموفنا ، فسألتها مرحماً على هو أرسلها الى ، فأحزننى أن أعلم أنه ليس هو الذى أرسلها ، وانما أرسلتها آنا آندريفنا ، وأنها مى داريا أونيسيموفنا مد قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح ، ،

۔ أي بت ؟

۔ البیت نفسه ، بیت الأمس ، ان البیت الذی کنت فیه أمس ، أعنی بیت الطفل ، مستأجر الآن باسمی أنا ، ولکن تاتیانا بافلوفنا هی التی تدفع

قاطعتها غاضباً أقول:

ــ ما شأنى أنا وهذا ! ولـكن هو ، هل هو فى البيت ؟ هل أجــده اذا ذهبت اليه ؟

فما كان أشد دهشتى حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هى ، فاذا كانت قد خرجت هى عند طلوع النهار ، فقد خسرج هو قبسل طلوع النهار .

- ـ لعله يكون قد رجع الى البيت الآن ؟
- ـ لا ، انه لم يرجع حتماً ، وربما لا يرجع أبداً •

قالت ذلك وهي تحديق الى بنظرتها الحادة الماكرة التي سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتني مريضاً في السرير • ان ما أحنقني بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السيخافات التي تعود الى الظهور : ان هؤلاء الناس يصرون على ألا يستغنوا عن السر والمكر •

ــ لماذا قلت « ربما لا يرجـع أبدآ ، ؟ ماذا تعنين بهذا ؟ لقد ذهب الى ماما وهذا كل شيء !

- ـ لا أدرى •
- ـ ولكن ما جاء بك أنت ؟

فقالت لى انهـــا الآن آتيـــة من عنـــد آنا آندريفنــــا ، وان آنا آندريفنا تدعونى أن أجىء اليها حالاً ، والا « فات الأوان ، • فأحنقنى هذا الكلام الملغز مرة أخرى وأخرجنى عن طورى :

ـــ لماذا يفوت الأوان؟ لا أريد أن أذهب اليها ولن أذهب! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة! اننى لا أعبأ بلامبير! قولى لها هذا • فاذا أرسلت لى لامبير ، فلأطردنــًه ركلاً بقدمى •

ارتاعت داريا ارتياعاً رهيباً •

قالت وهي تتقدم مني خطوة وتضم يديها احداهما الى الأخرى ضارعة متوسلة :

ـ لا ، انتظر ، لا تسرع الى الغضب هـذا الاسراع ، ان الأمر خطير ، بل خطير جداً بالنسبة اليك ، واليهم أيضاً ، الى آندره بتروفتش ، والى أمك ، والى الجميع ، فاذهب الى آنا آندريفنا حالاً ، لأنها لا تستطيع أن تنتظرك مدة أطول ، أحلف لك بشرقى ، وبعد ذلك تتخذ قراراً ،

نظرت اليها مدهوشاً مشمئزاً • وهتفت أقول بعناد وعداوة :

- سعخافات • لن يحدث شيء • لن اذهب • تغير الآن كل شيء • هل أنت قادرة على أن تفهمى ؟ مع السلامة يا داريا أونيسيموفسا • لن أذهب • عمداً لن أدهب • وعمداً لن أسالك عن شيء • والا أفقدتني صوابي • لا أريد أن أحشر أنفى في أسراركم •

ولكنها لم تنصرف ، بل ظلت متسمرة في مكانها ، فلم يسعني الا أن أتناول معطفي وطاقيتي ، وأن أخرج تاركا اياها في وسط الفرفة ، لم يكن في غرفتي رسائل ولا أوراق ، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أي يوم من الأيام تقريباً حين أخرج ، ولكن ما كدت أصل الى الباب المفضى الى الشارع حتى رأيت مؤجسر غرفتي بطرس هيبوليتوفتش يركض وراثي بدون قبعة وبدون سترة ،

- ـ آركادي ماكاروفتش! آركادي ماكاروفتش!
 - _ ما بك أنت أيضاً ؟
 - ـ ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج ؟
 - _ لا ٠

فنظر الى ً نظرة نافذة ً فيها قلق واضح ، وقال يسأل :

- ـ فيما يتعلق بالبيت مثلاً ؟
- ــ فيما يتعلق بالبيت ؟ ألم تستلم الأجرة ؟
 - ــ ليس الأمر أمر الأجرة •••

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة طويلة على حين فجأة ، ويظل يتفحصنى بنظرته • فصحت أقول غاضباً :

ــ ولكن ماذا حدث لكم جميعاً ؟ ماذا تريد أنت ؟

فانتظر بضع ثوان ، كأنه لا يزال يأمــل منى شيئًا ، ثم دمدم يقول وهو يبتسم ابتسامة أطول :

ـ اذن تأمرنى فيما بعد ، مادمت الآن معتكر المزاج ، طيب ، مع السلامة ، أنا أيضاً يحب أن آذهب الى المكتب ،

وعاد يصعد السلم راكضاً • ان هذا كله يبعث على التفكير طبعاً • وأنا أتعمد ألا أغفل أى تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة ، لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد في مجموعها المتشابك • هذه حقيقة • ولئن ضقت ذلك المضيق كله ، وحنقت ذلك الحنق كله ، فلأننى عدت أجد في أقوالهم لهجة المكر واللغز تلك التي كنت أتقزز منها وكانت تذكرني بالماضي •

ولكن فلأثابع حديثى ٠

لم أجد فرسيلوف في البيت: كان قد خرج فعلاً مع طلوع النهار • وقفت أقول لنفسى: «سأجده عند ماما حتما» • ولم أسأل الخادمة عن شي • انها امرأة غبية • ولم يكن في البيت أحد غيرها • ركضت متجها الى بيت ماما • أعترف بأننى كنت قلقاً غاية القلق • حتى لقد ركبت عربة بعد أن قطعت نصف الطريق • فعرفت هناك « أنه لم يجي • الى بيت ماما منذ مساء الأمس ، • لم يكن مع ماما الا تانيانا بافلوفنا و ليزا • وما ان دخلت حتى تأهبت ليزا للخروج •

لاتزالان تقيمان فوق، في «تابوتي» • وتحت، في الصالون، كان جثمان ماكار ايفانوفتش مسحى على المائدة ، وكان شيخ مجهول يقرآ عليه المزامير • لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً مباشراً • لكنني أحب أن أسجل أن النعش الذي أصنع له و أوضع في الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً : صحيح أنه أسود ، ولكنه مفروش بقطيفة ؟ والكفن نمين : ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته • ولكن تلك كانت رغبة ماما و تاتيانا بافلوفنا ، حرصتا عليها أشد الحرص •

لم أكن أتنظر طبعاً أن أراهن ً في مرح • لكنني ما ان رأيت الحزن الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل في أعينهن حتى قد ًرت أن « هناك شيئاً آخس غير المتوفى قطعاً ، • اعود فأكرر أنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً •

ومع ذلك قبلت ماما بحنان ، ثم لم ألبث أن سألتها « عنه » ، فسرعان ما اشتعل في نظرتها استطلاع قلق ، فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة مما الى ساعة متأخرة من اللبل ، ولكننى لم أجده اليوم في البيت ، فقد خرج مع طلوع النهاد ، رغم أنه طلب منى في اللبلة البارحة ، حين افترقنا ، أن أجى اليه في أبكر وقت ، لم تجب ماما بشي » ولكن تاتيانا بافلوفنا انتهزت فرصة فلوحت لى بأصبعها مهددة ،

وقالت ليزا فجأة بلهيجة قاطعة وهي تخرج من الغرفة مسرعة :

ـ استودعك الله ، أخى •

وبادرت ألحق بها طبعاً ، فوجدتها واقفه " تنتظرني عند الباب • قالت لي بهمس سريع :

- _ فدِّرت أنك ستنزل
 - ـ ماذا حدث يا ليزا؟
- _ أنا نفسى لا أعلم ولكن لابد أن أشياء كثيرة قد حدثت لابد أنها خاتمة هذه « القصة الأبدية ، لم ينجى ، ولكن وصلتهم أخبار عنه لن يحكوا لك شيئًا فكن هادئًا ، ولا تسألهم أى سؤال اذا كنت تملك بعض الذكاء أنا أيضاً لم أسأل ماما مرهقة الى اللقاء !

وفتحت الباب • قلت :

ـ ليزا ! وأنت ، أليس بك شيء ؟

ووثبت أدركها في الدهليز • ان هيئتها المهدودة المكروبة اليائسة قد

طعنت قلبى • فنظرت الى ً نفارة لم تكن غاضبة فحسب ، بل كانت كاسرة أيضاً • ثم ابتسمت ابتسامة مرة ، وحركت يدها باشارة يأس •

> وفيما كانت تهبط السلم منصرفة ، هتفت تقول : ــ اذا مات فيجب أن نحمد الله .

كانت تعنى الأمير سرجى بتروفتش الذى كان رافداً مع حمى وغيبوبة ، حدثت نفسى محنقاً : « القصة الأبدية ؟ أية قصة أبدية ؟ » وسرعان ما ساورتنى رغبة قوية فى أن أحدثهم عن جزء ـ على الأقل ـ مما أحسست به بعد سماع « اعترافه » فى الليلة البارحة ، وأن أذكر لهم ذلك الاعتراف ذاته ، « انهم يحملون آراء سيئة فيه ، ألا فيلملموا اذن كل شىء ! ، ، تلك هى الفكرة التى لمعت فى خاطرى ،

أذكر اننى بدأت الكلام بغير خسراقة ، فسرعان ما أثرت اهتمامهما واجتذبت انتباههما ، حتى ان تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالى شرباً ، وذلك شيء لم يسمبق أن حدث من قبل ، وكانت أمى أكثر تعفظاً ، كانت رصينة جداً ، ولكن ابتسامة خفيفة رائمة ، وان تكن يائسة كل اليأس ، قد أضاءت وجهها ولازمته الى نهاية الحديث ، واسترسلت فى الكلام ، رغم علمى بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول ، وقد أدهشنى كل الادهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تناكدي ، فلا سألتنى توضيحات ولا نصبت لى فخاخاً ، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم ، وكانت نقتصر على أن تزم شفتيها وتفمض عينيها نصف اغماض من حين الى حين كأنما هى تحهد أن تفهم ، حتى لقد بدا لى فى بعض اللحظات أنهما كانتا تدركان كل شيء ، غير أن ذلك كان مستحيلاً فى الواقع ، تحسدثت مثلاً عن اعتقاداته وآرائه ، وعن حماسته أمس ، عن حماسته الما خاصة ، عن حبه الما ، ورويت كيف قبال صورتها ، م فكانتا ، وهما خصامتين ، واحمرت ماما خصابان الى كلامى ، تتبادلان نظرات سريعة صامتين ، واحمرت ماما

احمراراً شديداً وظلت كلتاهما لا تقولان شيئاً و ثم ووو و من كنت لا أستطيع طبعاً وبحضور ماما و أن ألمس النقطة الأساسية و أعنى لقاء مع الأخرى و و انبعائه والروحى بعد تلقيه تلك الرسالة وكان ذلك هو الأمر الجوهرى في الواقع و وهكذا فان جميع عواطفه التي عبر عنها في الليلة البارحة والتي كنت آمل أن أبهج بها ماما كثيراً و بقيت غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال ولم يكن الذب في ذلك ذنبي ولأن كل ما كان يمكنني أن أقوله و قد قلته بل أحسنت قوله جداً و فلما انتهيت كنت مرتبكاً أشد الارتباك واستمر صمتهما و فوجدت نفسي معهما في ضيق شديد و فقلت وأنا أنهض الأصرف :

لابد أنه رجع الى البيت الآن • أو لعلمه ذهب الى بيتى فهـــو
 ينتظرني هناك •

فقالت تاتبانا بافلوقنا مؤيدة بلهجة قاطعة :

- طيب • اذهب اليه ، اذهب اليه !

وسألتنى ماما بهمس :

_ هل ذهبت الى تح**ت ؟**

ـ نعم ، حييت جثمانه ، وصليّت له ، ما أجمله من وجه هادى.
يا ماما ! شكراً لأنك لم تقصيّرى فى أمر النعش أى تقصير ، لقيد استغربت ذلك فى أول الأمر ، ولكننى سرعان ما أدركت أننى لو كتت فى مكانك لفعلت ما فعلته أنت ،

سألتني أمي مختلجة الشفتين:

_ حل تأتى غداً الى الكنيسة للجنازة ؟

فقلت مدهوشا :

- كيف لا يا ماما ؟ سأحضر قداس اليوم ، وآتى غداً أيضــــاً . وغداً عيد ميلادك يا ماما ، يا صديقتي الغالية ! لم ينقصه الا ثلاثة أيام !

وانصرفت مدهوشاً دهشة أليمة : يا له من سؤال سخيف ! كيف تسألني هل آتي الى الكنيسة أم لا ؟

واذا كانتــا تخشـــيان ألا آتى أنا ، فما عسى تكون خشيتهما مــن ألا يأتى ، هو ، ؟

وكتت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بى ، فتعمدت أن أقف عند العتبة • وأدركتنى فعلاً ، لكنها دفعتنى بيدها الى السلم ، وخرجت بعدى وأغلقت الباب •

ــ تاتيانا بافلوفنـــا ! هل تتوقعــان اذن ألا ينجىء آندر، بتروفتش لا اليوم ولا غداً ؟ اتنى خالف ٠٠٠

ــ اسكت ٠ يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً !!٠٠٠ قل : انك لم تذكر كل ً شيء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة ، أليس كذلك؟

لم أجد داعياً الى الكتمان ، فحكيت لها _ وأنا شـــبه غاضب على فرسيلوف _ حكاية الرسالة التى وصلته من كاترين بيقولايفنا ، والأثر الذى أحدثته تلك الرسالة فى نفسه اذ بعثته بعثاً جديداً ، فما كان أشد استفرابى حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها ، فأدركت أنها على علم بأمرها ،

- _ ألا تكذب فيما تقول ؟
 - لا ، لا أكذب •

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها نفكر ، ثم قالت :

ــ هه ! بُعث بعشــاً جديداً ! لا ينقص الا هذا ! هل صحيح أنه قبَّل الصورة ؟

- _ صحيح يا تاتيانا بافلوفنا •
- _ قبَّلها بعاطفة ، أم تظاهر تظاهراً ؟

ــ تظاهر تظاهراً ؟ هل يتظاهر أحياناً ؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا ! ان لك نفساً قاسمة ، نفس امرأة !

قلت ذلك بحرارة ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعنى • كانت قد عادت تغرق فى أفكارها رغم شدة البرد على السلم • كنت أنا مرتديا معطفى ، أما هى فكانت بفستانها فقط •

قالت باحتقار وتململ:

ــ كان يمكن أن أعهد اليك بمهمة ، ولكن المؤسف أنك غبى غباء شديداً • اسمع : اذهب الى آنا آندريفنا ، وانظر ماذا يحـــدث عندها • لا بل لا تذهب ! فلن تكون هناك الا غبياً • امش • ما بقاؤك هنا متسمراً كنصب ؟

ـ لا ، لن أذهب الى آنا آندريفنا ! ومع ذلك فان آنا آندريفنا هي التي أرسلت تستدعيني اليها اليوم •

ـ هي نفسها ؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا ؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتنصرف، لكنها ما أن سمعت كلامى حتى التفتت الى ثانية وألقت على ذلك السؤال وهى تغلق الباب من جديد .

كررت أقول متلذذاً :

- لن أذهب الى آنا آندريفنا بحال من الأحوال • لن أذهب اليها ، لأننى و صفت منذ هنيهة بأننى غبى ، مع أننى لم أكن فى حياتى ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم • ان قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفى ، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح! على كل حال ، لن أذهب الى آنا آندريفنا •

فهتفت تقول وهي لا تزال تفكر :

- ـ كنت أعرف هذا ! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها في الكيس
 - _ آنا آندریفنا ؟
 - _ غبي!
 - _ من تعنين اذن ؟ كاترين نيقولايفنا ؟ أي كيس ؟

جزعت جزعاً رهيباً • ان فكرة غامضة ، لكنها فظيمة ، قد برقت في نفسي كلها • وألقت على ً تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقية ، وسألتني فجأة :

ــ وأنت ما شأنك وهذا كله ؟ ما دورك في هذا الأمر ؟ لقد ســمعت شيئا عنك أنت أيضا • حذار.

ــ اسمعى يا تاتيانا بافلوفنا • سوف أكشف لك سرا رهيبا • ولكن لا الآن • الآن لا يتسع الوقت • غداً سأكشف لك عن ذلك السر ، على انفراد • ولكن قولى لى الحقيقة كلها فوراً : ما هذا الكيس الذى تتحدثين عنه ؟ ذلك أن جسمى كله يرتعد ارتعاداً شديداً •••

صاحت تقول :

ـ لا يهمنى أن يرتعد جســـمك أو ألا يرتعد ، ما هــدا السر الذى تريد أن تبوح لى به فى الغد أيضــاً ؟ هل تعرف شيئاً بالفعل ؟ قل ما تعرفه بصراحة .٠٠

وعادت تلقى على تظرتها الفاحصة • ثم قالت تسألني :

ــ ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت ؟

وتابعت أنا أيضاً كلامى دون أن أجيب عن سؤالها لأننى كنت خارجاً عن طورى :

ـ تاتيانا بافلوفنـــا ، أكرر لك ٥٠ لا تعذبيني ٠٠ انتبهي يا تاتيانا

بافلوفنا ٠٠ فبسبب ما تخفينه عنى قد تقع مصيبة أكبر ٠ لقد كان أمس في حالة انساث كامل ٠

_ امش يا مهرَّج! أنت أيضاً هائم حباً •• الأب والابن مولَّهان بحب امرأة واحدة! تفو! انكما لمقززان!

واختفت • وصفقت الباب وراءها استياء وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذي لا يمكن أن تصل البه الا امسرأة ، فخرجت راكضاً وقد 'جرح شعوري جرحاً عميقاً • ولكنني لن أحدثكم عن مشاعري المضطربة : فقد عاهدتكم على ذلك • لن أحكى الا الوقائع التي ستضع في أيديكم الآن مفتاح كل شيء •

وقد انطلقت اليه طبعا ، فأخبرتنى الخادمة مرة أخرى بأنه لـم يرجع • سألتها :

- ــ ولن يرجع ؟
 - _ الله أعلم!

الواقائع ، الوقائع ! ولسكن ما الذى سيستطيع أن يفهمه القسارى. ؟ أَتذكر أَننى ، أَنا نفسى ، وقد سحقتنى تلك الوقائع ذاتها ، كنت لا أستطيع أن أفهمها ، فما انتهى النهار الا كان عقلى قد انقلب رأساً على عقب فعلاً ! لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات .

البكم ما كان يدور عليه قلقى وعذابى : اذا كان قد 'بعث بالأمس بمنا جديداً فكف عن « حيها » فأين يبجب أن يسكون اليوم ؟ الجواب : أولا ، عندى ، أنا الذى قبلنى البارحية ، ثم فوراً عند أمى ، التى قبل صورتها ، ولكنه بدلا من أن يقوم بهاتين الحطوتين ، غادر البيت عند « طلوع النهار » ، واختفى لا يدرى أحيد أين ، وتقول داريا أو نيسيموفنا انه فى أغلب الظن لن يعود ، أكثر من ذلك : ان ليزا تتحدث عن خاتمة « القصة الأبدية » ، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه ، أحدث من هذه الأخبار أيضاً ، وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التى بعثتها اليه كاترين « بعث بعثاً جديداً ، ، وان كانوا قد أصغوا الى بانشاه شديد ، كانت ماما مهد من تهديماً ، وكانت تاتيانا بافلوفنا تبتسم ابتسامة ساخرة حين أنطق بكلمة « الانبعاث ، هذه ، معنى ذلك اذن أنه قد وقعت له فى الليل ثورة أخرى ، وقعت له نوبة أخرى ، بعد كل حماسته وحنانه وتأثره بالأمس !

الآن يعانى ذلك الاهتياج المسعور نفسه الذى أصابه حين جاء نبأ بيورنيج ! فاذا صبح هذا فما عسى يحدث لماما ؟ وما عسى يحدث لى أنا ، ولنا جميعاً . وما عسى يحدث لها « هى » خاصة ؟ ما الكيس الذى كانت تعنيه تاتيانا حين أمرتنى أن أذهب الى آنا آندريفنا ؟ لابد أن « الكيس » اذن عسد آنا آندريفنا ؟

و هرعت الى آنا آندريفنا طبعاً • كنت تعمدت عن غضب أن أقول اننى لن أذهب اليها • ثم 'هرعت الآن • ولكن ما الذى قالته تاتيانا بافلوفتا عن الوثيقة ؟ أليس هو الذى قال لى أمس : « احرق الوثيقة ، ؟

تلكم كانت خواطرى • ذلكم ما كان يخنقنى • ولكننى كنت فى حاجة اليه • هو ، خاصة • معه يمكن أن أحل كل شىء فى طرفة عين ، يمكن أن أتفاهم ببضع كلمات : آخذ يديه ، وأشد عليهما ، وأجد فى قلبى الأقوال الحارة المناسبة • كذلك كنت أحلم • ان فى وسعى أن أتنصر على جنونه ! • • ولكن أين هو ؟ أين هو ؟ وما كان ينقصنى فى مشل تلك اللحظة الا أن ألقى لامبير ، بينما أنا فى مشل ذلك الفوران ! وكدت أصل الى البيت ، فاذا أنا أقع على لامبير فجأة • فأخذ يطلق صيحات فرح اذ رآمى • وتناول يدى •

_ هذه هي المرة الثالثة التي أجيء اليك فيها • « أخيراً » ! هلم ً بنا تتغدى •

ــ انتظر ٠ أنت آت من بيتي ؟ هل آندره بتروفتش هناك ؟

لا ، ليس أحد هناك • دعهم جميعاً ! أنت زعلت أمس يا أحمق !
 كنت سكران • هناك حديث جرى بينى وبينك • علمت اليوم أنباء رائمة
 عماً كنا تتكلم فيه أمس •••

فاطعته أقول لاهثآ متعجلاً ، صائحاً بعض الصياح برغم ارادتى :

_ لامبير ، لئن وقفت فانني لم أقف الا لأقطع صلتي بك قطعاً نهائياً • وقد قلت لك هذا بالأمس ، غير أنك تصر على أن لا تفهم • لامبير ، أنت صبى وغبى في أن واحــد ، كفرنسي • تتخيل دائمــا انك لا تزال عند توشسار وانني لا أزال أحمق كما كنت عند توشار •• ولكنني الآن غير ما كنت عند توشار • كنت امس سمكران ، ولكن سبب سكرى لم يكن الخمسر بل أني كنت مهتاجاً من قيــل أن أشرب • ولئن أيدت ما كنت تقوله مخقد كنت أتظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك • لقد خدعتك ، فسررت أنت وصدقتني واسستمررت في الثرثرة • اعلم أن زواجي بهما حماقة لن يصدقها تلميذ من تلاميذ الصف الاعدادي في يوم من الأيام • هل يمكن أن يتخيل أحد أن أصدَّق هذا الكلام؟ لكنك تخيلته أنت! مرد ذلك الى أنك لا 'تستقبل في المجتمع الرافي ، ولا تعـرف ما ينجـري فيــه • ان الأمور لا تجسرى عندهم بمثل هذه السهولة • ليست الأسور يسيطة هذه البساطة في المجتمع العالى • ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تنزوجني • سـأقول لك بوضـوح ماذا تريد أنت : تريد أن تجنَّذبني فتسقيني الى أن أسكر فأسلمك الوثبقة وأشاركك في مؤامرة حقيرة على كاترين نيقولايفنا ! اعلم اذن أنك مخطى. • لن أجىء اليك أبداً • واعلم أيضاً أن الورقة ستكون بين يديها غداً أو بعد غد ، لأن تلك الورقة ملك لها ، لأنها هي التي كتنتها ، وسأستَّلمها اليها بنفسى ، فاذا أردت أن تعرف أين سأستَّلمها اياها فاعلم أن ذلك سيكون في مسكن تائيانا بافلوفنا ، وبعضور تاتيانا بافلوفنا ، صديقتها ، وأننى لن أطالب بشيء ثمناً • والآن : الى الأمام ، سر ! والا ، والا يا لامبير ، فسأكون أقل أدبًا ٠٠٠

قلت ذلك وأخذت أرتجف • ان أسوأ عادة لدى كل انسان وأضر عادة بكل انسان ، في كل ظرف ، هي أن يصطنع وضع التعاظم • ما كان أغناني عن هذا الحطاب الذي أغناني عن هذا الحطاب الذي

كنت أو تم كلماته مترنما وارفع صوتى فيه أكثر فأكنر ، ثم أنهية بذكر تلك النقطه التفصلية النافلة ، فاقول أنى ساسلمها الوتيقة بنفسى فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ؟ لقد احسست فجأة برغبة قوية فى ادهاشه واذهاله ! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك الفظاظة فرأيت جزعاً غبياً يعتريه بغتة ، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل ! فكانت هذه الثرنرة المغرورة التى تلاحظ فى النساء سبباً فى وفوع كوارث رهيبة ، لأن هده النقطة التفصيلية ، المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا وهسكنها سرعان ما نقشت فى ذهنه الذى هو ذهن انسان حقير ورجل عملى فى الأمور الصغيرة ، انه فى الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً ، أما فى هذه التفاصيل الجزئية فانه الأمور البديهة دائماً ، فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجنبت وقوع حاشر البديهة دائماً ، فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجنبت وقوع مصائب كثيرة ، ومع ذلك فانه بعد أن أصغى الى بدا كمن فقد صوابه ،

ــ اسمع • آلفونسسين ستغنى • • آلفونسسين ذهبت « اليها » • • اسمع • عندى رسالة ، أو رسالة تقريباً ، تتحدث فيها آخماكوفا عنك • المجدور هو الذى زودنى بهذه الرسالة • هل تتذكر المجدور؟ سترى ، سترى ! هلم بنا ا

ـ كذاب! أرنى الرسالة!

ـ هي في البيت ، عند ألفونسين . هيًّا بنا الى البيت !

كان يكذب طبعاً ، كان يهذى ، مخافة أن أفلت منه ، لكننى تركته فجأة فى وسط الشارع ، وحين هم أن يتبعنى ، وقفت أهد ده بأصبعى ، فتردد لحظة أنتيج لى أن أختفى : لعل خطة أخرى كانت قد نبتت فى رأسه منذ ذلك الحين ، لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة الى ، اننى حين أتذكر ذلك اليوم الحافل بالشقاء ، يبدو لى دائماً أن تلك المفاجآت واللقاءت انما كانت على موعد لتنهل على غزيرة رهبسة ، اننى

ما ان فتحت باب مسكنى حتى اصطدمت فى حجرة المدخل بشاب طويل القامة له وجه بيضوى شاحب ، ومشية مهيبة « راقية » ، يرتدى معطفا راتما ، ويزين وجهه بنظارة أنف • كانت له نظارة أنف • ولكنه حين رآنى خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة) ، وقال لى وهو يبتسم ابتسامة رقيقة و ينهض قبعته الطويلة بأدب وتهذيب ، ولكن دون أن يقف : « آ • • • • مساء الحير!) (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلم • لقد عرف كل منا الآخس على الفور ، رغم أننى لم أره الا مرة واحدة سريعة بموسكو • انه أخو آنا آندريفنا ، الحاجب بالسلاط ، الشاب فرسيلوف ، ابن الكتب بعد) ، فلما انصرف هجمت أسألها :

- ـ ماذا يعمل هنا ؟ هل كان في غرفتي ؟
- ـ لا ، لم يكن في غرفتك . جاء يزورني أنا ٠٠٠

كذلك أجابتني بلهجة قاطعة خشنة وهي تدير ظهـرها • فهتفت أتول صارخاً:

ــ لا ، لن يمــر الأمـر هكذا · أجيبى من فضــلك ماذا جاء يعمل هنـــا ؟

_ أوه ! هل من واجبى أن أحكى لك لماذا يعجى الناس ؟ أظن أن من حقنا ، نحن أيضاً ، أن تكون لنا شئون خاصة ، لعل هذا الشاب جاء يقرض مالاً ، أو جاء يسمألني عن عنوان ، أو لعلني وعدته في المرة السابقة أن ٠٠٠

- ـ في المرة السابقة ؟
- _ آ . • طبعاً ! في المرة السابقة انه لَم يجيء اليوم أول مرة ! وانصرفت أدركت أن اللهجة في البيت تغيرت : أخذوا يغلظون لي

القول! هذا سر جدید! الاسراد تتراکم عند کل خطوة ، فی کل ساعة! فی المرة الاولی جاء الشاب فرسیلوف مع أخته ، آنا اندریفنا ، حینما کتت مریضا ، تذکرت هذا تذکراً واضححاً ، وتذکرت کذلك جملة قصیرة مدهشة أفلنت أمس من آنا آندریفنا : وهی أن الأمیر العجوز سیقف عندی ، ولسکن هذا کله کان یبلغ من الفسرابة أننی لم أستطع أن أفهم شیئاً ، فرأیتنی ألطم جبینی ، وأهرع الی بیت آنا آندریفنا حتی دون أن أجلس لأستریح ، ولم أجد آنا آندریفنا فی بیتها ، لسکن البواب السویسری أجابنی بأنها «سافرت الی تسارسکویا ، وأنها لن ترجع الا غدا فی مثل هذه الساعة تقریباً ، ،

ــ سافرت الى تسارسكويا ! ذهبت الى الأمير العجوز حتماً ، وذهب أخوها الى مسكنى يفتشه ! لا ، هذا مستحيل !

وصررت بأسناني قائلاً : « اذا كان هناك تهديد حقاً ، فسوف أدافع عن « المرأة المسكينة ، ! •

ومن بيت آنا آندريفنا لم أرجع الى بيتى ، لأن رأسى الملتهب قد السجست فيه ، على حين فجأة ، ذكرى المطعم الذى يقع تحت مستوى الأرض ، والذى اعتاد آندره بتروفتش أن يذهب اليه فى ساعات حزنه ، فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً ، وهرعت الى المطمسم فوراً ، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة ، وكان المساء يهبط ، قبل لى فى المطعم انه جاء ، « فلبث لحظة " ثم انصرف ، وقد يعود ، ، فقررت فجأة ، بكل ما أملك من طاقة ، أن أنتظره ، فأمرت لنفسى بغداء ، هناك أمل على الأقل !

وتغدیت بل ظللت آکل طبقاً بعد طبق حتی یحق لی البقـاء أطــول مدة • أظن أننی مکثت زهاء أربع ســــاعات • لا أصف حزنی ، وتلهفی المحمسوم ، لقد كان كل شيء في يهتز ويرتعش ، ان هـذا الأرغن البرباري ، وهؤلاء الشاربين ، وهذا الضجر ، ان هذا كله قد تُقش في نفسي ، ولعله 'نقش فيها الى الأبد! لا ولا أصف الأفكار التي كانت تعلو في رأسي كنمامة من أوراق أشجار يابسة في فصل الحريف بعد اعصار ، كان في رأسي شيء من هـذا القبيل حقــاً ، وكنت في بعض اللحظات أحس بأن عقلي قد بارحني فعلا" ، أعترف بهذا ،

غير أن ما كان يعذبنى خاصـــة (عدا عذابى الرئيسى طبعاً) انما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً فى يوم من الأيام •• كانت هذه الذكرى كذبابة ســامة من ذباب الخريف تدور > وتثز > وتصمت > وتحــاصر > نم تلسع لسعاً موجماً على حين فحاة • فاليكم حكاية هذه الذكرى > لأنها > هى أيضاً > يجب أن تروى فى موضع ما من هذه القصة •

حينما كنت بموسكو فتقرر أن أسافر الى بطرسبرج ، أبلغنى نيقولا سيمونوفتش أن هناك مالا سيصلنى من بطرسبرج نفقات للسفر لم أسال من الذى سبرسل الى المال ، اذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذى سيرسله ، وكنت فى ذلك الحين أحلم بلقائى مع فرسيلوف ليلا ونهاراً ، خافق القلب طموح المسساديع ، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث فى هذا الأمر حتى الى ماريا ايفانوفنا ، يجب أن أذكر من جهة أخرى أننى كنت أملك مالا أنفقه على الرحلة ، ولكننى قررت رغم كل شى، أن أنظر ! وكنت أقدر أن المال سيصلنى بالبريد ،

ولكن ها هو ذا نيقولا سيمونوفتش يعود الى البيت ذات يوم فيبلغنى (باختصار ، على عادته ، وبدون الحاح) أن على أن أذهب غدا الى بيت الأمير ف. ٠٠٠ سكى بشارع مياستسكايا ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، فهناك سيسلمنى حاجب البلاط ، فرسيلوف ، ابن آندره بشروفتش، الذى وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه فى المدرسة الثانوية ، الأمير ف. ٠٠٠ سكى ، هناك سيسلمنى المبلغ المرسل الى نفقات للرحلة ، بدت لى المسألة بسيطة غاية البساطة : فمن الجائز جدا أن يكون آندره بشروفتش قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلا من ارسال المبلغ بالبريد ، ومع ذلك قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلا من ارسال المبلغ بالبريد ، ومع ذلك قان هذا النبأ قد أمسك بخناقي وأخافني اخافة غير طبيعية ، لاشك في أن

فرسیلوف قد أراد آن یعرفنی بابنسه ، الذی هو أخی ، كذلك تصورت نیات الرجل الذی كنت أحلم به ، وتصورت عواطفه ، ولكن سؤالا ضخما قد انتصب أمامی : كیف أتصرف وكیف یجب أن أتصرف فی هذا اللقاء الذی لم أتوقعه البتة ، وهلا یجرح هذا اللقاء كرامتی ؟

وفى الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد ، دخلت بيت الأمير فد ٠٠٠ سكى ، هو شقة عازب ، ولكنه بدا لى فاخر الأثاث ، وكان فيه خدم بالملابس الرسمية ، وقفت فى حجرة المدخل ، فكانت تصل الى من الداخل اصوات حديث حار وضحكات ، ان لدى الامير ف ٠٠٠ سكى ضيوفا آخرين غير حاجب البلاط ، ذكرت للمخادم اسمى وطلبت منه أن يبلغ عن وصولى ، وأغلب الظن أنى فعلت ذلك بشىء من الحيلاء ، المهم أننى لاحظت أن الحادم حين انصرف عنى قد نظر الى نظرة غريبة ، بل انه لم يولنى حقى من الاحترام فيما بدا لى ، وما كان أشد دهشتى حين رأيته يغيب مدة طويلة ، زهاء خمس دقائق ، كنت أسمع خلالها رئين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها!

وقد انتظرت واقفاً بطبیعة الحال ، لأننی ، وأنا «سید مثله ، ، لا یلیق بی بل یستحیل علی آن أجلس فی حجرة المدخل التی یرابط فیها الحدم ، وجهة أخری لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسی ، بدون دعوة خاصة ، فأدخل الصالون ، فذلك لا یتفق و كبریائی ، لعلها كانت كبریا، مغالبة ، ولكن هذا ما كان ا وقد أدهشنی أن أری الحدم الذین بقوا (وعددهم اثنان) یسمعون لأنفسهم أن یجلسوا بحضوری ، فأشحت عنهم متظاهر آ بأننی لم أر ذلك منهم ، ولكن أخذ جسمی كله یرتجف ، ثم التفت فجاة ، و دنوت من أحد الخادمین « فأمرته ، بأن یمضی ببلغ عنی مرة آخری علی الفور ، ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتی وشدة اهتباجی ، مرق أخری علی الفور ، ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتی وشدة اهتباجی ، مثل الی قبی كسل دون أن ینهض ، وأجابنی الآخر نیابة عنه :

ـ تم الابلاغ عن وصولك • اطمئن !

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة ، واحدة فقط ، أو أقل من ذلك ، ثم ه أنصرف ، • لقد كانت نيابي حسنة : فبدلتي جديدة ، ومعطفي جديد ، وقميصي نضر كل النضارة عنيت به ماريا ايفانوفنا عناية خاصة لهذا اللقاء • ولكن الحدم ، كما علمت بعد مدة طويلة ، ببطرسبرج ، من ه مصدر مونوق به ، ، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف ، أنه سيجي الى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً • الآن أعرف هذا معرفة البقين •

انقضت الدقيقة • ان ذلك الاحسساس الذي يحسه المرء حين يريد أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك : « أأمضى أم لا ؟ أأنصرف أم لا ؟ » ، كنت أحسه في كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش • وفجأة رجع الحادم الذي ذهب يبلغ عن وصولى • كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء ، أربعين روبلا * • فقال لى :

_ خذ ٠ اليك هذه الأربعين روبلاً !

غلى دمى وفار • يالها من اهانة ! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذى هيأه فرسيلوف للأخوين ، لبثت أحلم به طوال الليل • وطوال الليل ظللت أتساءل محموماً : كيف يجب أن يكون سلوكى حتى لا أخفض قدر نفسى ، وحتى لا أسى الى ذلك الصرح كله من الأفكار الذى بنيت فى عزلتى وأستطيع أن أعتز وأن أفخر به فى أية بيشة • كنت أقول لنفسى : سأظهر نبلاً ، وكبرياء ، وقد أظهر نبيناً من الحزن والأسى أيضاً ، لل قد أظهر قدراً من الحشونة والجفوة حتى فى صحبة الأمير ف • • سكى ، فعلى هذا المجتمع دخولاً مهبساً • آه • • • لا أحب أن أدارى نفسى ، قعلى هذا النحو انها يجب أن "سيجل هذه التفاصيل الأليمة كلها! وقجأة : أربعون روبلاً ، "ترسل الى "مع خادم ، الى حجرة المدخل ، بعد

انتظار دام عشر دقائق ، ويقدِّمها الى ً الحادم رأساً ، بيده ، بأصابعه ، لا موضوعة على صحن ، ولا مودعة في ظرف ! ٠٠٠

صرخت في وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع القهقرى ، وأمرته بأن يعيد المال الى سيده حالاً « ليحمله سيده الى بنفسه ! ، أى اننى طلبت طلباً لاشك أنه كان في نظر الخادم غير معقول ولا مفهوم • ولكن صراخى قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر • هذا عبدا أن صرخاتى "سسمت في العسالون ، فسرعان ما توقفت أصوات الأحاديث والضحك فوراً •

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة ، ثم اذا أنا أرى قامة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لى يومئذ أشد شحوباً ونحولاً منه فى هذا اللقاء الثانى) تظهر فى العتبة أو قل تقف على مسافة بضحة سنتمترات من العتبة ، كان يرتدى ثوباً للمنزل رائماً مصنوعاً من حرير أحمر ، وينتمل بابوجين ويضع على عنيه نظارة أنف ، وها هو ذا يتفرس فى من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة ، فتقدمت منه خطوة ، كوحش كاسر ، ووقفت أمامه متحدياً ، أحد ق اليه بنظرة ثابت ، ولكنه لم يتأملنى هذا التأمل الا برهة قصيرة لا تزيد على عشر ثوان ، ثم اذا بسخرية خفيفة لا تكاد 'ترى تظهر على شفتيه ، ولكنها مع ذلك سخرية جارحة جداً ، جارحة لأنها لاتكاد 'ترى ، ثم ها هو ذا يدور على كعيه ، ثم يرجع الى حيث كان ، دون تعجل ، بسل بهدوء ورفق وخطى موزونة كما جاء ، آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون ورفق وخطى موزونة كما جاء ، آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون بديه طاماً ، آه ، ، ، المائة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرتهم ، من أمهاتهم ! وقد فقدت حضور بديهي طبعاً ، آه ، ، المائة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرتهم ، من أمهاتهم ! وقد فقدت حضور بديهي طبعاً ، آه ، ، الذا فقدتها ؟

وفى تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الحادم نفسه حاملاً بيديه تلك الورقات نفسها ، وقال : ـ تفضل بقبولها • انها مرسلة من بطرسبرج • لا يمكن استقبالك • « ربما استقبلك • السيد » في مرة أخــرى ، حين يــكون لديه متسع من الوقت أكبر » •

أحسست أن الكلمات الأخيرة قد أضافها هو • ولكن اضطرابى استمر فى اضعاف نفسى • فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب • فبسبب ذلك الاضطراب انما أخذت المال ، وكان ينبغى فى الواقع أن أرفضه • ولم يفت الخادم ، من أجل اهانتى طبعاً ، أن يفضب غضبة جديرة يخادم حقاً فأسرع يفتح الباب أمامى واسعاً ، حتى اذا مروت قال بوقار ولهحة خاصة :

ـ تفضل!

فزأرت أقول وأنا أرفع يدى ولكن دون أن أهوى بها :

- ـ أنت وغد وسيدك وغد آخر ، فقل له هذا فوراً •
- أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلم مسرعًا •

ــ لا يحق لك ! ولو نقلت كلامك الى « السيد ، فوراً ، لاستطاع « السيد ، أن يرسلك الى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه ، أما تهديدى أنا ، فلا يحق لك ، • •

هبطت السلم • انه سلم مترف عريض مكشوف • فيمكن أن 'أرى من أعلى نازلاً على السحادة الحمراء • فكان الحدم الشلائة قد خرجوا واتكتوا بأكواعهم على قمة الدربزين ينظرون الى انسحابى • وقد قررت أن ألزم الصمت طبعاً : كيف أشاجر خدماً ؟ ووصلت الى تحت ، دون أن أتسجل الحطى ، وانما أتعمد البطء فيما أظن •

رب حكماء (شيطان يأخذهم !) يقولون ان هذا كله حساسية لا داعى

اليها ، وتأذ في غير محله ، وحنق لا يصدر الا عن أغرار ! قد يكون هذا الكلام صحيحا ، غير أن الأمسر كان بالنسبة الى جرحا عميقا ، جرحا لم يمكن ان يندمل حتى الآن ، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء ، يل انتقام ، صحيح أنني أشتهى دائماً ، الى حد التألم ، ولا بمن يتحرق الى الانتقام ، صحيح أنني أشتهى دائماً ، الى حد التألم ، أن أنتقم ممن ينالني باهانة ، ولكنني أحلف لكم أنني بالسسماحه أنتقم ، انني أرد على الاهانة ردا فيه سماحة ، فيكفيني أن يشعر المسيء وأن يدرك أنني كنت سمحاً كريماً ، حنى أحس أنني انتقمت منه ، يجب أن أضيف في هذه المناسبة أنني لا أتحسرق الى الانتقام ، ولكنني حقود وان أكن سسمحاً كريماً : هل يشبهني في هذا جميع الناس ؟ لقد وصلت الى بيت الأمير ف ، وسكى فياض النفس بعواطف كريمة ، وقد تكون عواطف مضحكة ، لا مانع ، ولكن كأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة ، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءة ووضاعة !

لم أحدث أحداً عن هذا اللقاء الذي تم يني وبين « أخي ، ، ولم أكاشف به حتى ماريا ايفانوفنا ، ولم أبح بسر م حتى لليزا حين جثت الى بطرسبرج ، كان ذلك اللقاء بمثابة صفعة أليمة جللتني بالخزى والعار ، ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة ! وها هو ذا يبتسم لى ، ويرقع قبعته احتراما ، وينزع حتى نظارته تودداً ، ويقول لى فجأة بلهجة فيها صداقة : « مساء الخير ، (بالفرنسية) ، ان هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً ، ، ولكن الجرح انتكا ونزف !

بعد الانتظار في المطعم مدة تزيد على أربع ساعات وجدتني كمن أصابته نوبة على حين فجاة ، فاذا أنا أخرج واتجه مسرعاً الى بيت فرسيلوف ، انه لم يرجع الى البيت ، وكانت الخادمة سأمانة ، فرجتنى أن أرسل اليها داريا أونيسيموفنا بسرعة، هه! هذا ماكان يشغل بالى! وذهبت الى بيت ماما أيضاً ، ولكننى لم أدخل ، وانما استدعيت لوكيريا الى البهليز ، فعلمت منها أنه لم يجى ، وأن ليزا غابت ، ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألنى أيضاً ، بل لعلها ود ت لو تعهد الى بمهمة ، ولكن هل كان يمكننى أن أصغى اليها ؟ هناك أمل أخير : لعله ذهب الى بيتى ، ولكننى لم أصد ق أن يكون قد ذهب الى بيتى !

سبق أن قلت ان عقلی كان اضطرب واختل تقریباً • وهأنذا أجد فی غرفتی : آلفونسین والمؤجر • بل قل اننی وجدتهما یخرجان من غرفتی • وكان بطرس هیبولیتوفتش یحمل شمعة •

سرخت أقول له :

ــ ما هذا ؟ كيف تتجاسرت أن 'تدخل الى غرفتي هذه التافهة ؟

فهتفت آلفونسين تقول بالفرنسية :

ـ « غريب • • • والأصدقاء ؟ » •

- فزأرت قائلاً :
- ــ اخرجي من هنا ٠
 - ہ د د حقاء ٠

وفرت الى المسر متظاهرة بالخوف ، واختفت فى غسرفة صاحبسه البيث • واقترب منى بطسرس هيبوليتوفتش بهيئة قاسسية وهو يحمل شمعدانه:

- اسمح لى أن ألفت نظرك يا آركادى ماكاروفتش الى أنك قد أسرفت فى الاندفاع • ومهما يكن احترامنا لك ، فانسا لا يسمنا الا أن تذكرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة • بالمكس! انها لم تجىء لتزورك أنت بل لتزور زوجتى • لقد تعارفتا منذ بعض الوقت •

فكررت سؤالى وأنا أمسك رأس الذى أصابه ما يشبه الصداع فحأة:

- ـ ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتي ؟
- ــ مصادفة! • دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التي كنت قد فتحتها لتهوية الغرفة ، واذ كنا مستمرين في الحديث الذي بدأناه أنا وآلفونمسين كارلوفنا ، فقد دخلت الغرفة معى منابعة كلامها ، دون أن تشمر •
- ــ هذا كذب آلفونسين جاسوسة ولامبير جاسوس وربما كنت أيضاً جاسوساً لقد جاءت لتسرق شيئاً •
- _ قل ما شئت اليوم تقول شيئاً ، وغدا تقول شيئاً آخر أريد أن أبلغك أننى أجرت مسكنى الشخصى ، أجرته الى حين ، وسنقيم أنا وامرأتى فى حجرة المكتب ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا هى الآن من سكان البيت تقريباً ، مثلك •

متفت أسأله مرتاعاً:

ـ أجرت مسكنك للامبير ؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التي لاحت في وجهه عند الصباح ولكن فيها الآن ثباتاً لم يكن لها حينذاك ، وقال :

ــ لا ، لم أوَّجِره للامبير ، أظن أنك تعرف لمن أجرته ، وانما أنت تتظاهر بالجهل تفكهــاً وتسلية ! واذا غضبت فمن باب التقيد بالشــكل . لينتك سعيدة .

_ نعم ، نعم ، دعنی هادئاً •

وحر ًكت يدى ً متململاً ، وكدت أبكى من شدة ضيقى ، فلم يسعه الا أن يدهش وهو ينظر الى ً ، ولكنه خرج ، فدفعت المزلاج ، وتهالكت على سريرى ، ودفنت وجهى فى الوسادة ، كذلك انقضى ذلك اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشئومة التى تعختم مذكراتى ،

الفصل لعب اشر ۱

سأستبق الأحداث مرة أخرى • انى أدى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القسارى، ببعض المعلومات ، لأن المجرى الأساسى لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن



القارىء يمكن ان يتوء ما لم 'يزوَّد ببعض الايضاحات سلفاً • ما ذلك « الكيس ، الذي أشارت اليه تاتيانا بافلوفنا ؟ ان آنا آندريفنا قد رأت أخيراً أن تقدم على خطوة هي أجرأ خطوة يمكن تصورها في هذا الوضع • أمرأة جســور حقاً! لقد نقل الأمير العجــوز ، بخبجة المرض ، الى تسارسكويا سيلو ؟ وترتب على ذلك أن تبـأ اعتزامه الزواج بآنا آندريفتـــا لم يتح له أن يذيع في المجتمع وانما اختنق في مهده ان صبح التعبير • ولكن الشيخ الضعيف الذي يمكن للمرء أن يفعل به كل شيء ، ما كان له ، رغم ذلك ، أن يوافق بحـــال من الأحــوال على أن يتخــلى عن فكرته وأن يخــون آنا آندريفنا التي طلبت أن يتزوجها • لقد كان من هذه الناحية فارساً • وفي وسعه ، عاجلاً أو آجلاً ، أن ينهض فجأة ، فيضع نبته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل الى السيطرة غليها ، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة في أحيان كثيرة ، لأن ثمة حــدودًا لا يجوز أن ندفعهم الى ما وراءها • ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماما الادراك أن وضع آنا آندريفنا التي يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج ، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن آن تذاع ، وســخريات يمكن أن تنطلق ، وشائعات أن تروج • والشيء

الذي كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كانزين نيقولايفنا لم تسمح لنفسها أبداً ، لا تصريحـاً ولا تلميحـاً ، أن تقول أمامه أى رأى سيء في آنا آندریفنا ، ولا أن تبدی أی اعتسراض علی اعتزامه الزواج بها . بالعكس : كانت تبدى فرحاً كبيراً ، وكانت تحيط خطيبة أبيها باكبر الرعاية وأعظم الاهتمام • وهكذا كانت آنا آندريفنا في موقف دفيق غاية الدقة ، فهي بمسا تملكه من رهاف الحس ، تدرك أنهسسا اذا قامت بأى مجوم على كاترين نبقولايفسا التي يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً ، ويحبها اليوم أكثر مما أحبها في أي يوم ، لاسيما وأنها سمحت له بالزواج مبرهنــة" على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام ، فانها ســتجرح أرق مشاعرها ، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها • على هذا الميدان اذن انما كان يقوم القتال الآن : فالحصمان ــ أى آنا ندريفنا و كاترين نيقولايقنا ـــ انما يحاربان بسملاح المجاملة والصبر • والأمير ، من جهتمه ، لا يدرى أى المرأتين أروع من الأخسرى وأدعى الى الاعجباب! وعلى عادة جميع الرجال الضعاف ، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقــة ، انتهى به الأمر الى التألم واتهام نفسه بكل شيء • ويقال ان كآبته قد وصلت الى حد المرض ، وان أعصابه تهدمت ، فبدلاً من أن يحد في تسارسكويا الشفاء ، أوشك أن يلزم فيها الفراش فيما قبل •

أحب أن أشسير هنا ، مستطرداً ، الى شىء لم أعلم به الا بعد مدة طويلة ، هو أن بيورنج ، فيما يقال ، قد اقترح على كاترين نيقولايفنا أن يقتادا العجوز الى الحارج ، بعد أن يهيئاه لذلك بحيلة من الحيل ، ثم يكون من السهل عليهما هناك ، فى الحارج ، أن يحصلا على شهادة من أطباء ، ولكن هذا ما لا تقبله كاترين نيقولايفنا بحال من الأحوال ، أو ذلك ما قيل فيما بعد ، حتى ليقال انها رفضت الاقتراح مستاءة ، وتلك شائمة بعيد عهدها ، لكنني أصداً فها ،

فلما صارت القضية الى هذا الطريق السدود ، علمت آنا آندريفنا من لامير إن هناك رسالة تسأل فيها النت أحد رجال القانون عن وسبلة يمكن أن تعمد النها لاعلان أن أباها مجنون • فاذا بروحهــا المتكبرة الانتقامـــة تهتاج أشد الاهتياج على حين فجأة • وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث ، وقرَّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرك شــك في أن هذا النبـأ صحيح •فاذا بخطة للهجوم تنضج في قلبها ، قلب المرأة الصلبة التي لا تلين ، واذا هي تجمد نفسها مدفوعة الى تنفيذ هذه الخطة دفعاً لا سبيل الى مقاومته • وكانت الخطة هي أن تكشف للأمير فحأة، بدون مداراة ومراءاة ، وبدون لف ودوران عن القصة كلها ، فترعبه وتهزه هزآ قوياً ، وتسِّين له أن مستشفى المحانين ينتظره حتماً • فاذا عند واستاء ورفض أن يصدُّق ، كشفت له عن قصــة رسالة ابنته قائلة " له : « ان نيـة اعلان أنك مجنون قد سيق أن و جدت في الماضي ، فكيف لا توجــد الآن من باب ِ أولى لمنعك من الزواج ! . • وبعد ذلك تنقل الشميخ العجوز الى بطرسمبرج مروَّعاً مهدَّما مقتولاً ، وتعجيء به الى « بيتي أنا رأساً » •

هذه مجازفة رهيبة و ولكن آنا آندريفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً الميتزعزع ويبجب أن أقول هنا ، مبتعداً عن الموضوع لحظة ، ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً ، ان ظنها لم يخطى كثيراً فيما يتعلق بقوة هذه الضربة و فان هذا النبأ كان له من التأثير في الأمبر الشيخ أكثر مما تصورت هي وتصبورنا تحن أن يكون له من تأثير و ولم أكن علمت أبداً الى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامي الى سمعه شيء عن تلك الوثيقة ، ولكنه ، على ما هو معهود في جميع الرجال الضعاف الهيابين ، له يصدّ ق تلك الشيائية ، ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في هدونه وطمأنينه و ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في

كاترين نيقولايفنا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك ! ••• الحلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطس شأناً مما كنت أظن أنا الذي كنت أحملها مخيطة "في جيبي • ولكنني أرى أنني أسرف في استباق الأحداث •

رب سائل يســأل: ولكن لماذا تنجىء به الى بيتى رأســـاً ؟ لماذا تنقل الأمير الى غرفنــا البائســة فترعبه فى هذا الجو التميس ؟ اذا كان نقله الى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن "يحبط المشروع كله هناك) ، فلماذا لا تهيىء له مسكناً « ثرياً » كما كان يقترح لامبير ؟ هنا تكمن كل مجازفة الحطوة الخارقة التى قامت بها آنا آندريفنا !

كان الأمر الأساسي هو أن تطلع الأمير على الوئيقة منذ يصل و وكنت أنا لا أسلم الوئيقة بعدال من الأحوال و ولأن على آنا آندريفنا الا تضيع شيئاً من الوقت ، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً ، فقد قررت أن تشرع في تنفيذ الخطة قبل أن تملك الوئيقة ، على أن تعجيم بالأمير الى بيتي رأساً و لماذا ؟ لكي تنقض على انا أيضاً ، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل و كانت تريد أن تعمد الى أسلوب الصدمة والهزة والمباغتة معى أنا أيضاً و كانت تقد راً أنني متى رأيت الشيخ في بيتي ، ورأيت ارتباعه وحزنه ، وسمعت رجاءه ورجاءها ، فقد أسسلم فأظهر الوثيقة و يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذاً وذكياً ، وكان يقوم على معرفة بالنفس الانسانية ، واذا لم يكن قد نجع فقد أوشك و أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأبمان تحلفها ، وأعلنت له أنها ستمضى به الى و بيتي أنا ، و ذلك كله قد عرفته فيما بعد وأعلنت له أنها ستمضى به الى و بيتي أنا ، و ذلك كله قد عرفته فيما بعد وأن مجرد ابلاغه أن الوثيقة عندى قد أزال من قلبه الوجل آخر شكوكه في صحة الواقعة : فالى هذا الحد كان يحنى و يحترمني !

يجب أن أذكر أيضاً أن آنا آندريننا نفسها لم تشك لحظة واحدة

فى أن الوثيقة لا تزال عندى ، وأننى لم أتخلص منها بعد ، والحق أنها فد أساحت فهم طبعى ، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتى وبراءتى وبساطتى، وحتى على فرط حساسيتى، وقد قدرت من جهة أخرى أننى اذا قررت أن أسلم الوثيقة الى كاترين تيقولايفنا متلاً ، فلابد أن يكون هذا التسليم فى ظروف خاصة ، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها ، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة ،

نم أن لامبير قد طمأنها عن هذا كله • سبق أن قلت ان وضع لامبير كان في ذلك الحين حرجاً غاية الحرج ، دقيقاً أشد الدقة : لقد كان ، هو الخائن ، يريد أن يصرفني عن آنا آندريفنــا ، ويحملني على بيع الوثيقــة لآخماكوفا بالاتفاق معه ، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر • لكنه وقد لاحظ أنني ظللت أرفض الى آخر لحظة أن أسلم شيئًا بحال من الأحوال ، قرر أن يسماعد حتى آنا آندريفنما من أجل ألا يفقد أى ربح • لذلك أخذ يستميت في تقديم خدماته لها ، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجشها بكاهن عند اللزوم ٠٠٠ ولكن آنا آندريفنــا ابتسمت له ابتســامة احتقار ، ورجتــه أن يخفف من قوة حماســته ونشاطه • كان لامبير يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً ، ولا يوقظ في نفسها الا اشمئزازاً وتقززاً • لكنها قبلت خدماته على سسبيل الحكمة والروية والحذر • وكانت هذه الحدمات هي أن يتجسس لها مثلاً! يجب أن أقول في هذه المناسبة انني لا أدري حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بطرس هيبوليتوفتش أم لا ، وهل قبض منهم أي شيء ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببسياطة من باب حب المغامرة • ولكنه كان يتجسس على " • أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس •

سيدرك القارىء الآن أننى ، رغم تحسبى قليلاً ، لم يكن فى وسعى أن أحزر أنى سأجد الأمير العجوز فى بيتى غداً أو بعد غد ، اننى ما كان لى أن افترض لدى آنا آندريفنا جسارة كهذه الجسارة! ان المرء يستطيع أن يقول بالكلام ما يريد ، وأن يشير بالكلام الى أى شىء • أما أن يقرر ، ويشرع ، وينفذ • • • فهذا يحتاج الى طبع خاص وشكيمة قوية!

أتابع :

استيقظت في الغداة ضحى • لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام • فلما أفقت أحسست براحمة كبيرة في لجسمى ونفسى على السواء ، حتى لكأن الأمس لم يوجمد • قررت ألا أذهب الى بيت ماما ، وانما أمضى الى كنيسة المقبرة رأسماً • حتى اذا انتهت الجنازة رجعت الى أمى فلم أتركها النهاو كله • وكنت واثقاً ثقة تامة بأننى سألقاء عند ماما على كل حال ، في ساعة متقدمة أو في ساعة متأخرة من النهار ، ولكننى سألقاء •

لم يكن فى البيت لا آلفونسين ولا المؤجر ، لقد خرجا منذ وقت غير قصير ، ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر ، وكنت قد قررت على كل حال أن أقطع جميع صلاتى بهم ، وأن أترك هذا البيت فى أقرب وقت ، لذلك ما ان أتيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسى الباب ، ولكن الباب لم يلبث أن توع ، فدهشت ، وكان القارع تريشاروف ،

فتحت له فوراً ، ودعوته أن يدخـــل وسرنى أن أراه · ولكنــه رفض أن يدخل وقال :

_ كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة ٠٠٠ أم الأفضل أن أدخل ؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً • ولكننى لن أجلس • أراك تنظر الى معطفى الردىء • لقد استرد لامبير منى المعطف •

کان یرتدی معطفاً عتیقاً بالیــاً طویلاً علی فامتــه فملاً • وقد وقف أمامی متسمراً ، متجهم الوجه مهموماً ، واضعاً یدیه فی جیبه ، دون أن یخلع قبعته :

- لن أجلس! لن أجلس! اسمع يا دولجوروكي! لا أعرف تفاصيل • لكنى أعرف أن لامبير يدبر لك مكيدة ، وهذه المكيدة قريبة توشك أن تتم حتماً • أعلم هذا علم اليقين • فكن يقظاً • ان المجدور هو الذى زل لسانه فألمع الى هذا الأمر • هل تتذكر المجدور؟ انه لم يذكر لى نوع المكيدة ، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت • أنا لم أجىء اليك الا لأنبهك • الى اللقاء!

۔ ولکن ہلا ؓ جلست یا عزیزی تریشاتوف ؟ صحیح اُننی علی عجلة من اُمری ، ولکن یسعدنی اُن اُراك ٠٠٠

ــ لا ، لا ، لن أجلس ، ولكننى سأتذكر طول حياتى أنك أحسنت استقبالى ، آه يا دولجوروكى ؟ لماذا خداع الناس ؟ انى قد ارتضيت لنفسى عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات ، وأن أقوم بأعمال تبلغ من الدناءة أننى أستحى أن أسميها لك ، نحن الآن نعمل مع المجدور ، ، ، استوعك الله ، ، ، اننى لا أستحق أن أجلس عندك ،

ـ کفی یا تریشانوف ، یا عزیزی ۰۰

ــ لا يا دولجوروكى ٠٠٠ أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسلخة ، وسألهو بعد ذلك وأقصف و وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفى السابق أيضاً ٠٠٠ وسأمضى أتنزه راكباً عربة و ولكنى سأظل أعرف بيني وبين نفسى أننى خجلت أن أجلس عندك لاعتقادى بأننى لا أستحق ذلك ، وبأننى أمامك دنى سافل و سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل ، حين أمضى أتبذل في القصف واللهو بحقارة ونذالة و استودعك الله و

هياً • استودعك الله • لن أناولك يدى أيضاً • ان آلفونسين لا ترضى أن تصافحنى • وأرجوك ألا تسعى الى ، وألا تحساول رؤينى • هذا شرط بيننا •

واستدار الفتى العجيب على كعبيه ومضى • ليس يتسع وقتى الآن للبحث عنه ، ولكننى قطعت على نفسى عهداً لأكتشفن مكانه بأقصى سرعة مهما كلف الأمر ، متى فرغت من تدبير أمورى وحل مشاكلى •

لن أصف وقائم ذلك الصباح تفصيلاً ، رغم أن هناك ذكريات كثيرة ينبغى حفظها ، لم يجىء فرسيلوف الى الكنيسة ، حتى لقد كان يمكن للمرء أن يستنتج من النظر الى وجوههم أنهم كانوا ، حتى قبل حمل الجثمان ، لا يتوقعون أن يجىء الى الكنيسة ، وقد صلّت أمى بحرارة ، بل كانت غارقة في صلاتها غرقاً كاملاً ، ولم يكن أحد بجانب الجثمان الا تاتيانا بافلوفنا وليزا ، لكنني لا أصف ، لا أصف شيئاً ، بعد الدفن ، عاد الجميع الى البيت ، وجلسوا الى المائدة ، فاستنتجت مرة أخسرى من النظر الى وجوههن أنهن كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً ، حتى اذا نهضنا ، اقتربت من ماما ، وقبلتها بحرارة ، وتمنيت لها عيداً سعيداً ؟ واقتدت بى ليزا ، فغملت مثلى ،

وهمست تقول خفية ":

- ـ اسمع يا أخى ، انهن ينتظرنه .
 - ـ أدركت هذا يا ليزا ، رأيته ٠
 - _ سیأتی حتماً ٠

قلت لنفسى : لابد أن لديهن معلومات دقيقة • لكننى لم أسأل • رغم اننى لا أصف عواطفى ، يجب أن أذكر أن هذا اللغز قد جثم تقيلاً على قلبى ، رغم كل ما كنت فيـه من حسن المزاج • جلسـنا جميعاً فى

الصالون ، الى المائدة المستديرة ، حول ماما . آه . . ما كان أعظم سعادتي بوجودى معها ونظرى اليها! وطلبت منى ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الانجل • فقرأت لها اصحاحاً من انجيل القديس لوقا • لم تكن تبكي ، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن ، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم • وكانت تسطع في نظرتها اللطيفة فكرة ، ولكن لم يكن في هذه النظرة أي شيء من نفاد الصبر في انتظار أمر من الأمور • وجرت الأحاديث ثرة ً لاينضب لها معين • قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى • وذكرت عنه تاتبانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها الى ذلك الحين كل الجهل • فلو سجلت مادار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً • حتى تاتبانا بافلوفنا تغيرًات حالها : فهي الآن رقيقة جداً ، ملاطفة جداً ، بل هي هادئة جداً ، رغم أنها تكلمت كثيرًا لتستِّلي ماما • لكن هناك أمرًا تفصيليًا أتذكره تذكرًا واضحاً : كانت ماما جالسة ً على الديوان ، وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورة ٌ يبدو أنها 'وضعت هنالك عمداً ، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن ، تمثل قديسمين فوق رأسمهما هالتمان • ان هذه الأيقونة كانت لماكار ايفانوفتش : كنت أعلم ذلك ، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لايفارقها أبداً وكان يمدها ذات معجزات •

نظرت ثانيانا بافلوفنا الى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأة وهي تغير موضوع الحديث :

ـــ اسمعى يا صونيا ، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندة ً الى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة ؟

قالت :

- ـ بل هي على هذا الوضع أحسن •
- ــ حقاً والا كنا نسرف في الاحتفال •••

لم أفهم حينتذ شيئًا ، ولكن واقع الأمر أن ماكار ايفانوفتش قد أعلن جهـاراً متذ مدة طويلة أنه يورث آندره بتروفتش هذه الصورة ، فكانت ماما تستعد لتسليمها البه •

كانت السباعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل • وطال الحديث • فاذا أنا ألاحظ فى وجه ماما نوعاً من الارتماش ، واذا هى تتصب جنعها بسرعة وتصبخ بسمعها على حين كانت تاتيانا بافلوفنا مستمرة فى كلامها لم تلاحظ شيئاً • فأسرعت التفت الى جهة الباب ، فما انقضت لحظة حتى رأيت آندره بتروفتش فى العتبة • انه لم يسلك طريق درج المدخل ، وانما جاء من جهة سلم الحدم ، فمر المطبخ فالدهليز ، وكانت أمى وحدها هى التى سمعت وقع خطاه • سأصف الآن كل مشهد الجنون الذى أعقب ذلك ، حركة ، وكلمة "كلمة •

فى البداية ، لم ألاحظ على وجهه ، من أول نظرة على الأقل ، أى "تغير • كان هندامه هو هندامه المألوف ، أى هنداما اقسرب الى الأنافة • وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة ، باقة "صغيرة لكنها ثمينة • وقد اقترب من ماما ومد" اليها الباقة مبتسماً فنظرت اليه ماما بدهشة وجلة ، لكنها قبلت الباقة ، ثم اذا بحمرة تنعش خديها الشاحبين فجأة ، واذا بفرح يسطع فى عينيها •

قال:

ـ كنت أعرف أنك ستستقبلينني هذا الاستقبال يا صونيا .

واذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة ، فجلس على المقعد الذى كانت تتجلس عليه ليزا ، والذى يقع على يسمار ماما ، دون أن ينتبه الى أنه يأخذ مكان شخص آخس ، وهكذا كان موقعه بعجانب المنضدة التى كانت عليها الأيقونة ،

ـ سلام على الجميع • يا صونيا ، لقد أصررت اصراراً مطلقاً على أن أحمل اليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك • ولئن لم أجىء الى الجنازة ، فلكى لا أظهر أمام ميت بباقة أزهار • لكننى أعلم أنك كنت لا تنتظرين مجيئى الى الجنازة • ولن يحقد على الشيخ لأننى جئت بأزهار ، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح ؟ أعتقد أنه الآن في مكان ما بهذه الغرفة •

نظرت اليه ماما مستغربة • وكانت تاتيانا بافلوفنا كمن طار صوابها • فسألته :

_ من بهذه الغرفة ؟

- المتوفى • ولكن فلندع هذا الأمسر • تعرفون ان الانسسان الذى لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره الى الايمان بالأوهام والحرافات • ولكن فلنجمل كلامنسا يدور على باقة الأزهار: كيف حملتها الى هنا؟ لا أدرى • لقد اشتهيت عدة مرات أن أرميها على الثلج وأن أدوسسها بقدمى •

ارتمدت ماما • وتابع هو كلامه يقول :

- اشتهیت ذلك بقوة جنونیه و رحمه به یا صونیا و ورحمه برأسی المسكین و لقد اشتهیت ذلك لأن الباقه جمیله مسرفه فی الجمال و هل فی العالم أجمل من زهره ؟ حملتها والثلج والجلید فی كل مكان و جلیدنا والأزهار: تعارض! ولكن لیس هذا ما یهمنی: فانما أنا اشتهیت أن أدرسها بقدمی لأنها جمیله و یا صونیا و سأغیب من جدید و ولكننی ساعود بسرعه و لأننی ساخاف و فیما یعنیال الی و ساخاف: ومن یشفینی من الخوف الا صونیا ؟ أین أجد ملاكا مثل صونیا ؟ ولكن ما تلك المصورة هناك ؟ آ و و أنها طول حیاته و أنا أعلم هذا و وأتذكر أنه أور تنی عن جده و لم ینفصل عنها طول حیاته و أنا أعلم هذا و وأتذكر أنه أور تنی

ا ياها • نعم ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً • • وأظن أنها أيقونة من أيقونات « قدامي المؤمنين ، • • أرني !

وتناول الأيقونة بيديه ، وقريها من الشمعة ، وأخذ يتأملها ، ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط ، وضعها على المائدة ، أمامه في هذه المرة ، كنت مدهوشاً مذهولا ، لقد أطلق هذه الجمل كلها على بحو ما كان لأحد أن يتوقعه ، فكنت لا أستطيع أن أجمع شنات فكرى ، ولكننى أتذكر أن هلما يشب المرض قد نفذ في قلبي ، وانقلب ذعبر أمي الى حيرة وارتباك ، والى شفقة وعطف ، كانت ترى فيه انساناً بائسا قبل أى شيء آخر ، لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن ، وشحب لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فحاة ، وأومأت لى برأسها اليه ، ولكن تائيانا بافلوفنا هي الني كانت أكثرهن جزعاً ، قالت تسأله بحذر :

ـ ولکن ماذا بك یا عزیزی آندر. بتروفتش ؟

_ حقاً لا أدرى ماذا بى يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة • هدئى روعك • لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا ، وأنك طيبة رائمة • ولكننى لم أجىء الا لأمكث دقيقة واحدة • اننى أود أن أقول لليزا شيئًا حسنًا ، وأبحث عن كلمة أقولها فلا أفلح ، مع أن قلبى مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهى كلمات غريبة فى الواقع • يخيئًل الى أننى إذدوج فأصبح اتنين ، أصبح مثلين •

قال ذلك وهو ينظر الينا جميعاً بوجه جاد الى أقصى حدود الجد ، وبرغبة صادقة فى الافصاح عما فى نفسه • وتابع كلامه يقول :

۔ الحقیقة أن فکری یزدوج فیصبح فکرین اتنین ، وهذا ما أخشاه کثیراً • لکأن لی مثلاً ینجلس الی جانبی • فأنا رجل عاقل معتدل ، ولکن الآخر الذی بنجانبی یصر م علی أن یقوم بعمل مستحیل ، أو عمل سخیف

جداً ، ثم اذا بي أشعر فجأة أنني أنا الذي أريد أن أقوم بهذا العمل ، لا يدرى الا الله لماذا ! اريد ! اريد أن أقوم به رغم أنفي ، واريد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة ، عرفت ذات مرة طبيبا أخذ يصفر فى الكنيسة فجأة أثناء الاحتفال بجنازة أبنه ، حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم الكنيسة فجأة أثناء الاحتفال بجنازة أبنه ، حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم الى الجنازة ، لأنني قد رسخ في عقلي اعتقاد جازم ويقين مطلق بأنني سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثناء الجنازة على حين فجأة ، كما فعل ذلك الطبيب المسكين الذي كانت نهايته سيئة ، وحقاً لا أدرى لماذا لازمتني ذكرى ذلك الطبيب طوال هذا اليوم ، لازمتني ملازمة لم أستطيع منها فكاكاً ، اسمعي الطبيب طوال هذا اليوم ، لازمتني ملازمة لم أستطيع منها فكاكاً ، اسمعي يا صونيا ، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانية وأخذ يقلبها بين يديه) ، فهل تعلمين أنني ، في هذه اللحظة بعينها ، قستبد بي رغبة جنونية في أن أقذفها الى زاوية المدفأة ، فاذا هي تنكسر على الغور نصفين ، تصفين لا أكثر ولا أقل ؟

قال هذا بدون أى تصنع ، بدون أية رغبة فى الظهور ، بل كان يتكلم ببساطة ، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً ، لكأنه خائف فعلاً من شىء ، ولاحظت فجأة أن يديه ترتنجفان قليلاً .

هتفت ماما ضامة يديها ضارعة :

ــ آندره بتروفتش ا

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهي تنتفض :

ــ اترك ، اترك الصـورة يا آندره بتروفتش ! اتركهـا ! ضمها فى مكانهـا ! واخلع ثهـابك ، وارقـد فى سريرك ، يا آركادى ، اذهب فاستدع الطبيب !

قال برفق وهو يشملنا جميعاً بنظرة واحدة :

ــ مع ذلك ٠٠٠ مع ذلك ، ما أشد اضطرابكم !

ثم وضع كوعيه على المائدة ، وتناول رأسه بيديه ، وقال :

۔ اتنی أخيفكم و ولكن اسمعوا يا أصدقائی و هلاً سررتمونی فليلاً ، فعدتم تجلسون ، وهدأتم جميعاً ، دقيقة واحدة ! صونيا ، ليس هذا ما جثت من أجسل أن أقوله لك و أنا جثت لأبلغك شيئاً ، لكنه شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف و استودعك الله يا صونيا و أنا راحل من جديد ، كما سبق أن رحلت مراراً و لاشك في أنني سأعود اليك في يوم من الأيام و بهذا أنت لابد منك ، ولا غني عنك و لمن عسى أرجع ، حين يكون كل شيء قد انتهى ؟ صد قي با صونيا أنني جثت اليك اليوم كما يجيء المرء الى ملاك لا الى عدو : هل يمكن أن تكوني عدوتي ؟ كيف يمكن أن تكوني عدوتي ؟ كيف يمكن أن تكوني عدوتي ؟ كيف يمكن أن تكوني عدوتي ؟ لا تصدقي انني أريد أن أحطم هذه الصورة ، يمكن أن تكوني عدوتي ؟ كيف تحطيمها وي ما صونيا ، تستبد بي ، وغم كل شيء ، رغبة قوية في تحطيمها ووو

حين هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلة له منذ قليل : « اترك الصورة » ، فانها كانت قد انتزعت الصسورة من يديه » وظلت تمسكها بيدها • فهاهو ذا آندره بتروفتش ، بعد أن نطق بآخر كلمة ، يثب من مكانه فجأة ، ويخطف الصورة من يدى تاتيانا بافلوفنا فوراً ، ويشهرها بوحشية ، ثم يهوى بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتى من قوة ، فاذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً • وعاد يلتفت الينا بغشة ، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً ، وكانت كل قسمة من قسمات وجهه تختلج :

۔ لا تنظری الی عملی نظرتك الی رمز یا صونیا • لیس میراث ماكار هو ما حطمته ، وانما حطمت بدون هدف غیر التحطیم ••• ولكننی سأعود الیك رغم كل شیء ، سأرجع الی ملاكی الأخیر • علی كل حال ، 'عدیّی عملی رمزاً اذا شئت ، فانه رمز أیضاً ! •••

وخرج من النسرفة بخطى متمجلة ، ومضى عن طسريق المطبخ في

هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقيته) • لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً • لقد هبَّت واقفة ً وقد اعتراها رعب قاتل ، ورفست يديها فعقدتهما على رأسها ، وصرخت تقول له فجأة :

ــ آندره بتروفتش ، تعال ودُّع على الأقل يا عزيزى !

فصاحت تاتیانا بافلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتمش ارتماشاً شدیداً ، واعترتها نوبة حنق رهیب ، حنق حیوانی :

أما عنـا نحن ، فان ليزا قد أغمى عليهـا ؟ وأنا أردت أن أركض وراء ، لكننى ارتميت على ماما أضمها بذراعي وهرعت لوكيريا لتأتى الى ليزا بكأس ماء • ولكن ناما لم تلبث أن أفاقت من اغمائها ، فتهاوت على الديوان ، وغطت وجهها بيديها ، وطفقت تبكى •

وصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول بأعلى صوتها :

۔ أدركه ، أدركه على كل حـــال ، هيًّا ١٠٠ أدركه ، لا تتركه خطوة واحــدة ، هلم ماذا تنتظــر ؟ هل أنا التي ينجب أن أركض ورامه اذن ؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعى من ماما • وصرخت أمى تقول هى أيضاً على حين فجأة :

ـ بنی ٔ آرکادی ، هلم ً ارکض وراء، ، أسرع !

فخرجت مسرعاً ، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً • لكنني لم أجده

فى أى مكان • كان قد اختفى • وعلى الرصيف فى بعيد ، كانت تترامى فى الظلام بقع سوداء هى قامات المارة ، فاندفعت أدركها ، وأخذت أتفرس فى وجه كل واحد متى وصلت اليه ، ثم أمضى أتفرس فى وجه آخر ، وهكذا دواليك ، الى أن بلغت منعطفاً •

« لا يغضب أحمد من مجنون • واذا كانت تاتبانا بافلوفسا مستعرة الغضب منه ، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة ••• » تلكم هى الفكرة التى برقت فى ذهنى • بدا لى أن ذلك كله كان « رمزاً » ، وأنه انما أراد أن ينتهى من شىء ما ، كما انتهى من تلك الأيقونة • ولكن لاشك أن « مثله » كان بجانبه أيضاً •••

لم أقع عليه في أى مكان • ولا 'يعقل أن أركض الى بيته ، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع الى بيته وكنى ! وعرضت لى فكرة على حين بنتة ، فهرعت الى بيت آنا آنديننا •

كانت آنا آندرينا قد عادت الى البيت ، فأدخلت عليها فوراً • وقد دخلت عليها محاولاً أن أسطر على نفسى ما أمكننى ذلك • وبدون أن أجلس ، قصصت عليها المشهد الذى رأيته كله ، أى حكاية « المثل ، تلك • فلن أنسى ما حييت ، ولن أغفر لها ما حييت أنها كانت تصنى الى كلامى بشراهة شديدة ، ولكن بهدوء لا رحمة فيه ، وطمأنينة لا تمكر صفوها عاطفة • ولقد أصفت الى حديثى واقفة مى أيضاً •

ختمت حديثي أسألها ملحاً:

ــ أين هو ؟ لملك تعلمين ؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنــا أن ترسلنى اليك أمس ٠٠٠

ــ ذلك أننى كنت أريد أمس أن أراك • أمس ذهب الى تسارسكويا، وجاء الى ً أيضاً • أما الآن •••

قالت ذلك ونظرت الى ساعتها وأردفت :

- _ الساعة الآن هي السابعة فلابد أنه في بيته حتما
 - _ أرى أنك تعلمين كل شيء فتكلمي ، تكلمي !

_ أعرف أشياء كثيرة ، لكننى لا أعرف كل شيء ، ليس هنـاك ما أخفه عنك طبعاً ٠٠٠

وشغلتني بنظرة غريبة وهي تبئسم وتتظاهر بالتفكير • وأردفت :

ــ رداً على رسالة كاترين نيقولايفنــا ، كتب اليها بالأمس يخطيها رسمياً .

فحملقت عيني قائلاً :

_ لا يمكن ا

_ عن طریقی وصلتها الرسالة • آنا التی سلّمتها الیها مختومة " • فی هذه المرة تصرف کما یتصرف « فارس » ولم یکتم عنی شیئاً •

ــ آنا آندريفنا ! لا أفهم !

طبعاً • أمر يصعب فهمه • ولكن مثله في هذا كمثل مقامر يرمي, على المائدة آخر قرش ، ويمسك في جيبه مسدساً مهيأ " • ذلك هو معنى العرض الذي تقدم اليها به • احتمال الرفض تسعة حظوظ من عشرة • ولكنه يعتمد على الحظ العاشر • ولا أكتمك أنني استغربت • • • لعله كان خارجاً عن طوره : لعمل « المثل ، الذي وصفته أحسن وصف كان بقربه !

ــ وتضحكين أيضاً ؟ كيف يمكن أن أصدِّق أنك أنت التي أوصلت الرسالة ؟ ألست خطيبة أبيها ؟ رحماك آنا آندريفنا !

رجانی ان أضحی لسعادته بسعادتی • بل قل انه لم یرجنی رجاء صریحا ، فانما تم الامر بصمت ، لکننی قرأت فی عینیه کل شیء • وما استغرابك ؟ ألم یذهب الی أمك بمدیشة کونجسرج یطلب منها أن تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخماكوفا ؟ ذلك شسبیه بما عمد الیه أمس ، اذ اختارنی مندوبة عنه ونجیة له •

كانت شاحبة " بعض الشحوب • ولكن هدوءها كان يعز ّز سخريتها • وقد غفرت لها كثيراً في تلك اللحظة ، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً• واسترسلت في التفكير دقيقة ، فكانت صامتة تنتظر •

قلت ضاحكاً على حين فجأة :

- ـ اسمعى ، لقد أوسلت أنت الرسالة لأنك لاتجازفين بشى، ، فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو ؟ وهى ؟ لاشك أنها لن تلتفت الى طلبه ، وحيثذ ، حينثذ ، ماذا يمكن أن يحسدث ؟ أين هو الآن يا آنا آندويفنا ؟ ان كل دقيقة لثمينة ، وفى كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة !
- سه قلت لك انه في بيته ففي رسالته التي سلّمتها أمس الى كاترين نيقولايفنا ، رجاها « على كل حال » أن تمن عليه بلقــاء في بيته ، الساعة السابعة من هذا المساء • وقد وعدته بأن تنجىء اليه في الموعد المضروب •
 - ــ هي ، في بيته ؟
- ۔ لم کا ؟ البیت بیت داریا أونیسیموفنا ففی امکانهما أن يلتقیا فیه زائرین لها •
 - ـ لكنها تخاف منه ٥٠٠ قد يقتلها!
- ان كاترين نيقولايفنا رغم كل خوفها الذى لاحظته بنفسى قد أضمرت دائماً ، حتى فى الماضى ، شيئاً من الاعجاب بنبل المبادى، وسسمو الفكر لدى آندره بتروفتش ، وقد وثقت به هذه المرة لتنتهى منه الى الأبد ، كما أنه ، من جهته ، قد حلف لها يمين الفرومسية أنه لن ينالها بسو، فما يبجب أن تخشى شيئاً ، لا أتذكر نص التعابير التى استعملها ، وانما المهم أنها وثقت به واطمأت البه ، و لأول مرة ان صح القول ، ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلها ، فكأن اندفاعة بطولية قد تحققت لهما كلهما ،

هتفت أقول:

- ـ والمثُّل ، والمثُّل ! ذلك أنه فقد عقله !
- ــ لاشك أن كاترين نيقولايفنا ، حين وعــدته أمس بالمجيء الى الموعد ، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع .

أدرت ظهرى فجأة ، ووليَّت هارباً ٠٠ اليه ٠٠ اليهما طبعاً ا ولكننى لم ألبث أن رجعت من حجـرة المدخــل ثانيــة ، وتفرست في وجــه آنا آندريفنا ، أختى ، وقلت صارخاً :

ــ أم تراك تريدين أن يقتلها ؟

أطلقت هذه الصرخة ، وخرجت من البيت راكضاً •

ورغم أننى كنت أرتمش ارتعاشاً شديداً كمن هو فى نوبة حمى ، فقد دخلت الشقة بنير ضجة ، من المطبخ ، وطلبت من الحادمة أن تأتينى داريا أونيسيموفنا بصوت خافت ، ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها ، فرشقتنى صامتة ً بنظرة مستفهمة رهيبة ، وقالت :

ـ ليس مولاي في البيت ٠

لکننی ذکرت لها بوضوح ودقة ، هامساً همساً سریماً ، أننی أعرف کل شیء من آنا آندریفنا ، وأننی آت ِ من عندها .

- ـ أين هما يا داريا أونيسيموفنا ؟
- ـ في الصالون ، حيث كنتما بالأمس جالسين الى المائدة ٠٠٠
 - داریا أونیسیموفنا ، دعینی أذهب الی هناك ۰۰۰
 - _ كيف يمكنني هذا ؟
- لا أذهب الى هناك ، بل الى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيموفنا .

ان آنا آندویفشا ترید هذا أیضاً • فلو کانت لا تریده لما قالت لی انهما هنا • لن یسمعانی • هی نفسها ترید هذا •••

قالت داريا أونيسيموننا دون أن تحول عنى بصرها :

_ واذا كانت لا تريده ؟

فقلت مستعطفاً:

ــ داريا أونيسيموفنا ، انني أتذكر ابنتك أوليا ٠٠٠ دعيني أدخل ٠

فاذا بذقنها وشفتيها تأخذ بالاختلاج فجأة ، وقالت لى :

- یا عزیزی ۱۰۰ اکسراماً لذکری أولیسا ۱۰۰ تقدیراً لعواطفك ۱۰۰ ولکن لا تتخل عنه آنا آندریفشا یا عزیزی ا لن تتخلی عنها ۶ ألیس کذلك ۶ لن تتخلی عنها ۶
 - ـ لا ، لن أتخلى عنها •
- م عاهد نمى عهد الشرف أنك لن تدخم الصالون ، ولن تصرخ ، اذا أنا خبأتك هناك .
 - ــ أحلف لك بشرفي يا داريا أونيسيموفنا !

فأسسكت ردنجوتى ، وقادتنى الى حجسرة مظلمة ، مجاورة للغرفة التى كانا فيها ، وسارت بى على سسجادة طرية بدون ضبحة الى ان بلغنا الستارة ، فأجلستنى هناك ، وأزاحت ركناً من السبتارة ، فكنت أراهما كليهما •

انصرفت هى وبقيت أنا • طبعا بقيت • لقد أدركت اننى أتصنت بنير حق ، وأننى أتجسس على أسرار غيرى ، ولكننى بقيت • كيف لا أبقى وأنا أعرف أن الشّل موجود ؟ ألم يسمبق لهذا المثّل أن حطم الأيقونة على مرأى متى ؟ كانا جالسين الى تلك المائدة نفسسها التى شربنا عليها بالأمس خب « انبعائه ، مماً ، وكانا متقابلين ، اننى أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً ، كانت ترتدى فسستاناً أسود ، وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها ، وكان يتكلم ، فكانت تصنى اليه بانتباه شديد بشوش ، حتى ليمكن أن يكتشف المرء في وجهها شسيئاً من خبجل ، ولا كذلك هو ، فقد كان مهتاجاً المتياجاً شديداً ، لقد وصلت وهما من الحديث في قلبه ، لذلك لبثت برهة " لا أفهم شيئاً ، أتذكر أنها سألته فجأة :

ـ وهل أنا السبب في ذلك ؟

فأجابها :

بل أنا • أنت مذنبة بدون أن تكونى مذنبة • هذه أمور تحدث •
 وتلك هى الأخطاء التى لا تغتفر ، ومرتكبـــوها يعاقبــون فى جميع الأحيان تقريباً •

أضافت ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة • وتابع كلامه يقول :

ــ لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أننى نسبتك نسياناً تاماً ، فكنت أضحك فعلاً من هواى الأحمق • • • ولكنك تعرفين هذا ! على كل حال ، فلم يعنينى أن تتزوجى فلاناً أو فلاناً من الناس • لقد بعثت اليك بالأمس رسالة الطلب منك فيها أن تتزوج • فلا تؤاخذينى • كانت تلك غاوة •

ولكن لم يسكن لها عندى بديل • ما الذى كان يمكننى أن أفعله غير تلك الغياوة ؟ لا أدرى •

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه اليها فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً الى جانب • لو كنت فى مكانها لأخافتنى تلك الضحكة • أحسست بهذا • ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها بغتة كأنما هو تذكر الأمر الجوهرى :

ــ قولى: كيف أمكنك أن توافقى على المجيء الى هنا؟ ان دعوتى ورسالتى كلهــا ما كانتا الاحماقة ٠٠٠ انتظرى: أظن أننى أستطيع أن أحزر كيف وافقت على المجيء • ولكن لماذا جئت؟ ذلك هو الســـؤال • أتراك جئت عن خوف فحسب؟

فقالت وهي تنظر اليه بحذر :

ـ جثت لأراك ٠

وصمت الاتسان كلاهما نصف دقيقة • وعاد فرسيلوف يجلس ، ثم أخذ يتكلم بصوت رقيق ، لكنه مؤثر ، يكاد يكون متهدجاً ، فقال :

منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترين نيقولايفنسا ٠٠٠ منـذ مدة بلغت من الطول أننى أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدنى فى ذات يوم ، كما أجدنى الآن ، جالساً بقربك أنظر الى وجهك وأسمع صوتك ٠٠ منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر ، كنت لا أقد ر أن أكلمك فى يوم من الأيام ، على كل حال ، ما مضى فقد مضى ، وما بقى اليوم سيزول غدا كدخان ، ليكن ! اننى أقبل هذا ، اذ ليس عندى له بديل ،

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة :

ـ ولكن لا تنصرفي الآن بدون أن تقولي لي شـــيئًا • لقد نفحتني

صدفة حين قبلت أن نجيش ، فلا تنصر في قبل أن تجيبني عن سسؤال سألقيه عليك !

- _ ما السؤال ؟
- ـ لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً فعاذا تخسرين اذا قلت لى الحقيقة كلهـا مرة واحدة الى الأبد؟ أجيبنى عن ســؤال لا يلقيه العقلاء أبدا: هل أحببتنى في لحظة واحــدة على الأقل ••• أم أرانى أخطأت الظن؟

احمرت كاترين نيقولايفنا احمراراً شديداً • وقالت تحييه :

_ بل أحبيتك •

توقعت أن تقول هذا : يا للعسادقة ، يا للصريحـــة ، يا للمستقيمة التي تقول الحقيقة !

وتابع يسألها :

- ـ والآن ؟
- _ الآن لا أحبك ٠
 - _ وتضحكين ؟
- لا ٠ اثن ضحکت فوراً فقد کان ذلك برغم ارادتی ، لأننی کنت أتوقع أن تسمألنی و والآن ؟ ، ، فلما صحدق توقعی ابتسمت ، لأن المرا يبتسم دائماً حين يصدق توقعه ٠٠٠

شىء غريب • ما رأيتها فبـل اليوم فى مثـل هذه الحصــافة وهذا الاحتراس ، ولا رأيتها قبل اليوم شبه خنجلى وشبه مستحية الى هذا الحد! وكان هو يلتهمها بعينيه التهاماً •

- ـــ أعلم أنك لا تحبينني ٠٠٠ ولكن ألا تحيينني البتة !
 - _ ربما البتة ؟

- ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة ، دون أن تبتسم ودون أن تحمر :
- ــ لا أحبك صحيح أننى أحببتك ، ولكن حبى لم يطل فما لبثت أن كففت عن حبك •
- أعرف ، أعرف ، رأيت أن هذا ليس ما كنت في حاجة اليه ٠٠ قولى : ما الذى أنت في حاجة اليه ؟ اشرحى لى مرة أخرى ٠٠٠
- ـ هل شرحت لك هذا من قبل ؟ ما أنا في حاجة اليه ؟ انني امرأة عادية جداً • انني امرأة هادئة • • أحب • • أحب الناس المرحين •

ـ المرحين ؟

مأنت ذا ترى أننى عاجزة حتى عن التحدث معك • يخيئل الى أنك لو أحبيتني حباً أقل ، لأحبيتك •

وابنسمت خجلی مرة أخری • كان يلتمع فی جوابها أكبر الصدق • كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التی تحدد علاقاتهما تحديداً حاسماً ، وتفسر كل شيء ، وتقطع بكل شيء ؟ وكم كان يجدر به ، هو ، أن ينهم ذلك • ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل :

۔ هل بيورئج مرح ؟

فأسرعت تجيبه :

- اطمئن ما هو بالمرح البتة ! وانما أنا أنزوجه لأننى سأكون معه أهدأ مما أكون مع آخر ثم تبقى نفسى كلها لى أنا
 - ـ. يقال انك عدت تحبين حياة المجتمع وتشغفين بها ؟
- لا حياة المجتمع فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود
 كل ما عداه ولكن المظاهر الحارجية تظل فيه أحلى ، فاذا كان المرء يحب
 أن يعيش وكفى ، فالميشة فى المجتمع أمتع من الميشة فى غيره •

- ۔ سمعت کلمة « الغوضى ، هذه کثیرا ، فلا شك أنك خفت کثیرا من الفوضى التى كانت تسود حیاتی ٥٠٠ أصفاد ، وأفكار ، وسخافات ٥٠٠
 - _ لا يم ليس الأمر ذاك أبدا •••
 - ــ ما هو اذن؟ قوليه بصراحة ، ناشدتك الله !
- _ طيب ، سأقوله بصراحة ، لأننى أعدك ذا فكر عظيم البك الحقيقة : اننى لم أستطع أن لا أدى فيك شيئًا مضحكا بنير انقطاع •

قالت ذلك واحمرت فجأة ، كأنما هي أحست أنها تورطت في قلة الاحتراس تورطا كبيرا .

قال آندره بتروفتش:

ـ لهذه الكلمة التي قلتها ، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة .

فأسرعت تضيف وهي تزداد احمرارا :

ــ لم أكمل كلامى • أنا المضحكة فى الواقع ••• لا شيء الا لأتنى أكلمك كحمقاء •

ــ لا ، ما أنت بمضحكة ، وانما أنت امرأة مِن نســـاء المجتمع فاســـدة .

قال ذلك واصفر اصفرارا رهيباً • وتابع كلامه فقال :

.. أنا أيضا لم أكمل كلامى حين سألتك لماذا جثت • فهل تريدين أن أنهيه ؟ ان ثمة رسالة ، ان ثمة وثيقة تخلع قلبك هلما ؟ لأن أباك اذا وقعت هذه الرسالة بين يديه ، يمكن أن يلعنك أثناء حباته ، وان يحرمك من ميراثه شرعا في وصيته • أنت خائفة من هذه الرسالة • • • وقد جثتني بحثا عنها وسعيا اليها • • •

تطق بهذه الكلمات وهو يرتبجف من رأسه الى قدميه ، حتى لتكاد تصطك أسنانه •

فكانت تصغى اليه معبرة بوجهها عن سأم وألم • وقالت مدافعة عن نفسها :

_ أعلم أنك تستطيع أن تحدث لى أكدارا كثيرة ، ولكننى لم أجى، لأقنعك بالكف عن اضطهادى وتعذيبى بقدر ما جئت لأراك ، بل لقد كانت نفسى تضطرم رغبة فى لقائك منذ مدة طويلة ...

وأضافت تقول فجــأة ، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة ماغتة :

ـ غیر اُننی راُیتك علی عهدی بك •••

ــ هل كنت تتوقعين أن تجديني انسانا آخر بعد الرسالة التي تكلمت فيها عن فساد خلقك ؟ هل جثت الى هنا بغير خوف البتة ؟

ـ جثت لاننى أحببتك فى الماضى • ولكن لا تهـددنى ، أرجوك • ما بقينا معا ، فلا تذكرنى بأفكارى السيئة وعواطفى الرديئة • اذا أمكنك أن تكلمنى فى غير هذا فسأكون سعيدة جدا • قد يأتى دور التهديد ، أما الآن فقل لى شيئا آخر ، أرجوك ! حقا لقد جئت لأراك وأنصت لك دقيقة • فاذا كنت عاجزا عن هذا فاقتلنى فورا ولكن لا تهددنى ولا تعذب نفسك أمامى • • •

بهذا ختمت كلامها وهي تنظر اليه مترقبة ترقبا غريبا ، كأنما هي نفترض حقا أنه قد يقتلها •

ونهض آندره بتروفتش من جدید ، وراح یتأملها بنظرات حارة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

- ــ سوف تخرجين من هنا بغير أية اساءة
 - فابتسمت وقالت:
 - ـ نعم ، هذا عهد قطعته على نفسك .
- ــ لا لأنى قطعت على نفسى عهدا فى الرسالة ، بل لأننى أريد أن أفكر فلك طول الليل ٠٠٠
 - _ تعذيبا لنفسك ؟
- اننى استحضر صورتك دائما حين أخلو الى نفسى وأظل أتحدث معك وأذهب الى حانات ومواخير فاذا أنت تظهرين لى أيضا ولكنك تضحكين منى دائما ، كما تفعلين الآن •

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره • فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد ارتسم على وجهها عطف قوى :

_ أبدا ، أبدا ما ضمحكت منك • واذا كنت قد جثت فلأتنى حاولت بكل الوسائل ألا أجرح شعورك في أمر من الأمور •

وأضافت تقول فحأة :

- ــ لقد جثت الى هنا لأقول لك انى أحبك تقريباً
 - ثم أسرعت تتدارك :
- ـ معذرة ••• لعلني لم أحسن التعبير عما أردت عنه •

فضحك وقال:

- ــ لماذا لا تجيدين التظاهر ؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة ؟ لماذا لست كسائر الناس ؟ ٠٠٠ كيف يمكن أن يطرد أحد أحدا ثم يقول له: « أحبك تقريبا » ؟ ٠٠٠
- ـ ذلك أننى لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه ذلك أننى

ما وجدن يوما أمامك الاشمرت بخجل ولم أحسن الكلام ، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك : « أحبك تقريبا » ، فذلك لأن الأمر كان غامضا في ذهني أيضا • هذا هو السبب في اني قلت تلك الجملة ، رغم انني في الواقع أحبك ••• أحبك ذلك الحب « المشترك ، الذي يحمله المر، لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبدا •••

كان يصيخ بسمعه اليها صامت ولا يحول عنها نظرته الحارة ، ثم استأنف كلامه فقال :

.. لا شك أننى أسىء اليك ، هذا هو عيب الهوى الشديد ، انى لأعرف شيئا واحدا هو اننى اذا كتت معك فقد انتهيت ، واذا غبت عنك فقد انتهيت أيضا ، سيان أن أكون معك وأن أكون بدونك ، فأنت معى دائما حيثما تكونى ، وأعلم كذلك أننى أستطيع أن أكرهك أكثر مصا أستطيع أن أحبك ، ٠٠٠ ثم انى منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر فى شىء ، وأصبحت تستوى عندى جميع الأمور ، كل ما آسف له هو أننى أحببت امرأة مثلك ، ٠٠٠

كان قد وهن صوته ، وتابع كلامه يقول كالمختنق وهو يبتسم ابتسامة مسفراء :

ماذا تریدین ؟ انه لجنون منی أن أقول لك همذا الكلام ، أظن أتنی مستعد أن أقف مسمرا علی ساق واحدة مدة ثلاثین سنة اذا كان هذا یرضیك ، أری أنك تشعرین نحوی بشفقة ، وجهك یقول : « لو استطعت لأحببنك ، لكننی لا أستطیع ، ، ، ، ألیس همذا صحبحا ؟ لا ضیر ، لست بذی كبریاء ، اننی مستعد لأن أقبل منك أیة صدقة ، كشمخاذ ، هل تسمعین ؟ أیة صدقة ، ، ، أنی لشمخاذ أن یمكون ذا كریاء ؟ ، ، ،

فنهضت كاترين نيقولايفنا واقتربت منه ، ثم قالت وهي تلامس بيدها كتفه وقد لاحت في وجهها عاطفة لا يمكن التمبير عنها :

- صدیقی! اننی لا أستطیع أن أسمع مثل هذه الأقوال! سأظل أفكر فیك طول حیاتی تفكیری فی أغلی انسان وأنبل قلب وأقدس شیء یمكن أن أحب، وأحترمه • آندره بتروفتش ! افهمنی • • • اننی لم أجیء الی هندا عثما یا عزیزی ، یا من كنت وما تزال عزیزا علی قلبی • لن أنسی أبدا ما أثرته فی نفسی من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولی • فلننفصل صدیقین ، ولسوف تظل فی حیاتی أجل خواطری شأنا وأحلاها مذاقا!

قال آندره بتروفتش :

ـ « فلننفصل ثم أحبك » • سوف أحبك ولكن فلننفصل •••

ثم قال وقد شحب لونه شحوبا شديدا :

- اسمعی ۰ هبی لی صدقة أخری : لا تحبینی ، ولا تعیشی معی ، ولننقطع عن أن یری أحدانا الآخر الی الأبد ۰ سوف أختفی متی أصبحت لا تریدین أن ترینی ، ولا أن تسلمعینی ۰۰ ولكن ۰۰ ولكن ۰۰ ولكن ۴۰ ولكن

انقبض صدرى الى حد الألم حين سمعت كلامه ، ان هذا الرجاء الساذج الذليل يوقظ الشفقة فى النفس ويطعن القلب طمنا قويا بمقدار ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة ، نهم ، انه يطلب صدقة حقا ! هل كان يستطيع أن يظن حقا أن رجاء بمكن أن يلبى ؟ مع ذلك ، نزل بنفسه الى حيث يرجو هذا الرجاء ، وحرص على طلب هذه الصدقة ، ان هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه ! أما هى فان جميع قسمات وجهها قد تشوهت ألما ، ولكنه قبل أن تنطق هى بكلمة واحدة ، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فحاًة فكأنه ليس صوته :

ــ سوف أدمرك تدميراً!

ولكنها اجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة ، وبصوت كصوته تبدل تبديلا غير متوقع حتى لكأنه ليس صوتها ، فقالت :

ــ اذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم فى المستقبل انتقاما أقسى من الانتقام الذى تهددنى به الآن لأنك لن تنسى أبدا أنك استجديتنى صدقة وكنت أمامى شحاذا ٠٠٠

وختمت كلامها وهي تقذفه بنظرة تحد :

_ لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك!

فأجابها برفق مبتسماً :

.. « تهدیدات من فمك » ، أى من فم شهداذ مثلك ! لقه كنت أمزح • لن أصنع بك شيئًا • لا تخافى • انصرفى • أما تلك الوثيقة فسأبدل جميع جهودى لأرسلها البك • ولكن اذهبى • • • اذهبى ! • • • لقد بعثت البك رسالة حمقاء ، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء ، فجئت : فها يحن سواء : لا دائن ولا مدين !

وأضاف يقول لها لبدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق الغرفة التي كنت مختبثاً فيها وراء الستارة :

_ من هنا!

قالت وهي تقف على العتبة :

ـ اغفر لی اذا استطعت ٠

فقال فحأة :

ــ اذا كتب لنا أن نلتقى صديقين فى يوم من الأيام ، فسنتذكر هذا الشمهد ضاحكين .

ولكن فسمات وجهها كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة . هتفت تقول ضارعة الى الله وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى ، ولكنها تنظر الى وجهه وجلة "كأنما هى تحزر ماذا أراد أن يقول :

_ أسأل الله أن يحدث هذا •

ـ انصرفی ! کلانا مفرط فی الذکاء ۰ ولکنک ۰۰۰ آه ۰۰۰ آنت من طینتی ! بعثت الیك رسالة مجنونة ، فارتضیت أن تجیثی لتقولی انک « تحیینی تقریبا ، ۰ لا ، لا ، ان بنا جنونا واحدا ! کلانا شاذ ۰ ابقی مجنونة دائما ، لا تتغیری ، وسنعود نلتقی صدیقین ۰ اننی أتنبأ بهذا ۰ یمیناً !

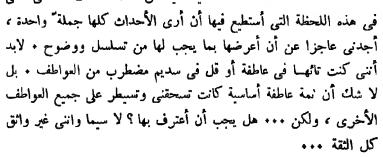
خرجت كاترين نيقولايفنا • فأسرعت الى المطبخ دون ضجة • ومن غير أن أنظر تقريبا الى داريا أو نيسموفنا التى كانت تنتظرنى ، ونبت الى الشارع نازلاً على سلم الحدم ماراً بالفناء • ولكن حين وصلت أنا الشارع كانت هى قد ركبت العربة التى كانت تنتظرها أمام الباب • فأخذت أركض •

الفصب ل انحب ادي عشر

•

أين ؟ الى بيت لامبير !

مهما أشأ أن أسبغ طابعا منطقيا على سلوكى فى ذلك المساء وفى تلك الليلة ، ومهما أشــأ أن اكتشف فيه شئا من سلامة العقل ، فاننى حتى



اقتحمت بیت لامبیر ، خارجاً عن طوری طبعاً ، حتی لقد أخفته هو وصاحبته آلفونسین ، لطالما لاحظت لدی الفرنسیین ، حتی لدی أشدهم طیشاً وأكثرهم فجوراً ، أنهم فی داخل بیوتهم حریصون أشد الحرص علی نوع من النظام البورجوازی ، وعلی طراز من الحیاة مطرد رتیب تافه یجری علی و تیرة و احدة و لا یحبون أن یخرجوا عنه مرة ، ولكن لامبیر سرعان ما أدرك أن شبئاً قد حدث ، فسره أن یرانی فی بیته وأن ، یقبض غلی ناصیتی ، أخیراً ، لقد كان لا یحلم الا بهذا طوال هذه الأیام لیل نهار ، ألا ما كان أحوجه الی ! ثم هأنذا ، بعد أن فقد هو كل أمل ،

أُجِيِّه فَجَاةً ، من تلقاء نفسى ، بل اجيئه وأنا على هذه الحالة من الجنون ، اى على الحالة التي يريدها!

صرخت أقول :

_ خمر ا یا لامبیر ! اسفنی ! دعنی أعربد ! آلفونسسین ، أین قیارتك ؟

لن أصف المشهد ، فلا داعی الی ذلك ، المهم أننا شربنا ، وقصصت علیه كل شیء ، كل شیء ، فكان يصغی الی كلامی بشراهة ، وقمت أنا بالمخطوة الأولی فاقترحت علیه تدبیر مؤامرة ، اشعال حریق : نستدعی أولاً كاثرین تیقولایفنا برسالة ، ، ،

قال لامبير مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها :

_ هذا ممكن ٥٠٠٠

قلت:

_ وزيادة في ضمان نجاح المؤامرة ، يجب أن نبعث اليها في تلك الرسالة صورة عن « وتيقتها ، لتستطيع أن تدرك أننا لا نغشها .

فقال لامبير مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين :

ـ تماما ا هذا ما يحب أن نفمله ٠

قلت:

_ وثالثاً ، يجب أن يكون لامبير هو الذى يدعوها ، لشأن يخصه ، منتحلاً صفة رجل مجهول آت من موسكو . وأجىء أنا بفرسيلوف .

فقال لامبير:

ــ ربما نحضر فرسيلوف أيضا ، نعم !

فصحت أقول معترضاً على قوله « ربما »

_ لا ، لا ، ربما ، ، بل حتماً . هذا لا غني عنه .

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة ، لكننى أعتقـــد اننى شربت زجــاجــة الشمبانيا كلها وحــدى ، أما همــا فكانا يتظاهران) :

ـ هـذا كله من أجله هـو • نجلس أنا وفرسيلوف في الفرفة الأخـرى • يجب الحصـول على غرفة ثانية يا لامير ! حتى اذا جاءت اللحظة التى توافق فيها على كل شيء ، أى على الفـدية المالية والفـدية الأخرى ، ، لأنهن جميعـاً حقيرات ، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناها فأقنعناها بحقارتها • وحينتذ ينشفي فرسيلوف ويطردها ركلا بقدميه • ولكننا في حاجة الى بيورنج ، ليراها هو أيضاً!

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً • فقال لامبير:

ــ لا ، بيورنج لا داعي اليه !

فصرخت أقول :

بلى بلى ! أنت لا تفهسم من الأمر شسينًا لأنك غبى يا لامبير ! يالله بله المبير : يجب أن تحدث فضيحة فى المجتمع الراقى : بذلك ننتقم من المجتمع الراقى ، ومنها • يجب أن تعاقب ! لامبير ، سوف تعطيك كمبيالة • • • أنا لا حاجة لى الى المال ، أنا أبصق على المال ! أما أنت فسوف تنزل قتدس المال فى جيبك مخلوطا ببصاقى • وأكون أنا قد وضعت أنفها فى التراب !

كان لامبير لا ينفك يقول مؤيداً :

ــ تعم ، تعم •

ويتبادل النظرات مع آلفونسين • قلت متمتماً :

ــ لامبير ، انها تعبد فرسيلوف • رأيت هــذا بنفسي منذ هنيهة أبر وأيقنت به •

ــ من حسن الحظ أنك رأيت كل شيء: ما كنت لأتصور أن لك كل هــذه الموهبة في التجسس ، ولا أنك تملك كل هــذا القــدر من الذكـــاء •

۔ أنت كاذب يا فرنسى • أنا لست جاسوساً ولكننى ذكى جدا • ثم تابعت كلامى جاهداً أن أعبر عن فكرتمى بمشقة وعناء :

_ هل تعلم يا لامبير؟ انها لن تتزوجه ، لأن بيورنج ضابط في الحسرس ، أما فرسيلوف فليس الا رجلا كريماً سمحاً محباً للانسانية ، أى هو في نظرهم انسان مضحك لا أكثر! آم ٠٠٠ انها تفهم هذا الموله وتفتن به مروراً ، وتغنج لفرسيلوف وتجنذبه وتفريه ، لكنها لن تتزوجه! انها امرأة ، انها أفسى! كل امرأة أفسى ، وكل أفسى امرأة! يوجب أن نسقط عن عينيه النشاوة فيراها على حقيقتها فيشفى ، سأجىء به الى عندك يا لامبير ،

فكان لامبير لا يزال يؤمن على كلاسي ويملأ كأسى في كل لحظة : ـــ حسن ، حسن !

كان يخشى أن أستاء منه أى استياء ، كان يخاف أن يعارضنى ، وكان يحرص على أن يسقينى مزيدا من الحمر ! وكان ذلك منه واضحاً أشد الوضوح ، فلم أملك أنا نفسى الا أن ألاحظه • لكننى ما كان لى أن أنصرف بحال من الأحوال • وظللت أشرب وظللت أتكلم • كنت أحترق وغبة فى الاقصاح مرة عما يعتمل فى نفسى ! وحين خرج لامبير ليجى،

برجاجة ثانية ، عزفت ألفونسين على قيتارتها لحناً اسبانياً ، فكادت تنهمر دموعى ، وقلت مخاطباً لامبير بعاطفة عميقة :

- يجب انقاذ هذا الرجل حتماً يا لامبير ، لأنه ، • • مسلمور الله تزوجها ، فلسوف يطردها ركلاً بالقلمين منذ الصباح ، بعد الليلة الأولى • فهذا ما يحدث دائما • ان هذا الحب الوحشى المسعور يوافى المرء كما توافيه نوبة ، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض ، فما ان يتميأ له الارتواء ، حتى تسقط النشاوة وتنبجس العاطفة المناقضة : الاشمئزاز والكره والرغبة في الابادة والسحق • هل تعرف قصة آبيساج يا لامبير ؟ هل قرأتها ؟

_ لا ، لا أتذكر • أهذه رواية ؟

ـ ذلك أنك لاتمرف شيئا يا لاميير • أنت جاهل جهـــلا" رهيباً ، جهلا" فظيما ! ولكن لا يهمنى أن تكون جاهلا" أو أن تكون عالماً ! أوه ! انه يحب ماما ؟ لقد قبّل صورتها • ولكن سبكون الأوان قد فات • لذلك يحب انقاذه منذ الآن •••

وأخيراً طفقت أبكى بكاء مرا ، لكننى ظللت أهذر وأشرب ، ما أكثر ما شربت ! الشىء الأساسى الذى يجب أن أذكره هو أن لامبير لم يسألنى عن الوثيقة مرة واحدة ، طوال السهرة ، أقصد لم يسألنى : أين هى ؟ لم يطلب منى أن أريه اياها ، أن أبسطها له على المائدة ، ألم يكن طبيعاً مع ذلك أن يلقى على هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك ؟ شىء آخر : لقد اتفققنا على أن نعمل كيت وكيت ، وقلنا اننا سنقوم بالعمل حتماً ، ولكن أين ، ومتى ، وكيف ؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة ! كان لامبير لا يزيد على أن يؤيد كلامى ويتبادل النظرات مع آلفونسين ، لا شىء عدا هذا ! صحبح أننى كت فى ذلك الحين عاجزاً عن ادراك ذلك ، ولكننى أتذكره واضحاً ،

وفي النهايه تمت على الديوان ، بدون أن أحلع ثيابي ، نمت مدة َ طويله جدا، واستبقطت في وقت مناخر جدا . اذكر أنني حين استنقظت، ظللت متمسددا على الديوان زمناً كالمسدود ، أحاول أن أجمع أفكارى وذكرياتي ، وأتظاهر بأنني ما زلت نائما • ولكن لامبير كان قد خــرج من البيت • كانت الساعة فد تجاوزت التاسمه • النار في المدفأة تــسمع طقطقتها ، تماماً كالمرة الماضية ، حين فتحت عيني ّ في بيت لامبير بعد تلك الليلة المشئومة! ولكن آلفونسين كانت ترصدني وراء الحاجز: لاحظت ذلك فوراً ، لأنها نظرت الى ً وتفرست في ً مرتين ، غير أنني كنت أغمض عيني وأتظاهر بالنوم • كنت أفعل ذلك لأنني أحس باكتئاب وأريد أن أعرف أين أنا من الأمر ؟ فما كان أشد عذابي حين تذكرت ، فأدركت فظاعة وحقمارة ما أقدمت عليه في الليل من اعتراف للامبير ، واتفاق معه ۰۰۰ وأدركت مدى خطئي وضلالي اذ جثت الـه أصــــلا ٠ ولكنني حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معى ، لا تزال مخيطة في جببي . لقد جسستها بیدی ، فأحسست بها ! فلیس علیَّ اذن الا أن أثب وثبة واحدة ، فأولى هاربًا • ولا داعي الى الخنجل بعد ذلك من لامبير ؟ فليس لامبير بمن يستحق ذلك!

ولكننى كنت خبجلان من نفسى! لقد نصبت نفسى قاضياً أحاكم نفسى! ما أشـــد الآلم الذى كان يعصر قلبى! على أننى لن أصف ذلك الشعور الجهنمى ، الذى لا يطاق ، لن أصف ذلك الاحساس بالحزى والتلطخ والدناءة ، ومع ذلك يجب على أن أعترف ، فقد آن أوان الاعتراف فيما أعتقد ، ويجب أن أســجل هــذا الاعتراف في مذكراتي ، ألا فاعلموا أننى اذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار ، واذا كنت قد هيأت نفسى لرؤية المشهد الذى سندفع فيه الفدية للامبير (آه ، ، ، يا للسفالة!) ، فان هذا لم يكن في سبيل انقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا في سبيل قان هذا لم يكن في سبيل انقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا في سبيل

أن أردَّه الى ماما ، وانسا ••• لأننى ••• ربما كنت أنا نفسى مولها بحبها ، غيوراً عليها ! ممن كنت غيوراً ؟ ••• من بيورنج ؟ من فرسيلوف ؟ من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم فى حفلة الرقص ، على حين أكوز أنا قابعاً فى ركنى ، شاعراً بالخزى من نفسى ؟ آه ••• يا للقذارة !

الخلاصة أننى لا أعرف ممن كنت غيوراً • لكننى كنت أشعر ، بل كنت قد أيقنت منذ مساء أمس ، كيقينى بأن اثنين واثنين أربعة ، أثنى فقدتها الى الأبد ، وأن هده المرأة سوف تنبذنى وسوف تسخر من ويفى ومن سخافتى • فهى امرأة صادقة ومستقيمة ، وأنا امرؤ متجسس ومخبى، وثائق !

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة ، وقد آن لى أن أعترف بها الآن ٥٠٠ هأنذا أعترف بها و لكننى أكرر مرة "أخرى ، ومرة "أخيرة ، أن نصف هذا الاعتراف ، وربما ثلاثة أرباعه ، قد يكون تجنياً على نفسى ! اننى فى تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسئول عن أعماله ، ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق يتكلم كمن أصابه مس ، وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً من العواطف والاحساسات كان قد أغرقنى اغراقاً ، فلا أستطيع أن أعى ما بقلبى ولا أن أدرك ما يعصف بنفسى عصفاً ، ولكن لا بد لى مع ذلك من هذا الاعتراف ، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ نفسى حتماً ،

وثبت عن الدیوان مشمئزاً اشمئزاً لا یغالب ، عازماً عزماً قویاً علی أن أمحو کل شیء • ولکن ما ان وثبت عن دیوانی ذلك الوثوب حتی هرعت الی آلفونسین • تناولت معطفی وقبعتی ، وقلت لها أن تبلغ لامبیر أننی كنت بالأمس أهذی ، وأننی تجنبت علی تلك المسرأة ، واننی كنت أمزح ، فحذار أن يبيح لنفسه أن تطأ قدماه بيتى فى يوم من الايام • قلت لها ذلك كله بالفرنسية متمجلاً كيفما أتفق ، وأغلب الظن اننى قلته غامضاً مشوشاً ، فما كان أشد دهشتى حين رأيت الفونسين تفهم عنى فهما كاملاً ؟ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مغتبطة " بكلامى ، مهللة " له • قالت مؤيدة :

ـ « نعم نعم • ذلك عيب • سيدة محترمة • أنت رجــل كريم ! اطمئن • سأوضح الأمر للامبير ! » •

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجىء فى عواطف آلفونسين، وربما فى عواطف لامبير تبعاً لذلك ، أن يثير فى نفسى الشبهات ، لكننى خرجت صامتاً ، لقد كنت مضطرب النفس ، وكنت لا أحسن التفكير ، ولقد أعدت النظر فى الأمر كله بعد ذلك ، ولكن كان قد فات الأوان ! يا للمكيدة الجهنميسة التى حيكت لى ! اتنى أتلبث هنا قليلاً لأشرح ما حدث ، والا عجز القارىء عن الفهم !

الواقع هو اننى منذ أن لقيت لامبير أول مرة ، فى تلك الليلة التى تدفأت عنده بعد تجلدى من البرد ، قد حكيت له (يا لغباوتى !) أن الوثيقة مخيطة فى جيبى ، ولقد نمت على ديوانه فى تلك الليلة بعض الوقت فجأة ، فلم يلبث لامبير أن جس جيبى ، فأيقن أن الورقة مخيطة فيها فعلا ، واستطاع بعد ذلك مررا أن يتأكد من أن الورقة لا تزال فى مكانها ، فأثناء عشائنا فى مطعم التتر مثلا ، أتذكر أنه حضننى عدة مرات ولما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر ببالى قط ، لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غبى أحمق) أنه ان كان يدعونى الى بيته دائماً بحماسة شديدة واصرار كبير ، فهو انما يفعل ذلك ليستدرجنى الى الدخول فى عصابته والشاركة فى عملها ، ولكن الحقيقة المؤسفة هى انه كان يدعونى ليسكرنى ليسكرينى المؤسفة هى انه كان يدعونى ليسكرنى

سكراً شديداً ، حتى اذا رقدت غائباً عن شعورى وأخذت أشخر ، قص عبيى واستولى على الونيقة ، وذلك ما فعلاه في تلك الليلة هو وآلفونسين ، قامت الفونسين بقص جببى ، فلما صارت الرسالة في حوزتها ، أعنى و رسالتها ، ، أعنى و ثيقتى التي جئت بها من موسكو ، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه ، فوضعاها في مكان الرسالة ، ثم أعادا خياطة الحبب في مكانه فكأن شياً لم يحدث ، فلم ألاحظ أنا شيئاً ، ان الفونسين هي التي أعادت خياطة الجيب ، وظللت أنا ، انا الأحمى ، ظللت الى النهاية ، خلال بوم و نصف يوم ، أظن أننى ما زلت أملك السر ، وظلت أعتقد بأن مصير كاترين لا يزال بين يدى " .

كلمة أخيرة : ان سرقة الوثيقة كان سبب كل شيء ، كان سبب جميع المصائب الأخرى ا اليكم الآن آخر أيام مذكراتي • انبي أصل الى نهاية النهاية •

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت الى سسكنى مهتاج الأعصاب ، ذاهلاً أكبر الذهول ، عاقداً عزمى على فرار حاسم ولم أتعجل الخطى ، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل ، ولكن ما ان وطئت قدماى الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة : كان العجوز قد نقل من تسارسكوريا سيلو منذ قليل ، فهلو الآن في بيتنا ، وبقربه آنا آندريننا!

لم يسكنوه غرفتى ، بل الفرفتين المجاورتين لها ، أعنى غرفتى المؤجر ، وقد أحدثت بالأمس فى هاتين الفرفتين تغييرات وتجميلات ، وان تكن طفيفة ، وكان المؤجر قد نقل امرأته الى حجرة المستأجر المجدور المتذمر الذى سبق أن تكلمت عنه ، كما نُقل هــذا لا أدرى الى أى مكان ،

لم بلبث المؤجر أن تسلل الى غرفتى ليستقبلنى • ان هيئته لا تنم عماً كانت تنم عنه بالأمس من حزم ، ولكنه كان فى اهتياج سديد ، اهتياج من مستوى الأحداث ان صح التعبير • لم أكلمه ، بل انسحبت الى زاوية المغرفة ، ووضعت رأسى بين يدى ، ولبثت على هذه الحال دقيقة • فقد ر فى أول الأمر أتنى أصطنع « وضعاً » ، ولكنه فى النهاية لم يطق صبراً ، واعتراه الغزع ، فتمتم يسألنى :

_ هل هناك شيء ؟

واذ لم أجبه أردف يقول :

ــ كنت أنتظوك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون انصال غرفتك بغرفتى الأمير مباشرا ٠٠٠ بدلا من المرور بالدهليز ٠

قال ذلك وهو يريني بابا جانبيا مغلقا ، يصــل غرفتي بغرفته ، أي بما هو الآن مسكن الأمير .

فقلت له برصانة ووقار :

ــ بطرس هيبوليتوفتش ، أرجو أن تنفضل فتمضى الى آنا آندريفنا فورا ، فتدعوها ان تجيء الى هنا لتتحدث ممى قليلاً • هل وصلا منذ مدة طويلة ؟

_ منذ زهاء ساعة

ـ طيب • اذهب الى أنا آندريفنا وقل لها ما أوصيتك به •

فذهب ثم عاد يحمل الى هذا الجواب الغريب ، وهو أن آنا آندريفنا والأمير ينتظران أن أجىء اليهما بصبر فارغ • اذن لم تشأ آنا آندريفنا أن تأتى • فعدلت ردنجوتى الذى تنجعًد فى الليل ، ونظفته بالفرشاة • وغسلت وجهى ، ومشطت شعرى • فعلت ذلك كله بغير تعجيل • ثم مضيت الى الشيخ مدركاً مدى ما ينجب التزامه من حذر وروية •

کان الأمیر جالساً علی دیوان أمام مائدة مستدیرة ، أما آنا آندریفنا فکانت فی رکن آخر ، أمام مائدة أخری علیها غطاء وفوقها سماور البیت مجلوا کما لم یسبق أن جلی فی یوم من الأیام ، وکان ماء السادر یغلی ، وکانت آنا آندریفنا تهییء الشای .

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها ، فلاحظ العجوز المسكين ذلك

فورا ، فارتجف • وسرعان ما حــل محل ابتســامته فزع حقــا • لكننى لم ألح ، بل أخــذت أضـحك ، ومددت له يدى ً ، فارتسى المســكين فى أحضانى •

وفد أدركت فوراً ما صبار الرجبل اليه ، دون ريب . كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذي كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم والعسلابة ، قد أحالوه بعد آخـر لقاء بيني وبينه الى نوع من مومياء ، وجعلوا منه طفلاً شديد الحوف ، كثير الحذر والشك • يجب أن أضيف الى هذا أنه كان يعلم لماذا جيء به الى هنا ، وقد جرى كل شيء على النحو الذي ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث • لقد فاجأوه بعضانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين ، فصعفوه وحطموه وسحقوه سيحقاً ، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل • قالوا له ان الوثيقة في حوزتني وهني « مفتاح الموقف » ، فاذا رآها كان في وسعه أن يتخذ قراره النهائي • يحب أن أبادر فأقول سلفاً ان رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان يرعبه تصورهما أكثر مما يرعبه أى شيء في هذا العالم ••• لقد كان يتوقع أن يراني داخــلاً عليه بالقرار في جببي والورقة في يدي • فما كان أعظم فرحه حين رآني ، بانتظار ذلك ، مستعداً لأن أضحك وأن أثرتر في موضوع آخر ٠ وقد انسكبت دموعه غزيرة ّ حين تعانقنا ٠ ولا أكتمكم أنني ذرفت أنا أيضًا بعض العبرات • لقد شعرت فحَّأة بشفقه كبيرة عليه • وكان كلب آلفونسين الصغير ينبح نباحا نحيلاً كرنين جرس صغير ، ويندفع من الديوان نحوى . ان هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشبيخ منذ صار عنده ، حتى لقد كان ينام معه .

هتف يقول وهو يومىء لآنا آندريفنا الى ":

ـ ، قلت انه صاحب قلب نبيل ، (بالفرنسية) .

فقلت له:

_ لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير ! هيئتك الآن مزهرة نضرة ! ولكن نقيض قولى كان هو الصحيح وا أسسفاه ! لقد كان الشيخ أشبه بمومياء • وما قلت له ذلك الا لأشجعه •

فأخذ يردد بفرح:

- « أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) ٠
- _ ولكن هلاً شربت شايك اذا قدمت لى فنجاناً فسوف يسعدني أن أحسوه في صحبتك •
- ـ فكرة عظيمة « فلنشرب ولنفرح » هناك قصيدة بهذا المعنى أليس كذلك ؟ آنا آندريفنا ، أعطيه شاياً « انه يفتن دائماً بالعواطف » (بالفرنسية) أعطينا شاياً يا عزيزتي •

سكبت لى آنا آندريفنا شاياً • ولكنها التفتت نحوى فجأة ، وأخذت تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار ، فقالت :

ــ آركادى ماكاروفتش ، انا ــ أنا والمحسن الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قد جثنا الى بيتك لاجئين ، جثنا اليك أنت ، لا الى غيرك ، جثنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ ، تذكر أن كل مصير هذا الانسان القديس ، النيل ، المحزون ، هو بين يديك ، ، ، اننا ننتظر القرار الذى يمليه عليك قلبك بالمحق والمعدل !

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها • فقد اعترى الأمير رعب شديد ، حتى كاد يرتعش من فرط الذعر ، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه تحوها :

ـ « فيما بعد ، فيما بعد ، أليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟ . (بالغرنسية) • لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذي أحدثت في نفسي مقاطعته هذه لحديثها • ولم أجب بشيء ، وانما اكتفيت بتحية فاترة رصينة • نم جلست الى المائدة عامداً ، وطفقت أتحدث في مواضيع أخسرى تافهة ، وأخذت أضحك وأمزح • • • فكان واضحاً أن الشيخ شكر لى ذلك ، وأنه اغتبط اغتباطا شديداً • ولكن فرحه كان رغم شدته مهياً لأن يتبدد سريعا وان يحل محله اكتشاب ويأس • كان همذا واضحا من أول نظرة •

۔ « بنی العزیز » (بالغرنسیة) • بلغنی أنك كنت مریضاً • • آ • • معذرة • • • فیل لی انك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضیر الأرواح ، أهذا صحیح ؟

أجبته مبتسماً:

- _ ما خطر لي مثل هذا على بال •
- ـ لا ؟ من كلمني اذن عن تحضير ٥٠٠ الأر٠٠واح ؟

انبرت آنا آندريفنا تشرح فقالت:

۔ ان الموظف ، صاحب البیت ، بطرس هیبولیتوفتش ، هو الذی کان یحدثه عن هذه الأمور منذ قلیل ، انه رجل مرح ، یعرف نکات کثیرة ، هل ترید آن آنادیه ؟

ـ « نعم ، نعم ، رجل طيب ، (بالفرنسية) + يعرف نكات كثيرة + ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد • سوف ندعوه • وسوف يحكى لنا كل شيء • « ولكن قيما بعد ، (بالفرنسية) • تصور أنه منذ قلبل ، حين اعداد المائدة ، قال لى : اطمئن ، فهى لن تطير ! نحن لا نحضر الأرواح ! هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح ؟

- لا أدرى • ينقال انها ترتفع بجميع أرجلها •

فقال وهو يرشقني بنظرة مرتاعة :

- ـ ولكن هذا الذي تقوله رهيب! ، (بالفرنسية) .
 - _ اطمئن ، هذه سخافات !
- ـ ذلك ما أقوله أنا أيضاً ان ناسناســيا ستيانوفنا سالوميافا ••• أنت تعرفها طبعاً •• لا •• لا لاتعرفها •• الخلاصة •• تصور أنها حى أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح •••

والتفت الأمير الى آنا آندريفنا وقال مكملاً كلامه :

_ تحفيلي هـذا ديا ابنتي ، (بالفرنسية)! قلت لها يوماً : ان في الوزارات موائد أيضاً ، وعلى كل مائدة ثماني أيد من أيدي الموظفين تكتب و لاتنقطع عن الكتابة ، فلماذا لا تتراقص تلك الموائد ؟ تخيليها وقد أخذت ترقص فجأة ! شغب تقوم به الموائد في وزارة المالية ، أو وزارة المعلم العام ٥٠٠ لم يكن ينقص الا هذا ! ٥٠٠

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق:

ــ ما ألطف الأشياء التي تقولها دائماً يا أمير !

ــ • ألبس كذلك ؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكننى أحسن القول » (بالفرنسبة) •

قالت آنا آندریفنا وهی تنهض :

۔ سأجيء ببطرس هيبوليتوفتش ٠

وكانت العبطة تتلألأ في وجهها. فقد أبهجها كثيراً أن رأتني ألاطف الأمير هذه الملاطفة كلها و ولكن ما ان خرجت حتى تبدل وجه الشيخ فجأة و ونظر بسرعة الى الباب ، وأجال بصره فيما حوله ، ثم مال من ديوانه على م وهمس يقدل لى بصوت مروع :

- .. « يا صديقي العزيز » ، ليتني أستطيع أن أراهما كلتيهما هنــا ! « آه بني َّ الغالي ! » •
 - ــ هدىء نفسك يا أمير!
- ۔ نعم نعم ، لكننا سنصلح بينهما ، أليس كذلك ؟ انه لشمجار صغير محزن بين امرأتين تفيضان كرماً وشـهامة ، أليس كذلك ؟ ليس لى من أمل الا فىك ٥٠٠ سنسوسي هذا كله هنا ٥٠٠
 - ثم أضاف يقول وهو يلقى نظرة يكاد يكون فيها خوف :
 - ــ ولكن يا له من مسكن غريب ا وهذا المؤجر ا ان له عقــلا عجيباً • قل لى : أليس خطراً ؟
 - ـ المؤجر ؟ لا ! فيم يمكنه أن يكون خطراً ؟
- حسن! عظیم! « یبدو غبیاً ، هذا السید ، ! ابنی! أستحلفك بیسسوع المسیح لا تقل لآنا آندریفنا انی خاتف من كل شی هنا لقد أجزلت المدیح لكل شیء مند أن وطئت هذا المكان ، حتی لقد مدحت المؤجر نفسه اسمع ، أنت تعرف قصة فون سون ، هل تتذكر ؟
 - ۔ نعم أتذكر ، فماذا ؟
- ــ « لا شىء ٠٠٠ لا شىء البتة ٠٠٠ ولكننى حـــر هنا ، أليس كذلك ؟ ، . ما رأيك ؟ لا يمـكن أن يحدث هنـــا شىء ٠٠٠ من ذلك النوع ؟
 - ـ لا ، لا ، يا عزيزي ، اطمئن ، أحلف لك ٠٠٠
- هتف فجأة يقول وهو يصم يديه أمامى ولا يخفى عنى شيئًا من جــزعه :
- ــ « صدیقی ، ابنی ، ۰۰۰ اذا کان فی حوزتك شیء حقاً ۰۰۰

وثائق مثلاً • • اذا كان ثمة ما يمكن أن تقـوله لى • • فلا تقـله • • لا تقله • • لا تقل شيئاً ، ناشدتك الله • • • لا تتكلم • • • الزم الصمت. أطول مدة ممكنة ، لا تتكلم • • •

وأراد أن يحضننى بذراعيه • وسالت الدموع على خديه • لن أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبى : كان الشيخ المسكين أشبه بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه، وأخذنه الى أجانب • ولكن لم يسمح لنا بأن نتعانق : فقد فنتح الباب ودخلت آنا آندريفنا ، ولكن الشخص الذي يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها ، حاجب البلاط • فصعقنى هذا الشيء الجديد صعقاً ، فسرعان ما نهضت واتجهت نحو الباب •

قالت آنا آندريفنا بصوت عال :

۔ آرکادی ماکاروفتش ، اسسمع لی أن أعبِّرف کلاً منکمیا بالآخر ۰۰۰

فلم يسعنى الا أن أتوقف • وقلت مقطعاً كلماتي مبسرزاً منها كلمة « أحسن » :

ــ أعرف أخاك « أحسن » المعرفة !

فجمجم الشاب وهو يقترب منى طلق الهيئة ، ويتناول يدى بحرية فلا أملك أن أسحمها :

ــ أوه ! ما كان أكبرها غلطة ٠٠٠ وانى لمذنب يا عزيزى آند ٠٠ آندره ماكاروفتش ٠ ولكن خادمى ستيفان هو سبب كل شيء ٠ لقد أساء الابلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر ٠

وأردف يشرح لأخته :

_ حدث هذا بموسكو ٠٠٠

نم عاد يكمل كلامه لى:

_ وقد بذلت بعد ذلك جميع جهــودى لأعثر عليك وأشرح لك الأمر • ولكننى مرضت ••• اساله ! ه يا أمير ينجب أن نكون صديقين حتى بحكم النسب •• • •

وتجرأ الفتى الوقع الى حيث وضع يده على كتفى، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة ، فأسرعت أخلتس كتفى من يده بوثبة الى جانب ، ولكننى خبجلت أن أزيد على ذلك شيئًا ، فاكتفيت بأن خرجت صامتًا ، ومضيت الى غرفتى ، فجلست على سريرى مفكراً قلقاً مضطرباً ، كانت هذه المكيدة تخنقنى خنقا ، ولكننى لا أستطيع أن 'أطيش صواب آنا آندريفنا وأن أسيحقها سحقاً ، لقد شعرت فجأة أنها هى أيضاً عزيزة على نفسى ، وأسست أنها في وضع رهيب ،

كما كنت أتوقع ، جاءت الى غرفتى ، تاركة الأمير مع أخيها الذى أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نمائم المجتمع الراقى الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يأسر وأن يفرح الأمير المسكين الذى يسهل التأثير فيه .

نهضت عن سريرى صامتاً مستفهماً • فسادرتنى آنا آندريفنا قائلة بلهجة جازمة :

ــ قلت لك كــل شيء يا آركادى ماكاروفتش • ان مصــيرنا بين يديك •

ــ لكننى نبِّهتك أيضاً الى أننى لا أستطيع ٠٠٠ ان واجباتى المقدسة تمنعنى من الاقدام على ما تستمدين على قيه ٠٠٠

ـ حقاً؟ أهذا جوابك؟ أنا لا يهمنى أن أهلك • ولكن الشــيخ؟ أعلم مُ أنه سيُنجن منذ هذا المساء ا

هتفت أجيبها بحرارة :

ـ بل سيجن اذا أنا أطلعته على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يُعلن جنون أبيها • ذلك ما لن يستطيع أن يتحمله • هو قال لى هذا •

الحق اتنى كذبت اذ ادعيت أنه قال لى ذلك • ولكن الكذب كان فى محله • ے قال لك هــذا ؟ قدّرت أن يقوله لك • فانا الهــالكة اذن • حتى لقد بكى منذ قليل ، وطلب ان يرجع الى البيت •

سألتها بالحاح :

_ قولي لي : ما خطتك على وجه الدقة ؟

فاحمر وجهها من جرح كبريائها ان صح النمبير ، ولكنها كابرت و تجلدت ، فقالت :

ـ ان هذه الرسالة التي بين أيدينا تبرئنا في نظر الناس • سوف أبادر فورا فأنبىء الأمير « ف ٠٠٠ ، و بوريس ميخائيلوفتش بلنشيف · صديقى طفولته • هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ ، وأنا أعلم أنهما أبديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجشعة التي لا ترحم . ولاشك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبي ، وســألح أنا نفسى على طلب هذه المصالحة • ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً ناماً • وعدا ذلك سيدعمني أقربائي من جهة أمي ، آل فاناريوتوف ؛ غير أن الشيء الذي يهمني خاصة " انما هو سعادته ٠ يجب أن يعرف أخيراً من ذا الذي كان مخلصاً له حق الاخلاص ، فيقدره قدره الذي يستحقه . واني لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فسه من تأثير يا آركادي ماكاروفتش • انك تنحبه كثيراً ••• ولكن هل ينحنه أحد غيري وغيرك؟ انه لم ينقطع عن ذكرك في هذه الأيام الأخيرة • وكان يحن لا البك حنينًا شدیداً ، ویشمر من بعدك عنه بضجر قوی • وكان یسمك د صدیقه الشاب ۽ • وطبيعي أن شكري لك وامتناني منك لن يكون لهما حدود " ما حبت ٥٠٠

ها ٠٠٠ ها هي ذي الآن تعدني بمكافأة ٠٠٠ لعلها مكافأة مالية ! فقاطعتها قائلاً بلهيجة خشنة ونبرة جازمة لا تنثني ولا تلين : مهما تقولى ••• فلن أتزحزح عن رفضى قيد شعرة! لكننى أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعامليننى به من صراحة ، فأصارحك بآخر ما عقدت العزم عليه: بعد مدة قصيرة سأسلتم الرسالة المشئومة الى كاترين نيقولايفنا يدا بيد ، ولكننى سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن ألا تقوم بفضيحة ، وأن تقطع لى على نفسها عهداً بألا تحول بينك وبين تحقيق سعادتك ، هذا كل ما أستطيع أن أفعله ،

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً :

ــ مستحبل!

لقد أثار استياءها أن تتصور أن كاترين نيقولايفنا سوف « تداريها » وتحميها •

فلت:

- _ لن أغير " قرارى يا آنا آندريفنا
 - _ قد تغرقه ٠
 - ــ الجثى الى لامبير!
- ــ آركادى ماكاروفتش ، انك لا تعرف المصائب التي يمكن أن تنتج عن عنادك •

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد • فأجيتها :

- جائز جداً أن تنتج مصائب ٠٠٠ اننى أشعر بدوار ! كفى الآن :
 لقد فررت وانتهى الأمـر ٠ ولكننى أرجـوك ، بــل أسـتحلفك بالله ،
 ألا تأتينى بأخيك ٠
 - _ ولكنه يريد أن يمحو ما ٠٠٠

_ ليس هناك شيء ينجب محوه! ٠٠٠ ما أنا في حاجة الى أن يمحو ششًا • لا أريد ، لا أريد !

كذلك صبحت وأنا أمساك رأسي بيدى • ولعملني قد عاملتها باستعلاء •

وأردفت أسألها:

- ــ قولى لى : أين سببيت الأمير ؟ هنا ؟
 - ـ سيبيت هنا ، عندك وممك .
 - انى تارك هذا البيت منذ الليلة ٠

وما ان نطقت بهذه الكلمات الني لا رحمة فيها ، حتى تناولت قبعتى وأخذت ألبس معطفى • فكانت آنا آندريفنا ترقبنى صامتة مكفهرة الوجه • وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة ، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً • ومع ذلك خرجت دون أن أثرك لها كلمة أمل واحدة •

سأحاول أن أوجز ، بعد أن اتخذت قرارى قاطعاً لا رجعة عنه ، اتعجهت قُدْمًا الى بيت تاتيانا بافلوفنا • وا أسفاء ! لقد كان يمكن اتقاء مصمة كبيرة لو أنني وجدتها • ولكن سوء الحظ كان يلاحقني في ذلك اليسوم • فلم أجــد تاتيانا بافلوفنا • فذهبت الى ماما ، أولاً لأزور أمى المريضــة ، وثانياً لأننى قدرت أننى ســوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا في أغلب الظن . ولكن تاتبانا بافلوفنا كانت قد تركت أمي منذ برهة وجيزة . وكانت أمي راقدة في سريرها ، وقد بقت لـزا وحدها معها • رجتني لـزا ألا أدخــــل وألا أوقظ ماما من نومهــا قائلة ً لي : « انهـــا لم تنم الليل كله ، وظلت تتألم وتتعذب • فمن حسن الحظ أنها غفت الآن • • • قبَّلت ليزا ، وقلت لها بكلمتين اننى اتخذت قراراً ضخماً حاسماً ، واننى مقدم على تنفيذه حالاً • فأصغت لبزا الى كلامي بدون دهشة كما يصغى المرء الى كلام عادى جدا ، ذلك أنهم جميعا قد ألفوا كثيرا أن يسمعوا متى كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها ، كقولى « قرارات أخيرة » ، عم رأونمي أرتخي فأتركهـا • ولكنني الآن • • الآن • • لن يكون شسأني كما كان • ومن أجل أن أترك لتاتبانا مهلة " تمود أثناءها الى بيتها ، ذهبت الى المطعم الذي يقع تحت مســتوى الشـــارع ، والذي تروج فيه أغنية « لوسيا ، رواجاً كبيراً • وسأشرح السبب الذي جملني في حاجة شديدة الى تائمانا بافلوفنا فحاَّة • لقد كنت أنوى أن أرسلها الى كاترين نيقولايفنا فوراً ، فتأتمي بها الى بستها ، فأردُّ الوثبقة الى كاترين نيقولايننا بحضور تلك

المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة الى الأبد و الخلاصة الني كنت أريد أن أفعل الخير: أريد أولا ان أبرىء نفسي تبرئة حاسمة ، وأحرص على هذه التبرئة وأعد ها حقاً لى وحتى اذا فرغت من ذلك أخذت أدافع عن آنا آندريفنسا وأقول فيها قولا حسسناً ، ثم اصطحبت كاترين نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهدا) الى بيتي ، أى الى الامير ، فأصلحت ما بين المرأتين المتعاديتين هناك ، وأرد الحياة الى الأمير وووه ووه في نطاق هذه الطائفة الصغيرة ، أجعل الجميع سعداء ، منذ هذا اليوم ، ثم لا يبقى بعد ذلك الا فرسيلوف وماما ولم يخالجني شك في نجاح مسعاى : فان كاترين نيقولايفنا ستكون ممتنة من رد الرسالة اليها ردا لا أطالب أن كاترين نيقولايفنا ستكون ممتنة من رد الرسالة اليها ردا لا أطالب أن كنت لا أذال أتصور أن الوثيقة في حوزتي و آه ما كان أغبي وأحقر الوضع الذي كنت فيه بدون أن أشعر ا وود

كان الظلام قد هبط ، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى ، فقالت لى مارى بفظاظة ، انها لم ترجع ، ، انى لأنذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكرا واضحاً ، ولكننى فى تلك اللحظة لم تراودنى أية شبهة ، حتى لقد خطرت لى هذه الفكرة الأخرى : ففيما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مثباً العزيمة تذكرت الأمير المسكين الذى مدا الى ذراعيه منذ قليل ، فلمت نفسى لوماً لاذعاً لأننى تركته من غضب ؟ وأخذت أتصور ، قلقاً أشد القلق ، ما لمله حدث عندهم أثناء غيابى من أمور قد تكون سيئة غاية السوء ، فأسرعت أعود الى البيت ، فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية :

ان آنا آندریفنا التی أغلظت لها القول وأغضبتها ، لم تفقد شجاعتها ، یجب أن أذکر أنها کانت منذ الصباح قد أرسلت الی لامبیر مرة اولی فمرة انیة ، فلما لم یعشر علیه فی بیته ، بعثت أخاها یبحث عنه ، کانت السکینة

بعد أن رأت صمودى وعنادى تعقد أملها كله على لامبير وتأثيره في م فكانت تنتظره نافدة الصبر • ولكن كان يدهشمها أن تراه يهجرها فجأة ويختفى ، وهو الذى كان الى همذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم حولها • مسكينة ! كان لا يمكن أن يخطم لهما على بال أن لامبير الذى يستولى الآن على الوثبقة ، قد اتخد قرارات أخرى ، وأن من الطبيعى أن يتوارى عن الأنظار ، وأن يتوارى عن نظرها هى خاصة •

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان في نفس آنا آندريفنا ، فكان طبيعياً أن تصبيح عاجزة عن تسلية الأمير الشبيخ ، وكان قلق الشبيخ من جهته يشتد اشتداداً يدعو الى الحوف والفزع • كان يلقى أسئلة غريبة وجلة ، وكان ينظر الى آنا آندريفنا مشتبهاً مرتاباً ، حتى لقد أجهش باكيــاً عدة مرات • ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة • فاستدعت آنا آندريفنا ، بعد انصرافه ، بطرس هيبوليتوفتش الذي كانت تعوِّل عليه كثيراً • ولكن بطرس هيبوليتوفتش لم يحدث في نفس الأمير الا الاشمئزاز بدلاً من أن يسسليه ويسرِّى عنه • وكان الأمير ، على كل حسال ، ينظر الى بطرس هموليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتباب ما ينفك يزداد • وقد شاءت المصادفة أن يستأنف بطرس هيبوليتوفتش ترثرته عن تحضير الأرواح ، وعن ألاعيب أخرى قال انه شهدها بنفسسه : منها أن مشعوذا مر ً بالمدينة يوماً ، فكان يقطع رءوساً على مرأى من الناس ، فتسيل الدماء من الأعناق ، ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه ، ثم يعود الرجل فيتناول الرءوس المقطوعة ويردُّها الى مكانهـا فوق الرقاب فنلتصـق على مرأى من جميع النـاس أيضاً ، وقد حدث هذا كله سنة ١٨٥٩ ؟ فحين سمع الأمير هذا الكلام بلغ من شــدة الهلع ومن شــدة الاستياء في الوقت نفسه أن آنا آندريفنا اضطرت أن تطرد القصاص • ومن حسن الحظ أن وصل الغداء في ذلك الوقت ، وهو غداء 'عني به لامبير و آلفونسين أوصـــــيا باعـــداده طباخاً فرنمسيًا حاذقًا يسكن في بيت قريب ، ولكنه لا يعمل الآن في مكان وانما

هو يبحث عن عمل هى منزل أسرة ارستقراطية أو فى أحد النوادى • فكان من شأن هذا الفداء مع الشمبانيا أن أفرح العجوز جداً ، فأكل كثيراً وفرح كثيراً ؛ وكان طبيعياً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغية فى النوم • واذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً ، فان آنا آندريفنا كانت قد أعددت له سريراً • فكان وهو يرقد على السرير يقبل يديها ويقول لها انها جنته ، وانها أمله ، وانها حوريته ، وانها « زهرته الذهبية ، ، الى ما هنالك من تعابير شرقية • ونام أخيراً • وعند ثذ انما وصلت أنا +

أسرعت آنا أندريفنا تدخل على م فضّمت يديها أمامي ضارعة مبتهلة ، وقالت انها تتوسل الى (لا من أجلها بل من أجل الأمير) ألا أخرج ، وأن أذهب اليه متى استيقظ من نومه ، وإذا لم تكن أنت معه فقد هلك ، لسوف يصاب بنوبة ، أخشى ألا يقاوم الى آخر اليوم ، ، ، وأضافت تقول انها مضطرة أن تغيب عن البيت اضطراراً لا سبيل الى دفعه ، وإن غيابها قد يطول ساعتين ، فهى إذن تترك الأمير تحت حراستى ، ، فقطعت لها على نفسى عهداً حاراً بأن أبقى إلى المساء ، فإذا استيقظ بذله من جهود لأسليه وأسرتى عنه ،

فقالت تختم كلامها بقوة :

ـ وأنا سأقوم بواجبي •

وانصرفت • ينجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها انما مضت تبحث عن لامبير • انه آخـــر أمـــل لهــا • وعــدا ذلك زارت أخــاها وأفرباءها آل فاناريوتوف • فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسية حين رجعت !

استقیظ الأمیر بعد انصرافها بنحو ساعة • وسمعت صوت آنینه من وراء الجدار ، فأسرعت البه فوراً • فوجدته جالســـاً على سریره بثوب

المنزل ، ولكنه كان قد بلغ من شدة الفزع من الوحدة وضوء المصباح الوحيد الحافت وهده الفرفة الغريبسة أنه حين دخلت عليه ارتمش وانتفض وصرخ • فهرعت اليه ، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا ، أخذ يقبّلني ودموع الفرح تنهمر من عينيه •

- ــ قيل لى انك تركت هذا البيت ، قيل لى انك خفت ففررت !
 - ... من قال لك هذا ؟
- ــ من ؟ دعنا ! لعلنى أنا الذى تخيلته ولعل أحداً قاله لى أيضاً لقد حلمت منذ قليل حلماً : رأيت شيخاً ملتحياً يدخل على فجأة وفى يده أيقونة محطومة نصفين ، ويقول لى : « هكذا ستتحطم حياتك ! ،
 - ـ لابد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة !
- ــ « أليس كذلك ؟ » ، نهم ، نعم ، علمت هــذا علمته في هــذا الصباح من داريا أونيسيموفنا لقد نقلت الى هنا حقيبتي وكلبي
 - ـ يا له من حلم غريب !
- ــ وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهــددنى بأصبعه ولكن أين آنا آندريفنا ؟
 - _ ستأتى حالاً •
 - هتف يسأله بألم :
 - _ من أين ؟ الى أين ذهبت ؟
- ۔ لا ، لا ، ســتكون هنــا حالا ً لقد طلبت منى أن أبقى معك لحظة •
- ــ « نعم » ، ستجىء اذن 'جن ً صاحبنــــا آندره بتروفتش ، « وبهذه المباغتة ، وبهذه السرعة ! ، لطالما تنبأت له بأنه سينتهى هـــذه النهاية اسمع يا صديقى •••

قال ذلك وأمسك ردنجوتي وشدني اليه ، وهمس :

مد جاه بنى المؤجس منذ قلبل بصور فوتوغرافية ، صور فوتوغرافية قذرة ، صور نساء ٥٠ نساء عاريات ٥٠ بأوضاع شرقية مختلفة ٥٠ وأخذ يرينى الصور في الضوء • فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً ، على مضض وكره • ولكن تلك هي الطريقة التي استعملوها مع ذلك المسكين ليجيثوه بنساء سيئات ، فيسكروه بسهولة أكبر ٥٠٠

ــ تقصد فون سون أيضاً ! دعنا من هذا يا أمير ! ان المؤجر رجل غبى لا أكثر •

ـ غبی لا أكثر ! د هذا رأیی ، • یا صــدیقی ، انقذنی من هــذا الكان ان استطعت !

قال ذلك وهو يضم يديه أمامي ضارعاً على حين فجأة • قلت :

۔ سأفسل كل ما أسستطيع يا أمير ! أنا لك ٠٠٠ عزيزى الأمبر ، انتظر ، قد أدبر جميع الأمور .

ـ • أليس كذلك ؟ » ، سوف نهرب ، تاركين الحقيبة هنا ، حتى يتخيلوا أتنا سنعود •

ــ الى أين نهرب؟ وآنا آندريفنا؟

۔ لا > لا > سنھرب مع آنا آندریفنا ۱۰۰ ہ آه ۱۰۰ عزیزی ۱۰۰ أحس بغلیان فی رأسی ۱۰ اسمع : ان هناك ، فی الکیس الذی علی الیمین ، صورة لکاتیا ۱۰ لقد دمست الصورة فی الکیس خفیة منذ قلیل ، حتی لا تراها هذه المرأة داریا أونیسیموفنا خاصة ! ۱۰۰ أخرج الصورة بسرعة ، ناشدتك الله ، وأحرص علی ألا یفاجئنا أحد ۱۰۰ ألا یمكن شد المزلاج فلا ینفتح الباب ؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صـــورة فوتوغرافية لكاترين نيقولايفنا

معلاً ، صورة ذات اطار بيضوى ، أخذها الشيخ منى ، وحملها الى الضوء ، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه الهزيلتين الشاحبتين ، وهنف يقول :

ـ « ملاك ، ملاك من السماء! » • أذنبت في حقها طول حياتي • والآن أيضاً! « ابنتي العزيزة » أنا لا أصدتي شيئاً ؛ لا أصدق شيئاً! قل لى يا صديقى : هل صحيح أنه براد ايداعى في ملجأ للمجانين ؟ « أقول أشياء حلوة ، فيضحك الناس كافة ، • • ثم يؤخذ هذا الرجل فجأة الى ملجاً للمجانين •

صحت أقول:

_ مستحيل • هذا الكلام خطأ • أنا أعرف عواطفها •

۔ أنت أيضاً تعرف عواطفها ؟ رائع ! ٠٠٠ أحييتنى يا صديقى ! ما أكثر الكلام الذى قالو. لى عنك ! استدع كاتيا الى هنا ، ولتتمانقا كلتاهما أمامى ، فآخذهما الى البيت ، ونطرد المؤجر .

قال ذلك ونهض وضم ً يديه ضارعاً ، ثم ركع أمامى على الأرض فجأة ، وأضاف يهمس بجزع مسعور ، مرتعشاً كورقة في مهب الريح :

ـ « عزيزى » ، أين سيحشرونني الآن ؟

فهتفت أقول وأنا 'أنهضه و'أجلسه على السرير :

ـ ألا تصدقني أنا أيضاً ؟ هل تَظن أنني أنا أيضاً مشـــارك في المؤامرة ؟ ألا انني لن أسمح لأحد هنا أن يلمسك بأصبعه .

فتمتم يقول وهو يشمد على كوعى ً بيديه شمهداً قوياً وما يزال يرتمش :

- « نعم » ، لا تسميح لأحــد ! لا تسلمني الى أحــد ! وأنت أيضاً

لا تكذب على من هنا ؟ اسمع : هذا المؤجر هيوليت ١٠٠ أو ما اسمه ؟ هل هو ١٠٠ طبيب ؟

ـ د کتور ؟

ــ وهنا ٥٠٠ أليس هنا ملجأ مجانين ، هنا ، في هذه الغرفة ؟

ولكن الباب 'فتح فى تلك اللحظة و دخلت آنا آندريفنا • لاشك أنها كانت تتصنت وراء الباب ، ثم نفد صبرها ففتحت فجأة ، فاذا بالأمير الذى كان يرتجف من أيسر صرير ، اذا به يصرخ فجأة ويغطس رأسه فى وسادته ، ثم اذا هو يعانى ما يشبه أن يكون نوبة عصبية انتهت ببكاء يصحبه نشيج • قلت لها وأنا أشير الى الشيخ :

ـ انظرى الى ثمرة عملك الجميل !

فقالت رافعة صوتها:

ـ بل هذه ثمرة عملك أنت • انى أتوجه اليك آخر مرة يا آركادى ماكاروفتش : هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التى 'دَّ برت لهذا الشيخ الذى لا يملك ما يدافع به عن نفسه ، وأن تضحى « باحلام حب جنونى صبيانى ، فى سبيل أن تنقذ « أختك أنت » ؟

.. سأنقذكم جميعاً ، ولكن على الوجه الذى ذكرته لك من قبل 1 اخسرج الآن بسرعة ، فقد أستطيع أن أجىء بكاترين نيقولايفنا الى هنا بعد ساعة ، فأصلح ما بينكم جميعاً ، وتسعدون جميعاً !

كذلك متفت كالملهم •

قال الأمير وقد ثاب الى نفسه أخيراً :

ـ جىء بھا ، جىء بھا الى هنـا • خذنى الى بيٹھا ! أريد كاتيا ، أريد أن أرى كائيا وأن أباركھا •

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيـــه ، وينهض عن سرير فقلت لآنا آندريفنا وأنا أشير اليه :

ـــ هل ترين ؟ هل تسمعين ما يقول ؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة . يكن من أمر !

۔ أرى • ولكن الونيقة لا تزال تستطيع أن تسوّغ سلوكى فى : المجتمع ، أما الآن فأنا مجللة بالحزى والعار ! على أن ضميرى نقى • تركنى الجميع ، حتى أخى الذى خشى الاخفساق ••• لكننى سسأ، بواجبى ، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمة وممرضة •

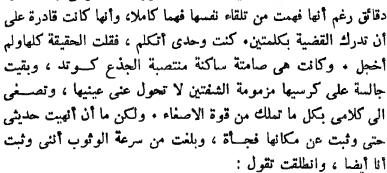
ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته • فخرجت من الغرفة سسرء وصرخت من العثبة قائلاً :

ــ سأرجع بعد ساعة ، ولن أرجع وحيداً .

الفصب ل الشايي عشر

•

وجدت تاتیانا بافلوفنا! فاندفعت أروی كلشی، دفعة واحدة ، فحكیت لها قصـة الوثیقة من أولها الى آخرها ، وحدثتها عما یجری عندنا تفصیلا ، وقد استغرق هذا العرض زها، عشر



ــ ٢ • • • يا وغد ! • • • اذن كانت تلك الرسالة مخيطة فى جيبك • • خاطتها تلك البنية الحمقاء ماريا ايفانوفنا ! آه يا نذل ، يا سافل ! اذن جئت الى هنا لتسيطر على القلوب ، ولتغزو المجتمع الراقى ، ولتلحق الأذى بأى ائسان انتقاما لكونك ابن زنا •

صحت أقول لها :

_ ناتیانا بافلوفنا، النی أمنعك من شتمی، ولعلك أنت، بشتائمك، منذ البدایة ، كنت سبب استعار نفسی هنا، نعم، أنا ابن زنا ، ولعلنی أردت فعلا أن انتقم لنفسی من ذلك بایذاء أی انسان ، مادام الشیطان

نصبه عاجزاً عن معرفة المذنب في هذا! ولكن تذكرى أنني نبذت تحالفي مع الأوغاد ، وأننى انتصرت على أهوائي الجامحة ا سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة ، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هي كلمة ، وستكونين على ذلك شاهدة ،

أعطنيها ، أعطنى الرسالة ، واعطنيها حــالا ، ضمهــا هنــــا على المائدة ! من يدرى ؟ لعلك تكذب !

_ هى مخيطة فى جيبى • ماريا ايفانوفنا خاطتها بيدها • فلما 'صنع لى هنا ردنجوت القديم وأعدت خياطتها بنفسى فى هــذا الردنجوت • هى ذى ، هنا ، أمسكيها ، جسيّها ، لست أكذب !

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة :

ـ أعطنيها اذن ! استحيها !

مستحیل • سأضعها أمامها بحضمورك ، وسأنصرف بدون أن انتظر منها كلمة واحدة • ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينيها أتنى أنا ، أنا نفسى ، الذى أرداها اليها ، بارادتى ، من غير اكراه ، وبدون جزاء •

ـ افتخاراً بنفسك ! انك لاتزال مولَّـها بالحب أيها الغر !

- صفينى بما تشائين من نعوت سيئة ، اننى استحق ذلك كله ، ولن أزعل ، لتحسبنى صبياً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها ، لتحسبنى ما تشاء ، ولكن فلتعترف بأننى سيطرت على نفسى ، وفضًلت سعادتها و هى ، على كل شىء فى هذا العالم! سيان يا تاتيانا بافلوفنا ، سيان ا اننى أهيب بنفسى قائلاً : عليك بالشيجاعة وعليك بالأمل! لمسل هذه خطوتى الأولى فى الحياة ، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة ، نهاية !

وتابعت أقول كالملهم وقد سطعت عيناى :

_ يم *** هبى أننى أحبها * لست أسعر من هـذا بعضها : ان ماما ملاك من السماء ، و « هى ، ملكة فى الأرض ! وسيعود فرسيلوف الى ماما ** فلست فى حاجه الى الحجل * لقد سمعت ما قالاه هناك ـ « هى ، وفرسيلوف ـ فقد كنت وراء السعارة * آه ** نعم ** اننا نحن الثلاثة « مصابون بعنون واحـد » * هل تعلمين من قال هـذه الجملة ؟ انه هو ، آندره بتروفتش ! وهل تعلمين أنها قد نكون هنا أكثر من ثلاثة ، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه ؟ نعم ، أراهن أنك أنت أيضا الرابعة ! هل تريدين أن أقول لك ما أعتقد به : أراهن أنك أنت أيضا قد تولهت طـوال حيـاتك بحب آندره بتروفتش ، وأنك ما تزالين موليّة ، بحبه الى الميوم ***

أعود فأقول اننى كنت أتكلم كالملهم ندفقاً ، وكنت سعيداً ، ولكننى لم أستطع أن أتم كلامى ، فهاهى ذى تانيانا بافلوفنا تمسك شسرى بحركة سريسة سرعة خارقة ، فتحنى رأسى الى الأرض مرتين ، بكل ما تملك من فوة ٠٠٠ ثم تتركنى حيث أنا ، وتنسسحب الى دكن ، فتضم وجهها على الجدار منطى بمنديلها ، وتقول لى باكية :

سافل! لا تقل لى مثل هذه الأشياء بعد الآن •

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه r فشدهت أشد الشد. • وبقيت متسمراً في مكاني أنظر اليها ولا أدرى ماذا يجب أن أعمل •

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكية في آن واحد :

ـ غبى ! تعالى ! تعالى قبتًل صديقتك العجوز البلهاء ! ولا تكرر هذه الأشسياء بعد اليوم أبدًا • انهى أحبك أنت ، ولقد أحببتك طول حياتى • • يا أبله !

قبَّلتها • وأحب أن أقول مستطرداً اتنا ـ أنا وتاتيانا بافلوفنا ـ قد أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين •

وهتفت تقول فجأة وهي تلطم جبينها :

۔ ولکن ما بقائی ہنا؟ قلت لی ان الأمیر العجـوز فی بیتـك؟ هذا صحیح ؟

_ أؤكد لك •

فجمجمت تقول وهي تركض في الغرفة كفأرة :

ــ آه ••• رباه ! لشــدما يوجع قلبى ! هكذا يعاملونه اذن منــذ الصباح ! ان البلهاء لا يعاقبون اذن قط ! هل ارتاحت الآن آنا آندريفنا ؟ يا لها من راهبة ! والأخرى ، الـ « ميليتريا » ، لا تعرف شيئاً !

_ ما میلیتریا ؟

ــ الملكة فى الأرض ، المثل الأعلى ! ما العمل الآن ؟ متفت أقول وقد ثبت الى رشدى :

- تاتيانا بافلوفنا • لقد استرسلنا في سيخافات ، ونسينا الشيء الأسياسي : لقد جثت باحثاً عن كاترين نيقولايفنيا ، وهم ينتظرونني هناك !

وشرحت لها أننى سأستّلم الوئيقة الى كاترين نيقولايفنا مشترطاً عليها أن تعدنى بمصـالحة آنا آندريفنـا فوراً ، بل بالموافقة لهـا على زواجها ٠٠٠

فقاطعتني تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- هذا حسن جداً • أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة • ذلك أنه سيموت قبل أن يتم الزواج ؟ انه لن يتزوجها ، واذا أورثها في وصيته بعض المال ، فلاشك أن هذا كتب في الوصة منذ الآن •••

- ــ هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترين نيقولايفنا ؟
- .. لا ، وانسا هي كانت تخشي دائماً أن تكون الوثيقة عندها ، عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً فكنا نراقبها هي كانت البنت لا تريد أن تصدم أباها الشيخ أما فيما يتعلق بالألماني بيورنج ، فان المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً
 - ــ وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنج ؟
- ـ ما حيلتنا مع غبية ؟ الغبى يبقى غبياً طول حياته على كل حال ، سيهى، لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة « لابد أن أنزوج أحداً ، فأى فرق بينه وبين غيره ؟ ، هـذا ما تقوله وسـوف نرى ما يحدث لسوف تمض على أصابمها ندماً ، ولكن بعد فوات الأوان •
- ... فلمساذا تسمحين لها بهذا ؟ انك تحبينها ، حتى لقد أعلنت لها أنك مغرمة بها •
- ـ مغرمة ، نعم ٥٠٠ اننى أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين ٥٠٠ ولكن هذا لا ينفى أنها بلهاء جداً !
 - _ هلمي اليها حالاً سنتخذ قراراً ونقودها الى أبيها •
- ــ ولكن هذا مستحيل ، مستحيل يا غبى ! هذا بعينــه ما هو مستحيل ! آه ••• ما العمل ؟ اتنى أشعر بدوار •
 - وطفقت تنحرك في الفرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها •

قالت:

- ــ آه • لو أنك أتيت قبل أدبع ساعات • الساعة الآن هي السابعة وتزيد قليلاً لقد ذهبت الى آل بلتشيف تتفدى عندهم ، ثم تصحبهم الى الأوبرا •
- ــ فماذا لو ركضنا الى الأوبرا ؟ ٥٠ لا ٠٠ هذا مستحيل ٠ ولكن ما عسى يحدث للمحبوز ؟ انه قد يموت فى هذه الليلة ٠

ـ اسمع • لاتذهب الى هنساك ، بل اذهب الى ماما ، وغدا ، فى ساعة مبكرة من الصباح • • •

- لا مستحیل ، لن أترك الأمیر بحال من الأحوال مهما یحدث!

- انك علی حق ، لا تتركه ، ولكننی أنا ، ۱۰ سأجری البها رغم كل شی ، ، فأترك لها كلمة ، ۱۰ سأكتب برموزنا الحاصة (وستفهم هی) أن الوثيقة موجودة ، وأن عليها أن تجی الی حتماً فی الساعة العاشرة تماماً من صباح الغد ، اطمئن ، ستجی ، ستسمع لی ، وعندئذ سنسو ی كل شی ، اذهب أنت الآن الی هناك ، ودبتر أمرك مع العجوز ، ۱۰ أرقد ، ۱۰ فقد يقاوم الموت الی الغد ، ولا ترعب آنا آندريفنا ، ذلك أنني أحبها هی أیضاً ، أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم : لقد أوذیت وأهینت ، أوذیت وأهینت منذ طفولتها ، آه ، م ما أكثر ما رأیت منسكم وأهینت ، أوذیت وأهینت منذ طفولتها ، آه ، م ما أكثر ما رأیت منسكم بنفسی ، فأمسكه بیدی سعیدة بذلك ، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبریاؤها بسو، ، ذلك أننا تشاجرنا فی الأیام الأخیرة ، وتشاتمنا ! فاركض البها ، بسو، ، ذلك أننا تشاجرنا فی الأیام الأخیرة ، وتشاتمنا ! فاركض البها ، بل انتظر ، ، أرنی جیبك ، ، هل ما قلته صحیح ؟ صحیح حقا ؟ هـ ه ؟ بل انتظر ، ، أرنی جیبك ، ، هل ما قلته صحیح ؟ صحیح حقا ؟ هـ ه ؟ مل مو صحیح حقا ؟ أعطنی الرسالة اذن ، أبقیها معی هذه اللیلة فحسب ، هل مو صحیح حقا ؟ أعطنی الرسالة اذن ، أبقیها معی هذه اللیلة فحسب ، هل مو صحیح حقا ؟ أعطنی الرسالة اذن ، أبقیها معی هذه اللیلة فحسب ، هل مو صحیح حقا ؟ أعطنی الرسالة اذن ، أبقیها معی هذه اللیلة فحسب ، هل مو صحیح حقا ؟ أعطنی الرسالة اذن ، أبقیها معی هذه اللیلة فحسب ،

ــ ستحيل ! أمسكى ، جسِّى ، شوفى ! لكننى لن أتركها لك بحال من الأحوال •

هل في هذا ما يضرك ؟ اتركها عندي • لن آكلها • من الحائز أن تُضِّمها

جستَت تاتيانا بافلوفنا جيبي بأصابمها ، فقالت :

في هذ. الليلة ٥٠ أو أن تغير ّ رأيك !

ــ نمة ورقة حقاً • طيب • اذهب • هيئًا • وسأتب أنا الى السرح• فكرتك تلك حسنة • ولكن اركض ، ما بالك لا تركض •

ـ تاتيانا بافلوفتا ، لحظة ! كيف حال أمي ؟

- _ حسنة •
- ــ وآندره بتروفتش ؟

فيحركت يدها باشارة تهراب ثم قالت:

ــ سيسترد عقله ٠

فانصرفت مسرعاً وقد تشنجت وامتلأت نفسى رجاءً وأملاً ، رغم أن النتيجة كانت غير ما توقعت •

ولكن القدر كان قد شاء أن تنجرى الأمور مجرى آخر ، وكنت أجهل ما هيأه لى • حقاً ان على هذه الأرض قدراً •

سمعت في بيتنا جنبة" وأنا على الســـلم • كان باب البيت مفتوح وفي الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية • وكان بطرس هيبوليتوذ وامرأته واقفين كذلك في الدهليز ينظـران مذعورين • ان باب غــ الأمير مفتوح : وفي داخل الفرفة يجلجل صوت راعد سرعان ما عرفة انه صوت پیورنیم • وما ان خطوت خطوتین حتی رأیت بیورنیم پیم الأمير الى الدهلمز ، هو ورفيقه السارون « ر ••• » الذي سبق أن يفاوض فرسلوف • كان الأمير غارقاً بدموعه ، يرتجف ويشهق ويد بيورنج ويقسُّله • وكان بيورنج يزعق صارخاً في وجه آنا آندريفنا ا خرجت هي أيضاً الى الدهليز تتبع الأمسير • وكان بيورنج يهــدد يتصرف تصرف جندى ألماني فظ ، رغم كل « المجتمع الراقي الا ينتمي الله ، • وقد 'عرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندريفنا قد ارتك جريمة من جرائم الحق العمام ، وأنهما يجب أن تحاسب الآن على ه الجريمة أمام القضاء • كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها ، ﴿ دون اکتراث بأی شیء ، ودون مراعاة لأی اعتبار . لا سیما وأنه يتح له الوقت الكافى لتممق المسألة : لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوة صاحبها ، تبلغه كل شيء ، كما ظهــر ذلك من بعد (وكما سأذكر ب قليل) ، فهــرع وهو على هذه الحــالة من الغضب المسعور التي يمك أن ينحدر اليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألماني

فاذا هم لا يفوقون في سلوكهم اسكافياً من الاسكافيين • وقد استقبلت آنا آندريفنا هذه الهجمة بوقار كبير ، لكنني لم أشهد هذا • وانما رأيت بيورنج ، بعد أن جس العجوز الى الدهليز ، يسلسمه فجأة الى البارون « ر • • • » ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندريفنا فيرشقها بالجملة التالية (ربما جواباً على ملاحظة منها):

ـ أنت الذي تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموء الى الجنون دفعاً ٠٠٠ ثم تجيء تنتقم منى لأتنى امرأة ليس لها من يدافع عنها ٠٠٠

فقال بيورنيج ساخراً غاضباً ، بلهجة سيثة :

ــ آ ٠٠ نعم ٠٠ أنت خطيبته ، خطيبته ! ٠٠

قال الآمير دامع العينين :

ـ بارون ۰۰۰ ب**ارون ۰۰۰**

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندريفتا :

ـ « أحبك يا ابنتي العزيزة » !

فصرخ بيورنج قائلاً :

ـ. دعك يا أمير ، ان هناك مؤامرة عليك ، وربما على حباتك !

_ د نعم ، نعم ، أفهم ، فهمت منذ البداية ، ٠٠٠

قالت آنا آندريفنا رافعة صوتها :

ــأمير ، انك تهينني ، وتسمح لغيرك بأن يهينني !

فصرخ بيورنج قائلا لها فجأة :

_ اخرجی من هنا ا

فلم أستطع صبرآ • فرأرت أقول له :

_ وغد •

وأضفت أخاطيها :

_ آنا آندریفنا ، أنا أدافع عنك •

ليس في نيني ولا في وسعى أن أسجل جميع التفاصيل • لقد كان مشهداً رهساً دنیشاً • فقدت صوابی فجأة • أظن اننی هجمت علیه فضربت ، أو صدمته صدمة قوية على الأقل ، فضربني على رأسي بكل ما أوتى من قوة ، فاذا أنا أسمعط على الأرض ، فلما ثبت الى نفسى ، اندفست اطاردهم على السملم • أذكر أن الدم كان يسميل من أنفى • وكانت تنتظــرهم عند البــاب عــربة ففيما كانوا 'يركبون الأمير ، وثبت الى العربة ، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الحادم كان يبعدنى وينحنى • لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة • ولكن ببورنج أمسك ياقتي وأصدر الى الشرطي أمراً صارماً بأن يقتادني الى المخفر • فصرخت أقول ان من الواجب أن يجيء هو أيضاً الى المخفر لتسجيل محضر ، وانه ليس من الحق أن 'أعتقل وأنا في بيتي تقريبًا • ولكن لما كان المشهد قد حدث في الشمارع لا في البيت ، ولما كنت أصرخ وأشمتم وأتخبط كسكران ، ولما كان بيورنسج مرتديًّا بزته العسكرية ، فقد قبض على ًّ الشرطى ، فاذا أنا يجن جنوني فعلاً ، فأقاوم الشرطى بكل ما أملك من قوة ، حتى لقد ضربته فيما أظن • وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك ، فاقتساداني • ولكنني لا أكاد أنذكر كيف 'أدخلت الى غسسرفة يملؤها الدخان ، وتفسد جوَّها رائحة التبغ ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضسهم واقف ، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب • وهناك أيضاً ظللت أزعق مطالباً بكتابة محضر ، فبذلك تمقدت القضية اذ دخلها عنصر مقارمة السلطة والتمرد عليهما • وكان هندامى قد سماء كثيراً • ونهرنى أحدهم نهراً عنيفاً • وأخذ شرطى يتهمنى بمشاجرة استعملت فيها الضرب ، وطفق يحكى القصة فقال : كان كولونيل • • • الخ • • •

صرخ أحدهم يسألني:

_ ما اسمك ؟

فزعقت أقول:

... دو لجورو کی •

_ الأمير دولجوروكى ؟

فأخرجنى هذا السؤال عن طورى وأفقدنى رئسدى ، فأجبت بشتائم فاحشه ، م ، ثم ، ثم ، أتذكر أثنى أجررت الى حجرة مظلمة « لأفيق من سكرى ، و لا ، لست أحتج و لقد قرأ جميع الناس فى الصحف فى الآونة الأخيرة شكوى سيد قضى ليلة كاملة فى المخفر ، وكبال بالسلاسل فى غرفة « الصحو من السكر ، وكان ذلك الرجل بريئا براءة تامة ، أما أنا فقد كنت مذنبا و تهالكت على مرقد الى جانب شخصين كانا نائمين كجئتين هامدتين من فرط السكر و كنت مصابا بصداع ، وكان صدغاى ينبضان ، وكان قلبى يدق دقاً قوياً و وأغلب الظن أننى قد أغمى على أن وأخذت أهذى و لكننى أتذكر اننى استيقظت فى وسط الليل ، فجلست على المرقد ، فتذكرت فجأة كل شى ، وأدركت كل شى ، وغير عبيق ، وغرقت فى تفكير عميق ،

لا ، لن أصف هنا عواطفی ، فلیس فی الوقت متسع لذلك ، ولكننی أريد أن أسجل ما يلی : لعلنی لم أعش فی حیاتی كلها لحظات أحفال بالفرح من تلك الدقائق التی قضیتها مفكراً ، فی اللیال الممیق ، علی المرقد الحجری ، بمخفر الشرطة ، قد یسدو هذا للقادی، أمراً غریبا

والتفرد وولكن ما أقوله هو الحقيقة • تلك لحظة من اللحظات التي قد يمر بها كل انسان ، ولكن مرة ً واحدة في حياته . ففي تلك اللحظة يقرر مصيره ، ويحدد آراءه ، ويقول لنفسه الى الأبد : « انظر أبين هي الحقيقة ، وانظر أين يجب أن تنشدها ، • نعم ، لقد أضاءت تلك اللحظة نفسى • كنت أعلم حق العلم ، بعد أن أهانني ذلك الرجل الوقح بيورنج، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمي الى المجتمع الراقى ستهينني أيضاً في الغد ، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً ، ولكنني فروت ألا أنتقم • وقررت ، رغم الاغراء ، ألا أكشف عن الوثيقة ، وألا أطلع عليهـا الناس (كمـاكانت تدور هـذه الفكرة في رأسي) ، وأخذت أكرر على نفسى أننى سأضع الوثيقــة أمامهــا منذ الغد ، وأننى قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر ، غير أنني ، رغم كل شيء ، لن أقول كلمة واحدة ، وسأتركها الى الأبد ٠٠٠ ولكن لا داعي الى الالحاح • أما ما سيحدث غداً حين أساق الى السلطات ، وما سميصنع بى ، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه • ورسمت على نفسي اشارة الصليب بارتياح ومحبة ، واضطجعت على المرقد ، ونمت نوماً مضيئاً كنوم الأطفال •

ولم أستيفظ هي الغد الا ضميعي • أنا الآن في الحجرة وحيد • المحلست • وأخذت أتنظر صامتها • النظرت مدة طويلة • قرابة ساعة • وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت الناسعة حين نوديت • في وسعى أن أذكر تفاصيل كثيرة • ولكن لا داعي الى ذلك ، مادامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن • وحسبي أن أشير الى الشيء الأساسي • ما كان أشد دهشتي حين رأيتهم يعاملونني بدمائة غير معهدودة : ألقوا على عضعة أسئلة ، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن ، ثم أطلقوا سراحي فورا • خرجت صامتاً • وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت في أعينهم دهشتهم من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره في مثل الظرف الذي هو

فيه • لقد رأيت هذه الدهشسة ، ولولا أننى رأيتها لما سجلتها • وكانت تاتيانا بافلوفنــا تنتظرنمى أمام البــاب • وسأشرح الآن كيف أمكن اخلاء سبيلى بمثل هذه السهولة •

فى ساعة مبكرة من الصباح ، فى نحو السباعة الثامنة ، هرعت تائيانا بافلوقنا الى بيتى ، أعنى الى بيت بطرس هيبوليتوفتش ، آملة آن تجد الأمير هناك ، فاذا هى تعلم بكل ما وقع فى الليلة البارحة من أهوال ، واذا هى تعلم خاصة بأننى اعتقلت ، فما هى الا طرقة عين حتى كانت عند كاترين نيقولايفنا (التى التقت بأيها منذ الليلة البارحة عند عودتها من المسرح ، اذ جى به الى بيتها) ، فأيقظتها من نومها ، وأخافتها ، وطالبت بالافراج عنى فورآ ، فزو دتها كاترين نيقولايفنا ببطاقة طارت بها فورآ الى بيورتيج تطلب منه بطاقة أخسرى فى الحال ، موجهة الى ه من يهمه الأمر ، ، مشتملة على « رجاء الافراج عنى بنير ابطاء لأننى اعتقلت خطأ ، ، وبهذه البطاقة وصلت الى مخفر الشرطة ، فتمت تلبية الرجاء ،

الآن أعود الى النقطة الأساسية •

أمسكت تاتيانا بافلوفنا ذراعى ، وأركبتى عربة ، وقادتنى الى بيتها ، وهنساك أمرت بسسماور الشساى حالا ، ورتبت هندامى ، ونظفتنى فى المطبخ ، وفى ذلك المطبخ نفسه قالت لى بصوت عال ان كاترين نيقولايفنا متصل اليها بنفسها فى الساعة الحادية عشرة والنصف لترانى (اتفقتا على ذلك منذ قليل) ، وقد سمعت مارى هذه الكلمات ، فبعاءتسا بالسماور بعد دقيقية ، ولكن حين نادتها تاتيانا بافلوفنا بعد دقيقين ، لم تجب ، اذ كانت قد خرجت من البيت ، أرجو القارىء أن يبقى هذا الأمر ماتلا فى ذهنه ، أطن أن الساعة كانت فى نحو العاشرة الا ربعا ، وقد غضبت تاتيانا بافلوفنا من غياب مارى بدون اذن منها ، ولكنها قالت لنفسها انها ذهبت الى المتجر ، ثم لم تخطر لها على بال ، كان لدينا أشياء أخرى نفكر فيها ، كنا تتكلم بدون توقف ، لأن هناك ما نتكلم فيه ، حتى اننى لم أنتبه الى اختفاء مارى ، ولكنى أرجو القارىء أن يبقى هذا الأمر ماثلا فى ذهنه ،

كت كالمخبول طبعاً • وكنت أتحدث عن عواطفى • وكنا انتظر كاترين المقولا يفنا خاصه • وكنت أرتعش حين أتصور أننى سألقاها بعد ساعة ، وأننى سألقاها هى مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتى • وأخيراً ، بعد أن حسوت فنجانين من الشباى الهضت تاتيانا بافلوفنا فجأة ، وتناولت المقص من على الطاولة وقالت لى :

... هات جيبك • يجب سحب الرسالة الآن • فلبس يمكننا أن تقس الجيب بحضورها 1

فهتفت أقول وأنا أحل أزرار ردسجوتي :

- ـ نعم •
- ـ ما هذه الخياطة المشربكة ؟ من خاط هذه الخياطة ؟
 - ــ أنا يا تاتيانا بافلوفتا ، أنا نفسي !
 - ـ واضح أنك الذى خطت !

وسحبت الرسالة • كان الظرف هو الظرف نفسه • ولكن لم يكن في الظرف الا ورقة بيضاء •

هتفت تاتيانا بافلوفتا قائلة وهي تقلب الورقة على جميع الوجوه :

ـ ما ممنى هذا ؟ ما هذا الذي معك ؟

كنت واقفاً مشلول اللسان ، أصفر الوجمه ٠٠٠ وتهالكت على الكرسي خاثر القوى فحاًة وكاد 'يغمى على ":

أعولت تاتبانا بافلوفنا تقول :

ـ وما معنى هذا أيضًا ؟ أين الرسالة ؟

فصرخت أقول بغتة وأنا انتفض :

ــ لامير!

لقد حزرت' أخيراً ، ولطمت جبينى بيدى ، وأخذت أشرح لها بسرعة كلَّ شىء ، وأنا متقطع الأنفاس ، فحدثتها عن الليلة التى بت فيها عند لامبير ، وعن المؤامرة التى حكناها حينذاك ، وكنت على كل حال قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس ،

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدميٌّ وأشد شمر رأسي بيدى :

ــ سرقوها مني ! سرقوها مني !

فقالت تأتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:

- _ يا للمصيبة ! كم الساعة الآن ؟
 - ـ الحادية عشرة تقريبًا •
- ـ ومارى التي ليست هنا! يا ماري! ماري!

فأجابت مارى فجأة من قرارة المطبخ :

ـ ماذا ترید مولاتی ؟

ــ أنت هنــا ؟ ولكن ما العمل الآن ؟ سأنب الى عندها •• وأنت يا من لا تصلح لشيء !

انا أذهب الى لامبير • لأذبحنَّه اذا لزم الأمر •

ولكن مارى صاحت تقول من المطيخ :

ــ مولاتی ، ان « واحدة » تسأل عنك .

وما كادت مارى تنهى جملتها حتى دهمتنا تلك « الواحدة » من تلقاء نفسها صادخة " معولة • انها آلفونسين • لن أصف المشهد بجميع تفاصيله • كانت تلك خدعة وأكنوبة ، ولكن يبجب أن نسرف لآلفونسين بأنها أجادت التمثيل اجادة هائلة • ردت آلفونسين ، وهى تذرف دموع الندم و وحرك يديها بانسارات محمومة ، ردت (بالفرنسية طبماً) أنها هى التي سرقت الرسالة ، وان الرسالة الآن عند لامبير ، وأن لامبير ، بالتواطؤ مع ذلك • الرجل الأسود » • قاطع الطرق ، ، يريد استدراج « السيدة الجنرالة ، الى بيته ، ليقتلها فوراً ، بعد ساعة • • • وأنها سمعت هذا كله من فميهما ، فاعتراها ذعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس ، فهرعت الى هنا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين بيقولا يفنا ، لنوقيها فهرعت الى هنا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين بيقولا يفنا ، لنوقيها المقتل • • • « ذلك الرجل الأسود » • • •

الحلاصة أن ذلك كله بدا لنـا جائزاً جـداً ، حتى ان السخافة والحماقة في بعض شروح آلفونسين كانت تقويّى جوازم .

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها:

- _ أي « رجل أسود » ؟
- ــ د نسيت اسمه ٠٠ رجل فظيع ٠٠ تعم ٠٠ اسمه فرسيلوف ٠٠

فهنفت :

_ فرسيلوف ؟ مستحيل ا

فصرخت تاتيانا بافلوفنا :

_ بل يمكن أن يفعلها ! ولكن قولى لى يا « سيدة ، ، بدون وثب وتط ، وبدون تحريك الذراعين والرجلين ، ماذا يريدان أن يفسلا ؟ اشرحى شرحاً معقولاً : اللى لا أستطيع أن أصد في أنهما يريدان أن يطلقا عليها الرصاص ٠٠٠

فأخذت و السيدة ، تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً كما سببقى وراء الباب ، وان لامبير سيريها هذه الرسالة ، متى دخلت ، وعند تذييب فرسيلوف ف ٠٠٠ و فينتقمان منها ، و وانها ، هى آلفوسين ، تخشى أن تحل بها كارثة ، لأنها كانت شريكة متواطئة ، ولأن تلك و السيدة الجنرالة ، ستأتى حتماً ، وعلى الفور ، على الفور ، ، لأنهما أرسلا اليها نسخة من الرسالة ، فسوف ترى حالا أن الأصل فى حوزتهما فملا ، قلا بد أن تأتى ، ولامبير وحده هو الذى كتب لها الرسالة ، فهى لا تعرف شيئاً عن قرسيليف ، وقد عرق لامبير نفسيه بأنه رجل أوفدته من موسكو ، سيدة بموسكو و لاحظوا : ماريا ايفانوفنا !) ،

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول :

_ آم • • أشعر بألم في قلبي • • أحسن بتدهور في صحتى ! • • وصرخت آلفونسين :

ـ ﴿ أَنْقُدُوهَا ! أَنْقُدُوهَا ! ﴾ •

لانك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة ، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه ، لأنه كان يبدر جائزاً كل الجواز حقاً • وكان في وسيعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترين نيقولايفنا بنا أولا ، أى أن تعجى، أولا الى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لامبير ، لتستجلي الأمر • ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث ، فقد تذهب اليها رأساً ، فتهلك ! • • وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصد ق أن ترتمي هذا الارتماء على رجل مجهول مثل لامبير ، استجابة "لأول نداء منه • ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً ، بعد أن ترى تسخة الرسالة ، فتقتنع بأن الأصل موجود عنه فسلا ، فتذهب اليه فتقع الكارثة • وكان الوقت شديد الضيق خاصة "، فما ينبغي أن نضيع منه دقيقة واحدة في التفكير •

وحتنت أقول :

قالت تاتيانا بافلوفنا وهي تعقف يديها :

.. آه ! • • • هو « الشّل » • هلـم ً بنــا • لابد ! خـند قبعتك ومعطفك ، ولنذهب الى هنـاك معـا • قودينا يا سيدة • آه • • ما أبعد المكان ! يا مارى ، مارى ! اذا جاءت كاترين نيقولايننا فقولى لها اننى راجعـة حالاً ، فلتجلس ولتنتظرني ، واذا أبت أن تنتظـر فأقفلي الباب بالمناح ، واحبيسها عن الحروج عنوة ً • قولى لهـا اننى أنا التى أمرت بهذا • سأعطيك مائة ووبل يامارى اذا أنت صنعت لى هذا المعروف •

واندفعتا الى السلم • لانسك أن هدذا خير ما يمكن عمله ، لأن البلاء الأكبر عند لامبير ، فاذا اتفق أن جاءت كاترين تيقولايفنا الى تاتيانا بافلوفنا أولا ، فسيكون في وسم مارى أن تحتجزها • ومع ذلك فان بافلوفنا غير أن رأيها فعجاة ، وغم أنها كانت قد نادت حوذيا • فالت وهي تتركني مع آلفونسين :

ــ اذهب أنت معها • ومت هناك اذا لزم الأمر ، هل تفهم ؟ وسألحق أنا بك • أما الآن فاتنى سأثب الى بيتها ، فقد أجدها هنــــاك ، لأن الشكوك لا تزال تساورتى ، مهما تقل !

وطارت الى بيت كاترين نيقولايفنسا • وركفسنا أنا وآلفونسسين الى بيت لامبير • كنت أستحث الحوذى على الاسراع ، وأستمر فى القاء الأسئلة على آلفونسين فى الوقت نفسه ، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب الا بصبيحات وتأوهات ، وطنقت تبكى آخسر الأمسر • ولكن القدر كان يحرسنا ، فحمانا جميعاً حين كان كل شىء معلقاً بعضط واهن • فيما ان قطعنا ربع الطريق حتى سمعت صرخة ورائى تنادينى باسمى على حين فعاة ، فالنفت ، فاذا أنا أدى دتريشاتوف يلحقنا بعربة • صاح مرتاعاً :

ـ الى أين ؟ ومعها ، مع آلفونسين ؟

فصحت أقول له :

_ لقد صدقت فيما قلت يا تريشـــاتوف : ان كارثة ستقع ! اننى ذاهب الى ذلك الوغد السافل لامبير ا فتمال معى ، فيكون عددنا أكبر !

فصرخ تريشائوف قائلاً :

ـ بل ارجع ، ارجع حالاً • لامبير بكذب ، وآلفونسين تكذب أيضاً • المجدور هو الذي أرسلني • ليسا في البيت : لقد لقيت لامبير وفرسيلوف منذ هنيهة • لقد ذهبا الى بيت تاتيانا بافلوفنا • • • وهمسا الآن هناك • • •

أوقفت العربة ، وقفزت الى عربة تريشاتوف ، مازلت لا أدرى كيف اتخذت ذلك القرار فجأة ، ولكننى صدّقت تريشا وف ، فسرعان ما عزمت أمرى ، أخذت آلفونسين تطلق صرخات رهيبة ، ولكننا تركناها فلا أدرى هل تبعننا أم هى رجعت الى بيتها ، ولكننى لم أرها بعد ذلك على كل حال ،

وفى العربة ، أفضى الى تريساتوف ، كيفما اتفق ، وهو يلهث ، بأن مكيدة قد 'د برت ، وأن لامبير اتفق مع المجدور ، ولكن المجدور خان لامبير فى آخر دقيقة ، فأرسله ، هو تريشاتوف ، الى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليها ألا تصدق لامبير وآلفونسيين ، وأضاف تريشاتوف أنه لا يعرف غير هذا ، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئا ، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الايضاح ، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضا ، لأن القضية كلها توجب الامراع ، وتابع تريشاتوف كلامه فقال : « رأيت أنك ذهبت فجريت أنبعك ، ، كان واضحاً اذن أن المجدور يعرف كل شيء هو أيضاً ، مادام قد أوسل تريشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً ، هيء هو أيضاً ، مادام قد أوسل تريشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً ،

ومن أجل ألا تختلط الأفكار ، سسوف أعمد الآن ، قبل وصف الكارثة ، الى شرح الحقبقة الصادقة كلها ، مستبقاً الأحداث آخر مرة .

بعد أن سرق لامبير الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف و أما كيف أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبير ، فهذا ما لا أقوله الآن ، وانما أرجئه الى حينه و انه « المسل » على كل حال ! ولكن كان على لامبير ، بعد أن تحالف مع فرسيلوف ، أن يستدرج كاتريين نيقولايفنا بأسلوب حاذق بارع وو لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتى و ولكن لامبير ، منذ أن لقيته في الشارع امس الأول ، وأعلنت له متباهيا متفاخراً أتني سأرد الرسالة الى كاترين نيقولايفنا في بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تانيانا بافلوفنا ، قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا فاقلوفنا : اذ اشترى مارى بمشرين روبلا و فداة غد ، بعد ان تمت سرقة الرسالة ، زار مارى مرة أخرى ، وتفاهم معها تفاهما كاملا ، اذ وعدها بمائني روبل ثمنا لما ستقدمه له من خدمات و

ذلكم هو السبب في أن مارى ما ان سسمعت أن كاترين يقولايفنا سستكون عند تاتيانا بافلوفنا في الساعة الحادية عشرة والنصف وأننى مأكون أنا أيضساً عندها ، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة وأسرعت تحمل النبأ الى لامبير ٠٠ هذا بسنه هو ما كان عليها أن تخبر به لامبير ، هذه هي الحدمات التي كان يجب عليها أن تقدمها له ٠ واتفق أن كان فرسيلوف في تلك اللحظة ذاتها عند لامبير ٠ فما هي الاطرفة عين حتى تخيل تلك الحفلة الجهنمية ٠ يقال ان المجانين يكونون في بعض اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكراً ٠

وكانت الحطة هي أن نسستدرج ، أنا وتاتيانا ، الى خسارج المسكن بأية وسميلة من الوسمائل ، ولو ربع َ سماعة فقط ، ولكن قبل وصمول كاترين نتقولايفنا ؟ وأن ينتظراهما في الشارع ، فمتى خرجنا أنا وتاتيانا بافلوفنا دخلا الى البيت الذي ستفتحه لهما مارى ، وانتظرا وصول كاترين نىقولايفنا • وفى أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة في أي مكان تشاء ، وبأية وسيلة تراها • واذ أن كاترين نيقولايفنا ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف ، كما وعدت بذلك ، فانها سنصل اذن قبل أن نستطيع لمحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاثرين ليقولايفنا أية دعوة من لامبير ، لقد كذبت آلفونسين : ان هذه القصة كلها انما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها • ولم نزد آلفونسين على أن مثَّلت دور الخائن الذي يبخون من شدة فزعه) • ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للاخفاق ، ولكن تفكيرهما كان سليماً : ، اذا نجحت الحطة كان بها ، واذا لم تنجح فلا نفقد شــيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا » • وُلكن الحطة نجحت ، وكان لايمكن الا أن تنجح ، لأنسا كنا لا نستطيع الا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض : « ماذا لو صحٌّ ما تقوله ؟ » • أعود فأقول : ان وقتنا لم يتسع للتفكير •

داهمنا المطبخ أنا وتريشاتوف ، فوجدنا مارى شبه ميتة من الحُوف ، لقد أرعبها ، حين أدخلت لامبير وفرسيلوف ، أن وأت بين يدى لامبير مسدسا على حين فجأة ، لئن قبلت من لامبير مالا ، فان المسدس لم يدخل في حسابها قط ، فكانت مضطربة أشد الاضطراب ، فما ان وأتنى حتى ارتمت على وقالت :

ــ الجنرالة جاءت ، ومعهما مسدس !

قلت آمر تریشا**توف :**

ــ تریشاتوف ، ابق أنت هنــا فی المطبخ ، فمتی صرخـُـت أنادیك هرعت َ الی نجدتی بكل ما أوتیت من قوة ،

وفتحت لى مارى باب الدهليز ، فتسللت الى غـرفة تاتيانا بافلوفنا ، الى تلك الغرفة الصغيرة التى ليس فيهـا مكان الا لسرير تاتيانا بافلوفنا ، والتى سبق لى ذات مرة أن تنصت منها على حديث ، جلست على السرير ، وأسرعت أذيح الستارة قليلا ،

وكان فى النسرفة جلبة منذ ذلك الوقت ، وكان الحديث يجسرى بصوت عال ، يجب أن أذكر أن كاثرين يتعولايفنسا قد وصلت يعدهما بدقيقة واحدة ، وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن دخلت المطبخ ،

كان الصياح يصدر عن لامبير • كانت هي جالســـة على الديوان وكان هو متسمرا أمامها يصرخ كأبله • انني أعلم الآن لماذا فقد هدوم

بهذا الغباء: لقد كان على عجلة من أمره بم كان يخشى ان يفاجآ • وكانت الرسالة فى يده • لكن فرسيلوف لم يكن بالغرفة • وقد تأهبت للوثوب عند أول خطر • وهأنذا أروى معنى الأحاديث التى جرت بينهما ، ممناها فحسب • ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً • ولكنمى كنت عندئذ أشد انفعالا واضسطراباً من أن أسستطيع حفظها بدقة •

ــ هذه الرسالة تساوى ثلاثين ألف روبل • هل تدهشين ؟ الحق أنها تساوى ماتة ألف ، لكنني لا أطلب الا تلاتين ألفاً •

كذلك قال لامبير بصوت عالى مندفعاً اندفاعاً رهيباً • فكانت كاترين نيقولا بفنا ، رغم ذعرها الواضح ، تنظر اليه بازدراء واحتقار • قالت :

_ واضح أن ههنا فخاً ، فلست أفهم شيئاً • ولكن اذا كانت تلك الرسالة معك حقاً • •

فقاطعها لامسر قائلا:

ـ خذى ! هي ذى ! انظرى اليها ! انظرى اليها ! ألســـت هي نفسها ؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً ••

_ لست أحمل مالا •

ــ اكتبى سنداً • اليك ورقة • وبعد ذلك تجيئننى بالمال ، وسوف أنتظر أسبوعاً لا أكثر • فمتى جئتنى بالمال رددت اليك السند والرسالة •

انك تكلمنى بلهبجة سخيفة • وانك لمخطىء • سوق تؤخذ منك
 هذه الوثيقة متى شكوتك ••

لن ؟ هأ هأ هأ ! والفضيحة ؟ والرسالة التى سلطلع عليها الأمير ؟ وكيف يمكن أن تؤخذ منى ؟ اننى لا أحتفظ بوثائق فى بيتى ٠ وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث ٠ لا تعندى يا سيدتى ، اشكرى

لى اننى لا أطلب الا مبلغاً زهيداً • لو كان فى مكانى رجل آخر لطلب منك خدمات أخسرى تعرفين ما هى ! انها الحدمات التى لا ترفض أية امرأة جميلة أن تقدمها فى حالة صعبة وظرف حرج • أعرفت ما هى تلك الحدمات ؟ ها ها ها أنت امرأة جميلة ! ، •

لم تزد كاترين نيقولايفنا على أن وتبت وتبة واحدة وقد احمرت احمراراً شديداً ، فبصقت في وجهه ، ثم اتجهت بسرعة نحو الباب ، فاذا بالأحمق يشهر مسدسه ، انه ، وهو الأبله المحدود العقل ، كان مؤمنا ايمانا أعمى بما سيكون للوثيقة من أثر ، فلم يدخل في حسابه نوع المرأة التي يخاطبها ، وذلك لأنه ، كما سبق أن قلت ، يتصور لدى جميع الناس وجود تلك العواطف الدنيئة نفسها التي تملأ قلبه ، لقد أثار بفظاظته حنق كاترين نيقولايفنا منذ أول كلمة ، ولعلها ما كانت لترفض تسوية مالية ،

أعول يقول وقد نارت ثائرته من البصقة :

_ لا تتحركي ا

وأمسكها من كتفها وأراها المسلس ، ليخيفها طبعاً • فصرخت وتهالكت على الديوان • فاندفعت أنا الى الغرفة • ولكن ، فى تلك اللحظة نفسها ، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدهليز (كان ينتظر هناك) ، فلم أكد ألقى نظرة واحدة حتى كان قد انتزع المسلسس من لامبير ، وأخذ يضربه على رأسه بكل ما أوتى من قوة • فترنح لامبير ، وسلقط منشياً عليه • وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السحادة •

أما هى فانها حين أبصرت فرسيلوف ، قد اصفر وجهها اصفراراً شديداً ، وشخصت اليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياع ، ثم لم تلبث أن أغمى عليها ، فارتمى عليها ، هذا كله يبدو لى أتنى لا أزال أراء • أتذكر أننى ذعسرت حين رأيت وجهه الأحمسر الذى يشبه أن يكون بلون القرمز ، وحين رأيت عينيه المحتقنتين • وانى لأظن أنه ، وقد رآنى في الغرفة ، لم يعرفنى • ارتمى عليها ، فتناول جسمها الهامد ، وأنهضه بقوة خارفة ، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة ، وأخذ يجول بها في الفرفة ، وقد لاح في وجهه الجنون • كانت الغرفة صغيرة ، ولكنه كان يطوف من ركن الى آخس ، دون أن يدرك لماذا يفمل ذلك • لقد فقد عقله في لحظة • وكان لا ينقطع عن النظر اليها ، عن النظر الى وجهها • وكنت أنا أركض وراء • كنت خائفاً من المسدس خاصة : لقد نسيه في يده اليمنى مصوباً الى رأسها •

ولكنه دفعتي مرة بسكوعه ، وركلتي مسرة أخسري برجله • وقد أردت أن أنادى تريشماتوف ، ولكنني خفت أيضًا أن 'أحنق المجنون • واخيرا أزحت الستارة ازاحة نامة على حين فعبأة ، وتوسسلت البه أن يرقدها على السرير + فاقترب ووضعها على السرير ، لكنه تسمر أمامها وحدق الى عينها تحديقا البتا مدة دقيقة ، ثم اذا هو يميل عليها فحأة فيقبل شفتيها الشماحبتين مرتين • فأدركت أنه قد فقد عقله فقــدا تاما ثم اذا هو يرفع مسدسه ويهم أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه ، فصوب المسدس الى وجهها ليطلق النار • فأمسكت ذراعه فورا بكل ما أملك من قوة ، وناديت تريشاتوف • أتذكر أننا صارعناه كلانا ، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه • لقد كان يريد أن يقتلها ، ثم يقتل نفسه . لكنه ، وقد منعناه من قتلها هي ، صَّوب المسدس الى قلبه هو • ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه الى أعلى ، فاستقرت الرصاصـة في كنفه • وفي تلك اللحظة علَّت صرخـة • انها تاتيانا بافلوفنا تدهم الغرقة ٠ ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض منسى عله الىجانب لامير .

الفصب ل الثالث عشر ۱ خاتمت م



على ذلك المشهد قرابة ستة اشهر • ان مياها كنيرة قد جورت تحت الجسور ، وأن أشــياء كثيرة قد أثيرت • وبدأت أنا حياة جديدة • وسوف أخلص القارىء من حديثى أنا أيضا •

ان سوؤالا قد شخل فكرى حينذاك وظل يشغله مدة طويلة : كيف أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشمخص مشل لامبير ؟ وما الهدف الذي كان يرمى اليه ؟ وقد انتهيت الى تفسير الأمور على النحو التالى : انه أتناء تلك الفترة الفاجعة القصيرة ، أعنى اليوم الأخير واليوم الذي سبقه ، كان لا يرمى الى أى هدف محدد ، وانما كان يعصف به ويستولى على عقله اعصار من المواطف المتناقضة ، لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقى ، لا سيما وأنه اليوم ليس مجنونا قط ، ولكنتى أومن بالمثل دون تردد ، فما « المثل ، ؟ لقد قرأت في الآونة الأخيرة كتابا لطبيب اختصاصى ، فعرفت أن « المثل ، درجة أولى من درجات اختسلال عقلى خطير يمكن أن يؤدى الى نهاية محزنة ، ولقد أوضح فرسيلوف ، يوم حطم الأيقونة عند ماما ، أوضح بصدق هائل ، آلية « اذدواج » ارادته وعواطفه ، اننى ألح على ذلك المسهد ، بالشهد الذي حدث في بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث بالشهد الذي حدث في بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث بالشهد الذي حدث في بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث بالشهد الذي حدث في بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث في بيت ماما ، وتحليم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث داك ، ومع ذلك أظل أتساءل : ألا يمتزج بفعل التحطيم بتأثير « المثل ، حتما ، ومع ذلك أظل أتساءل : ألا يمتزج بفعل التحطيم ذاك ، ومز شرير ما ؟ وأراني أجيب على هذا السؤال بنعم ، وأعتقد أن

ثمة رمزا الى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال ، وما كن يؤمن به من حقوق ، وما كان يقوم فى أذهانهن من رأى • فبالاتفاق مع « المثل » انما حطم الأيقونة • فكأنه كان يقول : « هكذا سيتحطم توقعكن » • نعم ، كان هناك « المثل » ، ولكن كانت هنالك نزوة أيضا • على كل حال ، ذلك تخمين منى •

انه رغم عبادته لكاترين نيقولايفنا كان قد ترسنخ في قرارة نفسه شك صادف وعميق في مزاياها الأخلاقية • فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذل نفسها أمام لامبير • ولكن اذا كان يتوقع ذلك ، فها كان يريده ؟ أعود فأقول : انني أومن ايمانا جازما بأنه كان لا يريد شيئا ، بل كان لا يفكر البتة • كانت رغبته كلها هي أن يوجد هناك ، وأن يثبت بعد ذلك ، وأن يقول لها شيئا ما • • وربما • • ربما أن يهينها ، وربما أيضا أن يقتلها ! • • • لقد كان كل نبيء في تلك اللحظة جائزا وممكنا • ولكنه أن يقتلها ! • • • لقد كان كل نبيء في تلك اللحظة جائزا وممكنا • ولكنه حين وصل مع لامبير كان لايعرف شيئا مما قد يحدث • يبجب أن أضيف أن السدس كان للامبير ، وأن فرسيلوف جاء بنير سلاح • فلما راى من كبرياء كاترين وشممها ، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل ما رأى من كبرياء كاترين وشممها ، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل عقارة لامبير الذي كان يهددها ، اندفع الى الغرفة ، وعندئذ انما فقد عقله • هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص في تلك اللحظة ؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك في أنه أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك في أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه •

ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلا • • فقد شفي ، ولكن بعد أن بقى في السرير مدة طويلة ، عند ماما طبعا • نحن الآن ، أثناء كتابة هذه الكلمات ، في فصل الربيع ، في منتصف شهه أيار (مايو) • النهار رائع • ونوافذنا مفتوحة • ماما جالسة الى جانبه • وهو يلاعب خديها وشعرها وينظر الى عينيها بحنان • ليس هو الآن الا نصف ما كان فرسيلوف من قبل • أصبح لا يترك ماما ، ولن يتركها أبدا • حتى لقد أوتى و موهبة

ذرف الدموع ، ، على حسد تعبير ماكار ايفانوفتش الذي لا 'ينسي ، في قصته عن التاجر • ويخيل الى من جهة أخرى أن فرسيلوف سيممر طويلا• هو الآن معنا بسيط كل البساطة ، صادق كل الصميدق ، كطفل ، ولكن بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة ، ويدون أن يفرط في الكلام • لقد احتفظ بذكائه كاملا ، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقي ، غير أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزا • يعجب أن أقول جازما اتنى ما أحببته يوما كما أحبه الآن ، واننى يؤسفني ألا أملك من فسحة الوقت والمكان ما يمكنني من الاسهاب في الكلام عنه • ومع ذلك ســوف أروى قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع) : في أتناء الصوم الكبير كان قد شفى من جرحه ، فاذا هو يعلن في الأسبوع السادس أنه سيتناول القربان المقدس • لم يسبق له أن تناول القربان منذ ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن • سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة • وأصبحوا في البيت لا يحضرون من الطعام الا أطباقا بغير دسم ، ولكنها أطباق غالية الثمن فاخرة الصنف • وقد سمعته في الغرفة المجماورة ، يومي الاثنين والأحد ، ينني أغنية « هاهو ذا العريس يأتي ، ، متحمسا للحن والكلمات جميما • وقد اتفق له في ذينــك اليومين أن اتطلق يتكلم في الدين فقال كلاما رائعا • غير أن كل شيء انقطع يوم الأربعاء • اذ انتابه حنق مفاجيء أو ، تناقض مضحك ، كمسا قال ضاحكا . ان شيئًا ما في أفعال الكاهن وحركاته واشاراته قد بدا له غليظا • فلما عاد في ذات يوم من الكنيسة قال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة : « يا أصدقائمي ، انني أحب الله كثيرا ، لكن هناك أشياء تضايقني ، لذلك لست مستعدا •• ، وفي مساء ذلك اليوم كان طمـــام العشاء يضم شرائح لحم مقلى • ولكننى أعرف أن ماما تجلس الى جانب في كثير من الأحيان حتى اليوم ، فتحادثه بصوت عذب وابتسامة حلوة في موضوعات مجردة جدا • انها الآن جريئة معه • لا أدرى كيف حدث هذا • تجلس الى جانبه وتكلمه ، ويجرى الحديث في أكثر الأحيان

بصوت خافت • انه يصغى اليها مبتسما ، ويلاعب شعرها ، ويقبل يديها ، وتسطع على وجهه أكبر سعادة • وقد تعتريه في بعض الأحيــــان نوبات تكاد تكون هسترية ، فيتناول صورتها الفوتوغرافية ، تلك التي قبلها في ذلك المساء المشمود ، فينظر اليها دامع العينين ، ويقبلها ، ويتذكر ، ويدعونا اليه جميما • ولكنه في مثل هذه اللحظات لا يتكلم الا قليلا ! • • ويبدو أنه نسى نيقولايفنا نسيانا تاما ، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة • أما عن زواجه بماما ، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث • وكانوا يريدون أن يسافروا به في الصيف الى الحارج ، ولكن تاتيــانا بافلوفنا ألحت على ألا يفعلوا ، وهو نفسه لم يشأ على كل حال • فسوف يقضون الصيف في الريف بمكان ما من مقاطعة بطرسيرج . يبجب أن أذكر في هذه المناسية أن تاتيانا بافلوفنا هي التي تنفق الآن على معيشتنا جميعًا • ويجب أن أضيف شيئًا آخر هو أنني حزين أشد الحزن من أنني ، طوال هذه المذكرات ، قد أبحت لنفسى أن أعامل هذه الانسانة بغير احترام ، وأن أنظر اليها من عل ِ • ولكنني كتبت ما كتبته وأنا أتصــور تصــورا مسرفا في الدقة كيف كانت حالتي في كل لحظة من اللحظات التي وصفتها • وبعد أن فرغت من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أنني بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل لذكرياتي قد ربيت نفسي تربية جديدة • صحيح أنني أنكر كثيرا ممسا كتبت ، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات ، ولكنني لا أريد أن أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة ٠

قلت انه أصبح لايتكلم عن كاترين نيقولايفنا البتة • بل انى لأعتقد أنه شفى شفاء تاما • عن كاترين نيقولايفنا أصبحنا وحدنا ، أنا وتاتيانا بافلوفنا ، تتكلم فى بعض الأحيان ، وتتكلم خفية • ان كاترين نيقولايفنا هى الآن فى الحارج • رأيتها قبل سفرها ، وزرتها فى بيتها عدة مرات ، ومن الحارج بعثت لى حتى الآن رسالتين أجبت عنهما • لن أقول شيئا عن مضمون الرسالتين ولا عن الموضوعات التى عالجناها حين تركتنا قبل سفرها : فهذه

قصة أخرى ، قصة « جديدة ، كل الجدة ، لعلها لا تزال قائمة كلها في المستقبل • حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أقاربها • ولكن كفى هذا • أريد أن أضيف فقط أن كاترين نيقولايفنا لم تتزوج ، وهي مسافرة الآن مع بلشتشيف • لقد مات أبوها ، فهي أغنى الأرامل • انها الآن بباريس • لقد تمت القطيعة بينها وبين بيوريج بسرعة ، وكأنما تمت من تلقاء نفسها ، على نحو طبيعي جدا وسأحكى هذا على كل حال •

أعنى ذلك الذى انتقل تريشاتوف وصديقه الى خدمته ، أن يبلغ بيورنج المجدور يقرر الاشتراك في المؤامرة ، وأطلعه بعد أن صارت الوثيقة في حوزته ، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه ، وأطلعه أخيرا على الخطة الأخيرة ، أي الحطة التي تخيلهـا فرسيلوف لحداع تاتيانا بافلوفنــا . ولكن المجدور آثر في اللحظة الحاسمة أن يخون لامبير ، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعا ، اذ تخيل في هذه المشروعات كلهــا امكان حدوث جريمة ، ورأى خاصة أن الحظوة بعرفان بيورنج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامبير ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف • ذلك كله علمته بعدثذ من تريشاتوف • يحِب أن أذكر في هذه المناسة أنني أجهل ولا أفهم العلاقات التي كانت المجدور • ولكن السألة التي كانت تثير عجبي أكثر من سائر ما عداها هي التالية : ما كانت حاجة لامبير الى فرسيلوف ، مم أنه بعد حصــوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاما ؟ ولقد أصبح الجواب واضحا الآن : كان لامبير في حاجة الى فرسيلوف أولا لأن فرسيلوف عالم بالظروف ، وثانيا لأنه يستطيع في حالة الحطر أو في حالة وقوع مصيبة أن يلقى على فرسيلوف جميع التبعات • ولما كان فرسيلوف فى غير حاجـة الى المال ، فقد رأى لامبير أن مشــــاركته مفهدة الى أقصى حد •

ولكن بيورنج لم يصل في اللحظة المطلوبة • وانما وصل بعد اطلاق النار بساعة ، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً • فبعد خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه ، نهض لامبير ، وكنا نظنه ميتاً ، فأجال بصره فيما حوله ، فأدرك في الحال كل شيء ، ومضى الى المطبخ بدون أن يقول كلمة ، فارتدى معطفه واختفى الى الأبد • وبقيت « الوثيقة ، على المائدة • وقد سمعت أنه لم يصب حتى بمرض ، ولم يعان الا شيئاً من أوجاع طفيفة • لقد جندلته الضربة ، وأنزفت دمه ، ولكنها لم تنله بأذى •

وفى أتناء ذلك ركض تريشاتوف يستدعى الطبيب و ولكن فرسيلوف أفاق من غيبوبته قبل وصول الطبيب ، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترين نيقولايفنا الى الحياة وأن تعيدها الى منزلها ، وهكذا ، و حكد دهم بيورنيج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن هناك أحد الا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التي كانت لا تزال مريضة ولكنها هرعت الى فرسيلوف كالمجنونة اذ أنبأها تريشاتوف ذاك نفسه ، نظر بيورنيج مدهوشاً ؟ وما ان عرف أن كاترين نيقولايفنا قد مضت حتى ذهب الى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة ،

كان مضطرباً ، اذ رأى رؤية واضحة "أن الفضيحة وذيوع النبأ أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما ، ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى ، وكل ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتهما الألسن ، صحيح أن طلقة المسدس قد استحال اخفاء أمرها ، ولكن الجزء الأساسى من القصة كلها ظل " شعبه مجهول ، ولم يقرر التحقيق الا أن رجلا عاشقاً اسعه م فد ، ، ، ، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمسر ، قد أطلق

النار على نفسه من مسدس في نوبة جنون ، بينما كان يعلن غرامه لسيدة جديرة بأعظم الاحترام ، لكنها لا تبادله عواطفه . لم 'يعلم شيء أكثر من هذا • وفي هذه الصورة انعا انتقل الخبر الى الجرائد غامضاً ، بدون ذكر الأسماء ، الا أحرفها الأولى • أعلم مثلاً أن لامبير لم يقلق أبداً • ولكن بيورنج الذي كان يعرف الحقيقة خاف خوفاً شــديداً • ولقد علم فجأة ، بما يشسبه المصادفة ، أن لقاء " تم قبل الكارثة بيومين بين كاترين نيقولايفنا وفرسيلوف الذي يحبها • فأحنقه ذلك حنقاً قوياً ، فأباح لنفسه بغير ترور ولا حـــذر أن يقول لكاترين نيقولايفنا انه لا يدهشه أن تقع لها أحداثً فظمة كهذه • فلم تلبث كاترين نيقولايفنا أن صرفته فوراً ، بدون غضب ، ولكن بدون تردد ؟ ان ما كانت تقدره من أن زواجها بمثل هذا الرجل زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار • ولعلها كانت قد كشفته وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة • ولعلها أيضاً ، بعد الهزة القوية التي أصابتها ، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بغتة ً • يجب أن أضف أن لامير فر ً الى موسكو ، وقد علمت أنه قبض علمه هنالك في قضية أخرى • أما تريشاتوف فانني منذ مدة طويلة ، بل منذ وقوع تلك الأحداث تقريباً ، قد غاب عن بصرى فلم أره رغم جميع الجهود التي لا أزال أبذلها لأقع على آثاره • لقد اختفى بعد موت صديقه • الأبله الطويل ، الذي أطلق على رأسه الرصاص •

ذكرت موت الأمير العجوز نيقولا ايفانوفتش • ان هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة ، بعد نحو شهر ، في الليل ، على سريره ، من سكتة فلبية • ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذى قضاه فى بيتي . وقد 'روى عنه في أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً ، وأنه صار امرأ جاداً كثير الجد ، فهو لا يخاف ، ولا يبكى ، حتى انه لم يقل كلمة واحدة عن آنا آندريفنا طوال تلك المدة • وقد انصب حبه كلهُ على ابنته • وقبل وفاته بأسسبوع ، اقترحت عليه كاترين نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأسرتي عنه ، ولكنه قطب حاجبيه . انني أذكر هذه الواقعــة بدون أن أحاول تفســيرها وتعليلها • وكانت أطيانه مزدهرة ، وكان بملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال • وقد أمر في وصيته بأن يوز ُّ ع ئلث هذا المال تقريباً على أولاده بالمعمودية وما أكثرهم! ولكن الأمر الذى أدمش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر الى آنا آندريفنا ، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً • اليكم مــع ذلك ما أعلمه علم اليقين : ان الشيخ ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط ، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير « ف ٠٠٠ ، ، فأمر كاترين نيقولايفنا بأن تقتطع من هذا المال عند وفاته القريبة مبلغ ستين ألف روبل تبخص بها آنا آندريفنا ٠ لقد عبر َّ الشيخ عن ارادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضباً دقيقــاً ، دون أن يبيح لنفسه أي تعليق أو تعقيب • وبعد وفاته ، حين أضبحي كل شيء واضحاً ، عهدت كاترين نبقولايفنا الى مصرِّف أعمالها بابلاغ آنا آندريفنا أن في وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبــل متى شـــاءت • ولــكن

آنا آندریفنا رفضت العرض بعجفاء وبغیر کلام زائد: رفضت قبض المبلغ رغم کل ما 'آکد" لها من أن هذه هی ارادة الأمیر فعلا" و ولا یزال المبلغ موقوفا ینتظر آن تقضبه آنا آندریفنا، ولا تزال کاترین نیقولایفنا تأمل آن تغیر آنا آندریفنا الن تغیر رأیها و فهذا ما أعلمه تغیر آنا آندریفنا البها وقد أثار رفضها یقینا ، لأننی الیوم من أقرب أصدقاء آنا آندریفنا البها وقد أثار رفضها ضجة ، وتحدث عنه الناس و وکان من شأن هذا أن خالتها فاناریاتوفا التی سامتها منها فضیحتها مع الأمیر فی البدایة ، قد غیر آت رأیها فیها بعد رفضها المال ، فأعربت لها عن احترامها جهاراً و ولا کذلك أخوها ، فقد شاجرها بسب هذا الرفض شحاراً شدیداً و علی أتنی لا أستطیع أن أقول ، رغم کثره ترددی علی آنا آندریفنا ، هل العلاقة التی بینی وبینها علاقة حمیمة کثره ترددی علی آنا آندریفنا ، هل العلاقة التی بینی وبینها علاقة حمیمة وثیقة و عن الماضی تحن لا تتحدث الیوم أبداً و انها 'تسر' باستقبالی ، ولکن حدیثها معی حدیث مجسرد و ولقد قالت لی فیما قالت انها مصممة علی دخول الدیر حتما و قالت لی هذا منذ مدة غیر طویلة و ولکننی لا أصد تن نامل ، ولا آری فی قولها هذا الا تعبیراً عن مرارة و

على أن المرارة الكبرى انعا هي في حديثي الآن عن أختى ليزا و ذلكم هو الشقاء الحقيقي ! ما أهون أنواع الاخفاق التي منيت بها اذا هي قيست بمصيرها الحزين ! أولا ": لم يشف الأمير سرجى بتروفتش ، ومات في المستشفى قبل صدور الحكم ، مات قبل الأمير نيقولا ايفانوفتش ، وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها ، كانت لا تبكى ، حتى لقد كانت تبدو هادئة ، وصارت لينة دمئة عذبة طبعة ، غير أن ما كان يزخر به قلبها في الماضي من حرارة كان كأنه دفن في أعماق نفسها ، كانت تساعد ماها بمذلة ، وتعنى بآندر، بتروفتش المريض ، ولكنها أصبحت صموتاً صمتاً رهيباً ، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر الى شيء ولا أن ترى أحداً ، فكأن جميع الأمور عندها سواء ، وكأنها لا تكترث بشيء من الأشباء ، وقد هزلت هزالاً مخيفاً ، كنت لا أجرؤ أن أواسيها ، رغم أنى

كثيراً ما جثت اليها عاقداً نيتى على ذلك • فعا ان ألقها حتى أجدنى عاجزاً عن مقاربتها ، وحتى تعوزنى الكلمات اللازمة لمواجهسة هذا الموضوع • وامتد ذلك الى أن وقع حادث رهيب : زلت قدمها على السلم فسقطت ، لا من أعلى السلم ، بل من ثلاث درجات فقط ، لكنها أجهضت واستمر مرضها الشناء كله تقريباً • وقد نهضت الآن ، ولكنها في أعقاب ضربة كهذه الضربة لن تسترد صحتها الا بعد مدة طويلة • ولا تزال معنا شديدة الصمت كثيرة الوجوم والتفكير ، ولكنها مع ماما عادت تتكلم قليلاً • وقد طلمت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة ، عالية رائقة ؛ ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الحريف الماضي حين تنزهنا معا وقد امتال قلبانا كلانا بالفرح والأمل ، وأحب كل منا الآخر حباً كثيراً ! يا حسرتاه ! ماذا وقع من بعد ؟ لست أتشكي • فأنا قد يدأت حياة جديدة • ولكن هي ؟ ان مستقبلها لنز • ولا أستطبع أن أراها الا ويعصر قلبي الألم •

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها اذ حدثتها عن فلسين و لقد أطلق سراحه أخيراً و وأفرج عنه افراجاً نهائياً و وروى أن هذا الرجل الزاخر برجاحة العقل وحصافة الرأى قد استطاع أن بقدم أدق الايضاحات وأهم المعلومات ، فبرأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره رهنا برأيهم فيه وقد نبين على كل حال أن المخطوطة التي أثارت ذلك اللغط كله لم تكن الا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده على نية أن يعتمد عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل وقد سافر الآن الى اقليم « و و و و أما نوج أمه ستيبلكوف فلا يزال في السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تنفك تكبر وتتسع وقالت ان ذلك هو ما كان لابد أن يقع له و ولكن كان واضحاً أنها أشرات بما رويته لها ، وأغلب الغلن أن مسرد سرورها الى أن المرحوم الأمير سرجى بتروفتش لم يلحق تدخله ضرراً بفاسين ء ولم يصبه الأمير سرجى بتروفتش لم يلحق تدخله ضرراً بفاسين ، ولم يصبه

يأذى • أما درجاتشيف والآخرون ، فليس عندى ما أقوله عنهم هنا • انتهيت • لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث

فأقول لهم ماذا صسارت اليه • فكرتى ، ، وما هى تلك الحياة الجديدة التى بدأتها والتي أشرت اليها اشارة ملغمة بالسر؟ فأقول ان هذه الحياة الجديدة التي تنفتح أمامي هي بعينها « فكرتي ، ، هي « فكرتي ، السابقة نفسها ، ولكن في صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفهــا • ذلك كله لا يدخل في نطاق هذه المذكرات لأنه شيء آخر • انتهت الحياة -القديمة ، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت . ومع ذلك سأضيف ما لا غنى عن اضافته • ان صديقتي المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضني كل يوم تقريبًا على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً ، وتقول : • فمتى أتممت دراستك رايت ماذا يعجب أن تفعل • أما الآن فأتمم دراستك • • • أعترف بأن هذا العرض يحملني على التفكير ، لكني أجهل القرار الذي سأتخذه كل الجهل • وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً انى الآن لا يحبوز لى أن أتابع دراستي ، اذ يجب على " أن أعمل لأعول ماما وليزا • ولكنها تعرض على * ثروتها مؤكدة * أنها تكفى لمدة دراســـتى كلهـــا • وقد قررت أخيراً أن ألتمس نصيحة أحد الناس • فبعد أن استعرضت مَن ّ حولي وقم اختباري على هذا الرجل ، نيقولا سيمنوفتش ، معلمي السابق بموسكو ، زوج ماريا ايفانوفنا ؟ لا لأَنمى في حاجة شديدة الى نصائح ، الا أن رغبة قوية لا سبيل الى مغالبتها قد دفعتني الى معرفة رأى هذا الرجل الأناني ، الغريب كل الغرابة عن الأحداث التي وصفتها ، ذي القلب الذي يتصف بالمرود ، ولكنه ذكي ذكاء لا يمكن جحوده • فأرسلت اليه مخطوطتي ، طالبًا منه أن يبقى أمرها سرًا مكتومًا ، لأتنى لم أطلع عليهـــا أحـــدًا بعد ، ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة • وقد عادت الى المخطوطة بعـــد خمســة عشر يوماً ، مصحوبة برسـالة طويلة • وهأناذا أسرد فيما يلي مقتطفات من تلك الرسالة ، لأنني أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليلية • البكم هذه المقتطفات:

« عزیزی آرکادی ماکاروفتش الذی لا 'ینسی ، انك لم تستطع فی يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات! لقد حصلت لنفسك على ادراك واع لحماك الأولى الماصفة المحفوفة بالمخاطر في درب الحياة • واني لأعتقد جاَّزماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فعــلاً ، في كثير من النقاط ، أن « تربي نفسك تربيـة جديدة ، كما تقول أنت نفسك . لن أسمح لنفسي بأي نقد حقيقي ، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعي ملاحظات • من ذلك أن حرصك الشديد العنيد الصر على الاحتفاظ ، بالوثيقة ، طول تلك المدة شيء بارز الى أبعد حد • على أن هذه الملاحظة التي أبحتها لنفسى ليست الا واحدة من ألف . وانى لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبـوح لى ــ أنا وحــدى فى أغلب الظن ــ بسر ً • فكرتك • ، على حد تسيرك • ولكن حين تسـألني أن أعرب لك عن رأيي في هذه الفكرة ، فانني أكون مضطراً الى الامتناع عن ذلك قطعاً • أولاً لأن الاعراب عن هذا الرأى يحتــل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة • وثانياً لأننى غير متأهب للاجابة فما زلت في حاجة الى هضم هذا كله • ولكنني أقول ان ه فكرتك ، تتميز بأصالتها ، على حين أن كثيراً من شباب الجل الحالى ينقادون في أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تنبع من أنفسهم ، وعددها محدود جداً ، وكثيراً ما تكون خطرة . ان • فكرتك ، قد حمتك مثلاً ، خلال زمن على الأقل ، من أفكار السادة درجاتشيف وشركاه ، التي هي أقل أصالة ً ولا شك • وأخيراً فانني موافق كل الموافقة على رأى المحترمة

تاتيانا بافلوفنا التى عرفتها شخصياً ، ولكن لم يتح لى حتى الآن أن اقدرها القدر الذى تستحقه ، ان رأيها فى ادخالك الجامسة سيعود عليك بخير كثير ، فلا شك أن العلم والحياة ، خلال ثلاث سنين أو أربع ، سسوف يوستمان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك ، فاذا أردت بعد الجامعه أن تعود الى ، فكرتك ، فلن يمنعك عن ذلك شىء ،

« واســمح لى الآن ، رغم أنك لم تطلب منى هذا ، أن أعرض لك بصراحــة بعض آرائى أو انطباعاتي التي كو ّنتهــا في نفس قراءة هذه المذكرات الصادقة جداً • نعم ، انني أوافق آندر. بتروفتش على أن هناك ما يدعو حقاً الى الحوف عليك وعلى شبابك « المعتزل » • ما أكثر أمثالك من الشمان الذين تتعرض مواهبهم فعملاً لأن تنمو في الاتجماء السيء: فاما عبودية على طريقة مولتشالين ، واما رغيسة خيبئة في الفوضى • وهذه الرغبة في الفوضي انما تنشأ ــ ربما في أكثر الأحيان ــ عن ظمأ خفي الى النظام ، « الجمال » (انني أستعمل كلمتك) • ان الشباب طاهر نقى لمجرد أنه شباب • ولعل تلك الاندفاعات المبكِّرة الى الجنون انما تشتمل على ذلك الظمأ الى النظام وعلى ذلك البحث عن الحقيقة • فمن المذنب اذا كان بعض الشباب في عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام في نظريات تبلغ من الحماقة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها لـ أحب أن أقول في هذه المناسبة ان المرء كان يمكن في الماضي ــ في عصر ليس بعيداً ، في عهد لا يبعد عنــا أكثر من جيل واحــد ــ ألا يأخذه بأمثال هؤلاء الشيان ما يأخذه بهم الآن من شفقة ورحمة ، لأن أمثالهم في ذلك كانوا ينتهون في جميع الأحيان تقريبًا الى الانضمام الى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف انضماماً ناجحاً ، وأن يصبحوا جزءاً من تلك الطبقة • فاذا شعروا مثلاً ، في بداية الطريق ، بما في بيتنهم العائلية من فوضي وعبث وافتقاد النبالة وغياب التقاليد والأشكال الجميلة ، كان في هذا خير لهم ، لأنهم بعد ذلك يتوقون الى هذه الأمور كلها توفاً واعياً ، ويألفون بهذا نفسه أن يقدروها •

أما الآن فان الأمور تجرى مجرى مختلفاً بعض الاختلاف ، لأنهم أصبحوا لا يعرفون الى مـن ينضمون ا

«سأوضح رأيي بمقارنة أو قل بمشابهة • لو كنت روائياً روسياً وكانت لى موهبة ، لما اخترت أبطال رواياتي الا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة ، لأن هذه البيئة التي تضم أفراداً مثقفين هي البيئة الوحيدة التي يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والاحساس الجميل اللذين لاغني عنهما لرواية تريد أن تحدث في القارىء شعوراً بالروعة • لا أقول هذا الكلام مازحاً ، رغم انني لا أنتمي الى الطبقة النبيلة كما تعلم • لقد سبق أن أشار في و تقاليد أسرة روسية ، الى موضوعات الروايات التي حال الموت بينه وبين كتابتها • فهناك انما نقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الأن من جمال • هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا اليه من تواذن وكمال • واذا قلت هذا فليس معناه انني أرى ذلك الجمال خالياً من أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملة بل لا تجدها البتة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملة بل لا تجدها البتة في أي مكان بروسيا خارج النبالة • انني أتكلم كما يتكلم انسان هادىء يبحث عن الهدوء •

فاذا سألتنى عن ذلك الشرف هل هو أصحيل ، وعن ذلك الواجب هل هو حق ، قلت لك ان هذه مسئالة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها ، ولكن الشيء الهام في نظرى هو أن تلك الأشكال مكتملة ، وأن ثمة نظاماً لم 'يفرض فرضاً وانما هو نابع من حياة تلك النبالة ، ألا وان ما يهمنا أكثر من أى شيء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام ، أيا كان هذا النظام ، على شرط أن يكون نظاماً لنا تحن ! ذلك هو الأمل ، وتلك هي الراحة ان صع التعبير : شيء مكتمل البناء أخيراً ، لا هذا التقويض الأبدى ، وهذه النسارات التي تتطاير في كل مكان ، وهذه

النفایات وهذه القاذورات التی لا یخرج منها شیء منـــذ ما یقرب من ماثتی سنة ۰

« لا تنهمني بالتعصب السلافي ، فانما أنا أتكلم الآن كلام رجل استيد به كره البشر ، وأصبح مثقل القلب حزنا ! اننا منذ بعض الوقت تشهد حركة تعارض ما أتيت على وصحفه الآن كل المعارضــة • فالآن أصبحت القذارة لا تصعد الى العلبقة العليا من المجتمع ، وانما يحدث نقيض هذا ، فنرى أجزاء بل كنلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج في أناس الفوضى والكرء • ليست حالات ٍ فريدة معزولة تلك الحالات التي ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسمخر الآن من أشياء ربما كان ابنــاؤهم لا يزالون يرغبــون في الايمان بهــا • أكثر من ذلك أنهــــم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق في التخلي عن الشرف فجأة ، وهو حق يشمرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة لا أدرى كيف! لست أتكلم عن التقدميين الحقيقيين ، يا صديقى العزيز جداً آركادى ماكاروفتش ، وانما أتكلم عن ثلك الجمهرة الكبيرة التي لا 'يحصي اليوم عددها ، والتي قيل في حقها : « اقشر الروسي فتري التترى ، • صدِّق أن اللبراليين الحقيقيين ، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للانسانية ليس عددهم بيننا كبيراً الى الحد الذى توهمناه فجأة ٠

و ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً • فلنعد الى الروائي الذي تخيلناه • ان موقف صاحبنا الروائي هذا سيكون في هذه الحالة موقفاً محدداً : انه لن يستطيع أن يكتب الا روايات من نوع الروايات التاريخية ، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود في عصرنا هذا ، واذا كان لا يزال منه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم ، فان هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها • ولاشك أن الكاتب سيستطيع في الروايات التاريخية أيضاً أن يتصسور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزى القلب • حتى ليمكنه أن يأسر لب القارىء اللوحة التاريخية

واقماً لا يزال قادراً على الحياة اليوم • ومثل هذه الرواية ، اذا كانت موهبة الكاتب عظيمة ، سوف تنتمى الى الأدب الروسى اقسل مما تنتمى الى التاريخ • سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفنى تمثل السراب الروسى الذى وجد قعلا الى اليوم الذى رتى فيه أنه كان مراباً • ان حفيد أبطال اللوحة التى تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسى ، ان حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره فى سوذجه المعاصر الا انساناً مبغضاً للبشر ، معتزلا الناس ، صموتاً حزيناً • بل لابد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظره الأولى بأنه قد ابتمد عن الطريق المشهدة وأن ليس تحت قدميه أرض • كذلك أن يحديد ، ولكن أية وما هى الا قترة حتى يختفى هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً • وتأتى شخصيات جديدة ، لا تزال معجهولة ، ويأتى سراب جديد • ولكن أية شخصيات ؟ اذا لم تكن شخصيات جميلة ، لم يبق نمة أدب روسى ممكن • ولكن واحسرتاه ! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك ؟

« لا أريد أن أوغل مزيداً من الايغال ، ولنعد الى مخطوطتك ، انظر مشلا الى أسرتى السيد فرسيلوف (امسمح لى هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة) ، لن أسهب فى الكلام عن آندره بتروفتش نفسه ، انه رب أسرة على كل حال ، رغم كل شى ، ، هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو فى الوقت نفسه من أنصار كومون باريس ، هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها ، هو امرؤ لا دين له ، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً فى سبيل شى ، غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به ايماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية فى العهد البطرسبرجى من التاريخ الرومى ، ولكن كفى هذا عنه ، لننظر الى أمرته الحقيقية : عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف ، ان أمرته المحقود نهر عرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطائشين والى أين يقودون غيرهم ، ولكن لننظر الى ابنته آنا آندريفنا ، هذه فتاة ذات

شكيمة ، أليس كذلك ؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا ، دون أن أتنبأ لها بشى، من الاجرام طبعا ، والا كنت ظالما ، قل لى الآن يا آركادى ماكاروفتش ان هذه الأسرة استثناء وشذوذ ، فأبتهج اعظم الابتهاج ، ولكن الأمر ليس كذلك ، الأصبح أن نقول ان هناك كثرة من هذه الاسر الروسية التي لا يجحد المرء نبالتها والتي تتحول بقوة لا تقاوم الى اسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه في السديم الشامل والغوضي العامة ، انك في مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه ، نهم يا آركادي ماكاروفتش ، انك د فرد من أفراد أسرة مصادفة ، ، في مقابل نماذج لا تزال حديشة لأبناء نبسلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف ،

« أعترف لك بأننى لا أتمنى أن أكون روائيا يصوِّر بطلاً هو فرد فى أسرة مصادقة ا

« جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه • ان تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال ، فهى لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية • كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والاغفالات ؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارى، ان يخمس ويسرف في التخمين • ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية • • • وانما تستبد به الرغبة في الكتابة عما هو واقع حالى ؟ أن يخمس و • • • أن يخطى، •

« غير أن « مذكرات » كالتي كتبتها أنت يمسكن في رأيي أن تكون مواد لعمل فني يخلق في المستقبل ، مواد للوحة ترسم في المستقبل وتكون فوخي لكنها تصور عهداً مضي • نعم ، فبفضل التقهقر في الزمان الى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضي

والفوضى الذى انقضى عهدها • فى ذلك الوقت ستكون الحاجة الى مذكرات كمذكراتك • حسبها أنها صادقة : فهى وغم ما تتصف به من فوضى ، تشتمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء فى ضوئها أن يدرك ما كان لابد أن يختبىء فى نفس مراهق ينتمى الى ذلك العصر المضطرب ، وهذا يحث لا تغمط قيمته ، ما دام المراهقون هم الذين تشألف منهسم الأجيال • • • • •

بوب وک^ک ۱۸۷۳

فى عده الرة سائشر مداكرات احسد الناس، • ماهى مداكراتي انا ، بل مداكرات شخص آخر * ولا حاجة الى أي تمهيد • *

مزكزوت وتعب دالدناكس



يومين سألنى سيميون آرداليو نوفتش فى وقت مناسب جدا:

_ رحماك ايفان ايفانوفتش ، متى سيتفق لك مسرة ألا تكون سكران ؟

هبنى مجنوناً • ولكن لماذا نشر هذا الكلام فى الجرائد ؟ ان الجرائد فى حاجة الى المثل الأعلى ، أما هنا •••

ثمة طريقة للتلميح: فلهذا انما وجد الأسلوب ولكن لا ٠٠٠ ليس أيسسمح لك بالتلميح • اختفت اليوم روح النكتة واختفى الأسسلوب الجميل ، وأصبحت الشسستائم أتعد وهافة فكر ولطافة ذوق • ولكننى لن أستاء ، فما أنا أديب كأى أديب حتى أصد ع رأسى • كتبت قصة ،

فلم ينشروها • وكتيت مقالة فرفضوها • وأرسلت مقىالات الى جرائد مختلفة فلم يقبلوها ، وقالوا لى : « 'يعوزك الظرف ، • سألتهم ساخراً : ــ أى ظرف تعنون ؟ الظرف الأثيني ؟

لم يفهموني • وأنا أترجم خاصـةً عن اللغة الفرنسية لأصـحاب المكتبات • وأحرر اعلانات للتجار : • فرصة نادرة ! ••• اشربوا الشاى الذي تنتجه مزارعنا الخاصة ••• • وان تأبيني لصاحب المعالى بطـــرس ماتفتش لم يمسر بغير صدى في الأوساط العليا من المجتمع • وقد أَلُّفت ، تلبية ً لطلب أصــحاب المـكتبات ، كتاباً بعنوان : « كيف تحظى باعجاب النساء ، • واتفق لي أثناء حياتي أن ألقيت الى السوق ستة كتيبات من هذا النوع • وفي نيتي أن أجمع باقة من أقوال فولتير يضمها كتاب • لكنني أخشى أن يبدو هذا غير ذي مذاق لأهل زماني • ان هذا العصر هو للهراوة لا لفولتير ، فليكسشِّر الناس بعضهــم أفواه بعض ! تلكم مي مهنتي الأدبية كلها • هل عن عبث تراني أغرق ادارات تحرير الجرائد برسائل لا أنسى أن أمهرها بتوقيعي ؟ انني أقضى وقتى في اغدان التنبيهات والنصائح • أنقد ، وأدل على الطريق الواجب اثباعها • في الأسبوع الماضي دبُّجت الرسالة الأربعين من رسائلي التي أبعثها الى صحيفة من الصحف منذ سنتين • ان طوابع البريد التي استعملتها قد كلفتني حتى الآن أربعة روبلات • طبعي سيء • هذا هو الأمر •

أعتقد أن الرسام لم يرسم وجهى اهتماماً منه بالأدب ، ولكن بسبب تؤلولين متناظرين يزدان بهما جيبنى • هذا حدث ، أليس كذلك ؟ ان الناس يتهافتون اليوم على الأحداث ، لعدم وجمود فكرة يهتمون بهما • لشدما أحسن هذان الثؤلولان الى الصمورة ! لكأنهما يحيمان ! ذلكم ما يسمى بالواقعية •

أما عن الجنون فان عدداً كبيراً من الكتــاب عندنا قد وصـــموا في

السنة الماضية بالاختلال العقلى • • قيل عنهم : « موهبة أصيلة جداً • • • فانظروا ماذا كانت النتيجة ! ولقد كان ينبغى التنبؤ بهذا منذ مدة طويلة على كل حال • • • • ليس يخلو هذا الكلام من مكر ، حتى ليمكننا أن نصفق له من وجهة نظر الفن المحض • فيه يصبح الآخرون أذكى مرتين • ولكن لئن كان سهلاً عندنا افقاد أحد الناس عقله ، فليس هناك مثال قيس العقل عليه •

أذكى الناس فى رأيى هو ذلك الذى يصف نفسه بالنباء مرة كل شهر ، وما من أحسد يقدر أن يفعل ذلك فى هذه الأيام! فى الماضى كان الغبى بدرك عند اللزوم مرة فى السنة على الأقل أنه ليس الا غبياً ، أما الآن ، فلا ، لا ، كلا ، كلا ! لقد اختلط الحابل بالنابل حتى صار الانسان الذكى لا يتميز عن الانسان الغبى ، وكان هذا مقصوداً ،

تعضرنى نكتة أصلها أسبانى • حين بنى الفرنسيون فى بلادهم أول ملحاً للمجانين منذ نصف قرن ، قيل يومئذ : « لقد حبسوا جميع مجانينهم فى منزل خاص حتى يصفوا أنفسهم بأنهم هم عقلاء » • القول صلاق • لست تبرهن على أنك عاقل اذا أنت حبست قرينك فى بمارستان • « فلان أصبح مجنوناً • • • معنى هذا أنها نتمتتع بجميع قوانا المقلية ، • لا ، أبداً ، ذلك لا يعنى هذا بعد •

على كل حال ، ليذهب هذا الكلام كله الى الشيطان! ما بالى أحدث هذه الجلبة كلها ، ما لى ولهذا التذمر! ما لى ولهذه البرطمة! لقد أضيجرت حتى طباختى ، في مساء أمس جاءني صديق ، قال لى : أسلوبك يفسد ، صار مفروماً ، أنت تفرم أسلوبك ، تهرسه هرسا ، جمل عارضة ، ثم في الجمل العارضة جملة أخرى عارضة ، ثم جملة طارئة تضعها بين قوسين ، وتستأنف الفرم ، ، ، ،

صدیقی علی حق • فی نفسی یحدث شیء غیر عادی • طبعی أیضاً یطرأ علیه تغیر ، ورأسی یصیبه صداع • أخذت أری وأسسمع أشیا، غريبة مهمه ما هي أصدوات تماماً مهم كأن أحدا يدندن على مقربة مني : « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ! » •

ما « بوبوك ، هذه ؟ يحب أن أحاول تسلية نفسي ٠

خرجت لأسلَى نفسى • فوقعت على جنازة • جنازة شخص يمت الى بقرابة بعيدة • موظف فى الدرجة السابعة • مات تاركاً زوجته وخمس بنات يجب تزويجهن • يا للنحس ! كان المتوفى يستطيع أن يجنى رزقاً • أما الآن فيجب الاكتفاء بمعاش هزيل • يجب شد الحزام على البطون • كان أفراد هذه الأسرة يستقبلوننى دائماً على مضض • على كل حال ، ماكنت لأشهد الجنازة فى ذلك اليوم لولا المناسبة الطارئة • صحبت الموكب الى المقبرة • بعجرفة نحدونى • كان ردنجوتى مفرطاً فى الاهتراء حقاً • أظن أننى لم أذهب الى المقبرة منذ خمس وعشرين سنة • المكان غير جذاب كثيراً •

الرائحة أولاً • لقد جيء الى المكان بنحو خمسة عشر ميناً • أكفان من درجات متفاوتة • بل ثمة نعشان أحدهما نعش جنرال والآخر نعش سيدة • عدد من الوجوه الحزينة ، غير قليل من الأسى المتصنع ، كثير من فرح صريح • أضيف أنه لا داعى الى التشكى من هذا : يعجب علينا أن تحسب حساب الأرباح الصغيرة • ولكن الرائحة ! الرائحة ! ألا اننى لا أحب أن أكون شحاذاً في مقبرة •

تفرست فى وجود الأموات متأنياً ، غير منقاد لطبيعتى الشديدة التأثر ، ثمة وجود لطيفة ، وثمة وجود لا يحلو النظر اليها ، الابتسامات عامة ليست جميلة ، ولا سيما لدى بعضهم ، لا أحب هذا ، يحدث للمرء أن يراد فى منامه ،

أثناء القداس خرجت من الكنيسـة لأتنشــق الهواء • كان النهار أشهب بم لكنه جاف ، وهو بارد بعض البرودة طبعاً ، فنحن في شـــهر أكتوبر • قمت بجولة بين القبور • القبور طبقات • الطبقة الثالثة تكلف ثلاثين روبلا : لائقة وغير باهظة الثمن • الطبقتان الأوليان لهما حق في الكنيسة وحوشها • ولكن ما أبهظ الثمن ! كان في ذلك اليوم ست جنازات من الطبقة الثالثة ، ببنهم جنسازة الجنرال وجنازة السيدة الذكورة !

ألقيت نظسرة على القبسور: شيء مقزز ، ماء ، وأى ماء ! ماء آسن أخضر ، نسم ، وفي كل لحظة يمتح الحفار الماء لفسرغ القبر ، خرجت ، واذ لم يكن القداس قد انتهى ، جعلت أتجول خارج السوو المصنوع من حديد مشببتك ، غير بعيد عن السور كانت هناك مضيفة ، وبعدها بقليل كان هناك مطعم ، ليس سيئاً كل السسوء ، ذلك المطعم ، أكلت قطعة ولوازمها ! ، ، ولم يلبث المطعم أن امت الأ بالناس الذين شهدوا المأتم ، لاحظت كثيراً من الانتماش والنشاط ، أكلت وشربت ،

ثم ساعدت بيدى فى جرجرة التابوت من الكنيسة الى القبر و لماذا يصبح الميت ثقيلاً هذا الثقل كله فى التابوت ؟ يقال ان سبب ذلك هو قوة العطل ، وأن الجسم يفقد القدرة على التحكم بنفسه و أو بقسال سخف آخسر من هذا القبيل و هذا الكلام يناقض الميكائيكا والعقل فى آن واحد و أنا لا أحب لامرى وحصك ثقافة عامة فى أكثر تقدير أن يقحم نفسه فيما لا علم له به ، وأن ينصب نفسه اخصائياً و وما أكثر أمثال هذه الحالة فى بلادنا! المدنيون يعشقون الاهتمام بالشئون العسكرية ، حتى ما تعلق منها بالاستراتيجية العليا ؟ والمهندسون بعشقون أن مهتموا بالفلسفة والاقتصاد السياسى و

لم أحضر « الصلاة » • وأنا امرؤ ذو كبرياء ، فاذا كانوا لا يطيقوننى الا فى حالات الضرورة القصوى ، فعلام أجر نفسى الى ولائمهم ، حتى تلك التي يقيمونها بعد الجنازات ؟ لا أدرى لماذا بقيت فى المقبرة على كل حال • جلست على قبر ، وغرقت فى أحلام شتى •

فكرت أولاً في معرض موسكو • ثم انتقلت الى مشكلة « الاندهاش » التي كانت موضوع تأملي • فاليكم ما خلصت اليه في أمر « الاندهاش » :

« لا شك أن الاندهاش من كل شيء غباء وحماقة ، ولا شك أن عدم الاندهاش من أى شيء أعظم أناقة " ، بل هو علامة رقى ، ولكن ليس من الجائز كثيراً أن يكون الأمر كذلك في التحليل الأخير ، وعندى أن عدم الاندهاش من أى شيء أغبى كثيراً من الاندهاش لكل شيء ، بل أكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أى شيء يكاد يساوى عدم تقدير شيئاً » ،

منذ بضعة أيام قال لى شخص أعرفه :

- نعم ، اننى أحرص على التقدير أكثر من حرصى على أى شى ، • الحاجة الى التقدير ! قلت بينى وبين نفسى : هه ! لسوف تعسرف هذه الحاجة الى التقدير اذا خطر ببالك أن تطبع شسيئاً فى يسوم من الأيام !

عندئذ انقطعت سلسلة أفكارى • اننى لا أحب قراءة ما 'يكتب على شاهدات القبور • هذه الكتابات كلها متشابهة • رأيت على بلاطة قبر غير بعيدة عنى سندويشة 'أكل نصفها • قلت لنفسى : ه هذا غباء • ليست السندويشة في مكانها • ه • كنستها الى الأرض ، لأنها ليست خبزاً وانما هي سندويشة لا أكثر • ثم ان تفتيت خبز على التراب ليس بالاثم فيما أظن ، وانما الاثم تفتيته على أرض غرفة • 'يستحسن أن أسال عن هذا الأمر •

لابد أننى مكت زمناً طويلاً ، بل زمناً طويلاً جداً ، أعنى أننى اضطجمت على حجر كبير له شكل تابوت من مرمر ، كيف حدث أثمى سمعت أشياء كثيرة على حين فجأة ؟ لم أنتبه الى ذلك فى أول الأمر كان موقفى موقف الاستخفاف الكامل ، سمعت أصواتاً جشاء ، كأنها صادرة

عن أفواه مكمومة بوسائد ، لكنها مع ذلك متميزة وقريبة جداً . فنحت عيني م وجلست ، وأخذت أصغى بانتباء .

ــ صاحب المعالى ، حقاً ليس هذا بالمكن ، أعلنت كباً ، فألمَّ المهويست ، فاذا أنت تلعب بالسبعة الدينارى ، كان ينبغى لك أن تقول من قبل ان معك الدينارى ،

ـ ولكن الاعتماد على الذاكرة في اللعب ليس بالشيء المستلى أيضا ٠

۔ صاحب المعالی ، لا یمکن اللعب بغیر ضمانات ، لابد ان من لاعب لا یلعب ؟ یعیب منح توزیعة بغیر مقابل .

ــ ولكن أنِّي لنا هنا لاعب لا يلعب !

يا لها من أحاديث في غير محلها! لا أقل من أن يوصف هذا بأنه غريب وغير متوقع في آن واحد • الصوت رصين رزين • والصوت الناني أميل الى التعاذب • ما كنت لأصدت في لولا أن سمعت بأذني • ما منى القمار في مشل هذا المكان ، ومن هو ذلك الجنرال ؟ أما أن الجلبة كانت صادرة عن القبور فذلك أمر لا مجال للشك في • ملت على شاهدة القبر لأقرأ : « هنا يرقد جثمان الجنرال ميجر برفويادوف ، حامل أوسمة كذا وكذا ، • هم ! • • • « توفي في شهر أغسطس (آب) • • في السابعة والحمسين من العمر • ارقد في سلام ، أبها الرماد الغالى الى طلوع الفجر الفرح ! » •

عجباً! هو اذن جنرال حقاً! أما القبر الآخر الذي كان يصدر عنه الصوت المتعاذب ، فليس له بعد ضريح • لا شيء الا بلاطة موضوعة عليه ، فلابد أن نزيله قادم جديد • ان الصوت يدل على أن صاحبه موظف في الدرجة السابعة •

قال صوت لم أسمعه من قبل ، على مسافة بضعة أمتار من مكان الجنرال ، تنحت قبر يبدو جديداً:

- أوه! أوه! أوه! أوه ا

هو صوت رجل من عامة الشعب ، يحاول صاحبه أن يخفف حدثه أدباً •

_ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

فزعق صموت عصبى فيمه احتقاد ، هو صوت سيدة من المجتمع الراقي فيما يبدو ، زعق يقول :

_ أ . • • ها هو ذا تأخذه الحازوقة مرة أخرى ! ألا انه لقصاص عديد أن أكون بجانب هذا الدكاني !

_ ليس بى حازوقة ، ولم أكل شيئًا • ذلك كله يأتى من تلقاء تمسه طبيعة و ماذا يا سيدتى الجميلة ؟ ألا سبيل اذن الى تخليك عن نزواتك ؟

_ ما اضطحاعك هنا ؟

_ دسونی فی هذا المکان دساً • أولادی وامرأتی هم الذین حشرونی هنا • لم أجیء بارادتی • ذلك هو سر الموت! لولا الموت ما كنت لأرضی أن أرقد الی جانبك ولو أعطیت ذهب الأرض كله • وقد جشت الی هذا المكان بعد دفع آخرما كنت أملك من نقود • نحن أیضاً نملك ما ندفمه نفقات ِ لجنازة من الطبقة الثالثة •

_ جمعت ذلك من سرقة أموال الناس ؟

- کیف أسرق وأنت لم تدفعی لی قرشاً واحداً منذ شهر کانون الثانی ، مع أن لدکانی علمك دیناً !

حه! ما أشد ها بلاهة في نظرى أن يطالب المرء هنا بدبون له!
 اذهب الى فوق ، وطالب بدينك بنت أخى التي ورثتني .

- ـ كيف أطالب الآن ، وأين لى أن أذهب ؟ لقــد اجتزنا الحفـــرة كلانا ، وتحن أمام محكمة الرب منساويان في خطايانا .
- - أوه ا أوه ا أوه ا أوه ا
 - ــ انظر ، انظر ! أطاع الدكاني السيدة يا صاحب المعالى .
 - _ لم لا يطيعها ؟
 - ـ ولكنك تعلم يا صاحب المعالى أن نظاماً جديداً يسود هنا ٠
 - _ ما هو هذا النظام الجديد ؟
 - ـ نحن يا صاحب المعالى أموات ان صمح التعبير ٠

ألا انه لعزاء ! اذا كان هذا هو ما يبحدث فى متـــل هذا المكان ، فلا داعى أن يتســامل المرء عما ذا يبحــدت فى الطابق الأعلى ! يالها من أحاديث سبخيفة ! ومع ذلك ظللت أصغى ، رغم أن غضبى بلغ ذروته .

هذا صــوت ينبعث من مكان آخــر فى المسافة بين الجنرال والسيدة: الثائرة أعصابها :

- ــ أوه ! وددت لو أعيش زمنـــاً أطول ! لا ، لا ، اتنى أود كثيراً لو أحيا •••
- ـ هل تسمع يا صاحب المعالى ؟ ها هو ذا يستأنف! • يظل مصراً على الصمت بعناد شديد ثلاثة أيام ، ثم يعود يهتف فجأة : « وددت لو أعيش ، أود لو أحيا » وهو فوق ذلك يلمع الحاحاً شديداً ها ها ها ها ا

_ خفة عقل!

ــ يعتريه هذا فجأة با صاحب المعالى ، ويستولى عليه استيلاء ما ما انه هنا منذ شــهر نيسان (أبريل) ، ثم اذا هو يصبح بفتة : «أود أن أحيا! » •

قال صاحب المعالى:

_ هذا مضجر أخيراً !

_ مضجـر يا صاحب المصالى • ما رأيك فى أن نســـتأنف اغاظة آفدوتيا اجناتيفنا ؟ هأ هأ !

_ لا ، اعفنا من هذا ! لا أستطيع احتمال هـذه المرأة السليطة اللسان ، الفظيعة !

قالت المرأة السليطة باشمئزاز :

_ أنا أيضاً لا أستطيع احتمال أحد منكما ! انكما تنضحان ضجراً ، وتعجزان عن اجراء أى حديث رفيع • اياك أخاطب يا صاحب المعالى ، أوكد لك أنك لا تملك ما يجيز لك اصطناع الكبرياء • أعرف عنك قصة صغيرة ، أعرف كيف أن خادماً لو تن وجهك بمقشته ذات صباح ، حين كنت مختبئاً تحت سرير عشيقتك •••

دمدم الجنراك يقول من بين أسنانه:

ـ امرأة ق**ذرة ٠٠٠**

وعاد الدكاني يعول فقال :

عزیزتی الشهمة آفدوتیا اجناتیفنا ، قولی لی : أأنا أبتلی الآن
 بالمحن الأولی من عذاب الآخرة ، أم هذا شیء آخر ٠٠٠

- ا ••• عاد الى هوسه ! أوجست ذلك من الرائحة التى تخرج منه • هو ذا يستدير •

- لست أستدیر یا عزیزتی ، ولیس فی رائحتی أی شیء خاص ،
 لأن جسمی لا یزال محفوظاً ، أما أنت یاجمیلة فقد نتن لحمك نتنا حلوا ،
 لذلك تفوح منك رائحــة لا تطاق ، بصرف النظــر عن المكان ، واذا
 كنت لا أقول شیئاً ، فذلك أدب منی ،
- أوه ا أوه ا أوه ا أوه ا ليت اليوم الأربعين يسرع مجيئه ، فأسمع فوقى أصدواتاً محزونة : أسمع انتحاب زوجتى وتساقط عبرات أولادى •
 - ـ تتكلم عن البكاء ؟ هه ٥٠٠ لسوف يأكلون ثم ينصرفون
 - ــ آه ••• ليت أحداً على الأقل يصحو!

قال العموت المتعاذب:

آفدوتیا اجناتیفنا ، انتظری لحظة م سوف یتکلم الجدد .

- _ هل بينهم شيان ؟
- ـ نعم ، بينهم شبان يا أفدوتيا اجناتيفنا ؛ بل بينهم فتية .
 - ــ ها ٥٠٠ هذا في أوانه ٠
 - سأل صاحب المعالى :
 - ــ لماذا لم يبدأوا حتى الآن ؟

ــ • • • • لم يعيقوا يا صاحب المعالى • أنت نفسك تعلم أنهم قد يصمتون في بعض الأحيــان أســبوعاً كاملا • من حسن الحظ أثنا قد أثينا بأموات جدد ، أمس الأول ، وأمس ، واليوم • ولولا ذلك لبقيت الدائرة حولنا ، الى مسافة عشرين مترآ ، أمواتاً من السنة الماضية •

- _ شيء شائق حقاً ٠
- _ فاليوم يا صاحب المعالى دفن تاراسفتش ، الموظف في الدرجة الثالثة . أدركت ذلك من أصواتهم . وأنا أعرف ابن أخيه . لقد أنزل تابوت تاراسفتش منذ قليل .
 - اين هو ⁹
- ۔ علی مسافة خمس خطوات منك یا صاحب المعالی ، یسرة ً یکاد یکون عند قدمیك • هذه فرصة لتنعرف البه یا صاحب المعالی •
 - ـ ماذا ؟ ليس على أنا أن أخطو الخطوة الأولى •
- ـ بل هو الذي سبيدأ سيشرفه هـذا كثيراً يا صـاحب المعالى ؟ ثق أننى •••
 - حشرج صوت آخر مرتاع على حين فحأة قائلاً:
 - ۔ آه ا آه ٠٠٠ آه ا ٠٠٠ ماذا جري لي ؟
- _ هذا قادم جدید یاصاحب المعالی ، قادم جدید الحمد لله سرعان ما أقاق ! الصمت یدوم فی بمض الأحیان أسبوعاً
 - هتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :
 - آه ۰۰۰ يبدو لی أنه شاب!
 - فتمتم الشاب يقول:
- ـ حسدت • حدثت الوفاة في أعقاب اختسلاط ، بفتة " قال لى الدكتور شولتس أمس : عنسدك اختسلاط ، وفجاة مت في الصباح آ ا آ ا
 - قال الجنرال باشا مرحباً ، وقد سر مَّ هذا الحادث الحديد :
- لا يملك الانسان أن يفعل شيئاً أيها الشاب يجب علينا أن نسيطر

على أنفسنا ، وأن نغلب العقل فى سلوكنا ، أهلاً وسهلاً بك عندنا ، فى وادى جوزافات ، نحن ناس طيبون ، وسترى ذلك بنفسك ، فتعرف كيف تقدرنا ، الجنرال ميجر فاسلى فاسيلفتش برفويادوف ، فى خدمتك .

_ آه • • • • لا > لا > لن آلف ما حدث أبداً ! ذهبت الى الدكتور شولتس ، أصابنى اختلاط : أصيب الصدر أولاً فصرت أسعل ، ثم أصابنى برد : الصدر وأنفلونزة • • • وفجأة • • • وقع ما لم يكن بالمتوقع أبداً • • أسوأ ما فى الأمر أنه لم يكن فى الحسبان اطلاقاً •

عاد الموظف الصغير يقول بصوت مشفق كأنما هو يريد أن يشتجع الشاب المسكين :

- ـ تقول ان الصدر هو الذي أصيب أولاً ***
- ــ نعم ، الصدر ونشأ بلغم ثم انقطع البلغم فعجأة ! • آه • الصدر • أصبحت لا أستطيع التنفس ! • ولعلك تعلم •
- _ أعلم ، أعلم ؛ ولكن اذا كان المرض فى الصدر ، فقد كان ينبغى أن تستشير الدكتور ايك ، بدلاً من الدكتور شولتس •
- ـ لكننى كنت أتأهب للذهاب الى الدكتور بوتكين ، وفحــــأة ٠٠٠ قال الجنرال :
 - ـ عجيب! ان بوتكين يسلخ سلخاً •••
- لا ، انه لا يسلخ البتة سمعت أنه يحسن التشخيص بعناية
 كبيرة ، ويتنبأ دائماً بما سيقع •

قال الموظف الصغير مصححاً:

- _ ملاحظة صاحب المالى تتناول مسألة السعر •
- ــ ما هذا الكلام ؟ ثلاثة روبلات في أكثر تقدير ٠٠٠ وهو يحسن

الفحص ويعنى به أشد العناية ٠٠٠ ناهيك عن وصفاته ٠٠٠ لقد حرصت عليه حرصاً مطلقاً لأننى 'حد"ت عنه ٠٠٠ قولوا لى اذن ياسادة : أأذهب الى ايك أم الى بوتكين ؟

_ ماذا ؟ الى من تريد أن تذهب ؟

سأله الجنرال هذا السؤال ، وانفجر ضاحكاً ، فكان جثمانه يهتز من الضحك متلذذاً ، واقتدى به الموظف الصغير .

وهتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

ے عزیزی الشاب ، عزیزی الشاب الطیب ، کم أحبك ! لیتهم ، على الأقل ، يضعون بنجانبي واحداً مثله !

عندئذ نفد صبری! ماذا؟ أهذا ما يسمى بالميت العصرى؟ ولكن كان يجب على أن أصغى ، وألا أتسرع كثيراً فى اسستخلاص النتائيج واصدار الآراء • تذكرت اننى قد رأيت هذا الغبى فى تابوته منذ قليل • كانت هيئته هيئة صوص مرتاع ، وكان تعبير وجهه أبشع ما يمكن أن بكون التعبير فى وجه! ومع ذلك انتظرت التتمة •

غير أن الفوضى التي قامت قد بلغت من الشدة أتنى لا أتذكر الآن شيئاً • استيقظ عدد كبير من الأموات في آن واحد: منهم موظف الدرجة السابعة الذي أسرع يشرح للجنرال مشروعاً يتعلق بلجنة جديدة في الوزارة ، ويحدثه عن ترقية مرتقبة لكبار الموظفين ترتبط بذلك المشروع ، فأثار هذا اهتمام الجنرال كثيراً • أعترف أتنى بهذا الاصغاء اطلمت على أمور كثيرة ، فسجب أشد العجب لتلك الطرق العجيبة التي يسلكها أبناء الادارات الحكومية لتذيع في العاصمة • ثم صحا مهندس نصف صحو ، وأخذ يجتر خلال مدة طويلة سخافات تبلغ من الحماقة أن أحداً لم يشأ أن يصغى اليه ، فاضطر أن يبقى مهملا في ركنه • ثم جاء دور السيدة

المعروفة التي كانت ترقد في الصباح على النمش ، فأخذت تتحرك في رمسها وتضطرب ، وقد استغرب لبزيانليكوف (اتضح ان اسم موظف الدرجة السابعة ذي الصوت المتعاذب ، المستجى بجانب الجنرال برفويادوف ، كان اسمه لبزياتليكوف) أن يستيقظ الجميع في هذه المرة بهذه السرعة ، واني لأعترف بأنني استغربت ذلك أنا نفسي ، على أن بعضهم كان قد دفن أمس الأول ، فكذلك شأن تلك الفتاة الشابة التي تبلغ من العمر سبتة عشر ربيعاً ، والتي كانت لا تنفك تضحك ، ، ، بل قل لاتني تقهقه ساخرة ضارية غير لائقة ،

رفع لبزياتنيكوف صوته يقول معلناً على حين فجأة بلهجة فيها تعجل شديد :

- ــ صاحب المعالى ، صحا تاراسفتش ، موظف الدرجة الثالثة . فقال تاراسفتش ياحتقار :
 - _ فياذا 9

كان في لهيجته شيء من نزوة وتسلط في آن واحد ، أصخت بسمعي منتبها ، لأنني قد سمعت في الآونة الأخيرة عن تاراسفتش هذا حكايات مشهة مذهلة معاً .

- _ هذا أنا يا صاحب المعالى ، أو قل •••
 - _ ماذا ترید ؟
- ــ لا شىء الا الاستفسار عن صحة معاليك ان الجميع يشعرون هنا فى البداية بشىء من التضايق لعدم التعود • ان الجنرال برفويادوف يود أن يتشرف بالتعرف الى معاليك ، ويأمل أن •••
 - _ لم أسمع يهذا الاسم •
- ــ أرجوك أن تتذكر يا صاحب المسالى ، انه الجنرال برفويادوف ، فاسيلي فاسيلفتش برفويادوف .

- ــ أنت الجنرال برفويادوف ؟
- ــ لا يا صاحب المعالى ، ما أنا الا لبزياتنيكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، فى خدمتك ؛ أما الجنرال برفويادوف ٠٠٠
 - ــ كفى سخافات ا أرجوك أن تدعني وشأني ا

قال الجنرال برفويادوف مقاطعاً من أجل أن يضع حداً لشراسة هذا النزيل الجديد المتكبر:

1 asa _

انهم لم يفيقوا افاقة تامة يا صاحب المعـــالى • يعجب ألا نغفل
 عن هذا الأمر • انهم لم يتعودوا بعد • سوف يفيقون > فينظرون الى الأمور
 عندئذ بأعين أخرى •

فكرر الجنرال قوله :

ـ دعه !

وفحأة هتف صوت بقرب آفدوتيا اجناتيفنا ، صوت حانق لم 'يسمع من قبــل ــ صـــوت فتى من أسرة كريمة ، متهدج اللهجة مرتخى النبرة كثير التقطع ، هتف يقول مخاطباً الجنرال :

- _ فاسبلی فاسیلفتش ! صاحب المعالی ! اننی أرقبك منذ ساعتین وقد أودعت مذا المكان قبل ثلاثة أیام هل تتذكرنی یا فاسیلی فاسیلفتش ؟ أنا كلنیافتش ، التقینا عند آل فولوكونسكی الذین كانوا یستقبلونك أنت أیضاً ، لا أدری لماذا •
- ـــ كيف؟ ؟ الكونت بطرس بتروفتش ٠٠٠ هل يعقل أن تكون أنت ٠٠ في مقتبل العمر ٠٠ ما أشد أسفى! ٠٠
- ــ أنا أيضاً آسف •• وان كان يستوى عندى الأمران انني أربد

أن أستفيد أكبر استفادة من كل ما يعرض لى • ثم اننى لست كونتاً بل بارونا ، لست الا بارونا • نحن بارونات صخار لا أكثر ، أحفاد خدم • وهذا كله لا يهمنى فى قليل ولا كثير على كل حال • ما أنا الا نجس من أنجاس المجتمع الراقى المزيف ، يعد نفسه « خليعاً لطيفاً محبباً • • كان أبى جنرالا ، وكانت أمى "تستقبل فى « أعلى مجتمع » • وقد قمت فى السنة الماضية ، أنا واليهودى زيفل ، بطرح خمسبن ألف ورقه من الأوزاق المالية المزورة فى التداول ، ثم ونست بزميلي اليهودى ، ولكن جوليت تناربانتيه دو لوزجنان هى التي مضت بالمال الى بوردو • وتصور أنني كنت قد تعاهدت على الزواج • • • مع شيفالفسكايا • • • فتاة عمرها أنني كنت قد تعاهدت على الزواج • • • مع شيفالفسكايا • • • فتاة عمرها اجنانفنا هل تذكرين كيف أفسقتنى منذ خمسة عشر عاماً حين كنت غلاماً في السنة الرابعة عشرة من العمر ؟

ــ ها ! ••• هذا أنت اذن يا شــيطان ! لقد أحسن الرب بارسالك الى هنا •

_ ظلمت جارك الناجر حين ظننت أنه أخرج رائحة كريهة ٠٠٠ لقد سكت أنا وأخذت أضحك • الرائحة صادرة عنى • وضعونى فى تابوت مستَّمر •

ــ آه ! ••• يا للخبيث ! لكننى مسرورة مـع ذلك • لن تصدقنى اذا وصفت شدة افتقارنا الى الحياة والنشاط يا كلينافتش !

_ بلى ! بلى ! أصدّقك • وفى نيتى أن أهىء هنــا شـــيثاً طريفاً • صاحب المعالى ! لست أخاطبك أنت يا برفويادوف ، بــل أخاطبك أنت الآخر يا صاحب المعالى تاراسفتش ! ما بالك لا تجيب ؟ أنا كلينافتش الذى قدتك فى الصوم الكبير الى عند الآنسة فورى ، هل تسمع ؟

ـ أسمع يا كلينافتش • واني لسعت بك ، صدقني •••

ـ لا أصدق من كلامك شيئًا • كل ما أريده أيها الشيخ اللطيف هو أن أقبِّلك • ولكنني لا أسـتطيع ذلك ولله الحمد • هــل تعرفون ، يا سيادة ، ما فعله هذا د الجد ، ؟ لقد مان منهـذ يومين أو ثلاثة ، مدينـــاً بأربعمائة ألف روبل • وكان هذا المبلغ لأرامل ويتيمات ، وكان يتولى وحده ــ لا أدرى لماذا ــ تصريف شئون هذه الثروة ، فلم ' يسأل أن يؤدى أى حساب خلال ثماني سنين ٠ انني لأتصور كيف تستطيل وجوه أولئك الذين يدركون الآن حقيقة الرجل الذين ونقوا به • أليس صاحب خيال ثرى ؟ كنت منذ سنة أدهش وأتساط كيف يناح لهذا الشيخ الذي يبلغ من العمر سبعين عاماً ، ويعانى من داء النقرس في القدمين واليدين ، أن يملك من القوة ما يؤهله للاسترسال في الدعارة والفسق ٠٠٠ فهل عرفتم الآن السر؟ تلكم الأرامــل والبتيمات • كان ذلك الحيــــال وحــده يكف السحد قوته وانعاش حماسته ! ••• علمت بذلك منذ مدة ، فما ان علمته .. والآنســة شــارباتتيه هي التي أعلمتني به ــ حتى هرعت اليه وأسديت له نصيحة صديق لصديقه ، قلت له : « تدفع خمسة وعشرين ألف روبل في الحال ، والا تؤدى حسابًا في الغد ، • ولكن لم يكن معه الا ثلاثة عشر ألف روبل • فلعل الموت قد وافاه اذن في الوقت المناسب • هل تسمع ، يا جد ، يا جد ؟

- عزيزى كلينافتش ، أنا موافق على رأيك كل الموافقة ، ولم تكن بك حاجة الى الدخول فى هذه التفاصيل ، ان الحياة زاخرة بآلام وتمزقات كثيرة ، وليس فيها الا قليل من التسليات ٠٠٠ كنت أود لو أهدأ فى النهاية ، وانى لآمل ، فيما أرى ، أن أستمد من هذا المكان كل مع ٠٠٠

- ـ أراهن أنه شمَّ وجود كاتيش بيروستوفا !
 - ـ وجود من ؟ كاتيش ماذا ؟
- كذلك هتف الشيخ سائلاً بصوت يرعشه الهوى •
- ـ آ ٠٠٠ آ ٠٠٠ كاتيش ماذا ؟ انها هنا ، على مسافة خمس خطوات

منى الى السار ، وعلى مسافة عشر خطوات منك . هى هنا منذ أربعة أيام . وليتك تعلم ، يا جد ، أية شيطانة صغيرة هى ا انها من أسرة كريمة ، حسنة التهذيب . . . هى على الجملة شسيطانة ، شيطانة الى أقصى حد ! لم أتح لأحد هناك أن يراها . أنا وحدى أعرفها . كاتيش ، أجيبنى !

فأجاب صوت صارخ رنان فيه شيء حاد كأنه ابرة ، هو صوت فتاة صغيرة :

_ هيء هيء هيء ا

تمتم الشيخ يسأل بصوت لاهث :

_ هل هي شقه ۱ مراه ۱۹۰۰ ك

_ هیء هیء هیء !

وتمتم الشبيخ يقول أيضاً مختنق الأنفاس :

ـــ أحلم منذ مدة طويلة بشقراء صغيرة ٠٠٠ في الخامسة عشرة من عمرها ٠٠٠ وفي هذا الاطار بعينه ٠٠٠

صاحت آفدوتيا اجناتفنا تقول:

_ يا للشذوذ!

قال كلينافتش بصوت حازم :

ـ يكفى هذا • أرى أن جملة الأمسر حسنة • سندبر شئوننا هنا على أحسن وجه ، وبنير ابطاء • فانما الشيء الأساسي أن نقضى بقية الوقت في متعة ومسرة • ولكن كم بقى لنا من وقت ؟ قل أنت يا لبزياتنيكوف ، مادام هذا اسمك فيما سمعت •••

۔ اسمی لبزیاتنیکوف ، سیمیون افزئتش لبزیاتنیکوف ، موظف فی الدرجة السابعة ، سعد جداً بأن أنفذ أوامرك ٠٠٠ ۔ لا يهمنى أن تكون سعيداً أو ألا تكون ، ولكن يبدو أنك هنا الشخص الوحيد الذى يعرف كل شىء ، قل لى أولاً (كت لا أزال دهشاً من الأمر منذ أمس) : كيف يمكن أن تتكلم ونحن فى هذا المكان ؟ ذلك أننا أموات ، ومع ذلك تتكلم ، ويبدو كأننا نتحرك ، لكننا لا تتكلم ولا تتحرك ، فما هذه المهزلة ؟

ــ هذا أمر ، اذا شئت يا بارون ، يستطيع أن يشرحه لك أفلاطون نيقولايفتش خيراً مني •

من أفلاطون بيقولانيتش هذا ؟ لننتقل الى الوقائم ، بغير بهرج ولا زخرف !

- أفلاطون نيقولايفتش هو فيلسوفنا الرسمى ، يؤمن بالمذهب الطبيعى ، أستاذ كبير ، نشر عدة كتب فلسفية ، ولكنه نائم منذ ثلاثة أشهر ، فلا سبيل الى هزر ، ينطق مرة واحدة في الأسبوع ببضع كلمات لا تمت الى الأمر بصلة من الصلات ،

ـ الى الوقائع! الى الوقائع!

مو يشرح ذلك بأننا ، فوق الأرض ، حين كنا أحياء ، كنا نرتكب خطأ ، فنظن الموت ، تبحت الأرض ، موتا ، والحقيقة خلاف ذلك ، فالجسم هنا يحيا مرة أخرى ان صبح التعبير ، لأن نتفا من الحياة تتجمع وتنركز ، ولكنها تتجمع وتتركز فى الشعور فحسب ، لا أدرى كيف أعبر لك ، فل ان شئت ان الحياة تستمر هنا بحكم ما يشبه أن يكون قانون العطالة ، وفى رأى فيلسوفنا أن كل شى، متجمع ومتركز فى الشعور ، وهو يظل على هذه الحال شهرين أو ثلاتة أشهر ، و وربما ستة أشهر فى بعض الأحيان ، على سبيل المثال ، هنا شخص كاد يتحلل جسمه تحللاً كاملاً ، ومع ذلك نسمعه ، فى كل ستة أسابيع ، يدمدم فيجأة بكلمة ، كلمة واحدة

صفيرة ، لا معنى لها طبعاً « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ، • هذا دليــل على أنه لا يزال فيه قبس خفى من حياة •

_ سخف! غباء! ولكن قل لى : كيف أشم رائحة النتن وقد فقدت حاسة الشم ؟

مرد ذلك ٠٠٠ هى، هى، ٥٠٠ هنا يسبح فيلسوفنا فى ضباب كثيف ، فيما يتعلق بالشم خاصة ، يرى فيلسوفنا أن النتن الذى نشمه هنا تمن روحى بمعنى من المسانى ٠٠٠ هى، هى، ا ٠٠٠ تمن يصمدر عن الروح ، من أجل أن يتسع وقت المر، ، خلال هذين الشهرين أو هذه الأشهر الثلاثة ، أن يثوب الى نفسه ٠٠٠ وفى رأى فيلسوفنا أن هذه آخر نعمة ، ولكننى أرى مع ذلك يا بارون أن هذا الكلام هذيان صوفى فيبى بهب أن نغفره لمن كان فى مثل وضعه ٠٠٠

_ كفى • • الباقى معروف • • سيخافات ! • • ان الشىء الثابت المحقق أن الحياة ستستمر شهرين أو ثلاثة ، ثم « بوبوك ، • افترح عليكم جميعاً أن تقضيوا هذين الشهرين على نحو ممتع ما أمكن ذلك ، وأن تتنظموا من أجل هذا على أسس جديدة • سيداتي سادتي ! أقترح عليكم أن تتخلوا منذ الآن عن كل حياء أو حشمة •

فرددت أصوات تقول مؤيدة :

ـ نعم ، نعم ، يجب أن نتخلي عن كل حياء أو حشمة !

والغريب أن أصواتاً جديدة قد اشتركت في ترديد هذا الكلام ، فهي أصوات أشخاص أفاقوا اذن في تلك اللحظة نفسها •

وهتفت آفدوتيا اجناتفنا تقول بحماسة :

... آه ٠٠٠ لشدما أحب أن أتخلص من الحفر!

ــ هل تسمعون ؟ ••• ان آفدوتیا اجناتفنا نفسها ترید آن تتخلص من الحفر !

ــ لا يا كلينافتش ، لا ، لا ، لقد كنت استحى هناك ، في الماضي ، أما هنا فان رغبــة وهيبــة في التخلص من هذا الحيــاء تضطرم في نفسي وتتلظى •

قال المندس:

_ أفهم من كلامك أنك تقترح أن ننظم لأنفسنا هنا حياة قائمة على أسس عقلية في هذه المرة •

_ لا يهمتى هذا! بالمناسسة ، يجب أن ننتظر كوداياروف الذى جىء به أمس ، فمتى صحا شرح لكم كل شىء وفى الغد سيجيؤننا بعالم من علماء الطبيعة ، وربما جامونا بضابط ، واذا لم يخطىء تقديرى فسوف يجيئوننا معه يجيئوننا بكاتب ينشر مقالات فى احدى الجرائد وسوف يجيئوننا معه بمدير الجريدة فيما أعتقد ، على كل حال ، لا يهمنا أمسر هؤلاء جميعاً ، فليأخذهم الشيطان ، وحسبنا أن نكو ن جماعتنا ، فينتظم كل شىء من تلقاء نفسه بيننا ، ولكننى أطالب قبل كل شىء بأن لا نكذب ، على الأرض تستحيل الحياة بدون كذب ، فالحياة والكذب مترادفان : أما هنا فلن نكذب ، وذلك من أجل أن نضحك قليلاً ، لا أقل من أن ينفعنا القبر فى شىء! وسأكون أنا أول من يروى قصة حياته ، اننى كما تعلمون من صنف الضوارى ، فوق أول من يروى قصة حياته ، اننى كما تعلمون من صنف الضوارى ، فوق الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة ، أفي من الأسلاك ، لنقض الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة ، أفي من الأسلاك ، لنخلع الأقنة ، ولنظهر عراة عربًا تامًا ،

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

ـ عرياً تاماً ، عرياً تاماً !

- _ آه ٠٠٠ لشدما أحب أن أتعرى تماماً!
- كذلك قالت آفدوتيا اجناتفنا بصوت مزمجر .
- _ آ ••• أرى أن الجو سيكون مرحاً هنا فلا أريد أن أذهب الى الدكتور ايك !
 - _ أما أنا فأريد أن أحيا أيضاً ، أود لو أعيش مدة " أطول
 - وضحكت كاتيش ساخرة:
 - _ هيء هيء هيء ا
- الشيء الأساسي هو أن أحداً لا يستطيع أن يمنعنا من أن نفعل
 ما عقدنا العزم عليه ؟ ان برفويادوف ، رغم أنه غاضب فيما أرى ، لن
 يستطيع أن يبلغني هل أنت موافق يا جد ؟
- کل الموافقة ، وبأعظم سرور ، ولكن على شرط أن تكون كاتيش
 هى البادئة بقص قصة حياتها .
 - قال الجنرال برفويادوف:
 - _ أحتج! أحتج أشد الاحتجاج •

فأسرع ذلك الوغد لبزياتنيكوف يحاول اقناع الجنرال متعجلاً تعجلاً محموماً ، فقال له همساً وهو يخفض صوته :

- _ صاحب المعالى ، مسيكون في هذا نفع كبير لنا اذا نحن وافقنا ، هناك هذه الفتاة الصغيرة كما تعلم ٠٠٠ ثم هناك تلك القصص الصغيرة كلها ٠٠٠
 - ــ لنسلم بأن هناك الفتاة الصغيرة ٠٠٠ ولكن ٠٠٠
- ــ سـيكون لنــا نفع كبير ، يا صاحب المعالى ، نفع كبير ، أؤكد لك ! ••• فليبدأوا على الأقل ، من باب التجربة •••

- ـ حتى في القبر لا 'أترك مرتاحاً •••
 - قال كلينافتش :
- ــ يا جنرال ، أنت أولاً تلعب هنا بالورق ، ثم اننا لا يهمنا أمرك ، ولا نكثرث بك •
- ــ أيها السيد العزيز ، أرجــوك على الأقل ألا تنسى نفســـــ فتقول ما لـس ينيغي أن يقال ٠٠٠
- _ هه ؟ ماذا ؟ انك لن تستطيع أن تنالني على كل حــال ٠٠٠ ففى وسعى أن أغيظك ، ثم ماذا يجديه هنا أن يكون له لقب جنرال ؟ هناك كان جنرالا أما هنا فليس الا جيفة !
 - ـ لا ، لست جيفة ٠٠٠ أنا هنا ٠٠٠
- - أعولت الأصوات تصح:
 - ــ مرحى كلينافتش ! هأ هأ هأ ! •••
 - ــ لقد خدمت قيصري ٥٠٠ ولي سيف ٥٠٠
- ــ سيفك لا ينفع الا فى تسسفيد فئران ، ثم انك لم تستله فى يوم من الأيام .
 - ــ لا قيمة لهذا ، فلقد كنت جزءاً من كل .
 - ــ كثيرون هنا كانوا جزءاً من كل +
 - ــ مرحى كلينافتش ، مرحى ! هأ هأ هأ ! •••
 - قال المهندس:

ُ أَنَا لَا أَعْرِفُ مَا السَّيْفِ •

وصاح من بعيد صوت لا أعرفه لكنه بدا لى في ذروة الحماسة :

- سنهرب كالفثران أمام البروسيين ، وسيجعلونسا نطير في الهواء غياراً .

قال الجنرال بصوت خافت متلعثم لا يكاد 'بسمع ولا 'يفهم : ــ السيف شرف يا سيد .

ولكنني سمعته وفهمته .

وتعالت جلبة طويلة • كان الجميع يصخبون ويصيحون ، فلا يستطيع المرء أن يسمع الا عويل التململ الهسترى الذى يصدر عن آفدوتيا اجناتفنا معبراً عن نفاد صبرها :

ــ آه • • أسرعوا • • أسرعوا • • متى نبدأ أخيراً في التخلص من الحياء ! • • •

وقال الدكاني فحأة :

- أوه! أوه! أوه! أوه الحق أن نفسى أخذت تواجه البراهين ٥٠٠ وفجأة عطست وعطست على حين بغتة دون أن أريد ذلك ولكن الأنر كان مذهلا : أصبح كل شيء هادئا ساكنا كما يكون في مقبرة و تبدد كل شيء و أصبح الصمت صمت قبور حقا و لا أظن أنهم تحرجوا من حضورى : فلقد قرروا ألا يشعروا من شيء بحياء و لا ولا يمكن أن أفترض أنهم خافوا أن أشي بهم الى الشرطة و فما مجيء الشرطة الى هذا المكان وما عساها تفعل هنا ؟ لذلك تراني أستنتج ، على غير ارادة منى ، أنه لابد أن لهم سراً يجهله الأحياء ، وأنهم يحرصون أشد الحرص على ألا يذيم هذا السر و

قلت لنفسی : « هیا یا أصدقائی ، سأجیء أزوركم مرة أخرى ، • وغادرت المقیرة •

لا ، لا أستطيع أن أســـتلم بهذا فى الواقع ، لا أستطيع أن أقبله ! ان بوبوك لا يخيفنى ولا يبث الاضطــراب والقلق فى نفسى (ذلك اذن ما كان يريد أن يصل اليه « بوبوك ») •

دعارة في مثل هذا المكان! دعارة يسترسل فيها من 'تعقد عليهم أقصى الآمال! دعارة تقوم بها جثث متحللة متفسخة تتنة! دعارة لا تعف حتى في أواخر لحظات الشعور والضمير! لقد أتيحت لهم ، أتيحت لهم تلك اللحظات الأخيرة ، و ••• و ••• لكن كيف يفعلون هذا في مثل هذا المكان خاصة ؟ لا ، لا ، اتنى لا أستطيع أن أقبل ذلك وأن أستلم به •••

وطفت على الصفوف الأخرى ، وأصغيت الى جهة من الجهات ، ذلك أنه كان يجب على أن أصفى الى كل جهة من الجهات ، لا الى جهة واحدة ، حتى أستطيع أن أقطع برأى وأن أقضى بحكم • أترانى ألقى فى آخر المطاف ما يبعث على عزاء ؟

لکننی سأعود حتماً الی هؤلاء • لقد تعاهدوا علی أن یرووا قصص حیاتهم ونوادر شتی • أف • لکننی سأعود ، سأعود حتماً ، فتلك أزمة ضمیر •

وسأحمل مقالتي الى جريدة « المواطن ، • لقد 'نشرت فيها صــودة محرر • فمن الجائز أن ينشروا لى أنا أيضاً •

الطف لعنديس دج في عيب دوليسادد ١٨٧٦

د الطَّفَل عند السبيح في عيد اليَّلاث » ، ظهرت أول مرة في كراسة كانون الثاني (يثاير) ١٨٧٦ من ديوميات كالب، (الفصل الثاني ، ٢) • ••• أحلم دائماً أن هذا حـدث بمكان ما ، في زمن غير محـدًد ،
 عشية عيد الميلاد تماماً ، في مدينة كبيرة من المدن ، أثناء جو جليدى فظيع.

أحلم أن طفلاً لا يزال صغيراً جداً ، طفلاً عمره ست سنين ، وربما أقل من ذلك ، قد استيقظ ذات صباح في قبو ينضح رطوبة ، انه يرتدى نوعاً من قميص أو مئزر ، ويرتجف من شدة البرد ، وأنفاسه تنتشر بعاداً أبيض ، وقد قبع هو في ركن جالساً على صندوق ، وأخذ يرسل هذ البخار عامداً يخادع به ضجره ، ويتسلى عن سأمه بالنظر اليه كيف يطير ، ولكنه جائع يتمنى لو يصيب شيئاً من طعام ، لقد دنا في هذا اليوم عدة مرات من السرير الحقير الذي ترقد عليه أمه المريضة فوق فراش من قش ، متوسدة صراة ، ما الذي جاء بها الى هذا المكان ؟ أغلب الفلن أنها وافدة من مدينة أخرى مع ابنها الصغير ، وأنها قد وافاها المرض بغتة ، وقد اقتادت الشرطة أمس صاحبة القبو التي تؤجر غرفه ، وجلا السكان عن جميع أركان القبو متفرقين هنا وهناك ، فاليوم عيد ، ولم يبق في القبو الا لمنام خرق أخذ السكر منه كل مأخذ ، لأنه ظل يشرب منذ أربع وعشرين ساعة غير منتظر أن يحل وم العيد ،

وفى الطرف الآخر من الغرفة تئن عجوز صنعيرة أقعدها مرض الروماتزم ، ولابد أن عمرها ثمانون سنة ، لقد كانت فى أزمنة غير هذه الأزمنة وأمكنة غير هذه الأمكنة ، مربية أطفال ، ، ولكنها تموت الآن وحيدة ، تثن وتتنهد وتنهر الصبى الصغير ، لذلك يخاف الصبى الآن أن يدنو كثيراً من ذلك الركن ،

ولقد استطاع أن يجد فى الدهليز ما يشربه ، ولكنه لم يتمكن من العثور على أية كسرة خبز يأكلها ؟ وهذه هى المرة العاشرة ، على الأقل ، التى يقترب فيها من أمه ليوقظها ، وقد اعتراه أخيراً شىء من الحوف فى هذا الظلام ، لقد هبط الليل منذ مدة طويلة ، ولكن لم 'يشعل أحد ضوءاً

حتى الآن • وحين جس الصبى وجه أمه أدهشه أن الوجه ظل ساكناً لا يتحرك وأنه بارد كبرودة الجدار • قال يتحدث نفسه : « البرد شديد حقاً هنا ، • وارتاحت يده على كتف المريضة من تلقاء نفسها ، ثم أخذ ينفخ على أصابعه ليدفئها • ثم اذا هو ينبش السرير فجأة ليعثر على كسكيتته ، ويخرج من القبو متلمساً طريقه في الظلمة الحالكة بغير ضجة • ولقد كان يمكن أن ينصرف قبل ذلك بمدة طويلة لولا خوفه من أن يلتقى في أعلى السلم بكلب ضخم ظل ينبح أمام باب المنزل المجاور طوال اليوم • ولكن الكلب كان قد بارح مكانه ، ورأى الصبى نفسه في الشارع فحاة •

رباه! يا لها من مدينة! انه لم يشهد في حياته شيئاً كالذي يشهده الآن ، هناك ، في البلد الذي جاء منه ، يكون الظلام شديداً في الليل ، فالشارع لا ينيره الا مصباح واحد ، والمنازل الحشبية الصغيرة مختفية وواء مصاريعها ، ومتى هبط الليل لا أيرى أحد في الشوارع ، فالناس جميعاً يأوون الى بيوتهم ، ولا يبقى في الشوارع الا كلاب ، مثات من الكلاب ، أسراب كبيرة من الكلاب تظل تعوى وتنبيح طوال الليل ، ولكن الجو دافي، جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله ، الليل ، ولكن الجو دافي، جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله ، الجلبة أما هنا ، ، ، يارب! ليته يستطيع أن يأكل فقط ، ، ، ثم ما أشد الجلبة والصحة هنا! وما أوسطع الضياء! ما أكثر الناس ! وما أوفر الحيل والعربات ! ، ، ، وهذا الجليد !

وخرج بخار متجلد من خياشيم الأفراس المسرعة • ور"نت حدوات حوافرها على بلاط الشارع تحت الثلج الهش • وهؤلاء الناس كلهم ما أكثر ما يتصادمون ، و • • وباه • • ما أشد جوعه • • ما أشد وغبته في أن يأكل ولو لقمة من أى شىء • وما أشد الألم الذى يشعر به في أصابعه فجأة ! ومر بقرب الصبى وجل من شرطة المدينة ، فسرعان ما أشاح وجهه عنه متظاهرا بأنه لم يلمحه •

هذا شارع آخر • أوه ا ما أعرضه ! هنا سُيداس حتماً • ما أكثر

ما يصيح هؤلاء الناس كلهم ، وما أشد ما يسرعون في سيرهم ا وما أكثر الضياء! ما أسطع النور! ثم ما هذا ؟ آ ٠٠٠ زجاج نافذة واسعة ، ووراء الزجاج غرفة ، وفي الغرفة شهجرة عالية تبلغ السقف ، انها شهجرة صنوبر ، شهجرة عيد الميسلاد ، ما أكثر ما تحمل من أنوار ، وأشرطة مذهبة ، وتفاحات ، وقد أحيطت بلعب صغيرة ، وأفراس صغيرة ، وفي الغرفة أولاد يركضون : انهم يرتدون نيساب العيد ، ما أنظفهم! وهم يضحكون ، هذه بنت أخذت تراقص صبياً صغيراً ، ما ألطفها! ما أحلاها! محتى ان موسيقي تسمع من خلال الزجاج ،

ینظر الصبی الصغیر ویعجب ویدهش • ثم هاهو ذا یضحك ، بینا هو یشعر بألم فی أصابع رجلیه الصغیرة ، وبینا تحمر أصابع بدیه احمرارا شدیداً و تأبی أن تنثنی و توجعه اذا هو حسركها • عندئذ تذكر الصبی فجأة أن أصابعه تؤلمه ، فأخه بهکی ، وركض مبتعداً • ولكن ها هو ذا بری زجاج نافذة أخری ، ویری غرفة أخری فیها شجرة أیضاً • غیر أنه یلمیح فی هذه المرة موائد ، ویری علی الموائد أصنافاً من الحلوی ، أصنافاً كثیرة من الحلوی : أقراصاً باللوز ، أقراصاً حمراء وأقراصاً صفراء ؟ ویری أربع سیدات غنیات قد جلسن یو ترعن الحلوی • ویدخل ناس كثیر فی أجمل الحلل ، آتین من الشارع •

اقترب الصبى خلسة ، وفتح الباب ، ودخل فجأة ، أه ، ٠٠٠ لكم أخذوا يسبونه شاهرين أيديهم! وأسرعت سيدة تدنو منه فتدس فى يده قرشا ثم تفتح له باب الشارع بنفسها ، لشدما خاف ا وسرعان ما تدحرج القرش على الدرجات فرن رنيساً واضحاً ، لم يستطع الطفل أن يثنى أصابه ه الصغيرة المحمرة ليقبض على القرش! وأسرع يركض ماضياً فى سبيله فدماً دون أن يعرف الى أين يذهب ، ان به حاجة الى البكاء من جديد ، ولكنه فى هذه المرة خائف ، وأخذ يركض وهو ينفخ

على يديه واستولى عليه قلق وفزع ، اذ أحس فجأة بأنه وحيد جدا وفيما كان يشتد رعبه ، اذا هو و و و ما هذا أيضاً يا رب ؟ و و هؤلاء جماعة من الناس قد وقفوا مدهوشين و ان وراء زجاج افذة من النوافد ثلاث دمى و ليست الدمى كبيرة و وقد ألبست فساتين حمراء وخضراء و لكنها تشبه أن تكون حية "تماماً! هذا شيخ جالس كأنه يعزف على كمان على كمان كبير و وهذان شيخان آخران يعزفان على كمانين صغيرين ، صغيرين جدا ، وير حجان رأسيهما الدقيقين على ايقاع العزف و وتنظر الدمى بعضها الى بعض ، بينما تتحرك شفاهها وتتكلم و و مدن الزجاج على موتها فلا 'يسمع كلامها و وحد بالله على المناها و الكن الزجاج بالمحب صوتها فلا 'يسمع كلامها و

ظن الصبى فى أول الأمر أنها أشخاص أحياء • لكنه حين أدرك أنها دمى انفجر يضحك فجاة • لم يسبق له أن رأى مثل هذه الدمى فى يوم من الأيام ، بل لم يكن يتصور أن فى الامكان أن توجد أشال هذه الدمى • صحيح أنه كانت به حاجة الى البكاء • ولكن منظر هذه الدمى يبعث على الضحك ، يبعث على الضحك جداً •

وبدا له بغتة "أن أحداً أمسك قفاه • ان صبياً طويلاً شريراً كان واقفاً الى جانبه ، فاذا به يضربه على رأسه ، ويخطف كسكينته ، ثم يشبك ساقه بساقه فيسقطه على الأرض • تدحرج الصبى الصغير • وأخذ الناس يصيحون • واعترى الصبى " رعب شديد ، فقام وو "لى هارباً بخطى عريضة وهو لا يدرى ماذا يفعل ، ودخل بوابة أحد المنازل فصار فى فنائه ، ووجد كومة من خشب فأقمى وراءها وهو يقول لنفسه : « هنا • • • على الأقل • • • لن يكتشفوا مخبئى • • فالفلام فى هذا المخبأ شديد » •

أقعى وطوى بعض جسمه على بمضه وهو لا يستطيع أن يتنفس من شدة خوفه • ولكنه لم يلبث أن شـعر براحــة على حين فجأة • نعم على حين فجأة • أصبحت يداء وقدماه لا توجعــه ، وأحس بدفء ، بدف.

شــديد ، كأنه قريب من مدفأة • وارتعش بنتــة • آه ••• لقد حرم من النوم مدة طويلة • ما أحلى أن ينام هنا !

قال الصبى الصغير يحدث نفسه : « سوف أمكث هنا لحظة ، ثم أمضى أرى الدمى مرة ً أخرى » ، وابتسم حين تصنَّورها من جديد • لكأنها كانت حسمة !

وبدا له فنجـأة أنه يسمع صــوت أمه تغنى له أغنية صغيرة وهي ماثلة علمه •

ــ ماماً ! انني أنام ! آه ٠٠٠ ما أحلى النوم هنا !

وفجأة سمع الصبي صوتاً رقيقاً يقول له فوقه :

تعال انظر الى شنجرة عيد الميلاد عندى يا بنى •

فتصرّور الصبى فى أول الأمر أن أمه هى التى تكلمه ، ولكن لا ٥٠ ما هى أمه ٠ فمن ذا الذى ناداه اذن ذلك النداء ؟ لم يبصر الصبى شيئًا ، لكن أحداً قد مال عليه مع ذلك ، وضمّ بذراعيه فى الظلام ٠ وقد مد مو ذراعيه ٠٠ وها هو ذا يرى نفسه فجأة فى مكان آخر ٠٠٠ يا للضياء الساطع ! أوه,٥٠٠ ما أروعها شجرة من أشجار عيد الميلاد ! لكنها ليست شجرة صنوبر ٠ ومع ذلك لم ير فى حيانه شجرات كهذه الشجرة ٠ أين هو الآن ؟ كل شىء يشع ، كل شىء يتلألا ٠ وما أكثر الدمى الصغيرة التى تحيط به من كل جهة ٠ ولكن لا ! ما هذه دمى ، بل صيبة صغار ، وصبايا صغيرات ٠ ولكنهم يشعون ويتألقون ٠ وهم يرقصون من حوله وقد تشابكت أيديهم ، وهم يطيرون ، وهم يقبلونه ، وهم يحملونه ويأخذونه معهم أيديهم ، وهم يطيرون ، وهم ايراه عندئذ : يرى أمه تنظر اليه ، وتبسم فيطير هو أيضاً ٠ واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظر اليه ، وتبسم فيطير هو أيضاً ٠ واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظر اليه ، وتبسم فيطير هو أيضاً ٠ واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظر اليه ، وتبسم فيطير هو أيضاً ٠ واليكم السغير قائلاً لأمه :

_ ماماً ! ماماً ! آم • • • ما أحلى هذا المكان وما أشهاء !

وعاد يقبتًل الأطفال ، واشتهى أن يروى لهم قصة الدمى التي رآها وراء زجاج النافذة ، أن يروى لهم هذه القصة بأقصى سرعة •

قال يسألهم وهو يضحك ويلاطفهم :

من أتتم أيها الصبية الصغار ؟ من أنتن أيتها الصبايا الصغيرات ؟
 فأجابوه :

ــ هذه شـــجرة عيد الميلاد عند يسوع المسيح • ان المسيح ينصب شجرة فى مثل هذا اليوم من كل سنة للأطفال الصفار الذين لم يكن لهم شجرة على الأرض •••

هكذا علم أن جميع هؤلاء الصبية الصفار والبنات الصغيرات كانوا أطفالاً مثله ، ولكن بعضهم ماتوا من البرد في سلال تركوا فيها على أبواب قصور سان بطرسبرج ، وبعضهم ماتوا رعضماً في دار حضانة بغنندة ، وبعضهم ماتوا على أثداء أمهاتهم الناضبة ابان المجاعة التي عمت بلاد سمارا ، وبعضهم ماتوا مختقين بالهواء المسموم في حافلات الدرجة الثالثة من القطار ، ولكنهم كلهم مجتمعون الآن هنا كالملائكة ، انهم عند يسوع المسيح ، وان يسموع المسيح هو الآن معهم يمد يديه ليباركهم وليبارك أمهاتهم أيضاً ، وا بنتها الصغرى فتطير الى جانبه وكل واحدة منهن تتعرف ابنها الصغير أو ابنتها الصغرى فتطير الى جانبه أو الى جانبها ، والأولاد يقبلون أمهاتهم ، ويمسحون دموعهن ، ويضرعون اليهن ألا يبكين ، لأنهن الآن سعداء ،

فى فناء ذلك المنزل ، عثر البوابون فى الصباح على جثة طفل دخل الفناء مسرعاً وتجلّل وراء كومة من خشب ، وأمكن العثور على أمه فى النهاية ، كانت قد ماتت قبله ،

والتقى الاثنان في السماء عند الرب •

```
د الفلاح مارای » ؛ ظهرت اول عرة فی کراسة شسسهر
شباط ( فبرایر ) ۱۸۷۹ « یومیات کاتب » ( الفصل
الثالث ، ۳ ) ۰
```

ولكننى أعتقد أن جميع أنواع هذا « الجهر بالرأى ، تبعث فراتهما على الملل والضجر ، لذلك سوف أكتفى برواية حكاية ، بل ما هى بحكاية أيضاً ، وانما هى ذكرى لا أكثر ، ذكرى تحرقنى الرغبة فى بسطها هنا ، هذه اللحظة ، ختماماً لحديثنا عن الشعب ، كنت فى الناسمة من عمرى ، ولكن لا ، و ان من الأفضل أن أبدأ بالعهد الذى كنت أدخل فيه التاسمة والعشرين ،

في يوم الاثنين من عيد الفصح كان الهواء مشيعاً بالرطوبة ، وكانت السماء صافيسة زرقاء ، وكانت الشمس قوية دافشة ، ولكن نفسي ظلت غارقة في الظلمات • كنت أطوِّق وراء التكنات ، أعدُّ أوتاد السياج الضخم الذي كان سوراً للسنجن • ولكن لم تكن بي أية رغبة في عدُّ الأوتاد ، رغم أن هذا كان لي شياغلاً معتباداً مألوفاً • كان السجناء و في راحة ، بمناسبة اليوم الثاني من العيد • وكان كثير منهم قد سكروا سكراً شديداً ، ففي كل لحظة من اللحظات 'تتبادل شتائم ولكلمات في جميع الأركان • وكان آخرون يدندنون أغنيات بذيئة ، أو يلمبون بالورق تحت الحواجز . وكان السجناء الذين صرعهم رفاقهم بضربهم على رءوسهم لفرط ما أحدنوا من جلبة ، راقدين على سُررهم تغطيهم فرواتهم بانتظار أن يفيقوا من غيبوبتهم • وقد لممت نصال السكاكين مراراً حتى الآن • وكان ذلك كله ، خلال هذا اليومين من العيد ، يمِّذبني تعذيبًا شديداً الى حدِّ المرض . ثم انني لم أحتمل في حيماتي أن أرى منظس افراط الشعب في الشراب والطعام دون أن أشعر من ذلك باشمئزاز ، ولا سيما في هذا المكان • وكانت المراقبة قد قلَّت أثناء تلك الأيام • كان المراقبون يمتنعون عن التنبيش بحثًا عن خمرة يكون السنجناء قد أخفوها، لادراكهم أن من الحير أن يرخوا الحبل على غاربه مرة في السنة حتى لهؤلاء الأشرار ، والا ازداد الأمر سوءا٠ وشعرت بالكرء والبغض يشتعلان في قلبي آخر الأمر • لقــــد صادفت سحينا سياسيا بولنديا اسمه م ٠٠٠ حكى ، فرشقني بنظرة شزراء ،

ملتمع المينين مرتجف الشفتين ، وقال لى بصوت خافت صارفاً بأسنانه : « انني أكر. هؤلاء اللصــــوص ، ، ثم مضى • رجعت الى الثكنة التي بارحتها منذ ربع ساعة في أكثر تقدير ، كالمجنون ، حين رأيت ستة فلاحين ضخاما يهجمون دفعة واحدة على تترى سكران اسمه جازين ، ليردوه الى الصواب ، وينهالون عليه بضرب وحشى لو أصاب جملا لقتله • ولكنهم كانوا يعلمون أنه يصعب أن يموت هذا الهرقل ، فكانوا يضربونه ضربا لا رحمة فيه • فلما عدت الآن الى الثكنة رأيت جازين مسجى على الحاجز في ركن بآخر الغرفة وكأنه جثة هامدة لا حياة فسها ، وقد 'غطي بفروة ، ورأيت جميع السنجناء يمرون بقربه صامتين • انهم يأملون أن يستيقظ في الغد ، ولكنهــم يقولون : « من الجــائز مع ذلك أن يفطس ، • عدت الی مکانی ، ورقدت علی ظهری ، واضعاً یدی ُّ وراء رأسی ، مغمضــاً عيني م لقد كنت أحب أن أستلقى هذا الاستلقاء . فلا أحد يضايق من ينام ، فأستطيع بذلك أن استرسل في أحلام اليقظة على ما أحب وأهوى • ولكننى لم أسترسل هذه المرة فى الأحلام ؟ لقد كان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، وكنت أشعر بغم شديد ، وكانت لا تفارق سمعى كلمات م. . . . كى : « اننى أكر. هؤلاء اللصــوص ! » . ولــكن عــلام وصف " تلك المساعر التي انتابتني في تلك اللحظة • انهـا ما زالت توانيني في الحلم ليلا ، فلا أعرف أن هناك كوابيس أشدُّ منها هولا ً • لعلكم لاحظتم أننى حتى هذا اليوم لم أكد أتكلم عن حياتي في السجن • أما كنــابي « ذكريات من منزل الأموات ، ، فقد نشرته منذ خمســة عشر عاماً على أنه ذكريات خطص خيالي هو رجل قتل زوجته • وأضيف الي ذلك أن كثيراً من الناس يعتقدون ويؤكدون حتى الآن أنني 'نفيت الى سيبريا لأننى قتلت زوجتى •

هبطت سيئًا فشميئًا الى نوع من الحدر ، وانقدت لسلسلة ذكرياتي . اننى خلال السنين الأربع التي قضيتها في السمجن ، كنت أتذكر الأبام الماضية بغير انقطاع ، حتى لكأننى عشت حياتي بهذه الذكريات مرتين • قلما استحضرت هذه الذكريات عامداً • وانما كان يبدأ التذكر في أكثر الأحيسان بأمر تافه من الأمور ، وربما بدأ بأمر لم أكن قد انتبهت اليه ولا تلبثت عليه ، ثم اذا هو يتسع شيئاً فشيئاً فيصبح صورة واضحه ، أو يغدو احساساً قوياً كاملاً • فكنت أحلل تلك الاحساسات ، ثم أضيف لمسات جديدة الى تلك المادة التي عشها منذ زمن طويل ، بل كنت كذلك أصبحح فيها ، وأبدل منها بغير انقطاع • وكانت تلك هي لذتي ومتعتى في الأمر كله •

ففي تلك المرة تذكرت ، على حين فجاة ، سماعة من طفولتي الصغيرة لا يقف عليها الادراك ، أيام كنت في السنة التاسعة من عمري . كنت أظن أنني قد نسيت تلك الساعة نسسياناً تاماً • ولكن كان يسرني ويبهجني ويمتعني في ذلك الحين أن أستعد ذكريات طفولتي الأولى • تذكرت شهر آب (أنحسطس) الذي قضيته في الريف • كان الجو في ذلك الشهر جافاً مضيئاً ، ولكنه كان بارداً بسبب الربيح • كان الصيف يئسارف على نهايته • وسوف ينبغي أن أعود الى موسكو قريبًا ، فأقضى سْنَاءً كَامَلًا مَضْجِراً في تعلم اللغة الفرنسية • لذلك أحسست بانقباض في صـــدري حين تصــورت أنني سأغادر الريف • اجتزت البيدر الذي تتكدس عنده مساحق القمح • ثم اجتزت وادياً وصعدت صوب حرجة كثيفة اسسمها لوسك تمتد وراء الوادى وتبلغ الغابة • وفيما كنت أوغل في الحرجة ، سمعت غير بعيد مني ، على مسافة اللاتين خطوة من حافة الحرجة ، فلاحاً يحسرن وحيداً • وكنت أعلم أنه يحرث أرضاً وعرة يلقي الحصيان عناء شهديداً في جر ّ المحراث عليها ، لأنني كنت أسمع الفلاح من حين الى حين يصرخ مهيباً بالحصان أن يبذل مزيداً من الجهد : هو. ! هو. ! وكنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً ، ولكننى لم أتبَّين مَنَّ هذا الذي يحرث الآن • وكان لا يهمني أن أعرف ذلك على كل حال ، لأن العمل الذي كنت عاكفاً عليه كان يشغلني عن سيائر ما عدا. • لقد

كنت مشغولا أنا أيضاً: كنت أقطع لنفسى قضباناً من شجر البندق لأجلد بها الضفادع و ان قضبان شجر البندق جميلة جداً وهي أصلب وأمتن من قضبان شجر السندر و وكانت الحنافس والجعلان تشد انتباهي أيضا ، لأننى كنت مولعاً بجمعها لكثرة أنواعها وألوانها وكنت الى ذلك أحب الجراذين الصغيرة النشطة التي تضرب سمرتها الى حمرة وتزينها بعع سغيرة سود و ولكننى كنت أخاف النعابين و وكان ما ألقاه من نعابين أقل كثيراً مما ألقاه من جراذين على كل حال و ولا تقع عين المرء على كثير من الفطر هناك و فمن أجل أن تبجنى فطراً يجب عليك أن تمضى الى جهة أشجار السندر و ولقد كنت أتهيأ للذهاب الى تلك الجهة و ما أحببت في حياتي شيئا كما أحببت الغابة بأنواع فطورها و نمارها البرية وحشراتها وطيورها و وقنافذها وسناجها ، والرائحة الرطبة التي تفوح من أوراق أشحارها الساقطة المتعفنة و اننى وأنا أكتب هذه الأسطر الآن أشم كل شذى غابتنا هناك في القرية و ان هذه الاحساسات ستبقى حية ما حيت و

فى وسط ذلك الصمت الشمامل سمعت على حين فجمأة هذا النداء واضحاً كل الوضوح: « الذئب! » • فاذا أنا أصرخ وقد 'جننت رعباً » وأهرول متجهاً الى حمافة الغابة ، وأمضى 'قُدماً الى الفلاح الذي كان يحرث •

انه فلاحنا مارای • لا أدری هل یسمی أحد بهذا الاسم • ولكن جمیع الناس كانوا یدعونه مارای • هو فلاح فی نحو الخمسین من عمره ، قوی البنیة فارع الطول له لحیة حمراء كثیفة وخطها الشب • كنت أعرفه ، وان لم أكن قد كلمته تقریباً حتی ذلك البوم • كان حین سمع صراخی قد أوقف حصانه • فلما وصلت الیه فتشبت باحدی یدی المحراث ، وأمسكت بیدی الأخری كمته ، أدرك مدی ما أنا فیه من بالمحراث ، وأمسكت بیدی الأخری كمته ، أدرك مدی ما أنا فیه من

ذعر ٠ وصحت أقول له لاهثاً:

ـ ذاب ا

فرفع رأسه ونظر فيما حوله على غير ارادة منه ، وخيتًل اليه خلال لحظة أننى أوشك أن أكون ٠٠٠

قال يسألني :

_ أين الذئب ؟

فتمتمت أجيبه :

_ صاح أحد ٠٠٠ صاح أحد قائلاً : « الذئب ! ٠٠

فدمدم يقول ليطمئنني :

ر ميًا هيًا ! لا ذئب هنسا • لقد خيسل لك • ما مجيء الذئب الى هذا المكان ؟

ولكننى ظللت أرتعد ارتعاداً شديداً ، وتمسكت بقميصه مزيداً من التمسك ، وأظن أن شـحوبى كان شـديداً جداً ، نظر الى ماراى وهو يبتسم ابتسامة قلقة ، كان خائفا على ، وكان واضحاً أنه قلق أشد القلق من الحالة التي كنت فيها ،

قال وهو يهز رأسه:

_ ما أشد ما انتابك من خوف ! هيئًا • كفى يا صغيرى ! لا ، لا ، انك جسور حقاً •

ومدً يده يلاطف خدى فجأة • وكرر قوله :

ـ هياً ! كفى ! كان يسوع المسيح معك • ارسم اشارة الصليب • لكننى لم أرسم اشـارة الصليب • كانت شـفتاى متقلصتين فى طرفيهما • وأظن أن هذا هو ما شدهه أكثر من أى شىء سواه • فقرب اصبعه الضخمة ذات الظفر الأسـود ، المستخة بالتراب ، ومس شفتي شفتي السيد المستخة التراب ، ومس السيد المستخة التراب المستحة المستحة التراب المستحة المستح

المتشنجتين مسماً رفيقاً هادئاً • وقال لى وهو يبتسم ابسامة طويلة تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها:

_ ما بالك ؟ ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ هأنت ذا ترى أن ليس ههنا ذئب ! آه ••• آه •••

أدركت أخيراً أن ليس ثمة ذئب ، وأن الصرخة التي سمعتها تنادى • الذئب ! ، انما كانت وهماً • وكانت الصرخة قد دو ًت مع ذلك واضحة أشد الوضوح • غير أن هذه الصرخات (التي لا تتصل بالذئاب وحدها) قد سبق أن سمعت مثلها مرة ً أو مرتين ، فكنت أعلم أنها نوع من أوهام الحواس (وقد زالت عنى هذه الظاهرة بعد ذلك حين كبرت) •

قلت وأنا ألقى عليه نظرة استفهام خجلي :

... أنا ذاهب •

فأجابنى وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسمامة التى تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها:

۔ هیاً ، اذهب ، سأتابعك بنظری • لن أدع للذَّتب أن يهاجمك • كان يسوع المسيح معك • اذهب •

ورسم على اشارة الصليب ، ثم رسمها على نفسه .

وانصرفت فكنت ألقى نظرة الى الخلف كلما سرت عشر خطوات و وفيما كنت آبتعد بقى ماراى واقفاً هو وحصانه ، متجهاً ببصره الى ناحيتى ، يهز كى رأسه كلما التفت نحوه ، يجب أن أعترف أننى كنت أشعر بخجه من اظهارى ذلك الرعب كله ، ولكن هذا لا ينفى اننى ظللت خانفاً خوفاً شديدا من الذئب الى أن صعدت الجانب الآخر من الوادى ، وصرت قريباً من أول بيدر ، وهناك زال خوفى ولم يبق منه أى أثر ؟ ورآيت كلبى لوبيو يندفع الى قباة ، فأحسست من حضور لوبيو بطمأنينة كاملة وثقة تامة ، والتفت تحو ماداى مرة أخيرة ، فلم أستطع عندئذ أن أميز وجهه ، ولكننى أحسست أنه لا يزال الى تلك النظرة الرقيقة نفسها ، وأنه يهز لى رأسه مشجعاً • ولوحت له بيدى ، فرأيت يده ترتفع فى الهواء ملو حدث الأرض • وسمعته من بعيد يصبح مستحثاً حصانه :

ـ هوه 1 هوه **1**

ورأيت الحصان يجر^د العربة على الأرض الوعرة في غير قليل من العناء •

ذلك كله عاد الى ذاكرتى ، لا أدرى لماذا ، ولكنه عاد بأدق التفاصيل وأوضح الصور ، ورأيتنى أفتح عينى فجأة وأجلس على الحاجز ، فألاحظ ان الابتسامة الهادئة الوادعة التى أنبتتها هذه الذكريان على شفتى لا تزال مرتسمة عليهما ، ولبثت دقيقة كاملة أستعرض صور تبلك الذكريات ،

بعد أن تركت ماراى ورجعت الى الدار لم أحد من أحداً بشىء عن المغامرة ، التى وقعت لى وهل كانت تلك مغامرة حقا ؟ ثم لم ألبت أن سيت ماراى وحين لقينه بعد ذلك فى مناسبات نادرة ، كنت لا أذكر وحكاية الذئب ، بل كنت لا أخاطب بشىء البتة ، ثم هأناذا بعد انقضاء عشرين سنة على ذلك اللقاء ، أتذكره وأنا فى سيبريا بأدق التفاصيل واوضح الصور و فلابد أن ذلك اللقاء قد 'نقش فى نفسى من تلقاء نفسه دون أن أدرك أنا ذلك ، ودون أن أريده ، ثم اذا هو تستيقظ ذكراه فى خيل حين احتجت اليها ، تذكرت الابتسامة الرقيقة الحنون يغمرنى بحنانها الفلاح المسكين الذى كان قنا من أقناننا و وتذكرت اشارات الصليب التى رسمها فى ورع وتقوى ، وتذكرت كيف كان يهز لى رأسه مشجعاً ، وتذكرت ما قاله لى : « ما أشد الحوف الذى انتابك يا صغيرى ! ، ، وتذكرت خاصة تلك الاصب بها طرف فمى خاصة تلك الاصب الضخمة المتسخة بالتراب التى لامس بها طرف فمى ملاسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل ، صحيح أن أى انسان ما كان ليفوته ملاسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل ، صحيح أن أى انسان ما كان ليفوته

أن يطمئن طفلاً • ولكن ذلك اللقاء في الحلاء قد اكتسى في نظرى معنى خاصاً • لا أظن أنه كان سينظر الى نظرة تعبر عن حب يبلغ هذا المبلغ كله من النقاء > لو أننى كنت ابنه وفلذة كبده ؟ ما الذي أجبره على هذا الحب كله ؟ لقد كان فناً لنا > وكنت أنا ابن مولاه • لا أحد كان سيملم بأنه لاطفني ولاسس خدى > ولا أحد كان سيكافئه على ذلك أبداً • فهل كان اذن يحب الأطفال الصفار هذا الحب كله ؟ ان لبعض النساس طبعة كهذه • لقد حدث اللقاء في مكان منعزل > في البرية ؟ والله وحده رأى من علياء سمائه ما يزخر به قلب فلاح روسي بسيط جاهل متوحش لا يزال مستعبداً للأرض ولا يزال لا يلمح في الأفق فجسر تحرره > ما يزخر به قلبه من عاطفة انسانية عميقة متألقة ومن حنان يشبه أن يكون حنان امرأة •

قولوا لى : أليس هذا ما كان يعنيه كونستانتان آكساكوف حين تحدث عن التربية الرفيعة في شعبنا ؟

وأحست فجأة ، وأنا أغادر سريرى الحقير وألقى نظرة على ما حولى ، أن فى وسعى بعد الآن أن أرى هؤلاء الأشقياء رؤية جديدة كل الجدة ، ثم اذا بكل كره وكل غضب يزايلان نفسى ويسمحيان منها بغنة بما يشبه السحر ، ورحت أتفرس فى نظرات رفاق السجن ، فأسال نفسى : هذا الفلاح المحلوق شعر رأسه ، الساقط خلقه ، الممتلىء وجهه بالندبات ، الذى كان فى سكره يعول بأغلن بذيئة ، ألا يمكن أن يكون ماراى ثانيا ؟ أين لى أن أعرف فى الواقع ما بنفسه ؟ أعود فأقول اننى فى ذلك المساء صادفت البولندى م م م م المناه عن هؤلاء فى ذلك المساء صادفت البولندى م م م م الم يستطيع أن يقوله عن هؤلاء يتذكر فلاحاً اسمه ماراى ، فكان كل ما يستطيع أن يقوله عن هؤلاء الناس : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! ، ، نسم ، لابد أن البولنديين يقاسون أكثر مما نقاسى ،

جحوز بحاوز همها مائة سنة ۱۸۷٦

« في السنة المائة والرابعة من المعبر » ، نشرت أول مرة في عدد شهر آذار (مارس) ١٨٧٦ من « يوميات كالب » (القصل الأول ، ٢) • « خرجت من منزلی فی سحو الظهر ، کان علی آن أسجز أعمالاً کیرة ، وکنت متأخرة تأخرا کبیرا ، فاذا أنا ألقی علی باب أحد المنازل أمرأة عجوزاً ، طاعنة فی السن کثیراً ، هرمة هرماً شدیداً ، متوکئة علی عصا ، یستحیل علی المرء أن یحزر ما سنها ، کانت جالسة بقرب بوابة فناء المنزل ، علی الدکة التی یجلس علیها البواب ، کانت تستریح من عناء السیر ، وکنت أنا ذاهبة الی منزل آخر یبعد عن ذلك المکان بضع خطوات، ودخلت المنزل الذی کنت ذاهبة الیه ، فلماً خرجت منه رأیت العجوز جالسة "الآن علی دکة بواب هذا المنزل الآخر ، و نظرت الی " ، فابتسمت لها ، ودخلت متجراً کان علی آن أشتری منه حذاء بن لابنتی صونیا ، وبعد أربع دقائق أو خمس رأیت العجوز مرة "أخری فی شارع نفسکی ، جالسة " هذه المرة لا علی دکة ، اذ لا دکة هناك ، بل علی حجر بقرب جالسة " هذه المرة لا علی دکة ، اذ لا دکة هناك ، بل علی حجر بقرب الباب ، فرأیتنی أقف أمامها رغم ارادتی ، قائلة " لنفسی : « لاذا تجلس هذا الجلوس أمام جمیع المنازل ؟ » ،

وسألتها :

- ـ أأنت متعبة يا جدة ؟
- نعم یا ابنتی ، متعبة ، متعبة دائماً قلت لنفسی : « الجو دافی ›
 والشمس ساطعة ، فسأمضى أتغدى عند أحفادى » •

- _ أنت ذاهمة للغداء اذن يا جدة ؟
 - _ للفداء يا ابنتي ، للغداء ٠
- ــ ولكنك لن تقطعي بهذا السير مسافة طويلة!
- ۔ بلی ! استریح ، ثم انہض ، فأمشی بضع خطوات ، ثم استریح مرة أخرى ، وهكذا دوالیك .

خطرت اليها • بدا لى أمرها عجيباً • انها عجوز قصيدة ، نظيفة المظهر ، بالية الثياب • لعلهما من البورجوازية الصغيرة • وجهها ذابــل ، أصفر ، معروق ؟ شقتاها باهتتان ، لا لون لهما • تشبه أن تكون مومياء • ولكن هذه المومياء تبتسم ، والشمس تسطع لها كما تسطع لسائر الأحياء •

قلت لها مبتسمة :

- _ لابد أنك مسنة جداً يا جدة!
- ے ماثة وأربع سنين يا ابنتى ، مائة وأربع سنين ، لا أكثر ، وأنت ، الى أين 'تراك ذاهبة ؟

ألقت على مذا السؤال وهى تنظر الى ضاحكة ، ربما من فرحها بانها تحدث أحداً • ولكننى استغربت من عجوز تجاوزت المائة أن تسأل الى أين أنا ذاهبة ، حتى لكأن الأمر يهمها •

قلت وأنا أضحك أيضاً :

- ــ اشتريت لابنتي حذاءين يا جدة ، وأنا الآن عائدة بهما الى الدار •
- ما أصغرهما ! أرأيت ما أصغرهما ؟ لابد أن ابنتك صغيرة جداً ٠
 هل لك أولاد أخر ؟

وعادت تضحك وهي تسائلني بنظرها • ان عينيها كابيتان ، باهتتان ، ولكن نوعاً من حرارة داخلة تنعشهما أحاناً •

قلت لها :

- مل تأخذين منى هذه الكوبكات الحسية يا جدة ؟ سوف تشترين
 بها رغيفاً صغيراً
 - ـ ماذا ؟ خمسة كوبكات ؟ شكراً آخذها
 - ـ خذيها بدون أن تستائي ياجدة ٠

أخذتها • كان واضحاً أنها ليست متسولة • هيهات أن تكون متسولة • لقد أخذت الكوبكات الحسسة بكثير من اللباقة والكياسة ، لا كما تؤخذ هدية يقبلها من أنهدى البه لطفاً وطيبة • ولعلها كانت الى ذلك مسرورة منتبطة : من ذا الذي يكلم العجوز المسسكينة يوماً ؟ وهي الآن لا أتكلم فحسب ، وانعا أيهتم بها ، ويصعر أحد نحوها بعاطفة مودة •

قلت لها:

ـــ استودعك الله يا جدة • أتمنى لك أن تصلى بصحة جيــدة وعافية تامة •

ــ سأصــل يا ابنتى ، سأصــل ٠٠٠ سأصل . واذهبى أنت الى حفدتك .

كذلك قالت لى العجوز ناسية ً أننى لمنَّا أصبح بعد جدة ً ، متخيلة ً في أغلب الظن أن جميع النساء جدَّدات •

وانصرفت عنها • فلما التفت لأراها مرة أخرى ، كانت تنهض عن مكانها ببطء ومشقة ، ثم تسير بضع خطوات جا رة نفسها جرآ ، ضاربة بعصاها الصغيرة الأرض • لعلها ستحتاج الى أن تستريح عشر مرات أخرى قبل أن تصل الى مسكن ذويها الذين ستتفدى عندهم • الى أين عساها ذاهبة ؟ يا لها من عجوز صغيرة غريبة ! » •

ذلكم ما روته لى السيدة ٠

روت لى السيدة هذه القصة فى ذات صباح • والحق أنها ليست قصة بل هى انطباع لا أكثر • وفى ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن قرأت مقالة فى احدى المجلات ، وكنت قد نسيت ما روته لى السيدة ، تذكرت تلك العجوز الهرمة ، فاذا أنا أكمل القصة فى خيالى ، فأرى المرأة التى تبلغ من العمر مائة وأربع سنين ، تصل الى نويها للغداء ، واذا بما أتخيله يرتسم أمامى لوحة صغيرة تبدو لى مستمدة من الواقع فعلا .

ان أحفاد العجوز ، وربما أولاد أحفادها _ لكنها تسميهم جميعاً أحفادها _ هم 'صنّاع يعبسون أسرة واحدة في قبو تحت الأرض ، أو يديرون دكان حلاقة ، هم أناس فقراء ولكنهم توصلوا الى أن يعيشوا حياة لائقة ، وصلت العجوز اليهم في نحو الساعة الثانية ، وكانوا لا يتوقعون مجيئها ، لكنهم استقبلوها مسرورين بقدومها ،

ــ آ ٠٠٠ هأنت ذى أيضاً ، ماريا مكسيموفنا ! ادخلى ، ادخلى ، أهلاً وسهلاً بخادمة الرب !

دخلت العجوز مبتسمة ، بعد أن رن جرس الباب مدة طبويلة بصوت حاد طناًن و ان حفيدتها امرأة الحلاق ، لا تزال في شرخ الشباب كزوجها الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، وهو رجل رصين المظهر ، رغم خفة المهنة التي يعمل فيها و انه يرتدي ردنجوتاً يلتمع دسمه كالتماع

الدسم فى قرص من الحوى ، ربما بسبب ما يستعمله فى مهنته من دهن . ما عساى أقول ؟ اننى لم أر فى حياتى حلاقًا نظيفًا . وكانت ياقة ردنجوته كالمغطوسة فى طحين .

وسرعان ماهرع الى جدة أمهم ثلاثة أطنال صفار ، صبى وبنتان . ان السجائز اللواتى بلغن مشـل هذا السن يتعاطفن والأطفال : فهن وهم يتشابهون نفساً ، ويتشابهون فى كل شى. .

جلست العجبوز • وكان عنبد رب البيت ضيف جهاء لعمل من الأعمال • انه في نحو الأربعين من عمره • وهو يهم الآن ان ينصرف • وكان عند الحلاق أيضاً ابن أخته : فتى في السابعة عشرة يعمل في مطبعة • رسمت العجوز اشارة الصليب ، ونظرت الى الغريب • قالت :

_ آه ۵۰۰ ما أشد ما أحس به من تعب! وهذا ، من هذا ؟

فانبرى الغريب يقول مبتسماً :

هذا أنا ، كيف يا ماريا مكسيموفنا ؟ أأصبحت لا تتعرفينني ؟ منذ
 سنتين كان علينا أن نذهب الى الغابة معاً لقطاف الفطر •

- آ . • • أعرفك يا عفريت! اننى أتذكر • ولكننى نسيت اسمك • آ. • • • ما أشد ما أشعر به من اعياء!

قال الغريب مازحاً :

ــ ماذا يا ماريا مكسيموڤنـــا ، أيتهــا الجدة المحترمة ؟ ٠٠٠ أرى أنك أصبحت لا تكسرين .

فأجابته العجوز وهي تضحك :

_ دعك من هذا الكلام ، دعك ! •••

كان سرورها بمزاحه واضحاً •

وأردف الرجل يقول :

ـ أنا يا ماريا مكسيموفنا رجل طيب ه

.. يحلو الحديث مع رجـــل طيب! آه ٠٠٠ انني لا أكاد أستطيع التنفس! أرى أنكم اشتريتم لسيريوجنكا معطفاً جديداً ٠

قالت ذلك وهي توميء الى ابن الأخت •

فابتسم ابن الأخت كاشفاً عن كل أسنانه ، وأقبل على العجوز ، انه فتى قوى الجسم يفبض نشاطاً وهو يرتدى معطفاً رمادياً جديداً لا يزال يزهو به ولا يرتديه بغير اكتراث : لابد من أسبوع آخر ، فاذا هو يعتاده فيلسسه بعد ذلك دون أن يحفل به ، أما الآن فهو لا يكف عن الاعجاب بنفسه ، ولا يمل من النظر الى صورته فى الرآة ؟ وكل حركة من حركاته تدل على أنه يقدر ذاته قدراً كبراً ،

قالت له زوجة الحلاق مدمدمة :

_ تقدم • استدر!

وأردفت تقول مخاطبة العجوز :

- انظرى ما صنعنا له يا مكسيموفنا ! لقد كلَّفنا المعطف خمسسة روبلات دفعناها كأنها كوبك واحد • قالوا لنا عند بروخوروتش : الرخيص أغلى ، ذلك أن الرخيص ما تكاد تنقضى ثمانية أيام حتى يهترى • فتأسفوا على ما دفعتم ثمناً له • أما هذا ، فلا يبلى ! انظرى الى قماشه ما أجوده ! استدر قليلاً • وما أحسن بطانته ! ما أمتنها ! هلاً استدرت ! فانظرى كيف يذهب المال يا مكسيموفنا • أصبحت جيوبنا خاوية • لا بأس !

- آه يا عزيزتي • صدار كل شيء باهظ الثمن في هذه الأيام • جنّت الأسعار جنوناً • الأفضل ألا تحدثيني عن هذا بشيء • فان الحديث عنه يؤلمني كثيراً •

كذلك عقبّت مكسيموفنا على كلام زوجة الحلاق ، وكان في كلامها عاطفة صادقة وتأثر واضح ، وكانت لا نزال تلهث لهاناً شديداً حتى لكأنها تختنق .

قال رب الدار:

_ دعونا من هذا ! كفى ! آن لنا أن نأكل • أرى انك متعبة جداً يا ماريا مكسيموفنا !

- اه ۰۰۰ نعسم يا عزيزى الشهم ، متعبة ۰۰۰ رأيت الجو دافئاً ، والشمس ساطعة من فقلت لنفسى : « هلمى زوريهم ! علام تبقين راقدة في السرير ؟ ، • آه ۰۰۰ وفي الطريق صادفت سيدة شابة كانت تشترى لأولادها أحذية ، فقالت لى : « ما بك يا جدة ! أراك متعبة ! خذى هذه الكوبكات الحمسة ، فتشترى بها رغيفاً صغيراً ۰۰۰ ، • فأخذت الكوبكات الحمسة فعلا معلا . • •

قال رب الدار وقد اعتراه قلق واضح:

. _ اوتاحى قليـــلا ً يا جـــدة • ما بالك تلهثين اليوم هذا اللهـــاث الشديد ؟

وتوقفت عن الكلام مرة ً أخرى • وحاولت من جديد أن تتنفس • وصمت الجميع خلال خمس ثوان •

وقال رب الدار وهو يميل عليها:

_ ماذا يا جدة ؟

ولكن الجدة لم تنجب • وخيم ً الصمت خمس ثوان أخرى • شحب

لون العجوز ، وانقلبت سنحتها أكثر فأكثر ، ثبتت عيساها ، وتجمدت ابتسامتها على شفتها • انهما تنظر ، ولكن المرء يحس أنهما أصميحت لا ترى •

انبرى الغريب يقول فجأة :

_ يجب استدعاء الكاهن .

فدمدم رب الدار يقول:

ــ ولكن ••• هل ••• ألم يفت الأوان؟

وهتفت امرأة الحلاق تنادى وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

ـ يا جدة ! يا جدة !

ولكن الجدة ظلت جامدة وقد مال رأسها الى جانب • وكانت يدها اليمنى الموضوعة على المائدة ممسكة بقطعة النقد ، الكوبكات الحسسة ، وكانت اليد اليسرى لا تزال على كتف ميشا ، ابن حفيدتها ، وهو طفل في السادسة من عمره • كان الطفل واقفاً لا يتحرك ، ينظر الى جدة أمه بينين واسعتين مدهوشتين •

قال رب البيت وهو ينحنى لها ويرسم اشارة الصليب ، قال بصوت رصين مهيب :

ـ فارقت •

وعُثَّتِ الرجل الغريب مذهولاً وهو يطوف ببصر، على الحضور :

- _ أمر عجيب لاحظت فعلا أنها كانت ما تنفك تميل ثم تميل ودمدمت ربة البيت مضطربة مرتاعة تقول:
- _ آه ••• رباه ! ما العمل يا ماكاريتش ؟ هـل يجب أن تحملهـا الى هناك ؟

فسألها رب البيت:

ــ هناك ؟ أين ؟ لا بل سوف نديسًر أمرنا هنا ! أليست جدتك ؟ يجب أن نبلغ عن وفاتها •

قال الرجــل الفــريب وهو يراوح في مكانه وتزداد عاطفتــه رقة وحناناً ، ويشتد احمرار وجهه :

_ مائة وأربع سنين !

وعَّقب رب البيت برصانة وهو يتناول كسكيتته ومعطفه :

ــ لقد أخذت تنسى الحياة في الآونة الأخيرة!

ـ منذ لحظة لا أكثر ، كانت لا تزال تضحك ! انظر ! انها لا تزال قابضة على قطعة الحمسـة كوبكات • قالت « اشــتروا للأولاد حلوى ، • واحسرتاه على حياتنا !

وقاطعه رب الدار قائلاً:

ـ هيا بنا يا بطرس ستيبانوفتش ٠

وخرج مع الرجل الغريب •

لیس 'یبکی علی متوفاة کهذه ۰ مائة وأربع سنین ! « ماتت امنة ُ مطمئنة ؓ بغیر مرض ، ۰

وأرسلت ربة الدار تدعو جاراتها ليساعدنها • فسرعان ما هرعن اليها وقد أحدث النبأ في نفوسهن من المسرة أكثر مما أحدث فيها من الألم • وطفقن يطلقن من صدروهن آهات وأوهات ! وكان طبيعيا أن يبدأ بغلى الماء في السماور قبل أن يفعل أي شيء آخر • واختبأ الأطفال في ركن مدهوشين ، وجعلوا ينظرون الى الميتة من بعيد • ان ميسا لن يسى ـ ما ظل حياً ـ أن المعجوز ماتت وهي واضعة يدها على كنفه ؟ وحين

سيموت لن يكون أحد متذكراً أن الجدة العجوز عاشت مائة وأربع سنين : لماذا وكيف ؟ لا أحد يعرف • ولا قيمة لهذا على كل حال • ان ملايين من الناس يموتون هكذا : يعيشون دون أن يفطن اليهم أحد ويموتون على هذا النحو أيضاً • ثمة شيء واضمح : هو أن الانسان ، حين يموت شخص يلغ من العمر مائة سمنة أو تزيد ، يشمر بنوع من الحنان والهدوء والوقار والعزاء • مائة سنة ان هذا الرقم لا يزال يحدث في نفس الانسان أثراً غريباً •

بارك الله حياة وممات الناس الطبين السيطاء!

ولانسين ۱۸۷٦

مكايسة خيالية

مقدير مالكؤلف

أعتذر الى قرائى عن أننى لا أقدم اليهم « اليوميسات ، فى صسورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيسالية + صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك استميحهم عذراً وألتمس منهم العفو والتسامح •

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أننى أعدها واقعية قبل كل شىء . ولكن الحيال قائم فيها حقاً بحكم أننى أقدمها فى صورة قصة . فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا مئذ البداية .

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات و تخيلوا زوجاً ترقد على مائدته جشة امرأته التى انتحرت منذ يضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة و انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً و ولماً يستطع أن يثوب الى رشده وأن يسترد صوابه و فهو ينتقل من غرفة الى غرفة بم محاولاً أن يتصور ما حدث به وأن يتخيل ما جبرى به وأن « يركتز أفكاره فى نقطة ، و ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه بم لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة به ولا يفتاً يناجى نفسه فى السر به ويكلمها بغير انقطاع و يحتدث الى نفسه به فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية به ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه ، جاهداً و ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهرى وتسلسل طبيعى ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع فى تنافضات عاطفية ، انه يبرى، نفسه ويدينها فى آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطشة ، والى ذلك يضاف شى، من غلظة فى الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة ، وقد استطاع شيئًا فشيئًا أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصلً الى « تركيز أفكار، على نقطة » ، اذ ماقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوقًا لا سبيل الى مقاومته : فبث هذه الحقيقة حملمة وحمية فى فكر، وقلبه ، فاذا لهجته نفسها تتغير فى نهاية القصة اذا قبست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبلة ، لقد انكشفت الحقيقة واضحة " جلية " لهذا الشقى البائس ، انكشفت له هو على الأقل ، ٠٠٠

ذلكم هو الموضوع • والقصة تتتابع عدة ساعات ، وتتخللها انقطاعات ووقفات ، وتمتورها صــدمات : قالرجــل تارة كيشحدث الى نفسه ، وتارة كيخاطب شخصاً لا 'يرى هو بمثابة قاض •

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أنند وعورة وخشونة مما أرويه أنا ، ولكن الحياة النفسية تبقى فيها على حالها فيما يغلب على ظنى ، ان هذا الافتراض الذى افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلنى أصف هذه القصة بأنها خيالية ، على أن هذا الأسلوب لا يظهر فى الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مشلا ، فى رائمته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » ، ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايفالا فى البعد عن الواقع والنأى عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلا محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا فى آخر يوم من أيامه فحسب ، بل فى آخر ساعة ، بل فى آخر دقيقة ، فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتسح لهذا الأثر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال

الفصب لالأول

مناكنت ومناكانت

اليها في كل لحظة ، ولكنها سنتحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ اليها في كل لحظة ، ولكنها سنتحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هى الآن في الصالون ، مسجّاة على مائدة 'صنعت من ضمّ طاولتين احداهما الى الأخرى ، ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كفنها أبيض ، على أن الأمر ليس هو هذا ، ٠٠٠ اننى ما أنفك أذهب وأجيء محاولاً أن أفسر المسألة لنفسى ، فلا أفلح في تركيز شتات أفكارى ، الحق أننى لا أزيد على أن أذهب وأجيء ، أن أذهب وأجيء ، ١٠٠ اليكم كيف جرى الأمر ، ١٠٠ سأسرد لكم الحوادث متسلسلة منظمة (لابد من النظام !) الأمر ، ١٠٠ ما أنا بكاتب ، ١ انكم تلاحظون ذلك ، ولكن لاضير ، سأقص الأمر على نحو ما أفهمه ، ذلك أن أفظع ما في القضية في نظرى هو أتنى فهمت كل شيء ،

اذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أى اذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها انما جاءت الى لتقترض منى بعض المال برهن بعض الأشياء ، كانت تريد أن تدفع أجر اعلان فى جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمة ، أو للمجيء الى البيوت تعطى دروساً ، النح ، النح ، ذلك فى بداية الأمر ، فلم أميّزها عن كثيرات

متلها • كانت تأتى كمــا يأتمي مـــائر الناس ، بل كانت تأتى ببساطة أكبر من بسياطة سيائر الناس • وقد لفتت انتباهي فيما بعد • كانت تحيفية القامة ، شقراء ، ربعة الطول • وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي، كما تكون امرأة خائفة • (أظن أن حالهــا هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبيعي أنني لم أكن في نظرها الا رجلاً كســـاثر الرجال ، أي لم أكن في نظرها مرابياً 'يقرض برهون ، بل رجلاً كأي رجل آخر ﴾ • كانت ما ان تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتنصرف ، دون أن تقول شميئًا في أية ممرة ان بين المقترضات من يناقشن ويلححن ويسماومن للحصمول على مبلغ أكبر • أما همـذه فلا • لقد كانت تقبل ما 'تعطاه • يخيئًل الى " أنني أهذر هذراً مضطرباً لا 'يفهم • الحلاصة ••• هناك تفاصيل لفنت انتباهي اليها في أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينــان أذنىها وهما من فضة مطلمة بذهب ، حلمتها الصغيرة التافهة التي لا تساوى قرئساً ، وما الى ذلك • كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوى قروشــاً • ولكننى كنت ألاحظ من النظر الى وجهها أنها تعدُّها أُنسياء ثمينة • ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما يقي لهــا من أبيها وأمها ، كما عرفت هذا فيما بعد • مرةً واحــدة أبعت لنفسي أن أبتسم استهزاء بهذه الأشياء • والحق أنني في العادة لا أبيح هذا لنفسي أبداً • انني أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أعشِّر عما أريد النمبير عنه الا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، جافة ، جافة جافة ، ٠ غير أنها جاءتني ذات مرة ببقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب ــ فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسي ، فقلت لها كلاماً فيه شيء من التندر • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمـرة شـديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكأن شرراً يخرج منهما ! ولم تقل كلمة واحدة بل لمت • خرقها • وخرجت • وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصــة » ، وفكرت فيها • نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً • أجل ، هذا ما حدث • اننى لا أزال أتذكر الاحساس الذي قام في نفسى ، أو قولوا الاحسساس الرئيسي الذي هو مركب جميع الاحساسات الأخرى : انها في ميعة الصبا فلا يقد ر المرء أن تكون سننها أكثر من أربعة عشر عاماً • ومع ذلك كانت سنها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر • على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركب الاحساسات الذي قام في نفسى • ولقد عادت في الغد • وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانوف ، والى موزير ، حاملة معطفها الحلق البالى ، ولكن هذين المرابيين لا يقبلان الا الذهب رهناً ، فلم يحماً لا نفسهما حتى عناء اجابتها • وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد يُعد من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له في الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت د مشت من نفسي وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر وهناً ، أنا الذي لا يقبل من نفسي وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر وهناً ، أنا الذي لا يقبل من نفسي وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر وهناً ، أنا الذي لا يقبل من نفسي وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر وهناً ، أنا الذي لا يقبل من نفسي وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر وهناً ، أنا الذي لا يقبل قامت في ذهني تبجاهها •

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتها من عند موزير ، جاءت تحمل الى و مشرب سيجارة ، من خسب العنبر ، وهو شىء قد يحبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ا ولما كان مجيئها الى تلك المرة غداة و العصيان ، ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً و والشراسة عندى هى أن أكون خساناً ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشىء من الحنق والغيظ : و انما فعلت هذا اكراماً لك ٠٠ ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه ، ، وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين و أنتويه ، ، كنت شريراً ، فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلمتها ، فقلت لنفسى حين خرجت : و همل كان يجوز أن أدركت أننى آلمتها ، فقلت لنفسى حين خرجت : و همل كان يجوز أن مناء أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت مناء أنخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين ، ولكن صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين ، ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة منى : فقد كنت أخفى فى رأسى نية م ذلكم كان موقفى الثالث منها •

• • • ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر • • طبيعي أنني سرعان ما جهدت أن أعرف تفاصـــل حباتها الحاصــة • وأخذت انتظر مجبُّها نافد الصبر • فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه منى • اننى لا تعوزنى الثقافه ، ولا أجهل. آداب السلوك الراقي • لاحظت عندئذ أنها طبية ، متواضيعة ، عبذبة • ومن كان طبياً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، واذا كان لا يستسلم بسهوله ، فانه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها • صحيح أنه يحب بكلمات مفردة ، ولكنه يحب ، وكلما ازددت علمه الحاحاً ، ازداد لك اذعاناً • وعليك أنت انما يقع عبء منعــه من الافلات اذا أنت أحبيت ذلك • على أنها لم تشرح لي شيئًا حينذاك • ومن قراءة جسريدة • الصوت • انما عرفت بعد ذلك كل شيء • ان الأعلانات الأخيرة تدل على أن مواردها نضبت نضــوباً تاماً • كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة • كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض ، ؟ ثم صارت تقول بعد برهــة : « تعمل كل شيء ، تعلُّم ، تصحب الأولاد ، تراقب أعمال المنزل ، تعني بمريض ، تحسن الخاطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو مم وف جداً • ولقد نشر ت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً بم فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتساً ، تكتفي بطعامها أجراً » • ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرة ً أخيرة • فأخذت عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلانا جاء فمه : « فناة يسمة ، تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صفار ، تفضَّل العمل عند أرملة مسنة قلبلاً • وتعنى بأعمال المنزل • • وقلت لها :

ـــ انظرى • هذه نشرت الاعلان فى هذا الصباح وقد تحد عملاً فى المساء • فى هذه الصورة انما يجب على المر• أن يقدم نفسه •

فتخضب وجهها بالحمرة من جديد ، واشتعلت عيناها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً • سر ني ذلك كثيراً • وكان رأيي في تلك اللحظــة قد استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادىء البـال غير خائف : لا أحــد سـيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة » ، حتى أن « مشــوب السبيجارة ، نفسم لم يبق لها + ولم يخطئ خلني + فهاهي ذي تأتي غداة غد وقد لاح في وجهها شـقاء كبير ، واضطراب شـديد . فقد ّرت أن شيئًا ما قد حدث لها في البيت • ولم يخطئء تقديري • سأحكى لكم بعد قليل ما حددث . أما الآن قان همي منصرف الى تجميع ذكرياتي . لقد بلغت في معاملتها غاية اللطف والكياسة ، فسرعان ما كبرت في نظرها ٠ تلكم هي الخطة التي رسمتها • وكان ذلك بسبب الأيقونة • (لقد عزمت أمرها أخيراً على أن تنجىء بها لترهنها) •• آه •• اسمعوا ! اسمعوا ! الآن يبدأ الأمر • أما قسـل ذلك فكنت أخلط بين الأشباء وأرنبك ارتباكاً شديداً • الآن أريد أن أتذكر كل شيء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدقُّ الجزيئات • انني أحاول أن أجمع شتات أفكاري في نقطة ، ثم • • ثم لا أفلح في ذلك ولا أظفر بطائل • هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة! آه ٠٠٠ انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً ٠٠٠

كانت الأيقونة صسورة للعذراء ، العذراء مع ابنها يسوع • هي أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب • لاحظت أن هذه الأبقونة عزيزة على نفسها • وهي مع ذلك تنجيء بالأيقونة لترهنها كاملة دون أن تنزع عنها المعدن الذي يغطيها • قلت لها : « الأفضل أن تنزعي المعدن ، وأن تأخذي الأيقونة • ان الأيقونة شيء لطيف سريع العطب ، • قالت :

_ هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

[۔] لا ، لیس الأمر أمر حظــر • ولكن لعلك تدركين أنت نفــك أن •••

_ فانزع اذن ••• قلت بعد تفكير :

- لا • اعلمي انني لن انزع المعدن • بل أضع الأيقونة كلها هناك ، في المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت في كل صباح أشعل أحسن سراج عندي منذ أن أفتح المكتب) ، وخذي هذه المشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة •

_ لست في حاجة الى عشرة روبلات • أعطني خمسة • وسوف أسترد الأبقونة حتماً •

لا تريدين العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوى هذا المبلغ •
 فلزمت الصمت • ومددت اليها خمسة روبلات • وقلت :

_ لا تحتقرى أحداً ••• أنا أيضاً كنت في عسر وضيق ، بل كنت أسوأ حالاً • واذا رأيتني أزاول الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت في حياتي من ألم وعذاب •••

فقاطعتني تقول وهي تبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ فأنت تتأر لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل في الحق على غير قليل من حسن السريرة وسسلامة الطوية ، وهي لا تزيد على أن تشبهني بسائر زملائي ، فلا يكاد يكون في كلامها شيء يسوؤني أو يجرح شعوري أو يهين كرامتي • ولكنني قلت محدثًا نفسي : « ها • • • هأنت ذي أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافًا جديداً ! » •

وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تعمية وسر :

_ أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً فيصنع خيراً !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظـرت الى مستطلعة مدهوشـة ، بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :

_ اسمع ••• ما هذه الفكرة ؟ من أين أخذتها ؟ يخبِّل الى ً أننى سمعتها قبل الآن في مكان ما •••

لا تجهدى نفسك فى التذكر • بهذه الكلمسات انما ذكى "
 مفستوفيليس نفسه لفاوست • هل قرأت قصة « فاوست » ؟

- ــ لم أقرأها ٠٠٠ بانتباه كبير ٠
- ـ أى أنك لم تقرئيها البتة يجب الاعتراف بهذا •

نم اننى ماذلت ألمح فى طرفى شفتيك تلك البسمة السساخرة • فأرجوك ألا تحكمى على بأننى من فسساد الذوق بحيث أردت أن أقد م اليك نفسى فى صورة مفستوفيليس • ان مرابياً يقرض برهن ، يظلل مرابياً يقرض برهن • ذلك أمر نعرفه •

ــ ما أغرب أمرك ٠٠٠ اننى ما أردت أن أقول لك هذا البنة ٠٠٠

كانت تريد أن ثقول: ما كنت أتوقع أن أجدك رجلاً مثقفاً ، ثم لم تقله ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله • وسررت منها أعظم السرور • وقلت :

 فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً • لا أقول هذا لأمدح نفسى • فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خبر ، وربما كنت أصنع شراً ••• ومع ذلك ••• قالت وهي ترمقني بنظرة سريعة عميقة :

_ لا شـك أن المرء يستطيع أن يصنع خـيراً في أي ظـرف ومن. أي موقع •

ثم أسرعت تردف قولها :

ــ هذا كلام حق : في أي ظرف ومن أي موقع •

آه ١٠٠٠ اننى أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات ا. ويهمنى أن أضيف الى ذلك أن هذا الشمسباب ، هذا الشمباب الفالى ، اذا أراد أن يقول نسئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك قسمات وجهه : « انظر الى قوة الذكاء وشمدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! ، ، وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل اقراننا ، فان المرء يلاحظ أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشمد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ، وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه كما يحترمه و بالهما من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر ، ما كان أجمل هذا كله فيها !

اننی أتذکر تذکراً واضحاً ، لم أنس أی شیء! وحین خرجت کنت قد عزمت أمری واتخذت قراری ، فغی ذلك الیوم نفسسه مضیت أخبارها ، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتی ذلك الوقت ، وعرفت خفایا قصتها الراهنة ، كنت علمت خفایا حیاتها الماضیة قبل ذلك من لوكیریا التی كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أیام ، انها خفایا تبلغ من الهول أننی لا أفهم كیف أمكنها أن تظل تضحك كما ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفیلیس ، بینما هی تحیا فریسة أهوال رهیبة ، ولكنه سن الشباب أیضاً! وقد فكرت فیها عندئذ مزهوا قرحاً ، لأننی رأیت فی ذلك علامة علی عظمة نفسها وسمو روحها ، حتی

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشساعر جوته! ان الشباب سمح كريم دائماً ، حتى فى أخطائه ، والحق أننى أقصدها هى ، أقصدها وحدها ، والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلم نفسى عنها منسذ ذلك الوقت وكأنها صارت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى ، انكم تعرفون مدى المتعة التى يذوقها المرء حين لا يشك ،

ولكن ما هذا الذي أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات أ أفكاري ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع • ليس هذا هو الأمر !

الملب لأل ذولرع

الحُفايا التي عرفتها عنها سأوجزها في كلمات قليلة : لقد مات أبواها منذ مدة طويلة ــ منذ ثلاث سنبن ــ فـقـت وحـدة ً عند عمتين لها شريرتان، بل ان وصفهما بأنهما « شريرتان » ، لا يفيهما حقهما من الذم • ان احدى هاتين العمتين أرملة مثقلة بأسرة فلهــا ستة أولاد ؛ والثانية ـــ وهي أقصر من الأولى قليلاً ـ عانس شرسـة الطبع مشاكسـة • هما امرأتان سيئتان خبيتتان كلتاهما • ولقد كان أبو الفتاة موظفاً • كان كاتباً في دائرة من دوائر الدولة ، لا مـورد الا راتبــه • ان مستواى أنا أعلى من مســـتواه على كل حـــال : فأنا كابتن منقاعــد ، خدمت في فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأنتمى الى أسرة نبيلة المحتمد ، وأعيش حيــــاة ليس فيهـــا عوز • أما أنى أقرض بالربا ، فان العمتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب • عاشت الفتاه خلال ثلاث سنين عبدة العمتمها ء ومع ذلك نجحت في امتحاناتها بفضل ما بذلت من جهد في الدراسة رغم ضيق الوقت • نجحت في امتحاناتهما ، رغم قيامها بأعمال يومة تاسمة قسسوة ً لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تنصف بسسمو عقلي وتفوق روحي لا سميل الى النسك فيهما • ولماذا رغبت أنا في أن أتزوج ؟ دعونا مما حدث لي أنا • سوف نرى ذلك فيما بعد ••• ولكن الأمر هو هذا • كانت الفتاة نعلم أولاد عمتها الفراءة ، وكانت تر ِّقع الملابس ، وصارت في المدة الأخبرة لا تغسل الغسيل فحسب ، بل تغسل أرض الغرف أيضًا ، رغم

ضعف صدرها • وشيئًا فشيئًا أخذت العجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب أية لقمة تأكلها • ثم قروتا أن تبيعاها • آه • • • لن أدخل في تفاصيل هذا الحمأ • وهي لم تقصص على ً كل شيء تفصيلاً الا فيما بعد • لقد كان رجل سمين بقيَّال ينظر اليها ويطمع فيها منذ سنة ٠ وكان قد « قبر ، امرأتين حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن الله • لذلك وضعها نصب عينيه ، واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه • كان يقول لنفسمه : د انها مناسبة مريحة ، فقد 'ولدت فقيرة ؟ واذا كتت أريد أن أنزوج ، فذلك من أجل الأولاد ، • ذلك أنه كان له أولاد • وأخــذ يستمجل الأمــر • فباحث العمتين • وكان في نحو الحمسين من العمر • وكرهته الفتاة ونفرت منه نفوراً رهيباً • فأخذت تنشر اعلانات في جريدة • الصوت ، • ثم ابتهلت الى عمتيها أن تمهلاها مدة قصيرة يتاح لهما فيها أن تفكر • فأمهلناها مدة قصميرة ، مدة " قصيرة " لا يجوز أن تطول • كانتا تقولان : د يحن نفسنا لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطيق أن يشاركنا لقمتنا فم ۗ آخر ٥ ، جاء البقاَّال الى دار العجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون كوبكاً • وكانت الفتاة معه • ناديت لوكيريا من المطيخ ، ورجوتها أن تذهب الى الفتاة فتهمس في أذنها انني أتنظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستعجلاً جداً • كنت راضياً عن نفسي كل الرضي مسروراً بها كل السرور • وكنت مسروراً طوال النهار على كل حال •

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكبريا ، بينما كانت مدهوشة من أننى استدعيتها ، ذكرت لها ما كنت أعده سعادة وشرفا ٥٠٠ ولابد أنها لم تدهش عند ثد من الطريقة التي عمدت البها ، ولا من قولى لها : « اننى رجل مستقيم ، وقد فكرت في جميع ظروف القضية ، وقلبت الأمر على كل وجوهه ، • والحق أننى لم أكذب حين وصفت لها نفسي بأتنى رجل مستقيم • ولكن لا قيمة لهذا • وانما يجب أن أذكر أن كلامي في مخاطبتها لم يكن مهذبا فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشنمل على أصالة أيضاً • وهذا هو الأمر الأساسي • أهي جريمة أن أعترف ؟ اننى حريص على أن أحـكم على نفسى ، وانى لأحـكم عليها • فعليَّ اذن أن أقول ما لى وما عليَّ • وهذا ما فعلنه • ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فتلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء • كاشفتها صراحة "حينذالث، دون أن تحسرج ، بأنني أولاً لست صباحب مواهب ، وانني امرؤ أناني سىء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددته وأنا في طريقي الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لى في أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة • قلت ذلك كله بنوع من الزهو • ولعلكم تتصورون اللهجـة التي قلته بهـا • لكنني بعد أن ذكرت سيئاتي بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناني ، فقلت لها : « انني أمتاز بكيت وكيت وكيت ٠٠٠ ، • رأيت أنها مرتاعة جداً • ولكنني لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئًا • بالعكس : فانني حين رأيت خوفها أخذت أقوَّى النغمة عامداً • قلت لها بغير تحرج انني لن أبخل عليها بالطعام ، فسستأكل عندى ما تشتهى ، أما الفسساتين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شيء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما فد أسمنح بها في المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفي • كانت هذه اللهجة القاسمية تفتنني فتنسة كبيرة • وأضفت أقول بغير الحاح كثير انني اذا كنت قد اخترت هذه المينة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين • والحق أننى كان من حقى جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذي أشرت اليه قائم في ذهني ، والظرف الذي ذكرته قد وقع فصلاً • اسمعوا يا سادتني : ثقوا أنني كتت طوال حياتبي أبغض صندوق الاقراض بالربا أكثر مما يبغضه سبائر الناس • لكنني وان يكن مضمحكاً وسمخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معمَّماة أؤكد لكم أتنى ه أَثَار لنفسى من المجتمع ، • هذا صحيح • هذا هو الحق • وبذلك يكون تندرها على َّ في ذلك الصباح يعوزه الانصاف • حتى أنها كانت ستنفجر ضاحكة كما ضحكت في المرة الأولى لو عبَّرت عما يعتمل في نفسي يتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : • سم انني أنتقم لنفسي من المجتع ، • ولكن

بدا لى فجأة أننى أستطيع أن أكسب خيالها اذا أنا أشرت اشارة متخفية ، وقلت جملة سرية معمَّاة • ثم اننى كتت قد أصبحت فى تلك اللحظـــة غير خائف من شى • : كنت أعلم أن البقال الضخم ينفرها أكثر مما أنفرها أنا على كل حال ، وأن وجودى على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود منقذ أو سحِّرر • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً • آه • • • ان الرجل يدرك كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أى شى • آخر • ولكن هل كان ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يجرؤ المر • أن يحكم على انسان ؟

أَلَمُ أَكُنَ أَحْبُهَا حَتَّى مَنْذُ ذَلَكَ الْحَيْنُ ؟

انتظروا يا سادة ، اننى لم أشر بطبيعة الحال أية اشارة الى اننى أحسن البها ، اننى لم أمن عليها ، أبدا ، بالعكس ، بالعكس : قلت لها : أنا الذى سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت ، وأنت التى تطوقين عنقى بجميلك لا أنا ، ، بل لقد قلت لها هذا كلمة كلمة ، لم أستطع أن أسلك عن قوله ، ولعل ذلك كان منى حماقة ، لأن شيئاً من الانقباض قد ألم عند ثذ بوجهها ، ولكننى حققت ظفراً حاسماً وانتصاراً قاطعاً على كل حال ،

انتظروا • ما دمت قد حرَّر كت هذا الحماً كله ، فاسمحوا لى أن أذكر لكم آخر حقارة صدرت عنى • فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت أجنر هذا الكلام محدثاً نفسى : • انك فارع الطول مونق القامة ، مثقف ؟ ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس فى هذا أى ادعاء أو تبجح أو مباهاة ، • ذلك ما كان يدور فى رأسى ويجول فى خاطرى • ولقد وافقت على طلبى فى ذلك الوقت عند الباب فقالت : • نحم ، • وافقت طبعاً • ولكن • • • يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انهما فكرت طويملاً وملياً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نهم » تلك • حتى لقد بلغت من طول التفكير أننى أخذت أتساط : « فماذا ؟ ، لم أستطع أن أسك عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة •

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجد أننى كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكننى شعرت مع ذلك بخيبة الأمل • قلت أحدث نفسى : « هل يمكن أن تتردد فى التخير بينى وبين صماحب الدكان ؟ ، آه • • عندئذ لم أفهم • لم أفهم شميئًا البتة • وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئًا • أتذكر أن لوكبريا ركضت وراثى حين انصرفت ، واستوقفتنى فى الطريق وقالت لى : « جزاك الله خيرًا يا سيدى على أنك أخذت آنستنا الطبية • ولكن لا تجسرح شمورها فانها ذات شمسمم وكبرياء » •

ذات شسمه وكبرياء ؟ اننى أحب أولئك اللواتى يتصفن بالشسمه والكبرياء و ان اللواتى يتصفن بالشسمه والكبرياء يسكن طبسات عامة وين و و نهم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان و أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر دناءته وما أشد خراقته ! هل كنت راضيا رضا كافيا ؟ هل كنت مغتبطا اغتباطا كافيا ؟ وحين أخذت نفكر أمام الباب طويلا و ملياً لتقول لى و نهم » و وكنت أنا مدهوشا من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلى : و شقاء فوق شقاء ، أقلا يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أى صاحب الدكان ، فسى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لى الضربات تملو الضربات الى أن أموت ؟ ، و آه و ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هى التى دارت في خلدها حينالك ؟

نهم ، واننى الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئًا • قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختسار الأسوأ ، أى أن تختار البقال • • ولكن أينا كان فى نظرها هو الأسوأ ، أنا أم المقال ؟ البقال أم المرابى الذى يستطيع أن يستشهد بالشساعر

جوته ؟ ذلكم ســؤال آخر • أى سؤال ؟ هيه ، ماذا ؟ أما زلت لا تفهم ؟ انك لتتكلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمرى أنا على كل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامى منصرف الى نفسى أم هو منصرف الى آخر ؟ ذلكم ما يستحيل على "أن أقطع فيه برأى جازم • ان الأفضل أن أضطجع وأنام • اننى أحس بصداع •

ولنيل الركيب وهونفسين للابصرة من الملائر شيئة

لم أستطع أن أنام • وأين لى أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجهتى ضرباً • أود لو أستطيع أن أتعود هذا كله ، أن آلف هذا الوحل كله • آه • • • • • الوحل ! يا للوحل الذي أخرجتها منه ! كان ينبغي لها أن تفهم ذلك ، وأن تعرف كيف تقدر عملي حق قدره ! وكان يحلو لي أن استرسل في بعض الأفكار ، منها هذه الفكرة منسلا : ان سنى واحد وثلاثون عاماً ، ولا تتجاوز سنها هي ست عشرة سنة • ما كان أعظم افتتاني بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شي • لذيذ ، لذيذ جداً •

وقد تمنيت مثلاً أن سحتفل بزقافنا دعلى الطريقة الانجليزية ، ما ألا يكون في حفلة القران الا نحن والشاهدان اللذان لابد منهما ، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما ، ثم نركب القطار فوراً ، فنسافر ولو الى موسكو (وكان لى بموسكو عمل يجب أن أنجزه) ، وننزل أحد الفنادق فنمكت فيه أسبوعاً أو أسبوعين ولكنها اعترضت على هذه الفكرة ، ورفضتها ، واضطررت أن أذهب الى المعتين أحييهما وأعبر لهما عن احترامي بحجة أنهما الأسرة التي أخذت الفتاة من بين أحضانها ، أذعنت لشيئتها ، وأدايت لعمتين واجب الاجلال والتبجيل ، حتى لقد وهبت لهاتين المخلوقتين مائة روبل ، وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما ،

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان بئتها • وسرعان ما أيدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة • ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشترى ثابًا • ثم أفلحت ُ في أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفي بالثاب البالية التي عندها ، وقلت لها انني أنا الذي أتولى أمر جهازها ، والا فمن عسى يتولا. غيري ! على أن الشيء المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعت أفضى البها بافكار شتى كانت قد دارت في خاطري ، على الأقل لتنظر اليها بمين الاعتبار بعض النظر ، ولعلني نجحت في هذا وبلغت ما أردت • بل أكثر من ذلك أنها في البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على اقبالا فيه حب ، وتستقبلني حين عودتي في المساء استقبالاً زاخـراً بالحماسة ، وتأخــذ تهذر هذرها البريء ، فتقص على ّ حكاية طغولتها كاملة ً ، وسنى صحاها التي فضنها في دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها • لكنني كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه النشوة وهذا السكر • وتلك كانت فكرتبي • كنت أرد على حماستها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً •• فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الى ً نظرتها الى لغز مستغلق • وعلى هذه الالغاز انما كنت أبني أنا حســـاباتي وأعقد آمالي! بل لعلني من أجل أن تحسل من هذا اللغز الستغلق انما اندفعت الى فعسل ما هو سسخف واستحالة + عمدت في أول الأمر الى القسوة • أدخلت القسوة الى بسّى نظاماً ثابتاً • وتم من هذا من تلقاء نفسه بدون أى جهد • لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل • ولقد تحيلت هذا النظام في ظرف مستقل عن ارادتي ، فلا يد لي فيه + دعونا ! لماذا أقدح في نفسي ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً + ولكن اسسمعوني : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر ••• اصغوا الى " •

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً • متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً • اليكم هذا المثال : ان الشباب يحتقر

المال • فسرعان ما ألحت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه • وبلغت من شدة الالحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئًا بعد شيء • كانت تحملق وتصغى وتنظر وتسمكت • وهذا مثمال آخر : ان الشياب يحب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدة الحماسية شهديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئلة الحظ من الصبر ، فما ان تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار . وكنت أنا أحب رحابة الصدر وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلُّمها هذه الرحابة وهذه السعة ، آليس هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثالاً مبتذلاً : ما عساني أفعل من أجل أن أشرح لطبع كطبعها مسسألة الاقراض بالربا على رهن ؟ لم أواجب المسألة رأساً بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت الى الزهو ، فتكلمت بما يشمع الصمت • انني أستاذ بارع في فن الكلام بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتي أتكلم صامناً ، وعثمت في داخل نفسي كل مأساة صمتي • آه • • • ما كان أشقاني ! انفضَّ عني الجميع ، انفضـوا عنى وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد في يوم من فجأة ، بعد أن سمعت عنى كلاماً من أشخاص لسوا شرفاء ، ها هي ذي تتخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، في حين أن سرَّى ظل محبوساً في قرارة ننسي ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً ممها خاصة ، الى أن كان الأمس ، فاذا سألتموني لماذا صمت ، قلت لأنني متكبر صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ، ولكن دون أن تعتمد أيضًا على نمائم دنيئة ووشايات خسيسة ، أردت أن تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه . حين استقبلتها في بيتي أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف مني موقف الضارع المبتهل بسبب ما قاسيت من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف فعلاً • أه ••• لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما ألا أنال شيئًا • ولأننى كرهت دائماً أنصاف الحلول فى أمور السعادة ، ولأننى أردت دائماً أن أبدو صلب المود قوى الارادة ، انما اضطررت فى ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : • عليك أنت أن تحزرى وأن تقدرى ! ، • ذلك أثنى – ويجب أن نسلتم بهذا – لو أخذت أشرح لها الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألنمس منها الاحترام ، لكنت كمن يسألها صدقة • • ولكن • • ولكن • ما لى ولهذا الكلام كله ؟

هذا سخف ! سخف وألف سخف ! المهم أنني شرحت لها فجأة " ، بكلمتين ، من غير رحمة ، نهم من غير رحمة ، (يَجِب أن الحَّ على ذكر هذا الحلو من الرحمــة) ان المروءة عند الشــباب شيء خليق بالاعجاب ، ولكنه لا يساوى قرشــاً صغيراً • لماذا ؟ لأن اكتســاب المروءة سهل أشد السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمــور هي أولى انطباعات الحياة ، ان صبح التعبير ، وانما ينبغى أن ننظر الى الانسان وهو يضطرب في جنبات الحياة ويعمل • ان هذه المروءة لا تكلف كثيرًا • وهي ان كلُّـفت المرء شيئًا فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من أجل هذا الا الى شيء من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظاميء الى الجمال أشد الظمأ دائماً ! لا ، ما هذه هي الشجاعة • حاول أن تختار لنفسك مأثرة صعبة ، مأثرة لا تحدث جلبة كثيرة ، ولا يكون لها بريق وتألق ؟ مأثــرة ترافقهــا النميمة والشتيمة ، وتتطلب تضحـــة كبيرة ، ولا تؤدى الى أى مجد؟ مأثرة تظهر فيها ــ أنت الرجل اللامع ــ بمظهر الجبان الحقير في نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ، حــاول أن تحقق هذه المأثرة فترى ألا تمدل عنها وتنكص على عقبيك ؟ أما أنا فاننى لم أزد طوال حياتي على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال .

كانت في أول الأمسر تناقش ، بل تناقش كثيراً ! ثم قررت أن تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً . أصبحت تكتفي بأن تحملق حين تسمع

كلامى ، تحملق حملقة شديدة وهى تنصت الى أقوالى انصاتاً فيه اتباه رهيب ! ••• و ••• مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجأة ، ابتسامة تنم عن أنها لا تصدق ، ابتسامة صامئة ، ساخرة • وكانت تبسم هذه الابتسامة حين أدخلتها بيتى •

صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه ٠٠٠

خطط وخطط لأخسرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد • لا أنا ولا هي • لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى • قلت قبل الآن انني أدخلتها بيتي على نيسة القسسوة • ومع ذلك لم ألبث أن رققت • كنت قد شرحت لها حين كنا خطيبين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقى الأشياء المرهونة وأن تؤدى مبالغ الاقراض ، ولم تعترض في ذلك الحين (لاحظوا هذا) • وأكثر من ذلك أنها أكسَّت على العمل بهمة ونشاط • يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقي كما كان في الماضي ٠ هو بيت يشألف من حجرتين : احداهما صــالة كبــيرة 'جعلت هي المكتب ؟ والثانية صالة واسعة هي الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة • وكان أثاث بيتي ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منــه • وفي صــالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أي في الصالة التي فيها صندوق الاقراض • وفي غرفة النوم توجد خزانتی ، وهی تضم عدداً من الکتب ، وحقیبة ؑ کتت أحمل مفاتیحها دائماً؟ ويوجد سرير وموائد وكراس • وكنت قد أبلغت خطستي أننا سنقف على طعامنــا ، أي على طعامي وطعامها وطعام لوكيريا التي اســتخدمتها ، روبلاً واحداً في اليوم ، لا أكثر من ذلك • فلم تعترض بشيء • ولكنني زدت المبلغ من تلقاء نفسي ثلاثين كوبكاً للانفاق على حاجات البيت • وكان هناك السرح أيضمًا • وكنت قد قلت لخطيبتي انسا لن تذهب الى المسرح أبداً • لكننى مع ذلك سمحت بأن نذهب الى المسرح مرة كل شهر ، وتم ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد فى مكان حسن من الصالة • وكنا نذهب الى المسرح معا • ذهبنا ثلاث مرات ، فشاهدنا مسرحية « سباق السمادة ، ومسرحية « الطيور المفردة ، فيما أظن • (ولكن ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام !) • كنا نذهب الى المسرح صامتين ، ونعود منه صامتين • لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية •

لم نتشاجر في الآونة الأولى ، ومع ذلك خيسًم بيننا الصمت ، واني لأذكر كيف كانت تختلس النظسر الى من تجت ، فلما لاحظت ذلك اشتد صمتى ، حقاً الني أنا الذي ألحجت على الصمت ، لقد انفجرت هي مرة أو مرتين ، فاندفعت الى تريد أن تعانقني وتقبّلني ، ولكنني استقبلت اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسترية ، ولأنني كنت في حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها وتبجيل ، نهم ، وكنت على حسق ، وكان يعقب الانفجسسار يوم ملى والشجار ،

أقصد ١٠٠٠ لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ، وكان كل واحد منا يقف من الآخر موفقاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد ، وكان كل واحد منا يقف من الآخر موفقاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد ، ومرد وعصيان ، ، ذلك ما كان يحدث ، ولكنها لم تكن تحسن التصرف في الأمر والاحتبال عليه ، نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخف هيئة نزداد تجهماً وشراسة "شيئاً بعد شيء ، حتى لقد أصبحت تنفر منى وتكرهني ، هل تصدقون ؟ لقد أتبح لي أن ألاحظ هذا ، وكانت تلك النوبات تخرجها عن طورها ، لا شك في ذلك ، ولكن حين تخسر به فتاة من وحل كالوحل الذي كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذي الذي كانت تعانيه اذ كانت تفسل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تشكى من فقرنا ؟ ولاحظوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضن على نفسنا بشيء من الترف اذا وجب الترف : مثال ذلك انني كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجل ترضى المرأة • على أنها لم تكن نفضب من الفقر في الواقع ، وانما كانت تغضب من هذا الذي تراه في من الحرص على التوفير والاقتصاد في أعقاب السموع مشلا • وكانت تقول لنفسها : لابد أن لهذا أسبابه وعلله • انه رجل سيء الطبع ، • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شدة اللذع في ابتسامتها الساخرة • • • وضاعفت الصمت من جهتى •

ألا يعجب على أن أبرىء نفسى ؟ ان صلى الاقراض ذاك هو الذى كان أخطر ما فى الأمر • اسمحوا لى : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما اذا كانت سننها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطبع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهية • ومازلت الى اليوم وحتى فى هذه اللحظة أعدها بديهية !

لا فيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة • ان الحقيقة هي الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يسكون له في الأمر حيلة ! فالمرأة التي تحب ، تعسى فيمن تحب حتى عيسوبه وسيئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامع من جانبها في حق نقائصه • ذلك منها كرم وسلماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • انافتقاد الشمخصية هو ما ضيّع النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في العسالة ، أعنى الجنة المستجاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسمعوا • لقد كنت واثقاً بحبها حينـذاك • ألم تكن نرتمى على التعانقنى ؟ اذن كانت تحبنى • تعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب • كانت تسعى الى أن تحب • والشى • الأمساسى هو أنه لم يمكن ثمة عيوب من تلك العيوب التى يحب

عليها ان تحاول تيريرها وتسوينها • لعلكم تقولون اني مراب افرض برهن • والناس جميماً يكررون هذا • ولكن ما شأن أن أكون مرابياً يقرض برهن ؟ لا شك في أن هناك أسياباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصبح مرابيًا يقرض على رهون • اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل مناك فكرة تبدو غيبة غباءً رميبًا حين 'ينطق بها ، أى حين يعبر ً عنها بألفاظ ، حتى ليستحى صاحبها نفسه منها ، فهي تقع من النفس موقعاً سيئًا ، ويكون لها رنين ردىء يؤذى السمع . ومع ذلك تكون هي الحقيقة ، الحقيقة بعينها ! نسم ، لقد « كان من حقى ، أن أخرج من المأذق بقتح مکتب اقسراض ۰ د لقد نبذتمسونی یا معشر البشر ، أی طردتمسونی بصمتكم الذي يفيض ازدراءً ، ورددتم على اندفاعاني التي كانت تحملني البكم باساء لن أنساها في يوم من الأيام أبدأ • فكان من حقى اذن أن أحمى نفسي منكم بنجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضي الى مكان بالقرم على الشاطىء الجنوبي أقضى فيه حياتى على تلال مزروعة بأشعجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبغضكم ، واحتفظ بمثلي الأعلى في نفسي ، تصحبني زوجتي مع أولادي اذا رزقني الله أولاداً ، وأحــاول أن أســـاعد الفلاحين الذين يعجاورونني ، • الحق أن من الأفضـــل أن اعترف لنفسى بكل هذا في هذه اللحظة • والا فهل يتخيل المرء شيئًا أشد غباوة وحماقة من قصة كهذه القصة أرويها لهـا بصوت عال ؟ هذا هو السبب في ذلك الصمت المتكبر الصلف • هذا هو السبب في أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام • ثم ما الذي كان يمكن أن تفهمه من الأمسر ؟ ان سُّنها ستة عشر عاماً ، فهي في مطلع الصبا ٠٠٠ نعم ، ما الذي كان يمكن أن تفهمه من تبريراتي ومن تباريحي وعذاباتي ؟ ان طبعها بسيط ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، الشباب ، وهي تتصف بما تتصف به د النفوس الجميلة ، من عساوة ٠

ثم هي ترى صندوق الاقراض بالربا ولا ترى سواه ! فأنبَّى لها أن تدرك ا ﴿ وَلَكُنَّ هَلَّ كُنْتُ مُرَابِسًا جَشَّعاً لا يُرحَّم ؟ أَلَّم تَر يَنْفُسُهَا أَنْنَى لا أَغْتَنَّى كثيراً ؟) • آء • • • يا للحقيقة ما أشــدها هولاً في هــذا العالم! الحقيقة شيء رهيب! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ، كانت طاغية تسوم نفسى عذاباً لا يطاق • كانت لى جلاداً لا يرحم ! أتظنون أننى كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أنني كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية القدر والطبيعة! إن اللعنة تطارد حياة البشير ، حياة البشير عامة ً ، وحياتي أنا خاصة • انني أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك شيئًا لم يحدث كما كان ينبغي أن يحدث • لقد كان كل شيء واضحاً أشد الوضموح ، كانت خطتي صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ، لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صسامتاً » • كذلك كان الأمسر • أنا لم أكذب! لم أكذب! كنت أقول لنفسى : « لسوف ترى بنفسها أنني أصدر عن سمو في النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك • حتى اذا أدركت ، قدرتني عشرة أضعاف قدرها لى الآن ، وارتمت على التراب ضامة ً ذراعيها ضراعة " وابتهالا " . • تلكم كانت خطتي • ولكنني نسيت شيئًا ، أو غاب عن بصرى شيء ٠ هناك أمر غفلت عن تلبيته ٠

كفى ! كفى ! من أستغفر ، وممن أطلب العفـو ؟ لقد انتهى كل شىء • انتهى كل شىء • أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؟ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه : انها « هي ، المذنبة ••• « هي » !

ولعب زبتي تتمسيدو

بدأت المساجرات لأنها ارتأت فجأة أن تدفع للمقترضين ما تشاء هى ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطى المقترض ضعفى قيمة الرهن ، وقررت أن تماندنى فى هذا ، ولقد خالفتها فى الرأى ، وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن ، ، ، ،

فى ذات يوم جاءت امرأة عجوز هى زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية مى حسدية أهداها اليها المرحوم لروجها ٥٠٠ فهى كسا ترون ذكرى و فقدمت اليها قرضاً قدره ثلاثون روبلاً و وقد أخذت المرأة تثن بصوت شاك طالبة الينا أن تحافظ على الحلية و وكنا سنحافظ عليها طبعاً! ثم التخضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود الينا لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوى قيمته ثمانية روبلات و فرفضت ذلك طبعاً و ولابد أنها لاحظت فى نظرة زوجتى شيئاً حينذاك ، فجاعت ذات يوم أثناء غيابى فقبلت نوجتى أن ترد اليها الحلية وأن تأخذ منها السوار و

فلما علمت بالأمر فى ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكننى قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردً ها الى الصواب ، كانت جالسة على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها) ، وكانت شفتاها تتقلصان بابتسامة ساخرة سيئة ، لم أرفع صوتى صائحاً فى تلك المناسبة ، وانما

به بهدو الى أن المال د مالى أنا ، وأن من حقى أن أنظر الى الحياة نظرتى الحاصة ، وأننى حين دعوتها الى بيتى لم أخف عنها شيئًا ، فما ان سممت هذا الكلام حتى وثبت واقفة على حين فجأة ، وأخنت ترتجف وترتعد ، بل أخذت ـ مارأيكم ؟ ـ تضرب الأرض بقدميها غضبًا وحنقًا ، وحش كاسر ، نوبة عصبية ! أذهلت ، لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبداً ، ولكننى لم أفقد سيطرتى على نفسى ، ولم أقم بأية حركة ، وانما أعلنت لها بذلك الصوت الهادى انفسه اننى أحظو عليها أن تشدارك في عملى منذ اليوم ، فانفجرت تضحك ، وخرجت من المسكن ،

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك ببت الزوجية • ولقد اتفق رأينا منذ الحطوبة على ألا تذهب الى أي مكان الا بصحبتي •

وعادت في المساء • ولم أنطق بكلمة •

وخرجت فی الغد ، وخرجت فی غداة الغد ، فأغلقت مكتبی ، ومضیت الی بیت عمتیها ، كنت قد قطعت جمیع علاقاتی بهما منیذ یوم زواجنا : فلا هما تأتیان الی مولا أنا أذهب الیهما فعلمت هناك أنها لم نجی الی عمتیها ، وقد أصغت العمتان الی مستطلعتین ، بل لم یفتهما أن تضحكا علی ، وقالتا لی : « تستحق ! » ، ولم أكن أتوقع أن تستهز تا بی وتتهكما علی ، ولكننی رشوت احداهما _ وهی العانس _ بمائة روبل دفعت لها منها خمسة وعشرین روبلا علی الحساب ، فما انقضی یومان حتی جاءتنی العمة العانس تقول لی : « ان لغابط من الضباط هو اللیوتنان یافیموفتش الذی كان أحد رفاقك فی الجیش ضلعاً فی الأمر » ، صعقنی عافیموفتش الذی كان أحد رفاقك فی الجیش ضلعاً فی الأمر » ، صعقنی والفرر فی الجیش آكثر من أی شخص آخیر ، وقد تجاسر منذ شهر والفرر فی الجیش آكثر من أی شخص آخیر ، وقد تجاسر منذ شهر فیجاء الی مكتبی مرتبین بحجة أنه برید ایداع رهن واقتراض مال ، وانی لأنذكر أیضاً أنه أخذ یمازح زوجتی ، فاقتربت منه وأمرته بألا تطأ

قدماه بيتى بعد الآن يحكم طبيعة العبلاقات التى بيننا • ولكن لم تساورنى أية شبهة ولم يخامرنى أى ظن ؟ وكل ما انصرف اليه ذهنى أن الرجل سيى، الحلق قليل الحياء • ولكن هاهى ذى العمة تنبثنى الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت فى الماضى من صاحبات العمتين ، وهى أرملة اسمها جوليا سامسونوفنا كان زوجها كولونيلا • وقالت لى العمة العانس : « اليها انما تذهب الآن زوجتك ، •

لا داعى الى سرد التفاصيل • حسبى أن أذكر أننى ضبيَّعت ثلاثماتة روبل ، ولكننى توصلت بعد يومين الى تدبير كل شيء على النحو الذى يكفل لى أن أكون فى الغرفة المجاورة للغرفة التى سيختلى فيها يافيموف بامرأتى لأول مرة ، فأتنصت عليهما • وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بنى وبين زوجتى شجار قصير كان لابد أن يبدو لى بليغ الدلالة •

لقد رجعت الى البيت فى نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الى ساخرة بينما هى تضرب السحادة بنعل حذائها ، فاذا أنا يخطر بالى على حين فجأة وقد وقع بصرى عليها أنها قد أصبحت فى هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد اصبحت نقيض ذاتها ، فهى الآن شديدة الحنق ، وشرسة الحلق كثيرة التعدى ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاخرة بروح التمرد ، وكانت هى تحاول أن تستثير فى نفسها روح التمرد ، مذه ، ومع ذلك كانت عنويتها ورقتها ودمائتها تمنعها من الانقياد للتمرد ، الله المدنة المرقية الدمئة مهما تتجاوز الحدود فى انتقالها من الدمائة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هى هذه الطبيعة ، وانما هى تكره نفسها على المعيان اكراها ، ولا تفلح أبداً فى التغلب على كل خفر وكل تحفظ ، وهذا النوع من المزايا هو الذى يحيِّر الحسم ويفل صلاحه أكثر من سائر المزايا ، لأنه يجعله هو نفسه متردداً فى تصديق ما نراه عناه ، ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتبدالاً ، وتعرف كيف توغل في الدناءة متسترةً بمظهر الأدب والحشمة ، فتُنضُلك بذلك عن نفسها وتخدعك .

كسرت امرأتى الجليد فجأة فقالت تسألني ملتمعة العينين :

- ـ هل صحيح أنك 'طردت من الجيش لأنك خفت من الاقتشال في مباوزة ؟
- صحيح · 'رجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أننى قدمت طلب تسريحي قبل ذلك ·
 - ـ أطردوك اذن بسبب جبنك ٩
- ۔ نعم ، عد^نوا ذلك منى جبنـاً والواقع اننى لم أرفض المبارزة جبناً ، وانما رفضتها لأننى لم أشـاً أن أخضع لحكمهــم الباغى المســتبد ، فأدعو الى المبارزة على اعتقادى بأننى لم تنلنى اهانة •

ولم أستطع أن أكظم غيظي فأردفت أقول لها :

ــ هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغى ورفض ما يترتب عليه من تنائم دليل على شعجاعة أكبر كثيراً من شعجاعة الاقتتال في أية مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على ننسى فأسسك عن اطلاق هذه الجملة ، فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكى • وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده : أعنى هذه المذلة الجديدة من جانبى • قاذا هى تضحك ضحكة كاسرة • وأردفت تسأل :

- ــ وهل صحیح أنك كنت بعد ثلاث سسنین تنشرد فی شـــوارع بطرسبرج ، وتستعطی الصدقات ، وتنام لیلك علی موائد البلیاردو •
- ــ وكنت أنام أيضــاً في ســوق العلف ، بمنزل فيازسـكى هذا

صحيح : فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الحزى والعار ، والغاقة والبؤس ، ولكن أخلاقي لم تسقط ، لأنني كنت أول من يأسف لما يصدر عنى من أعمال ، لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد ، ولكن هذا أمر مضى وانقضى ...

ــ آ ••• طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال المال !

وكان ذلك اشارة منها الى أننى مراب طبعاً • ولكننى استطعت أن أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى • لقد رأيت أنها شديدة الرغبة فى أن تحصل منى على ايضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى • لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً • وواتانى الحظ فدق الجرس زبون فمضت الى الصالة للقائه • وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

۔ ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشىء من هذا كله قبل زواجنا ٠ فلم أجبها ٠ وخرجت ٠

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتنصت عليهما وأتنظر مصيرى واضعاً مسدسى فى جيبى • كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف يتغنج أمامها • فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشر تخنى الى أقصى حد) • لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع وذلك الافتراض • لا أدرى هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد أن أقول •

الیکم ما حدث • لقد ظللت أنصت ساعة کاملة ، فشهدت خلال هذه الساعة مبارزة بین أنبل وأشرف امرأة وبین مخلوق حقیر متصنع فاسق خسیس النفس نذل • قلت أسائل نفسی مدهوشاً مذهولاً ! • کیف تعلمت

مذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التي لا تتكلم الا قليلاً جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزليه لا يستطيع أن يتفتق خيــاله عن مشــهد فيه مثــل هذه الســخريات وهذا الضحك ، عن مشهد تعبث فيه الفضيلة أبدع العبث بالرذيلة ، وتحتقرها أحسن الاحتقار • ما كان أحذقها في حديثها ، وحتى في أيسر ألفاظها ، وما كان أرهف ذكاءها في أجوبتها السريعة ، وما كان أصوب أحكامها مي أرائها السنديدة ! • وكانت في الوقت تدل على براءة بكر وسنذاجة عذراء • كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بحيه ، ومن حركانه واشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض • لقد جاء الى هذا المكان وهو ينتوى أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصدور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا بظنونه كلها تذهب بدداً • كان يمكن أن أفترض في أول الأمر أن ذلك لم يكن منهـا الا دلالاً هو دلال امــرأة لا يعوزها الذكاء في فجــورها ولا تنقصها الفكاهة في خلاعتها ، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معتزة ً بهما • ولكن لا • لقد كانت الحقيقة تسطع سيطوع الشمس • فلا سييل الى الشك فيها • كل ما في الأمر أنها من بغضها لي ، وهو بغض متصنع مر ُده الى الحنق والغيظ ، قد أمكنها لقلة خيرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء . ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور • کانت ترید أن تهیننی بجمیع الوسائل ، ولکنها رغم أنها قررت أن تتدحرج في الوحل لم تنحتمل وؤية مثل هذا الفساد . ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أى شخص سخيف تافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهر: التي تسعى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها الضحك • كانت الحقيقة كلهـا تعصى وتنمرد في نفســها ، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهكمة • أعود فأقول ان هذا الشخص السخيف المضحك قد 'شــده من ذلك شــدها شديداً ، وجلس في آخر الأمر كالح الهيئة متجهم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ بشتمها ارضاء گفته الدنی، و أعود فأكرر مرة أخرى أن رؤيتى هذا الشهد بغير دهشة أمر يشر فنى ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن غاب عنه زمناً ، وتعمد أن يجى، الآن ليلقاه ، لقد جنت وأنا لا أعرف شيئاً ، ولا أحمل فى نفسى أى اتهام ، رغم تسلحى بمسدس فى جيبى ، تلكم هى الحقيقة ، وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟ لماذا كنت قد أحبيتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟ محيح أننى كنت مقتنماً أشسد الاقتناع بكرهها لى ، ولكننى كنت مقتنماً كذلك براءتها وطهارتها ،

هأنذا أنهى المشهد ، فأفتح البساب فجأة ، وأدخل عليهما ، انتفض يافيموف ، وأمسكت يدها ودعوتها أن تنخرج معى ، وثاب الى يافيموف رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلجلاً متدفقاً ، وقال :

ــ آ ••• خذها ، خذها ، لا اعتراض لى على قداســة الواجبـــات الزوجية •

وصاح يقول وراثي :

ــ واعلم أننى رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمته ٠٠٠ هذا اذا كان لك من الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة ٠٠٠

قلت لزوجتي وأنا أجبرها على التوقف لحظة ك في العنبة :

_ سمعت 9

ثم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا • وكنت قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة • حتى لقد كانت مشدومة مذهولة • غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

حلست على كرسي ، وأخذت تحدجني بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون شهدويًا رهبيًا • ورغم أن شفتيها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ، فان نظرتها كانت تتحداني تحدياً يحمل معنى الانتصار ؟ وأظن أنها لبثت عدة دقائق موقنــة ً بأنني سأقتلهــا برصاصــة مسدس • ولكنني أخرجت سلاحي من جيبي بهدوء ، ووضعته على المائدة . (لاحظوا أن هذا المسدس مألوف لها ، وأنني لقمته منذ فتحت مكتبي ، اذ كنت قد قررت حين فتحت هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراسة وعن خادم قوى الجسم شديد النُّس كمنا يفعل موزير • وكانت الطباخة عندى هي التي تفتح البسباب للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ، فمن باب الاحتياط لكل طارىء انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً على الدوام • وقد اهتمت هي نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس في الآونة الأولى من دخولها بيتي ، وسألتني عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أقنعتها ذات يوم بأن تسدُّد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله ﴾ • واستلقت على سريري دون أن أخلع الا نصف تسابي ، ودون ان أنتبه الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هي الحادية عشرة تقريبًا • وظلت في مكانها ساكنة " جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ، واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هي أيضاً ، متجهة " بوجهها الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا أىضاً •

وكرى نظيعية

منا مكان ذكرى **فظيعة •••**

استيقظت صباحاً في نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً • استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعى صاحياً كل الصحو ، وفتحت عيني فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، مسكة المسدس بين يديها • لم تر أنني استيقظت وأنني كنت أنظر البها • ورأيتها تقبل على بغتة والمسدس بيدها • فأغمضت عبني فوراً ، ونظاهرت بأنني ناثم نوماً عميقاً •

وصلت الى سريرى ، ومالت على " • وكنت أسمع كل شى • • ورغم أن صمناً كصمت الموت خيم " ، فقد كنت أسسع هذا الصمت • وحدثت عندئذ حركة متشنجة جملتنى أفتح عينى " مرة " نانية على حين فجاة • فنظرت محدقة " الى عينى " بنظرة نابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدغى • التقى بصرانا • ولكننا لم ينظر أحدنا الى الآخر الا لحظة واحدة • وأجبرت نفسى على أن أعود الى الاغماض ، واستجمعت شـــتات فكرى ، فمملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عينى " مهما يحدث من أمر •

انه لیحدث فسلاً أن یسکون امرؤ نائماً نوماً عمیقاً ، فاذا هو یفتح عینیه فجأة م أو حتی ینهض رأسه لحظة وینظر حوالیه ، ثم اذا هو يهوى برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئًا •

اننى بعد أن التقى بصرى ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغى ، قد أغمضت عينى فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البنه ، فكأننى كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان فى امكانها أن تفترض أننى كنت نائماً بالفعل وأننى لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماضى عينى بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع ٠٠٠

نهم ، لا 'يعقل أن يحــدث ، لا يحتمل أن يقع • ولكنهــا مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة ٠ خطـرت هذه الفكرة في ذهني كالبرق ٠ آ. • • • يا لزوبعة الأفكار والاحساسات التي عصفت في نفسي ابان لحظه واحدة ! ان علينا أن نعجب أشد الاعجاب يهذه الكهرباء في فكر الانسان • وأحسست في تلك اللحظــة أنهــــا اذا حزرت الحقيقة وعرفت أنني غير نائم ، فلابد أن يكون رضاى بالموت قد سحقها سحقا ، ولعل يدها قد أخذت ترتحف • ولمل صدمة هذا الشعور الجديد الحارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار • يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلتاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية • وأحسب أن كثيراً من حوادث الانتحــار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان في اليد + ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة التحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحساذيه الا أن ينزلق الى تحت • ان نداءً لا يقاوم ولا ينالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد • ولكن شعورها بأنني رأيت كل شي ء ، وأنني أعلم كل شيء ، واننى أنتظر صامتًا أن تأتيني منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق ٠

وطال الصمت • وأحسست على صدغى وعلى شعرى ببرودة ملمس الحديد • قد تسألوننى هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً فى أن أنجو مرة أخرى • فاعلموا _ والله على ما أقول شهيد _ أننى كنت قد فقهدت

كل أمسل ، أو لو يكن أملى يزيد على واحسد من مائة • فلماذا ارتضيت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صبّوبه الى اسان أعبده عيادة ؟ ثم اننى كنت أعرف معرفة "لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضننى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لاعراضى عنها جبناً • كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه • هذا اذا صبح أنها حزرت أننى لم أكن نائماً •

ومن الجائز ألا يكون شيء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينـذاك في ذلك كله ، ولكن أغلب الغلن أن يسكون هـذا هو ما جرى ، لاننى منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظة في ساعة من حياتي .

ولكن قد تسسألوننى أيضساً: « لماذا لم تمنعها من اقتراف جسرم فظيع ؟ ، • فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقيته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهرى رعدة • لقد كانت نفسى ممثلثة حينفاك بيأس مظلم : كنت أنا نفسى هالكاً ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فملاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقظاً • ومر"ت الثواني ، وران صمت كصمت الموت • ولا تزال هي مائلة على" • ثم اذا أنا أرتمش أمــلا" • فأقتح عيني" • فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة • نهضت عن سريرى • وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هي منهزمة مغلوبة الى الأبد •

مضبت أجلس بقرب السماور • كان الشاى يشرب عندنا دائماً فى النوفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصنبه • جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشلى • وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق • كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس وكانت تنظر الى منها لاحظت نظرتمي اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما لونهما تلم بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبر آن عن سؤال ، قلت لنفسي : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتسماء نا أيعلم أم لا يعلم ، أرأى أم أنه ما رأى ؟ ، • أشحت نظرى مصطنعاً قلة الاهتمام + حتى اذا فرغنا من النساى ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً من حديد ، وحاجزاً • ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير فى الصالة وراء الحاجز • انه سرير لها ، ولكننى لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة • فأدركت هى من وجود هذا السرير « أنتى رأيت كل شيء ، وعلمت كل شيء ، ما فى ذلك ريب • وفى تلك الليلة تركت المسمدس على المائدة كمادتى فى كل ليلة • ورقدت هى صامتة على سريرها الجديد : لقد انحل كانواج • « وغلبت هى لكنها لم 'يغفر لها ، • وانتابها فى تلك الليلة هذيان • وظهر فى الصباح أنها أصيبت بحمى حارة • فبقيت راقدة ستة أسابيع •

الفصل الثاني 1

حسلم خيسالا وصلف

اضطجت على الديوان ، ولكننى لم أستطع أن أغمض عينى •

••• أثناء مرضها الذى دام ستة أسابيع كنا تتناوب القيام عليها نهاراً وليلاً أنا ولوكيريا ومسرّضة محترفة جثت بها من المستشفى • لم أحفل بالنفقات • حتى لقد كنت لا أنشد الا أن أنفق من أجلها • واستدعيت الدكتور شرودر ، ودفعت له أجسراً قدره عشرة روبلات • وحين عاد اليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين • ولكن ما حاجتى الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسة " في غرفتي قرب مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسة "

بهدوء لا تنطق بكلمة • • • نعم ، كتسا نصمت • هذا صحيح • بل قل اننا قد بدأنا نتبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتنساول الا أمورا تافهة مبتذلة • وكنت أتعمد طبعاً ألا أبتعد في كلامي عن هذه الأمور المبتذلة • وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ • كنت أقول لنفسي : • انها مهتزة أشد الاهتزاز ، مهدمة أكبر التهدم ، فيحسن أن أتبح لها الوقت اللازم للنسيان واسترداد قوتها ، • فعلي هذا النحو كنا نلتزم الصمت • ولكنني كنت في كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ • وكنت أقدار أن حالها كحالي ، وكان يعصف بي شغف شديد رهيب بأن أنساط : « ترى في أي شيء تفكر الآن ؟ » •

سأقول لكم شيئاً آخر • لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عابيت من ألم حين كنت أئن وأنتحب أثناء مرضها • ولكننى كنت أنتحب بينى وبين نفسى ، وأكظم أنينى في صدرى ، وأخفى شكاتى حتى عن لوكيريا • وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون أن تعلم شيئاً • وانى لأتذكر أننى حين زال عنها الخطر وارتدت اليها العافية ، قد هدأت نفسى هدوءاً كاملا بسرعة • وأكثر من ذلك أننى قررت وأن أرجى و مسألة مستقبلنا ، ما استطعت ارجاءها ، وأن أدع الأمور على حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلى في المستقبل الذي أوجو أن يبقى بعيداً • نعم ، ان ما يحدث لى في ذلك الجين كان شيئاً عجيباً غريباً لا أجد كلمة تصفه الا أن أقول اننى كنت و أنتصر ، ، وكان شعورى بهذا الانتصار يبدو لى كافياً كل الكفاية • هكذا انقضى الشتاء كله • آ • • • كنت راضياً وهمروراً في أي يوم من أيام حياتي حتى مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً في أي يوم من أيام حياتي حتى ذلك الحين • • • ودام وضاى ومرورى الشناء كله •

اسمعوا • لقد مروت فی حیاتی بظرف ألیم کان الی ذلك الیوم ، أ أی الی یوم تلك المصیبة التی نزلت بزوجتی ، جاثماً علی صدری یخنقنی خنقاً فی جمیع الآیام ، وفی كل ساعة من ساعات الیوم ، ألا وهو _ باختصار ــ فقدانی سمعتی وطردی من الجیش • وکان ذلك الأمر ظلماً لی ، ظلماً ملیناً بالطغیان والاستبداد ، وخالیاً من الرأفة والرحمة • هناك حقیقة یجب أن أذکرها ، هی أن رفافی کانوا لا یحبوتنی بسبب طبعی الذی کان صعب المراس ، وربما کان باعثا علی الضحك ، وان کان یحدث فی کثیر من الأحیان أن ما یبدو لامری من الناس رائماً سامیاً ثمیناً مجیداً داعیا الی الفخر مشر قا یمکن أن یحمل علی الضحك والقهقهة عصبة بأسرها من الرفاق ، لا تدری لماذا ولا کیف !

المهم أننى أنا لم أكن محبوباً في يوم من الأيام ، حتى في المدرسة ، ما أحبنى أحد في أى مكان ولا أى زمان ، لوكيريا أيضاً لا تستطيع أن تحبنى ، ولكن ما وقع لى في الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لى رفاقي من عواطف الكره ، انما كان مرده الى مصادفة صرف ، ويهمنى كثيراً أن أكرر أنه لا شيء يسىء الى المرء ولا شيء يفوق طاقة المرء على الاحتمال كأن يضيع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا تحدث ، أو بتضافر عدد من الظروف تضافراً مشئوماً ، وهي ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان ، ذلك في نظر الانسسان الذكي اذلال لا يضارعه اذلال ، واليكم تلك المصادفة :

أثناء حضورى مسرحية من المسرحيات ، وفي فترة الاستراحة بين فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئًا من شراب ، فاذا بالضابط ، آ ، ، و وف ، ، وهو ضابط في سلاح الفرسان ، يدخل الى البوفيه بسرعة كسرعة الربيح ، ويقول لرفيقين من رفاقه بصوت عال على مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بيزومتسيف قد أثار فضيحة في دهاليز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر منه كل مأخذ ، ، ولم يتصل الحديث ، وكان عدا ذلك خطأ ، لأن الكابتن ميزومتسيف لم يكن سكرانًا ، ولا كان الأمر الذي حدث خليقًا بأن أبعد " فضيحة ، وجرى الحديث بين ضسباط سسلاح الفرسان على شيء آخر ،

ووتف الأمر عند هذا الحد • ولكن فوجنا كان في الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن في البوقيه أحد من ضباط الفوج غيرى ، واننى لم أحتسج على و آ ٠٠٠ وف ، حين قال ذلك الكلام الوقسح عن الكابتن بيزومنسيف ، ولا اتجهت اليه بأى تقريع لأسكته . وفيسم كان ينفع الاحتجاج أو التقريع ؟ اذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لى بها ، ولا داعي الى تدخلي فيها . ولكن ضياط فوجي لم يعدُّوا الأمر أمرًا شخصيًا ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؛ واذ لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى حينذاك ، فانني بسكوتي قد برهنت للجمهور والضباط الذين كانوا في البوفي، أنه يمكن أن يضم ً فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم • وكان لا يمكن أن أسلتم بهذا الرأى • وأبلغوني أننى مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، اذا أنا ارتضيت ، رغم تأخرى ، أن أدعو الضابط « آ ٠٠٠ وف » الى البارزة غسلاً للعار ، فلم أحبب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت العرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتي • تلكم هي القصة • لقد خرجت متغطرساً ، ولكن محطماً • وشاعت المصادفة بما يشبه العمد أن یکون زوج أختی ، الذی یقیم بموسکو ، قد بدَّد ارتنسا المتواضم وحصتى من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسى في الشــــارع لا أملك قرشياً ٠

ولقد كان يمكن أن ألنمس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها ، لكننى لم أرتض لنفسى هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف في السكة الحديدية ، بعد أن كنت أوتدى بزة عسكرية لألاءة متألقة ، وأخذت أتدهور : فمن دناءة الى دناءة ، ومن خزى الى خزى ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعارى هو : كلما ازددت سوءاً وشراً ، كان ذلك أفضل وأحسن ، قضيت على هذه الحال تلاث سنين

ما أبشم ذكراها 1 ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى ٠ ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هي عرَّابتي ، فاذا هي تورثني في وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل • ففكرت في أمرى ، واتخف نت قرارى فيما يعجب عَلى أن أسلك من سبيل وأن أحترف من مهنة + عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أسـتغفر احــــداً ولا أطلب من أحد عفوا أو صفحاً • قلت لنسى : بذلك أجنى مالاً ، وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضي • تلكم كانت مشاريعي • ولكن ذلك الماضي المشئوم وتلك السمعة التي ثلمت شرفي الى الأبد كانا لا ينفكان يعذباني في كل لحظة وفي كل دقيقة • وفي أثناء ذلك تزوجت • فان سألتموني هل كان ذلك مصــــادفة أم لا ، قلت انني لا أعرف • ولكنني كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتي أنني أدخل صديقة ، فما كان أشد حاجتي الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه الصديقة كان ينبغي لى أن أهيئها وأن أعمل فيها بل أن أننصر عليها أيضاً • فهل كان يمكنني أن أشرح الأمسور دفسة واحدة ، لهذه المرأة الشابة التي لا تتجاوز سننها ستة عشر عاماً ، والتي تزخر نفسها بأفكار مستقرة راسخة ؟ كيف كان يمكنني مثلاً ، لولا أن أسعفتني المصادفة التي أدَّت الى الكارثة الرهبية ، أعنى مصادفة المسدس ، أن أقنمها بأننى لست جياناً رعديداً ، وأن اتهامي في الجيش بالجين كان ظلماً • ولكن الكارثة قد أوضحت كل شيء • فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغي ، ثأرت' لكل ماضيُّ المشئوم • واذا لم يكن أحــد قد عرف بذلك فقد عرفته « هي » ، وكان هذا حسبي ، فقد كانت عندي كلَّ شيء ، وكانت كلَّ أمل مستقبلي على نيحو ما كنت أراه في أحـــلامي ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما اخترت غيرها ، فلم أكن في حاجة الى أحد سواها ، وها هي ذي قد عرفت كل شيء ، أو عرفت على الأقل أنهـا أفرطت في التسرع والتعجــل حين انضمت الى أعدائي + فلا يمكن أن أكون بعد الآن في نظرها جباناً ، بل انسان غريب الأطوار في أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءني

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النساء في بعض الأحيان • الخلاصة أنني تعمدت أن أرجى انتهاء الأمر الى أية خاتمة : فما حدث كان يكفيني ، كان يكفيني في ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطري وتطمئن نفسي ، وكان الى ذلك يغذي أحلام يقفلني بصور كثيرة • ان أسوأ صفة مشئومة من صفات طبعي هي أنني امرؤ حالم ، فكانت لا تسوزني موضوعات تدور عليها أحلامي في اليقظة • أما هي فأظن أنها «كانت تنتظر » •

على هذه الحال انما انقضى الشـــتاء كله انتظـــاراً • وكنت أحب أن أتأملها خلسة ً حين تتجلس بقرب المائدة + كانت تعمل في نطريز بعض الأغطية • وكانت في بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتي • فكان اختيارها كتباً من مكتبتي خلقاً هو أيضاً بأن يشبهد لي بالفضل والتميز ٠ وكانت لا تكاد تخرج أبداً • فكنت أصطحمها كل يوم عند الفسق بعد المشاء في نزهة ، فنتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا في الماضي • كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصمت ، فكأن تفاهماً تاماً قد قام بيننا • ولكننا ، كما سسيق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث • وكنت أفعل ذلك عامداً ، لاعتقادى بأن على الن أثرك لها « فسيحة من الوقت ، • ولا شك أنه أمر غريب أننى لم يخطر ببالى مرة ً واحدة حتى نهاية الشتاء ، أننى ان كنت أحب أن أتأملها خلسة من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى على نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضَّها الطرف الى خجلها وحيائها • هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعانى المذلة والدمائة والمذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنة "أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أتنظر ، وكنت أقول لنفسى : د لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً ، • •

وقد اتفق لى فى ذلك النستاء أن قست ببعض الحسسنات متعمداً • فألنبت دينسين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ؟ ولم أذكر

ذلك لزوجتى ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لى صنيعى وهى تكاد تعجثو على ركبتيها تعبيراً عن امتنانها • فشاع الأمر • وبدا لى أن امرأتى شمرت بسرور صادق حين علمت به •

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل)، ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل غرفتينا الصامتين أشعة دافئة قوية ، ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على فكرى وتبث فيه الاضطراب ، غشاوة قاتلة رهبية ! فكيف حدث أن زالت تلك الفشاوة فجاة ، فاذا أنا أرى كل شيء وأفهم كل شيء ؟ أكان ذلك بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذي حدده القدر ؟ هل جاء شعاع من شمس فأشمل في فكرى المخبول تلك الفكرة ، وأنبت ذلك الاكتشاف ؟ لا م يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافا ، ولابد أن شريانا كان ساكشاف تتحرك ، أو أن وترا كان جامداً فاهتز ، فاذا هو يضيء نفسي كلها على حين فجاة ، واذا هو يستثير كل خيسلائي الشيطانية ، لقد انتفضت عندئذ فجانة ، واذا هو يستثير كل خيسلائي الشيطانية ، لقد انتفضت عندئذ الشناف ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء ، . .

والغسث اوة الالتى سقطت

اليكم أولا ماتين الكلمتين • كنت قد لاحظت لديها منذ شهر اكتئاباً غريباً • لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً • ذلك أيضاً قد انكشف لى فجأة • كانت جالسة تطبّرز مائلة على شغلها برأسها ، فلا ترى أننى أنظر اليها • فما كان أشهد استغرابي ، على حين غرة ، حين وأيتها مهزولة ذلك الهزال كله ، نحيلة ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت شفناها باهتئين لالون لهما • ذلك كله شهدهني بفتة الى أقصى حد ، وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسى وحزن وكآبة • وكنت قد مسمعت ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن ، ولا سهما في الليل • فما ان رأيتها هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة •

وجاء الدكتور شرودر فى الغد • فدهشت هى من مجيئه دهشة كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه الى تارة أخرى • وقالت وهى تبسم ابتسامة لا يمكن تحديد معناها :

_ ولكننى بخير ٠

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً في التعالى عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لى في الغرفة الأخرى ان هذا من نقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسافر في الربيع الى البحر تستنشق

هواءه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير ، أى انه لم يقل شسيئًا ، سوى أنها تعانى من فقر فى الدم ، أو شىء من هذا القبيل ،

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجههما جممه شديد صارم:

ـ أنا بخير وعافية ، لست مريضة .

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل مردّها الى الحجل علما ، فقد كان ذلك مردّها الى الحجل قطماً ، فقد كان ذلك واضحا • آه • • اننى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من أننى لأأزال • زوجها ، ، وأتنى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى • ولكننى لم أفهم من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمراد وجهها الى شعورها بالمذلة (آه من النشاوة !) •

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، في نيحو السياعة الخامسة من الأصيل ، في يوم ساطعة شمسه من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كتت جالساً في مكتبى أجرى بعض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تدندن في الغرفة المجاورة ، أثناء عكوفها على تطريزها ، أغنية " من الأغنيات بصوت رقيق خافت ، فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذي لا عهد لى به منها أن هزني هزا قوياً ، نهم ، وانني لم أفلح في فهم هذا الأمسر حتى هذا اليوم ، لم أكن قد سمعتها تغني قبل ذلك ، اللهم الا في الأيام الأولى من دخولها بيتي حين كنا لا نزال تسلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف ، وكان صوتها في ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليما ومطرباً رغم ما يدل عليه من ضعف الثقة بالنفس ، أما الآن فان غناءها ضعف أشد " الضعف الن أقول انه غنياء حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ، غير أن من يسسمه يحس أن صوتها مهشسم ، وكأنه لا يستطيع أن يخسر من صدرها ، وكأن الأغنية نفسها مريضة ، كانت تغنى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة النحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يعبر عن الانتحاب ويثير الاشفاق ، واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته ، • •

لسوف تضحكون تهكماً على اهتياجي • ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبد بهي انفعال شديد ا ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد • وانما كان ، في اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهيبة ، دهشسة رهيبة عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة في الانتقام : « ماذا ؟ أتنني بحضوري ؟ أنسيت اذن أنني هنا ؟ ، •

بقیت فی مکانی جامداً مضطرباً متحیراً ، ثم نهضت فجاه ، وخرجت کاننی ثبت الی رشدی • والحق اُننی لا أعرف لماذا قست ولا ماذا أنوی أن أعمل • ومدّت الی لوكیریا معطفی .•

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

ــ أهي تغني ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الى مرتبكة • وكان من حقهـا ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم ما بى • وأردفت أسأل لوكيريا :

ـ أهى تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

ـ بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت ٠

لا يزال الباقى كله مائلاً فى ذاكرتى • نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أى مكان • سرت حتى زاوية الشارع ، وسراً حت طرفى • كان يمر ناس فيصدموننى ، فلا أحس بشى • وناديت حوذياً ، وأردت أن يقودنى الى • جسر الشرطة ، لا أدرى لماذا • لكننى سرعان

ما عدلت عن هــــذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كوبكاً وأنا أقول له متسماً ابتسامة بلهاء:

ـ جزاء ازعاجك بغير فائدة •

ولكن قلبي ارتبش في تلك اللحظة بنوع من الحماسة •

رجعت الى البيت وأنا أغذ الخطى ، ان النغمات الحزيسة من الأغنية المحطمة قد ترجعت في نفسي على حين غرة ، سسعرت بأنفاسي تنقطع ، الغشاوة المحتلمة قد ترجعت في نفسي على حين غرة ، سسعرت بأنفاسي تنقطع ، الغشاوة اخيراً عن عيني معطت الفشاوة الما دامت قد غنت بحضوري ، فمعني ذلك أنها نسبت ـ الأمر واضعع بقدر ما هو مربع ، أحس قلبي ذلك ، ولكن الحماسة التي أشرقت في نفسي غلبت الروع ، يا لسخرية القدر ا هل كان في نفسي طوال ذلك الشستاء شيء غير تلك الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا في ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسي ؟ عبد السلم مسرعاً ، فلا أدرى هل كان دخولي رزينا ، كل ما أتذكره هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمي ، وأنني كنت أحس بنفسي عائماً في نهر ، دخلت الغرفة ، كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز عائماً في نهر ، دخلت الغرفة ، كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز سريعة خالية ، نظرة ليست نظرة ، وانما هي تلك الحركة الآلية التي سريعة خالية ، نظرة ليست نظرة ، وانما هي تلك الحركة الآلية التي ليس فيها اكتراث ، الحركة التي تجريها حين يدخل أحد الغرفة ،

مضیت الیها 'قد'ما ، وجلست بقربها علی کرسی کالمجنون • فاذا هی تنظر الی " فجاة مذعورة مرتاعة • تناولت یدها • ولا أنذکر الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأننی لم أقلح فی أن أرسل کلامی سلیماً صحیحاً • واسحبس صوتی ، و عقل لسانی ، فلم أعد أنطق بحرف • تم اننی کنت لا أدری ما عنسانی أقول لها • کنت أختنق اختناقاً •

وفحأة تمتمت أقول لها ببلاهة :

ــ هلا تكلمنا ٥٠ قليلاً ٥٠ قولي لي شيئاً ٥٠

نهم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون في تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان خطرت الى وجها لوجه حنى ارتست وتراحت من جديد ، واعتراها هلع شديد ، ولكن « اندهاشاً قاسياً ، لم يلبث أن ارتسم على وجهها ، نهم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً ، نظرت الى وقد انسعت حدقناها ، فسرعان ما صعقنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقنى ذلك الاندهاش القاسى ، كان ذلك الاندهاش كأنه يسألني رغم صمنها : دأما زلت اذن تطلب حباً ؟ حبساً ؟ » ، قرأت ذلك في وجهها رغم أنها لم تقل شيئاً ، فاذا كل شيء في نفسي يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها ، نهضت يوثبة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أسكتها من ذراعيها ،

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيسه من كرب ويأس ادراكا كاملاً .

آه ٥٠٠ نهم ، كنت أدركه! ومع ذلك _ هل تصحيحةون ؟ _ كانت الحماسة تغلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حينى قد حان ، وأنى أموت ، طفقت ألثم قدميها سكراً ونشوة وسعادة ، نعم ، سعادة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخسرج منه ، وكنت أبكى ، وأنكلم دون أن أجد الى الكلام سبيلاً ، فاذا بالارتياع والدهشة يحل محلهما عندها قلق وتساؤل ، فتنظر الى وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش ، كانت تريد أن تنهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تبتسم ، ولقد أشعرها بخزى رهيب أن وأتنى أقبل قدميها ، قسحبتهما ، ولكننى قبلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدماها من الأرض ، فلما رأت هذا ضحكت شعوراً منها بالحجل والحزى (هل رأيتم أحداً يضحك شسعوراً منه بالحجل والحزى (هل رأيتم أحداً يضحك شسعوراً منه بالحجل والحزى) ، وأوشكت أن تعتريها نوية عصبية ، رأيت ذلك ، كانت

يداها ترتجفان • ولم أحترس ، فظللت أتمتم قائلاً اننى أحبها ، واننى لن أكف عن حيها ؟ وأضفت أقول : « دعينى أقبل ثوبك • • • هكذا • • • سأقضى حياتى كلها مصلياً لك ، ضارعاً اليك • • • ، نسبت الآن ما قلته لها أيضاً • وانى لكذلك ، اذا هى تتفجر ناشجة منتجة ، وتأخذ ترتمش • هذه نوبة عصبية تعتريها • لقد روعتها •

نقلتها الى السرير • فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد بان فی وجهها ارهاق شدید واهیاء قوی ، وأمسکت یدی ، وأخذت تتوسيل اليُّ أن أهدأ ، وتقول لي : ﴿ لا تُعذُّبُ نَفْسَكُ ، هدي، بالك ، ، نم استأنفت بكاءها . لم أتركها طوال المساء . وظللت أقول لها اني سأخذها الى بولونى لتستحم في مياه البحر ، واني سأفعل هذا الآن ، على الفور ، بعد خمسة عشر يوماً ؟ واني قد سمعت في صوتها بالأمس من النحول والتكسر والتحطم ما يجلني أقسرر أن أغلق المكتب ، وأبيعسه الى دوبرونرافوف ؟ واننا سنبدأ كل شيء بدءًا جديدًا ، واننا سنسافر خاصةً ـ الى بولونى ، الى بولونى ! فكانت تصفى الى كلامي ولا تكف عن الارتباع ، وكان الجزع يجتاحهـا أكثر فأكثر ، على أن أهم شيء في نظری لم یکن هو هذا ، وانما کانت تستبد بی من جدید رغبــة عارمة قوية ما تنفك تشتد وتعنف فلا سيبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهي أن أرتمي على قدمي زوجتي مرة ً أخرى ، وأن آخذ بتقسلهما من جديد ، وأن ألثم الأرض التي وطثتها قدماها ، وأن أرجوها مردداً في كل لحظة « لا ألتمس منك الا شيئًا واحسدًا • • لا تحسني ، لا تلقى بالاً الى ، لاتكترني بي • • ولكن دعى لى أن أنظر اليك من الركن الذي أقبم فيه ، اجعليني مناها لك ، عديني شيئًا من أشيائك ، احسبيني كلبك الصغير ! . وكانت تبكى • وأفلت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

ـ « كنت أفـدر أن تتركني على هذه الحال ٠٠٠ ، ٠

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته • ولكن

هذا الذي قالته كان أخطر كلامها شأنًا ، وأشده شؤمًا ، وأكثره استفلاقًا على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت في قلبي حين سمعته ! لقد أوضحت لي تلك الجيلة كل شيء ، كل شيء ولكنني أثناء وجودها بقربی أمام عینی م لم یکن فی وسعی أن أفقد الأمل ، حتی لقد كنت أستنشق عبير مسعادة لا حدود لها • آه ••• كنت في ذلك المساء أرحقها تعبًا ، وكنت أدرك ذلك ، ولكنني لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور ! وحين هبط الليل أخيراً ، خارت قواها وانهارت انهباراً • فأقنمتها بأن تنسام ، فسرعان ما نامت نوماً عميقاً + وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفًا . وليثت الليل كله أقوم في كل لحظة ، فاقترب منها ببابوجين دون أية ضجة ، لأنظــر اليها ، وأتأسـل وجهها . فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الراقد على ذلك المضجع هنـاك ، على ذلك السرير المصنوع من حــديد الذي اشتريتــه لها بثلاثة روبلات ، لا يسعني الا أن أعقف يديُّ أسغًا وحسرة • وكنت أجثو على ركبتى ، دون أن أجرؤ مع ذلك على أن أقبل قدمى النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) • وكنت أحاول أن أصلَّمي لله ، ولكنني لا ألبث أن أنهض بوثبة • وكانت لوكيريا تنظر اليُّ ، ولا تنفك تخرج من المطبخ • فمضت النها ذات مرة وطلت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شيء « سنيتدارك في غد وسبتغير » ٠

وذلك ما كنت أومن بها ايماناً أعمى ، ايماناً مجنوناً ، آه ، • • كانت الحماسة تغمر قلبى ، تغرق قلبى ! كنت لا أتنظر الا أن يجيء الغد • والأنكى من ذلك أننى كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصية ، لأننى كنت لا أدى شيئاً ينذر بذلك • لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الغشاوة تمزقت • ومضى وقت طويل قبل أن أسترد رشدى كاملاً ، وقت طويل تبل أن أسترد رشدى كاملاً ، وقت طويل النبي حتى في هذا اليوم لم أصحح محواً تاماً في ذلك الحين ؟ ألم تكن صحواً تاماً في ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حية ، هي أمامي وأنا أمامها ؟ « غداً تستيقظ ، فاحكي لها كل شيء ، وتكتشف كل شيء ، وتلكم كانت خواطري في ذلك الوقت ، واضحة كل الوضوح ، بسيطة أشد البساطة ، ومن ثم كانت تنبع حماستي الغامرة الفياضة ، وكانت فكرة السفر الى بولوني خاصة تؤجج تلك الحماسة تأجيجا شديداً ، اذ كنت أتصور _ لا أدرى لماذا _ أن بولوني كل شيء ، وأن في بولوني مستقراً لكل شيء ، « الى بولوني ، الى بولوني ، الى بولوني ،

وعلى هذه الحـال من الحرف والهذيان ، انما كنت أنتظــر طلوع الفجر •

فهمت كل لالفهب

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضي ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريثت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئًا من التمهل ، اذن لاستطعت أن أبدُّد جميع الظلمات • ألم تكن قد هدأت ؟ بلي • لقد أصبحت منذ الغد تصغى الى مبتسمة ً رغم حيرتها وارتباكها • ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الآيام الخمسية ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الحجل والحاء . وكانت خائفة أيضًا ، كانت خائفة خوفًا كبيرًا • لا أنكر هذا • لست مجنونًا فأزعم النقيض • كان ذلك خوفًا • ولكن كـف كان يمكن ألا تمخــاف ؟ كتــا قد عشــــنا غربين أحدثا عن الآخر ، بعدين أحدثا عن الآخسر ، مدة طويلة ، وحدث كل ما حدث مباغتاً أشد المباغتة ٠٠٠ ولكنني لم اكترث بمخاوفها : ان فجــراً جديداً يطلع ! والحق أننى ارتكبت خطأ فاحشــاً • ذلك حق لا يمكن أن أماري فمه • لقد ارتكبت خطأ منذ استيقظنا في الغد ، ذلك الصباح نفسم (يوم الثلاثاء): أسرعت أعاملهما كما تعامل صديقة ٠ تسجلت • أسرفت في التعجل • ولكن كان لابد لي من أن أعترف لهــا ، كان لا غنى لى عن هذا الاعتراف • لا أقلَّ من الاعتراف! وهكذا بحت لها بما أخفيته حتى عن نفسي ، بما أخفيته عن نفسي طول حياتي • قلت لها فجأة انني خلال هذا الشتاء كله كنت واثقًا بعجها ؟ وكشفت لها عن أن مكتب الاقراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة ذكائي ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاقبة نفسي والمباهاة بها في الوقت نفسه وذكرت لها أن ما 'وصفت' به من جبن لم يكن تجنيا على "بل كان حقا ، اذ لقد جبنت فعلا" في بوفيه المسرح ، لأتني رجل خائر العزيمة سيي، الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذي يحيط بي ، والبوفيه ، وكل ذلك ، قد ملأني دهشة ، ثم هذا الأمر أيضاً : كبف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيفاً مضحكاً ؟ ان خوفي أما أني لم يكن من المسارزة ، بل من أن أظهر للملأ سسخيفاً مضحكاً ، ثم انني لم أبضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذب جميع الناس ، فعذبتها هي أكثر كلامي لهسا كان كالهذيان ، فأمسسكت يدى ، وضرعت الى "أن أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك ، ، وطفقت تبكي من أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات ،

ولكننى أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدتها عن الربيع وبولونى قائلاً : هناك ستشرق الشمس ٠٠٠ هناك ستتلألاً شمسنا الجديدة ، وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت بالعمل الى دوبر نرافوف ، واقترحت عليها فجأة أن نوز ع كل شيء على الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التى ورثتها من عرابتى ، فبهذا المبلغ نسافر الى بولونى ، ثم نرجع من بولونى لنبدأ حياة عمل جديدة ، على هذا اتفقنا ، لأنها لم تعرض بشيء ، لم تقل شيئاً ، واكنفت بالتبسم ، وأظن أنها كانت تتبسم كياسة ولباقة عنى لا تؤلنى ، وكنت أرى رؤية واضحة أنها كانت تتبسم كياسة ولباقة حتى لا تؤلنى ، وكنت أرى رؤية واضحة أننى أتمبها ، لا تظنوا أننى بلغت من الأنانية والحماقة حسداً يجعلنى لا ألاحظ ذلك ، لقد رأيت هذا كله ، رأيت بأدق التفاصيل ، كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم • وكان يأسى كله ماثلاً أمامى تيحت بصرى •

طفقت لا أحدثها الا عنها وعني • وعن لوكيريا • قلت لها انني بكيت • وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه • حرصت على أن لا أثير ذكرى بعض الأمور • حتى ان هيئتها قد انتشت مرة ً أو هرتين • أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظـــر فلا أرى شــبئًا ؟ ولو أن « ذلك » على الأقل لم يحـــدث ، لكان هــذا انبعانًا • ألم تقصص عليٌّ في غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص على ، وهي تضحك لهذه الذكري ، مشهد حيل بلاس ، مع رئيس أساقفة غراطة ؟ وما كان أروع ضحكها ! كان كضحك طفلة صغيرة ، ذكرني بضحكهـا أيام َ الخطوبة (مدة لحظة ، لحظة واحسدة) • آه ما كان أسسعدني ! ومع ذلك لم تدهشني قصتها عن رئيس الأساقفة • وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت في خلال هذا الشتاء أن تسترد كثيرًا من هدوء البال والطمأنينة والسعادة عرحتي أخذت تتسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب + معنى ذلك أنهـا أخذت تألف الوضع وتتلام مع الظرف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأنني سوف أتركها • على تلك الحال » • لقد قالت لى في يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك ستتركني على هذه الحال ، • تلك فكرة تراود خاطـر صـبية صفيرة في العاشرة من العمر! كانت تعتقد فعلاً ــ كانت تعتقد بذلك ــ بأن كل شيء سيبقى على تلك الحال ٥٠٠ وأجلس أنا الى مائدتني ، وتجلس هي الى مائدتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين • ثم هأنذا أتدخل تدخــل زوج • والزوج يطلب أن تحبه زوجته .• فذلكم كان سوء فهمى • وتملكم كانت عماوتي أ٠٠٠

وكان خطأ آخــر هو أننى كنت أتأملها في حماسة • كان ينبغي لي أن أكبح زمام نفسي ، لأن حماســتي أخافتها • ولكن ألم أكبح زمام نفسي حين كنت أمتنع عن لثم قدميها ؟ وما من مزة هممت ٠٠٠ هيًا ٠٠٠ قلها ٠٠٠ نعم ٠٠٠ ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج ٠ حتى ان ذلك لم يخطرلى على بال ؟ وكانت شسفتاى لا تتحركان الا بالضراعة والرجاء ٠

على أتنى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتًا تامًا فما أنطق بكلمة! لذلك رأيتني أعترف لها فجأة بكل المسرة التي أجنيها من حديثها ، وأعبر عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقني أدبًا وثقافة فلا وجه للمقارنة بيني وبينها في مضمار الأدب والثقافة • فاصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، وخجلت خبجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ • وفقدتُ عندئذ سيطرتى على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتنصُّت على الهجوم الذي شُّنه طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من لذة عاطفية حين كتت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براءتها الساذجة • فاذا هي يسري في جسمها كله ما يشمه أن يكون رعدة ، واذا هي تهم أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أسرعت تدفن رأسها في يديها وتنفجر باكية ٠٠٠ فلم أستطم عندئذ أن أكبح جماح تفسی ، فاذا أنا أركع من جدید ، وأهوی علی قدمیها ألثمهما ، واذا بهذا كله ينتهى بنوبة عصبية أخرى تعتريها كما اعترتها نوبة عصبية فى المرة الأولى • حدث ذلك في العشية ، حتى اذا طلع الصباح •••

الصباح؟ يا لى من مجنون! ٠٠٠ ان ذلك الصباح هو هذا اليوم، هو اليوم الذي نحن فيه، هو منذ برهة ، منذ برهة ...

اصغوا الى ، وتابعوا ما أقوله ، منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب تناول الشماى (حدث هذا بعد النوبة العصبية التى اعترتها أسس) ، أدهشنى ما رأيته فيها من هدوء ، تلكم كانت حالنا ، وكنت من جهتى قد قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس ، ولكنها

اقتربت منى على حين فجأة ، وضّمت ذراعيها احداهما الى الأخرى ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخنت تقول لى انها مجرمة وانها لا تجهل ذلك ، وان جريمتها قد عذّ بتها طوال الشئاء ولا تزال تعذبها الى الآن ، و وانها تقدر شهامتى ومروءتى قدراً عظيماً ، وأضافت تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفية ، ولسوف أقدسك تقديساً ، فما ان سسمت هذا الكلام حتى انتفضت ، وهجمت أعانقهما بنراعى ً كلجنون ! وقبّلتها ، قبّلت وجهها وشفتيها ، تقبيل وجهر نوجنسه ، لأول مرة منذ انقصالنا الطويل ،

لاذا خرجت بعد قليل لأغيب عن البيت ساعتين ؟ خرجت لأنحز اجراءات جوازي سنفرنا الى الحارج • آه • • • يا رب ! لو أتنى رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر • • • اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حدث ! ولكن هأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنا حشداً كبيراً من الناس ، وأدى الأبصار كلها تشخص الى من • • • • • • وباء !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرق بحسسال مسن الأحوال • انها تعرف كل شيء • بقيت عندنا الشتاء كله ، قسوف تقص على ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجي من البيت بعشرين دقيقة في أكثر تقدير ، دخلت على مولانها في غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تملك نفسها) لم تكن في مكانها ، وأن مولانها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة ، وأن مولانها كان يسدو عليها أنها صلت للأيقونة في تلك اللحظة تفسها ، قالت لى لوكيريا ، سألتها : « ما بك يا سيدتي ؟ » ، فأجابتني : « لا شيء يا لوكيريا ، اوتهدمت مني وقبئلتني • سألتها : « مل أنت سسميدة يا سسيدتي ؟ » فاجابتني : « نهم يا لوكيريا ، • قلت : « كان ينبغي لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة يا لوكيريا ، • قلت : « كان ينبغي لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة • • • الحمد لله على أنكما تصالحتها ، • قالت : « طب يا لوكيريا »

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا ، • وابتسمت مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها كانت غريبة • كانت من الغرابة بحيث ان لوكبريا رجمت بعد عشم دقائق لترى ماذا كانت تفعل • • كانت مكية على الحائط بقسرب النسافذة ، قد أسندت الله احدى ذراعيها وأسسندت الى الذراع رأسها • وبقيت على هذه الحال مستفرقة في أفكارها ، حتى لقد بلغت من شــدة الاستغراق أنها لم ثلاحظ أنني لبثت في الغرفة أنظر اليها • ورأيت في وجهها ما يشبه الابتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبتسم • نظرت اليها مليًّا ، ثم استدرت في رفق وهدوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة • فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتمي ، فحذار أن يصيبك برد ، ، لكنني رأيتها ترتقي حافة النافذة المفتوحة ، وتقف علمها منتصبة القامة ، مديرة ً ظهــــرها الى ً ، محتضنة ً الأيقونة بيديهــا • فهيط قلبي فزعاً وصرخت: « سندتي ! سندتي ! ، ، فسمعت صوتي ، وتبحركت لتلتفت خوى ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجحت ، وشــدت الأيقونة الى قلبها ، ملقية كنفسها من النافذة ا ع.

أذكر أننى حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً • وأهول ما فى الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الى " • سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافة " وتنحوا عن طريقى ليفسحوا لى ممراً • كانت راقدة هناك ، قابضة " على الأيقونة • أذكر ، كما يذكر المر ، رؤية فى ظلمات ، أننى تقدمت صامتاً ، وتأملتها ملياً • كان الجمهور قد ابتعد ، وكان 'يقال لى شى ، ما • وكانت لوكيريا هناك ، لكننى لم أبصرها • يقال لى انها كلمتنى • اننى لا أتذكر الا ذلك المائع الذى كان لا ينفك يصبح قائلا "لى : « خرج من فمها خيط نحيل البائع الذى كان لا ينفك يصبح قائلا "لى : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خبط ، خبط من دم ! » ، وكان يشسير لى الى الدم حنساك على الحجر . وقد لمست الدم قطلبت به أصسبى (أذكر هذا) ، بينما كان البائم لا يزال يصبح « خيط نحيل من دم ! ، . فما كان منى الا أن وآرت زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدى ، وهويت عليه . . .

آه ••• يا للحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شيء لا ' يعقل حدوثه ! شيء مستحيل !

بسببب خس وت كنّ من لالستأخر

أأكون واهماً ؟ هل هذا كله 'يعقل حدوثه ؟ هل يمكن أن يقول أحد ان مثل هذا الأمر ممكن ؟ لماذا ماتت هذه المرأة ؟

صدقوا اننى أفهم الأمر • ولكن سبب موتها • • • يظل سؤالاً قائماً • لقد خافت من حبى • تساءلت جادة ً : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ ، • فلما لم تطق احتمال هذا السؤال ، آثرت أن تموت • أنا أعرف ذلك ، أعرفه ، فلا حاجة الى أن أصد ع رأسى • لقد تورطت فى وعود مسرفة ، وخشيت ألا تستطيع الوفاء بها • • • الأمر واضع • تضافرت ظروف رهيبة • هذا كل شى • •

ذلك أتنى أتمسامل حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى هذا السوال و والسوال قائم تحت جمجمتها ينبض ويخفق و لقد كان يمكننى أن أدعها على و تلك الحال ، ، ما دامت هذه هى رغبتها ولكنها لم تصدقنى و وتلك هى حقيقة الأمر كله و لا ، لا ، اننى أكذب : ما هذه هى حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى المستقبل أن تحبنى حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذي كانت ستهبه للبقال و ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضى هذا النوع من العاطفة التي تلائم بقالاً ، قد رفضت أن تغشنى وتخدعنى و لم تشأ أن تغشنى وتخدعنى و لم تشأ

كامل • كانت شريفة مسرقة فى الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية فى الاستفامة • ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغبانى حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تتذكرون ؟ فكرة غريبة عجبية !

وهناك نقطة يهمنى كثيراً أن تنضيح بى : 'ترى هل كانت تعتبرنى ؟ لا أدرى أكانت تحتقرنى أم لا • ولكننى لا أعتقد مسع ذلك أنها كانت تحتقرنى • شى، غريب ! لماذا لم يخطر على بالى فى يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحتقرنى ؟ لقد بقيت الى آخر لحظة ، الى اللحظة التى نظرت الى فيها « بدهشة قاسية ، ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك • وحينذاك انما أدركت فجأة أنها تحتقرنى • فهمت ذلك مرة الى الأبد • آه أى ضير ، أى ضير فى أن تظل تحتقرنى طوال حيانها شريطة أن تبقى حيسة ، أن نبقى حية ؟ اننى لا أفهسم أن تكون قد ألقت نفسها من تبقى حيسة ، أن نبقى حية ؟ اننى لا أفهسم أن تكون قد ألقت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشى ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكننى أن يحظر ببالى ما عقدت نينها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا • لن أدعها ترحل بعال من الأحوال •

أواه اكان لا يزال في امكاننا أن نتفاهم • صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحدنا على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية وكذلك نفسنها ــ فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء الو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تويثت يومين آخرين ، يومين لا أكر ، لكان يمكن أن تفهم كل شيء •

أنكى ما فى الأمر أن هذا كله نمرة المصادفة ، نمرة مصادفة عمياء ، قاسسة ، وحشية ، غادرة ، ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أننى رجعت قبل خمس دقائق ، لا نقضت اللحظة المشئومة كما ينقضى حلم ، ولما خطر الأمر ببالها بعد ذلك ، هامى دلك فى يوم من الأيام ، كانت ستفهم فى النهاية ، وبدلاً من ذلك ، هامى

ذى الغرف تقفر من جديد ، وهأنذا أبقى وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشىء ولا تتحسر على شىء . آه . . . ألا يكون للانسسان أحد فى هذا العالم . . . يا له من حزن !

انني أسير ذاهبًا آيبًا ، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب • أعلم ما يدور في أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجــة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو لكم أمراً سخيفاً مضحكاً أن تروني آسفا لمصادفة هذه الدقائق الحمس ؟ ولكن أسفى شيء يدركه الانسان بداهة ً • تذكروا أنها لم تترك حتى ورقة العلن فيها أنه لا ينبغي اتهام أحــد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك جميع من ينتحرون • ألم يكن في وسعها أن تقدُّر أن من الممكن افلاَق لوكيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : • كنت وحيدة ً معها ، فلابد أنك أنت التي دفعتها ، • على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريثة لولا أن كان في فناء المنزل أربعة أشـخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت واقفة على النافذة محتضنة ً الأيقونة ، وكيف أُلقت نفسها بنفسها الى تحت • وانها لمصادفة على كل حال أن كان في الفناء أشخاص رأوها • لا ، لا ، ان ذلك كله هو تمرة لحظة ، تمرة لحظة من عدم الشعور بالمسئولية . نزوة مباغتة ! لماذا كانت تصلِّلي أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت تنوي الموت • لعل المدة التي قضيتها مكبية على الحائط ، مسيندة "رأسها الى يَديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقة ، فاذا مى تتخذ قرارها • انها فكرة برقت في رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع أن تقاوم نداء الانتحار •

هو سوء فهم لا أكثر • كان لا يزال في وسعها أن تعيش مدى • ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مرد الأمر الى الأنيميا وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها ، فاذا هي •••

لقد تأخوت ااا

ما أشد ما يبدو جسمها ناحلا في التابوت! ما أشد ما يبدو أنفها رفيقاً! وإن أهدابها تبدو أشبه بسهام • حين سقطت على الأرض لم نصب بجسرح ولا كسر! لم يظهسر الا ذلك « الحيط النحيل من الدم ، • ان الدم الذي نزف منها يملأ ملعقة قهوة في أكثر تقدير • كانت الاصابة داخليه • فكرة غريبة تخطس ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أمها اذا أخذت منى • • فسوف • • لا > لا • • انه يستحيل تقريباً أن نؤخذ منى • آه • انني أعلم حق العلم مع ذلك أنها لابد أن تؤخذ ، ما أنا بمجنسون ، ولست أهذى • بالعكس : ما كان فكرى في يوم من الأيام صاحباً كصحوم الآن • ولكن ما معنى أن البيت عاد مقنراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرفتان ، وأنني قد عدت وحيسداً مع الأشياء المرهونة ؟ كابوس! كابوس! هذا هو الكابوس!

ما فيمة قوانينكم عندى بعد الآن ؟ بل في أى شيء تنفسى عاداتسكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم وديسكم ؟ ما قيمة أن تعجكم على معاكمكم ؟ ألا فلأجر الممثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله ، ولسوف يزأر القاضي عندئذ فائلا لى : « اسكت ، أيها الضابط ، ، فأصرخ أنا قائلا له : « من أين لك هذه السلطة التي تجيرني على طاعتك ؟ لماذا قتلت مصادفة عمياء أعز انسان على قلبي ؟ ما فائدة قوانينكم كلها ، اننى أنسحب ، ، نهم ، لا يهمني ، سأعتزل ،

عماوة ! عماوة ! انها ميتة • انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة في قلبي ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحف بك • ولكن كان يمكن ألا تجيبني ؟ قلتفسرض هذا • كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الجال ، • ولكن كنت سنحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شؤنك الصغيرة ، وكنا سنبتهج ، وكنا سنبتهم

بينما ينظر كل منا في عيني صاحبه فرحاً مرحاً • هكذا كان يمكن أن نميش • واذا أحببت رجلاً آخر ، ما كنت سأهتم أو أكترث • كنت ستذهبين معه ،وكنت ستبسمين ، وكنت أنا سأحو ل بصرى الى جهـة أخرى من الشارع • • • آه • • • ما قيمة هذا كله ، بشرط أن تفتح عينيها من جديد مرة واحدة ! لحظة واحدة ، لحظة وحيدة ! وتنظر الى م كما كانت تنظر الى منذ قليل واقفة تحلف لتكونن لى خليلة وفية • آه • • • ان فعلت أدركت كل شيء بنظرة واحدة !

يا للقدر! يا للطبيعة! ان المر، وحيد على هذه الأرض ، ذلكم هو الشيعة، و ان المجذوم الروسي الذي تحدثت عنه الأسلطورة يهتف سائلاً : و هل هنا أحد حي ؟ ، و واني لأهتف أنا أيضًا ، أنا الذي لست مجذومًا ، فلا يجيبني أحد و يقال ان الشمس تحيى الطبيعة و ان الشمس تطلع ، انظروا اليها وو أليست كأنها ميتة ؟ كل نبيء ميت وليس في كل مكان الا أموات و الانسان وحيد و كل ما حوله صمت و تلكم هي الأرض ! وأيها البشر ، أحبوا بعضكم بعضاً ، و من الذي نطق بهذه الكلمات ؟ من أين يأتي هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس ، دقاً رتبياً منفراً • هي الساعة الثانية من الفجر • حذاءاها الصغيران تحت السرير • كأنهما ينتظران • أواه! ما عساني أصير حين يأخذونها غداً • قولوا : ما عساني أصير !

وحلم رجل مضعك، نشرت هذه القصة أول مرة في كراسة شهو ليسان (ابريل) ۱۸۷۷ من «يوميات كاتب» (القصل الثاني)

مهمايسة بعييبة

أنا رجل مضحك و يقولون الآن انى مجنون و يكون هذا لقباً أعلى لو أننى مازلت فى نظرهم مضحكاً و لكننى لن أزعل بعد الآن و فجميع الناس لطاف فى معاملتى و حتى حين يستهزئون بى ويتهكمون على والله بل هم وحين يستهزئون بى ويتهكمون على وأرق ولا أننى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم و لسرائي أن أشاركهم الضحك و لا على نفسى و بل حرصاً على أن أسراهم و الني أحزن حين أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة والحقيقة التي أعرفها أنا و ما أشق أن يكون المرء هو الوحيد الذي يعرف و ولكنهم لن يفهموا و لا و لن يفهموا و

فی الماضی كان يؤلمنی كثيراً أن أبدو مضحكاً و أنا لم أكن أبدو مضحكاً ، بل كنت مضحكاً و لقد كنت طول حياتی مضحكاً ، وأنا أعلم أننی 'ولدت مضحكاً فی أكبر الظن و لعل ستنی كانت سبع سنين حين علمت أننی مضحك و ثم درست بعد ذلك فی المدرسة الثانوية ، وفی المجامعة ، فكنت كلما أوغلت فی المدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً من العلم أننی مضحك و حتی لكأن علمی الجامعی كله لم يوجسد الا ليبرهن لی ويشرح لی أننی مضحك كلما ازددت تعمقاً له ، وتوغلاً فيه و وكان شأن الحباة كشأن العلم فی هذا و فكنت ، سنة " بعد سنة ، أزداد يقيناً بأننی أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحی و لقد ضحك منی

واستهزأ بي جميع الناس في كل مكان وكل زمان • ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه اذا وجد في هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أنني مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال • والذنب في هذا ذنبي ، لأن خيلائي منعتني دائماً من الاعتراف بسرِّي • وكانت هذه الحيلاء تزداد مع تقدمي في السن ، فلو اتفق ان انسقت في يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، انني رجل مضحك لهشمت رأسي بطلقة من مســـدس في مســـاء ذلك اليوم نفسه • لطالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أنني لن أستطيع أن أقاوم ، وانني سأنساق مرةً على حين فحأة ، فأعترف بالأمر لرفاقي • ولكنني حين صرت شــاباً هدأً بالى واطمأنت نفسى لسبب أو لآخر ، رغم أنى كنت أزداد اقتناعاً بشذوذى الرهيب سنة " بعد سنة ، وما ذلك الا لأننى مازلت الى هذا اليوم أجهــل لماذا وكيف! لعل مردًّ ذلك الى تلك الكآبة الواسعة التي استولت على نفسى في أعقاب ظرف يفوقني كثيراً ، ألا وهو اقتنساعي ، الذي أصبيح راسخًا مستقرًا ، بأن كل شيء في هذه الحيــاة الدنيا « لس له شأن » • كنت أشتبه في ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكنني اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقينًا تامًا على حين فجأة • أحسست بغته ً أننى لن يهمنى ألا يوجــد العــالم أو ألا يوجــد شيء في أي مكان ، فلو حدث هذا لما اكترثت له ولا حفلت به • وأخذت أدرك وأحس أن لا شيء في نظري موجود في حقيقة الأمر • كان قد لاح لي دائماً حتى ذلك الحين أن أشباء كثيرة قد وجدت قبلي • فأدركت في تلك اللحظة أن لا شيء كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن ثمة الا مظاهر • واقتنعت شئًّا فشئًّا بأنه لن يوجد شيء أبداً • فأصبحت عندئذ لا أغتاظ من الناس ولا أحنق عليهم ، وصرت آخسر الأمر لا أكاد ألحظهم • وقد تجلت هذه الحالة النفسية في ظروف من الحياة هي أتفه الظروف : فكان يتفق لي مثلاً وأنا سائر في الشارع أن أصطدم بالناس ؟ ليس معنى هذا أنني أكون مستغرقاً في فكرة من الأفكار ، فقد أصبحت في ذلك الحين لا أفكر في الأشياء التي ينبغي أن أفكر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت في نظري ، فلست أحفل بشيء ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التي تعرض لفكر المرء ، ولم أحل منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكري مشمكلات أصلاً ، فمن « قلة اكترائي ، ، ذهبت المشكلات أدراج الرياح ،

ولـكن هأنذا أعلم الحققــة • لقد انكشفت لي هــذه الحقيقة في شهر تشرين الشاني (نوفمبر) الماضي ، في اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجــه الدقة ، فأصبحت ماثلة في ذاكرتي منــذ ذلك الحين كلَّ لحظــة • حدث ذلك في ليلة مظلمة ، في ليلة كانت أحلك الليالي ظلاماً • كنت عائدًا الى بيتى في نحو الساعة الحادية عشرة • أذكر ذلك • وكنت أفكُّس في أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلة " أحلك ظلاماً من هذه الليلة • وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أنـــد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم ٠٠٠ أذكر ذلك ٠٠٠ ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجسأة ، في نحو السساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شــديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشـــد وأبرد من الرطوبة التي كانت منتشرة أثناء انهمار المطر • كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشـــارع ، ومن كل زقاق ، حين تسرُّح طرفك في بعيد فترى الحارة من أولهـا الى آخــرها • وبدا لى فجأة أن المرء يقل احســاسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز في كل جهة من الجهان ، فالى هذا الحدُّ كانت أضدوا مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائهـ الضوء على هذا كله • لم أكن قد تعشيت في ذلك اليوم • وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحبة رفيقين له • قكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلابد أنني أضجرتهم • وقد تحدثوا في أمسور مثيرة ثم اذا بالغضب يستولى عليهم • ولكنهم كانوا في الحقيقة غير مكترثين ــ رأيت ذلك رؤية واضحة _ وكانوا لا يتحمسون ذلك النحمس الا شكلاً بغير مضمون • فاذا أنا أقول لهم فجأة : « يا سادة ، حقيقة الأمر أنكم غير مكترثين ، ، قلم ينضبوا ، ولم يزيدوا على أن ضحكوا لسسماع هذه الكلمات • وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أى معنى من معانى اللوم ، وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لى غير مثير للاهتمام أو الاكتراث ، وقد لاحظوا قلة اكترائى ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون •

حين دارت في رأسي تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا في الشارع ، رفعت عيني " نحو السماء ، كانت قية السماء كلها تمتد مظلمة " ظلامًا رهبيًا • ولـكن المرء يستطيع أن يمتِّيز فيها مزق السحائب تمبيزًا واضمحاً ، وأن يرى في هذه السمحائب بقعاً مسوداً عميقة • وبينا كنت أنظر في هذه السحائب اذ لمحت في احدى تلك البقع نجمة صغيرة ، فأخذت أتأملها محدقاً • ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت في نفسي فكرة • قررت أن أتتحر في ثلك الليلة نفسها • كنت قد عزمت على الانتحار منذ شهرین ، فاشتریت ، رغم شدة فقری ، مسدساً رائماً لقمته فی ذلك الیوم نفسه • وانقضي شهران والسدس لا يزال نائماً في الدرج • ولكنني بلغت من قلة الاكتراث بأي شيء أنني أصبحت أشتهي أخيراً أن تأتي الدقيقة أَلْتَى يَبِدُو لِي فَيِهَا الانتحار جِدَيْرًا بِالاكْتَراثِ • لمَاذَا ؟ لا أُدْرَى • وَصَرَتَ كلما سرت عائداً الى بيتي في الليل ، يخطر ببالي أن أطلق الرصاص على رأسي • وأخذت انتظر أن تنجيء اللحظة الملائمة المناسنة • وها هي النجمة " التي أراها في السماء توحي اليُّ بفكرة : أن أنفذ اللملة ما عزمت علمه ، « حتماً » • فاذا سألتني لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة في نفسك ، لأجمتك بأنني لا أعرف ذلك معرفة تامة •

وفى تلك الأثناء ، بينا كنت أنظر فى السماء ، انما أمسكت تلك البنت الصغيرة كوعى • كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة ، أو قل انه قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد • كان هناك حوذى يغفو على مقعده •

انالبنت الصفيرة هي في نحو الثامنية من العمر • كان رأسيها مغطى بمندیل ، وکانت ترتدی نوباً رئاً ، وکان الماء یسیل علیها . ولکن بصری وقع خاصة على حذاءيها المثقوبين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها • مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن • لقد خطف هذان الحذاءان انتباهي أكثر من أي شيء آخــر • وأخذت البنت الصغيرة تشـــدني من كوعي منادية مستنجدة • كانت لا تبكى • وكانت تناديني منقطعة الصـوت ، موعوعة ً بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذي كان يجعلهـــا ترتجف ارتجافاً شديداً • كانت تبدو مذعورة من شيء ما ، وتصيح يائسة : • أمى ، أمى العزيزة ! ، • التفت اليها ، ولكنني لم أقل لها كلمة واحدة ، وتابعت سميرى . ركضت ورائى ، وشدتنى من ذراعى ، بينما كان يخرج من حلقها صوت أجش أبح هو ذلك الصوت الذي تسمعه من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس • انني أعرف هذه اللهجة • وفهمت من وعوعتها ، رغم عدم اشستمالها على كلمات ملفوظة ، أن أمها تحتضر في مكان ما ، أو أن شيئًا من هذا القبيل قد حدث لهـا اللحظة ، فركضت تبحث عن انســـان أو شيء يغيث أمها • ولكنني لم أتبعها • وأكثر من ذلك أنني خطر بسالي فجـأة أن أنهرها وأطردها • قلت لها في أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطى • ولكنها سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احداهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ، وانفجرت تبكى لاهثة ، وظلت تسير الى جانبي لا تتركني • فلم يسعني الا أن أشــتمها قارعاً الأرض بقدمي • فلم تزد على أن تصبيح قائلة : « سيدي ، سيدي ٥٠٠ » ، ثم تركتني فجأة لتقطع الشسارع مسرعة كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها تركتني لتركض الله •

صعدت السلم حتى بلغت مسكنى الذي يقع فى الطابق الرابع · ان المسكن شقة مفروشــة يقيم فيها مستأجرون مختلفون · وغرفتى فى

هذه الشقة صعيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة . أثاثي دیوان مفطی بقماش مشمشع ، وماثدة علیها کتبی ، وکرسیان ، ومقعد قديم متقوض ، لكنه من طــراز فولتير • جلست وأشــعلت الشــمعة واسترسلت في التفكير • وكان فحور يملأ الغـرفة المجـاورة في الجهة الأخرى من الحاجز • ان هــذا الفجور قائم منذ يومين • فالشخص الذي يميش في تلك الغرفة كابنن محال على التقاعد جامه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب • وقد نشبت بينهم مشاجرة في الليلة الماضية ، وعرفت' أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة ، وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يرعبها • ولم يكن في البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضـامرة هي أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً • وكان الأولاد وأمهم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلون يرتبحفون ويصلون طوال الليل • حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية • وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شـــارع نفســكى مستعطياً اياهم صدقة . وما كان لأحد أن يعهد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل • ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجىء على ذكره) لم يثر في نفسى أي شعور بالنفور منه والكره له ، وقد انقضى على ســكناه في هذا البيت شهر كامل ٠ صحيح أننى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بينى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لسئم صحبتي على كل حال • وانما أحب أن أذكر أنني كنت لا أكترث ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التي يحدثها هو وصحبه صاخبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً • وقد تعودت ألا أرقد طــوال الليــل ، وكنت في حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت في النهاية وجودهم • انني

لا أستطيع أن أغمض عينى قبل بزوغ النجر ، وذلك منذ سنة ، لذلك أقضى الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل نبيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا في النهاد) حتى انني لا أفكر في نبىء ، وانما أدع لأفكاري أن تطوق منشردة على ما يتساء لها هواها ، وتذوب الشمعة الى آخرها ، وقد جلست في هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعته قريباً من يدى ، وتساءلت حين وضعته قريباً من يدى (أتذكر ذلك واضحاً) : « أهندا مؤكد محقق ؟ ، وسرعان ما أجبت نفسي بأنه مؤكد محقق طبعاً ، أي بأنني سأنتحر لا محالة ، كنت أعلم في تلك الليلة أنني سأقتل نفسي يقيناً ، ولكنني كنت أتساءل عن المدة التي يجب أن أبقاها جالساً الى مائدتي أتنظر اللحظة الأخيرة ، ذلك أنني كنت لا أعرف تلك جالساً الى وجه اليقين ، وما من شك عندى في أنني كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت في الشارع تلك البنت الصغيرة ،

ولو حساساً بالألم مشـلاً • فلو ضربني أحــد لتألمت • وقولوا مثل هذا عن الألم النفسي • فاذا حدث لي شيء محزن جداً شعرت بحزن كالذي كنت أشــعر به من قبل ، كما أنني لنَّا أفقد بعد كل اكتراني بكل ما في الحاة • فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان في وسعى أن أغيث تلك البنت الصغيرة طبعاً • فما هو السبب في أنني لم أغثها ؟ السبب هو تلك الفكرة التي انبثقت في ذهني بينما كانت البنت تشدني من كمي منادية مستنجدة ؟ وهنــاك سبب آخــر هو سؤال ألقى نفسه على ً فحأة ً ولم أســتطع أن أجــد له جواباً • هو ســــؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه ولا طائل تحته ، ولكنه أحنقني وأثار في نفسي غيظاً شديداً • ولقد جاء الغيظ من هذا التفكير المنطقى : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة في هذه اللبلة نفسها ، فان كل شيء في هذه الحاة يبجب أن يمسي غير مثير لاكترائى في هذه السماعة أكثر من أي مساعة مضت • فلماذا أحسست فجأة بأنني لست غير مكترث بشيء ، وانني أرثي لحال تلك البنت الصغيرة وأشفق عليها ؟ أذكر أنني رثبت لحالها وأشفقت علمها اشــفاقاً شديداً ، حتى أنني أسيت لها أسي لا يليق البتة بحالي • اعترف لكم بأنني لا أفلح في تصوير الاحساس الذي اجتاح نفسي حينذاك • ولكن ذلك الاحساس قد بقى في نفسى لايفادرها • فلما جلست الى مائدتي في غرفتي كنت في حالة من الغيظ والحنق أشبـد ً من سابقتها • وأخــذت الاســندلالات المنطقبة تتعاقب في فكرى ويتصل بعضها ببعض ؟ فكنت أقول لنفسى : ه من الواضح أنني انسان ، وأنني لست صفراً ، وما ظللت انساناً ، وما لم استحل صفراً ، فاننى أحيا ، ويمكن اذن أن أتألم وأن أغتاظ وأن أشعر بخزى من أفعالي • طب • ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين مشـلاً ، ففيم يهمني شــأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور بالخزى ، وسيائر ما عداه ؟ سيأكون قد استحلت الى صفر ، الى صفر مطلق • فهل ' يعقل ألا يكون لمرفتي بأنتي بعد قلبل سـأبارح الحاة مبارحة « تامة » ، وأن كل شيء مثلاً لن يكون له وجود في هذا العالم ، هل 'يعقل ألا يكون لهذا أي تأثير لا في شــعوري بالشفقة على البتت الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحقارة التي ارتكمتها ؟ ذلك أتنه حين قرعت الأرض بقدمي ناهراً زاجسراً انها أهنت البنت التعســة ٠ وهذه الحقــارة الحالمة من الشعور الانســـاني قد ارتكبتها « لا لأبرهن على أنني أمسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شيء سينتهي بعد ساعتين ، • قولوا لي بصراحة : هل تصدقون أنني لهذا السبب انما صر لحت زاجرًا ؟ انني من جهتي أمل الى الاعتقاد بهذا • لقد كنت أتصور تصوراً واضمحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان على وحدى ؟ حتى ليمكن أن أقول انني كنت أتصور في نلك اللحظة ان العالم لم 'يخلق الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسي برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود ، بالنسبة الى" على الأقل • ناهيك عن أن من الممكن حقًّا ألا يبقى للمالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال شبه متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا • أذكر اننى حبن كنت جالساً الى مائدتي كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة وأرى فمها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

حِديدة • من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأةً • قلت لنفسي : د هبني عشت في الماضي في القمر أو في المريخ ، وهبني ارتكبت **حنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنـة البشعة الى أبعــد حدود البشاعة ،** هینی ارتکیت أحقر دناءة یتمثلها الخیال ، فصرت مجللاً بخزی وعار رهبيين لا يتصور المرء مثلهما الاحين يصيبه في نومه جاثوم ثقيل ؟ وهبني اسيقظت فجيأة فاذا أنا أجيد نفسي على الأرض لا في القمر ، ولا أزال شاعراً بما ارتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت في الكوكب الآخر ، ولكنني موقن يقيناً قاطعاً بانني لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر في يوم من الأيام مهما يحدث ، أفلا تستوى في نظرى « جميع ، الأمــور في القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أأشعر عندئذ بالخزى من ذكرى الجريمة التي افترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها ولسبت في محلها ، لا سيما وأن المســدس موضــوع على المائدة آمامي ، وأنني أعــرف بكل جوانحي أن « الأمر ، سينم انفاذه ؟ ولكنها أسثلة تنير في جسمي حمًّى ، وتمعث في نفسي أقصى الاضطـــراب • فكان يستحيــل على ً نوعاً من الاستحالة أن أمسوت الآن ، اللهسم الا أن أهندي قبل ذلك الى حسل للمسألة • الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتني من الانتحار • لأننى بالانتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبت طلقة المسدس • وفي أثناء ذلك كان كل شيء في غرفة الكابتن يسكن ويهدأ • فقد انقطعوا عن اللعب بالورق ، وتهيئوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضع دمدمات من حين الى حين ، والا بعض الشنائم يتثاب بها صوت وسنان . وحينذاك انما أخذني النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لي في يوم من الأيام قبل الآن ، أمام المائدة في المقعد • نمت دون أن أحس بانني نمت • والأحلام ، كما لا يجهل أحــد ذلك ، أمر ُها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك بكل ما فيه من حدة رهيبة ، واضـحاً مفصلاً دقيقاً كدَّنة الصوغات حين تخرج من بين يدى الصائغ ؟ وفي بعضها تجناز الفضاء ، وتخترق الزمان دون أن يخطر لك ذلك على بال • فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب ، ومع ذلك ما كان أبرع عقلى في الأحلام أحياناً! حتى انه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصى تفسيرها ، من ذلك منسلا أن أخى ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لى فى الأحلام ، ويشاركني أعمالى ، فنعكف عليها مهتمين بها أكبر الاهتمام مشغوفين بها أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالى مرة واحدة أثناء الحلم أن أخى ميت وأنه مدفون ، فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبي يشاركني عملى ، مع علمي بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلى أن يقبل هذا كله ؟ ولكن كفي 1 فلأحدثكم الآن عن الحلم الذي رأيته ، نهم ، هذا كله ؟ ولكن كفي 1 فلأحدثكم الآن عن الحلم الذي رأيته ، نهم ، في تلك الميلة انها رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين في تلك الميلة انها رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين

بعض الناس يستخرون منى الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً و ولكن ألا يستوى أن يكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذى بلسّننى و الحقيقة ، و فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك أننى رأيتها فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجاءتنى فى الحلم أم انكشفت لى فى الحياة الواقعية و فليس يضيرنى ألا يكون ذلك الا حلماً و ان هذه الحياة التى تضعونها فى أعلى منزلة كنت أنا فى تلك الليلة مستعداً لانهائها بطلقة مسدس و أما حلمى ، أما حلمى ، فقد بلسَّننى رسالة حياة جديدة ، رحبة ، منبعة ، قوية و

اسمعوا •

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أذال أفكر فى تلك الأمور نفسها ، وفجأة حلمت بأننى تناولت المسدس ، وسددته الى قلبى مع بقائى جالسا ؟ سددته الى قلبى لا الى رأسى ، وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر ، فبعد أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثانيتين ، ثم اذا بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنح جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت أطلق الرصاصة فى قلبى ،

یعدت أحیاناً فی الحلم أن تری نفسك ساقطاً من مكان عال شدید العلو ، أو أن تری أنك تطمن أو تضرب ، ولكنك لا تحس بألم أبداً ، اللهم الا أن تكون قد لكمت بیدك حدید السریر مثلاً ، فتحس عند ثذ بألم فتستیقظ ، وكذلك حدث لی فی هذا الحلم ؛ لم أشعر بأی ألم من اطلاق الرصاصة فی قلبی ، ولكن خیسل الی اننی أحس بنوع من صدمة ، ثم زال كل شیء فجأة ، ولبت غارقاً فی ظلمات رهیبة ؛ وكأنی قد صرت أعمی وأخرس ثم هأنذا مسجتی تحت شیء صلب ، قد امتددت مقلوباً ، لا أری شیئاً ولا أستطیع أن آتی بأیسر حركة ، والناس من حولی تسیر و تصرخ ، والكابتن أیرعد ، والمؤجرة أتعول ، وهؤلاء نفر یداهمون غرفتی من جدید ، وینقلوننی مكشوفا فی تابوت ، فأحس بالتابوت یترجع غرفتی من جدید ، وینقلوننی مكشوفا فی تابوت ، فأحس بالتابوت یترجع

تحتى ويهنز ، فأفكر في هذه الواقعة ، ويدهشني لأول مرة أن أتصور أننى مت ، أننى مت حقا ، وصرت عالما بموتى كل العلم ، لا يساورنى فيه شك ولا ريب ، اننى لا أبصر ولا أتحرك ، وان كت أحس وأفكر ، على أننى سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع بنير مناقشة ولا جدال ،

وهاهم أولاء ينزلوننى فى الأرض ثم ينصرفون ، فأبقى وحيداً ، وحيداً كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحر ك من أعضائى عضواً ، اننى قبل ذلك ، أثناء سهرى الليل ، حين كتت أطلق لحيالى العنان فأتصور كيف ستكون حالى فى القبر ، كنت لا أربط بهذا النصور على وجه الاجمال الا الاحساس بالرطوبة والبرد ، لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما فى أقصى أصابع رجلي ، ولكننى لا أحس بشىء عدا هذا ،

کنت مضجعاً و ومن غریب الأمر أننی کنت لا أنتظر شدیاً ؟ فانا مسلم دون اعتراض بأن علی المیت ألا یتوقع حدوث شیء و ولکن الرطوبة شددیدة و لا أدری کم انقضی من الوقت و لعل ما انقضی من الوقت ساعة ، أو لعله عدة أیام ، أو لعله أیام کثیرة و ثم اذا بقطرة کییرة من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء التابوت علی عینی الیسری التی کانت مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخری تسقط و هكذا دوالیك ؟ فی كل دقیقة تسقط قطرة و فأحس بغیظ عمیق یكوی قلبی ، ثم لا ألبث أن أشدم فجاة بألم جسمی فی قلبی و قلبی ، ثم لا ألبث أن أشدم الرصاصة التی أطلقتها فی صدری و و انها ثاویة فی قلبی و و کانت قطرات الماء لا تزال تسقط دقیقة بعد دقیقة ، و تقع علی عینی الغمضة رأساً و فلم یسعنی عند ثد الا أن أنادی ، ولكن ندائی لم یكن بصوت ، لأننی فلم یسعنی عند ثذ الا أن أنادی ، ولكن ندائی لم یكن بصوت ، لأننی عامد لا أتحرك ، وانها كان ندائی بكیانی كله ، نادیت الحكم الذی یتصرف فی كل ما كنت ألعوبة بیده و قلت له أیا كنت أنت انت حدا اذا یتصرف فی كل ما كنت ألعوبة بیده و قلت له أیا كنت أنت حدا اذا یسمنا بأنك كائن ، وبأنه یوجد أی شیء یمكن أن 'یعقل وجوده سوی یتصرف فی كل ما كنت ألعوبة بیده و قلت له أیا كنت أنت حدا اذا سلمنا بأنك كائن ، وبأنه یوجد أی شیء یمكن أن 'یعقل وجوده سوی

ما أنا ألعوبة بيده ـ ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تنتقم منى بسبب التحسارى الاحمق ، فتوقع في هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقاد الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! » +

كذلك قلت شم سكت • وانقصت قرابة دنيقة في صمت عميق ، حتى ان قطـرة ماء قد سقطت ، ولكنني كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً فوياً راســخاً لا يتزعزع أن كل شيء لابد ان يتغير في هذه اللحظة نفســها ولا ریب • وها هو ذا قبری ینفتح فجـأة ، أو قل لا أدری اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكنني أعلم أن كاثنـــــاً غامضـــــا لا اعرفه قد أمسكني ، ثم اذا نحن كلانا نطير في الفضاء • و ردَّ الى بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك ابدا ، أبدآ • لم أسـأل ذلك الذي كان ينقلني • وانما انتظرت لائذا بكبريائي منطويًا على خيلاتي • كنت مقتنعًا بأنني غير خائف ، وكنت في نشوة من حماستى لعدم خوفي • لا أذكر الآن كم طال طيرانســـا ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً في الحلم حين يجتاز الحالم تخــوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجــود والعقل ، وحــين لا يتلبث الا على النقاط التي يرنسو اليها قلبه • أذكر أنني أبصرت في الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة • فلم أستطع أن أمسك عن ســؤال صاحبی الذی کان یطیر بی : د أهذا کوکب سیریوس ، ، مع اننی کنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجابني بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذي لمحته بين السحائب حين كنت عائداً الى بيتك · · · كنت أعلم أن هذا الكائن الذي يطير بي له مظهر انسان • ومن غريب الأمر أننى لم أحبَّ هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقظ في نفسي كرهاً عميقًا له • لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصمة في قلبي ، فما بالي أجمد نفسي بين ذراعي كائن ليس هو بالانسان حنماً ، ولكنه « موجود ، قطعاً • قلت لنسي : ه فلا بد أن هنــاك حياة اخــرة تلى القير ١ ، ، قلت لنفسي ذلك مدفوعا بما في الحلم من خفة غريبة وطيش عجب ، ولكن هذا لا ينفي أنني احتفظت في قرارة قلبي بميزتي الأساسية ، فقلت لنفسي : « اذا كان المقصود هو أن « أوجد ، من جديد ، وأن تحسني ارادة لا مفرٌّ منها حياة "أخرى ، فانني لا أريد أن أكون مغلوبًا ولا أريد أن 'أذل " ، • فقلت لصاحبي فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السوال الذي يشتمل على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجين بابرة تثقب قلبي ثقباً : ه أنت تعلم أنني أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب في أنك تحتقرني ٠٥٠٠ فلم يجب ، ولكنني أحسست على الفور أنه لا يحتقرني ، وأنه لا يسخر مني ، وحتى أنه لا يشفق على ، وأن رحلتنا نمتد الى غاية مجهـولة سرية لا شــأن لأحــد بهــا غيرى ، ولا تنعلق الا بي • فازداد الرعب في قلبي • وانتقل سكوت صاحبي الى "، ونفذ في "حضوره الصامت مؤلماً بعض الألم • كنا قد توغلنا في ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التي ألفتها عيناي قد غابت عني منذ مدة طويلة • وكنت أعلم أن في آخــر الســماء تَجوماً لن تَصِــل أَشْعَتُها إلى الأرض إلا يُعِد أَلُوفُ السَّنين وملايين السَّنين • فلملنا قد قطمنا تلك الفضاوات كلها مكنت أنتظر شيئًا ما ، وكانت نفسي زاخسرة بحتين أليم يطمن القلب • وانبي لكذلك اذا بعاطفة أعرفهما كل المعرفة ، عاطفة توقظ الماضي ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كياني كله على حين فجأة • لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التي أراها لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن ، التي ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا قد بعدًا عن شمسنا بعـداً لا نهـاية له ، ولكنني كنت أدرك بيني وبين نفسى أنها شمس تماثل شمسنا مماثلة مطلقة ، فهي منها بمثابة الصدى أو هي لها نظير • فغمر نفسي حنان كبير بثُّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء الذى خلقنى قد تر َّجعت فى قلبى وأحيته ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة الحياة الحياة الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر •

وهتفت أقول لصاحبي سائلاً :

ــ ولكن اذا كانت هذه هي الشمس ، اذا كانت هذه شـــمسنا نفسها ، فاين هي الأرض ؟

فأرانى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براقة فى ظلام اللبل • وكنا نتجه فى طيراننا الى ذلك الكوكب •

ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن في هذا الكون ، وهل يمكن أن يمكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هي أرضنا نفسها ٠٠٠ أو أن تكون مثلها تماماً في الشقاء والفقر ، وفيما نضمره في أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها الي الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تنحبّب بها أبناءها ، حتى أجيحدهم وأشداهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها + ومرت فى خاطسرى بسرعة كسرعة المبرة المبنت الصغيرة المهانة المعذبة • قال لى صاحبى :

ـ ستعرف كل شيء ٠

وكان في كلماته ما يشبه أن يكون نبرة أسى •

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؟ فلما أخذت أميّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغيرة غريبة تشتمل فى قلبى ، غيرة نبيلة مقدسة ، قلت لنفسى : «كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادر ، الله ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيت عليها لطخات من

دمى حين عمدت ، أنا الاين العقوق ، الى انهاء حساتى برصاصة أطلقتها فى قلبى ، وما كففت فى يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى فى تلك الليله التى ودعتها فيها ، بل لعلنى كنت أحبها عندئد حبا أقوى استثناراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبى لهسا فى أى وقت مضى ، هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هنساك فى أرضسنا لا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم ، فنحن لا نحسن أن نحب الا بألم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم ، فنحن لا نحسن أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حبا آخر ، فأنا أطلب الألم لأستطيع أن أحب ، ما أقوى شهوتى وما أشد ظمئى الى أن أعانق تلك الأرض وحدها باكياً ، ثلك الأرض التى أحبيتها وهجرتها ، ولا أريد أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ! به أوفض أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ! به أوفض أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ! به أوفض أن أعيش فى أى

ولكن صاحبى كان قد تركنى • واذا أنا أجدنى فجأة على تلك الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالى ذلك ، غارقاً في الغياء الساطع من يوم مسمس جميل كجمال الجنة • فخيلًا الى أننى هبطت الى واحدة من تلك الجزر الصغيرة التى يتألف منها على أرضنا أرخبيل اليونان ، أو هبطت في مكان آخير على خرائب قارة بجوار الأرخبيل • كان كل شيء في تلك الأمكنة شبيها بما عندنا شبها ناما • ومع ذلك كان كل شيء يشع منه نوع من الحبور والجذل والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة • وكانت مياه بحر كالزمرد تتكسر تكسراً خفيفاً على الشياطيء ، فتلاعبه ملاعبة فيها حب ظاهر واضح يشبه أن يكون واعباً • وكانت تنتصب في الفضاء أشجار باسقة فارعة الأغصان تتألق بغزارة نسغها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؟ بلاشك أنها كانت تحييني بحفيفها الرفيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لى بكلمات حب • وكان المرج يزدهي بنبت دافيء عـذب لذيذ • وكانت العليور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى " بلا خوف فتحط على كنفي " ويدي" العليور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى " بلا خوف فتحط على كنفي " ويدي " العليور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى " بلا خوف فتحط على كنفي " ويدي " وهي تصفق بأجنحتها الراعشة صفقاً فرحاً • وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاموا الى من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بي ، وعانقوني وقبَّلوني • أبنــاء الشمس ، أبنــاء شمسهم ••• ألا ما كان أجملهم ! ما رأيت في يوم من الأيام مثل هذا الجمال في الانسان على أرضنا ! قد تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندنا ، في السنين الأولى من حياتهم ، شيئًا يشبه أن يكون صـــورة باهنــة صعيفة لهذا الجمال الذي رأيته في سكان ذلك الكوكب من البشر • ان أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف وضًّاء • وان وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمــال هدوثه وتمام رصانته • ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح الأطفال يرن ُ في أقوال هؤلاء البشر وفي أصواتهم! آ ••• فهمت كل شيء ، كل شيء ، من أول نظرة • هنسا كانت الأرض قبل أن تدُّنسها الحطيئة الأصلية : ان سكانهما الذين لا يعرفون الشر يعشمون في هذه الجنة نفسها التي تتناقل الانسانية كلها أن أجدادنا الجناة قد عاشوا فيها ، مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها في كل ركن من أركانها وكل جهة من جهاتها • ازدحم حولي هؤلاء البشر الذين يضحكون ضحکة جذلی ، وغمرونی بملاطفاتهــم ، ومضوا بی الی منازلهم ، فکانوا جميعًا بريدون أن يغدقوا على ً الراحة اغداقًا ، وأن يسكنوها لى سكمًا . ولم يلقوا على ۖ أُسئلة فكأنهم كانوا يعرفون كل شيء ، وكأن نفوســهم لا تجيش فيها الا رغبــة واحــدة : هي أن يمحوا بأقصى سرعة ما كان منقوشاً على وجهى من علائم العذاب والألم •

هأنتم أولاء ترون مرة" أخرى : أي ضير في أن يكون الأمر حلماً ؟ ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحــدث في نفسي أثراً بافيــــاً لا يفني ، وانبي لأحس أن حبهـم لا يزال يغسل روحي بمياهه النقية من هناك الى الأبد • ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتألمت لهم بعد ذلك! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أنني في كثير من الأمور لا أقهمهم : لم أقلح مشلاً في أن أفهم ، أنا التقدمي الروسي الحديث ، أنا البطرسسبرجي العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلمنا نحن • ولكنني لم ألبث أن أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على اداركات تختلف عن ادراكاتنا كل الاختــلاف ، وأن تطلماتهــم تختلف عن تطلعاتنا كل الاختــلاف أيضاً • انهم بلا رغبــة ، وهم في هدوء نفوسهم وسكينتها ، لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعنا نحن الى معرفتهــا ، ما داموا قد بلغوا حالة الكمال • ولكن معرفتهـم أعمق من علمنا وأســمي من علمنا ، لأن علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس كيف يحيون • أما هم فليسـوا في حاجــة الى علم ليعرفوا كيف يجب عليهم أن يحيوا • ذلكم ما أدركته بدون أن أفلح في فهم معرفتهم • لقد أرونى أشسجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون اليها بحب يبلغ هذا المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم • كانوا يكلمون الأنسجار فعلاً : اعلموا انني لا أعتقد أن الأمر مشتبه على ً حين أفول انهم كانوا يكلمونها • نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار • واني لوانق أن الأشميجار كانت تفهم عنهم ما يقولون • تلك كانت نظرتهم الى الطبعة . ومع الحيوانات كانوا يعيشون في سلام فلا بلحقون بالحيوان أي أذى ، ولا يصيبونه بأى ضر ؟ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالحب انما رو َّضــوها وأنسـتُّوها • وقد أروني النجوم وحدثوني عنها ، فقالوا لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم ، لا بالفكر والحيال ، بل بواسطة حية . نهم ، لم يفلح أولئك الناس في أن يجعلوني أفهمهم • وكانوا يحبونني بدون أن أفهمهم • ولكنني كنت أعلم في مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهموني ، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا • كنت أكتفى في حضورهم بأن أُقِيِّل الأرض التي يعيشون عليها ، وكنت أنا نفسي أعشقهم عشقاً دون أن أنطق بكلمة • وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ، لا يشعرون من هيامي بهم واخلاصي لهم بحرج أو عار ، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزخرون حبًّا • وكانوا لا يتألمون لى ، حتى حين أقبُّل أقدامهم بأنهم يستجيبون لحبي بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم • وكنت أتساءل في بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيئوا مرة" واحدة الى انسان مثل ، ولا أن يوقظوا في نفسي شيئًا من عواطف الغيرة والحسد مرة ً واحدة أيضاً ؟ ساءلت نفسي مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل المباهى الكذاب ، ألا أحدثهم في يوم من الأيام عن معادف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تسماورني رغبــة في ادهاشسهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين يمرحون ويطربون كالأطفال ، مطوِّفين في أرجاء أحراجهــم الراثمــة وغاباتهم ، صادحين بأغانيهم الجميلة • وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاباتهم ولبن نعاجهم الوديعة • كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل لنأمين طعامهم وكسائهم • وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ، ولكني لم أر عندهم في يوم من الأيام سـورات تلك اللذة « القاسسية » الني يتصف بها جمبع سكان أرضنا تقريبًا ، جميعهم وكل واحد منهم ، والتي هي ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريبـاً • كانوا يبتهجون لميــــلاد الأطفال ابتهاجهم بضيوف 'جد'د وفدوا يشاركون في عبد المسرات هذا ٠ لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم النبرة أبداً ، حتى انهم لا يعرفون معنى هذه الكلمة • كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم كانوا أسرة واحسدة • وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهسم يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتًا هادئًا فكأنه يغفو رينام وقم أحاط به ذووه يباركونه ويبسمون له ع وهم أنفسهم يبسمون هذه البسمة المضيئة حين 'يحتضرون • لم يتفق لى مرة واحــدة أن رأيت لديهم عند الموت لا حزناً ولا دمــوعاً ؟ وانما رأيت ازدياداً في الحب يبلغ به حدًّ الوجد ، وهو وجد هادىء رصين فيه كمال وفيه تأمل . حتى ليَقدُّر المرء أنهم يظلون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض • انهم لم يكادوا يفهمون عنى حين سألتهم عن الحياة الأبدية • ولكن كان واضحاً أنهم _ على غير شسعور منهم ــ كانوا يبلغون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أمهم لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال • ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون في تواصل دائم مع « الكل ، العظيم • ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا يملمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود الطبيعة الأرضية ، فان الاتصال بين البشر _ الأحياء منهم والأموات _ وبين الكل ، العظيم سيكون أوسع وأرحب ، فهسم ينتظرون تلك اللحظة مبتهجين ، بغير تعجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات •

وهم في المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غنماء جوقات كاملة ؟ والأغنيات التي يسمعونهما تعبر عن جميع الاحساسات التي عمرت قلوبهم في النهار الذي انقضي ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه • وانهــم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات • ويحلو لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتغنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؟ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر في القلوب • ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً في أغانيهم فحسب ، بل في جميع ظروف الحياة فيما يبدو • ان نوعاً من حماسة ولهي شاملة متبادلة تنجعل كلاً منهم ممتلئًا بالأخسر معجبًا به محبًا له • لقد عجزت تقريبًا عن فهم تلك الأناشيد التي تشيع فيها الأبهة ، وتترقرق فيها معانى الانتصار • كنتُ أدركُ أَلفاظها ، ولكنني لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها . كان فكرى لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ال صح التعبير . ولكن قلبي كان يتشبع به شيئًا بعد شيء دون أن ينتبه الى ذلك . كنت أقول لهم في كثير من الأحيان انني قد سبق لي أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؟ وأن هذا الحبور وهذا الفرح قد انكشفا لى منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك في صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحيانًا حد الألم؟ وانني قد تصورتهم جميعًا ، هم وما هم فيه من مجد ، فی أحلام قلبی وأحلام فکری ؟ واننی کثیراً ما عجزت أثنساء حیاتی علی أرضــنا عن أن أتأمل غروب الشمس بدون أن أبكى ••• وان كرهي لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبىء • لماذا لم أستطع أن أبغضهم رغم أننى لم أحبُّهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن في حبى لهم ؟ لماذا كتت لا أحبهـــم بدون أن أكرههم ؟ فكانوا يصغون الى م فأرى أنهــم لا يستطيعون أن ينفذوا الى معنى كلماتي • ولكنني كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأنني كنت أعلم أنهم يفهمون حزني الذي يوقظه في نفسي فراق من فارقتهــم! لا ، لا ،

حبن كانوا يرمقوننى بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس في صحبتهم بأن قلبي يصبح برئياً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا آسف على أننى لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تقطع أنفاسى ، وآخذ أصلى لهم في صعت •

آه ••• لا شـــك في أن جميع النساس سيضحكون الآن مني ، وسيقولون انه يستحيل على المرء أن يرى في الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التي أستجلها الآن ، وانني أثناء نومي ١٠ رأيت ولا أحسست الا ما كان يبعثه في قلبي هذياني • أما التفاصسيل فانما تخيلتها أنا تخلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أعترف أن كل سيء لعله جرى على هذا النحو أيضًا ، فيالله ما كان أشدُّ الضحك الذي كنت أثيره فيهم ، وما كان أشد المرح الذي كنت ألقيهم اليه! • • • اذا صدق وأيهم ، فان الأمر لا يعدو أننى كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثر هو الذي بقى في قلبي الجريح الدامي ؟ أما الصور والأشكال التي رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من اتسماق الكمال ، وقوة السحر ، ويراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أنني حين استيقظت لم أملك القدرة على تبجسيدها في أقوالي الضعيفة الهزيلة ، فلم يسعها الا أن تمتَّحي من فكرى ، فمن الجائز جداً والحالة هذه أتني اضطروت على غير شعور منى الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة في أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أُصَّدق أن ذلك كله قد وقع فعــلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألفاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أنني سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما وأيته لم يكن حلماً • ذلك أنه قد حدث شيء ، شيء فيه حقيقة تبلغ من الهول والفظاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رئى في حلم • لنسلتُم أن هذا الحلم منشؤه قلبي ، فهل كان في امكان قلبي أن يلقى الضوء على حقيقة ما حدث لى بعد ذلك ، وهي حقيقة مريعة رهيبة • كيف كان يمكنني أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل 'يعقل أن يستطيع قلبى الذى الباطل الذى تحركه قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم ، لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن ، ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى هذه اللحظة : اننى ، ، ، قد أفسدتهم جميعاً ،

نهم ، نهم ، انتهيت الى افسسادهم جميعاً ! كيف حمدت ذلك ؟ لا أدرى • ولكنني أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح • ان حلمي الذي قطع ألوف السنين يترك في نفسي احساسًا بشيء متصــــل غير منقطع ٠ ولكنى أعلم أنى أنا كنت سبب الحطيثة الأصلية • ومشل دودة خنزير معدية ، أو مشل ذرة طاعون سيارية تستطيع أن تنشر الوباء في مملكة بأسرها نم كذلك أفسد حضورى بالعدوى أرضأ للمسرات والمباهج كانت قبلي بريئة طاهرة • تعلموا أن يكذبوا > واستطابوا الكذب > وعرفوا جمال الكذب • لعل ذلك كله قد بدأ « بريثاً » كل البراء: ، لعله بدأ مزاحــاً أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلمة ، ولعله قد حدث بفعل ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم فبدت لهم محبية • وبعد ذلك بقلبل ظهرت اللذة ، وو َّلدت اللذة الغيرة ، وبعثت الغيرة على القسوة • آه ••• لا أعــلم ! لم أعد أتذكر ! ولكنى أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطخة أولى ، فدهشـــوا ، وارتاعوا ، وأخذوا ينأون بعضهم عن بعض ء وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ، وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تعادى أحلافاً أخرى • وأخذت الملامات والمآخذ والتقريعات 'تسمع • وعرفوا الحجل • وصار الحجل لهم فضيلة • ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رءوس

أفراده • وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات • فصارت الحيوانات تهرب منهم الى أعماق الغابة ، وتناصبهم العداء ، وبدأ عهد جديد يمجد في الانسان الخصوصية » و « الفردية » و « الشخصية » ويعلّم الناس أن يفرّ قوا بين ما هو لي وما هو لك • وتنوعت اللغات • وتعلموا الألم ، وأحبوا الألم ، وتاقوا الى الألم ، وقالوا ان الحقيقة لا ' تكسب الا بالألم • وظهــر فيهــم الملم • وغدوا أشراراً ، فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والانسانية ، وأدركوا تلك المعاني • وأمسوا مجرمين ، فابتدعوا عندئذ العدالة ، وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة • ومن أجــل أن يكفلوا لهذه القوانين أن 'تحترم ، أوجدوا المقصلة • ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة ، حتى انهم لم يشسماءوا أن يصدقوا أنهم كانوا في الماضي بريتين سعداء • وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة ، وسلموا تلك السمادة حلماً ، بل غمدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها في أشكال محسوسة ، ولا أن يتصورها بأخيلة • ومن أغرب الأمور وأعجبها ، أنهم مع ذلك ، رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة ، ورغم أنهم سَّمو ها حكاية مربية ، ظل توقهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم ، وألَّهوا ذلك التوق ، وشادوا معابد ، ووَّجهوا الصلوات الى فكرتهم ، الى « رغبتهم » ، وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً ، ولكنهم لا يكفون عن عبادتهــا بالصلوات والدمــوع . ومع ذلك لو كان في الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والســـعادة تلك التي فقدوها ، وأتبح لهم أن يستشفوها فجأة ً ، و'سئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا اليها ، فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون • وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون ، أشرار ، ظالمون . ليكن . نحن نعرف ذلك . ونحن بسبب هذا نبكى وتتألم وننزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أســوأ من أنواع التعذيب والعقاب التي سينزلها فينا الديان الرحيم الذي سيحاسبنا والذي لا تعرف حتى اسمه • ولكننا نملك العلم ، وبالعلم

سنهتدى الى الحقيقة ، فنقبلها في هذه المرة واعين • ان المعرفة شيء يفوق العقل ، وإنَّ وعي الحياة يفوق الحياة • العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة هي فوق السعادة ، ، ، ذلكم ما صاروا يقولونه • وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانبة لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير ذلك • هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل • أصبحت المسألة في نظره مسألة وجود وبقاء • وظهرت العبودية • حتى لقد وجدت عبودية متطوعة تطوعاً • فالضعفاء خضعوا للأقوباء عن طواعية ورضى ، يشرط أن يساعدهم الأقوياء في سنحق من هم أضعف منهم • وجاء الى هؤلاء الناس رجال عادلون صالحون ، فكلموهم عن صلفهم وكبريائهم ذارفين الدموع ، وعابوا عليهم أنهم فقدوا القصد والاعندال والاتساق ، وأنهم ضيعوا الحيجل والحفر والحياء • قسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة • وانسكب دم القديسين على رحبات المعابد • وظهر في مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يعيدوا الانستجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يبحب غيره ، ولكنه في الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقمة وحاجزاً ، وبذلك يشترك الأفراد جميعاً في تأليف مجتمع بعيش فيه الناس كافة في وفاق • وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ • ولكن هذا لا ينفى أن المقاتلين يؤمنون ايمانآ قاطماً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى ستجبر البشر أخيراً على أن ينعقد اتفاقهم على ارساء قواعد مجمع يسوده العقل ، وهم لذلك _ أعنى • الحكماء ، _ يحاولون بانتظار أن تتحقق اقامة ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبة " تقف في طريق انتصارهم • ولكن عاطفة البقاء الشخصي ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ، المزهوين بصفاتهم ، الحريصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء • ومن أجل أن يحصلوا عنى كل شيء ، وجب عليهم أن يلجثوا الى الوحشية ، فاذا لم تفلح الوحشية لحنوا الى الانتحار • ووجدت ديانات تدعو الى عادة اللاوجود ، وتنادى بتدمير الانســان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضـان العدم • وتعب هؤلاء الشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسمور ، فحملت وجوههم آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؟ وأخــذوا يمحــدون الألم في أغانيهم • وصرت أتجول بينهــم وأنا أعقف يدى مسرة عليهــم وأذرف العبرات حزناً لهم ، ولكن لعلني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم. قبل ذلك ، أيام كانت وجوههم خالبة من الألم ، وكانوا بريتين وكانوا على ذلك الحانب كله من الجمال • وعدت أحب الأرض التي دُّنسوها أكثر مما كنت أحمها أيام كانت جنة ، لا لشيء الا لأن الألم ظهر فمها ! وا أسغاه ! كنت قد أحست العذاب والحزن دائماً ، ولكنني أحببتهما لنفسي ، لنفسي وحدها ، فكنت أبـكى عليهــم وأرثى لحالهم · وصرت أمدُ اليهم ذراعيَّ مكروباً · يائساً ، أتهم نفسي وأدينها وألعنها وأحتقرها • قلت لهم انني أنا الذي صنعت هذا الشركله ، أنا وحدى ، واتنى أنا الذى جلبت لهم الفســــاد والعدوى والكذب! وتضرعت اليهم أن يصلبوني ، وعلمتهم كيف 'يصنع صلب • كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسي ، ولكنني أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم • كنت أتوق الى الألم • كنت أتطلع الى أن أسكب في هذا الألم حتى آخــر قطرة من دمي • ولكنهم كانوا لا يزيدون على أن بضحكوا مقهقهين ، ولم يفتهم في النهاية أن يعدوني مجنونًا مجذوبًا الى عالم الغيب ، مجنونًا صوفيًا • وأعلنوا لى أخيرًا أننى أَخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيحبسونني في ملجاً للمجانين اذا أنا لم أسكت • فاجناح نفسى عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبى انقبض انقباضاً شديداً وأحسست أنني أموت ٠٠٠ وحينذاك ، استيقظت من نومي ٠

کان الفجیر قد بدأ یتنفس ، ولماً یطلع النهار بعد ، ولکن الساعة تقارب السادسة ، فتحت عینی فوجدتنی جالساً علی ذلك المقعد نفسه ، وكانت شمعتی قد ذابت الی آخرها ، وكان كل شیء نائماً فی غرفة جاری الكابتن ، وكان الصمت مخیماً حولی رغم ندرة الصمت فی بیتنا ،

ان أول شيء بدر مني هو أنني ونبت من مكاني وقد اعترتني دهشة نديدة أقصى الشدة • لم يسبق أن حدث لى أمر كهذا في يوم من الأيام • ولا حدث لى (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد • وبينما أنا أهب واقفاً وأثوب الى رشدى ، اذا بالمسدس الملقوم المها لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصرى ، ولكنني سرعان ما أقصيته عنى • آد ١٠٠٠ الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعي ابتهل الى « الحقيقة ، الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخذت أبكي وقد أخذت حميًا شديدة ، حميًا لا حدود لها ، ترفع وجودي كله ، وتسمو به ، نعم ، يجب أن أحيا وأن أبسر ! ونذرت نفسي فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً • سأمضي أبشر • أديد أبشر • ما دمت قد رأيتها ، وأيتها بمبني رأسي ، رأيتها في كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحت أبشر"! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون منى العلنى أحبهم أكثر مما أحب غيرهم • لماذا ؟ لا أدرى ، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلا أو تفسيراً • ولكن ليس لهذا من شأن • المهم أنهم يدعون الآن أننى أسير فى طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير البه وقد سرت فى طريق خطاً • هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً • لا شك فى أننى سأغلط مراراً قبل أن اكتشف وسيزداد الأمر سوءاً • لا شك فى أننى سأغلط مراراً قبل أن اكتشف يجب على أن أبشر ، أن ما هى الأقوال وما هى الأقمسال التى ينبغى أن تكون سبيلى الى التبسير ، لأن رسالة التبسير ليست بالامر ينبغى أن تكون سبيلى الى التبسير ، لأن رسالة التبسير ليست بالامر ولكن اسمعوا : من ذا الذى لا يضل الطريق ؟ من ذا الذى لا يسبر فى

طريق خطأ ؟ ومع ذلك يسمير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بسينها ، من أحكم حكيم الى شتّر شرير • كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سسلاً مختلفة • تلك حقيقة قديمة • ولكن البكم على الأقل هذا الأمر الجديد : انني لن أستطيع أن 'أخدع عن نفسي كثيراً ، لأنى رأيت الحقيقة • رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسمادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحبوا على هذه الأرض • لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوى العادي لأفراد البشر • ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحــده انما يســخرون منى ويتهكمون على م ولكن كيف يمــكن أن لا يصدقنى الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة • رأيتها رؤية ، ولم أتخيلها تخيلاً بالفكر • وأيتهـا وؤية ، وغمسرتني • صـورتها الحية ، وملأت نفسي الى الأبد . وأيتها في كمال مطلق يبلغ من التمام أنني لا أستطيع أن أصدُّق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضل ُ الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة • ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة في نفسي على الدوام ، فتعرف كيف تقوتم عوجی وتسدُّد خطای وتوجه سیری • وانی امرؤ شجاع وان لی قوى نضرة ، فلأمضين َّ مبشسِّراً ولو ألف سنة • أرأيتم ؟ لقد أردت أن أخفى عنكم في أول الأمر أنني أفسدت الجميع • وكان هذا الكتمان منى خطأ أول • ولكن « الحقيقة » همست تقول لَى اننى أكذب ، فصانتني من الانزلاق ووجهت مسيري • ماذا بجب أن نعمل لاقامة الجنة ؟ ــ لا أدري ، لأنني لا أستطيع أن أعبر " عن هذا بألفاظ ٠ انني منذ رأيت حلمي قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التي لابد منها ولا غني عنها • ولكن لن يهمني هذا • لسوف أمضي ، ولسوف أثول كل شيء بغير كلال ، لأنني قد رأيت بعيني رأسي ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو كابوس ، هو هلوســـة ٠٠ » ٠ هيه ٠٠ هيه ٠٠ ليس في هذا الكلام كله غيطارة • وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؛ حياتنا كلها ، أليست حلماً ؟ بل انني لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمني ألا تمود تلك الجنة بعــد الآن أبداً ، وليس يهمني أنهــا لم تمد موجودة (وأنا أدرك ذلك) ، ولكنني سأمضى أبشر ً بالجنــة رغــم كل نبيء • وما أسبط الأمر مع ذلك م ان من الممكن أن يعاد بناء كل سيء في يوم واحد ، في • ساعة واحدة ، • وانعا المهم أن يحب الانسان قرينه الانسان كما يحب نفسه • ذلك هو الشيء الأساسي الذي هو كل شيء ولا حاجة بنا الى شيء آخــر ســواه : فمتى وفرتموه عرفتم على الفور كيف تبنون الجنسة • على أن هسذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها النساس وكرروها مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تغرس جذورها في النفوس ، انها لم ترسخ في القلوب • لا يزال الناس يتصورون أن ﴿ وعي الحياة أعلى من الحياة • وأن معرفة قوانين السمادة أعلى من السعادة • • وهذا بمينه ما يجب أن تكافحه • ولسوف أكافح • يكفى أن يريد كل الناس حتى يتم بناء كل شيء ٠

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتهـــا • وســـــأمضى الى أمام . سأمضى •

خطاب عن بوث كين ١٨٨٠

خطاب القي في ٨ حزيران ــ يونية أمام « جعية أصدقاء الأدب الروسي »

بوشكين ظاهرة من الظاهرات الخارقة ، ولعل النفس الروسية قد تجلت به تنجليساً فريداً • كذلك قال جوجول (١) • وانهي لأضيف الى قوله أن بوشكين كان كذلك ظاهرة نبوة • نعـم ، ان ظهوره يكشف لنا نحن الروس عن شيء لا شك أن فيه نبوة . لقد ظهر بوشكين حين أخذنا نعي أنفسنا حقا ، وحين ساهم هذا الوعي الذي كان في مجتمعنا لايزال بذرة بعد الاصلاح الذي قام به بطرس الأكبر ، حين أسهم بظهوره في آنارة طريقنا المظلمة ، وفي توجيه سميرنا . بهذا المعنى يكون بوشكين عرافاً ومرشيداً • انني أقسم حياة بوشكين الأدبية إلى ثلاث مراحل • وليس ناقداً أدبياً من ينحدث في هذه الساعة : انني في نظرتي الى أدب بوشكين الآن لا أريد الا أن أشرح فكرتى عن معنى النبوة الذي لبوشكين عندنا وعمًّا أقصـــده بكلمة النبوة • ومع ذلك أحب أن ألفت الانتباه ، عابراً ، الى أن مراحل الانتاج عند بوشكين لا يبدو أن بينها حدوداً تفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً • ان بداية « أو سحين ، مثلاً تنتمي في رأيي الى المرحلة الأولى ، ولكن « أونيجين » تنتهى في المرحلة الثانية ، بينما كان بوشكين قد اهتدى الى اكتشاف مثله الأعلى على تراب الوطن ، وتشبُّع

⁽۱) هذه كلمات جو جول نفسها . في مقالته ويضع كلمات عن يوسكينه التي نفرت سنة ١٨٣٠ (في زخارف عربة) وكان الشاعر الكبير الإيزال حيا وفي مقالة أخرى عنوانها ماجوهر الشعر الروسي أشاد جوجول الى «الترجع الخلاق» الذي أثارته في نفس يوشكيز قراءة شعراء مختلف الامم ومختلف العصور ؛ وهذه فكرة سيمود المها دوستويفسكي في هذا المقال ويتحدث عنها •

بهذا المثل الأعلى منجد داً اياه تجديداً كاملاً بكل ما تملكه نفسه المحمة النصدية من قوة • وقد اصطلح الناس أيضاً على أن يقولوا ان بوشكين في المرحلة الأولى من مراحسل ابداعه قلَّد الشعراء الأوربيين من أمثال باني ، وآندره شنسه وغيرهما ، ولا سيما بايرون • نعم ، لا شك أن شعراء أوروبا قد أثروا تأثيراً كبيراً فى تفتح عبقريته ، وقد احتفظوا بهذا التأثير فيه الى الأبد • ولكن ذلك لا ينفى أن القصائد الأولى التي نظمها بوشكين لم تكن تقليداً فحسب ، بل كانت تكشف منذ ذلك الحين عن تمتع عبقريته بأكبر الاستقلال • انكم لن تقعوا يوما ، في أى تقليد أو محاكاة ، على ما تجدونه من أصالة الألم وعمق الوعى فى قصيدة • النجر ، مثلاً ، وهي قصيدة أنسبها الى المرحلة الاولى من مراحـــل انتاجه ، ناهـكم عن ذلك التدفق العارم في الابداع ، وهو تدفق ما كان لينجلي على هذا النحو لوكان الشاعر لا يزيد على أن يقتِّله ٠ ان نموذج آليكو ، بطل قصيدة ـ الفجر ، لهو رسمة أولى لنلك الفكرة القوية ، الروسية تماماً ، التي ستتجلى بعد ذلك في رواية ، أُوجِين أو نبحين ، منسقة " أعظم الاتساق ، منسجمة أكبر الانسجام ؟ وفي هذه الرواية نرى آليكو ذاك نفسه لا ينقي صورة شبه خالة ، بل يصبح له وجبه يعكن لمسبه وفهمه فعلاً • لقد اكتشف بوشكين في آليكو ذلك المتشرد الشقى في بلادنا ، ذلك الجُّواب التاريخي الروسي ، الذي يشكل وجوده في هذا المجتمع المنفصل عن الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصوى • اكتشف بوشكين نموذج آليكو وصُّوره • ومن نافل القول أن نشــير الى أنه لم يكتشفه عند لورد بابرون فحسب • ان هذا النموذج نموذج حقيقي ، وقد رآء بوشكين بدقة لا يأتيها الباطل ، ووضوح معصوم من الزلل • وهو نموذج سيظل يوجد دائمًا ، وسيبقى على الأرض الروسية زمنًا طويلًا ، ان هؤلاء الجوَّابين الذين ليس لهم نار" بها يستدفئون ولا مكان الله يأوون لا يزالون حتى أيامنا هذه يجوبون ، ولا يبدو أنهم سيختفون قبل انقضاء وقت طويل ٠

واذا صاروا في زماننا هذا لا يذهبون الى الغجسر ملتمسين في عاداتهم وتقاليدهم المتوحشمة مثلاً عليا عامة شاملة ، ولا يذهبون اليهم ناشدين أن يرتاحوا في أحضان الطسعة من الحاة السخفة المضطربة العكرة التي يعيشمها الناس في مجتمعنا الروسي المثقف ، فانهم يندفعون الآن الى الاشتراكية التي لم يكن لها وجود في زمان آليكو ، ويأخذون على عاتقهم مهمة جديدة ، مؤمنين كما كان يؤمن آليكو بأنهم بهذه الوسيلة الوهمية سيصلون لا الى أهدافهم الخاصة وحدها ، بل الى أهداف البشر أجمعين • ذلك أن الجوَّابِ الروسي لا يرضي بأقل من سعادة البشر كافة " ليهدأ باله وتطمئن نفسه : انه لا يمكن أن يقبل بأقل من هذا ــ ما ظــل الأمر على صعيد النظرية طبعاً • اننا في الحالين ازاء ذلك الروسي نفسه ظهر في فترتين مختلفتين • أعود فأقول ان هذا الرجل انما ظهر في مجتمعنا المثقف المنفصل عن الشعب ، المنفصل عن القوى الشعبية ، في بداية القرن الثاني الذي أعقب اصلاح بطرس الأكبر • لا شك أن عدداً كبيراً من المثقفين الروس ، سواء في زمان بوشكين وفي زماننا ، كانوا يعملون ولا يزالون يعملون بهدوء وسكينة ، موظفين في المحاكم وفي السكك الحديدية وفي البنوك • وان بينهم كذلك أناساً يحصلون على مال ِ بجميع الوسائل ، حتى ان بينهم من يهتمون بالعلوم ، ويقر ون محاضرات ، وذلك كله على نحو مطرد هادیء وان ۰ وانهم لقیضون رواثب ۲ ویلمیون بالورق ۲ دون أن تراودهم أية نزوة تحض على الهروب الى مخيمات النعجر أو الى أماكن أُخْرَى أَلْصُقَ بْزِمَانْنَا • وَانْ هَنَاكُ عَدْدًا كَبِيرًا مِنْ النَّاسُ يَصَطَّفُونَ لأَنْفُسُهُم صفة اللبراليين ويضيفون الى هذه اللبرالية « مسمحة اشتراكية أوروبية » ترفع الدمائة الروسية من شأنها قليـلاً • ولكن المسألة مسألة وقت لا أكثر • فلبس يغير ً من حقيقــة الأمر شـــيثًا ألا يــكون فلان قد بدأ يحس القلق ، وأن يكون فلان الآخر قد السم وقته منذ الآن لأن يمضى الى الباب المغلق فينطح به رأسه • ان مصيراً واحداً ينتظرهما كليهما متى

حان الحين ، اذا هما لم يسميرا في طريق السمسلامة ، الذي هو طريق المسالحة مع الشعب • وهب و ان هذا المسير لن يشسارك فيسه جميع الناس ، فانه ليكفي أن تشـــارك فيه « نخبة » ، يكفي أن يظهر 'عشر' الناس استياءهم واستنكارهم حتى يقوم السواد الأعظم بفضل ذلك ، فلا يهدأ له بال ولا يعرف الى الراحة سبيلاً • صحيح أن آليكو لا يعرف بعد' أن يُعبِّر لنا على وجه الدقة عن موضوع حنينه • ان ذلك كله لا يزال فيه أمراً مجرداً بعض التجريد • وهو لا يحنُّ الآن الا الى الطبيعة • انه لا 'يحسن الا الشكوى من المجتمع الراقى ، والبكاء على حقيقة ضائعة ، ولا يعرف أين يجد هذه الحقيقة ولا كيف ، ولا يفلح في الاهتداء اليها • ان فيه شيئًا عن جان جاك روسو انه لا يقول لنا ما هذه الحقيقة ، ولا أين يمكن أن تظهر ، ولا كيف يمكن أن تظهر ، ولا يحدُّد لنا الزمان الذي ضاعت فيــه ٠ هو لا يذكر لنــا شــــيئاً من ذلك ٠ ولكن هــذا لا ينفى أن ألمه صدادق • ان الانسسان غريب الأطوار نافد الصبر ، لا ينتظر ولابد أن يكون الأمـــر كذلك • هو يقول : « لابد أن تكون الحقيقــة الأخرى ، عنــد الشعوب الأوروبية مشــلاً ، تلك الشعوب التي لهــا بنيان تاريخي متين ، والتي تتصف فيهـا الحيـاة الاجتماعيــة والمدنيــة بأنهــا منظمة • ، • انه لن يدرك أبداً أن الحقيقة قائمة في ذاته قبيل كل شيء • وأنَّى له أن يدرك ذلك بينما هو كفٌّ على أرضه عن أن يكون عين ذاته ؟ انه منذ قرن طويل قد فقد عادة العمل • انه غير ذي ثقافة • لقد شبَّ كما تشب فتماة في مدرسة داخلية ، بين جدران عالية وأسوار سامقة ، خاضعاً لالتزامات غريبة لا حصر لعددها ، تتصل باوتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التي ينقسم اليها المجتمع المثقف في روسياً • هو الآن زغبة منتوفة تتموج على ما تشاء لها الربيع • وانه

ليحس بذلك ، وانه يتألم منه ، بل انه ليتألم منه نألمًا حادًا جدًا في كثير من الأحيان • وما ذا يهمه بعد ذلك ، أن يكون ، بانتمائه الى اسرة نسلة كما 'يحتمل هذا ، مالكاً لأفنان ، وأن يكون قد انساق مع نزوة تستبد ينفس نبيل من نبسلاء الريف ، فبيح لنفسمه ذلك الانقياد لغواية أناس « خارجين عن القانون » ، ويتبع جمـاعة ٌ من الفجـــر. ويصير صاحب دب يتفَّرج عليه المتفتَّرجون ؟ وطبيعي أن تستطيع المرأة ، « المرأة المنوحشة » على حد تعبير الشاعر ، أقدر من سائر الأشياء على أن تهب له الأمل في أن تشفيه من حنينه الأليم ، ولذلك نراه يرتمى على زمفيرا بايمان طائش لكنه منسبوب الهوى ، قائلاً لنفســه : « هنــا يمكن أن تكون سعادتي ، منا في أحضان الطبيعة بعيداً عن المجتمع بين هؤلاء الذين ليس لهم لا مدنية ولا قوانين! • • وماذا يحدث؟ انه منذ أول احتكاك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة ، يعجز عن السبطرة على نفسه ، ويلطخ بالدم يديه . ان هذا الحالم الشقى ليس عاجزاً عن الانسجام الشامل فحسب ، بل هو عاجز حتى عن الانسجام والتوافق مع الفجر ، وهاهم أولاء يطردونه ، بلا رغبة في الانتقام ، وبلا كرء أو ضغينة ، وقد امتلأت نفوسهم جلالاً " وحلماً ودماثة •

> الركنا آيها الرجل المبلك نحن متوحشون ليس لثا قواتين نحن لائملب ولاثماقب

ذلك كله خيال طبعاً ، ولكن هذا « الرجل الصلف ، انما هو انسان مستمد من الواقع وقد أحسن الشاعر رسمه ، وان بوشكين هو أول من أدركه ، وذلك ما لا ينبغى لنا أن ننساه ، وبحماسة عادمة وحشية سيمزق هذا الانسسان نفسه ، وسيعاقب نفسه للاساءة التي ارتكبها ، أو هو _ وذلك سيكاد يكون أسهل عليه أيضاً ، بعد أن تذكر أنه ينتمى الى واحدة من الطبقات الأربع عشرة _ سيتوق طبعاً (لأن ذلك هو

ما حدث) الى قانون قاس يفرض العقاب ، وسيحر من على اقامة هذا القانون ، ولو لمعاقبة الاساءة التى ارتكبها هو • لا ، ان هذه القصيدة العبقرية ليست تقليداً ومحاكاة ! اننا نرى فيها منذ الآن بزوغ الجواب عن ذلك السيؤال ، « السؤال المحتوم » الذى يلقيه الايمان وتلقيه الحقيقة الشعبية : « أبها الانسان الصلف أذل " نفسك أولا " وحطم خيلاك • أذل " نفسك أيها الانسيان الضعيف المغرور • وعلى هذه الأرض التى ولدت فيها اتعب واجهد قبل كل شي • » •

ذلكم هو الجواب الذي يطابق الحقيقة ويطابق عقل الشعب • « ليست الحققة في خارجك ، بل هي في داخلك ، اهتمد الى نفسك في نفسك • أخضع نفسك لنفسك • املك نفسك بنفسك • فترى الحقيقة • ليست هذه الحقيقة في الأشياء ، ولا هي في خارج ذاتك ، ولا هي في أي مكان بعيد ، وانما هي قبل كل شيء فيما تحدثه من تأثير في نفسك . فاذا تغلبت على نفسك ، اذا انتصرت على نفسك فوجدت السلام والطمأنينة أصبحت حراً حرية لم تتخيل أنك في يوم من الأيام أنك ستملكها • سوف تقوم بعمل عظیم ، سوف تحرر الأخرین ، وسوف تری السعادة ، لأن حياتك ستكون ملأى ، وستفهم عندئذ شعبك وحقيقته ، لست الحقيقة ً في مكان آخر ، كما لم تكن عند النجر ، وانما أنت أنت الذي لا تستحقها ولا تكون بها جديراً ، اذا كنت شريراً ومزهواً ، واذا طالبت بما لك على الحياة من حقوق دون أن تؤدي ما للحياة علىك ، دون أن تعطي في مقابل هذه الحقوق أيَّ عطاء ، وحتى دون أن يخطر ببالك أن عليك أن تعطى شيئًا ، • ان هـذا الجواب عن السؤال ، ان هذا الحل للمشكلة قد أشارت اليه قصيدة بوشكين اشارة قوية • ثم جاءت قصيدة « أوجين أونيجين » فمبسَّرت عنه تعبيراً أوضع • وهي قصيدة ليست خيالاً كقصيدة الفجر ، وانما هي واقع محسوس ملموس تجسسد تن قيها الحياة الروسية الحقيقية تجسداً فيه من القوة والكمال ما لم يشاهد مثله قبل بوشكين ، وربما بعده ٠

ان أونيجين يصل من بطرسبرج ، ولابد حتماً أن تكون بطرسبرج هى التى يصل منها ، ولاشك أن هذا لا غنى عنه للقصلة : فما كان لبوشكين أن يدع لأية سلمة من واقع يبلغ هذا المبلغ من الكثافة أن تفوته في قص سليرة بطله ، أعود فأقول مرة أخرى انه صاحبنا آليكو نفسه ، ولا سيما حين يهتف وقد استبد به الحزن كما سنرى بعد قليل :

لاذًا لم يشللني الكستاح كما شل الحلف في تولا 1

ولكنه هنا ، في مستهل القصيدة ، لا يزال مزهوا بعض الزهو ولا يزال من أبناء المجتمع الراقى ، ان الحياة الني عاشها أقصر من أن يكون وقت قد انسع لأن يتخلص تخلصاً ناماً من وهم الحياة ، غير أنه قد بدأ يزوره ويحاصره

شيطان نبيل هو شيطان ضجر مستتر خلى

وهو فی هذا الركن المنزوی من الریف ، فی قلب وطنه ، لا یحس طبعاً أنه فی داره ، انه لا یدری ما عساه فاعلاً هنا ، وانه لیسم ، علی کونه فی مسکنه ، أنه فی هذا السکن نزیل ، أنه فیه ضیف ، وبعد ذلك ، حین سیطو فی مکتئب آسیان فی الأرض التی ولد فیها ، وفی الأرض الأجنبة ، هو الرجل الذی لا شبك فی أنه ذكی وأنه صادق ، سوف یشمر ، حتی فی الخارج ، أنه غریب عن نفسه مزیداً من الغربة ، هو یحب أرضه التی ولد فیها حقا ، ولکنه لا یؤمن بها ، صحبح أنه سمع فی یحب أرضه التی ولد فیها حقا ، ولکنه لا یؤمن بها ، صحبح أنه سمع فی تلك الأرض مشلاً علیا ، لکنه لا یصد قی هذه المثل العلیا ، انه لا یؤمن الا بشیء واحد : هو أن كل عمل یحاول الشروع فیه من أجل بلاده التی ولد فیها ، مستحیل استحالة مطلقة ، أما الذین یؤمنون بامكان التی ولد فیها ، مستحیل استحالة مطلقة ، والذین کان عددهم فی ذلك تحقیق هذا العمل والنهوض بهذه المهمة ، والذین کان عددهم فی ذلك الزمان قلیلا کفلته فی هذا الزمان ، فهو ینظر البهم بسخریة حزینة ، المله لم یقتل لنسکی الا سأما ، من یدری ؟ لعل بوعاً من السام الذی

يو ًلده الحنين الى منل أعلى شامل هو الذي جعله يقتل لنسكى • أما تاتيانا فانها لا تشبهه : انها انسانة متينة ، قوية الاستناد الى الأرض • ان الها جوهرآ لا يملك أونيجين مثله ، وهي تبعاً لذلك أذكى منه • انهــا بنــل غرائزها وحده تحس أين هي الحقيقة ، وتدرك ما الحقيقة ... وذلك ما سنعبر عنه ختام القصيدة • ولعل بوشكين كان يحسن احساناً أكبر لو أنه جعل عنوان قصمدته « تاتيانا ، بدلاً من أن يجله « أونيجين ، ، لأنها هي بطلة القصيدة بلا مراء • نحن هنا ازاء نموذج ايجابي لا سلمي ، بل نحن هنـــا ازاء نموذج الجمال الايجابي بعينه ؟ ان الشــاعر هنا يمجد المرأة الروسية ، ويهشها لأن تنطق بفكرة قصيدته في الشهد الذي يصوِّر اللقاء بين أونيجين وتاتيانا • ونستطيع أن نذهب الى أبعــد من ذلك فنقول ان تموذج الجمال هذا الذي يعترف به للمرأة الروسية ليس له في أدبنا نظير يساوبه ، اللهم الا أن نقول ان ليزا التي صورها تورجنيف في روايته « عش سادة » ، ربما كانت له نظيرًا • ولكن طريقة أونبجين في النظر من أعلى جعلت أونىجين لا ينعرف تاتيانا حين رآها أول مرة في ذلك الركن من الريف ، فانت له صورة " مسكينة للفتاة الطاهرة البريئة التي تخجل أشد الخجل حين يراها هو أول مرة : انه لم يستطع أن يدرك لدى الفتاة المسكينة ما تشتمل عليه نفسها من كمال وتمام ، ولعله عدَّها « نطفة روح ، ان صبح التمبير ، ماذا ؟ نطفة ؟ هي ، نطفة ؟ هي ، بعد الرسمالة التي كتبتها الى أونيجين منذ قليل؟ ألا أنه لهو الذي يمكن أن يوصف بأنه تطفة روح ، هو أونيجين ، اذا كان في هذه القصيدة نطفة روح . هو أولاً ما كان في وسعه أن يتعرفها بحال من الحال • أهو يعرف النفسي الانسانية ؟ انه رجل يعيش في عالم مجرد ، انه حالم قلق طول حباته . وبعد ذلك لم يتعرفها أكثر من هذا في بطرسبوج ، رغم زعمه في رسالته الى تاتبانا أنه اكتشف « جميع ما تتحلى به من ألوان الكمـــال ، • ولكن هذه الكلمات ليست الاكلمات : لقد مرت تاتيانا بحياة أونيجين مرورًا ،

إنّا في ريمان الشباب ؛ والحياة قوية في نفسي فهاذا انتظر ؟ أنه السام ثم السام !

وذلك ما كانت قد أدركته تانيانا • وفي الأبيات الخالدة من هذه الرواية الشعرية يصبّور الشاعر بطلته تانيانا وهي تزور منزل ذلك الرجل الذي لا يزال غريباً كل الغسراية ولا يزال لغزاً خفياً وسراً عجيباً في نظرها • ها هي ذي في مكتب أو تيجين ، تلقى نظسرة على كتبه وأشبائه وتحفه ، وتحاول أن تنفذ الى نفس مالكها من خلالها ، وأن تدرك السروتحل اللغز من النفلر اليها • وتتلبث « النطفة الروحية ، أخيراً على فكرة وهي تبتسم ابتسامة غريبة مع احساس بأنها حكّلت اللغز ، ودمدمت شفتاها تقولان :

الايمكن ان يكون لوعا من محاكاة مضحكة ؟

نسم ، كان لا يمكنها الا أن تنطق بهلا الكلام • لقد أدركت

الحقيقة • وبعد ذلك بمدة طويلة ، أتساء لقائهما الجديد في بطرسبرج ، كانت تعرفه منذئذ معرفة تامة • وبالمناسبة ، من ذا الذي زعم أن حياة البلاط ، حياة المجتمع الراقى ، فد أحدثت في نفسها أثراً وبيلاً ، وأن صفتها كسيدة من سيدات المجتمع الراقى والآراء الجديدة التي في ذهنها عن منزلتها ومكانتها كانت من أسباب الرفض الذي واجهت به أونيجين ؟ لا ، ان الأمر لم يكن كذلك • لا • انها لا تزال تانيا نفسها ، تانيا القروية كما كانت في الماضي • انها لم تفسد • بالعكس • ان بذخ الحيساة البطرسبرجية يرهقها ويضنيها ، وانها لتتألم من ترف هذه الحياة ببطرسبرج وانها تكره مكانتها هذه كسيدة من سيدات المجتمع الراقى • ومن يحكم عليها غير هذا الحكم يكن جاهلاً بما أراد أن يقوله بوشكين • ها هي تكلم أونيحين فتقول له بلهجة جازمة :

لكثى وهبت نفسى لآخر وسابقى وفية له الى الابد

لقد نطقت بهذه الكلمات نطق امرأة روسية تماماً • وذلك هو تمجيدها • انها تعبر عن حقيقة القصيدة • لن أقول شيئاً عن اعتقاداتها الدينية ، لن أقول شيئاً عن اعتقاداتها لا • هذه نقطة لن أمسيها • ولكن ماذا ؟ هل لهذا رفضت أن تتزوجه ، مع أنها قالت له هي نفسها : « أحبك » ؟ هل لهذا ، من حيث أنها امرأة روسية (لا امرأة من الجنوب ، لا فرنسية ما) تسجز عن القيام بخطوة جريئة ، ولا تقوى على كسر القيد الذي يكبيلها ، والتضحية بمفاتن الأمجاد والثراء والمكانة العالية في المجتمع الراقي والآراء السائدة عن الفضيلة ؟ لا ، ان المرأة الروسية جريئة • المرأة الروسية تتبع الرجل الذي تؤمن

به ، تتبعه بسالة وجســـارة ، ولقد برهنت على ذلك + ولكنها « وهنت نفسها لآخر وستبقى وفية" له الى الأبد ، • فمن الذي ستبقى وفية" له ؟ وباسم أية واجبات تبقى وفيـة له ؟ أهي وفيــة لذلك الجنرال الذي لا تستنطيع أن تنحمه لأنهما تنحب أونيجين ، وانما هي تزوجت لا لنبيء الا لأن أمها توسلت البها أن تتزوجه « دامعة " ضارعة ، ، ولأن نفسها التي أهينت و'جرحت لم يكن فيها حينذاك شيء الا البأس ، ولم يكن ثمة أى دليل على أن جــديداً ســحدث؟ نعم ، لهذا الجنرال انما ستكون وفية ، لزوجها ، للرجل الشريف الذي يحمها ويحترمها ويشحلها ويندو فخوراً بها • لا قيمة لالحاحات أمها • انها هي التي وافقت لا غيرها : هي التي حلفت لتكونن ً له الزوجة الوفسة + ليس أمراً هاماً أنها تزوجت بعد يأس • هو الآن زوجها • فلو خانته لجللها العار والدنس ، ولقتلها قتلا ً • ثم هل يستطيع الانسان أن يبني سعادته على شقاء غيره ؟ ليست السعادة كل شيء في مباهيج الحب ، بل السعادة في الانستجام الأعلى الذي بتحقق للروح والفكر • وأنَّى للفكر أن يبجد الراحــة اذا كان يحاصره شبح عمل غير شريف ، عمل شرير ، عمل ليس انسانيــاً . أيجب عليهــا أن تهرب لا لشيء الا لأن الأمر أمر سعادتها ؟ أية سعادة يمكن أن يتمتع بها المرء اذا كانت قائمة على شقاء غيره ؟ تصوروا أنكم مكلفون أتتم أنفسكم ببناء صرح المصائر الانسانية لهدف أخير هو أن تجملوا جميع الناس سعداء، وأن تهبوا لهم الســــلام والراحة آخر الأمر • وتخيلوا عندثذ أيضاً أنكم في سبيل تحقيق ذلك لا غني لكم عن تعذيب انسمان واحد ، واحد لا أكثر ، بل انسان ليس له قيمة كبيرة ، انسان يمكن أن يعد مضحكاً ، فليس هو رجيلاً عبقرياً مثبل شكسير ، وانها هو شبيخ طيب شريف لا أكثر له زوجــة شــابة يؤمن بحمها ايماناً أعمى ، زوجـــة لا يعرف قلبها ، ولكنه فخور بها مرتاح اليها واثق بهما • تخيلوا أن هذا الرجل هو الذي يجب عليكم أن تهينوه وأن تخزوه وتلطخوا شرفه وأن تعذبوه ٠ تخلوا أن سمادتنا لابد أن ' تبنى على دموع هذا الشيخ الذي لا حول له ولا قوة ولا يملك عن نفسه دفاعاً • فهل تقيلون أن تشسيدوا ذلك الصرح بهذا الثمن ؟ وهل يمكنكم أن تسلُّموا ، ولو دقيقة واحدة ، أن أولئك الذين ' بني لهم هذا الصرح يرضون هم أنفسهم أن يقبلوا منكم تلك الســـادة اذا كانت قد شـــيدت على آلام مخلوق هو أهون المخلوفات شأناً ، مخلوق عُنَّذب لهذه الغاية ظلماً بغير شفقة ولا وحمة ؟ وهل تقدرون ، اذا أنتم قبلتم هذه السعادة ، أن تبقوا سعداء الى الأبد؟ قولوا لى : هل كانت تاتيانا تستطيع أن تعقد عزمها على غير ما عقدته عليه ، وأن تتخذ قراراً غير القرار الذي اتخذته ، هي التي 'وهبت لها نفس تبلغ هذا المبلغ من النبل ، وأوتيت قلباً يبلغ هذا المبلغ من الرحمة ؟ لا ، لم يكن في وسبحها أن تفعل غير ما فعلت • هكذا يكون القرار الذي تتخذه نفس روسية نقية • • ألا فلأحرم وحدى من السعادة ، ألا فليكن شقائى أكبر من شقاء هذا الشيخ الى غير حد ولا نهاية ، ألا فليجهل جميع الناس وهذا الشيخ نفســـه تضحيتي ، ولا يقدروها حق قدرها الى الأبد! الني أوثر ذلك على أن تقوم سعادتي على شقاء غيري • انني أرفض أن يكون شقاء غيرى تمن مسعادتي ! ، • في هذا تكمن المأساة ، ولسوف تحدث المَّاساة ، سوف يفوت أوان تجاوز الحاجز ٠ ذلكم هو السبب الذي جعل تاتيانا تطرد أونيجين • رب قائل يقول : • ولكن أونيجين شقى أيضاً • فهي قد أنقذت واحــداً وأهلكت آخــر ! ، • اسمتحوا لي ! هذه مسألة ، ولعلها أخطر مسألة في القصيدة • يجب أن أشير في هذه المناسبة الى أن امتناع تاتيانا عن الذهاب مع أونيجين هو عندنا ، في أدبنا على الأقل ، قصة فريدة جداً في نوعها • لذلك أبحت لنفسي أن أفيض في الكلام على هذا الموضوع افاضة طويلة • ان أغرب ما في الأمر هو أن الحل الأخلاقي لهذه المسألة قد كان موضع شك في كثير من الأحيان عندنا • فاليكم ما أراه في الأمر من رأى • انني أتصور أن تاتيانا ما كان لها أن تذهب مع أونيجين

ولو حدث أن أصبحت حرة طليقة ، أن مات عنها زوجها ، أن أصبحت أرملة • أنحن في حاجة حقاً الى أن نتعمق طبيعة هذا المزاج ؟ انها تعلم حق العلم من هو أونيجين : هو جَّواب أبدى حــدث أن رأى ، على حين فجأة ، المرأة التي سبق أن ازدراها ؟ رآها في البذخ والترف الذي تنعم به بيئة لا يقدر هو أن يبلغها • هنا جوهر القضية كلها • هذه البيئة هي جوهر القضية كلها • ان ثلك البنت الصغيرة التي أوشك في الماضي أن يحتقرها احتقاراً ، تحظى اليوم بتبجيل المجتمع الراقى ـ هذا المجتمع الذي له على رجل مثل أونيجين سطوة وسلطان ، رغم جميع ميول أونيجين الى الشمول ... ومن أجل هذا انما هرع اليها مبهوراً ! لقد هتف يقول : ه هذا مثلي الأعلى ، هذا خلاص ، هذا ما يروى ظمئى ، ويشفى غليلي ، ويروى حنيني ! لم أقدر أن أرى السعادة حين كانت في متناول يدي ء حين كانت قريبــة كل القرب منى ! ، • وكما ينوق آليكو الى زمفيرا ، يتطلع أونيجين الى تاتيانا • أليست تعرفه ناتيانا وتقرأ ما في نفسه قراءة واضحة ؟ ألم تكتشف سرَّم ، وتفك لغزه منذ مدة طويلة ؟ انها لتعلم الآن علم اليقين أنه لا يحب في الواقع الا وهمه الجديد ، فهو لا يحبها هي ، هي التي لا تزال كما كانت في الماضي تانيانا الهادئة • انها تعلم أنه يعدُّها شيئًا آخر غير ما هي • انها تعلم أنه لا يحبها هي ، وأنه ربما كان لا يحب أحدداً ، بل أنه قد يمكون عاجزاً عن أن يحب أحداً رغم كل ما يقاسيه من تباريح شديدة 1 انه يحب وهمه الخاص ، وهو نفسه ايس الا وهماً! فلو تبعته لصحت من الفتنة وأفاقت من السمحر منـــذ الغد ، ولسخرت مما اندفعت فيه وانقادت له من حماسة • ان أونيجين لا أرض له ، لا تراب له • انه زغبة في مهب الربيح • أما هي فتختلف عن هذا كل الاختلاف ، انها حتى في اليأس والألم اللذين يستبدان بهما حين ترى تهدم حیاتها ، یبقی لها شیء ثابت لا یتزعزع ، شیء متبن راسخ تستند اليه روحها ، وتعتمد عليه نفسها : وهو ذكريات طفولتها ، ذكريات البلد الذي ولدت فيه ، ذكريات الركن الصغير من الريف ، الذي فيه بدأت حياتها الهادئة النقية ، هو « الصليب وظل الأغصان على قبر مرضعتها المسكينة ، ان هذه الذكريات وهذه الصور الباقية من الماضي لهى أغلى في نفسها من كل شيء ، ان هذه الصور هي كل ما بقي لها ، وهي هي التي تنقذ روحها من بأس لا مخرج منه ، وهذا وحده ليس قليلا ، بل انه لكثير ، لأنه أسلس راسنع ، فيه شيء لا يتزعزع ولا يتهدم ، بهذا انها يتم اتصال الانسان بالوطن ، وارتباطه بالشعب ، وتعلقه بما يجله ويقدسه ، فما الذي يملكه أونيجين ، ومن هو ؟ انها لا تستطيع أن تتزوجه من باب الرأفة والشفقة ، ملهاة " يزجمي بها وقسه لا أكثر ، انها لا تملك أن شدت هذا الكنز من الشفقة المحبة ، من أجل أن تخلق له شبح سعادة ، لأنها تعلم حق العلم أنه سيستهزيء في غد بهذه السعادة ، لا ، ان من النفوس نفوساً عميقة قوية لا تستطيع ، عامدة واعية ، أن تسلم للعار شيئا تحترمه وتقدسه ، ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها ، شيئا تحترمه وتقدسه ، ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها ،

هكذا يتجلى بوشكين ، في قصة ، أونيجين ، ، في هذه القصيدة الخالدة التي لاتضاهي ، يتجلى كاتباً قومياً لم نصرف مثله قبله ، لقد استطاع بنظرة ثاقبة تبلغ غاية الدقة والحدة أن يرى أعمق أعماق كياننا ، وأن يبصر قرارة هذا المجتمع الذي ينزل عندنا منزلة فوق طبقة الشعب ، ان بوشكين ، بتصويره الجواّل الروسي ، بتصويره المتشر د في هذا الزمان والمتشرد الذي وجد حتى الآن ، وبادراكه بحدس العبقري طبيعة هذا المتشرد ومصيره التاريخي وما يكتسبه من شأن ضحم في مصائر روسيا في المستقبل ، وبوضعه نموذج الجمال الروسي الحق الى جانب ذلك روسيا في المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، المتشرد متمثلاً في المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ، مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ،

التي اكتشفها في الشعب الروسي • وأبرز سـمات هذا الجمــال أن هذه النماذج حقيقة صادقة ، فهو جمال لا يمكن جحوده ، جمال محسوس ملموس ، فلا يستطيع المرء أن ينكر هذه النماذج ، لأنها قائمة أمام بصره كأنها مقدودة من صـحر • أعود فأقول مرة أخرى انني لا أتكلم كلام ناقد من نقاد الأدب • لذلك سأتجنب أن أشرح رأيي فأصدر حكماً مفصَّلاً " على ما تركه شاعرنا من آثار عبقرية ٠ ان المرء ليستطيع مثلاً أن يؤلف كتابًا كاملاً عن نموذج الراهب العالم بالأخسار ، فيبِّين ما لهذا الوجسه المهب عندنا من شأن كبير ودلالة غنية ، وهو الوجه الروسي الذي اكتشفه بوشكين على الأرض الروسية ، واستخرجه ، ونحت صورته ، ووضعه أمام أبصارنا فأصبحنا نراه الى الأبد بجماله الروحي الهبادىء الفخم شاهداً على ما للشعب من روح قوية قادرة على أن تستخرج من قرارة ذاتها وجوهاً لا سبيل الى جحود جمالها أيضاً • ان بوشكين قد استمد هذا الوجه من الواقع ، فهو وجه موجود ، لا يمكن انكاره ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه مبتكر ابتكاراً ، وأنه تمرة من ثمرات الخيــال أو التصـــور عند شاعر ٠ انكم لتتأملونه أنتم أنفسكم وتسلُّمون به : نمم ، هو اذن موجود ، وان روح الشعب الذي خلقته لموجودة أيضاً • ويشِع ذلك أن ما تملكه هذه الروح من قوة حية نشيطة موجودة كذلك ، وكبيرة ورحبة • اننا لنحس في جميع أعمال بوشكين ايماناً بالطبع الروسي ، ايماناً بطاقته الروحية • واذا وجد الايمان فقد 'وجد الأمل أيضًا ، وهو أمل كبير في الانسان الروسي :

> مؤملا مجدا وخیرا ارثو امامی غیر خالاف

كذلك قال الشماعر نفسه في مناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات يمكن أن تصدق على جميع آثاره القومية • وما من كاتب روسي ، لا قبله ولا بعده ، بقى في يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً يبلغ هذا المبلغ من الممق ، ويصل الى هذه الدرجة من ارتباط الابن بأبيه وأمه • صحيح أن عندنا كتاباً كثيرين يعرفون الشعب ويتكلمون عنه بموهبة ومقدرة ومحبة • ولكن كل ما تستطيع أن تقوله عن هؤلاء الكتاب ، اذا أنت قستهم ببوشكين (عدا مستثنيين اثنين بين أواخسر مقلدى الشــــاعر) هو أنهم « سادة ، يتكلمون عن الشعب • وحتى بين أقواهم موهبـة ، حتى لدى المستنبين الاثنين اللذين ألمت البهما ، نحس على حين فجأة بظهور شىء أعلى ، شيء ينحدر من طراز آخسر من المعشة والحياة ، شيء يشيه أن يكون رغبة لدى الكاثب في رفع الشعب اليه ، ونفعه بتصوره • أما بوشكين فانه يملك شيئًا لا أدرى ما هو ، شسيئًا يقرُّبه من الشعب « نهائيــًا ، ، ويكتسي لديه نوعًا من طبيعة بسيطة سـاذجة • انظروا في أســـطورة « الدب ، ، اقرأوا كيف قتل فلاح « صاحب المعالى الدب ، ، أو تذكروا ذلك البيت من الشعر عن « العراب ايفان » ، افعلوا هذا فتدركوا ماذا أريد أن أقول •

ان جميع هذه الكنوز من الفن والحدس التي خلفها لنا شاعرة الكبير هي نوع من الهدى للفنانين الذين سيخلفونه ، للفنانين الذين سيحققون رسالتهم بعد الآن على هذا الدرب الذي شقه لهم ٠ حقا اتنا نستطيع أن نقول : لولا أن وجيد بوشكين ، لما وجدت المواهب التي أعقبته ٠ أو قولوا على الأقل ان هذه المواهب ، مهما تكن عظمتها ، ما كان لها لولاه أن تظهر قوية هذه القوة التي نراها لها اليوم ، ولا واضحة الها الوضوح الذي تتجلى به في هذا الوقت ٠ ولكن الأمر ليس أمر همر فحسب ، ليس أمر عمل قني فحسب : ان الشيء الذي كان يمكن شهر فحسب ، ليس أمر عمل قني فحسب : ان الشيء الذي كان يمكن الألم يتجلى تجليا قويا هذه القوة التي لا تقاوم، لولا أن وجد بوشكين

(وهذا ما رثى بعد ذلك لدى بعضهم ان لم يكن لديهم جبيعاً) انها هو ايماننا باستقلالنا الروسى ، وهذا الأمل الذى أصبح اليوم واعياً كل الوعى ، أعنى أملنا فى شعبنا ، وايماننا بالرسالة التى سبكون علينا ذات يوم أن نحققها فى أسرة الشعوب الأوروبية ، وان مأثرة بوشكين هذه تضبح انضاحاً خاصاً اذا نحن نفذنا الآن الى ما سوف أسميه بالمرحلة الثالثة من حياته الفنية ،

أكرر أن هذه المراحل ليس لها نخوم محدَّدة تحديداً واضحاً • فبعض أعمال بوشسكين ، حتى بين تلك الني تنتمي الى المرحلة الثالثة ، كان يمكن أن تظهر في بداية حياة شاعرنا الفنية ، لأن بوشكين كان في جميع الأوقات كاثناً حياً مكتملاً ان صبح التعبير ، كاثناً حياً يشتمل منذ البداية على بذور جميع تطوره ، فهـو لم يتلق هـذه البذور من خارجه • قالمالم الخارجي لم يزد في أكثر تقدير على أن حَثَّرك ما كان نماويًا في أعماق نفس ْ الشاعر • ولكن هذا الكاثن العضوى كان يتطور ، وتعن تستطيع أن نميِّز مراحبل هذا التطور ، فنرى في كل مرحبلة منها طابعهــا الخاص ، وســـّلم النمو من طــور الى طــور ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن ننسب الى المرحلة الثالثة من تطوره ، تلك السلسلة من الأعمال التَّى تتألق فيهـا الأفكار العالمية خاصـــة ، والتي تنشر أمام أبصارنا الصور الشعرية عند الشعوب الأخسرى ء وتنجستُد لنا عبقريةً هذه الشعوب • ان عدداً من هذه الأعمال لم يظهر الا بعد موت بوشكين • وفي هذه المرحلة من حاته الفنية انيا يمثل الشاعر شيئًا معجزاً ، شيئًا لا عهد بمثله من قبل ، شيئًا لم يلاحظ في أي مكان الى أن جاء بوشكين • صحبح أن في الأداب الأوربيــة عبقريات فنية تحتــل مرتبــة أولى في العظمة ، أمثال : شكسبير ، وسرفانتس ، وشيلر • ولكن أروني عبقرية واحدة من تلك العقريات الكبرى ملكت من القدرة على الترجيع العالمي ما ملكته عبقرية بوشكين • وهذء القدرة التي هي وقف على أمتنا ، هي بمنها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا ، وهي ما تنجعل منه شاعراً قومياً • ان أكبر الشعراء الأوروبيين لم يستطيعوا في يوم من الأيام أن يجسد أحدهم عقرية شعب أخر ، ولو كانت عبقرية الشعب الذي يجاور شعبه ، وأن ينصبح عن كل العمق الحبيء في روحــه ، وعن كل الحنين الى تحقيق رسالته ، بمثل القوة التي برهن عليها بوشكين في هذا كله • بل ان الشمراء الأوربيين حين كانوا يرجعون الى الشعوب الأخرى ، فانما كانوا في أغلب الأحسان يفعلون ذلك لادخال هذه الشعوب في شاميهم ، الايطاليين تقريبًا يشبهون في آثاره الانجليز • ان بوشكين ينفرد بين سائر الشعراء العالمين بالقدرة على التعجسد في شعب آخر • انظروا الى مشاهد « فاوست » ، انغلسروا الى « الفارس البخيــل » ، انظــروا الى أغنيــة « المغامر الفقير » • انكم اذا أعدته قراءة « دون خوان » ، لما كان في وسعكم أن تعرفوا أن الانسان الذي كتب هذه القصيدة ليس اسسانياً ، الا أن تروا اسم بوشكين • ما أعمق وما أهول الصور في هذه القصدة : « المأدبة في زمان الطاعون » ! ألا يحس المرء في هذه الصور الخارقة عبقرية انجلترا؟ ان هذه الأغنية العجيبة عن الطاعون ، التي يغنيها بطل القصيدة ، وهذه الأغنية التي تغنيها ميرى وتقول فيها هذين البيتين :

من مغارفا في الدرسة الصاخبة ترجعت الاصوات

لهما أغان انجليزية • انهما سسلم الروح البريطانية ، وأسلوب العبقرية البريطانية في البكاء ، واحساسها الأليم بما تتوقعه من مستقبل • وتذكروا تلك الأبيات الغريبة التي جاء فيها :

ان هذا لكاد يكون نقلاً حرفاً للصفحات الثلاث الأولى من كناب غیبی صدوفی غریب ، کتبه نثراً متشیع ٌ دینی انجلیزی قدیم ، ولکن أهو نقل فحسب ؟ انك من خلال الموسقى الحزينة المتحسسة التي تسممها في هذه الأشمار لتحس روح البروتستانتية الشمالية نفسمها ، روح مهرطق انجلىزى غىسى صوفى سأمان قد امتلأت نفسه احتقاراً ، وتحس ميوله الغامضــة المبهمة ، العارمة التي لا تقاوم وتنحس أحسلامه الغيبية الصوفية الجامحة المتطرفة • انك حين تقرأ هذه الأشعار لمخسَّل اللُّ أنك تسمع روح عصور ، الاصلاح ، ، فاذا أنت تدرك تلك الشعلة المحاربة ، شعلة البروتستانتية ، وهي في فجرها ، واذا أنت أخيراً تفهم التاريخ نفسه ، تفهمه لا بالفكر وحده ، وانما تفهمه كما لو كنت أنت هناك ، كما لو كنت تمر بمعسكر أصحاب هذه الملة ، وتتلو معهم أناشيدهم ، وتشاركهم ذرف الدموع في حماساتهم الصوفية ، وتشاطرهم ايمانهم بما هم به مؤمنون • وفي موازاة هذه الصوفية الدينية ، انظروا الآن الي تلك الأبيات الدينية الأخرى المستمدة من روح القرآن ، أعنى • اقتباسات من القرآن ، • ألا تحســون حين تقرعونهــا أن مسلماً هو الذي ينكلم • ألا تحسـون روح القرآن؟ ألا ترون حسامه؟ ألا تبحسون تلك العظمة البريثة في عقدته ، وتلك القوة الهائلة الرهبية في تعاليمه ؟ وعودوا بنا الى العالم القديم • اقرعوا قصيدة « ليالى مصر » • ألا ترون آلهة الأرض هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم حكم آلهة ، ويزدرون عبقرية شعوبهم وأشواقها ، ولا يؤمنون بها ، والذين يصدق عليهم أنهم آلهة منعزلون ،

أطاشت العزلة عقولهم واحتضروا من الضجر وهم يهدهدون حزنهم بسول حبوانية عجيبة رهيبة ، وشبق كشبق الحشرات ، ولذة كلذة انثى المنكبوت التي تلتهم َّذكَّرها • اني لأقول غير هيَّاب : ما عرفت الانسانية شاعراً يضارع بوشكين في قدرته على الترجيع العالمي الشامل • وليس الأمر أمر ترجيع فحسب ، وانما هو أيضاً ذلك الممق المدهش في هذا الترجيع ، وتلك القدرة التي تملكها روح بوشكين على أن تتقمص روح شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً فهو مسجزة ، لأن هذه الظاهرة لم تتجدد لدى أى شاعر فى العالم بأسره من أقصاه الى أقصاه • ان هذا لم يحدث الا عند بوشكين • وبهذا المنى يكون بوشكين ــ كما سبق أن قلت ـ ظاهرة ليس لها سابقة ، وهو في رأينا ظاهرة نبوة 1 ذلك ٠٠٠ ذلك لأن ما هو روسي أكثر من كل ما عداه في بوشكين انما يتجلي في هذا ، أعنى العبقرية القومية في شــعره ، أعنى روح شعبنا في الصورة التي ستصمير اليها في المستقبل ، أي روح مستقبلنا التي عمرف كيف يستخرجها من بين شوائب الحاضر ، وكيف يعبُّر عنها تعبير َ نبي حقًّا • وهل قوة روحنــا القوميــة الا ميلها ــ من خلال الأهداف المحدوّدة التي تستهدفها _ الى العالمية الشاملة ، الى التكامل الانساني ؟ ان بوشكين الذي أصبح شاعراً قومياً ، ما ان اتصل بالشعب حتى أحسَّ سلفاً بما لهذه القوة الشعبية من دلالة واسعة • فهو من هذه الجهة قد أدرك المستقبل وکان نسا ہ

ان فى وسعنا أن نساءل فى الواقع : ما اصلاح بطرس بالنسبة البنا > لا من جهة المستقبل فحسب > بل من جهة ما كان > من جهة الماضى > من جهة ما حدث ووقع ؟ ما ذا كانت دلالة هذا الاصلاح بالنسبة البنا ؟ ذلك أن هذا الاصلاح > فى حقيقة الأمر > لا يقتصر بالنسبة البنا على أننا استعرنا العادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب • على أننا استعرنا العادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب • يجب أن نتعمق تعمقاً أشد > فنرى كيف حدث هذا الاصلاح • من

الجائز جداً ألا يكون بطرس الأكبر نفسسه قد خطرت باله في أول الأمر الا همذه الفكرة ، فجهمد في تطبيقها ، أي ألا يكون قد استهدف في البداية الا منافع مباشرة • ولكن ما يملكه بطرس الأكبر من وحافة في الفكر توجهه في عمله لابد أنها دفعته بعد ذلك ، أثناء مضيِّ فكرتمه في تطورها ، الى أهداف بسدة المدى لا شك في أنها أرحب من تلك المنافع الباشرة • فنستطيع أن نقول ان الشعب الروسي قد قبــل ذلك الأصلاح لا باسم المنفعة المباشرة وانما هو قبلها حتماً لأنه أحس سلغاً بهدف بعيد أعلى كثيرًا من تلك النفعة الماشرة • وأعود فأقول ان هذا الاحسساس قد يكون لا شعوريًا ، ولكن ذلك لا ينفي أنه كان فويًا وأنه كان راسخًا. رسوخًا عميقًا في نفس الشعب الروسى • لقد كنا جميعًا في ذلك الأوان نمل الى اعادة بنساء وحدة الحاة ، إلى أعادة بناء وحدة النوع الانسانيي • اثنا بالصداقة لا بالعداوة (كما قد 'يفلن) ، وبالمحبة كلها انما قبلنا فمي أنفسنا عبقريات الأمم الأجنبية ، وقبلناها جميعها ، دون أن نفر "ق بيشها ونجل بمضها فوق بعض طبقان مختلفة باختلاف الأجناس ، لأتنا علمنا بالفطرة ومنذ أول خطوة تقريساً كبف نزيل التناقضات وكبف تعذر ونغفر ء وكيف نحقق المصالحة بين الاختلافات • وبذلك كتا نؤكد منذ ذلك الحين ما نملك من استمداد وميــل لأن نميد يناء الوحدة العالمية ، والوحدة الانسانية بين أسر الجنس الآدى الكبير كلما منذ أن انكشىفت هذه الوحدة لأبصارنا • نهم ، ان دلالة الانسان الروسي هي أنه أوروبي وأنه عالمي ، ما في ذلك ريب . فأن يكون المرء روسيًا حقيقيًا ، أن يكون روسياً كاملاً ، فذلك انما يعني (احفظوا هذا !) أنه أخو البشر جميحاً ، أنه مؤمن بالوحدة الانسانية اذا شتم هذا التعبير ، ان كل ما ذهبنا اليه من دعوة الى السلافية ومن دعوة الى التشبه بالغرب ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن ضرورياً من الناحيـة الناريخيـة • فالروسي الحقيقي يرى أن أوروبا ومصائر الجئس الآدى العظيم كله غالبة على نفسه كروسيا تقسمها

ومصائر أرضه التي ولد عليها : ذلك أن مصيرنا انما هو العالمة الشاملة ، النبي لا تتحقق بالسيف ، بل بالأخوة ، بجهدنا الأخوى في سبيل أن نردُّ البشر الى الأُخوة • فلو تعمقتم تاريخنــا الروسي الذي ثلا اصـــلاح بطرس الأكبر ، لوجدتم فيه منذ ذلك الحين أثراً من هذا التفكير وقرائن تدل عليه ، أو قولوا ان شئتم أن تستبدلوا بكلمة التفكير كلمة الخرى ، انكم واجدون فيه آثاراً وقرائن تدل على تلك الأحلام التي عبر "ت عنها منذ قلل حين تحدثت عما هو مشترك ببنا وبين الشعوب الأوروبة ، حتى فيما يتعلق بسياسة حكومتنا ؟ اذ ما الذي فعلته روميا في مضمار السياسة خلال هذين القرئين ؟ أليس واضحاً أنها خدمت مصالح أوروبا أكثر مما خدمت مصالحها الحاصة ؟ لا أظن أن مردٌّ ذلك الى جهل رجال الساسة عندنا • لا • ان شعوب أوروبا لا تدرى كم هي عزيزة في قلوبنا ، غالبة في نفوسنا ! انبي لعلى يقين بأن الروس في المستقبل ، أعنى الروس الذين سيخلفونسا سموف يدركون جميعاً ـ ولا أستثني منهم أحداً _ أن انتماء الفرد الى الشعب الروسى ، أى أن يكون الفرد روسياً . حقيقيًا ، انما معناه أن يقوم بمصالحة ــ هي في هذه المرة مصالحة نهائية ــ بين التناقضات الأوروبية ، وأن يبِّين للحنين الى أوروبا كيف أن هذا الحنين يمكن أن يرتوى من نفسنا الروسية التواقة الى الشمول الإنساني والى الوحدة بين البشر ؟ وأن يجعل جميع اخوتنا في العالم ينضمون الينا بالحب حتى لقد تكون روسيا هي التي تنطق بالقول الفصل في الاتساق الشامل والانسمجام الكبير والاتفاق النهائى الأخوى بين جميع الشعوب تحت لواء السبح • انى لأعلم حق العلم أن كلماتي هذه لابد أن تبدو شديدة الحماسة كبيرة الغلو وأن تبدو أوهاماً يتعلق بها الحال • لا ضير • لست نادماً على أنني قلتها • لقد كان يبحب أن ثقال ، في هذا الأوان خاصة ، في هذه الساعة الحللة عندنا ، هذه الساعة التي تحتفل فيها بذكرى شاعرنا العظيم الذي جستَّد هو نفسه هذه الفكرة وحَّققها في

فنه • ثم انني لا أعلن هذا الرأى أول مسرة • ان هـذا الرأى ليس بجديد • ولكن الشيء الخطمير هو أن يظن بما أقول الغمرور • فاذا بمعترض يعترض : « ماذا ؟ أيكون هذا قدر وطننــا الجلف البائس ؟ أنكون نحن الذمن هأنا القدر ببن سيائر الاسيانية لأن تنطق بالقول الجديد ؟ * • أَى غرابة في هذا ؟ أأنا أتكلم عن مجد اقتصادى ، عن مجمد السيف أو العلوم ؟ لا ! فانما أنا أتكلم عن الأخوة بين البشر ، فأقول ان القلب الروسي ربما كان هو المهيئ أكثر من سسائر الشعوب لأن يحقق الوحدة الشــــاملة الأخوية بين جميع البشر • وقد استقيت علامات ذلك من تاريخنها ، ورأيتهها في نبغاتنا ، وشهدتها في عبقرية بوشكين الفنية • لا يضيرنا أن أرضنا فقيرة باثسة • ان هذه الأرض الفقيرة قد ه طاف بها المسيح وباركها في صورة قن من الأقنان ، • فلماذا تستبعدون أن تنطوى تفوسنا نحن على آخر كلمة قالها المسيح ؟ ألم يولد هو نفسه في مذود ؟ أعود فأقول : اننا على الأقل نستطيع منذ الآن أن نطلع على العالم بشماعرنا بوشكين ، وبالروح العالمية الشماملة التي عبَّر عنها ، وبعبريته التي تتصف بأنها انسانية كاملة • لقد استطاع بوشكين أن يضم في نفسه العبقريات الأجنبية الأخرى كأنها من ذوى قرباه • لقد برهن في الفن ، أو في خلقه الفني على الأقل ، برهاناً لا سسبيل الى جحوده نم على توق الروح الروسية الى العالمية الشاملة ، وذلك وحده دليل كبير ، اذا كان رأينــا وهماً ، فاننــا نقع عند بوشكين على ما يصلح أساساً وقاعدة لهذا الوهم يقوم عليها وطبداً راســـخاً • لو أن بوشكين عاش عمـراً أطول ، فلربعا كشف عن جوانب خالدة واثمــة من النفس الروسية كان اخوتنــا الأوروبيون سيفهمونها فتجذبهم الينا أكثر مما هم منجذبون البنا الآن • لعله كان سيستطيع ، لو عاش عمراً أطول ، أن يشرح لهم أشواقنا الحقيقية ، ولعلهم كانوا سيدركون عندئذ كمن نحن ، فيكفون عن النظر الينا بالريبة والاحتقار اللذين لا يزالان يظهرونهما لنا • لو عاش بوشكين عمراً أطول ، فلربما قل ما يقوم بيننا وبينهم الآن من سوء التفاهم ، وما ينشب بينا وبينهم من مشاجرات • ولكن الله أراد غير ذلك • فمات بوشكين وهو في عنفوان تفتح قواه ، ولا شك أنه حمل معه الى قبره سرا كبيرا • فهذا السر هو ما يجب علينا منذ الان أن نحاول النفاذ اليه بعد غيابه عنا •

الفهرسس

الموضوع							h	صفحة
المساهسة ١٠-								٥
قصص								
● بوبوك ٠٠ ٠٠ ٠٠				.,	• •			144
• الطفل عند يســوع في	عيد	اليلاد	٠.				• •	011
🐞 الفلاح ماراي								014
• عجوز تجاوز عمرها مائة	سئة						••	014
● العذبة	• •		• •					011
🕳 حلم رجل مضمحك								4.4
🕳 خطاب عن بمشکون								74 **

الأعمال الأدنية الكاملة

المجسلدالثامسن الحريمة والعقبابءاء المجادالتاسع الحديمة والعصاب ١٠-المجملدالعماشس الائــــــــله ١٠ المجلدالحادي عشي المجلدالشانيعشر الشاطسن ١٠ للجلدالثالثعشر الشياطيين -١-المجسلدالوابع عشس الساهيق ءاء المجلداكنامسعشر المسراهسق ءاء قصيصص الجلدالسادسعشر الاف د المانوف ا المجلدالسابععشر الاخمة كارامانون ماء المجلدالثامن عشس الاخبوة كاراميازونب ٢٠٠

الجسلدالأوفسس الفقيراء الجادالشاني سيتوتشكا شزف الونسا الليساني البسيضاء بروخسارة شسين الجسسارة المهُــرج السارق الشريف البط-ل الصغير فتصدة في تستع رسائل مثجموة عيداآسيلاد والمزواج زوجة أخر، ورُجِه ل تحت السور للجلدالثالث قربة ستبانتشكوفووسكانها حبلمالعيثم للجسلدالسرابع مسذلون مهانون الجلدالخامس ذكريات من منزل الأموات المجسلدالسادس ف نسبوي قصدة اليسعة ذكربات شتاءعن مشاعرميف التسستاح المجسلدالسسابع السروج الأسدي

حوستويفسكي الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويقسكي عداساء وافهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرك فيه إلاكالبا اجتاعيا يدافع عن "الفقراة وللذلين المبانين "فأذا عالج مشكلات ما تنعنك تزداد عقا أخذ بعضهم يشهر به ويصهفه بأنه موهبة مرييهة "ومن النقاد من لعريد رك أن الواقعية الخيالية "التي يمكن أن توصف بها أعال دوستويقسكي إنما تسبرا عمق أغوار النفس الإبنسانية ، وأن دوستويقسكي كان رائ يئا النفس الإبنسانية ، وأن دوستويقسكي كان رائ يئا وآدلس ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، وأدلس ، وأنه نرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر، في كانفس..."